دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية



ليو تولستوي

الحرب والسلم

ألياذه العصور الحديثة

المجلد

٣

نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نخبة من اسرة
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية
استناداً الى التراجم الفرنسية والأنكليزية
ثم روجع النص الأخير على الاصل الروسي

سلسلة عيون الأدب العالمي
٢٠

الكتاب الثالث

الجزء الأول

الفصل الأوّل

تحديد المسؤولية

• في الأشهر الأخيرة من عام ١٨١١ حشدت أوربا وأعدت قوات عظيمة . وفي عام ١٨١٢ ، وُجهت هذه القوات وتعدادها الملايين من الرجال بما في ذلك رجال النقل والتموين ، من الغرب إلى الشرق نحو الحدود الروسية حيث كانت تتجمع بالمثل القوات الروسية منذ عام ١٨١١ . وفي الثاني عشر من حزيران ، إجتازت جيوش أوربا الغربية الحدود وبدأت الحرب ، أي أنه وقع حدث مخالف للعقل ، مخالف لكل طبيعة الانسان . ولقد ارتكبت هذه الملايين من الرجال بعضها في حق بعض عدداً كبيراً من الكبائر والمخادعات والخيانات والسرقات وترويج النقد الزائف والنهب والحرائق والقتل تعجز وثائق كل محاكم العالم عن تقديم أمثلة مماثلة خلال قرون ، كل هذا دون ان يعتبر فاعلو هذه الرذائل خلال تلك الحقبة من الزمن أنها جرائم بشعة .

ما الذي سبب هذا الحدث الأعجوبي ؟ وماذا كانت أسبابه ؟ ان المؤرخين يظهرون بتأكيد خالص أنها اهانات الدوق اولدنبورج وخرق الحصار

البري[1] ، وطمع نابليون وعنـاد الكسندر وأخطاء الدبلوماسية الخ .. أي أنه لو كان الأمر كذلك كان يكفي لتفادي الحرب ، ان يجتهد ميترنيخ[2] أو رومیانتسيف[3] أو تاليران[4] بين عشية وضحاهـا فيحرر مخابرة سياسية بارعة أو أن يكتب نابليون الى الكسندر بكل بساطة : « سيدي أخي ، انني أوافق على اعادة الدوقية للدوق دولدنبورج[5] . »

---

(١) الحصار البري Blocus Continental ، مجموعة تدابير اتفق عليها في برلين يوم ٢١ تشرين الثاني عام ١٨٠٦ من جانب نابوليون الأول ليغلق في وجه التجارة البريطانية كل مرافيء القارة ويهدم بذلك بحرية بريطانيا . ولقد سببت هـذه التدابير اضراراً كثيرة لبريطانيا لكن تنفيذها أدى بالتالي الى اتفاق أوربا ضد نابليون .

(٢) كليمانت ونسسلاس ، أمير ميترنيخ وينبورج ، رجل دولة نمسوي ولد في كوبلنتز عام ١٧٧٣ وتوفي عام ١٨٥٩ ، دبر زواج ماري لويز بنابوليون الأول ثم أضحى بعـد تشكيل « الحلف المقدس » الحكم في أوربا وعمل جاهداً للمحافظة على السلطه المطلقة (ابولوتيسم) .

(٣) روميانتسيف ، سياسي سبق ذكره .

(٤) شارل موريس دوتاليران بيريكور ، أمير بنيفان ، سياسي فرنسي ولد في باريز عام ١٧٥٤ وتوفي عام ١٨٣٨ . كان أسقف اوتون من قبل ثم رئيساً للجمعية الوطنية عام ١٧٩٠ فوزير للعلاقات الخارجية تحت حكومة « الادارة » ثم حكومة « القناصل » ثم المملكة ولعب دوراً هاماً لامعاً في مؤتمر فينيا ، وفي لندن حيث سماه لويس فيليب سفيراً . كان سياسياً غير شريف ولكن مليئاً بالذكاء والامكانيات .

(٥) اولدنبورج ـ بلد ألماني عضو في الرايخ الألمـــاني كانت فيما مضى غراندوقية ثم أضحت جمهورية عام ١٩١٩ م .

يُلاحظ أن هذه كانت وجهة نظر المعاصرين ويُلاحظ كذلك ان نابليون كان يعزو منشأ الوقيعة الى دسائس بريطانيا كما أعلن بذلك بكل صراحة في سانت هيلين[1] . ويلاحظ ان أعضاء مجلس النواب البريطاني ألقوا المسؤولية على طمع الامبراطور . فالدوق دولنبورج لابد وأن يستشهد بالقسوة التي كان ضحية لها وبالمفاوضين والحصار الذي كان يجر الخراب على أوربا والعسكريين القدماء وضرورة تقديم ما يشغلهم والمشرعين وسرعة إقامة «المبادىء الطيبة» والدبلوماسيين وواقع أن التحالف المعقود عام ١٨٠٩ بين النمسا وروسيا لم يُخف بمهارة كافية على نابوليون بسبب رداءة تدبيج المذكرة (ميوراندوم) رقم ١٧٨ . يُلاحظ أن المعاصرين وان استعانوا بكل هذه الأسباب وبعدد آخر تبعاً للتباين المتناهي في وجهات النظر ، فانها تبدو لنا ، نحن الأعقاب الذين نقدر هذا الحـدث الهائل على كل رحابته ونتعمق في معناه البسيط بقدر ماهو رهيب ، أقل كفاية . ان يكون الملايين من المسيحيين قد تألموا أو تذابحوا لأن نابوليون كان طماعاً والكسندر عنيداً وسياسة بريطانيا ملتوية والدوق دولدنبورج مهاناً ، أمرٌ يستغلق علينا فهمه . اننا لانعقل ان هناك رباطاً يمكن ان يجمع بين هذه الظروف وبين جرائم القتل أو أعمال العنف ولا نرى كيف ان الاهانة الموجهة الى دوق قـدرت على نقل الالوف من الرجال من جانب أوربا الى جانبها الآخر ليقتلوا وينهبوا سكان أقاليم سمولنسك[2] وموسكو أو ليُقتلوا من قبلهم .

ان الأسباب في نظرنا ، نحن الذين نمثل الاجيال المتعاقبة ، نحن الذين لسنا مؤرخين والذين لانتيه في مضلة الاستقصاءات بل نستطيع ان نتفحص هـــذا

(١) جزيرة سانت هيلين (القديسة هيلانة) الجزيرة التي نفي اليها نابوليون بونابرت في نهاية حكمه ومات فيها .

(٢) سمولنسك: مدينة روسية على الدينيبر – نهر – سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة انتصر الفرنسيون فيها عام ١٨١٢ .

الحدث بحس جلي ، اكثر من ان تحصى ، وكلما ازددنا تعمقاً في البحث عن هذه الأسباب ، كلما تبدت لنا اكثر عدداً ، وكل سبب نأخذه على حده، وكل مجموعة من الاسباب ، تبـدو لنا بآن واحد ، عادلة في نفسها خاطئة بسبب تفاهتهـا ومقارنتها بجسامة الحدث حتى لتعجز عن الاتيان بدون تدخل الاسباب المطابقة الاخرى كلهـــا . فاذا كنا مثلاً نستشهد برفض نابوليون ايقاف قواته وراء الفيستول[1] واعادة دوقية اولدنبورج ، فلماذا لانستعرض كذلك رغبة أي كان من العرفاء الفرنسيين في التطوع من جديد أو رفضه ؟ لنفرض جدلاً ان هذا الرجل ومن ورائه الوف آخرون من العرفاء ، رفضوا ان يعودوا الى الخدمة ، فان جيش نابوليون كان سيمنى بنقص والحرب ما كانت لتقع .

لو ان نابوليون لم يعتبر الانطواء وراء الفيستول مذلاً لما تقدم بقواته ولما وقعت الحرب . لكن لو أن رقباءه كلهم رفضوا الخدمة ، لما وقعت الحرب كذلك . كما انه لولا دسائس الانجليز ووجود الدوق دولدنبورج ، ولو ان الكسندر لم يكن سريع الغضب ولم تكن لروسيا حكومة اوتوقراطية . ولو لم تقع الثورة الفرنسية وحكومات « الادارة[2] » و « المملكة[3] » وأي شيء

(١) فيستول – بالألمانية ويخسل بالبولونية ويسلا – نهر بولوني يروي جراكوفيا وفارسوفيا ويتلقى مياه بيليكا وناروبوج ثم يصب في دانتزيج – البلطيق – على شكل دلتا . طوله ١٠٧٠ كم .

(٢) الادارة – ديركتوا – اسم اعطي للحكومة التي أدارت شؤون فرنسا ابتداء من ٢٧ تشرين الاول ١٧٩٥ (٥ بروميير عام ٤ للثورة) وقلبها الجنرال بونابرت في ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ (١٨ بروميير عام ٨ للثورة) وكان «المديريون» يحكمون بمساعدة مجلس الاعيان ومجلس الخمسمائة .

(٣) المملكة – أمبير أسسها بونابرت الأول عام ١٨٠٤ وتفككت عام ١٨١٥ فاعادها نابوليون الثالث عام ١٨٥٢ لتتفكك من جديد في ٤ ايلول ١٨٧٠ .

مما أدى الى تلك الثورة الخ .. فان العدوان كان مستحيل الوقوع . ما كان ليحدث شيء لولا سبب من هذه الاسباب . فالتقاؤها ومليارات اخرى مشابهة وضع النار في البارود . لايمكن استبعاد أي سبب ولقد تأدى الحدث لأنه كان لا بد وان يكون هكذا فحسب . كان يجب ان يمضي الملايون من الرجال فاقدين التعقل مطلقين كل عاطفة انسانية ، ومن الغرب الى الشرق ليقتلوا أشباههم كما انحدرت جماهير من الرجال قبل بضعة قرون من الشرق الى الغرب ليقتلوا أمثالهم هناك .

وفي الواقع ان أفعال نابوليون والكسندر اللذين كان كلامهما وحده يستطيع في الظاهر اثارة الحدث او حبسه ، كانت تساوي بتفاهة وزنها قيمة افعال الجندي البسيط الذي كان القدر او التجنيد يرغمه على خوض الحرب . ما كان يمكن ان تكون غير ذلك لانه لكي تتم مشيئة نابوليون او الكسندر المحكمين الظاهرين بالمقدر ، كان لابد من مساهمة الملابسات التي لاتحصى طالما ان الأمر ما كان ليقع لو استبعدت احداها . كان لابد لهذه الملايين من الرجال الذين كانت بين أيديهم القوة الفاعلة بوصفهم جنود القتال ونقل أرزاق المدافع ان يوافقوا جميعاً على امضاء مشيئة هذين الشخصين الضعيفين المنعزلين وان يكونوا مسترشدين بعدد لايحصى من الاسباب المختلفة المركبة .

لابد من اللجوء الى مذهب الجبرية أزاء بعض الظواهر التاريخية العارية عن المعنى او التي يفوتنا معناها . والواقع ان عقلنا كلما اجتهد في تفسيرها كلما بدت لنا منافية للصواب متعذرة الفهم .

ان كل رجل يعيش من أجل نفسه ويستعمل حريته لبلوغ أهداف خاصة ويشعر بكل كيانه انه قادر او عاجز على القيام بهذا أو ذاك من الافعال لكنه ما أن يعمل ، حتى يصبح عمله الذي انجزه في لحظة ما من الديمومة لارجعة فيه وملكاً منذ ذلك الحين للتاريخ حيث لايعود حراً بل خاضعاً للقدر .

ان للحياة البشرية وجهين . فهناك من الجانب الاول الحياة الشخصية التي تبلغ الحرية فيها مبلغ ما للغايات من تجرد ، ومن الجانب الآخر الحياة البدائية الجماعية التي يجب على الانسان فيها ان يخضع حتماً للقوانين المعينة له .

والانسان يعيش عامداً من اجل نفسه . لكنه يساهم دون عمد في اهداف الانسانية جمعاء التاريخية . والفعل المنجزُ لامرد له وباتحاده مع ملايين الافعال الاخرى المتممة من قبل الغير ، يأخذ قيمة تاريخية . وكلما ارتفعت مرتبة الرجل على السلم الاجتماعي ، كلما كانت الشخصيات التي يعقد معها العلاقات ارفع شأناً وكانت سلطته على الغير أوسع مدى وكلٌ من أعماله مرتدياً طابعاً واضحاً من الضرورة والاصطفاء .

« ان قلوب الملوك في يد الله[1] »

والملك عبد التاريخ .

والتاريخ ، أي ان حياة الانسانية العامة الجماعية غير العمدية تستخدم كل دقيقة من حياة الملوك لانجاز مشاريعها .

وعلى الرغم من ان نابوليون عام ١٨١٢ كان يعتقد أكثر من اي وقت مضى أن عليه وحده يتوقف « اهراق دم شعوبه او عدم اهراقه » كما قال له الكسندر في رسالته الاخيرة التي كتبها اليه ، فانه كان أكثر من أي وقت مضى خاضعاً لهذه القوانين الجبرية التي كان تلزمه بتنفيذ عمل التاريخ العام الذي كان يجب حتماً ان ينفذ وهي تترك لهم التوهم بأنه انما يعمل وفقاً لرغبته الشخصية .

تحرك رجال الغرب نحو رجال الشرق كي يقتل بعضهم بعضاً . وتبعاً لقانون توافق الاسباب ، كانت الوف الاسباب الصغرى متفقة مع هذه الحركة : خرق

(١) اورد المترجم الى الفرنسية ملاحظة حول هـــذه الجملة : « ان النصح الصحيح هو : ان قلب الملك مجرى ماء في يد ياهوه . » الامثال ١××١، - ترجمة كرامبون - .

الحصار البري ، اهانات الدوق دولدنبورج ، تسير الجيوش في بروسيا الذي كان نابوليون يفكر في الشروع فيه بغية تأمين سلام مسلح فحسب ، غرام امبراطور الفرنسيين المتأصل بالحرب متفقاً مع استعداد خاص من جانب شعبه الجاذبية المباشرة للتجهيزات الجسيمة والنفقات التي اوجبتها ، حاجة الحصول على فوائد لتغطية هذه النفقات ، استقبالات دريسد[1] المسكرة ، المفاوضات الدبلوماسية التي كان المعاصرون يظنون انها تجري برغبة مخلصة للحصول على السلم والتي كانت في حقيقتها تسيء الى أنانية هذا وذاك من الجانبين وملايين من الاسباب الاخرى كانت تساهم في اتمام الحدث .

تسقط تفاحة عندما تكون ناضجة فلماذا تسقط ؟ هل يجذبها ثقلها الى الارض ام ان طرفها قد يبس ام ان الشمس حمستها ام هزتها الريح فأسقطتها ؟ هل تستجيب بكل بساطة لنداء الغلام الخفي الذي اشتهاها ؟

لاشيء من كل هذا هو السبب . ليس هنا الا توافق اسباب مواتية لانجاز اية تظاهرة أولية في الحياة العضوية . فعالم النبات يقول ان التفاحة تسقط نتيجة تملل النسيج النووي او شيء آخر من هذا النوع . والفتى يزعم ان التفاحة سقطت لانه يشتهيها فتوجه بصلاة لهذه الغاية . وكلاهما يكون على حق . هذا يؤكد ان نابوليون جاء الى موسكو لانه كان يريد ذلك وانه وجد فيها خسرانه لأن الكسندر كان قد اعتزم على إلحاق الخسارة به . وذاك يؤكد ان جبلاً

(١) دريسد ، بالألمانية درسدن ، مدينة المانية عاصمة الساكس على نهر ايلب عدد سكانها ٦٣٠,٢٢٠ نسمة انتصر فيها نابوليون على الحلفاء عام ١٨١٣ . شهيرة اليوم بانتاج الآلات الميكانيكية والدقيقة والنسيج والخزف .

زنته الوف الاطنان قوِّض من قاعدته ، فانهار نتيجة لضربة معول أخيرة من يد آخر حفار . كلاهما مخطىء ومصيب معاً . ان الرجال العظام المزعومين ليسوا

في الوقائع التاريخية الا عناوين لايربطها بالاحداث أي نوع من الصلات رغم انها تضفي اسماءها على تلك الاحداث .

وعلى الرغم من أن تصرفاتهما بدت لهما ناجمة عن محض اختيارهما ، فليس بينهما واحد مخيراً بالمعنى التاريخي للكلمة بل كلًا منهما مرتبط بسير التاريخ العام ومعين منذ الازل .

* * *

الفَصلُ الثّاني

اول الغيث

في التاسع والعشرين من أيار ، غـادر نابليون دريسد التي أمضى فيها ثلاثة أسابيع محاطاً ببطانة من الامراء و« الدوقات » والملوك بل ومعه حتى امبراطور لقد عامل قبل سفره الامبراطور والملوك والامراء الذين خدموه باخلاص بمزيد من الاكرام وعدّل الامراء والملوك الذين كان مستاء منهم وقدم لامبراطورة النمسا لآلىء وماسات أخذها من صندوقه الخاصة أي انها جواهر مصادرة من ملوك آخرين . وبعد ان ضم بين ذراعيه مـاري لويز بحنان ، تركها كما يؤكد مؤرخه ، محزونة جداً لهذا الرحيل الذي على ما يبدو لم تكن لماري لويز القوة على احتماله وهي التي تعتبر وكأنها زوجته رغم ان زوجته الشرعية موجودة في باريز . وعلى الرغم من ان الدبلوماسيين ظلوا مؤمنين باقامة السلم وعملوا بنشاط لهذه الغاية ، وعلى الرغم من ان نابليون كتب لألكسندر رسالة بخط يده دعاه فيها « بسيدي أخي » وأكد له فيها انه لايريـد الحرب ولن ينفك عن تقديره ومحبته ، فان الامبراطور ما كان ذاهبـاً الا للألتحاق بالجيش فيعطي في كل مرحلة أوامر جديدة ترمي الى الاسراع بالسير نحو الشرق . كان في عربة مقطورة الى ست جياد يحيط به التابعون ومساعدو الميدان والحرس ، يسير في طريق

بوزن[1] ، ثورن[2] ، دانتزيج[3] كونيجزبيرج[4] الكبرى وفي كل مدينة من هذه المدن يستقبله الوف من الناس بحماس ممتزج بالرعب .

كان الجيش يسير نحو الشرق كما ان الجيـاد الستة التي تجر مركبته والتي كانت تبدل في كل مرحلة ، كانت تحمل نابليون نحو الجيش . لحق به في العاشر من حزيران وأمضى الليل في صلب غابة فيلكوفيسزكي في املاك « كونت » بولوني حيث أعد له جناح خاص لحلوله .

وفي صبيحة اليوم التالي ، تجاوز الجيش فبلغ نييمن [5] في عربة حيث راح يتفحص الضفاف وهو في الزي البولوني بحثاً عن مكان مناسب لعبور القطعات .

---

(١) بوزن وبالبولونية بوزاني ، مدينة بولونية عاصمة بوزنانيا على نهر وارتا سكانها ٢٥٠,٠٠٠ نسمة شهيرة بالمصاهر والمنتجات الكيميائيـــة , موطن هندنبورج .

(٢) ثورن وبالبولونية تورونيْ ، مدينة بولونية عاصمـة بوميريليا على نهر فيستول سكانها ٤٠,٠٠٠ نسمة .

(٣) دانتزيج أو دانزيج ، مدينـة حرة في أوربا الوسطى من ١٩١٩ حتى أول أيلول ١٩٣٩ وهو تاريخ الحاقها بالرايخ الألمـاني سكانها ٤١٥,٠٠٠ نسمة احتلها الافرنسيون عام ١٨٠٧ واعيدت الى بولونيا بعد هزيمة المانيا عام ١٩٤٥ موطن فارنهايت وشوبنهاور .

(٤) كونيجزبيرج ـ اليوم : كاليننجراد ، مدينة ليتوانية ـ بروسيا الشرقية سكانها ٣٧٢,٠٠٠ نسمة ، مرفـأ على بريجل . موطن « كانت » و « بيتوبية » احتلها سولت عام ١٨٠٧ .

(٥) نييمن : نهر في روتانيا البيضاء وليتوانيـا يروي جرودنو وكوفنو وتيلسيت ويصب في البلطيق طوله ٨٣٠ كم .

ولما رآى القوقازيين القائمين على الشاطىء الآخر والاقفار اللا متناهية التي تقوم في وسطها موسكو المدينة المقدسة ، عاصمة هذه المملكة التي تذكر بمملكة يأجوج ومأجوج التي احتلها الاسكندر المقدوني ، أمر نابليون بالسير الى الامام وسط الدهشة العامة والاستخفاف بكل العبارات الستراتيجيه أو السياسية . ومنذ صبيحة اليوم التالي ، اجتازت قواته النيمن .

وفي الثاني عشر ، خرج مبكراً من خيمته التي نصبت ذلك اليوم عند منحدر من الضفة اليسرى ، وراح يفحص بمنظاره تـدفق جيوشه التي كانت تخرج من غابة ويلكوفيسزكي لتنتشر على الجسور الثلاثة المقامة على النيمن . وكان الجنود عارفين بوجود الامبراطور ، يبحثون عنه بانظارهم فاذا ما شاهدوا على المرتفع أمام خيمته متنحياً عن حاشيته ، شبحه وهو في « الرودنجوت » وعلى رأسه القبعة الصغيرة ، القوا في الهواء بقلانسهم الوبرة وهم يصيحون « عاش الامبراطور ! » وظلت القطعات تتدفق بلا انقطاع من الغابـة التي كانت تخفيها وتمر منقسمة عن طريق الجسور الثلاثة الى الضفة الاخرى .

— سوف نصل هذه المرة . آه ! عندما يتدخل بنفسه يحمى الوطيس ... باسم الله ! .. ها هو ذا .. يحيا الامبراطور ! .. ها نحن أولاء في اقفار آسيا ! بلد رديء رغم كل شيء . — وداعاً يا بوشيـه ، سأحتفظ لك بأجمل قصر في موسكو . — الى اللقاء وحظاً سعيداً ! ..

— هل رأيته ، الامبراطور ؟ يحيا الامبراطور .. طور ! - اذا جعلوا مني حاكماً للهند سأجعلك ياجير اوزيراً لكشمير ، هذا مقرر . — يعيش الامبراطور ! يعيش ! يعيش ! يعيش ! — ياللقوقازيين الانـــذال ، كيف يفرون ! يحيا الامبراطور ! ها هو ذا ! هل تراه ! لقد رأيته مرتين كما أراك . العريف الصغير ... لقد رأيته يعطي الصليب الى واحد من الكهول .. — يحيا الامبراطور ! ..

تلك كانت العبارات التي يتبادلها الشبان والكهول ، أشخاص من كل نوع

ومن كل المراكز الاجتماعية . وكانت الوجوه كلها تعكس فرحة واحدة لرؤية بدء الحملة المنتظرة بفارغ الصبر وحماساً واحداً وتفانياً واحداً للرجل ذي الرودنجوت الرمادي الذي كان يُرى في الأعلى فوق المنحدر .

وفي الثالث عشر ، جاؤا الى نابليون بحصان عربي أصيل فامتطاه وانتهى الى واحد من جسور النييمن هرباً وقد أصمته خلال الطريق الهتافات بحياته التي احتملها لأنه ما كان يستطيع ان يحرم على جنوده الاعراب عن محبتهم له بهذا الشكل . وكانت هذه الصيحات المسترسلة توقره . كانت تحرفه عن المشاغل ذات الصبغة العسكرية التي كان فريسة لها منذ ان لحق بالجيش . اجتاز النهر على واحد من الجسور المتهزهزة وانحرف فجأة الى اليسار ثم جرى على حصانه في طريق كوفنو [1] يسبقه قناصة من الحرس الراكب يستخفهم الفرح كانوا يشقون له طريقاً خلال القطعات . ولما وصل الى شاطىء فيليا العريض ، توقف قرب فيلق من الفرسان البولونيين الذين كانوا نازلين هناك .

هتف البولونيون بدورهم :

ـ يحيا !

وفي غمرة حماسهم ، أفسدوا نظام الصف وتدافع بعضهم بعضاً ليروه بشكل أفضل .

تأمل نابليون النهر ثم ترجل عن حصانه وجلس على لوح خشبي على جانب الشاطىء . ودون ان ينبث بكلمة ، حملوا له منظاره باشارة منه فأسنده على كتف واحد من اتباعه الذي هرع تملأه الغبطة وراح يفحص الشاطىء المقابل . استغرق في

(١) كوفنو بالروسية واسمها الحالي كاوناس ، عاصمة ليتوانيا حتى عام ١٩٤١ على نهر ميميل (نييمن) سكانها ١٥٢،٤٠٠ نسمة بقيادة نابليون بونابارت .

دراسة الخريطة المنشورة على جذوع شجرة . ودون ان يرفع رأسه ، نطق ببضع كلمات فحث اثنان من مساعدي الميدان جواديهما نحو الفرسان البولونيين . ولما وصل أحدهما اليهم ، سرت همهمة بين الصفوف :

— ماذا قال ؟ ماذا قال ؟

كان الأمر ينص على البحث عن مخاضة وعبور النهر . سأل زعيم الفرسان ، — وكان رجلاً مسنا أنيق اللباس وهو مضرج الوجه يتمتم من التأثر — المساعدَ عما اذا كان يُسمح له بعبور النهر سباحة دون التفكير في المخاضة . ولقد التمس بذعر ظاهر خشيـة ان يرفض ملتمسه ، شأن الصبي الذي يسأل الاذن بامتطاء صهوة جواد ، ان يُسمح له بتنفيذ هذه المأثرة تحت بصر الامبراطور . فاجاب المساعد بان هذا لن يكون ولا ريب مستاء من هذه الغيرة المفرطة .

وفي الحـال ، هز الضابط المسن ذو الشاربين الطويلين سيفه وهتف ملتمع العينين مشرق الأسارير : فيفا ! يحيـا — ثم أعطى الأمر لجنوده ان يتبعوه وهمز حصانه واندفع نحو النهر . ولما جمح الحصان ، فقد شد عليه بغضب وغاص في الماء متجهاً نحو موضع يكون التيار فيه قوياً وتبعه مئـات من الفرسان . ولكن مـا ان بلغوا منتصف النهر حتى استبد بهم البرد والخوف فتعلق بعضهم ببعض وهم حيارى . غرقت بعض الجياد وبعض الرجال كذلك وحاول آخرون ان يسبحوا وهم متشبثون بعضهم بسروج الجياد وبعضهم بأعرافها . جاهدوا لبلوغ الشاطىء الآخر رغم ان هناك مخاضة على بعد خمسمائة متر من المكان . لكنهم كانوا فخورين بأن يسبحوا وان يغرقوا تحت أبصار ذلك الرجل الجالس على جذع شجرة ، الذي لم يكن ينظر حتى ما كانوا يفعلون . ولما عاد المساعد العسكري ، انتهز فرصة مواتية ليلفت انتباه الامبراطور الى تفاني البولونيين في سبيل شخصه

وحينئذ نهض الرجل ذو « الرودنجوت » الرمادي واستدعى بيرتييه [1] وراح يتنزه معه على طول النهر وهو يعطيه أوامره ويلقي نظرات ساهمة مستاءة على اولئك الفرسان الذين كانوا بغرقهم ، يحولون انتباهه عن الاعمال الجدية .

كان قانعاً منـذ زمن طويل ان وجوده في كل أركان العالم ، ابتداء من أفريقيا وحتى اقفار موسكوفا ، يكهرب كل الرجال ويثير فيهم جنون التضحية لذلك فقد استحضر جواده وعاد الى مخيمه .

وعلى الرغم من القوارب التي أرسلت لانقاذهم ، فقد غرق حوالي أربعون فارساً وارتد معظمهم الى الشاطىء . اما الزعيم وعدد من الرجال ، فقد بلغوا بصعوبة الشاطىء الآخر . وما ان ظهروا هناك بثيابهم المبللة بالماء حتى هتفوا فيفا! وهم ينظرون الى المكان الذي كان فيـــه نابوليون والذي لم يعد فيه ، شاعرين بالسعادة .

وفي المساء ، بين قرارين ، الاول يهدف الى سرعة استقدام نقد زائف معد لادخاله الى روسيا ، والثاني اعدام سكسوني عثر معـه على رسالة تحوي معلومات عن حركات الجيش الفرنسي ، اتخذ الامبراطور قراراً ثالثاً ينص على تسمية الزعيم البولوني الذي اندفع في النهر دون اية ضرورة ملحة ، عضواً في جوقة الشرف التي كان هو رئيسها .

ان الذين يريدون الموت يتخلون عن تعقلهم أولاً .

---

(١) — بيرتييه : لويس الكسندر بيرتيه ، اميرواجرام ، أمير نوشاليه ، ماريشال فرنساولد في فرساي عام ١٧٥٣ كان الماجورجنرال في الجيش الكبير (جيش نابوليون الذي غزا روسيـا) كان على حظوة كبيرة لدى نابوليون الاول بيد انـــه وقع بنفسه عام ١٨١٤ وثيقة انحطاطه . قتل نفسه أو قتل في بامبيرج عام ١٨١٥ .

الفصل الثالث

النبأ

في تلك الاثناء ، كان امبراطور روسيا في فيلنا[1] منذ اكثر من شهر حيث كان يتفقد جيوشه ويشاهد مناورات عسكرية . كان الناس كلهم يتوقعون الحرب ولقد غادر الامبراطور بيترسبورج عامداً ليعد العدة للحرب مع انة لم يكن هناك شيء بعد . لم تكن لديه خطة عامة للعمليات . ولقد عُرض عليه عدد منها ولكن دون ان يتبنى احداها . وكلما أطال الكسندر مقامه ازداد البلبال في اتخاذ مايجب اتخاذه . كان لكل جيش من الجيوش الثلاثة قائده الأعلى ولكن لم يكن هناك قائد أعلى وكان الامبراطور يرفض الاضطلاع بهذا المنصب الرفيع .

كان الوقت يمر في انتظارٍ غير مجد والسأم يزيد في اعاقة الاستعدادات يوماً بعد يوم وحاشية جلالته تبدو صارفة كل عنايتها الى تمضية وقته على أحسن وجه ونسيان خطر الحرب الوشيكة .

---

(١) فيلنا ، الاسم القديم لمدينة ويلنو اليوم على نهر فيليا ، سكانها ٢٠٧,٠٠٠ نسمة احتلتها بولونيا عام ١٩٢٠ لكن ليتوانيا طالبت بها باعتبارها عاصمتها السابقة فاعادها السوفياتيون اليها عام ١٩٣٩ .

وبعد عديد من الحفلات الراقصة والأعياد التي أقامها الاشراف البولونيون ورجال الحاشية والامبراطور نفسه ، وانت احـد المساعدين العسكريين من من الجنرالات البولونيين في شهر حزيران فكرة اقامة مأدبة عشاء وحفلةراقصة على شرف جلالته باسم كل زملائه . وقد قبلت هـذه الفكرة بحماس وابدى الامبراطور قبوله ففتح المساعدونالعسكريون الجنرالات حملة اكتتاب ووافقت التي كانت تتمتع بالتفاتة الكسندر الخاصة على ان تقوم بدور ربة البيت . ولما كان الكونت بينيجسن[1] الذي كانت املاكه واقعة قرب اقليم فيلنا قد وضع تحت تصرف المنظمين قصره في زاكرت ؛ فقد تقرر ان يتم العيدالذي يشمل على العشاء والحفلة الراقصة والنزهة على الماء والنيران الاصطناعية يوم الثالث عشر من حزيران .

فاليوم إذن الذي اعطى فيه نابوليون الأمر باجتياز النييمن والذي راحت طلائعه ترد القوقازيين فيه وتنتهك حرمة الحدود الروسية ، كان الكسندر يمضي السهرة عند الكونت بينيجسن مدعواً من قبل مساعديه العسكريين .

كان الاحتفال مرحاً رائعاً وقد أكد العارفون انهم لم يروا من قبل قط هذا العدد من النساء الجميلات مجتمعات . وكانت الكونتيس بيزوخوف التي تبعت الامبراطور الى فيلنا توافقها سيدات روسيات اخريات ، تكسف « بجمالها الروسي » المترف جمال البولونيات الأكثر رقة ولطفاً . ولقدلفتت اليهاالانظار وشرفها الامبراطور بمراقصتها .

وكان بوريس دروبتسكوي هناك أيضاً عزباً كما كان يقول لانه ترك زوجته

---

(1) بينيجسن : هو اوجوست دوبينيجسن جنرال روسي ولد في برونسويك عام ١٧٤٥ وتوفي عام ١٨٢٦ ، هزمه الامبراطور نابوليون بونابرت في إيلو ، وهي مدينة ليتوانية قرب كالينجراد عام ١٨٠٧ .

في موسكو . وعلى الرغم من انه لم يكن قط مساعداً عسكرياً جنرالاً ، فقد ساهم رغم ذلك بمبلغ كبير في الأكتتاب . كان حينذاك قد أضحى رجلاً غنياً متقدماً جداً في طريق المراتب والوظائف ، بعيـــداً عن البحث عمن يحميه ، يعامل أرفع معاصريه مكانة معاملة الند للند ، ولقد وجد هيلين في فيلنا وهو الذي فقد آثارها منذ بعض الوقت وكان الماضي منسياً . ولكن ، بما ان هيلين كان تتمتع بالتفاتة شخصية سامية وافضالها وكان موريس متزوجاً منـذ بعض الوقت ، فقد اصبحا لفورهما اصدقاء قدماء .

حوالي نصف الليل كان الرقص لايزال دائراً . ولما لم تجـد هيلين فارساً جديراً بمراقصتها ، فقـــد عرضت على بوريس ان ترقص « المازوركا » بصحبته فشكلا الزوج الثالث . وبينما كانا يتسامران حول معارفهما القدماء ، كان بوريس يلامس بنظرة لامبالية كتفي هيلين العاريتين الباهرتين البارزتين فوق مشد من شف داكن موشى بالذهب . ولكن دون ان يشعر أحد بل ولعله يشعر هو نفسه ، كانت تلك النظرة لاتنفك تتابع الامبراطور الذي كان موجوداً في ذلك البهو نفسه . ما كان الكسندر يرقص . كان واقفاً قرب الابواب ، يستوقف هذا تارة وذاك تارة اخرى وينعم عليه بتلك الكلمات اللطيفة التي كان وحده يحسن النطق بها .

لاحظ بوريس عند بدء المازوركا ، ان الجنرال المساعد العسكري بالاشيف وهو احد المقربين الى الامبراطور ، اقترب من سيدة وراح ينتظر - رغم آداب البروتوكول - ان يفرغ هذا من التحدث الى سيدة بولونية . استفسره الكسندر بالنظر ولما ادرك ان لابد من أسباب خطيرة أدت الى تجاوز تابعه ، خطا خطوة نحوه بعـد ان صرف السيدة باشارة من رأسه . وما كاد بالاشيف يدلي ببعض الكلمات حتى ارتسمت الدهشة العميقة على وجه الكسندر . امسك

بمساعده العسكري من ذراعه واجتاز البهو معه دون ان يعير الجموع التي كانت تتنحى له عن فسحة عريضة لمروره التفاتا .غير ان آرا كتشييف وحده ، الذي كان بادي الانفعال العميق ، خرج من بين الجموع وكأنه توقع ان يوجـــه اليه الكسندر الكلام ، بعد ان القى نظرة على وجه سيده ونخر بخفة بأنفه الاحمر . ادرك بوريس الذي لم يغب عنه هـذا التدبير ، ان اراكتشييف غيران من بالاشيف ، مستاء لان نبأ لابد وانه هام لم ينقل الى الامبراطور عن طريقه . لكن الامبراطور مر امامه دون ان يرمقه واقتاد بالاشيف الى الحديقة المنارة فاسند آرا كتشييف سيفه بيده والقى حوله نظرات غاضبة ثم تبعه على بعـــد عشرين خطوة .

ظل بوريس طيلة رقصة المازوركا مضطرب الخاطر لمعرفة النبأ الذي حمله بالاشيف وكيف يستطيع الاحاطة به قبل كل الناس . وفي اللحظة التي كان عليه ان ينتقي سيدة غمغم في اذن هيلين انه سيأخذ الكونتيس بوتوكا التي يظن انها خرجت الى الشرفة ، ثم اندفع بخطواته المنزلقة نحو باب الحديقة وتوقف لدى رؤيته الامبراطور وبالاشيف وهما عائدان الى البهو . وبسرعة كلية ، وكأنه لم يجد وقتاً للانحراف ، توقف بوريس وقفة محترمة الى جانب اطار الباب

كان الامبراطور ينهي محادثته مع بالاشيف بأنفعال الرجل الذي تلقى اهانة بالعبارات التالية :

– الدخول الى روسيا دون اعلان الحرب ! لن أعقد صلحاً طالما بقي فوق ارضي عدو واحد مسلح .

بدا لبوريس أن الامبراطور يتفوه بهذه الكلمات بلون من الرضاء : لقـد حلت له الصيغة التي أعطاها لفكرته . لكنه مع ذلك استاء لأن بعضهم سمع قوله فأضاف وهو يقطب حاجبيه :

– لا يجب ان يعلم احد شيئاً !

ادرك بوريس ان هذه الملاحظة موجهة اليه فخفض عينيه وأحنى رأسه . لكن الامبراطور في تلك اللحظة كان يدخل الى البهو حيث لبث قرابة نصف ساعة اخرى .

كان بوريس على هـذا النحو أول من علم بأن الفرنسيين اجتازوا النيمن فاستطاع بذلك ان يظهر لبعض الشخصيات العالية ان ما هو خاف على غيره معلوم لديه ، الأمر الذي زاده رفعة في نظر هؤلاء .

بدا هذا النبأ شديد الاذهال لانه جاء في غمار حفلة راقصة بعد شهر انتظار غير مجد . ولقدألهم السخط والغضب الامبراطور الصيغة التي أظهر رضاه عنها لانها كانت تستجيب تماماً لعواطفه والتي أصبحت فيما بعدذائعة الشهرة . وعندما عادمن الحفلة الراقصة في الساعة الثانية صباحاً ، ارسل يستدعي امين سره شيشكوف فأملى عليه امراً يومياً لقطعاته وكتاباً ملكياً الى المارشال الأمير سالتيكوف عنى فيه بأن تظهر الجملة العتيدة التي يؤكد فيها انه لن يعقد صلحاً طالما كان فرنسي واحد مسلح يطأ الارض الروسية .

وفي اليوم التالي ، استكتب الى نابوليون الرسالة التالية :

« سيدي اخي . لقد علمت امس انه رغم الأخلاص الذي حافظت به على تعهداتي حيال جلالتكم فان قطعاتكم قد اجتازت الحـدود الروسية . وتلقيت الآن من بيتر سبورج اشعاراً يعلن فيه الكونت لوريستون عطفاً على هـــذا الاعتداء ، ان جلالتكم اعتبرتم نفسكم في حالة حرب معي منذ ان طلب الامير كوراكين اوراق اعتماده . ان الاسباب التي بنى عليها الدوق دوباسانو[1] رفضه

(١) هوج بيرنار دوق دوباسانو : رجل دولة فرنسي ولد في ديجون عـام ١٧٦٣ وتوفي عـام ١٨٣٩ . امتاز بتفانيه في خدمة نابوليون بونابرت ثم اضحى امير فرنسا على عهد لويس فيليب .

اعادتها اليه ما كانت قط لتجعلني اتوقع ان هذا التصرف سيغدو ذريعة للاعتداء.
والواقع ان هذا السفير لم يكن قط مجازاً كما اعلن ذلك بنفسه ، وانني ما أُنهي
اليّ النبأ حتى أعلمته مبلغ استنكاري وأمرته بالبقاء في مركزه . فاذا كنتم
جلالتكم لاتنوون سفك دماء شعوبكم بسبب سوء تفاهم من هذا النوع وتوافقون
على سحب قواتكم من الاراضي الروسية ، فانني سأعتبر ما حدث كأنه لم
يكن وحينئذ يمكن ايجاد تسوية بيننا . وفي الحالة المعاكسة يا صاحب الجلالة
اجد نفسي مرغماً على صد هجوم لم يثره قط شيء من جانبي . وانه يتوقف
على جلالتكم انقاذ الانسانية من مصائب حرب جديدة . وانني . . . الخ .
التوقيع : « الكسندر . »

← يفهم من سياق هذه الرسالة ان الامير كوراكين كان سفير روسيا في فرنسا
فطلب سحب اوراق اعتماده وان الكونت لوريستون كان سفير فرانسا في
بيترسبورج عاصمة القيصر في ذلك الحين .

الفَصلُ الرّابِع

الرسول

في الثالث عشر من حزيران ، استدعى الامبراطور بالاشيف الساعة الثانية صباحاً ، وبعد ان قرأ عليه رسالته الى نابليون ، أعطاه الامر بالذهاب بنفسه لتسليمها بالذات الى الامبراطور الفرنسي . ولما أذن له بالانصراف ، كرر مرة اخرى « انه لن يعقد صلحاً طالما ظل عدو واحد مسلح على الارض الروسية » وحتم عليه ان يعيد هـذه الكلمات بأمانة على مسامع نابوليون . اما إذا كان لم يضمنها رسالته فلأنه كان يشعر بفطنته المألوفة أنها لاتتفق مع محاولة أخيرة بقصد التسوية . لكنه أمر بالاشيف ان ينقلها اليه شفهياً .

وصل بالاشيف فجر الرابع عشر من حزيران الى قريـــة ريكونتي التي تحتلها الطلائع الفرنسية مصحوباً بنافخ بوق وقوة زيين فأوقفه حراس من الخيالة .

صاح به رقيب أول من الفرسان في بزة من القطيفة الحمراء وقلنسوة مزغبة يأمره بالوقوف . فلم يطع بالاشيف الأمر فوراً واستمر يمشي مترجلاً . فقطب صف الضابط حاجبيه وتمتم بالسباب ثم قطع الطريق على الجنرال الروسي بحصانه وامتشق حسامه ثم استجوبه بغلظة : هل هو أصم حتى لايسمع ما يقال له ؟ أعلن بالاشيف اسمه فأرسل الرقيب الأول جندياً لأستقدام ضابط وراح يثرثر مع رفاقه دون ان يلقي بالاً الى الرسول الروسي أو ان يمنحه مجرد نظرة .

اما بالاشيف الذي كان على علاقة دائمة مع السلطة العليا وكان قبل ثلاث ساعات يتحادث مع الامبراطور وقد ألف أساليب الحفاوة والترحيب بحكم منصبه ، فقد دهش دهشة أليمة عندما رآى انه يعامل معاملة العدو في ارض روسية وانه اضافة الى ذلك ، محروم من كل اعتبار من قبل هـذا الممثل عن القوة الوحشية .

كانت الشمس تخترق السحب والهواء رطب بالندى ويبرده ، والقرويون يسوقون ماشيتهم الى الحقول ، والقبرات تنبعث الواحدة أثر الاخرى من القمح أشبه بالفقاعات فوق سطح الماء وهي تطلق لحنها السريعين المتلاحقين .

راح بالاشيف بأنتظار الضابط الذي ذهبوا يستقدمونه من القرية ، يتفحص ما حوله . وراح القوقازيان والبواق يتبادلون بين الحين والآخر نظرة مع الفرسان الفرنسيين .

جاء زعيم الفرسان الذي فاجأوه حتماً فور مغادرة سريره ، على صهوة جواد أشهب جميل وهو في احسن هندام ، يتبعه اثنان من رجاله . بدأ الضابط والجنود بل وحتى جيادهم ايضاً بمظهر القرير الظريف . كان ذلك في بـداية الحرب حينما كانت القطعات لاتزال شديدة التأنق وكأنها في صبيحة عرض مع شيء ما أكثر « عسكرية » في تجهيزاتهم وذلك اللون من البهجة والانـدفاع الذي يصحب دائماً الشروع في حملة ما .

وعلى الرغم من ان الزعيم كان يجد صعوبة في اخفاء تثاؤبه ، فانه بدا أنيساً ولم تفته قط أهمية المهمة التي جاء بالاشيف من أجلها . اجتاز معه الخط الاول وطمأنه بأنه تبعاً لرغبته ، لن يلبث حتى يمثل بين يدي الامبراطور الذي كان مقر قيادته على ما يعتقد في مكان مجاور .

اجتاز قرية ريكونتي ومر بحراس خيول ورقبـاء وفرسان كانوا يحيون

زعيمهم وهم يتطلعون بفضول الى الزي الروسي . وعند خروجها من الضيعة قال الزعيم لبالاشيف انها سيجدان على بعد كيلو مترين من هناك قيادة الفوج وان هذه القيادة سترسله الى القيادة العامة .

وكانت الشمس قد بزغت وراحت تسطع بنشوة فوق الخضرة الزاهية .

تسلقا سنحاً وما كادا يجتازان جاناً يتوجه حتى شهدا قبالتهما كوكبة فرسان تظهر صاعدة السفح الآخر وعلى رأسها يتقدم رجل مديد القامة ذو قبعة يزينها ريش وشعر اسود تتساقط خصلاته على كتفيه وساقين طويلتين مندفعتين الى الأمام تبعاً لعادة الفرنسيين الفرسان ، على صهوة جواد أدهم كانت عدته تلتمع تحت وهج الشمس . فلما رآى هذا الرجل بالاشيف ، اندفع بجواده وهو يماوج تحت شمس حزيران الحادة ويلألىء ريش قبعته ومجوهراته وشرائطه الذهبية .

ولم يكد بالاشيف يصبح على مسافة طولين من ذلك الفارس ذي المظهر المسرحي المغطى بالاساور والريش والقلائد والبهارج حتى همس الزعيم الفرنسي « اولز » في اذنه بغمغمة كلها احترام : « ملك نابولي » والواقع ان ذلك الفارس كان مورا [1] الذي بات الآن يدعى ملك نابولي . وعلى الرغم من استحالة معرفة السبب الذي من اجله اعطي له هذا اللقب فقد كانوا يسمونه كذلك وكان هو نفسه مقتنعاً بأنه ملك ، الأمر الذي كان يعطيه مظهراً أكثر وقاراً وأكثر عظمة من ذي قبل . ولقد كان مقتنعاً بذلك حتى انه عشية يوم رحيله ، بينما كان يتنزه مع زوجته في شوارع نابولي اذ حياهما بعض الايطاليين بصيحة « يحيا الملك » ،

---

(١) - جواشيم مورا ، أخو زوجة نابوليون الاول وزوج كارولين بونابرت ماريشال فرنسا ولد عام ١٧٦٧ في باستيد مورا ونصب ملكاً على نابولي بين ١٨٠٨ - ١٨١٥ ثم اضطر الى التخلي عن مملكته التي حاول استردادها فيما بعد لكنه اعتقل في بيزو واعدم رميا بالرصاص .

فالتفت الى زوجته وقال لها بأبتسامة حزينة : « التعساء ، انهم لا يدرون انني ساغادرهم غداً ! »

وبنفس الوقت الذي اعتبر نفسه فيه ملكاً حقيقياً وراح يرثي للألم الذي سيصيب رعيته بسبب غيابه ، فان مورا عندما تلقى الأمر بان يعود الى الخدمة وعلى الأخص في دانتزيج عندما قال له صهره المبجل : « لقد جعلتك ملكاً لتحكم على طريقتي وليس على طريقتك ، » استعاد بدعة عمله المألوف اشبه بجواد حسن التغذية ولكن قليل الشحم ، ما ان أحس بنفسه مقطوراً الى عربة حتى اكدف المحمل ومضى ، وراح في ابهى حلة ودون ان يدرك السبب ، يتوثب بخفة على طرق بولونيا .

ولما شاهد الجنرال الروسي ، القى رأسه المتوج بالشعر المعكف الى اللوراء بحركة ملوكية واستفسر الزعيم الفرنسي بنظرة . فعين هذا لجلالته بكل احترام صفة دوبالاشيف الذي لم يتوفق في النطق باسمه .

قال الملك وهو يحسم الصعوبة بعزمه المألوف :

– دوبالماشيف !

ثم أضاف بحركة تدل على تنازله الملوكي :

– يسعدني انني تعرفت اليك ياجنرال .

وما ان راح يتحدث بسرعة وبصوت مرتفع حتى تبددت رفعته كلها واتخذ دون ان يلاحظ هو نفسه – لهجة سذاجة قلبية . وضع يده على حارك جواد بالاشيف وقال وكأنه يأسف لتوافق ظرفي ليس من اختصاصه الحكم عليه :

– حسناً ياجنرال ، ان كل شيء على ما يبدو راجع الى الحرب .

اجاب بالاشيف وهو يفرط في استعمال كلمة ياصاحب الجلالة ، وهو تودد لا بد منه عندما يتحدث المرء الى شخص لايزال هذا اللقب جديداً عليه :

- ياصاحب الجلالة ، ان الامبراطور مولاي لايرغب قط في الحرب كما تزون جلالتكم .

وبينما كان السيد « دوبالاشوف » يتحدث اليه ، كان وجه ملك نابولي يطفح برضى سخيف . لكن الملك مرغم : لقد وجد ان من الضروري بوصفه ملكاً وحليفاً ان يدخل في محاورة سياسية مع مبعوث الكسندر . وعليه فقد ترجل عن جواده وأمسك بذراع بالاشيف ونآى به بضع خطوات بعيداً عن حاشيته التي كانت تنتظره بامتثال وراح وهو يتنزه معه عرضاً وطولاً يحدثه بمواضيع حرص على ان يعطيها بعض الوزن . وتبعاً لقوله ، فان الطلب الى الامبراطور بسحب قواته من روسيا قد نكده بقدر ما جرحت علانية هذا المطلب الملحاح كرامة فرنسا .

ولما راح بالاشيف يعترض بان هذا الطلب ليس فيه ما يهين بالنظر الى ... قاطعه مورا قائلاً بابتسامة بلهاء :

- اذن ، فان المحرض ليس الامبراطور الكسندر في رأيك ؟

عرض بالاشيف الاسباب التي من اجلها كان يرى ان نابليون هو مثير الحرب فقاطعه مورا من جديد قائلاً باللهجة التي يتظاهر بها الخدم الحريصون على البقاء على وفاق، وود رغم مشاحنات أسيادهم :

- إه ! ياعزيزي الجنرال ، اتمنى من كل قلبي ان يسوي الامبراطوران الأمر بينهما وان تنتهي الحرب التي بدأت رغماً عني في أسرع وقت ممكن .

استعلم بعدئذ عن صحة الغراندوق واستعرض ذكرى الأويقات الطيبة التي قضياها معاً في نابولي . وفجاة ، وكأنه شعر فجاة بوقاره الملكي ، انتصب بجلال واتخذ الوقفة التي وقفها ساعة تتويجه وقال مشفعاً قوله بحركة فضفاضة :

- لا أستبقيك اكثر من ذلك ياجنرال . اتمنى نجاح مهمتك .

ولحق بحاشيته التي كانت لاتزال تنتظره بامتثال ظاهر وهو متشح بمعطفه الاحمر الموشى بالذهب ومزين بريش قبعته ، الذي يخفق مع الريح وبجوهراته التي تلتمع تحت ضوء الشمس .

تابع بالاشيف طريقه . ولما كان مطمئناً الى أقوال مورا ، فقد كان يظن انه لن يلبث حتى يجد نفسه في حضرة نابوليون . لكن حراس فوج مدفعيه دافو [1] استوقفوه في القرية التالية كما وقع له على خط الجبهة واستدعي مساعد عسكري ليقوده الى حضرة الماريشال .

---

(١) - لويس نيكولا دافو دوق دوئرسادت ، أمير ايكمول ، ماريشال فرنسا ، ولد في آنوّ عام ١٧٧٠ وتوفي عـــام ١٨٢٣ وكان من افضل معاوني نابوليون .

الفصل الخامس

العودة الى فيلنا

كان دافو آراكتشييف نابوليون آراكتشييفاً دون جبن ولكن شديد التدقيق مثله ، عاجزاً مثله عن اثبات تفانيه لسيده عن طريق آخر غير قسوته.

ان رجالاً كهؤلاء يعتبرون ضررورة في مجموعة دولة ما كضرورة الذئاب في الطبيعة . فهم موجودون وهم محافظون على وجودهم مهما بدت دالتهم على رئيس الدولة مستحيلة . ان هذه الضرورة الملحة وحدها تفسر كيف ان هذا الآراكتشييك القاسي الذي كان ينتزع بيديه شارب النخبة من جنوده دون ان يجرأ بسبب ضعف أعصابه ان يواجه ادنى خطر ، تفسر كيف ان ذلك الشخص معدوم الثقافة والتهذيب استطاع ان يمارس تأثيراً بعيداً على طبيعة الكسندر النبيلة الحانية الأبية .

وجد بالاشيف دافو جالساً فوق برميل في مكدس منشغلاً في تدقيق حسابات والى جانبه مساعد عسكري واقف . كان الماريشال يستطيع ان يجد مستقراً افضل لكنه كان من اولئك الذين يحبون ان يوفروا لأنفسهم اكثر الشروط الحياتية خشونة ليظهروا هم اكثر خشونة . ومن اجل ذلك هم منقلون ابداً بالعمل ينوءون . كان المرء يقرأ على وجهه : « كيف يفكر المرء بمباهج الحياة عندما يكون - كما ترى - جالساً على برميل في مكدس حقير منكباً على

العمل » . ان سرور هؤلاء الاشخاص البالغ ورغبتهم الفطرية تقتصر على القاء عملهم المستمر الضجر في وجوه الناس الذين يستسلمون لتيار الحياة . وهـذا هو الذي أحس به دافو عندما رأى بالاشيف يصل . استغرق اكثر من أي وقت آخر في حساباته وبعد ان القى نظرة خلال نظارتيه على وجه الجنرال الذي اعادت له رحلته المبكرة ومداولته مع مورا بشاشته ، زاد تحديـــد حاجبيه دون ان ينهض او حتى ان يشرع بحركة ما وابتسم ابتسامة قبيحة. ولما لاحظ الأثر غير المستحب الذي احدثه استقباله هذا على الوافد الجديد ، انتهى به الامر الى ان يرفع رأسه وان يسأله بلهجة جامدة عما يريد .

عزا بالاشيف هذا الاستقبال البارد الى واقع جهل دافو بصفته المزدوجة كمساعد عسكري ومبعوث الى نابوليون من قبل الامبراطور الكسندر فقط لذلك فقد بادر الى الادلاء بألقابه ولكن ، خلافاً لما كان ينتظر ، لم يزد ذلك دافو الا جفاء وتجهماً . قال :

— اين رسالتك ؟ وسأرسلها الى الامبراطور .

فاعترض بالاشيف بان لديه امراً بتسليم الرسالة الى الامبراطور بالذات .

— ان أوامر امبراطوركم . ذات قيمة في جيشكم . اما هنا ، فعليك ان تعمل ما يقال لك ان تعمله .

وكأنه أراد ان يشعر الجنرال الروسي بطريقة افضل بأنه هناك رهن القوة القاهرة ، فقد ارسل مساعده العسكري يستدعي الضابط المنوب .

وضع بالاشيف الرسالة على الطاولة التي كانت عبارة عن باب ركز على برميلين كانت رزاته لاتزال تتدلى منه فأخذها دافو وقرأ ما على الغلاف .

قال بالاشيف .

— ان مطلق الحرية في ان تعاملني باحترام ام لا . لكن من واجبي أن

الفت انتباهك الى أنني اعتبر بين مساعدي جلالته العسكريين الجنرالات .

نظر اليه دافو دون ان ينبس ببنت شفة :

لقد طاب له بشكل ظاهر ان يكتشف على تقاطيعه لوناً من البلبال. قال:

— سوف تعامل بما يحق لك من احترام .

ثم وضع الرسالة في جيبه وغادر المكدس .

وفي غضون دقيقة واحدة ، جاء مساعد الماريشال العسكري ، السيد دوجاستري يأخذ بالاشيف ليدله على المسكن الذي أعد له .

ولقد تناول بالاشيف الطعام ذلك اليوم مع الماريشال في المكدس على الطاولة ذات البرميلين .

وفي صبيحة اليوم التالي ، ذهب دافو منذ الصباح الباكر بعد ان استقدم بالاشيف وحتم عليه بصرامة ان يمكث حيث هو وان يتنقل مع القوافل في حال صدور أوامر مماثلة اليها وان لايتحدث الا مع السيد دوجاستري .

وبعد اربعة ايام من الوحدة كان العدو خلالها يشتد في اخضاع مُنصبٍ بقدرما هو تابع للقدرة الكلية ، وبعد مراحل عديدة اجتيزت مع متاع الماريشال والقطعات الفرنسية التي كانت تحتل المنطقة كلها ، عاد بالاشيف الى « فيلنا » التي باتت الآن في قبضة العدو ، عن طريق الباب نفسه الذي خرج منه قبل بضعة أيام .

وفي اليوم الثاني جاء أحد حجاب الامبراطور ، السيد دوتورين يعلمه بأن نابليون قد منحه مقابلة .

قبل أربعة ايام ، كان حراس فوج بريوبراجنسكي يقفون على باب المنزل الذي قادوا بالاشيف اليه . اما الآن ، فكان في مكان اولئك ،

جنديان فرنسيان ببزة زرقاء ذات « قلبات » كبيرة وقلنسوة مزغبة ، وموكب من الفرسان الفرنسيين والألمان وحاشية أنيقة من المساعدين العسكريين والغلمان والجنرالات ينتظرون خروج نابوليون ، وحصانه المطهم والمملوك روستان واقفين قرب المرقاه . كان نابوليون يستقبل بالاشيف في البيت نفسه الذي سلمه الكسندر فيه رسالته اليه .

* * *

الفصل السادس

في حضرة الامبراطور

على الرغم من ان بالاشيف كان معتاداً على بهاء البلاطات فان الترف والبذخ في هذا البلاط أحدثا في نفسه أثراً قوياً .

أدخله الكونت دوتورين الى حجرة رحيبة وكان عدد كبير من الجنرالات والحجاب والاشراف البولونيين ، عرف بالاشيف كثيراً بينهم كانوا من قبل يحيطون بالكسندر ، ينتظرون فيها . واعلن دوروك[1] ان الامبراطور سيستقبل الجنرال الروسي قبل نزهته.

وبعد دقائق من الانتظار ، بدا الحاجب المنوب وانحنى بتأدب امام بالاشيف ثم دعاه أن يتبعه .

دخل بالاشيف الى بهو صغير يقود احد ابوابه الى المكتب ، ذلك المكتب الذي تلقي فيه آخر أوامر الكسندر ، وانتظر دقيقتين او ثلاث دقائق. تناهى الى سمعه وقع خطوات متلاحقة وراء الباب الذي انفتحت ضلفتاه فجأة. ور ان

---

(١) جيرو كريستوف ميشيل ، جنرال فرنسي ولد في بون ـ آ ـ موسون عام ١٧٧٢ وقتل قرب بوتزن عام ١٨١٣ ، كان ماريشال القصر الأكبر ودوق دوفريول .

الصمت ثم ارتفعت خطوات اخرى متزنة ونشيطة وراحت تقترب : ذاك كان نابوليون ، وكان قد فرغ من ارتداء ملابسه للركوب. كانت بزته الزرقاء تنفتح على صدرة بيضاء تنسجم مع استدارة بطنه ، والسروال المصنوع من الجلد الابيض بطبع فخذي ساقيه القصيرتين السمينتين المغيبتين في أحذية عالية . وكان شعره القصير قد رُجِّل ولاريب منـذ حين . لكن خصلة منه كانت تقع على وسط جبينه العريض . في حين ان عنقه الابيض السامن الذي تتضوع منه رائحة ماء « الكولونيا » كان يتباين كلياً مع ياقة البزة السوداء . وكان وجهه الممتلىء الذي لازال فتياً ، ذو الذقن البارزة ، مطبوعاً بلطف جليل امبراطوري حقاً .

اقترب بمشية سريعة وهو يتوثب مع كل خطوة ورأسه مائل قليلاً الى الوراء كان لشخصه القصير الممتلىء ذي الكتفين العريضتين القويتين والبطن والصدر البارزين ــ رغماً عنه الى الامام ــ مظهر جليل معبر ، مظهر أبناء الاربعين الذين ألفوا الحياة الرغيدة كما كان يُرى كذلك انه على افضل مزاج ذلك اليوم .

اجاب على تحية بالاشيف العميقة المفعمة بالاحترام بحركة من رأسه وراح وهو يتجه نحوه مباشرة يتكلم شأن الرجل الذي تعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة والذي لايتنازل قط إلى تحضير محاضراته لعلمه بانه سيقول دائماً وبكل اجادة ما يجب ان يقوله .

ــ مرحباً ياجنرال . لقد تلقيت رسالة الامبراطور الكسندر التي حملتهـا واني مسرور جداً برؤيتك .

حط لحظة عينيه الكبيرتين على وجه بالاشيف ثم مـا لبث ان شاح بها . لاريب ان شخصية بالاشيف ما كانت تعنيه في شيء لان مايدور في سريرته هو وحـده الذي كان يثير اهتمامه . اما كل ما هو خارجي فلم تكن له أية اهمية : ألم يكن يعتقد بكل حزم ان كل ما في الكون يتوقف على مشيئته وحدها ؟

قال :

- انني لاارغب ولم أرغب قط في الحرب . لكنهم اجبروني على خوضها
ثم اضاف وهو يبرز الكلمة :

- والآن ايضاً،انني على استعداد لتقبل كل المبررات التي تستطيع تقديمها الي.

شرح بطريقة واضحة وموجزة اسباب استيائه من الحكومة الروسية .

ولقد اقتنع بالاشيف قناعة عميقة استناداً الى لهجة امبراطور الفرنسيين الهادئة المتزنة بل والودية انه راغب في السلم وانه سيشرع في المفاوضات عن طيب خاطر .

هم بالاشيف ان يقول :

- مولاي ، ان مولاي الامبراطور ...

عندماراح نابوليون يستفسره بنظره بعد ان انتهى من جملته . ولقد اعد المبعوث الروسي محاضرته منذ وقت طويل . لكن تينك العينين المصوبتين اليه شوشتاه . وبدا نابوليون وهو يفحص بإبتسامة لاتكاد ترى بزة بالاشيف وسيفه كانه يقول له : « انك مضطرب ، تماسك أعصابك » .

ولما استرد هذا روعه قال ان الامبراطور الكسندر لايعتبر «حالة حرب» طلب استعادة الجوازات الذي قدمه كوراكين الذي تصرف من تلقاء نفسه دون ان يقره في ذلك مولاه وان الكسندر لايريد الحرب وليست له أية علاقات مع انجلترا .

فرد نابوليون :

- ليست له « بعد » اية علاقات .

لكنه قطب حاجبيه وأشار بإيماءة خفيفة من رأسه الى بالاشيف ان يستتلي وكأنه خشي ان يسفر عن عواطفه .

وبعد ان عرض كل ما كانت تعليماته تحوية من أقوال ، أكد بالاشيف ان الامبراطور ألكسندر ، مع رغبته في السلام ، لن يشرع في مفاوضات إلا شريطة ...

وهنا تردد وتذكر الكلمات التي حذفها الإمبراطور من رسالته والتي أمر ان تظهر في رسالته الملكية الى سالتيكوف وكلفه هو، بالاشيف ان يرددها حرفياً على مسامع نابوليون . تذكر الجملة : « طالما بقي جندي عدو مسلح واحد على الارض الروسية » . لكن شعوراً شديد التعقيد إستوقف الجملة على شفتيه . ومهما بلغت رغبته ، فانه لم يستطع ان يتفوه بها فاستبدلها وهو شديد الخجل بالعبارة التالية : « شريطة ان تعود القطعات الفرنسية عبر النيمن من جديد » .

لم يخف اضطراب بالاشيف على نابوليون : فقد تقلص وجهه وراحت ربلة ساقه اليسرى تضطرب في حركة منظمة . استأنف الكلام دون ان يبدل مكانه بصوت اكثر ارتفاعاً وتهافتاً عن ذي قبل . وقد لاحظ بالاشيف رغماً عنه كلما اطرق بعينيه خلال الوقت الذي استغرقته المحاضرة التي تلت ، ان ارتعادة ربلة الساق اليسرى آخذة بالتزايد كلما ازداد صوت الإمبراطور ارتفاعاً .

شرع يقول :

– لست أقل رغبة في السلام من الامبراطور الكسندر . ألست ابذل كل ما في وسعي منذ ثمانية عشر شهراً في سبيل السلام ؟ منذ ثمانية عشر شهراً وانا انتظر الايضاحات .

ثم أضاف وهو يعبس ويقوم بحركة عنيفة بيده الصغيرة البيضاء السمينة :

– ولكن ماذا تراهم يتطلبون مني لقاء الدخول في مفاوضات ؟

قال بالاشيف :

– انسحاب الجيوش الى وراء النيمن يا صاحب الجلالة .

استطرد نابوليون :

– وراء النيمن ؟ انكم اذن تريدونني الآن على ان انطوي وراء النيمن .

ثم كرر وهو يغرق نظراته في عيني بالاشيف :

– وراء النيمن فقط ؟

فالمحنى هذا اشارة بالموافقة .

انهم لايطلبون الآن بدلاً من إخلاء بوميرانيا[1] التي اصروا عليه قبل أربعة اشهر الا الانسحاب وراء النييمن . ادار نابوليون ظهره فجأة وراح يذرع الحجرة بخطاه .

– تقول انهم يطلبون مني التراجع وراء النييمن . لكنهم منذشهرين طلبوا مني ايضاً ان اتراجع وراء الاودر[2] والفيستول ثم توافقون مع ذلك على اجراء **مفاوضات .**

مشى دون ان ينطق بكلمة من جانب الحجرة الى الجانب الآخر ثم توقف فجأة قبالة بالاشيف . لاحظ هذا ان ربلة الامبراطور تضطرب اكثر من ذي قبل وان وجهه يبدو كأنه تصلب في تعبير صارم . كان نابوليون يعرف هذه الخاصة . وقد قال لحاشيته: « ان لاهتزاز ربلتي اليسرى اشارة كبيرة عندي ».

هتف فجأة بفوران دهش له بنفسه :

– ان مثل هذه العروض ، كاخلاء الاودر والفيستول ، يمكن ان تسأل من غراندوق دوباد[3] ولكن ليس مني . انني لن اقبل شروطكم ولو اعطيتموني بيترسبورج وموسكو . تقولون انني بدأت الحرب ؟ ولكن من الذي لحق بالجيش اولاً ؟ الامبراطور الكسندر وليس انا . والآن تحدثونني عن التفاوض في حين انني انفقت الملايين وانكم حلفاء مع الانجليز وموقفكم سيء ! تعرضون

---

(1) بوميرانيا ، واحدة من جذر ارخبيل بسمارك تحت الانتداب الاسترالي

(2) اودر ، بالبولونية اودرا ، نهر بولوني الماني ينبع في سلسلة جبال السوديت ويخترق سليزيا ثم يمر في وروكلاو وفرانكفورت وسزيزيسن ويصب في البلطيق طوله ٨٦٤ كم .

(3) باد ، بالألمانية بادن ، بلد الماني كانت فيما مضى غراندوقية ثم أصبحت جمهورية عام ١٩١٩ وهي واقعة على ضفة الرين اليمنى سكانها ٢,٤١٣,٠٠٠ نسمة عاصمتها كارلسرو . تغطي جانب من أرضها الغابة السوداء المعروفة .

على مفاوضات ! ولكن ما هو هدفكم من التحالف مع انجلترا ؟ ماذا اعطتكم ؟

كان يلقي بجمله دون ان يتابع التفكير في ابراز محاسن السلم ومناقشة امكانياته بل لكي يبرهن حقه وقوته في الوقت نفسه الذي يدلل فيه على خطيئات الكسندر وأضراره . لقد اراد بادىء ذي بدء ان يبرز ولاشك ميزات موقفه وان يلمح بأنه يقبل الشروع في مفاوضات رغم ذلك . لكنه كلما ازداد اندفاعاً في الكلام تناقصت سلطته على كلماته حتى اقتصرت محاضرته على تعظيم نفسه والحط من الكسندر أي على عكس ما كان يزمع السير فيه عند بدء المقابلة .

– انهم يزعمون انكم عقدتم الصلح مع الاتراك ؟

حرك بالاشيف رأسه ايجاباً وشرع يقول :

– عقد الصلح ...

لكن نابوليون قاطعه . كان ولاريب يشعر بحاجة ماسة الى الكلام فتابع بتلك الثرثرة الغاضبة التي يمتاز بها الاشخاص الذين افسدتهم النعماء :

– نعم ، انني اعرف انكم عقدتم الصلح مع الاتراك دون ان تحصلوا على مولدافيا[1] ولافالاكي[2] وانا ، كنت سأقدم لامبراطوركم هاتين المقاطعتين هدية كما اعطيته فنلندا .

---

(١) مولدافيا وبالرومانية مولدوفا ، مقاطعة دانوبية قديمة ضمت عام ١٨٥٩ مع فالاكي وشكلت مملكة رومانيا حتى عام ١٩١٨ . وهي عبارة عن سهل شرقي جبال الكاربات ترويه مياه نهر سيريه سكانها ٢،٨٠٠،٠٠٠ نسمة . وهناك جزء من مولدافيا على ضفة دنيستر الشرقية بنى فيها السوفياتيون عام ١٩٢٤ جمهورية الحقوها بأوكرانيا .

(٢) فالاكي ، هي المقاطعة الدانوبية التي شكلت جانباً من المملكة الرومانية حتى عام ١٩١٨ . وهي اليوم منقسمة الى فالاكي الكبرى ومونتينيا . غنية بالزراعات الواسعة وتربية المواشي وبانتاج الفحم والزيت .

واسترسل باصرار :

- نعم ، لقد وعدت الامبراطور الكسندر بمولدافيا وفالاكي وكنت سأعطيه هاتين المقاطعتين الجميلتين اللتين افلتتا من يده ؟ كان يستطيع ان يضمهما الى مملكته فكانت روسيا ستمتد تحت حكم من خليج بوتني[1] الى مصب الدانوب[2] . ان كاتيرين[3] العظيمة ما كانت لتستطيع ان تعمل افضل من ذلك.

احذ هياجه يزداد وراح يتمشى داخل الحجرة ويردد كلمة كلمة تقريباً ماقاله لألكسندر ابان مقابلتهما في تيلسيت .

- كل هذا كان سيناله بصداقتي . آه ! يالملك الجميل ، يالملك الجميل ...

وكرر عدة مرات هذه الملكات ثم اخرج من جيبه مسعطاً من الذهب

---

(١) بوتني منطقة في شمال اوربا مقسمة بين السويد وفنلندا وفيها الخليج المسمى باسمها الذي تشكله مياه البلطيق .

(٢) الدانوب وبالألمانية دانو ، نهر كبير في أوربا ينبع من الغابة السوداء ويروي المانيا والنمسا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ويصب في البحر الأسود مشكلاً دلتا ذات ثلاث شعب . وهو يمر في اولم وراتيسبون وفيينا وبرسبورج وبودابست وبلجراد وبرايلا وجلاتز ويتلقى مياه الروافد « ايزار » وإين ودراف وساف من الجهة اليمنى وتيس وسيريه وبروت من الجهة اليسرى وطوله ٢٨٦٠ كم وهو شريان تجاري كبير .

(٣) كاتيرين العظيمة ، هي كاتيرين الثانية امبراطورة روسيا ولدت في ستيتّن عام ١٧٢٩ وتوفيت عام ١٧٩٦ وهي ابنة الدوق أنهالت - زيربست وزوجة بطرس الثالث . حكمت بمفردها بعد اغتيال زوجها من عام ١٧٦٢ حتى سنة ١٧٩٦ وقد خاضت البلاد على عهدها حروباً رابحة وغزوات على الاتراك ومنحت حماية خاصة للعلماء والفلاسفة وخصوصاً الفرنسيين مما غطى اعمال العنف التي اشتهرت بها .

ثم أخذ منها بنهم واردف :

يالملك الجميل الذي كان يمكن ان يكون عليه ملك الامبراطور الكسندر!
ثم تأمل بالاشيف بعطف . فلما هم هذا ان يتقدم بملاحظة ، قاطعه فوراً وهو يقول مبيناً دهشته برفع كتفيه :

- ما الذي كان يمكن ان يرغب فيه او ان يبحث عنه دون ان تنيله اياه صداقتي ؟ ولكن لا ، لقد فضل ان يخلق حوله وسط لفيفاً من أعدائي وممن ! لقد استقدم الى جواره آل ستين وآل آرمفيلت وبينيجسن ونيتزنجيروود ! ان ستين خائن مطرود من بلاده وآرمفيلت فاجر ودساس ووينتزنجيرود فرنسي ملتحق بخدمة العدو وبينيجسن عسكري اكثر من الآخرين قليلاً ، ولكنه مع ذلك عاجز ما استطاع ان يعمل شيئاً عام ١٨٠٧ ، فكان يجب ان يوقظ في نفس الامبراطور الكسندر ذكريات رهيبة .

واسترسل نابوليون الذي لم يكن نطقه ليتماشى مع فكرته لكثرة تهافت البراهين وسرعة تجمعها ليثبت حقه المشروع وقوته اللذين كانا في نظره بمعنى واحد :

- لو ان هؤلاء كانوا على قيمة ما لأقنعني استخدامه لهم . ولكن لا ، انهم لا يصلحون لشيء ، لا للسلم ولا للحرب . ان باركلي[1] على ما يزعمون افضل منهم جميعاً لكن هذا ليس رأيي اذا حكمنا عليه تبعاً لأولى تصرفاته . ثم ماذا يعملون ، ماذا يعمل كل هؤلاء الاتباع ؟ ان بفويل يقترح ، وآرمفيلت يناقش وبينيجسن يتمعن . اما باركلي الذي استدعي ليعمل ، فانه لا يدري أي جانب يأخذ ، ويمر الوقت دون ان يؤتى بجديد . ان باجراسيون وحده رجل

(١) ميشيل باركلي دو تولي ، جنرال روسي ولد في ليفونيا من اصل ايكوسي وكان خصماً بارعاً لنابوليون الأول . ولد عام ١٧٦١ وتوفي عام ١٨١٨ .

حرب . انه غبي ، لكن لديه الخبرة والنظر الثاقب والعزم .. وأي دور يلعب امبراطوركم الشاب بين هذا الخليط ؟ ان هؤلاء الناس يرتكبون الاثم ثم يحملونه مسؤولية اعمالهم . ان ملكاً لا يجب ان يكون في الجيش الا اذا كان جنرالاً .

القى بهذه الكلمات و كأنها تحدٍ مباشر موجه الى الكسندر . ما كان يجهل ان هذا يشعر بضعف في ثقته بأنه رجل حرب . استرسل :

– لقد بدأت الحملة منذ ثمانيــة أيام فلم تعرفوا كيف تدافعون عن فيانا . لقد شطرتم الى شطرين و طردتم من الأقاليم البولونية . ان جيشكم يدمدم .

قال بالاشيف وقد بهرته أضواء هذه الجمل الاصطناعية التي ما كان يتوصل الى استيعابها :

– على العكس ياصاحب الجلالة . ان القطعات تتحرق شوقاً الى القتال .

قاطعه نابوليون :

– انني أعرف كل شيء ، اعرف كل شيء . إنني أعرف اعداد ألويتكم بمثل الدقة التي اعرف بها أعداد ألويتي . ليس لديكم مائة الف رجل تحت السلاح بينما لدي ثلاثة أضعاف هذا العدد .

ثم أضاف ناسياً ان هذا القسم لم يكن ليعني شيأً أبداً :

– انني أعدك بشرفي ، أعطيك وعداً بشرفي ان لدي خمسمائة وثلاثين الف رجل على هذه الضفة من الفيستول . لن يستطيع الاتراك مساعـدتكم : انهم لا يصلحون لشيء وقد برهنوا على ذلك بعقد الصلح معكم . اما السويديون ، فانهم مصطفون لأن يحكموا من قبل مجانين . لقد كان ملكهم مجنوناً فأبدلوه واتخذوا آخر ، برنادوت [١] ، الذي سرعان ما فقـد صوابه هو الآخر . لانه يجب ان

---

(١) شارل برنادوت ، مـاريشال فرنسا ولد في بو عام ١٧٦٣ وامتاز في حروب حكومتي : الثورة والمملكة . تبناه ملك السويد شارل الثالث عشر عام ١٨١٠ فنسي منشأه ليلتحق عام ١٨١٣ الى الحلفاء ويحارب الفرنسيين . وفي عام

يكون المرء مجنوناً حتى يعقد اتحاداً مع روسيا وهو سويدي .
انفرج فم نابوليون قليلاً وشم أخذة جديدة من السعوط .
كان لدى بالاشيف إثر كل جملة من جمل الامبراطور اعتراض يقدمه . لكنه كلما حاول ان يفتح فمه مرة اغلقه له نابوليون . أراد ان يقول بخصوص خبال السويديين ان السويد أصبحت بتحالفها مع روسيا اشبه بالجزيرة لأن هذه تحميها من الخلف . لكن نابوليون خنق صوته بصيحات الغضب . لقد كان في تلك الحالات من الاثارة التي يشعر المرء معها بحاجة الى ان يتكلم ويتكلم ويتكلم لمجرد ان يثبت لنفسه انه على حق . وكان بالاشيف كمن يقف على الاشواك : فهو كسفير ، يخشى انيسيء الى كرامة نفسه بالامتناع عن أي اعتراض . اما كرجل ، فقد احنى ظهره تحت زوبة هذه الغضبة الهوجاء . كان يعرف قلة اهمية هذا القدح الذي ما ان يستعيد الامبراطور هدوءه حتى يكون اول من يخجل منه . لذلك فقد وقف في مكانه معلق الابصار بساقي نابوليون الضخمتين المنفعلين يحاول جاهداً ان يتحاشى نظرته .
استرسل هذا :
— ثم ماذا يهمني من حلفائكم بعد كل شيء ؟ ان لدي حلفاء انا الآخر ، وحلفاء طيبين : البولونيين . انهم ثمانون الفاً ويقاتلون كالاسود . وسوف يصبحون بعد قليل اكثر من مائتي الف .
ولقد ابلغ الشعور بأن هذا المزعم ليس إلا محض كذب وموقف بالاشيف المتحفظ الذي ما كان ينبس ببنت شفة ، غضب الامبراطور الى أوجه ، فأتى بنصف دائرة فجأة واتجه رأساً الى محدثه فألقى في وجهه عباراته مشفوعة بحركات سريعة ونشيطة من يديه البيضاوين :

← ١٨١٠ ، اصبح ملكاً للسويد باسم شارل الرابع عشر أو شارل جان وتوفي عام ١٨٤٤ .

– أعلموا تماماً انكم اذا اثرتم بروسيا ضـدي ، فانني سأمحوها من خريطة اوربا . – وأيد هذا التهديد بأن كنس يـده اليسرى بيده اليمنى ووجهه ممتقع متقلص . – نعم ، سوف القي بكم الى ما وراء دونا [1] وما وراء الدنيبر [2] وسأقيم في وجهكم هذا السدالذي كانت اوروباشديدة العمى ، مجرمة كل الاجرام اذ تركتهينهار . نعم . هذا ما ينتظركم . هـــذا ماتكونوا قد ربحتموه من ابتعادكم عني !

مشى بضع خطوات بسكون و كتفاه العريضتـان تهتزان بطفرات صغيرة اعاد مسعطه الى جيبه ثم اخرجه وحمله مراراً الى أنفه ثم عاد الى بالاشيف ونظر باستهزاء في عينيه ثم قال له بهدوء بعد فترة :

– ومع ذلـــك ، يا له من ملك جميل ذاك الذي كان يستطيع مولاك ان يحصل عليه .

ولما كان يجب على بالاشيف ان يقول شيئاً مـا ، فقدرد انهم من الجانب الروسي لايرون الموقف على مثل هذا التجهم . فلم يحر نابوليون جواباً بينماظلت نظرته المستهزءة مصوبة الى بالاشيف وكأنه لم يسمع ما قاله . ولما اضاف هذا بأنهم في روسيا يتوقعون من الحرب نتائج ممتازة ، هز الامبراطور رأسه بمراعاة وكأنه يقول له : «نعم ، اعرف ، ان من واجبك ان تقول هذا القول ، لكنك انت نفسك لا تصدق كلمة واحدة . لقد اقنعتك ، »

ولما فرغ بالاشيف ، اخرج نابوليون مسعطه من جديد وشم أخذة جديدة ثم قرع الأرض بقدمه مرتين متعاقبتين . فتح الباب اثر هذه الاشارة وظهر حاجب

---

(١) دنيبر نهر روسي اوكراني يروي سمولنسك وموهيليف وكييف ودنيبر وبتروفسك وخيرسن ويصب في البحر الاسود طوله ٢١٤٦ كم وكان من قبل يدعى بوريستين .

(٢) دونا : اسم الدانوب بالهنغارية .

أعطى الامبراطور قبعته وهو منطوٍ الى اثنين بكل احترام ثم قفازيه بينما قدم له آخرٌ منديله . استدار نابوليون نحو بالاشيف دون ان يعبأ بالحجاب وقال وهو يأخذ قبعته :

– طمئن الامبراطور الكسنـدر باسمي بانني مخلص له كما في الماضي تماماً . انني أعرفه وأقدر صفاته الكبيرة حق قدرهـــا . لاأستبقيك اكثر من ذلك ياجنرال سوف تتلقى رسالتي الى الامبراطور .

وتوجه نابوليون بسرعة نحو المخرج فاندفع كل اولئك الذي كانوا ينتظرونه الردهة الى السلم ليسبقوه .

الفصل السابع

عودة الرسول

بعد كل ما قاله له نابليون في سورة غضبه وبعد كلماته الأخيرة البالغة في الجفوة : « لا استبقيك اكثر من ذلك يا جنرال ، سو تتلقى رسالتي » ، بات بالاشيف شديد القناعة بان الامبراطور ليس عازفاً عن مقابلته بعد الآن فحسب بل وانه سيتجنب رؤيته ، هو ، السفير المذل الذي شهد انفعاله غير اللائق وهذا أسوأ ما في الأمر . لذلك لا تسل عن دهشته عندما وجد نفسه يدعوه دوروك الى مائدة الامبراطور ذلك اليوم بالذات .

كان بيسيير [1] وكولنكور [2] وبرتييه حاضرين ذلك الغداء .

---

(١) جان باتيست بيسيير دوق ديستري ، ماريشال فرنسي ولد في بريساك عام ١٧٦٦ وقتل صبيحة معركة لوتزن عام ١٨١٣ وكان من افضل مساعدي نابليون .

(٢) المار كيز لويس دوكولنكور دوق دوفنسين ، جنرال فرنسي ولد في كولنكور عام ١٧٧٢ وتوفي عام ١٨٢٧ مثل نابوليون في مؤتمر شاتيون . أما أخوه اوجست دوكولنكور الذي ولد عام ١٧٧٧ فقد قتل عام ١٨١٢ في موسكو .

استقبل نابوليون بالاشيف ببشاشة مؤنسة . لم يترك في نفسه مشهد الصباح أي أثر من الارتبـاك أو الأسف بل كان هو الذي راح يسعى الى الترفيه عن ضيفه . لا ريب انه كان مقتنعاً منـذ أمد طويل بأنه لايمكن ان يخطيء وان كل ما يعمله انمـا هو نعم العمل ليس لأن عمله ينسجم مع تعريف الخير والشر الرائج بل لأنه هو صاحب العمل ليس الا .

لقد عادشديد المرح من نزهته في شوارع فيلنا حيث استقبلته الجماهير وتبعته بحماس . كانت النوافذ كلها على طول طريقه مفروشة بالسجاد مزينـة بالاعلام وبالشعارات التي تحمل الاحرف الاولى من اسمـه . وحيته النساء البولونيات ملوحات بمناديلهن .

وعلى المائدة ، اجلس بالاشيف الى جانبه وعامله ليس ببشاشة فحسب بل وكأنه يرى فيه واحداً من بطانته ، واحداً من اولئك الذين يؤيـدون خططه ويسرون بنجاحه . تعمد التحـدث عن موسكو وراح يسأل ضيفه عن العاصمة بفضول المسافر الذي يجمع المعلومات عن البلد الذي يزمع زيارته وهو قانع بأن هذا التحري لابد وأن يضاعف نشوة بالاشيف بوصفه روسياً .

سأله :

ـ كم يبلغ عدد سكان موسكو ، وعدد البيوت ؟ هل حقيقة انهم يسمونها موسكو المقدسة ؟ كم عدد الكنائس فيها ؟

وبينما هم يجيبونه بأن العدد يبلغ مائتين ، بدا مندهشاً :

ـ ولماذا كل هذا العدد من الكنائس ؟

فقال بالاشيف :

ـ ان الروسيين شديدو الورع .

استطرد نابوليون وهو يستجدي بعينيه موافقة كولنكور :

ـ ثم ان وفرة عددالاديرة والكنائس كان دائماً الدليل على مدينة متأخرة .

سمح بالاشيف لنفسه ان يناقض الامبراطور باحترام . قال معترضا :
– ان لكل بلد تقاليده .
– ولكن لم يعد في كل اوربا شبيه لهذا .
– لتتفضل جلالتكم بمعذرتي . لكن في اسبانيا – كما هو الحال في روسيا – عدداً كبيراً من الاديرة والكنائس .

وعندما حُمل الى بلاط روسيا هذا الجواب الذي يخفي بين طياته تلميحاً عن هزيمة الفرنسيين الحديثة في اسبانيا ، فانه لقي فيه أرفع تقدير . أما على مائدة نابوليون ، فانه لم يحدث أي اثر بل انه مر دون أن يؤبه له .

كانت وجوه السادة الماريشالات اللامبالية تدل بوضوح على ان هذا الجواب الماكر قد غاب عن اذهانهم رغم ان لهجة بالاشيف قد أبرزته . بدوا وكأنهم يقولون : « اذا كان في الأمر قصدما فانه يفوتنا ادراكه » . ولقد خمنوا مؤداه بانتباه ضئيل جداً حتى ان نابوليون لم يأبه له بل استرسل في طرح اسئلته فسأل بالاشيف بسذاجـة عن أقصر الطرق المباشرة للذهاب الى موسكو وعن المدن التي تحاذيها . فاجاب بالاشيف الذي ظل طيلة الغداء مترقباً بأنه لما كانت كل الطرق تؤدي الى روما فان كل الطرق كذلك تؤدي الى موسكو . وان بين هذه الطرق العديدة واحداً يمر ببولتافا وهو على التأكيد ذلك الذي انتقاه شارل [1] الثاني عشر . ولقد تضرج وجهه بالاشيف بحمرة الفرح لما في رده من

---

(١) شارل الثاني عشر ابن شارل الحادي عشر ولد في ستكهولم عام ١٦٨٢ وما ان أعلنت الولايات انه بلغ سن الرشد حتى بدأ بهزيمة ملك الدانمارك في كوبنهاجن عام ١٧٠٠ والروسيين في نافا وأوجـت الثاني البولوني في كيسو" عام ١٧٠٣ ثم نازع من جديـد بطرس الأكبر فلم يقو رغم ضخامة جيوشه ان ينتصر على خصمه القوي في بولتافا عام ١٧٠٩ فاضطر الى الالتجـاء الى تركيا . وبعد ان حاول دون جدوى العودة الى اشهار الحرب بمساعـدة السلطان أحمد الثالث ،

معنى لاذع . لكنه ما ان فاه باسم بولتافا حتى بادر كولنكور ، لكي يضع حداً لهذه الحادثة الخطيرة ، الى وصف حالة طريق بيترسبورج - موسكو السيئة ثم استرسل في سرد ذكرياته عن العاصمة .

وبعد الطعام ، انتقلوا لتناول القهوة الى مكتب نابليون الذي كان قبل أربعة أيام مكتب الكسندر . جلس نابوليون وأشار الى بالاشيف وهو يحرك قهوته في قدح من خزف « سيفر » الشهيرة ، ان يجلس على مقربة منه .

كان نابوليون في تلك الحالة السعيدة التي تعد الانسان الذي تناول طعاماً طيباً اكثر من أي شيء آخر لأن يشعر بالرضى عن نفسه ويرى الأصدقاء في كل مكان . فكان اذن يظن انه المثل الاعلى للاشخاص المحيطين به بما فيهم بالاشيف الذي استوى الآن بلاريب في صفوف المعجبين به . لذلك فقد قال له بابتسامة تحمل سخرية رقيقة .

- لقد قالوا لي ان هذا هو المكتب الذي كان يشغله الامبراطور الكسندر أليس ذلك مثيراً للفضول ياجنرال ؟

بدا قانعاً ان هذه الملاحظة لابد وأن تدخل السرور على نفس محدثه . أليست الدليل على تفوقه هو ، نابوليون ، على الكسندر ؟

اكتفى بالاشيف الذي ما كان يستطيع ان يجيب بشيء ، باحناء رأسه .

استرسل نابوليون دون ان يكف عن ابتسامته الجوفاء المتهكمة :

- نعم ، في هذه الحجرة منذ بضعة ايام ، كان وينتزنجيرود وستين يتشاوران . ان مالا أستطيع فهمه هو ان الامبراطور الكسندر احاط نفسه بكل أعدائي

← عاد الى السويد عام ١٧١٥ وكانت السويد في حالة مؤسية . كان شارل الثاني عشر يغذي في نفسه مشاريع جريئة وقوية عندما قتل بطلق ناري في حصار فريدريكشالد عام ١٧١٨ . وهو الذي كتب عنه الشاعر الفرنسي فولتير تاريخ شارل الثاني عشر عام ١٧٣١ .

الشخصيين . كلا ، الحق يقال انني لاأستطيع فهمه . ألم يفكر اذن في انني قد اتصرف تصرفاً مماثلاً ؟

كان وهو يلقي هذا السؤال يستسلم لبقيـة من سورة غضب الصباح التي لم تتبدد تماماً . اضاف وهو ينهض ويدفع فنجانه عنه :

— ليعلم جيـداً أنني سأعمل مثله . سوف اطرد من المانيا كل اقربائه آل « وورتمبرج » و « باد » و « ويمار » .. نعم سوف اطردهم من هناك . فليهيء لهم اذن مأوى في روسيا .

احنى بالاشيف رأسه وأماراته المتعبة توحي بأنه يرغب في الاذن له بالانصراف وانه لايصغي الى تلك الاقوال إلا مكرهـاً . لم يلاحظ نابوليون شيئاً من كل هذا : لم يعد يعامل بالاشيف بوصفه رسولاً للعدو بل كرجل اكتسبه الى جانبه عليه ان يبتهج للهجاء المكال لسيده القديم .

— ولماذا أمسك الامبراطور الكسنـدر بزمام قيادة جيوشه ؟ ما الفائدة ؟ ان الحرب مهنتي . اما هو فأن مهنته ان يحكم لا ان يقود الجيوش . لماذا اضطلع بمثل هذه المسؤولية ؟

اخرج نابوليون مسعطـه مرة اخرى ثم سار بضع خطوات دون ان يتكلم وفجأة توجه الى بالاشيف ورفع يده الى وجه ذلك الجنرال الروسي ذي السنوات الاربعين بحركة متزنة فجائية وبسيطة ـ وكأنه يقوم بعمل هام ومتملق ـ وجذب اذنه جذباً خفيفاً وهو يرسم على شفتيه ابتسامة .

« ان تجذب الاذن من قبل الامبراطور » يعتبر في البلاط الفرنسي شرفاً كبيراً بل وحظوة عالية .

سأل وهو يعتبر ولا ريب ان من المضحك ان يكون امرؤ في حضرتـه « متملقاً » و « معجباً » برجل آخر غيره هو ، نابوليون :

ـ حسناً ، لم لا تتكلم بشيء ايها المعجب بالامبراطور الكسندر المالق له ؟

ثم أضاف وهو يجيب على تحية بالاشيف باشارة من رأسه :

ـ هل أعـــدت الجياد للجنرال ؟ أعطوه جيادي ، ان أمامه رحلة طويلة يقوم بها .

وكانت الرسالة التي حملـها بالاشيف ، الأخيرة التي كتبها نابليون الى الكسندر . لقد نقلت كل تفاصيل المقابلة الى امبراطورروسيا وبدأت الحرب ...

★ ★ ★

الفصل الثامن

عودة الى ليسياجوري

بعد مقابلة مع بيير في موسكو ، سافر الامير آندرية الى بيترسبورج لبعض الأعمال كما قال لاقربائه ، ولكنه في الحقيقة كان يرمي من وراء ذلك الى اجراء مقابلة مع الأمير اناتول كوراجين كان يراها ضرورية . بحث عنه فور وصوله ولكن دون جدوى . ذلك ان اناتول الذي اخطره أخو زوجته بأن آندريه يطارده ، لم يلبث حتى التمس من وزير الحربية عملاً في جيش مولدافيا وحصل على ما أراد . قابل آندريه خلال اقامته في العاصمة ، كوتوزوف ، جنراله السابق دائم الاستعداد لاداء ما يحتاج اليه فعرض عليه هذا ان يصحبه معه الى مولدافيا حيث عين قائداً أعلى . فقبل آندريه وذهب الى تركيا بوصفه ملحقاً في اركان حرب الجنرال .

ماكان أرسل طلب مبارزة الى كوراجين ليلقي قبولاً من جانب الأمير آندريه الذي ماكان يريد المساس بسمعة الكونتيس روستوف بأي ثمن . لذلك كان يبحث عن مقابلة شخصية مع أناتول تسمح له أن يتحداه متخذاً حجة اخرى . لكنه كان أملاً ضائعاً : ذلك ان أناتول حال وصول الأمير الى الجيش التركي، بادر بالعودة الى روسيا . ولقد شعر أندريه في ذلك البلد الجديد ببعض الارتياح بفضل الشروط الحياتية الجديدة . ولقد وجهت

اليه خيانة مخطوبته ضربة شديدة الايلام حتى انه لمزيد ألمه ، كان مرغماً على عدم التظاهر بمبلغ عذابه . ومنذ ذلك الحين ، بدت له المباهج الذي كان يتذوقها في الحياة تافهة وتلك الحرية وذلك الاستقلال اللذين طالما قدرهما من قبل اكثر تفاهة وسلاخة . وتلك الأفكار التي واتته تحت سماء اوسترليتز ، والتي كان يحب تعميمها مع بيير ، تلك الافكار التي لشد ماافتتن وحدته في « بوجوتشارفو » وسويسرا وروما والتي كانت تفتح له آفاقاً مضيئة لامتناهية ، لم يعد يتوقف عندها بل انه كان يدفع عنه حتى مجرد ذكراها . لم يعد يهتم الآن الابالمصالح الدارجة الأكثر آنية دون رابطة مع المصالح السابقة ويتعلق بحماس تزداد شدته كلما ابتعدت هذه عن مشاغله السالفة . وتلك القبة اللامتناهية التي كانت منتشرة من قبل فوق رأسه بدت وكأنها استبدلت باخرى منخفضة محدودة اخذت تسحقه ، قبة يبدو كل شيء تحتها جلياً واضحاً ليس تحتها شيء غامض أو خالد .

كانت الخدمة العسكرية بين كل المشاغل التي تعرض له ، أبسطها وافضل ما يتقنه منها . ولقد أكبّ على واجباته كجنرال مساعد عسكري فانجزها بكثير من الغيرة والدقة حتى ان كوتوزوف نفسه دهش لها . ولما لم يعد يجد كوراجين في تركيا ، فانه لم يقدر ان من المناسب الجري وراءه الى روسيا . ولكنه لم يكف عن الاسرار لنفسه بأنه رغم مرور الزمن والاحتقار الذي يشعر به حيال هذا الشخص ورغم كل مالديه من اسباب تجعله يجده غير جدير بمبارزة ، يتحداه عند أول فرصة دون مراء ، مثله في ذلك كمثل الرجل المتضور من الجوع الذي يلقي بنفسه على الطعام بحكم غريزته . فكان احساسه بأن اهانته لم يُنتقم لها وان الغضب لايزال يغلي في أعماق قلبه ، يسمم الهدوء الذي اصطنعه في تركيا بفضل فاعلية متحركة نوعاً ما ، كان الزهو بل والطمع يجد ان فيها حسابهما .

عندما بلغ نبأ الحرب مع نابليون عام ١٨١٢ الى بخاريست[١] حيث كان كوتوزوف منذ شهرين يمضي الليل والنهار لدى خليلته « فالاك »، التمس الأمير آندريه تعيينه في جيش الغرب . فامتثل كوتوزوف الذي كانت غيرة بولكونسكي تبدو له الآن لوماً عنيفاً على قلة مروءته الشخصية ، لطلبه واسند اليه مهمة لدى باركلي دوتوللي .

وقبل ان يلحق بالجيش الذي كان يحتل معسكر دريسّا في ايار، قرر آندريه ان يمر « بلسيياجوري » اذ ان هذا الملك الذي يقع على بعد مرحلة صغيرة من طريق سمولنسك الكبيرة ، كان كذلك على طريقه ولقد استجد خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة كثير من التبدل في حياته ، كثير من الانقلابات في طرق تفكيره وتحسسه ورأى كثيراً من الأشياء خلال رحلاته في الغرب كما في الشرق حتى انه شعر بذهول حقيقي عندما وجد في ليسيا جوري نهج الحياة اياه الذي لم يتبدل حتى في اتفه تفاصيله . وعندما اجتاز الممشى وتخطى الباب الكبير ، ظن أنه قد ولج قصراً مسكوناً نائماً . فالنظام والصمت والنظافة لازالت سائدة في ذلك البيت والأثاث لازال اياه والجدران نفسها والحركات ذاتها والرائحة بعينها والوجوه الوجلة نفسها وان كانت قد هرمت بعض الشيء. كانت الأميرة ماري لازالت هي هي ، دميمة وجلة متصاعدة في السن ، أمضت أجمل سنيها دون اية فائدة ولاأية بهجة في مخاوف والام سرمدية . والآنسة بوريين لازالت تلك المغناج شديدة الرضى عن شخصها الصغير تعرف كيف تتمتع بأتفه اللحظات وتنسج لنفسها اكثر الآمال اشراقاً . وديسال ، المدرس الذي جاء به من سويسرا ، كان الآن مرتدياً « رودنجوتاً » على الطريقة

---

(١) بخارست ، وبالرومانية بوكوريختي ،عاصمة رومانيا على نهر دامبوفيتزا من روافد الدانوب الثانوية سكانها ٩٨٤,٠٠٠ نسمة .

الروسية ويتحدث روسية فاسدة عندما يخاطب الخدم . لكنه لازال ذلك المربي الذي كان ، بذكائه القليل وثقافته وصلاحه على جانب من التحذلق . أما الأمير العجوز ، فان نقص سن في زاوية الفم ، كان التبدل الجسدي الوحيـــد الذي يلاحظ عليه . أما تبدله المعنوي فكان سرعة غضبه المتفاقمة و « شيطقته » الآخذ في الازدياد حيال كل احداث هذا العالم . الا انه نيكولا الصغير وحـده هو الذي كبر وظهرت تقاسيمه . كان يضحك تحت شعره الفاحم العكف دون ان يدرك السبب ، يسليه كل شيء ويرفع الشفة العليا من فمه الجميل كما كانت تفعل الأميرة الصغيرة المتوفاة . كان وحده لا يخضع لنظام الاستقرار الذي بدا وكأنه يتحكم في ذلك القصر المسحور . ولكن ، على الرغم من ان المظاهر ظلت دون تبديل ، فان العلاقات الخاصة بين السكان قد تبدلت كثيراً منذ رحيل آندريه . كانوا الآن يؤلفون معسكرين معادين غريبين احدهما عن الآخر ، ارغمها وجوده على التقارب لبعض الوقت . فالأمير العجوز والآنسة بورين والمهندس ينتمون الى احد المعسكرين بينما يتألف المعسكر الآخر من ماري وديسال ونيكولا الصغير والخدم والمرضعات .

خلال اقامته ، تناولوا جميعهم الطعام معاً . لكن آندريه كان يرى انهم يعاملونه معاملة الضيف الذي يقومون اكراماً له باستثناء للقاعدة والذي يزعجهم وجوده . ولقد شعر بغريزته بهذا الارتباك في اليوم الاول فلم يتكلم الا لماما بينما تمسك الأمير العجوز الذي لمس مظهر ولده المصطنع بصمت عنيد وانسحب فور الانتهاء من الطعام . وعندما دخل عليه آندريه حوالي المساء ليراه ، راح يقص عليه حملة الكونت كامنسكي الشاب ظناً منه ان هـــذا سيرد له طبيعته المألوفة فكان أبوه يقاطعه متشكياً من ماري متهماً اياها بانها تؤمن بالخرافات وتكره الآنسة بورين « الشخص الوحيـد – كما أكد – المخلص لي اخلاصاً حقيقياً » .

فاذا كان الامير العجوز مريضاً فانما الذنب – على دعواه – ذنب ماري وحدها التي تتعمد إيلامه واثارة أعصابه، والتي تفسد نيكولا الصغير بفرط رحمتها وقصصها البلهاء . وكان في الواقع يعرف تماماً انه هو الذي يعذب ابنته . لكنه كان يعرف كذلك انه لايستطيع الامتناع عن ذلك وانها - على أية حال – تستحق مثل تلك المعاملة . كان يحدث نفسه : « لماذا لايحدثني آندريه ، الذي يرى كل هذا ، عن ماري شيئاً ؟ هل يتصور اتفاقاً انني فاجر اومجنون عجوز ابتعدت عن ابنتي لأكون على مايرام مع الفرنسية ؟ انه لايفهمني . لذلك يجب ان اشرح له كل شيء ، يجب ان يفهمني . » وراح يشرح الأسباب التي تجعل عقلية ابنته المستحيلة غير محتملة .

قال آندريه دون ان ينظر الى أبيه لأنه كان للمرة الأولى سيسمح لنفسه بلوم أبيه :

– لو أنك لم تثر هذه المسألة للبثت صامتاً . لكنك وأنت تسألني رأيي ، فانني سأقول لك بصراحة ما أراه في كل هذا . اذا كان هناك سوء تفاهم بين ماشا (تصغير ماري) وبينك فانني لا استطيع ان اجعلها مسؤولة لأنني أعرف مقدار ما تحبك وتحترمك .

واستطرد آندره وهو يستسلم لانفعال بات مألوفاً لديه منذ بعض الوقت .

– وطالما أنك تسألني الرأي ، لن أقول لك إلا شيئاً واحداً : ان الخلاف اذا كان هناك خلاف ، ناشيء عن هذه الامرأة الحقيرة وحدها التي ما كان يجب ان تكون مرافقة اختي .

لبث العجوز بادىء الأمر مشدوهــاً وعيناه تحدقان في ولده ثم كشف بابتسامة مرغمة عن ذلك الفراغ الذي أحدثه فقـدان السن في زاوية فمه ، ذلك الفراغ الذي لم يكن آندريه ليألفه بعد .

– من هي هذه الرفيقة ياعزيزي ؟ . . . لقد اثاروك قبل ان تدخل إليْ ؟

استلقى آندريه بلهجة قاسية محتدة :

– أبي ، ما كنت اريد ان اقاضيك . ولكن ، طالما انك أثرت هذا الايضاح ، فقد قلت لك واكرر القول وسأظل مصراً على ان ماري ليست مذنبة ... كلا ، ان المذنبين .. المذنبة ، هي هذه الفرنسية .

قال الأمير العجوز بصوت هادىء كانت تظهر فيه بادرة بلبلة :

– آه ! انك تحكم علي ! .. انك تحكم علي ! ..

لكنه قفز فجأة وهتف :

– اخرج من هنا ! اخرج من هنا ! لا تطأ بعد الآن هذا المكان ! ..

أراد آندريه ان يذهب لفوره ، لكن ماري توسلت اليه ان يطيل بقاءه أربعاً وعشرين ساعة اخرى . لم ير طيلة ذلك اليوم أباه الذي لم يخرج قط من جناحه ولم يتقبل فيه الا الآنسة بوريين وتيخون والذي سأل مرات عديدة عما اذا كان ابنه قد رحل . وفي اليوم التالي ، قبل سفره ، ذهب آندره لرؤية نيكولا الصغير . جاء الغلام قوي البنية الذي كان شعره المكف يذكر الناظر بشعر امه وجلس على ركبتيه فراح آندريه يقص عليه حكاية بارب [1] – بلو (ذي اللحية الزرقاء) . لكنه لم يكمل قصته بل راح يفكر . نسي هذا المخلوق اللطيف الصغير الذي كان يجلسه على ركبتيه وراح يفكر في نفسه . لقدأغضب أباه وها هو يغادر بعد ان اختصم معه للمرة الاولى في حياته دون ان يشعر بندم

(١) بارب بلو أي اللحية الزرقاء ، اسم للشخصية الرئيسية في قصة « لبيرو » ولقد سمي هذا الرجل بهذا الاسم بسبب لون لحيته وكان قد ذبح ست زوجات وبات على وشك الحاق الزوجة السابعة بهن عندما انقذت هذه من قبل اخوتها الذين قتلوا الزوج الدموي .

أو بأسف . بل انه راح يبحث في أعماقه عن ذلك الحنان الذي طالما أحس به حيال ابنه والذي كان يأمل ان ينميه بملاطفة الصغير وحمله على ركبتيه ولكن — وهذا أخطر من الأمر الاول — دون ان يجد له أثراً .

قال الفتى :

— حسناً ، إنه قصتك ، إنها .

فرفعه عن ركبتيه دون ان يجيبه وخرج .

ما كان الأمير آندريه يهجر مشاغلة اليومية ويعود الى شروطه الحياتية التي كان يعيش فيها عندما كان سعيداً حتى يستحوذ عليـــه الاشمئزاز من الحياة بأكثر قوة من ذي قبل فكان يتعجل الافلات باسرع ما يمكن من تلك الذكريات لينغمس في فاعلية ما .

قالت له اخته :

— هل تذهب يا آندريه ولا بد ؟

فأجابها .

— انني أشكر الله على أنني أستطيع الذهاب وأرثي لك لأنك لا تستطيعين ان تحذي حذوي .

هتفت ماري :

— ماذا أنت قائل ؟ لاتنسى أنك ذاهب الى هذه الحرب الرهيبة وانه عجوز هرم ! لقد سأل عما إذا كنت لاتزال هنا . لقد أخبرتني الآنسة بوريين بذلك .

ما كادت تطرق هذا الموضوع حتى ارتعدت شفتاها من التأثر في حين انبعثت الدموع من عينيها . فأشاح آندريه بوجهه وراح يذرع الغرفة .

قال بسورة اذهلت اخته :

— آه ! رباه ! عندما يفكر المرء في ان مخلوقات على هذا الدرك من الحقارة تستطيع ان تسبب تعاسة الآخرين !

حدست انه بحديثه عن المخلوقات الحقيرة لم يعن الآنسة بوريين وحدها التي

سببت شقاءها هي بل كذلك الرجل الذي دمر سعادته هو .

قالت له وهي تلمس مرفقه وترفع اليه عينيها اللتين كانتا تلتمعان خلال دموعها :

— آندريه ، أنني أفهمك . ولكن لا تعتقد ان الألم من صنع البشر . ان البشر ليس إلا أداوت للألم .

وتجاوزت نظرتها رأس آندره ، احدى تلك النظرات الواثقة من ايجاد صورة ممجدة في مكانها المألوف :

— انه هو ، وليس البشر الذي يرسل الينا الألم . ان الرجال أدوات وهم ليسوا مذنبين . فاذا كنت تظن ان بعضهم اساء اليك ، انسى واصفح اذ ليس من حقنا ان نعاقب وحينئذ ستتذوق بهجة الصفح .

— لو كنت امرأة ياماري لكان هذا ما أفعله . ان الصفح فضيلة النساء . أما الرجل فلا يجب بل ولا يستطيع ان ينسى وان يصفح .

وعلى الرغم من انه لم يكن حتى ذلك الحين قد فكر في كوراجين ، فان كل غضبه الذي لم يشبع ، استيقظ فجأة في قلبه . حدث نفسه : « اذا كانت ماري أصبحت تجرأ على ان تسألني الصفح عنه فما ذلك إلا لأنه كان يجب ان اعاقبه منذ زمن طويل » . ودون ان يستمر في الرد على اخته ، راح يفكر بفرح حقود في اللحظة التي سيقابل فيها كوراجين الذي يعرف انه في الجيش .

توسلت ماري الى أخيها مرة اخرى ان يمكث يوماً آخر ونبهته الى مبلغ ما سيكون أبوه تعيساً اذا ذهب آندريه دون ان يتصالح معه . فرد آندريه بأنه يستطيع ان يعود قريباً من الجيش وانه لن يتخلف عن الكتابة الى أبيه ، بينما لن تكون اطالته مدة اقامته الا تعقيداً للأمور .

— وداعاً ياآندريه ، تذكر ان الآلام تأتي من الله وان بني البشر ليسوا أبداً مذنبين .

تلك كانت الكلمات الاخير التي قالتها له اخته في لحظات الوداع .

فكر آندريه وهو يغادر ممشى ليسيبيا جوري : « لابد وان الأمر يجب ان يكون كذلك ! ان هذه المخلوقة المسكينة البريئة ستبقى فريسة هذا العجوز الذي لم يعد مالكاً رشده . انه يشعر تماماً بأنه مذنب لكنه لا يستطيع ان يصحح أخطاءه . ان فتاي الصغير يكبر ويبتسم للحياة وسيكون ككل الآخرين إما خادعاً واما مخدوعاً . انني ذاهب الى الجيش . لماذا ؟ لست أدري . ثم انني أرغب في لقاء هذا الرجل الذي أحتقره لكي أمنحه فرصة قتلي أو الاستهزاء بي ! »
ظلت العوامل التي تؤلف حياته هي نفسها لكنها فقدت كل تناسق فلم تعد تمر في رأسه إلا أخيلة متباعدة ليس بينها أي رباط .

* * *

الفصل التاسع

حالة الجيش

وصل الأمير آندريه الى القيادة العامة في نهاية حزيران وكان الجيش الأول الذي يقوده الامبراطور يحتل معسكر دريسا المحصن والجيش الثاني يتراجع محاولاً ان يلحق بالاول الذي كانت تفصله عنه - على ما قيل - قوات فرنسية هائلة . وكان الناس كلهم غير راضين عن سير العمليات العام ولكن ما من احد كان يتوقع غزواً للاقاليم الروسية الحقيقية كما أن ما من احد كان يستطيع الافتراض ان الحرب ستنتقل الى ماوراء الأقاليم البولونية .

وكان باركلي دوتولي الذي ارسل اليه كوتوزوف الأمير آندريه ، يقيم في مشارف دريسا . ولما لم تكن هناك قرى صغيرة أو كبيرة قريبة ، فان الجنرالات العديدين الكثر من البطانة الذين كانوا في الجيش كانوا يحتلون على قطر ثلاث مراحل دائرياً ، أفضل المساكن في الضياع الواقعة على كلا شاطىء النهر . وكان باركلي دوتولي يقطن على بعد مرحلة من الامبراطور . استقبل بولكونسكي ببرود ، وقال له بلهجته الأجنبية انه قبل ان يعهد اليه بأي عمل ، سيعود الى استشارة جلالته . ولكنه بانتظار ذلك ، يلحقه بهيئة أركانه . امـــا اناتول كوراجين الذي كان آندريه يفكر في ايجاده في الجيش ، فكان قد عاد

الى بيترسبورج . ولقد وجد هذا النبأ وقعاً حسناً في نفسه اكثر مما كان ينتظر ان يزعجه لأنه عندما وصل الى مركز العمليات التي كانت سعتها لامتناهية ، شعر بصلاحته تستيقظ في اعماقه فلم يسخط قط لأنه تحرر لوقت ما من الانفعال الذي كان يثيره فيه التفكير في كوراجين .

طاف خلال الاربعة الايام الاولى التي لم يلجأ احد فيها الى الانتفاع بخدماته بالمعسكر المحصن وحاول ان يكون لنفسه فكرة صحيحة عنه بفضل معلوماته ومداولاته مع أشخاص ذوي نفوذ . كان يتساءل عما اذا كان لهذا المعسكر سبب لوجوده دون ان يصل قط الى ايجاد الجواب. ولقد علمته تجاربه في الحرب وخصوصاً معركة اوسترليتز ، ان اكثر الخطط إحاطة وأعمقها دراسة ليس لها الا أهمية جد ضئيلة وان كل شيء يتوقف على الطريقة التي يُرد بها على الضربات الفجائية غير المتكهن بها التي يوجهها العدو وعلى الاسلوب الذي تدار به العمليات وقيمة الرؤساء. ولكي يعرف كيف يرتكز حول هذه النقطة الأخيرة ، فقد اجتهد بفضل مركزه ومعارفه ، ان يتوغل في عقلية القيادة العليا والأشخاص والجماعات الذين يساهمون فيها وتوصل أخيراً الى تحضير اللوحة التالية من هذه المجموعة .

عندما كان الامبراطور لايزال في فيلنا ، كانت قواتنا مقسمة الى ثلاثة جيوش يقود الاول باركلي دوتولّلي والثاني باجراسيون والثالث تورماسوف . وكان الامبراطور مع الجيش الاول ولكن دون ان يشغل منصب القائد الأعلى . ولقد كانت البيانات الملكية تنص على انه سيكون موجوداً وليس على انه سيكون قائداً . ولم تكن حوله أية هيئة أركان لقيادة عليا ولكن هيئة أركانه العامة الشخصي التي كان يرأسها الجنرال الأول فولكونسكي [1] . وكان هناك جنرالات ومساعدون عسكريون ودبلوماسيون وطائفة من الغرباء ولكن ليس من هيئة قيادة للجيش . وكان يرى كذلك الى جانب الامبراطور دون مهمة خاصة ، وزير

(١) ـ نلفت نظر القارىء الى ان فولكونسكي هذا غير الأمير آندريه بولكونسكي ، حتى لايتخبط في تتبع سياق القصة لما بين الاسمين من تشابه كبير .

الحربية السابق أراكتشييف والكونت بينيجسن أقدم الجنرالات رتبة وقريب القيصر كونستانتـــان بافلوفيتش والمستشار الكونت روميانتسيف والوزير البروسي السابق ستين والجنرال السويدي ارمفيلت وبفويل ، واضع مخطط الحملة الرئيسي واللاجىء السرديني (من سردينيا) « بولوكشي » والمساعد العسكري الجنرال فولزوجن وكثيرون آخرون . وعلى الرغم من انعدام المهمات الرسمية لهؤلاء الاشخاص ، فانهم كانوا يمارسون اية حال سلطة مـا . فكان غالباً ما لايعرف قائد فوج أو حتى قائد عام بأية سلطة يسأله بينيجسن أو الجراندوق أو آراكتشييف أو الأمير فولكونسكي عن هذا أوذاك من الامور وينصحه بتنفيذه ويجهل ما اذا كان هذا الأمر أو ذاك يُنقل اليـــه من عندياتهم ام مستمداً من الامبراطور ومنقولاً اليه على شكل نصيحة ومـا اذا كان عليه تنفيذه ام لا . بيد ان كل هـذا لم يكن اكثر من مجرد مظهر : فكلٌ كان يعرف ما معنى بطانة – ومن ذا الذي ما كان يصبح مشايعاً للامبراطور في حضرته ؟ ومعنى وجود الكسندر في الجيش ووجود كل هذه الشخصيات . واذا كان الامبراطور لم يتخذ بالفعل لقب القائد الاعلى ، فان الجيوش كلها ما كانت أقل ائتماراً بأمره اما كل من حوله فمساعدون له فأراكتشييف هو الحارس الأمين للنظام والمرافق لجلالته . وبينيجسن ، رغم كل تظاهره بالاكتفاء بجفاوات البلاد بوصفه ملاكاً كبيراً لاقطاعية مجاورة ، جنرالٌ ممتازٌ يصغي الى رأيه بكل ارتياح ويحتفظ رهن الاشارة ليحل محل باركلي . واذا كان الجراندوق هناك ، فلأن تلك كانت رغبته . أما الوزير السابق ستين ، فكان بوصفـه خير مشير ولأن الامبراطور يتذوق صفاته الشخصية البـارزة . بينما آرمفيلت أسوأ أعداء نابوليون وجنرال معتـــد بنفسه ، الأمر الذي كان له أثر قوي في نفس الامبراطور . ووجود بولوكشي ، مرده الى اجرأة أحاديثه وأثرها ، في حين ان المساعدين العسكريين الجنرالات ملزمون على مواكبة الأمبراطور دائماً . وأخيراً ، وهذه نقطة جوهرية

كان بفويل هناك لأنه واضع مخطط حملة استطاع بفنه ان يجعل الكسندر يوافق عليه فكان في واقع الحال هو الذي يـدير كل العمليات . والى جانب بفويل ، وقف فولزوجن يترجم بشكل عملي أفكار هذا الرجل ، العالم النظري الغضوب شديد الافتتان بنفسه ، حتى ليظهر حيال كل شيء اشمئزازاً مترفعاً . وفيما عدا هؤلاء الاشخاص الروسيين والغرباء ، وخصوصـاً الغرباء الذين كانوا يقترحون كل يوم خططاً جديدة بالجرأة الطبيعية لكل شخص يمارس نشاطاً في وسط غير وسطه ، فيما عدا هؤلاء ، كان كثيرون آخرون يتبعون في المرتبة التالية نجاح أسيادهم في الجيش .

لم يلبث آندريه ان ميّز بين كل هذه الآراء المشرقـة في هذا « العالم » الصاخب الزاهي المترفع ، تيارات عديدة واضحة المعالم .

فالفريق الأول كان يتـألف من بفويل ونظريين آخرين آمنوا بوجود علم للحرب ، علم يرتكز على قوانين ثابتة أشبه بالحركة الزوراء والالتفاف حول العدو الخ .. فكان بفويل ومشايعوه يطالبون بانسحـاب الى داخل البلاد نزولاً عند القواعد الدقيقة التي وضعتها نظرية الحرب المزعومـة ويعتبرون كل مخالفة لهذه النظرية ، دلالة على البربرية والجهل وقصر النظر . وكان الامراء الألمان وفولزوجن وونتزنجيرود وكثيرون معظمهم من الألمان يشايعون هذا الفريق .

والفريق الثاني يعـارض الفريق الأول على طول الخط ، ضدّ كلما استدعي سواه . وكان اتباع هذا الفريق يطالبون منذ « فيلنا » بهجوم في بولونيا واغفال كل خطة مسبقة . وهم يمثلون الجراءة في العمل ويجسدون العقلية والقومية ومن ثم يظهرون اكثر كمالاً من كل أخصامهم . كان هؤلاء روسيين منهم باجراسيون وايكرمولوف الذي بدأ في التقـدم والذي تكللت احدى هجماته بنجاح كبير فقال للامبراطور الذي ترك له أمر اختيـار المكافأة : اريد ان أرفع الى مرتبة « ألماني » . كان اعضاء هذا الفريق يستعرضون ذكرى سوفوروف ويرددون

حيثما كانوا ان من العبث بنـاء نظريات وغرس دبابيس على الخرائط وانه يجب القتال وهزم العدو ومنعه من دخول روسيا وعـــدم ترك المجال لقواتنا لتفقد معنوياتها .

والفريق الثالث ، ذلك الذي يوحي الى الامبراطور بأكبر ثقة ، كان يضم المشايعين من البطانة ومن بينهم أراكتشييف . وكان هؤلاء ينادون بالتوفيق بين الجانبين المتنابذين ، يفكرون ويقولون مايقوله عادة اولئك الذين لا معتقدات لهم بل يرغبون في الحصول على بعضها . كانوا يؤكـدون ان الحرب وخصوصاً مع خصم عبقري كبونابرت ـ ذلك انهم عـــادوا الى تسميته ببونابرت من جديد ـ تتطلب ولا شك علماً تاماً واكثر التـدابير براعة . لذلك فان بفويل عبقري حقاً في هذا الصدد . ولما كان لا يمكن الانكار بحال ان النظريين غالباً ما يكونوا مانعين ، فانه لابد ـ وهم الذين لايمنحونهم ثقة تامة ـ من الاصغاء بنفس الوقت الى خصم بفويل ، وهم الرجـال العمليون المجربون ، واتخاذ حل وسط بينهم . وتبعاً لذلك ، فانهم وهم يعترفون بضرورة ابقـاء معسكر دريسا استجابة لخطة بفويل ، يتطلعون الى تعديل سير الجيشين الآخرين وعلى الرغم من انه بهذه الطريقة لايمكن بلوغ أي من الاهداف المقترحة ، فان أعضاء هذا الفريق كانوا يزعمون أن ذلك أفضل الحلول .

أما تيار الآراء الرابع ، فكان رأسه التسيزاريفيتش . كان هذا لا يزال محتفظاً في ذاكرته خيبته في اوسترليتز ، حيث تقدم وكأنـه في عرض ، بخوذته وسترته القصيرة ، على رأس الحرس وهو قانع بأنه سيسحق الفرنسيين بكل بسالة ولكنه أخذ على حين غرة في الخط الامامي فاحاطت به الفوضى ولم يتخلص الا بشكل محزن . لقد كان لرجال هذا الفريق فضيلة الاخلاص وخطيئته . كانوا يخافون نابوليون ويعرفون قوته وضعفهم ثم لايجدون غضاضة في التصريح بذلك . كانوا يرددون : « لن يلحق هذا كله الا الضر والهزيـة والعار بنا . لقد تخلينا حتى

الآن عن فيلنا ثم عن فيتيبسك . وسوف نتخلى كـذلك عن دريسا . ان الحل المعقول الوحيد الذي بقي علينا ان نأخذ به هو التوصل الى صلح بأسرع مايمكن اذا كنا لانريد ان نطرد من بيترسبورج ! »

كان لهذا الرأي المنتشر في المقامات العالية من الجيش ، صدى في بيترسبورج بل وحتى في نفس المستشار رومـيـــا نتسيف الذي كان ينشد الصلح ولكن لأسباب اخرى .

وكان هناك معسكر خامس يساند باركلي دوتولـّلي بسبب مركزه كوزير للحربية وقائد أعلى اكثر مما كان يسانده لقيمته الشخصيـة . وكان رجال هذا الفريق يقولون : « مهما بلغت أخطاؤه – وكانوا أبـدا يبدأون بهذه العبارة – فانه رجل نشيط ونبيل وليس لدينا أفضل منه . أعطوه سلطـة حقيقية ، لأن وحدة القيادة في الحرب هي شرط النجاح ، وسيريكم مايستطيع صنعه كما أظهره من قبل في فنلندا . فاذا استطاع جيشنا ان ينسحب دون عوائق حتى دريسا ، واذا كان الآن قوياً ومنظماً ، فاننا مـدينون بذلك الى باركلي وحده . فاذا استبدلناه بـ : بينيجسن ، ضاع كل شيء . لقـد برهن بينيجسن اكثر مما يجب عن عجزه عام ١٨٠٧ . »

والفريق السادس ، انصار بينيجسن ، كانوا على العكس يؤكدون ان ما من احد اكثر نشاطاً واكثر خبرة من هذا الرجل وانه لابـد من الرجوع اليه إن عاجلاً أو آجلاً ، وان تراجعنا الى دريسا ليس في الواقع الى هزيمة مخزية سببتها سلسلة من الاخطاء . « وكلما اجتمعت أخطاء متشابهة كان ذلك أفضل : اذ يُفهم باكثر سرعة ان الأمر لايمكن ان يسير على هذا النحو . ان مايلزمنا ليس باركلي ما ، بل رجلاً مثل بينيجسن الذي قدم براهينـه من قبل ، عام ١٨٠٧ والذي اعترف له نابوليون بالذات بجدارته . انه الوحيد الذي سينحني كل الناس أمامه .

اما التابعون للفريق السابع فكانوا من الاشخاص الذين لايعدم المرء مقابلة

امثالهم في محيط الامراء والعظماء الشبان والذين كانوا كثراً بصورة خاصة حول الامبراطور الكسندر، تعدادهم جنرالات ومساعدون عسكريون مخلصون اشد الاخلاص للرجل اكثر من اخلاصهم للعاهل. كانوا يعبدونه بتجرد نزيه كما كان يعبده روستوف عام ١٨٠٥ ويعزون اليه ليست الفضائل كلها فحسب، بل وكل الصفات الانسانية. كان هؤلاء يمجدون ويذمونه بالوقت نفسه تواضع مولاهم الذي رفض القيادة العليا ويرغبون في ان يعلن مليكهم مسكه زمام قيادة الجيش نابذاً قلة ثقته المفرطة في نفسه، وان ينظم هيئة اركان كبرى. وبعد ان يستشير – عند الاقتضاء – رجال النظريات كما يستشير الرجال العمليين الأكثر خبرة، يقود بنفسه جيوشه الى القتال اذ أن وجوده وحده، يملأ الرجال بحماسة جنونية

بيد ان المعسكر الثامن والأهم، الذي تبلغ نسبته الى السابقين تسعة وتسعين الى واحد، فقد كان يضم الأشخاص الذين لايريدون الحرب ولاالسلم ولا المعسكر المحصن على دريسا او في مكان آخر ولاباراكلي ولاالامبراطور ولا بفويل ولا بينيجسن، لأن مصالحهم ومسراتهم كانت أكثر أهمية في نظرهم كما كانت الهدف الأوحد الذين يسيرون وراءه. وكان المستحيل يصبح ممكناً في هذه البلبلة من الدسائس التي تتقارع وتتشابك في المعسكر الامبراطوري. فهذا أحدهم يشارك اليوم بفويل في الرأي خشية ان يفقد مركزاً رابحاً وغداً يشارك خصومه ويؤكد بعد غد انه لارأي له حول نقطة الخلاف. كل ذلك دفعاً للتعرض للخطر وحرصاً على البقاء حول مليكه. وذاك راغب في بلوغ مركز مكين، يستلفت انتباه الامبراطور بالمناداة برأي كان هذا قد ألمح به بالأمس، ويناقش ويصيح في المجلس ويكيل لنفسه ضربات قوية على صدره ويطلب المعارضين له الى المبارزة ليثبت بذلك انه على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل الصالح العام. وثالث بين مجلسين وفي غياب أعدائه، يلتمس دون

خجل عوناً مادياً لقاء خدماته المخلصة وهو عارف انه لن يكون هناك متسع من الوقت لرفض طلبه ورابع مرهق دائماًبالعمل وكأنه بفعل متعمد ، كلما أراد سيده رؤيته . وخامس ، بغيه الحصول على بطاقة دعوة الى المائدة الامبراطورية طالما تاقت نفسه اليها ، يبرهن بكثير من الحجج المتفاوتة بالقوة ، صحة نظرية شائعة رائجة أو بطلانها .

كان هذا الثول من الزنانير لايفكر في امتصاص المال والأوسمة والمناصب همه ان يسترشد باتجاه ميل الرعاية الامبراطورية . فما انتتجه الى وجهة ما حتى ينفخ في ذلك الاتجاه بالذات بشكل يتعذر معه على الامبراطور تحويل رعايته الى ناحية اخرى . وكان هذا الفريق الثامن ، وسط قلق الساعة والبلبال الذي أحدثه الخطر الماثل ، وبين كل هــذا الأعصار من الدسائس والأنانيات والخصومات بين الاتجاهات المختلفة المتعارضة ، بين كل هؤلاء الناس من مختلف الجنسيات ، كان هذا الفريق الأكثر عدداً ، المنصرف الى مصالحه الشخصية ، يعقد سير الامور بصورة خاصة . وأياً كان الموضوع المثار ، كان هــذا الثول من الزنانير الذي لم يفرغ بعد من التبويق في الموضوع الذي كان يشغله من قبله ، يطير سباقاً الى الموضوع التالي فيكتم بطنينه الأصوات المخلصة التي تساهم في النقاش

وفي اللحظة التي وصل فيها الأمير آندريه الى المعسكر ، بدأ فريق تاسع يرى النور . انه فريق الأشخاص المسنين العاقلين الذي حطمتهم الأعمال والذين ما كانوا يشاطرون أحداً بالآراء القائمة بل يفحصون بتجرد ما يدور في البلاط الامبراطوري ويبحثون عن الوسيلة التي يصفون بهـا حداً للقلق والتردد والغموض والضعف .

كان هؤلاء يقولون ويفكرون في ان الضرر ناجم قبل كل شيء عن وجود الامبراطور وحاشيته العسكرية في الجيش وان الجو الاتفاقي والتقلب السائدين

في البلاط يضران ابلغ الضرر بالجيش وان دور الملك هو أن يحكم وليس أن يقود الجيوش ، وانه ليس هناك غير مخرج واحـــد للمأزق : الا وهو رحيل الامبراطور الذي يشل وجوده خمسمائة الف جندي ضروريين لتأمين أمنه وان جنرالاً قائداً أعلى رديئاً ولكن مستقلاً ، أفضل من رئيس من المرتبة الأولى مرتبط بحضره الامبراطور ورغبته السامية .

وبينما الأمير آندريه يقيم في المعسكر دون ان يضطلع بأية أعباء ، رفع أحد اعضاء هذا الفريق الأكثر نفوذاً ، وهو سكرتير الدولة شيخكوف ، رسالة الى الامبراطور موقعة من بالاشيف واراكتشييف . ولقد استغل الاذن الممنوح له بالحكم على سير الامور ، فألمح بعبارات محترمة الى العاهل ان وجوده في العاصمة ضرورة لانارة حماس الجماهير الحربي .

ولقد فهم الكسندر ضرورة استفزاز الشعب للدفاع عن الوطن ، فاتخذها حجة ليغادر الجيش ، فكان الحماس القومي الذي ظل مستعراً طيلة وجوده في موسكو العامل الرئيسي في انتصارنا . –

* * *

الفصل العاشر

الجنرال بفويل PFUEL

لم تكن تلك الرسالة قد سلمت الى الامبراطور بعدحينما اخطر باركلي ذات يوم وقت الغداء بولكونسكي ان جلالته يرغب في رؤيته ليستفسره عن تركيا وان على الامير آندريه ان يمثل ذلك المساء في الساعة السادسة بين يديه في مسكن بينيجسن .

وكانت القيادة الامبراطورية ذلك اليوم قداخطرت بحركة جديدة لنابوليون يمكن ان تصبح خطيرة على الجيش . بيد أن النبأ دحض فيما بعد . ولقد طاف الزعيم ميشو صبيحة ذلك اليوم مع الكسندر بحصون دريسا ودلل له على ان هذا المعسكر المحصن العتيد ، انتاج بفويل ، هذه الطرفة في فن « التكتيك » ، ليس في الحقيقة إلا شيئاً تافهاً محضاً وانه لن يسبب ضياع نابوليون بل ضياع الجيش الروسي .

عندما وصل الامير آندريه الى المسكن الأميري الصغير القائم على شاطئ النهر مباشرة الذي كان بينيجسن يقيم فيه ، لم يجد فيه لا هـذا الجنرال ولا الامبراطور . لكن احد المساعدين العسكريين الجنرالات واسمه تشيرنيشيف ، استقبله وانهى اليه ان جلالته يتفقد للمرة الثانية ذلك اليوم ، تحصينات المعسكر

الذي بات الشك في جدواه يتسرب الى النفوس ، يرافقه بينيجسن والمركيز بولوكشي .

كان تشيرنيشيف جالساً الى نافذة في الحجرة الاولى يقرأ رواية فرنسية . ولا بد ان تلك الحجرة كانت في الماضي قاعة رقص لأن الارغن كان لايزال هناك وقد رصفت فوقه النجاد . وفي احدى الزوايا ، كان مساعد بينيجسن العسكري مرتمياً فوق سريره القابل للانطواء ، يغط في النوم اثر غداء فاخر ولا ريب أو وفرة عمل . كان للقاعة بابان : الباب المقابل يقود الى البهو القديم والباب الأيمن الى مكتب عمل . ومن وراء الباب الأول ، كانت اصوات ترتفع باللغة الألمانية وبالفرنسية بين حين وآخر . لم يكن هناك مجلس حربي مجتمع ، لأن الامبراطور ما كان يحب التعاريف الدقيقة ، بل اجتماع بعض الشخصيات كان يريد الاستئناس برأيهم في هذا الموقف العصيب : وبالاختصار ، مجلس سري على نحو ما . وكان بين المستدعين الجنرال السويدي ارمفيلت وفولزوجن وينتزنجيرود ، هذا الفرنسي المشايع للعدو على حد تعبير نابوليون وميشو وتول والكونت ستين الذي لم يكن قط عسكرياً واخيراً بفويل « نقطة جمع » المسألة كلها كما قيل للأمير آندريه . تسنى لهذا متسع من الوقت ليتفحص هذا الرجل لأن بفويل وصل بعده مباشرة وتحادث بعض الوقت مع تشيرنيشيف قبل ان يدخل البهو .

ومنذ النظرة الاولى – رغم انه لم يكن قد رآه من قبل – ، بدا بفويل للأمير آندريه في زي جنرال روسي سيء الحياكة كان يعطيه شكل المتنكر ، كأنه يعرفه من قبل . كان بفويل يذكر المرء بشكل غامض بالجنرالات ويروذر وماك وشميت وطائفة اخرى من امثالهم من النظريين الذين صادفهم عام ١٨٠٥ ، لكنه كان اكثرهم نموذجاً كاملاً . لم ير بولكونسكي قط من قبل ألمانيا يجمع الى هذا الحد تقاسيم كل هؤلاء الألمانيين النظريين البارزة .

كان رجلاً قصيراً شديد النحول ولكن متين التركيب قوي البنيان ذا حوض عريض وراسلين بارزي العظام وغضون تخدد وجهه وعينين غائرتين بعمق في محجريها . اما شعره المصقول من الأمام وعلى الصدغين بعجلة بالفرشاة ، فقد كان منتصباً من الوراء في خصلات هوجاء . دخل وهو يلقي نظرات قلقة ذات اليمين وذات الشمال وكأن كل شيء في تلك القاعة الفسيحة يخيفه . سأل تشيرنيشيف بالألمانية وهو يمسك سيفه بشكل اخرق عن مكان وجود الامبراطور . لابد وانه كان متعجلاً اجتياز الحجرات وارسال التحيات والتمنيات المناسبة الشكلية ليتمركز وراء خريطة ويعود الى طبيعته . ولما ابلغه تشيرنيشيف ان جلالته يتفقد التحصينات التي أمر هو ، بويفل ، ببنائها تبعاً لنظرياته الشخصية ، هز رأسه هزات عنيفة وطافت على شفتيه ابتسامة ساخرة . غمغم في سره بذلك الصوت الخفيض الذي امتاز به الألمان الواثقون من انفسهم « غباء ... أوسينهار كل شيء . . . أو يمكن توقع اشياء جميلة . . . » ولم يميز الامير آندريه تماماً ما كان يقوله فاراد ان يمر ، لكن تشيرنيشيف قدمه لبفويل مشيراً الى ان الأمير قادم من توركيا حيث انتهت الحرب هناك نهاية سعيدة . وبالكاد تنازل بفويل ان يمنحه نظرة وغمغم وهو يضحك : « لابد وانها كانت حملة تاكتيكية رائعة » . ثم ازداد تهانفاً وهو يتجه صوب الحجرة التي ترتفع منها الاصوات .

ومما لاريب فيه ، ان واقع التجرؤ على فحص وانتقاد معسكره دون وجوده ، أثار غضبة بفويل المألوفة الى أقصى حد واستعداده الطبيعي للأستهزاء . ولقد أتاحت هذه المقابلة القصيرة للأمير أندريه أن يكون لنفسه ، اعتماداً على ذكرياته عن اوسترليتز ، فكرة واضحة عن الرجل . كان بفويل واحداً من اولئك الذين يمكن أن تقود الثقة اليائسة بأفكارهم الى حد الأستشهاد والذين لايرى مثيلاً لهم الا في ألمانيا لأن الألمان وحدهم يركزون اطمئنانهم على فكرة

مجردة ، على العلم ، واعني المعرفة المزعومة بالحقيقة المطلقة . ان الفرنسي واثق من نفسه لأنه يتصور أنه يمارس ، سواءً أكان بفكره أو بجسمه ، فتنة لاتقاوم على النساء كما على الرجال . والأنجليزي يثق بنفسه لأنه يعتقد أنه مواطن في أفضل بلدان العالم مدنية : فهو بوصفه انجليزيا يعرف دائماً مايجب أن يعمل وبوصفه انجليزيا يعرف ان كل مايعمله انما هو خير ما يُعمل دون نقاش . والايطالي يثق بنفسه لأن طبيعته الأهتزازية تجعله ينسى نفسه والآخرين معه . أما الروسي فانه يثق بنفسه لأنه لايعرف شيئاً ولا يريد ان يعرف شيئاً ولأنه لايؤمن بأنه يمكن معرفة أي شيء كان . ان ادعاء الالماني أكثرها عناداً وبشاعة لأنه يتصور أنه يعرف الحقيقة ، وبعبارة أخرى العلم الذي صنعه هو نفسه والذي يعتبره بمثابة الحقيقة المطلقة .

كذلك كانت دون ريب عقليه بفويل . كان يملك علماً ، أعني نظرية الحركة المنحرفة تلك التي استلهمها من دراسته لحروب فريدريك[1] الأكبر . وتبعاً لذلك ، فان الحملات التي جاءت بعدها ، ليست في نظره الا سلسلة من الالتحامات

---

(١) فريدريك الثاني – الكبير – ابن فريدريك الأول ، ملك بروسيا ، ولد في برلين عام ١٧١٢ واعتلى العرش عام ١٧٤٠ فكان محارباً شهيراً واداريأ بارعاً أسس عظمة بروسيا واستولى على سيليزيا في معركة مولوتيز عام ١٧٤١ وقاوم بنجاح بعد أن تحالف مع انجلترا ، خلال حرب السبع سنوات مجهودات فرنسا والنمسا وروسيا المشتركة ثم أعاد تنظيم ولاياته المنهكة بسبب الحرب بدراية ممتازة فائقة . وكان سياسياً متشككاً وواقعياً ساهم عام ١٧٧٢ في أول تقسيم لبولونيا الذي كبّر رقعة ولاياته . وكان صديقاً للأدباء ، كاتباً ممتازاً يهوى الفلسفة وقد كتب مذكرات بالفرنسية واجتذب حوله الشاعر فولتير وعدداً كبيراً من رجال الفكر . توفي عام ١٧٨٦ .

السخيفة البربرية الفارغة، ارتكبت اخطاء كثيرة من جانب ومن آخر حتى أصبحت تلك الحروب لاتستحق اسم الحروب ولما كانت لاتتفق مع نظريته، فانه لم يكن يعتبرها جديرة بان تُدرس.

لقد كان عام ١٨٠٦ واحداً من واضعي الخطـــة التي أفضت الى إيينا وأويرستات. لكن هذه الهزائم لم تبرهن له قط على خطأ نظريته. على العكس، فان المخالفات التي حدثت لهذه النظرية كانت في نظره الاسباب الوحيدة للهزيمة ولقد قرر بلهجة التهكم الخاصة به قائلاً: «لقد تنبأت تماماً من قبل أن كل شيء سيذهب الى الشيطان!» كان بفويل واحداً من هؤلاء النظريين شديدي الولع بنظرياتهم لدرجة ينسون معها الغاية وبالتالي التطبيق العملي: كان يحتقر كل ماهو تطبيقي لشدة حبه بالنظرية. بل انه كان يبتهج للفشل لأن الفشل الناجم عن خرق للنظرية في تطبيقها لايبرهن له الا على صحة افكاره.

ولقد نطق بالكلمات القليلة التي تبادلها مع تشيرنيشيف والامير اندريه حول الحملة الحاضرة، بلهجة الرجل الذي يعرف سلفـاً ان كل شيء سيكون سيئاً وأنه على اية حال لايشعر بأي أسف تجاه ذلك. ولقد كانت الخصلات المتمردة في مؤخرة رأسه وصدغاه المصقولين بعجلة تدل ببلاغة على هذه الطريقة بالنظر الى الامور.

ولم يكد يدخل الحجرة الاخرى، حتى تعالت صيحات صوته الخفيض الجهم.

★ ★ ★

الفصل الحادي عشر

مجلس حربي

لم يكد الأمير آندويه يغادر بنظره بفويل حتى دخل الكونت بينيجسن مندفعاً ومضى الى المكتب بعد ان حيا بولكونسكي باشارة من رأسه وأعطى بإيجاز تعليماته الى مساعده العسكري . وكان الامبراطور يتبعه ملازماً اذا كان متعجلاً اتخاذ بعض الاستعدادات قبل ان يستقبله . خرج تشيرنيشيف والأمير آندريه على المرقاة . ترجل الامبراطور عن حصانه ظاهر الاعياء ، وأمال رأسه الى اليسار ، وأصغى باذن ساهمة الى المواضيع الحادة التي كان المركيزبولو كشي يبحثها . تقدم الامبراطور بضع خطوات الى الأمام ظاهر الرغبة في قطع الحديث لكن الايطالي متضرج الوجه شديد الانفعال ، اجتاز وراءه المرقاة متناسياً آداب اللياقة . وبينما كان الامبراطور يحدق في بولكونسكي الذي ظل في وقفة الاحترام ، تابع بولو كشي بشدة تقرب من الجنون :

- اما فيما يختص بذلك الذي أشار بمعسكر دريسا ، فانني يا مولاي لا أجد له أفضل من الاختيار بين البيت الأصفر - وهو الاسم الذي يطلق في روسيا على مأوي العجزة التي كانت تطلى من قبل بهذا اللون - أو المشنقة .

قال الامبراطور لبولكونسكي برفق وقد عرفه أخيراً دون ان يبدو عليه انه مصغ الى منظوم قول الايطالي :

— مفتتن برؤيتك . امض الى الغرفـــة التي يجتمع فيها هؤلاء السادة وانتظرني هناك .

دخل الكسندر الى المكتب فتبعه الأمير بيير ميخائيلوفيتش فولكونسكي والبارون ستين ثم أغلق الباب . دخل الأمير آندريه مع بولوكشي الذي عرفه من قبل في تركيا ، الى البهو الذي عقد فيه الاجتماع تبعاً لاذن الامبراطور .

كان الامير فولكونسكي حينذاك يشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب لدى الامبراطور بصورة غير رسمية . خرج من المكتب مزوداً بخرائط نشرها على الطاولة في البهو وعرض على المجتمعين المسائل التي يرغب في أخذ رأيهم حولها . لقد تلقوا خلال الليل النبأ الذي ثبت فيما بعد انه غير صحيح ، والذي يقول ان الفرنسيين عازمون على الالتفاف بعيداً عن معسكر دريسا .

استهل الجنرال أرمفيلت الكلام وتقدم بغية تجنب متاعب الساعة ، بعرض ما كان قط منتظراً ، لايبرره الا رغبته في ان يظهر انــه هو الآخر قادر على ابداء الرأي فحسب . وتبعــاً لقوله ، كان على الجيش ان يحتل مركزاً جديداً متنحياً عن طرق بيترسبورج وموسكو وان ينتظر هجوم العدو . وكان يرى ان أرمفيلت قد أعد هذه الخطة منذ أمد طويل وأنهــا على أية حال ، ما كانت تجيب على المسائل المطروحة وانه انتهز هذه الفرصة ليعرف على خطته فحسب . ولقد كانت الخطة واحدة من تلك الوسائس التي لاتحصى التي يمكن ان تكون نافعة كأية فكرة اخرى بالنسبة الى أي ما كان على أي علم بالطابع الذي كانت تلك الحرب تتخذه . ولقد حاربها بعضهم ودافع عنها البعض الآخر . ولقد انتقد الزعيم الشاب تول بضراوة خاصة مشروع الجنرال السويـدي وأخرج من جيبه مخطوطاً وسأل الأذن له بتلاوته . كان تول يعرض في مذكرته شديدة الاسهاب تلك ، خطة جديدة للحرب تناقض على طول الخط المشروع الذي تقدم به ارمفيلت كما تناقض خط بفويل . فاستبعدها بولوكشي بدوره وأوصى بالهجوم الذي يمكنه

وحده اخراجنا من التردد ومن هـذا الشرك الذي هو معسكر دريسا على حد زعمه . وفي تلك الاثناء ، كان بفويل وترجمانه لدى البلاط فولزوجن . لاينبسان بكلمة . استدار بفويـل الذي كان ينخر باشمئزاز معرباً بذلك عن ترفعه عن مناقشة مثل هذه الاضغاث . ولما دعـــاه الأمير فولكونسكي الذي كان يدير المناقشات الى ابداء وجهة نظره ، اكتفى بالقول :

ـ ولماذا أسأل؟ ان الجنرال أرمفيلت يشير عليكم بوضعية رائعة مع مؤخرات عارية . ثم لديكم الاختيار بين الهجوم الذي يقدمه هـذا السيد الايطالي وهو جيد أو الانسحاب وهذا رائع أيضاً . لماذا تسألني رأيي ؟ انك تعرف كل شيء أفضل مني .

نبهه بولكونسكي وهو متجهم انه انما يسأله باسم الامبراطور . وحينئذ نهض بفويل وأعلن وهو يثور فجأة :

ـ لقد افسد كل شيء ، لقد خلط كل شيء . كانوا جميعاً يريدون معرفة اكثر مما أعرف والآن يسألونني رأيي . كيف نصلح الأخطاء ؟ ليس هناك ما يصلح . يجب تطبيق المبادىء التي حددتها بكل دقة .

وختم كلامه وهو يضرب الطاولة بأصابعه بارزة العظام :

ـ صعوبة الموقف ؟ عبث أطفال ، ترهات .

وجذب الخريطة اليه وأكد وهو يربت عليها بيده الضامرة أن أي عارض لايمكن ان يضعف قوة معسكر دريسا : لقد درس كل شيء . فاذا شرع العدو كما يزعمون بحركة التفاف ، فانه سيباد دون أدنى ريب .

طرح عليه بولوكشي الذي كان يجهل الألمانية بضعة أسئلة بالفرنسية . فهب فولزوجن لنجدة سيده الذي يتكلم الفرنسية بعسر وترجم تفسيراته . ولقد كان يجد صعوبة كلية في متابعته لأن بفويل كان يؤيد بطلاقة ان خطته محيطة بكل شيء اطلاقاً ، بما وقع بمثل الاحاطة بما سيقع . فاذا كانوا الآن يصطدمون باشياء

لم تكن في الحسبان ، فان الخطأ في ذلك يقع على الفجوات التي وقعت في تنفيذ الخطة المذكورة . وكان يشفع بيانه هذا بضحكة ساخرة واستخف بالاستمرار فيه حتى النهاية مثله في ذلك مثل عالم الرياضيات الذي يكف عن الاتيان ببراهين لدعم مسألة فرغ من حلها . فاستمر فولزوجن يشرح بالفرنسية أفكار بفويل بدلاً عنه . وكان من حين الى آخر يستنجد به بعبارة : « أليس كذلك ياصاحب السعادة ؟ » . لكن بفويل كان يرد عليه بلهجة غاضبة أشبه بالرجل الذي يطلق في حميا القتال النار على جماعته .

– بالطبع نعم . أية فائدة من هذه الشروح ؟

وكان بولوكشي وميشو يدحضان معاً أقوال فولزوجن بالفرنسية . وارمفيلت يخاطب بفويل بالألمانية وتول يشرح كل شيء بالروسية لفولكونسكي . أما الأمير آندريه ، فكان يصغي ويلاحظ بصمت .

كان ميله منصرفاً كله الى بفويل . كان هذا الرجل سريع الغضب ذو اللهجة الحاسمة ، الواثق من نفسه لدرجة الجنون ، الوحيد بين كل هؤلاء المستشارين الذي لايرغب لنفسه شيئاً ولا يحمل على أحد حقداً . ما كان يريد الا شيئاً واحداً : تنفيذ خطته الموضوعة تبعاً لنظرية التي اقتضاه انضاجها سنوات من الدراسة . ولا ريب انه كان مضحكاً وان ابتسامته المستهزئة منفرة . لكن تعلقه التعصبي بآرائه كان يوحي باحترام لا أرادي . أضف الى ذلك ان كل الابحاث – باستثناء ابحاثه – التي دارت خلال هذا الاجتماع ، كان طابع مشترك لم يكن ظاهراً ابان المجلس الحربي عام ١٨٠٥ : لقد كانت عبقرية نابوليون تحدث في هؤلاء الفنيين رعباً مخيفاً بلا ريب ولكنه يؤثر على أنفه دليل . ذلك الرجل الذي لم يكن هناك شيء مستحيل في عرفه ، كانوا يتوقعون انبعاثه من كل الجهات معاً ويستعملون اسمه المهاب ليحاربوا بعضهم بعضاً . ماعدا بفويل الذي كان ينعته بالبربري لا اكثر ولا أقل من كل أعداء نظريته . وكان احترام

الأمير آندريه يحمل في طياته على اية حال شيئاً من العطف . لقد كان من السهل تبعاً للهجة أفراد البطانة حيال بفويل وتبعاً لما سمح بولوكشي لنفسه ان يقوله للامبراطور وبصورة خاصة ، تبعاً لاحتداد محاضراته الشخصية المكفهرة ، ان يعرف المرء انهم جميعاً عالمون بقرب سقوط اعتبار بفويل الذي لم يكن نفسه يشك فيه . وعلى الرغم اذن من ثقته الرائعة وسخريته الكالحة كألماني ، فان ذلك الرجل ذا الشعر الأملس على الصدغين والخصلات الثائرة على مؤخرة الرأس كان يبدو جديراً بالرأفة ورغم اخفائه عواطفه وراء مظهره المتزعج المستخف ، فانه كان يرى بوضوح انه في يأس لرؤيته الفرصة الوحيدة التي تمكنه من اختبار نظريته على مدى واسع وتفجير صحتها في وجه العالم كله .

استمر النقاش طويلاً وحمي الوطيس حتى تجاوز الحد الى الصيحات والمساس بالاشخاص . ولكن كلما طالت المناقشات ضعف الأمل في الخروج بنتيجة عملية ولما سمع الأمير آندريه بلغات مختلفة وبالاتجاه الى الصياح ، كل هذا العدد من الآراء المتناقضة والمشاريع المعاكسة تدعم من قبل أصحابها ، لم يصدق اذنيه . لقد حدّث نفسه مراراً خلال سنوات خدمته وبحوثه الطويلة حول مهنة السلاح بأنه لايوجد ولا يمكن أن يوجد علم للحرب وان عبارة «عبقرية عسكرية» ليست بالتالي الا عديمة المعنى . فاذا به الآن يجــــد في المناقشات الحالية تأييداً لا معاً لوجهة نظره تلك . « كيف يمكن التحدث عن نظرية وعلم في الموضع الذي لا يمكن تحديد الشروط والاتفاقات فيها والذي تكون القوات العاملة فيه أقل تحديداً أيضاً؟ لم يستطع أحد قط ولن يستطيع أبداً معرفة الوضع الذي سيكون عليه جيشنا او جيش العدو في غضون الاربع والعشرين ساعة القادمة وقيمة هذا الفوج او ذاك وانه بدلاً من جبان رعديد في الصفوف الاولى يلوذ بالفرار اثر صيحة : « لقد قُطعنا ! » يقف فتى مرح وباسل يصيح : « هورا ! » . ان فرقة قوامها خمسة آلاف رجل تعادل ثلاثين الفاً كما وقع في شوينجرابن وبالمقابل ،

يمكن ان ينهزم خمسون الف رجل امام ثمانية الاف كما وقع في اوسترليتز . هل هناك علم ممكن في مادة لايمكن - ككل شيء في الحياة العامة - ان يُتكهن بشيء مسبقاً ، مادة يتوقف كل شيء فيها على ظروف لاتحصى ولاتظهر قيمتها الا في دقيقة واحدة لايعرف احد متى تحين . ان ارمفيلت يزعم ان جيشنا قد شطر وبولوكشي على العكس ، يؤكد أننا وضعنا الجيش الفرنسي بين نارين . وميشو يرى معسكر دريسا خطراً لأن النهر وراءه وبفويل يرى خلافاً لذلك ان النهر ضمانه للأمان . ان تولْ يقترح خطة وارمفيلت اخرى وكلها رديئة وجيدة معاً لأن ميزات هذه او تلك من الخطط لايمكن ان تظهر الا في الساعة التي يتم فيها الحدث . فكيف يتأتى ان يزعم كل هؤلاء بارجحية العبقرية العسكرية هل هناك من عبقرية في معرفة الوقت الملائم لتزويد الجيش « بالبقسماط » وارسال هذا الى اليمين وذاك الى اليسار ؟ كلا . لكن العسكريين متشحون بالسنى والسلطة والجمهور الجبان يمتدح المتنفذين الأقوياء عازياً اليهم العبقرية خطأ . ان أفضل الجنرالات الذين عرفتهم بدوالي أبعد مايكونون عن الرجال المتفوقين ، قليلي الذكاء او ساهمين . واولهم باجراسيون الذي يعتبره نابوليون مع ذلك اكثر خصومه موهبة . ونابوليون نفسه ! انني اذكر هيئته الراضية المحدودة على ساحة القتال في اوسترليتز . ليس الرئيس الجيد بحاجة الى عبقرية او الى صفات خاصة بل على العكس ، يجب ان يكون محروماً من اسمى خصائل الطبيعة البشرية ، الحب ، الشعر ، الحنان والشك الفلسفي . يجب ان يكون محدوداً ، قانعاً بأهمية تصرفاته والا ، فانه سيفقد الصبر « ولن يكون قائد جيش باسل الا لقاء الثمن . ولكن ، ليصنه الله من ان يتظاهر بالانسانية او أن يود احداً أو يشفق على أحد ، ان يفكر في ما هو عادل وما هو جائر ! ان من الواضح ان نظريه العبقريات قد زُورت في كل حين من قبل هؤلاء الرجال لأنهم يمثلون القوة . فكسب معركة او خسرانها يتوقف ليس عليهم ، بل على الجندي الذي يصرخ

في الصف : « لقد ضعنا ! » او الذي يهتف : « هورّا ! » نعم ، في الصف ، وفي الصف وحده يمكن ان يخدم المرء وهو قانع بأنه نافع . »

كذلك كان الأمير آندريه يفكر وهو يصغي الى النقاش باذن شاردة .
وأخيراً سمع بولوكشي يناديه والمجتمعون كلهم ينسحبون .

وفي اليوم التالي خلال العرض ، سأل الامبراطور بولكونسكي اين يرغب في الخدمة فضاع هذا الى الأبد في نظر البلاط حينما لم يطلب الى جلالته ان يلحقه بخدمته بل سأله الاذن بالخدمة في صفوف الجيش .

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

الرئيس رستوف

قبل ان تبدأ الحملة ، تلقى روستوف من اسرته رسالة ، أعلنوا له فيها باختصار مرض اخته وفسخ خطوبتها مع الأمير آندريه مفسرين ذلك برفض ناتاشا الاستمرار ويرجونه مرة اخرى ان يقدم استقالته وان يعود اليهم. ودون ان يفكر في الانسحاب من الجيش ، كتب نيكولا لذويه ان مرض ناتاشا وزواجها الذي لم يتم يحزنانه كثيراً وانه سيعمل كل ما في وسعه لينزل عند رغبتهم . وفي رسالة خاصة الى سونيا فسر سلوكه كما يلي :

« صديقة روحي المعبودة، ليس الا الشرف ما يمنعني من العودة الى قربك . ففي اللحظة التي فتحت فيها الحملة ، اعتقد انني سأخسر شرفي ليس امام زملائي فحسب بل و كذلك حيال نفسي اذا فضلت سعادتي على واجبي ، وغرامي على وطني . لكن هذه ستكون اخر فراق لنا . كوني على ثقة ان ما ان تنتهي الحرب وأبقى أنا في هذا العالم وتبقين انت على حبي ، حتى أترك كل شيء واطير اليك لأضمك الى الأبد الى قلبي المضطرم . »

والحقيقة ان الشروع في الحملة وحده هو الذي استوقف روستوف ومنعه من العودة للزواج بسونيا كما وعد . لقد كان خريف « اوتردنواي » ورحلات

الصيد فيه والشتاء بأعياد الميلاد المرحة وغرام سونيا ، كل هذه الأمور كانت قد فتحت له افقاً جديداً من المباهج الريفية الهادئة يجذبه بقوة لاتقاوم . كان يحدث نفسه : « نعم ، زوجة ممتازة وأطفال ، فصيلة جيدة من كلاب العدو وعشرة او اثنا عشر زوجاً من الكلاب السلوقية الباسلة وتحسين مردود الأرض والزيارات بين الجيران ومركز مايساعدني على انتقاء اقراني ، هذا هو طراز الحياة الذي يروق لي . » لكن الحرب وقدنشبت ، أرغمته على البقاء في الكتيبة وبفضل عقليته السهلة ، فانه لم يكن اقل تقديراً لهذا النوع من الحياة التي كان يعرف كيف يستخلص منها كل ما يمكن من مباهج .

عند عودته الى الكتيبة ، استقبل روستوف استقبالاً ودياً من قبل زملائه وكلف بالذهاب الى روسيا الصغيرة حيث عاد منها بجياد ممتازة كانت مبعث بهجته وسبباً في تهنئة رؤسائه له . ولقد رقي الى رتبة رئيس أثناء غيابه ولما اعدت الكتيبة للحرب وزيدت مرتباتها ، الحقوه بكوكبته السابقة .

نقلت الكتيبة في بدء الحرب الى بولونيا حيث التحق بهاضباط جدد ورجال جدد وجياد وسادت فيها تلك الحيوية المرحة التي تسبق عادة الشروع في حملة ولقد استسلم روستوف بكليته وهو العارف بالميزات التي يوفرها له مركزه ، الى ملاذه وواجبات الخدمة وان كان عارفاً ان عليه ان يتخلى عنها ان آجلاً او عاجلاً .

اخلت الوحدات فيلنا لاسباب مختلفة سياسية وفنية . وكانت كل خطوة الى الوراء تثير في هيئة الاركان العامة مجموعة معقدة من الاهواء والترتيبات والدسائس . ولكن ، بالنسبة الى فرسان بافلوجراد ، كان ذلك التقهقر في أفضل مواسم السنة مع الزاد الكافي ، مجرد رحلة مرح . فكان بمقدور القيادة العامة ان تفقد شجاعتها وتسيء استخدام العقل وتتآمر كما يحلو لها . اما الجيش فما كان يسأل حتى الى أين يرسل ولا سبب تراجعه . وإذا كان هناك من أسف للتقهقر

فان مرده مقتصر فقط على وجوب التخلي عن فناة بولونية جميلة وتوديع مسكن كان شاغله قد ألف العيش فيه . واذا كان أحدهم يرتأي ان الامور تسير سيراً سيئاً ، فانه كان يجتهد للظهور بمظهر المرح وينسى الموقف العام كله ليصرف انتباهه الى خدمته المباشرة . كانوا في بادىء الأمر يعسكرون بمرح في ضواحي فيلنا ويرتبطون بصداقات مع اثرياء ريفيين بولونيين ويتأهبون للاستعراضات التي يشرفها الامبراطور ورؤساء كبار آخرون . ثم جاء الأمر بالانسحاب نحو سوينسياني واتلاف المؤن التي لايستطيعون نقلها . ولقد احتفظ الفرسان بذكرى سوينسياني بوصفه : « معسكر الثمل » اذ ان الجيش كله عمّد هذا المعسكر بهذا الاسم حيث كان السكان كثير مما يشتكون منه من القطعات التي انتهزت فرصة الاذن لها بالتزود محلياً ، فراحت تصادر الى جانب الارزاق ، الخيول والعربات بل وحتى النجد من بيوت السادة البولونيين . وكان روستوف يذكر سوينسياني لأنه يوم وصوله الى ذلك المكان ، اضطر ان يجهز الرقيب الاول ولم ينجح في إعداد الكوكبة التي كان أفرادها سكارى كلهم بعد ان نهبوا خمسة براميل من الجعة المعتقة دون علمه . ثم تراجعوا من سوينسياني حتى دريسا ثم الى ابعد من ذلك ، ودائماً الى الوراء باتجاه الحدود الروسية .

وفي الثالث عشر من تموز ، اتيح لكتيبة بافلوجراد عمل جدي لأول مرة .

نشط ليلة ١٢ - ١٣ ، اعصار من تلك الاعاصير الهائلة الذي سخا بها صيف ١٨١٢ زاخراً بالمطر والبرد .

كانت كوكبتان مخيمتين في حقل شيلم داسته الجياد والماشية فأتلفته كله . وكان المطر يهطل مدراراً ، ورستوف يصحبه احد مرؤوسيه ، ايلين الشاب الذي وضعه تحت حمايته ، يأوي تحت كوخ صغير جداً بني على عجل . ولقد داهمت الامطار ضابطاً من الكتيبة كانت وجنتاه مدعومتين بشاربين لانهاية

لهما فاحتمى بالكوخ . قال :

– انني خارج للتو من الاركان ياكونت . هل علمت شيئـــاً عن مأثرة رايفسكي ؟

وقص عليه بالتفصيل معركة سالتانوفكا .

كان روستوف يشنج عنقه الذي سال المطر اليه ويدخن غليونه وهو يصغي بشرودالى القصة ويلقي نظرة بين الحين والآخر على ايلين الشاب الرابض بالقرب منه . كان نيكولا بالنسبة الى هذا الفتى البالغ من العمر ستة عشر عاماً والذي وصل الى الكتيبة منذ قليل اشبه بما كان دينيسوف بالنسبة اليه قبل سبعة اعوام وكان ايلين يجتهد في الاقتداء بروستوف ويحبه كما تحب المرأة .

راح زدرجينسكي ، الضابط ذو الشاربين الطويلين ، يؤكد أن سد سالتانوفكا اصبح بالنسبة الى روسيا أشبه بتيرموبيل[1] بالنسبة الى اليونان وان الجنرال رايفسكي قام هناك بمأثرة جديرة بمساواتها بالمفاخر الغابرة . لقد تقـدم على السد مع ولديه تحت نار رهيبة والجأ الرجال الى الهجوم . لم يدعم روستوف رواية المتحدث بأية إشارة استحسان بل انه كان يبدو وكأنه خجل مما يُروى له دون

---

(١) تيرموبيل او الأبواب الحارة ، ممر مشهور في تيساليا (اليونان) بين جبل آنوبية وخليج مالياك ، حيث كمن ليونيداس مع ثلاثمائة سبرطي وحاول ايقاف جيش كسيركسيس الذي ما كان يتصور ان هـذه القبضة من الرجال يمكن ان تناوئه الممر فكتب الى ليونيداس هذه الكلمات « سلم اسلحتك » فكتب السبارطي تحتها : « تعال خذها » . لكن خائناً اسمه ايفيالت دلّ الفرس على ممر يسمح بالالتفاف حول جبل آنوبية . فلما رآى ليونيداس ان لا بد من الموت ، دعا رفاقه الى مائدة شحيحة وقال : « وسوف نتناول عشاءنا هذا المساء عند بلوتون ــ اله الاموات ــ »

ان يسمح لنفسه على أية حال بابداء أي اعتراض . كان يعرف من تجاربه الخاصة في اوسترليتزو في عام ١٨٠٧ ، ان الروايات من هذا النوع كاذبة دائماً ، ويعرف كذلك بفضل عمله في الحرب ان مامن شيء يحدث كما يتخيله المرء أو كما يُرى بعد حدوثه لذلك فقد نفرت نفسه من قصة زدرجينسكي بقدر مانفرت من الرواية نفسه الذي كانت عادته الكريهة ان ينحني بشاربيه اللامتناهيين على وجه محدثه . اضف الى ذلك انه كان يحتل فراغاً كبيراً في ذلك الكوخ الصغير . نظر اليه روستوف دون ان ينطق بكلمة . حدث نفسه قائلاً : « اولاً ، لابد وانه حدث على هذا السد العتيد بلبال عنيف . وحتى ولو تقدم راييفسكي مع ولديه ، فان هذه الحركة لم تستطع التأثير الا على العشرة او الاثنى عشر رجلاً الذين كانوا يحيطون بهم . اما الآخرون ، فانهم لم يستطيعوا رؤية مع من ذهب رايفسكي الى الهجوم . بل حتى الذين شاهدوه لم يتأثروا ولا ريب كل التأثر لأنهم كانوا يفكرون في جلودهم اكثر من تفكيرهم في عواطف هذا الجنرال الأبوية ! اضف الى ذلك ان مصير البلاد لا يتوقف قط على هذا السد كما كان الحال بالنسبة الى «تيرموبيل» اذا صدقنا رواية المؤرخين . فأية جدوى من هذه التضحية اذن ? ثم أية فكرة هذه ان يقود ولديه الى المعركة ? انني لن اعرض على هذا النحو لا أخي بيتيا ولا حتى ايلين الذي لاتربطه بي أية صلة والذي اعتبره فتى باسلاً صغيراً فحسب ، بل لابد لي وان اضعه في منجاة من الخطر . » ولقد حرص روستوف على أية حال على ان لا يفصح عن آرائه الشخصية : ان هذه القصة تهدف الى تمجيد جيشنا فيجب اذن التظاهر بتصديقها . كان يعرف هذه الحقيقة منذ أمد طويل .

أخيراً قال ايلين الذي لم يغب عنه استياء روستوف :

ـ لا يمكننا الصمود اكثر من ذلك . ان جواربي وقميصي وكل ثيابي مبللة سوف أبحث عن ملجأ في مكان آخر . أعتقد ان المطر قد خف .

خرج ايلين بينما تابع زدرجينسكي طريقه .

وبعد خمس دقائق ، عاد ايلين راكضاً وهو يجري في الوحل :

– هورّا ! روستوف ، تعال بسرعة ! لقد وجدت . ان هناك نزلاً على بعد مائتي خطوة من هنا والرفاق فيه الآن وكذلك ماري هنريخوفنا . اننا نستطيع على الاقل ان نجفف ثيابنا .

كانت ماري هنريخوفنا المانية جميلة شابة تزوجها طبيب الكوكبة في بولونيا وكان الطبيب يصحب زوجته اينما ذهب بسبب حالة المالية ولاريب أو لعله ما كان يريد الانفصال عن زوجته في الفترات الاولى التي تلت زواجها . ولقد كانت غيرة الماجور تتيح للفرسان مادة غزيرة للمزاح .

اتشح روستوف بمعطفه وهتف مهيباً بلافروشكا ان يتبعه مع بعض الامتعة ثم ذهب مع ايلين يروغ هنا من الطين ويقع هناك في برك ماء تحت المطر الذي بدأ يسكن في ذلك الليل الحالك الذي كانت تخططه ومضات برق بعيد . كانا يتحادثان بينهما :

– روستوف اين أنت ؟

– هنا . أرأيت هذا البرق !

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

في المنزل

كان اربعة أو خمسة ضباط جالسين في المنزل التي كانت عربة الطبيب واقفة على بابه . وكانت ماري هنريخوفنا ، وهي المانية صغيرة شقراء وسمينة بصدار وقلنسوة نوم ، جالسة في مكان الشرف على مقعد عريض وزوجها نائم وراءها . استقبلت روستوف وايلين لدى دخولهما ضحكات وهتافات مرحة .

قال روستوف ضاحكاً :

ـ إه ، لايبدو عليكم انكم برمون !

ـ ولماذا لم تأت قبل الآن ؟

ـ كم انتما مبتلان ! ميازيب حقيقية ! لاتغرقا بهونا على الاقل !

ـ وعلى الأخص لاتوسخا البسة ماري هنريخوفنا .

حاول روستوف وايلين ان يكتشفا ركناً صغيراً ليبدلا فيه ثيابهما دون ان يخدشا عذار السيدة . صحيح انه كانت هناك خلوة صغيرة وراء الحاجز . لكن الضباط الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق فيها على ضوء شمعة وضعوها على صندوق فارغ ويشغلون الفراغ كله رفضوا بأي ثمن التخلي عن اماكنهم . لحسن الحظ ، وافقت ماري هنريخوفنا على ان تتنازل لهما عن ثوب من اثوابها اقاماه

حاجزاً وراحا وراءه بمساعدة لافروشكا الذي حمل معه اللوازم الكاملة يبدلان ثيابها المبتلة باخرى جافة .

اشعلوا النار في المدفئه نصف المدمرة وركزوا لوحاً من الخشب على سرجين وغطوه بلباد ثم استحضروا « سماوراً » صغيراً ونصف زجاجة روم ، وبعد ان رجوا ماري هنريخوفنا ان تقوم بدور ربة البيت ، التفوا حولها . قدم لها احدهم منديلاً نظيفاً لتمسح به يديها الصغيرتين الفاتنتين وألقى آخر على قدميها سترة عسكرية ليقيها من الرطوبة وعلق هذا معطفه على النافذة كيلا يشعر رفاقه بالريح وراح ذاك يطرد الذباب عن وجه الزوج خشية ان يستفيق .

قالت ماري هنريخوفنا وهي تجود بابتسامة مرحة :

— دعوه هادئاً . انظروا كيف ينام مستغرقاً بعد ليلة بيضاء .

فاجاب الضابط :

— ولكن لا يا ماري هنريخوفنا . يجب علي ان أعنى بسيدي الطبيب . لعله بذلك سيشفق علي عندما يبترون لي ذراعاً او ساقاً .

لم يكن هناك الا ثلاثة اقداح . وكان الماء الكدر يمنعهم من معرفة ما اذا كان الشاي قوياً جداً أم خفيفاً جداً . ولم يكن السماور ليتسع لأكثر من ستة اقداح . مع ذلك ، فقد كانت المتعة أعم ان يتلقى احدهم كأسه دورياً وتبعاً للقدم من يدي ماري هنريخوفنا العبلاوين ذوتي الاظافر القصيرة غير الظاهرة . لقد كان الضباط كلهم ذلك المساء عاشقين المراة الشابة دون أي ريب . ولقد القى اولئك الذين كانوا يلعبون الورق وراء الحاجز باوراقهم وهرعوا يلتفون حول السماور تدفعهم هم كذلك الرغبة في مغازلتها . وعلى الرغم من الذعر الذي كانت تشعر به لأتفه حركة من زوجها النائم وراءها ، فان ماري هنريخوفنا كانت مشرقة الوجه برضى لم تحسن اخفاءه وهي ترى نفسها محاطة بهذه الشبيبة اللامعة الأنيسة .

وان كان السكر متوفراً ، فانهم ما كانوا يتوصلون الى اذابته بسرعة لأنه لم يكن هناك الا ملعقة واحدة . لذلك فقد تقرر ان تحرك بنفسها دورياً السكر في قدح كل منهم . ولما استحوز روستوف على قدحه ، اكتفى بان صب فيه قليلاً من الروم وقدمه الى ماري هنريخوفنا لتحرك الشراب .

قالت له دون ان تكف عن الابتسام وكأن كل ما كانت تقوله ويقوله الآخرون يبعث على التسلية بل ويحمل معنى مزدوجاً :

– ولكن ، أليس لذيك سكر ؟

– انني لاأبالي بالسكر ! ان ما اريده هو ان اراك تحركين الشاي في قدحي بيدك الجميلة .

اذعنت ماري هنريخوفنا وراحت تبحث عن الملعقة التي استحوز عليها بعضهم .

قال روستوف :

– حركيه باصبعك ياماري هنريخوفنا . سيكون ذلك افضل .

قالت وهي تتضرج من الغبطة :

– كم هو ساخن !

اخذ ايليا دلو الماء وصب فيه قطرات من الروم ثم اقترب من ماري هنريخوفنا وقال :

– هذا قدحي فاغمسي فيه اصبعك فقط وسأبتلعه كله .

ولما افرغوا السماور ، اخذ روستوف الورق واقترح لعبة « الملوك » مع ماري هنريخوفنا . فاقترعوا لمعرفة من سيكون في صفها . واقترح روستوف كقاعدة للعب ان من يصبح « ملكا » يصبح من حقه تقبيل يد ماري هنريخوفنا اما « الخادم » فعليه على العكس ان يعدّ « سماوراً » جديداً للطبيب .

سأل ايلين :

– واذا خرجت ماري هنريخوفنا « ملك » ؟
– انها حتى الآن ملكة ! واوامرها قوانين .

لم يكد اللعب يبدأ حتى انتصب وراء ماري هنريخوفنا رأس الطبيب الاشعث . لم يكد منذ بعض الوقت نائماً بل كان يصيخ السمع الى هذه الاحاديث المرحة . وكان واضحاً على وجهه الشرس انه لايراها وديعة ولا مرحة ، ودون ان يبادل احداً التحية ، سأل وهو يحك رأسه ان يفسح له المجال للخروج . وما ان خرج ، حتى انطلق الجميع بضحكة صاخبة في حين كانت ماري متضرجة الوجه لدرجة أقرب الى البكاء ، الأمر الذي أعطاها جاذبية أقوى في نظر السادة الضباط . وعاد الماجور بعد قليل وأعلن لزوجته التي غاضت ابتسامتها وباتت تنظر اليه بقلق وكأنها تنتظر صدور حكم عليها ، ان المطر قد توقف وانه يجب ان تمضي الى العربة لتنام والا فسوف ينهبون كل الامتعة التي فيها .

قال روستوف :

– لا تقلق يادكتور ، سوف ارسل تابعاً الى العربة .. أو تابعين اذاشئت !

وقال ايلين :

– سأقوم بحراستها بنفسي !

غمغم الطبيب وهو يجلس بقرب زوجته بانتظار نتيجة الشوط وهو متجهم الوجه :

– ذلك انكم كما ترون أيها السادة ، نمتم نوماً هنيئاً . أما أنا ، فانني لم أغمض جفني منذ ليلتين .

ولقد حمل وجه الطبيب المكفهر الذي كان يقبل باتجاه زوجته المرح العام الى الاوج حتى ان بعضهم ما كانوا يستطيعون الامساك عن القهقهة التي كانوا يتذرعون لاطلاقها بشتى المبررات المحتشمة . ولما انسحب الزوجان وأقاما في

العربة ، استلقى الضباط على الأرض والتفوا بمعاطفهم المبللة . لكنهم لبثوا وقتاً طويلًا لا ينامون . كانوا حيناً يذكرون وجه الطبيب الهلع ومرح زوجته ويجرون حيناً آخر الى العتبة ويقصون على بعضهم ما يجري في العربة حاول روستوف مراراً ، وقد سحب معطفه الى ما فوق رأسه ، ان ينام . لكنه كان ينصرف الى احتداد ما فيشترك من جديد في الحوار الذي كانت تقطعه أجمل الضحكات المرحة الطفولية التي لا سبب لها ولا مبرر .

* * *

الفصل الرابع عشر

الاشتباك الاول

ما كان أحد ينام بعد ، حوالي الساعة الثالثة صباحاً ، عندما جاء الرقيب يحمل الأمر بالانشاء الى اوستروفنيا .

أعد الضباط أمتعتهم وهم لازالوا يضحكون ويثرثرون وأشعلوا من جديد السماورذا الماء العكر . لكن روستوف مضى يلتحق بكوكبته دون ان ينتظر اعداد الشاي . كان الصبح يبزغ والمطر منقطعاً والغيوم تتبدد والبرد والرطوبة يتسللان خلال الألبسة التي لم تجف بعد . وبخروجهما من المنزل ، القى روستوف وايلين في ضياء الفجر الباهت نظرة على العربة التي يلتمع غطاؤها بالماء فكانت ساقا الطبيب الطويلتان تبرزان من تحت المئزر الجلدي الذي في مقدمة العربة وكانت ترى في الداخل قلنسوة المرأة الشابة ويسمع تنفس بعضهم وهو نائم .

قال روستوف لايلين :

– انها حقاً لطيفة جداً .

فأجاب ايلين بايمان سنواته الست عشرة :

– فتانة !

وبعد نصف ساعة ، كانت الكوكبة منتظمة على الطريق . وعند الايعاز :

« الى السرج ! » رسم الجنود شارة الصليب على صدورهم واعتلو مطاياهم . واتخذ روستوف مكانه في المقدمة وصاح : « الى الأمـام ، سر ! » وعندئذ اهتزت صفوف الفرسان بين قرقعة السيوف ووقع الحوافر في الوحل وهمس المحادثات المكتومة ، وراحت تتقدم أربعة فاربعة على طول الطريق المحاط من الجانبين باشجار السندر ، تتبع قلب فرقة مشاة « وبطارية » مدفعية .

وكانت الغيوم التي يصطبغ لونهـا البنفسجي الداكن بحمرة المشرق تتناثر بفعل دفعة الريح العنيفة والضيـاء يزداد امتداداً فبدأت العشب الصغيرة المجعدة التي تقوم عادة على طرق العبور والمطر لاتزال تبللها ، تتميز للعيـان وأشجار السندر ترتعش تحت النسمة فتساقط من أغصانها المتدلية اللآلىء الفضية . وباتت وجوه الفرسان تميز بعضها عن بعض اكثر فأكثر . وكان روستوف يرافقه ايلينا الذي لا يتركه ، يتبع الجانب المنخفض من الطريق بين صفين من السندر .

كان روستوف يسمح لنفسه في الريف ان يتمتع بركوب جواد ليس على الطريقة النظامية بل على طريقة القوقاز . ولقد استحضر لنفسه حديثاً بوصفه هاوياً وخبيراً ، فرساً أشقر من « الدون » ذا عرف أبيض ، فكان حيواناً قوياً ضخماً لا يسمح للجياد الاخرى ان تسبقه ، كان يمتطيه بمتعة حقيقية . وكان يفكر في حصانه وفي الصبح البازغ وزوجة الطبيب . لكنـــه لم يفكر مرة واحدة في الخطر القريب .

كان روستوف يحس بالخوف قبل القتال من قبل . واذا لم يغد الآن يشعر بأي ذعر فليس مرده الى انه تعود القتال لأن المرء لايمكن ان يألف الخطر ، ولكن لأنه بات يستطيع السيطرة على نفسه . لقد ألف في مثل هذه الحالات ان يثير مختلف الأفكار باستثناء الفكرة التي كان يجب ان تثير انتباهه قبل كل شيء وهي دنو الخطر . وفي الأيام السالفة ، رغم مجهوداته ، رغم اتهامه نفسه بالنذالة

والجبن ، فانه ما كان يستطيع السيطرة على نفسه . لكن هـذه السيطرة باتت مع السنين طبيعية جداً .

كان اذن يسير الى جانب ايلين بـين خطي السندر ، يعري الاغصان التي تقع تحت امتداد يده ويمس بطن جواده بمهارة أو يعد غليونه المطفأ دون ان يلتفت الى الفارس الذي يتبعه ، ووجهـه هادىء القسمات خلي البال وكأنه في نزهة . لقد كان النظر الى وجـه ايلين المربد الذي كان يكثر الكلام ، يؤلمه . كان يعرف بالتجربة هذا الانتظار المؤسي للموت الذي يقلق الفتى ويعرف أيضاً ان الزمن وحده يستطيع علاجه .

ما كادت الشمس تظهر بين طائفتين من السحب حتى سكنت الريح وكأنها خجلت ان تفسد ذلك الصبح البـديع الذي اعقب تلك الليلة العاصفة . وسقطت بعض قطرات المطر كذلك ولكن عمودياً ثم هدأ كل شيء . وكانت الشمس قد طلعت تماماً ، ظهرت عنـد الافق لتختفي من فورها وراء عصابة طويل من السحب التي كانت تحجبها . وبعد دقـائق قليله ، عادت الى الظهور فوق العصابة اكثر سطوعاً فجوفت جانبها . وأضـاء كل شيء وراح كل شيء يلتمع . ولقد دوى المدفع فجأة على البعد وكأنه يجيب على هذا السيل من الضياء .

لم يتسن لروستوف بعد ان يقدر المسافة التي انطلقت منها المدافع عندما وصل من جانب فيتيبسك ، مساعد عسكري يجري على جواده تابع للكونت اوسترمن تولستوي يحمل الأمر بالسير خبباً على الطريق .

تجاوزت الكوكبة قطعة المشاة وبطارية المدفعيـة اللتين غذتا مشيتها بالمثل وانحدرت على سفح واجتازت قرية مهجورة ثم صعدت سفحاً آخر . وبدأ الزبد يظهر على صدور الجياد وأصبحت الوجوه شديدة الأحمرار .

أمر رئيس المفرزة من الأمام :

– قف ! انتظم ، نصف دائرة الى اليمين ، سيراً عادياً الى الأمام . سر !

سار الفرسان على جناح القطعات الأيسر وتجمعوا وراء رماحتنا المقامين في الخط الأول . والى اليمين ، كانت قطعة مزدحمة من المشاة تشكل احتياطينا وعلى الهضبة التي تعلوها ، كانت مدافعنا تظهر على خط الافق في ذلك الهواء شديد النقاء وتحت ضياء الصباح المشرق . والى الأمام في المنخفض ، كانت قطعات العدو ومدافعه ترى وقد اشتبكت معها طلائعنا وتبادلت معها الطلقات النارية بنشاط .

ابتهج روستوف من أزيز الرصاص الذي لم يسمعه منذ أمد طويل وكأنه النغمات الأولى من الموسيقى بهيجة : « تراب – تا – تا – تاب ! » انفجرت الطلقات تارة افرادية وتارة اخرى مجموعة ثم يصمت كل شيء ليسمع بعد ذلك أشبه بانفجار سلسلة من المفرقعات وضع بعضهم قدمه عليها .

ظل الفرسان في امكنتهم ساعة كاملة ثم ارتفع قصف المدافع بدورها . ومر الكونت اوسترمان مع حاشيته وراء الكوكبة وتوقف ليتبادل بضع كلمات مع الزعيم ثم ابتعد باتجاه المدافع .

وبعد ذهابه بقليل ، علا صوت آمر يهيب بالرماحة : « بوضعية الهجوم ! الى الأمام ! » وضاعفت فرق المشاة صفوفها لتسمح للخيالة بالمرور وراحت ومضات الرماح تتماوج والرماحة ينحدرون تاركين لجيادهم الاعنة باتجاه سفح التل حيث كان الفرسان الفرنسيون يظهرون الى يساره .

وما ان بلغ الرماحة نهاية المنحدر حتى تلقى الفرسان الأمر بالصعود الى المرتفع لتغطية بطارية المدفعية . وبينما هم ينفذون هذه الحركة ، راحت بعض الرصاصات الطائشة تصفر حول آذانهم .

اثارت هذه الضجة روستوف اكثر مما حفزته الطلقات الاولى . انتصب

على سرجه وراح يفحص ساحة المعركة التي كانت تتكشف ابتداء من أول المرتفع وشاركت روحه الرماحة في هجومهم . انحـدر هؤلاء على الفرسان الفرنسيين وحصل خليط بين الدخان ثم ، بعد خمس دقائق ، عاد الرماحة فاحتلوا مركزاً الى يسار مركزهم الاول . وبين الرماحة ذوي الثياب برتقاليه اللون والخيول الشهباء وراءهم ، كان يرى حشد كثيف من الفرسـان الفرنسيين الزرق على خيولهم الرمادية .

* * *

الفصل الخامس عشر

هجوم الفرسان

كان روستوف بعين الصياد الثاقبة ، الأوائل الذين شاهدوا هؤلاء الفرسان الفرنسيين الزرق يطاردون رماحتنا . وكان التابعون والمتبوعون يقتربون اكثر واكثر فبات يمكن رؤية هؤلاء الرجال الذين يبدون من الاعلى صغار الحجم ، يتصادمون ويتصاولون ويحركون الاذرع والسيوف .

راح روستوف يتأمل هذا المنظر كما يتأمل رحلة صيد بالكلاب ، وحدسه يقول له انه اذا هبط في تلك اللحظة على الفرنسيين فان هؤلاء لا يمكن ان يصمدوا ولكن كان يجب العمل بسرعة ، في تلك اللحظة بالذات ، والا فسيفوت الوقت . القى نظرة حوله فرأى رئيس الكوكبة الذي وقف الى جانبه لا يرفع عينيه عن المعركة . قال له :

– يا آندريه سيفاستيانيتش ، نستطيع ان نردهم .

- إه لعمري هذا صحيح ، وستكون الضربة جميلة !

ودون أن يسمع المزيد ، همز روستوف حصانه وانبرى الى مقدمة الكوكبة ولم يكد يأمر بالحركة حتى كان الرجال كلهم ، وقد تأثروا بمثل شعوره ، يندفعون وراءه . لقد تصرف كما يتصرف في الصيد دون تفكير ولا حساب . كان يرى

الفرسان الفرنسيين يهدبون قريباً منتشرين فكان واثقاً من انهم لن يستطيعوا الثبات واثقاً من أن الفرصة يتيمة لن تعود أبداً . ولقد اثاره صفير الرصاص لدرجة ، وكان حصانه شديد اللهفة الى الجرى ، حتى إنه لم يستطع الصمود . ارخى العنان للجواد وصرخ بالأمر ثم عندما سمع كوكبته تهتز وراءه فوراً ، انحدر بأقصي سرعة على العدو . وما ان بلغوا سفح التل حتى اندفعت الجياد دون عمد تعدو وتضاعف سرعتها كلما اقتربت من رماحتنا والفرسان الفرنسيون على آثارهم . وكان الفرنسيون قريبين جداً ، فلما رأوا الفرسان يصلون ، كر الذين في المقدمة على أعقابهم بينما توقف الذين في الوراء . وبمثل النشاط الذي استحوز عليه من قبل عندما قطع الطريق على الذئب ، اندفع روستوف مرخياً الأعنة لجواده « الدوني » ، بين صفوف العدو المتضعضعة . وتوقف رماح وتمدد آخر على وجهه وقد فقد جواده ، ليتحاشى الدهس وجاء حصان دون فارسه يصطدم بالفرسان . وكان فرسان العدو كلهم تقريباً قد أدبروا فانتقى روستوف واحداً منهم ممتطياً صهوة جواد رمادي واندفع يطارده . ولما اعترضت سبيله دغلة ، فقد تخطاها جواده الطيب واثباً . وجد نفسه وهو لا يكاد يتملك نفسه على السرج انه بات قريباً من خصمه . وكان هذا ، وهو ضابط ولاريب تبعاً لبزته ، يفر بأقصى سرعة وقد انحنى فوق مطيته وراح يطر كشحها ضرباً بعرض سيفه . وبمثل لمح البصر ، جاء حصان روستوف يصطدم بملء صدره مؤخرة حصان الضابط حتى كاد يطرحه أرضاً بينما رفع روستوف سيفه دون وعي منه وضرب به الفرنسي .

خبا حماسه على الفور وسقط الضابط بفعل صدمة الجوادين والخوف اكثر مما أثرت فيه الضربة التي سببت له قطعاً بسيطاً فوق مرفقه . وضبط روستوف جماح حصانه وراح يبحث بعينيه عن خصمه ليرى أي رجل على وجه الدقة ضرب

وكان ضابط الفرسان الفرنسي الذي علقت إحدى ساقيه بالركاب ، يئط على ساقه الاخرى ويقطب حاجبيه وينظر من الأسفل الى الأعلى إلى الفارس الروسي مروعاً وهو يترقب دون ريب ان تصيبه منه في أية لحظة طعنة اخرى . وكان وجهه الشاحب الفتي الملطخ بالوحل ، وشعره الأشقر وعيناه الزرقاوان والغمازة التي وسط ذقنه تتناسب مع مشهد عائلي وادع اكثر مما تنسجم مع ساحة قتال . وكان روستوف لايزال يتساءل عما يجب ان يفعل حينما صاح الضابط : « انني أستسلم ! » وراح دون ان يستطيع ان يرفع عن روستوف نظرته المروعة ، يحاول تخليص ساقه من الركاب . أنقذه بعض الفرسان الذين هرعوا وساعدوه على امتطاء الجواد . وكان فرساننا في صراع مع العدو في مواقع مختلفة ، وكان أحد هؤلاء ، جريحاً ملطخ الوجه بالدم ، يرفض تسليم حصانه ، وآخر يعانق أحد فرساننا وهو راكب وراءه على جواده وثالث يمتطي جواده بمساعدة واحد من فرساننا . وهرع المشاة الفرنسيون وهم يطلقون النار لنجدة الفرسان فبادر الفرسان الى الارتداد مع اسرهم وتبعهم روستوف وهو فريسة انقباض غريب . لقد تبدى له شيء حالك معقد ما كان يستطيع فهمه بنتيجة أسره هذا الضابط الفرنسي والضربة التي وجهها اليه .

تقدم الكونت اوسترمان - تولستوي للقاء الفرسان واستدعى روستوف وشكره وقال له انه سينقل تصرفه البطولي الى مسامع الامبراطور ويطلب له وسام صليب سان جورج . ولما استدعي روستوف ، تذكر انه هاجم دون ان يتلقى أي أمر ، فتوقع زجراً مراً . لذلك فانه كان بالمقابل يجب ان يبدو اكثر حساسية ازاء كلمات اوسترمان المطربة والمكافأة المنتظرة . لكن ذلك الاحساس الأليم الغامض نفسه ظل يعتصر قلبه تساءل وهو يغادر الجنرال : « هه ، مـا الذي يزعجني اذن ؟ ايلين : كلا ، انه صحيح معافى . هل أسأت

التصرف ؟ كلا ، ان هذا ليس السبب ! » لقد كان في قرارة نفسه شيء آخر يعذبه أشبه بتبكيت الضمير . « آه ! نعم ، انه هذ الضابط الفرنسي ذو الغمازة وسط ذقنه وذلك التردد الذي اعتراني عندما ارتفع ذراعي ليضربه . »

ولما رآى قافلة الأسرى ، تبعها روستوف ليرى فرنسية ذا الغمارة وسط ذقنه من جديد . كان ممتطياً حصان فارس روسي وهو في بزته الغريبة ، يسرح حوله نظرات قلقة . وكان جرحه في ذراعه عـديم القيمة . ابتسم لروستوف ابتسامة مغتصبة وحياه بيده . وظلت وخزات ضمير روستوف وسوء حالته النفسية تلازمه .

ولقد لاحظ أصدقاؤه وزملاؤه ذلك اليوم واليوم التالي كذلك إنه يلبث صامتاً منطوياً على نفسه وان لم يكن حزيناً أو غاضباً . لم يعـــد يستطيب الشراب بل راح يبحث عن الوحدة ولا يني يقلب الأمر في ذهنه على كل وجوهه .

كان روستوف دائم التفكير في مأثرته العسكرية اللامعة التي – لدهشته البالغة – عادت عليه بصليب سان جورج بل واكتسبت له صفة باسل . فكان فيها شيء لم يتوصل الى فهمه . كان يحدث نفسه : « انهم إذن أشد خوفاً مني ! هل هذا إذن هو ما يسمونه بطولة ؟ ثم هل حقيقة انني فعلته من أجل وطني ؟ وهذا الآخر ، بغمازته وعينيه الزرقاوين ، ما هو ذنبه ؟ كم كان خائفاً ! كان يظن انني سأقتله . لماذا كنت سأقتله ؟ ثم هم يعطوني صليب سان جورج . كلا ، لاريب انني لاأفهم شيئاً ! »

ولكن ، بينما كان روستوف يطرح على نفسه كل هذه الأسئلة ، دون ان يصل الى تكوين فكرة واضحة عما كان يمضه ، دارت عملة السعادة لصالحه كما يحدث غالباً . لقـــد عينوه رئيس كوكبة بعد عجلة اوستروفينا وأصبحوا يعهدون اليه بالمهمات التي تتطلب بسالة .

الفصل السادس عشر

مرض ناتاشا

على الرغم من ان الكونتيس لم تكن بعد قد أبلت من مرضها ، فانها ما ان علمت بمرض ناتاشا حتى ارتحلت رغم ضعفها الى موسكو مع بيتيا وكل من يتبعها واستأذنت الأسرة من ماري دميتربيفنا لتقيم نهائياً في نزلها .

ولقد اتخذ مرضها شكلاً جدياً قوياً حتى ان سلوكها وفصم خطوبتها وهما سبب مرضها باتا لحسن حظها وحظ الاسرة في المرتبة الثانية . ما كانت حالتها تسمح بالتعمق حول أخطائها المسلكية : لم تعد تأكل ولا تنام وتزداد نحولاً بينا وتسعل وألمح الأطباء الى انها انما تتعرض لخطر حقيقي . فلم يعد اذن بالامكان التفكير الا في معالجتها . وكان الرجال المختصون الذين يجيؤن لزيارتها جماعات او فرادى ، يتناقشون كثيراً بالفرنسية والألمانية وأحياناً باللاتينية وينتقدون بعضهم بعضا ويصفون العلاجات المختلفة الخاصة بمداواة كل الأمراض التي يعرفونها « ولكن ما من أحد منهم خطرت بباله الفكرة البسيطة بأن المرض الذي تشكو منه ناتاشا لم يكن بالنسبة اليهم سهل المعالجة كأي من الآلام التي ترهق الانسانية . وفي الواقع ، ان كلاً منا له بناؤه الخاص ، يحمل في نفسه مرضاً خاصاً جديداً يستقل به ، معقداً ومجهولاً من الطب ، لايدخل في إصابات

الرئتين المبوبة او الكبد أو الجلد او القلب أو الأعصاب الخ ... بل ينجم عن تأثيرات لاتحصى أحدثتها عيوب هذه الأجهزة كلها . ان هذه الفكرة لم تكن لتخطر على بال الأطباء كما لايمكن ان تطرأ على بال السحرة فكرة الكف عن سحرهم . ذلك ان المعالجة كانت مورد قوتهم وسر وجودهم ومهنة كرسوا لها أفضل سنواتهم . وأخيراً على الأخص ، لقد كانوا واثقين من أنهم نافعون لشيء ما والواقع ان وجودهم لدي آل روستوف لم يكن قليل الجدوى والأثر . وأية أهمية لفرضهم على ناتاشا عقاقير معظمها ضار خفف أثرها المؤذي بتخفيف الجرعات الى أقل حد . لقد كان وجودهم ضرورياً بل ولا بد منه لمجرد انهم كانوا يرضون حاجات ناتاشا الفكرية وحاجات من حولها . فلنقل اذن بين معترضتين ، ان هذا هو السبب الذي سيظل فيه معالجون مزيفون ومشعوذون سواء من معالجي الداء بضده أو الذين يعالجونه بالتجانس . انهم يرضون هذه الرغبة الأزلية عند الانسان ، رغبة الحصول على البرء ورؤية الناس يتدافعون حوله ويرثون لآلامه انهم يرضون هذه الحاجة الازلية التي تلاحظ عند الطفل على شكله البدائي ، حاجة تلك الجهة التي نحس بالألم فيها . والطفل اذا ما اصاب نفسه بصدمة ما ، يهرع بين ذراعي امه او مرضعته لتقبله وتدلك له مكان الألم فتمنحه تلك الملاطفة راحة حقيقية . انه لايلاحظ أن أشخاصاً أكثر قوة وحكمة يمكن ان لا يستطيعوا العمل على نجدته . لذلك فان الأمل في نيل الراحة والاشفاق الذي تظهره الام نحوه وهي تدلك له مكان الألم يكفيانه للترفية عنه . ولقد كان الأطباء الى جانب ناتاشا يمثلون هذا الدور نفسه ، دور « الماما » التي تعانق وتنفخ مكان « الواوا » كانوا يؤكدون لها ان مرضها سيزول حالما يعود الحوذي من صيدلي « الآربات » ومعه بعض المساحيق المحفوظة في علبة جميلة قيمتها روبل واحد وسبعون كوبيكا فتأخذ منها بانتظام كل ساعتين قدراً مذاباً في ماء مغلي .

ترى ماذا كان سيقع لسونيا والكونت والكونتيس لو أنهم اضطروا الى ضم أزرعهم على صدورهم بدلاً من اعطاء ناتاشا تلك الحبات في الأوقات المعينة وتلك المشروبات الساخنة ومغلي الأرز بالدجاج والسهر على تنفيـذ مئـات الارشادات الاخرى التي أوصى بها الأطباء والتي كانت تتيح لهم عملاً يسري عن نفوسهم ؟ هل كان الكونت يستطيع احتمال مرض ابنته العزيزة لولم يعرف ان ذلك المرض كلفه حتى تلك اللحظة الف روبل وانه ليعطي راضياً الف روبل اخرى في سبيل شفائها وان ذلك اذا لم يكن كافياً فانه سيضحي بورقة ثالثة من ذات الالف روبل ليأخذ ابنته الى الخارج ويعرضها هناك على مشاهير النطاسيين ولو انه لم يجد الفرصة سانحة له ليحدث كل وافد بان ميتيفييه وفيللير لم يفقها شيئاً من مرضها وان « فريز » كان أوسع خبرة وان مودروت استطاع أخيراً ان يشخص حقيقة المرض ؟

وماذا كانت الكونتيس لتعمل لو انها لم تستطع التخاصم بين الحين والحين مع المريضة التي ما كانت تراعي بالدقة اللازمة تعليمات كلية الطب ؟

كانت تقول بغضب كان ينسيها همها :

ـ اذا كنت ستعصين الطبيب ولا تتناولين علاجاتك في حينها ، فانك لن تبرأي أبداً ! ابذلي قليلاً من الجد والا فان المرض سينقلب الى ذات رئة .

كانت تضيف هذه الكلمات وهي تجد سلواناً كبيراً في نطق هذا الاسم الذي لم يكن متعذراً فهمه عليها وحدها .

وماذا كانت سونيا لو انها لم تجد القناعة في ان تحدث نفسها بأنها لم تخلع ثيابها طيلة الليالي الثلاث الاولى كي تكون مستعدة دائماً لتنفيذ ارشادات الطبيب بحذافيرها وانها الآن لاتكاد تتذوق طعم النوم كيلا تسهو عن اعطائها الحبات البريئة الكامنة في العلبة الجميلة المذهبة ؟

لقد زعمت ناتاشا نفسها ما راق لها ان ما من علاج يستطيع شفاءها وان كل هذه الاشياء ان هي الا سخافات . مع ذلك فانها ما كانت لتشعر بأقل من متعة النظر الى ما يقدمون في سبيلها من تضحيات وتناول علاجاتها في ساعاتها المحددة بل والتظاهر عن طريق اغفال تعليمات الاطباء ، بأنها لا تؤمن بشفائها ولا تتمسك بالحياة .

كان الطبيب يأتي كل يوم فيجس نبضها وينظر الى لسانها ويمازحها دون ان يلقي بالاً الى وجهها المفتقر الى العناية . وبالمقابل ، كان عندما يمضي لى الحجرة الاخرى حيث تهرع الكونتيس الى اللحاق به ، يطبع على وجهه سيماء الجد ويهز رأسه بشرود فكر ويعلن انه رغم الخطر الذي لا يمكن انكاره ، فانه يعتمد على تأثير العلاج الأخير الجيد وانه يجب الانتظار والمشاهدة وان المرض نفسي على الغالب ولكن ..

فكانت الكونتيس تدس في يده خفية قطعة ذهبية وتعود الى سرير المريضة وقلبها اكثر اطمئناناً .

كانت دلائل المرض ترتكز على ضعف في الشهيـة ونقص في النوم ونوبات سعال وبلادة عامة . وكان النطاسيون يؤكـدون انه لا يمكن ترك ناتاشا دون معالجات طبية ، لذلك كانوا يحتفظون بها في جو المدينـة الخانق . وعليه ، فقد أمضى آل روستوف صيف عام ١٨١٢ كله في موسكو .

وعلى الرغم من ابتـــلاع الحبات والقطرات والمساحيق الأكثر اختلافاً المعبأة في علب او في زجاجات كانت مدام شوسّى التي تبحث عن مثلها قـد جمعت منها مجموعة كاملة ، وعلى الرغم من حرمانها من هواء الحقول ، فان الشباب تغلب . اخذت تأثيرات الحياة الجارية تخفف الغم عن ناتاشا رويداً رويداً وتلقيه بلطف في اعماق الماضي وبدأت قواها الجسدية تعود تدريجياً .

الفصل السابع عشر

الشفاء

اصبحت ناتاشا اكثر اطمئنانا ولكن ليس اكثر جذلاً . لم تعد تتجنب كل مناسبات الترفيه عن نفسها والحفلات الموسيقية والراقصة والنزهات والمسارح فحسب بل كانت كذلك لاتضحك الا والدموع من وراء ضحكتها . ولم تعد تقدر على الغناء . وكلما حاولت ان تضحك او ان تختبر صوتها في خلوة مع نفسها، كانت الدموع تخنقها ، دموع الندم ،دموع تسفح لذكرى ماضيها البريء الذي أتلف الى الابد ، دموع الغيظ لأنها حطمت بحماقة وجودها الفتي الذي كان يمكن ان يكون في اعمق مراتب السعادة . وكان الضحك وبصورة خاصة الغناء يبدوان لها تدنيساً لألمها . ولقد اغفلت كل مظاهر الدلال دون ان تشعر بأي حرمان منها . كانت تقول وتشعر ان كل الاشخاص باتوا في نظرها سواء اشبه بالمهرج ناستاسيا ايفانوفنا وكان هاتف داخلي يحرم عليها كل متعة . لقد فقدت كل موجبات الحياة التي طالما زجرت من قبل وملأت شبابها الغافل بالآمال . وكان اكثر ما تذكره بأكثر أسى ، أشهر الخريف تلك والصيد والعم واعياد الميلاد التي جرت في اوترادنواي برفقة نيكولا . ما كانت لتبخل بشيء تهبه في سبيل بعث يوماً واحداً من تلك الأيام الرائعة ! ولكن لا ، لقد اختفت الى الأبد .

كان احساس مسبق يقول لها انها لن تري بعد روحها المتحررة السابقة المتفتحة لكل المباهج . مع ذلك فكان يجب ان تعيش .

كانت تفكر ، ليس دون ارتياح ، خلافاً لما كانت تظنه حتى ذلك الوقت.. من انها خير من الاخريات ، انها اخبث كل المخلوقات في الوجود . وانه لعزاء كاف ! وكانت تتساءل دون جدوي : « ماذا يخبىء لي المستقبل ؟ » ما كانت الحياة لتدخر لها اية مسرة مع ذلك فقد كانت الحياة تمر . لذلك فقد دأبت على ان لاتكون عالة على احد وان لاتطالب بشيء من اجلها وراحت تتجنب كل اقربائها باستثناء اخيها بيتيا الذي كانت صحبته تسرها ، بل انها احيانا كانت في خلوتها معه تستعيد مرحها . وكفت تقريباً عن الخروج ولم تعد تشعر بأية رغبة في مشاهدة الذين الفوا زيارة البيت باستثناء بيير . والواقع انه كان يستحيل ابداع حنان ولياقة بل وجد كذلك اكثر مما كان يودعه الكونت بيزوخوف في علاقاته مع ناتاشا . وكانت تشعر بذلك العطف بابهام دون ان تعترف له بما يستحق من جميل . كان يخيل اليها ان هـــذا التصنع الدقيق من جانب بيير لايكلفه مجهوداً كبيراً وانه بطبيعته شديد الطيبة مع كل الناس حتى ليصبح تصرفه حيالهخالياً من كل الميزات. وكانت ناتاشا احياناً تلاحظ اضطرابه وخرقه في حضرتها خصوصاً عندما يخشى ان تذكرها المحادثة بذكريات اليمة ، فكانت تعزو ذلك الى طيبة قلبه وخجله لأنه – على حد زعمها – لابد وان يكون خجولاً مع الناس كلهم كحاله معي . ومنذ ذلك اليوم الذي قال لها فيه دون وعي اذ رآها شديدة الاضطراب ،انه لو كان حراً لسألها يدها وحبها وهوجاث على ركبتيه ، لم يعد بيير يحدثها عن عواطفه ، تلك الكلمات التي كانت لهـــا حينذاك عوناً كبيرا . وكانت ناتاشا تقدر انه لايجب بعد الآن ان تعلق اهمية الا على الاحاديث التافهة التي يُقصد بها مواساة طفل ، ليس لأن بيير متزوج ،

بل لشعور ناتاشا بقيام تلك الحواجز الفكرية التي انخفضت امام كوراجين ، منتصبة شديدة الارتفاع فما كانت لتفكر قط في ان علاقاتها الطيبة يمكن ان تتحول الى حب او حتى الى تلك الصداقة الحنون الشاعرية التي يمكن ان تتبادل بين رجل وامرأة والتي عرفت أمثلة عنها .

بعد صوم القديس بطرس ، جاءت أجرافينا ايفانوفنا بيبلوفا ، وهي احدى جارات آل روستوف في الريف ، الى العاصمة لتحج . فعرضت على ناتاشا ان تنضم اليها لتمجيد القديسين الموسكوفيين فقبلت هذه العرض بسرور . وعلى الرغم من ان الاطباء حرموا عليها الخروج مبكرة ، فقد صممت على ان تظهر تعبدها ليس على طريقة آل روستوف الذين يقيمون عادة ثلاث صلوات خاصة ، بل على طريقة اجرافينا ايفانوفنا التي ظلت طيلة اسبوع كامل تحضر كل القداسات وصلوات السحر والغروب والنوم .

ولقد راق للكونتيس حماس ابنتها الديني فكانت تأمل في أعماق قلبها انه بعد المعالجة قليلة الجدوى التي أجراها النطاسيون يمكن ان تكون للصلاة فضيلة أقوى من الأدوية. لذلك فقد استسلمت لرغبة ابنتها وسلمتها للسيدة بيبلوفا وهي تختفي مروعة من لقاء الطبيب . وكانت اجرافينا ايفانوفنا تحضر ابتداء من الساعة الثالثة صباحاً لتصحب ناتاشا التي كثيراً ما وجدتها مستيقظة . وبعد ان تسوي شعرها بسرعة وترتدي على سبيل التواضع أبشع ثوب لديها ومعطفاً قديماً ثم تطوف بالشوارع القاحلة التي يضيئها الفجر باشعاعات شفافة وهي ترتعد . وكانت ناتاشا ، تبعاً لنصيحة رفيقتها ، لاتذهب الى كنيستها الحورنية ، بل الى كنيسة كان الراهب فيها يعيش حياة كلها تقشف وجدارة ، على حد مزاعم السيدة بيبلوفنا الورعة . وكان المؤمنون في تلك الكنيسة قليلي العدد دائماً والمرأتان تتخذان عادة مكانآلهما في الجانب الأيسر أمام صورة للعذراء فاستحوز

شعور مجهول أوجده الخضوع والخشوع أمام مالا يُطال ، على الفتاة كلما راحت تتأمل وجه ام الله المسود المضاء بالشموع وبنور الفجر الذي كان في تلك الساعة الخارقة يسقط عليها من احدى النوافذ وكلما أصاخت السمع الى القداس مجتهدة ان تتتبعه وتتفهمه . وعندما كانت تفهمه ، كانت عواطفها الشخصية بمختلف مقوماتها تختلط بصلاتها . أما في الحالة العكسية فان التفكير في ان رغبتها فهم كل شيء لون من الكبرياء ، وانه لايمكن فهم كل شيء بل يجب الايمان فقط والاستسلام لرب تشعر في تلك اللحظات انه سيد روحها ، كان أكثر عذوبة في نفسها . وكانت ترسم الصليب على صدرها وتركع . وعندما يتعذر عليها الفهم تكتفي بالتوسل الى المولى والخرف مستول عليها ازاء بغيها ، ان يغفر لها كل شيء وان يرأف بحالها . وكانت أدعية الندم مفضلة عندها على كل الصلوات . وفي أوبتها في ساعة لازالت شديدة الابكار ، حين لايكون في الشوارع الا البناءون الذاهبون الى عملهم والخادمات يكنسن أمام البيوت ، ويكون الناس كلهم نياما ، كانت ناتاشا تفاجىء نفسها متوقعة امكانية نهضة وحياة جديدة نقية وسعيدة .

ظل شعورها ذاك بالبعث يزداد نمواً خلال الاسبوع الذي أمضته كله في هذه الممارسات الورعة . فالمناولة أو المكالمة مع الله كما كان يحلو لأجرافينا ايفانوفنا أن تحور الكلمة ، كانت تبدو لها سعادة كبرى حتى أنها كانت تخشى أن تموت قبل ذلك الاحد السعيد .

أخيراً ، جاء ذلك اليوم السعيد . وعندما جاءت ناتاشا من التناول ذلك الاحد الذي لاينسى ، مرتدية ثوبها القطني الابيض ، شعرت لأول مرة منذ أشهر طويلة انها في حالة سلم مع نفسها فلم تعد الحياة التي تنتظرها تبدو لها عسيرة مرهقة .

وبعد ان فحص الطبيب الذي كان ذلك اليوم موعـد زيارته ناتاشا ، أمر أن تكرر تناول المسحوق الذي أوصى لها به قبل خمسة عشر يوماً وقال وهو يتظاهر بسعادة مخلصة لتحسن حالتها :

– صبحاً ومساء دون خطأ وبكل دقة أرجوك .

وبينما هو يقبض قطعته الذهبية في راحة يده ، داعب الكونتيس قائلًا :

– كوني مطمئنة ياسيدتي الكونتيس . سوف ترينها بعـد قليل تغني وتمرح من جديد . لقد أفادها العلاج الأخير افادة كلية . ان مظهرها في تحسن .

ولكي تطرد الكونتيس فأل السوء ، فقـد بصقت وهي تنظر الى أظافرها ثم مضت الى البهو متهللة الاسارير .



الفصل الثامن عشر

دعاء سينود

في مطلع تموز ،انتشرت في موسكو أنباء متفاقمة الخطورة : كانوا يتحدثون عن نداء يوجهه الامبراطور الى الشعب وعن أوبته القريبة . ولما لم يتلق أحد حتى الحادي عشر أي بلاغ أو ايذان ، فان أكثر الشائعات مبالغة راجت حول هذا الموضوع كما حول الموقف العام . كانوا يزعمون ان الكسندر يترك الجيش لأن الجيش في خطر وان سمولنسك قد استسلمت وان لدى نابوليون مليون رجل وان المعجزة وحدها يمكن ان تنقذ روسيا .

ويوم السبت الحادي عشر ، تلقوا البيان ولكن كان لايزال يجب طبعه . ولقد وعد بيير الذي كان ذلك اليوم لدى آل روستوف ، ان يعود غداً الأحد الأحد لتناول الطعام وان يأتي بالبيان والغــــداء اللذين سيحصل عليهما عند الكونت روستوبتشين .

ذهب آل روستوف ذلك الأحد على جري عادتهم الى كنيسة آل رازوموفسكي الخاصة لسماع القداس . ومنذ الساعة العاشرة ، عندما ترجلوا من عربتهم أمام الكنيسة ، كان الهواء شديد الحر وصيحات الشيالين والجمهور في ثيابه الفاتحة وأشجار الشارع المغطاة بالغبار وضوضاء الموسيقى ، والسراويل التي كان يرتديها

جنود كتيبة ذاهبة الى العرض ، وهـدير العربات على بلاط الشارع ، وحرارة الشمس التي تعمي الابصار ، كل ذلك كان يضفي على النـاس شعوراً بالارهاق والانزعاج بارزاً خلال بهجه الحياة التي يلمسها المرء أبـداً في مدينة كبيرة ذات يوم مفرط الحرارة . وكان أشراف موسكو كلهم وكل معارف آل روستوف مجتمعين في الكنيسة ، ذلك ان كثيراً من العائـلات الغنية لم تذهب ذلك العام الى أراضيها الريفية بانتظار الاحداث الجارية . سمعت ناتاشا وهي تتبع مع امها خادماً في ثياب رسمية يفسح لهما الطريق بين الجماهير ، شاباً يقول لآخر بصوت أعلى من الطبقة الطبيعية :

– هذه هي الآنسة روستوف ، تلك التي ..

– كم نحلت ! مع ذلك ، انها لاتزال جميلة .

خيل اليها انها تبينت في حـديثها اسمي كوراجين وبولكونسكي . على اية حال ، كان هذا يقع لها باستمرار . كانت تتصور دائماً ، ان كل من يراها يفكر في مغامرتها . أخذت ناتاشا تتقدم منقبضة الصدر كعادتها كلما وجدت نفسها في حفل ، وهي مرتدية ثوباً حريرياً ليلـكي اللون موشى بالمخرم الاسود ، متخذة ذلك المظهر الذي تحسن النساء اتخاذه ، فيه كثير من الهـدوء والجلال بقدر ما كان في أعماق قلبها ألم وخجل أكثر . كانت تعرف انهـا جميلة بالفعل . لكن ذلك ما كان ليبهجها كسابق العهد بل على العكس يعـذبها خصوصاً في مثل ذلك الأحد المشرق القائظ . أخذت تحدث نفسها وهي تذكر انها جاءت الأحد الفائت الى هنا : « أحد آخر ، اسبوع آخر ينقضي بينما تستمر الحياة هي هي ، لاحياة ، في جو كان العيش فيه سابقاً متعة حقيقية . انني شابـة وجميلة ولقد أصبحت جيدة . نعم ، لقد كنت رديئة فيما مضى أما الآن فأنا أعرف انني طيبة رغم ذلك ، فان افضل سنواتي تمر ضياع هباء دون فائدة لأحد . » أقامت الى

جانب امها وتبادلت مع بعض معـارفها اشارات برأسها . وبحكم عادتها المألوفة راحت تتفحص زينة النساء وتنتقـد المظهر والاسلوب غير المحتشم الذي دأبت احدى جاراتها ترسم به اشارات الصليب ، وفكرت في غير قليل من السخط انها ولا بد مدار أحكام متهورة وانها هي الاخرى تسمح لنفسها باتخاذ مثلها حيال الآخرين . وفجأة ، بينما بدأ القداس ، أحست بخجل لانحطاطها وفكرت من جديد في انها أضاعت نقاءها القديم .

كان عجوز قصير نبيل الأسارير يقدس بطلاقة جليلة تحدث في نفس المؤمنين أثراً مهدئاً جداً . وفتحت الأبواب الملكية واسدل ستار المحراب ببطء وارتفع صوت غامض جميل تسلل الى الاسمـاع وراحت الدموع التي لم تكن تدرك لها سبباً تنبجس في أعماقها واستولى عليها ارتخاء سعيد .

وراحت تصلي : « علمني مايجب ان أفعل وكيف يجب ان أتصرف في الحياة وأتصرف مرة الى الأبد ، الى الأبد ! »

تقدم الشماس الى المنبر وحرر شعره الطويل العالق بثوبه الكهنوتي بحركة عريضة من ابهامه ، وبعد ان ارتسم ، ردد بصوت عال جليل الصلاة :

– لنصلي الى المولى بسلام .

فكرت ناتاشا : « نعم ، لنصل كلنا معاً ، دون تبـاين في الطبقات ، دون موجدة ، يجمعنا حب أخوي . »

– لنبتهل الى المولى من أجل السلام الأعلى والخلاص لأرواحنا .

ففهمت ناتاشا انه : « من أجل عـالم الملائكة وكل الأرواح غير المتجسدة التي تعيش فوقنا [1] » .

---

(١) أورد المترجم الى الفرنسية الملاحظة التالية : « في اللغة الروسية كلمتا MIR ، الاولى بمعنى السلام والثانية بمعنى عالم ، واللغـة الكنائسية تستعمل

وعندما صلوا من أجل الجيوش ، تذكرت أخاهـا ودينيسوف . ولما صلوا من أجل البحارة والمسافرين ، تذكرت الأمير آندويه وصلت من أجله وتوسلت الى المولى ان يغفر لها الأذى الذي سببته لخطيبها . وعندما صلوا من أجل أولئك الذين يحبوننا ، صلت من أجل أقاربها كلهم ، من أجل أبيها وامها وسونيا وبانت لها للمرة الاولى خطورة الاخطاء التي وقعت فيها نحوهم كما بانت لهـــا قوة الحب الذي تكنه لهم . وعند ماصلوا من أجل الذين يكرهوننا ، راحت تبحث عمن يمكن ان يكونوا أعـداءها لتصلي من أجلهم فلم تجد غير دائني أبيها وكل أولئك الذين لهم به صلات عمل . وفكرت في أناتول الذي سبب كثيراً من الاذى ، وعلى الرغم من أنه لم يُدرج في عـداد أولئك الذين يكرهوها ، فقد صلت من أجله وكأنه عدو . كانت في تلك اللحظات فقط تجد من نفسها القدرة الكافية على استعراض ذكري آندويه وآناتول دون ان تضطرب لأن عواطفها التي تحس بها حيالهما حينذاك كانت تختفي أمام خوفها من الله وحبها له . وعندما صلوا من أجل الاسرة الامبراطور وسـان سينود [1] ، رسمت اشارة الصليب من جديد وانحنت بأكثر حمية وورع وهي تحدث نفسها انه بعدم فهمها حقيقة ما يراد بذلك ، فانها يجب على اية حال ان تحب سينود هذا وتصلي من أجله .

ولما انتهت الجبوة ، شبك الشماس « بطرشيله » على صدره وردد :

– لنضع شخصنا وكل حياتنا بين يدي المسيح ربنا .

فكررت ناتاشا في سرها : « لنضع شخصنا بين يـدي الله . رباه انني اسلم نفسي لمشيئتك . لست اريد شيئاً ولا أرغب شيئـاً . علمني ما يجب ان أعمل وكيف أستعمل الارادة . . وراحت تكرر بنفاذ صبر وانجذاب من أعماق قلبها :

← المعنى الأول مترجماً عن اليونانية . لكن ناتاشا تعتقد ان المقصود هو المعنى الثاني لأنه اكثر شيوعاً . »

(١) سينود : سان سينود ، تعبير قديم يقصد به اليوم المجمع المقدس .

« ولكن خذني ، خذني ! » ودون ان ترتسم من جديد ، أسبلت ذراعيها وبدت كأنها تنتظر قوة غير مرئية تأتي فتمسك بها وتنتزعها من نفسها ، من تحسراتها ورغباتها وندامانهم وآمالها وأسوائها .

وقد القت الكونتيس خلال القداس مراراً ، نظرات الى وجه ابنتها المتأمل وعينيها اللامعتين وابتهلت الى الله ان يكون في عونها .

لاحظت ناتاشا عند منتصف القداس وقوع مخالفة للمألوف : لقد جاء قيم الكنيسة المقعد الصغير الذي يقرأون الصلوات ركوعاً عليه يوم العنصرة ووضعه قبالة الابواب الملكية . وخرج القس وعلى رأسه قلنسوة من قطيفه بلون ليلكي من المحراب وسوى شعره ثم جثا بصعوبة . فحذا المصلون حذوه ولكن ليس دون ان يتبادلوا نظرات قلقة . كان الموضوع متعلقاً بصلاة أرسلها سينود للتوسل الى الله ان ينقذ روسيا من الغزو الأجنبي .

شرع القس بصوته الواضح العذب الخالي من التفخيم الذي ينفرد به الكهان السلافيون والذي له أقوى الاثر في القلوب الروسية : « ايها المولى القادر على كل شيء ، رب خلاصنا ، تنازل برحمتك واخفض اليوم نظرتك الى خدامك المتواضعين اصغ الى صلاتنا واحمنا واشفق علينا . ان العدو الذي يقلب أرضك ويزمع أن يجعل من العالم كله صحراء قد نشط ضدنا . والزنادقة اجتمعوا ليدمروا ملكك ويهدموا اورشليمك المخلصة ، روسياك الحبيبة ، ويدنسوا معابدك ويقلبوا مذابحك ويحقروا أشياءنا المقدسة . الى متى أيها المولى ينتصر الخاطئون ؟ الى متى يستطيعون استعمال قوتهم المجرمة ؟

« أيها المولى كلي القدرة ، اصغ الى صلواتنا . أعن بقوتك امبراطورنا شديد التقوى مطلق السلطان الكسندر بافلوفيتش ، تذكر استقامته وحلمه ، عامله بمثل الرفق الذي يعاملنا به نحن ، شعبك المحبوب ، بارك قراراته ومشاريعه

ومكّن ملكه بيمينك الشديدة القوة وهب له النصر على العدو كما وهبته لموسى على آمالك AMALEK (العمالقة) ولجدعون لي مَدْين ولداوود على جليات واحفظ جيوشه وضع قوس الميديين في يد الذين يحاربون باسمك وأحط صدورهم بقوتك . خذ أسلحتك وترسك وتعال الى نجدتنا . وليصب العار والبلبال أولئك الذين يريدون بنا الشر وليكونوا أمام المخلصين لك أشبه بالغبار أمام الريح وليلعنهم ملكك وليطاردهم ، ليحط بهم شبكك دون ان يشعروا وليقعوا في شباكهم نفسها وليقعوا على أقدام خدامك ولتدس جيوشك ايها المولى ! اليك مرجع سلام الكبار الصغار . أنت الله ، ولا يستطيع الانسان حيالك شيئاً .

« يارب آبائنا ، تذكر رحمتك وشهامتك اللتين هما أزليتان . لا تبعدنا عن وجهك ولا تحقد علينا لفحشائنا ، انظر الى جرائمنا وخطيئاتنا بكل سعة رحمتك اخلق فينا قلباً نقياً وجدد في صدرنا فكرة الحق . قونا جميعنا في الايمان ومكن آمالنا واوح الينا حباً حقيقياً بعضنا لبعض ، سلمنا بروح واحدة للدفاع المشروع عن الميراث الذي أعطيته لنا ولآبائنا ، وليمتنع صولجان الكفرة عن الارتفاع على قسم المصطفين .

« ايها المولى ربنا الذي نؤمن به والذي وضعنا فيه ثقتنا ، لاتخيب انتظارنا قم باشارة لصالحنا . ليبلى الذين يكرهوننا نحن وديننا الاورثوذوكسي المقدس بالبكم ولينفقوا . ولتعلم الاقوام كلها ان اسمك هو مولى واننا أبناؤك . ايها المولى ، اظهر لنا شفاعتك وامنحنا خلاصك وابهج قلب خدامك واضرب أعداءنا واقلبهم باسرع وقت تحت أقدام المؤمنين بك المخلصين . لأنك أنت السند والنجد والنصر لأولئك الذين يؤمنون بك . المجد للأب والابن والروح القدس الآن ودائماً وفي قرون القرون . »

كانت روح ناتاشا متفتحة لكل الأحاسيس حتى بات لهذه الصلاة اثر شديد

عليها . والواقع ان انتصارات موس على العمالقة هذه وجدعون على مُديَن وداود على جليات وانهيار اورشليم أيضاً ، كانت تدفعها الى الصلاة بكل الحميه الحانية التي كانت تفعم قلبها . مع ذلك ، فانها ما كانت تدرك كل ما تطلبه من الله . ولقد اتحدت اتحاداً كلياً مع البهلة للحصول على عقلية مستقيمة وقلب يقويه الايمان ويوقظه الأمل ويحييه الحب . ولكن كيف كانت تستطيع التماس افناء أعدائها وهي التي كانت قبل دقائق ترغب في الحصول على عدد أكبر منهم لتصلي من أجلهم ؟ مع ذلك ، فانها لم تكن لتضع الصلاة التي فرغوا من تلاوتها جاثين موضع الشك من حيث موضوعها . كانت تشعر في أعماقها بارتعاشة تقية وذعر مقدس وهي تفكر في العقاب الذي ينزل بالخاطئين وعلى الأخص بذلك الذي ينفسها له . توسلت الى الله ان تمنحهم الغفران جميعهم والراحة والسعادة في هذه الدار . وخيل اليها ان الله كان يصغي الى صلاتها .

* * *

الفَصلُ التّاسِعَ عَشَرَ

الروسي بيزوخوف

منذ ذلك اليوم الذي تأمل فيه بيير النجم المذنب حال عودته من لدن آل روستوف وهو لايزال تحت تأثير نظرة ناتاشا الشكور ، وشعر بافق جديد يفتح أمامه ، كفت مسألة العدم والكبرياء بكل ما هو أرضي عن تعذيبه . والسؤال الأليم : « لماذا ؟ » الذي كان من قبل يتدخل في كل مشاغله ، لم يترك مكانه لسؤال آخر ولا لأي حل كان ، بل للصورة التي احتفظ بها « لها » . فاذا تابع أو أثار هو نفسه مناقشة متبذلة أو قرأ أو تعلم حماقة ما أو رذيلة ما ، فانه ما كان يسخط كسابق عهده ولم يعد يتساءل عن سبب اضطراب البشر الى هذا الحد في حين ان كل شيء شديد القصر قبل القفزة الى المجهول . ولكي تتبدد كل شكوكه ، كان يكفيه ان يتمثلها « هي » كما رآها آخر مرة وعندئذ تختفي كل الشكوك لالأنها تجيب على الاسئلة التي تعرض له ، ولكن لأن صورتها كانت تنقله فجأة الى منطقة مشرقة من الروح حيث لايستطيع أن يرى هناك محقاً ولا مذنباً ، الى منطقة الجمال والحب ، هذين السببين الوحيدين للحياة . ومهما بلغت الأسواء الفكرية التي كانت الحياة توجدها أمامه فانه كان يحدث نفسه : « لايهمني ان يكون ن . ن . قد سرق الدولة والقيصر وان يكون

القيصر والدولة يغدقان عليه الأمجاد مكافأة له . لقد ابتسمت لي أمس ورجتني أن أعود لزيارتها . أحبها ولن يعرف أحد قط شيئاً . » وحينئذ تحتفظ نفسه بكل اشراقها . .

استمر بيير خلال ذلك على ارتياد المحافل والأكثار من الشراب والحياة في الفجور والعطالة لأنه كان عليه إضافة الى الساعات التي يقضيها لدى آل روستوف ان يقتل من البقية من الوقت . ثم أن معارفه كعاداته كانوا يجرونه دون أي رادع الى مثل هذه الحياة . ولكن ، في الأوقات الأخيرة ، عندما باتت أنباء الحرب أكثر اخافة ، وعندما كفت ناتاشا ، بعد ان أبلت قليلاً ، عن الايحاء اليه بمثل ذلك الاشفاق المرهف ، استحوذت عليه كآبة غامضة غير مفهومة أخذت تزداد قوة يوماً بعد يوم . كان يشعر بان مصيبة ما سوف تقلب حياته ظهراً لبطن فكان يترقب بنفاذ صبر الاشارات المنذرة ، أطلعه أحد اخوانه الماسونيين عن النبوءة التالية المتعلقة بنابوليون .

في الاصحاح الثالث عشر من رؤيا القديس يوحنا الانجيلي الأية الثامنة عشرة يقول : « هاهنا الحكمة ! ليحصي لديه ذكاءعدد الوحش لأنه عدد انسان وهذا العدد هو ستمائة وستة وستين . »

وفي الاصحاح نفس الآية الخامسة : « ولقـد اعطي له فم ينطق بكلمات متكبرة تجديفية ولقد أعطي له ان يعمل خلال اثنين وأربعين شهراً . »

واذا نقلت بالفرنسية الأعداد العبرية ، حيث الأحرف العشرة الاولى تمثل تتابع الآحاد والتي تليها تتابع العشرات نحصل على الجدول التالي .

A	B	C	D	E	F	G	H	I	K	L	M	N
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠

(1)

O	P	Q	R	S	T	U	V	W	X	Y	Z
٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	١١٠	١٢٠	١٣٠	١٤٠	١٥٠	١٦٠

(١) راجع الحاشية في الصفحة التالية :

فاذا كتبت الأرقام تبعاً لهذه الآية بجدالكلمات : « الامبراطور نابوليون l'empreur Napoléon فان مجموع هذه الأرقام يعطي بالتأكيد ٦٦٦ ، وتبعاً لذلك فان نابوليون هو الوحش الذي تنبأ به يوحنا. ومن جهة اخرى ،اذا كتبنا تبعاًلذلك الالفبائية كلمة اثنين وأربعين Sparante - deuz. أي الحدالمقرر للوحش لكي « ينطق بكلمات متكبرة تجديفية » فان مجموع هذه الأرقام يكون ٦٦٦ من جديد . واذن فان حدود سلطان نابوليون سينتهي عام ١٨١٢ الذي سيبلغ خلال الثانية والأربعين .

ولقد ادهشت هذه النبوءة بيير كثيراً وراح يتساءل غالباً عمن سيضع حداً لسلطة الوحش او بعبارة اخرى لنابوليون . وأخـذا يحاول ايجاد جواب على هذا السؤال بواسطة التعداد نفسه . جرب أولاً عبارة : الامبراطور الكسندر؟ ثم: الامة الروسية ؟ لكن المجموع كان أما أكثر وأما أقل من رقم٦٦٦. وذات يوم واتته فكرة احصاء اسم : الكونت بيير بيزوخوف لكنه لم يتوصل الى الرقم المنشود . وضع حرف « Z » بدلاً من حرف « S » في اسمه «Bézouk'hoff» وأضاف اشارة « de » بدلاً من « الـ » التعريف ولكن دون نتيجة مرضية . وحينئذ تبادر الى ذهنه انه اذا كان الجواب على السؤال كامناً في اسمه فيجب عليه اضافة قوميته اليه . كتب حينئـذ : الروسي بيزوخوف فجاءت نتيجة الجمع ٦٧١ أي بزيادة « o » . ورقم « o » يمثل حسب هذا التعداد حرف « e » ، أي الحرف نفسه المحذوف من « الـ » التعريف « l' » التي تسبق كلمة امبراطور[1]

← يتعذر ايجاد مرادفات لهذه الأحرف الأجنبية باللغة العربية لذلك فقد أوردناها باللغة الفرنسية وكذلك العبارتين : الامبراطور نابوليون واثنين وأربعين التي تختلف نحوياً باللغة العربية على عكس ما هي عليه باللغة الفرنسية .

(١) « باللغة الفرنسية وتحذف عادة عند التقاء حرفين صوتيين كما هو معلوم »

واذن فان حذف هـذا الحرف من اسمه – وهو حـذف غير صحيح – يعطيه الرقم المنشود ٦٦٦ . (أي l'russe Bésuhof بدلاً من le russe Besuh'of – الروسي بيزوخوف –) . قلبه هذا الاكتشاف ظهراً لبطن . كيف ، وبأي رباط يتصل هو بهذا الحـدث الكبير الذي تعلنه رؤيا القديس يوحنا ؟ ما كان يدري لكنه لم يرتب قط في صحته . كان حبه للآنسة روستوف ، والدجال وغزو نابوليون والنجم المذنب وهذا الرقم ٦٦٦ الذي هو الامبراطور نابوليون والروسي بيزوخوف ، كل هذه العوامل كان لابد وأن تختلط في نفسه لتنفجر ذات يوم وتجره بعيداً عن دائرة العادة الموسكوفية الفاسدة التي كان يشعر انه حبيس ضمنها لتأخذ بيده كي يقوم بعمل بطولي ويبلغ بذلك سعادة قصوى .

كان بيير مساء ذلك الأحد الذي تليت فيه تلك الصلاة قـد وعد آل روستوف بأن يأتيهم بالبيان وبآخر أنباء الجيش التي كان على روستوبتشين ان ينهيها اليه . وفيما هو يدخل صباح اليوم التالي عند هذا ، وجد عنده حامل بريد حديث الوصول من الجيش كان بيير يعرفه منـذ أمـد طويل اذ التقى به في حفلات موسكو الراقصة .

قال حامل البريد :

– انك لتكون شديد اللطف لوساعدتني قليلاً اذ لدي ملء كيس من الرسائل الى الأقارب .

بين تلك الرسائل ، وجد بيير واحـدة من نيكولا روستوف الى أبيه فأخذها أضف الى ذلك أن الكونت روستوبتشين أعطاه نداءه الامبراطور الى موسكو الذي فُرغ من طبعه حديثاً والأوامر اليومية الجديدة الصادرة عن الجيش وآخر بيان عنه . وبينما بيير يمر ببصره على لائحة القتلى والجرحى

والمكافآت الممنوحة ، وجد اسم نيكولا روستوف حائزاً على صليب سان جورج من الدرجة الرابعة للبسالة التي أبداها في مسألة 'وستروفنيا. وكان الأمر اليومي نفسه يحمل نبأ تعيين آندريه بولكونسكي لقيادة فوج من القناصة . ولما لم يكن يتعمد تذكير آل روستوف باسم بولكونسكي منذ ذلك الحين فانه لم يستطع الامساك عن إبلاغهم بأسرع ما يمكن نبأ الامتياز الذي حصل عليه أبنهم متحاشياً حمل الأوامر اليومية والنداء وبيان الجيش اليهم وقت الطعام مكتفياً بارسال النداء المطبوع والرسالة بأسرع مايمكن .

ولقد ساهم حديثه مع الكونت روستوبتشين وانشغال هذا وقلقه ولقاء حامل البريد الذي وصف له بلا مبـــالاة الحالة السيئة التي بلغت اليها أوضاعنا والشائعة التي راجت باكتشاف جواسيس في موسكو كانوا يوزعون أوراقاً جاء فيها ان نابوليون يعـد باحتلال العاصمتين قبل الخريف وانتظار وصول الامبراطور في اليوم التالي ،كل هذا ساهم في إنماء ذلك الاضطراب المحموم في نفس بيير الذي لم يفارقه منذ ظهور النجم المذنب وبصورة خاصة منذبدء الحرب.

كا بيير يغذي منذ أمد طويل فكرة الانتساب الى الجيش . لكن يمينه كان يربطه بالمحفل الماسوني الذي يبشر بالسلم الأبدي وإبطال الحروب . ثم أن رؤية كل هذه الكثرة من الموسكوفيين الذين يرتدون اللباس العسكري وهم يعرضون وطنيتهم ، ما كان يحفزه كثيراً للقيام بمثل هذا . كان في أعماقه يخضع بشدة - دون أن يلتحق بالخدمة - لذلك الاعتقاد الغامض بأنه هو، الروسي بيزوخوف الذي يمثل رقم الوحش ٦٦٦ ، وان مساهمته في العمل الكبير الرامي الى اباده الوحش مقررة منذ أبعد الأزل . فلم يكن عليه والحالة هـذه ان يشرع بشيء من تلقاء نفسه بل ينتظر ما سيقع دون ان يكون له مرد .

الفصل العشرون

النداء الامبراطوري

كان آل روستوف يستقبلون - كعادتهم كل يوم أحد - بعض المقربين على مائدة الغداء . ولقد جاء بيير مبكراً لينفرد بهم .

ولقد ازدادت سمنته ذلك العام لدرجة كادت ان تكون مشوهة لولا ان قامته المديدة وبنيانه المتين وتكوينه القوي كانت تساعده على احتمال وزن شخصه بيسر .

صعد السلم وهو يلهث ويدمدم بشيء بينه وبين نفسه . ولما كان جوذي بيير يعرف ان الكونت يتأخر عادة لدى آل روستوف حتى منتصف الليل ، فانه لم يسأله عما اذا كان عليه ان ينتظره . ولقد هرع الخدم يتنافسون لتخليصه من معطفه وليأخذوا منه عصاه وقبعته التي درجت عادته في النادي على تركها في الدهليز .

وكان الشخص الأول الذي رآه ، أو بالأحرى الذي سمعه منذ ان دخل الردهة هو ناتاشا . كانت تتدرب على الألحان في قاعة الرقص . ولما كان يعرف انها لم تغن خلال مدة مرضها كلها ، فقد أحدث صوتها في نفسه مفاجأة سارة . فتح الباب بلطف : كانت ناتاشا مرتدية ذلك الثوب الخبازي الذي بدت فيه بمناسبة القداس ، تروح وتجيء وهي تمرن صوتها . استدارت فجأة على صوت

الباب فشاهدت وجه بيير الضخم المروع . تضرج وجهها وتقدمت نحوه .

قالت وكأنها تعتذر :

– انني احاول أن أعود الى الغناء . ان ذلك يصرف الوقت .

- انك على كل الحق .

تابعت بتلك الحيوية القديمة التي لم يرها بيير عليها منذ أمد طويل :

– كم أنا مسرورة لمجيئك ! انني جد سعيدة اليوم ! هل تعلم ، لقد حصل نيكولا على صليب سان جورج . انني فخورة به .

– بلى ، انني أنا الذي أرسلت الأمر اليومي اليكم . . .

وأضاف وهو يتجه نحو البهو :

– هيا ، لا اريد أن ازعجك .

استوقفته ناتاشا وسألته ووجهها يتخضب بالحمرة وهي تنظر في عينيه مباشرة .

– كونت ، هل أخطىء اذ اغني ؟

– كلا . . . كلا . . . على العكس لمَ هذا السؤال ؟

أجابت بحميا :

– لست أدري . لكنني لا أريد أن أعمل شيئاً تستقبحه . انني أثق بك ثقة لاحدود لها

وأضافت بتلك اللهجة ذاتها دون ان تلاحظ ان بيير قد غدا متضرج الوجه :

انك تعرف أي دور تلعبه في حياتي وكم من الأشياء فعلتها من أجلي . . . آه ! لقد وجدت في ذلك الأمر اليومي نفسه « انه » في روسيا . .

واستتلت باصرار وهي تخفض صوتها :

– نعم ، هو ، بولكونسكي . . . وانه عاد الى الخدمة . هل تظن انه سيغفر لي ذات يوم ؟ هل تفكر في انه سيحقد علي دائماً ؟ قل لي ، ماذا تفكر ؟

القت هذه الأسئلة بتلاحق خشية ان تخونها قواها . فقال بيير :

- اظن ... ان لاشيء لديه يغفر لك . ولو انني كنت مكانه ...

حملت بيير دفعة من الذكريات فجأة الى الفترة التي قال لها محاولاً الترويح عن نفسها ، انه لو كان يملك حريته أو كان أفضل الرجال ، لسألها يدها وهو جاث على ركبتيه . فلم تلبث تلك الاحاسيس من الاشفاق والحنان والحب ان ملأت قلبه واندفعت الى شفتيه الكلمات نفسها التي فاه بها حينذاك . لكنها لم تمهله حتى يلفظها .

هتفت وهي تبرز كلمة « أنت » بشيء من العجب :

- اوه ! انت ... انت[1] ، ... ان امر جد مختلف . انني لاأعرف رجلاً أفضل ولاأشد كرماً منك . ثم انه لايمكن أن يكون أفضل منك . ولو أنني لم أكن أعرفك حينذاك ، ولو انني لم أكن أعرفك حتى الآن ، لما عرفت ماذا كان سيكون من أمري لأن ...

وتلألأت الدموع في مآقيها وأشاحت عنه وأخفت وجهها وراء دفتر الموسيقى ثم استأنفت في غناءها ومشيها .

وبنفس الوقت ، هرع بيتيا الى البهو . كان قد أصبح فتى جميلًا في الخامسة عشرة ، متورد الوجنتين ، ضخم الشفتين قانيتي اللون يشبه ناتاشا . وعلى الرغم من انه كان يستعد لدخول الجامعة ، فانه كان يتآمر مع رفيقه اوبولنسكي منذ بعض الوقت لينخرط في سلك الفرسان .

اندفع بيتيا نحو سميّه وسأله ان يبحث له عما اذا كان سيقبل في سلاح الفرسان . لكن بيير كان يخطر في البهو دون ان يكون قد سمعه . فجذبه بيتيا من ذراعه ليلفت انتباهه :

---

(١) ورد في النص الفرنسي ضمير « انتم » وهو الذي يستعمل للمخاطب المفرد احتراماً ويتعذر ايراده دون الاضرار بسلاسة القراءة .

– حسناً ! أين أصبحت قضيتي يابيير كيريلليتيش بحق السماء ؟ ان كل أملي مركز عليك .

– آه ! نعم ، قضيتك . الفرسان ؟ سوف أتحدث عنها ، سأتحدث عنها . اليوم دون ارجاء .

– حسناً يا « عزيزي » ، حسناً ! هل لديك النداء ؟

بذلك استقبله الكونت العجوز لأول وهلة ثم اردف متمماً :

– لقد كانت كونتيستي الصغيرة في القداس مع آل رازوموفسكي فسمعت هناك الصلاة الجديدة التي يروون انها جميلة جداً .

اجاب بيير :

– نعم ، لدي النداء . سيكون الامبراطور هنا غدا . وسيكون اجتماع فوق العادة للنبلاء . كذلك يتحدثون عن جباية عشرة على كل الف . وبالمناسبة، تهانئي الحارة .

– نعم ، نعم والحمد لله ! ... اية انباء عن الجيش ؟

– يبدو اننا تراجعنا من جديد حتى تحت سمولنسك .

– رباه ، رباه ! ... واين البيان ؟

– النداء ؟ آه ، نعم !

فتش بيير عبثاً في جيوبه واستمر في التفتيش وهو يقبل يد الكونتيس التي دخلت في تلك اللحظة وهي تلقي حوله نظرات كئيبة بانتظار ناتاشا التي كفت عن الغناء دون ان تدخل الى البهو .

اعترف اخيراً :

– لعمري ، ما عدت اعرف اين حشوته .

قالت الكونتيس :

- آه ! انه يضيع كل شيء دائماً .

وفي تلك اللحظة ، دخلت ناتاشا متحننة وجلست على مقربة من بيير وحطت بأنظارها عليه دون ان تنبس بكلمة . ولقد أزال دخولها الغضون من وجه بيزوخوف الذي ظل كئيباً حتى تلك اللحظة ، فراح يضاعف جهده في البحث ينظر مرات عديدة ناحية الفتاة .

- لاريب انني نسيته في مسكني . أنا ماض لاحضاره ...

- لكنك ستتأخر عن موعد الطعام ؟

- هه ، صحيح ، ثم ان حوذي قد ذهب !

لكن سونيا التي راحت تبحث عن أوراق حتى بلغت الردهة ، وجدتها أخيراً مطوية بعناية تحت بطانة قبعة بيير . فاستعد هذا لتلاوتها .

قال الكونت العجوز الذي كان ولاريب يعد نفسه ببهجة كبرى بتلك التلاوة :

- كلا ، بعد الطعام .

وعلى المائدة، حيث شربوا الشمبانيا على شرف فارس سان جورج الجديد ، روى شينشين انباء المدينة : مرض الأميرة العجوز جيئورجيين ، اختفاء ميتيفيه ، قصة ألماني عجوز جيء به الى روستوبتشين وهم ينعتونه بـ « فطر[1] » وان هذا اطلق سراحه مفسراً للشعب ان فطراً من هذا النوع غير سام . هذا على الأقل ما كان روستوبتشين نفسه يقوله .

قال الكونت :

- نعم ، نعم . انهم يطبقون عليهم ، انهم يطبقون عليهم . كم من مرة

---

(١) اورد المترجم الى الفرنسية ان كلمتي جاسوس وفطر الأجنبيتين على اللغة الروسية ، متشابهتان حتى ليخلط الشعب بينهما .

توسلت الى الكونتيس ان لاتتكلم الفرنسية بهذه الكثرة ! لم يعد الآن وقت التكلم بالفرنسية .

استأنف شينشين :

– هل تعرفون ان الأمير جوليتسين استخدم مربياً روسياً ؟ نعم ، انه يعطي دروسه بالروسية . لقد بدأ التحدث بالفرنسية في الشوارع يصبح خطراً .

قال الكونت العجوز :

– إه ، لكن يا بيير كيريلليتش ، عندما يشكلون فرق الميليشيا ، سيتحتم عليك الركوب على الجياد .

نظر بيير الذي كان حتى تلك اللحظة مدفوناً في أفكاره ، الى الكونت العجوز دون ان يبدو عليه انه فهم .

– آه نعم ، لقد ازف الوقت للذهاب الى الحرب . سأكون وجهاً جميلاً فيها ! على أية حال ، ان كل شيء شديد الغرابة ! انني لم أعد أعرف نفسي . انني لاأملك أي استعداد لاحتراف الجندية ولكن في وقتنا اليوم ، لايستطيع أحد ان يجيب بشيء .

وبعد الطعام ، تركز الكونت في أريكة مريحة ، ورجا سونيا بوصفهـا قارئة مجيدة ، ان تتلو النداء .

« الى موسكو ، عاصمتنا الأولى .

« لقد اجتاز العدو الحدود الروسية بقوات ضخمة . لقد جاء يدمر وطننا الحبيب . . . »

كانت سونيا تقرأ بصوتها الرقيق واضعة كل عنايتها في القراءة . وكان الكونت يصغي مغمض العينين وهو ينقط بعض المقاطع بتنهدات عميقة . وكانت ناتاشا منتصبة الجذع تعاين بنظرة متفحصة تارة أبيها وتارة بيير الذي كان يشعر بتلك

النظرة تقع عليه فيتحاشى ملاقاتها . وكانت الكونتيس تهز رأسها بعد كل عبارة قريب مفخمة في النداء دلالة على عدم الموافقة : فالخطر الذي يتعرض له ابنها ليس الانتهاء ، وهذا كل ما كانت تفهمه من تلك العبارات . أما شينيشين ، فكان يرز شفتيه في ضحكة ساخرة ويستعد للنقد لدى أول فرصة : سواء كان من حيث صوت سونيا او حماس الكونت أو النداء نفسه اذا لم يجد شيئاً آخر يُنقد .

وبعد ان قرأت المقاطع المتعلقة بالاخطار التي تهدد روسيا والآمال التي يعلقها الامبراطور على موسكو وبصورة خاصة على مجموعة الأشراف الشهيرة فيها ، انتهت سونيا التي كان صوتها يرتعد بنسبة الانتباه الذي يولونه لقراءتها ، الى النتيجة :

« سوف لن نتأخر بأنفسنا عن الظهور بين شعبنا في هذه العاصمة وفي الأماكن الاخرى من مملكتنا للتشاور ولقيادة كل فرق متطوعينا ، تلك التي تقطع الطريق الآن على العدو والتي سوف تتشكل من جديد لنضرب العدو في كل مكان يظهر فيه . ليسقط البلاء الذي يتأهب لالقائنا فيه على رأسه ولتلهج أوربا المحررة من الرق باسم روسيا ! »

هتف الكونت :

ـ هذا نداء رائع !

ثم باعد بين جفنيه المبللين ونخر مرات متكررة وكأنهم نشقوه أملاحاً وأضاف :

ـ ليس على الامبراطور الا أن يتكلم . لسوف نضحي بكل شيء دون أي أسف .

قفزت ناتاشا وهرعت الى أبيها دون أن تترك لشينشين الوقت لصرف دعايته التي أعدها حول وطنية الكونت ثم عانقته او قالت :

– كم أنت لطيف يا أبي !

ثم أرخت نظرة باتجاه بيير مستسلمة لذلك الدلال البريء الذي كان يعاودها مع مرحها .

قال شينشين :

– مهلاً قليلاً أيها المواطنه !

فاحتجت ناتاشا ساخطة :

– ولكن لا ، ويلاه ... انك تستهزىء دائماً . لكنني لا امزح .

واستأنف الكونت :

– ليس الأمر دعاية ! ليقل كلمة فقط فنذهب كلنا ... اننا ويحك لسنا ألمان

تدخل بيير قائلاً :

– هل لاحظت ان النداء يقول : « للتشاور ؟ »

– إه وأية أهمية ! . . .

وفي تلك اللحظة ، تقدم بيتيا الذي لم يكن يلتفت اليه أحد نحو أبيه وقال له بصوت متقطع خطير تارة وحاد تارة اخرى :

– حسناً يا أبي ، اعلن لك الآن . . . ولأمي أيضاً ولتحمله على أي محمل تشاء ، ... اعلن لكم انه يجب ان تدعاني أذهب الى الخدمة ... لأنني ماعدت أستطيع التريث ، هذا كل شيء . . .

رفعت الكونتيس عينيها مروعة وضمت يديها والتفت الى زوجها تقول :

– هذا مكان ما يريد بلوغه !

لكن الكونت لم يحمل المسألة على محمل الأسى :

– هيا ، هيا . لاتنطق بالحماقات . انظر قليلاً الى هـذا المحارب الجميل ! الأفضل ان تنهي دراستك .

- انها ليست حماقات يا أبي . ان فيديا اوبولنسكي أصغر مني سناً ، وهو سيذهب بالمثل . . . على أية حال ، لا أستطيع ان أدرس الآن وقد . . . وهنا توقف واندفعت الدمـــاء الى وجهه حتى احمر بياض عينيه ثم انهى جملته مع ذلك ! — : . . . الآن وقد أصبح الوطن في خطر .

— كفى ، كفي ، ويلاه . ان هي الا حماقات . . .

— لكنك قلت بنفسك منذ حين اننا سنضحي بكل شيء

صرخ الكونت وهو ينظر الى زوجته التي امتقع لونها وحدقت بأبصارها في وجه ابنها الاصغر :

- بيتيا هلا صمت !

— دعوني أقول لكم وسيؤيد بيير كيريللوفيتش قولي . . .

— اصمت ، قلت لك ! هذه حماقات . لاتزال نقطة الحليب في أنفه ثم يريد ان يجعل من نفسه جندياً . كفى ، كفى ، أليس كذلك ؟ . . .

ثم أضاف وهو يأخذ النداء الذي كان يزمع اعادة قراءته ولاريب في مكتبه قبل قيلولة الظهر :

— يابيير كيريللوفيتش ، تعال ندخن غليونا .

وكان بيير أشد اضطراباً من أي وقت مضى . لقد كانت عينا ناتاشا منـذ بعض الوقت ، شاخصتين اليه بالحاح مربك ، وهما أشد التماعاً وأكثر مما ـالقة من المألوف

— اعذروني ، سأعود الى مسكني . . .

فقـال الكونت بسلامة طوية وهو يشير الى ناتاشا :

— كيف ! الى مسكنك ، وانت الذي كنت ستقضي الـسهرة هنا ... انك في الآونة الاخيرة أصبحت قليل الظهور في حين ان صغيرتي ناتاشا لاتكون مرحة الا في حضرتك .

فأسرع بيير يقول :

نعم ، لكنني نسيت . . . يجب أن أعود بأي ثمن . . . انها الأعمال . .

قال الكونت وهو ينسحب :

– حسناً اذن ، اللقاء .

سألت ناتاشا وهي تتفحص وجه بيير بنظرة جريئة :

لماذا تذهب ؟ لماذا أنت مضطرب ؟ لماذا ؟

ود بيير ان يجيب : « ذلك لانني أحبك ! » لكنه لم يقدر . تضرج وجهه وأخفض عينيه وتمتم :

– ذلك انه من الافضل ان اقلل من زياراتي . . . كلا ، كل ما في الامر انها الاعمال . . .

– لماذا ؟ هيا ، قل لي السبب .

الحت ناتاشا ، لكنها ما لبثت ان صمتت فجأة .

تبادلا النظر بذعر وحاول هو ان يبتسم ، لكنه لم يطلع الا باشارة تدل على الالم ، قبل يد ناتاشا دون ان يقول كلمة واختفى .

ولقد اتخذ بيير قراراً حازماً ان لايعود الى بيت آل روستوف أبداً .

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي والعشرون

الامبراطور في موسكو

بعد الرفض المطلق الذي مني به بيتيا ، حبس نفسه في غرفته ليبكي بدموع حارة . ولما عاد الى الظهور ساعة الشاي ، كئيباً متجهماً أحمر العينين ، تظاهر كل من في البيت بأنهم لم يروا من هذه البوادر شيئاً .

وصل الامبراطور صباح اليوم التالي فسأل كثير من خدم آل روستوف أن يسمح لهم بحضور دخوله الى المدينة . ذلك الصباح ، اطال بيتيا في ترجيل شعره وارتداء ثيابه ووضع الياقة على طريقة الاشخاص الكبار . راح يقطب حاجبيه أمام المرآة ويقوم بحركات تخص من هم اكبر منه سناً ويدير كتفيه . وأخيراً ، وضع قبعته الوحيدة الحافة وخرج عن طريق مدخل الخدم دون ان يكلم احداً محاولاً ان يخفي خروجه عن الانظار . قرر ان يذهب مباشرة الى مستقر الامبراطور وان يخاطب مباشرة واحداً من الحجاب الكثيرين بكل جرأة وهم على مايظن كثيرون يحيطون دائماً بجلالته . سوف يشرح له انه الكونت روستوف وانه رغم صغر سنه يرغب في الاضطلاع بخدمة وطنه وان السن لايمكن ان يؤجل التفاني وانه مستعد . . . وبالاختصار ، كان قد أعد أقوالاً جميلة كثيرة اعتزم قولها للحاجب الامبراطوري .

قدر بيتيا ان صغر سنـه سيدهش الجميع وانهم ، لهذا السبب بالذات ، لن يتأخروا عن تقديمه الى الامبراطور . خلال ذلك ، فانه راح يحاول اضفاء سيماء الرجل الناضج على نفسه عن طريق تسوية ياقته وطريقـة ترجيل شعره ومشيته البطيئة المتزنـة . لكنه كلما أوغل في التقدم ، كلما ترك لنفسه ان تتلهى بالجماهير التي كانت تفد من كل صوب فيبتعـد عن ذلك الاتزان الخطير الذي انتهجه . ولما اقترب من الكريملين ، اضطر ان يحترز كيلا يدفعه الناس وراح يستعمل مرفقيه ليشق لنفسه الطريق باسلوب تهديـدي . وتحت باب « الثالوث » ، رغم كل الجهود التي بذلها ، فان أشخاصاً جاهلين ولا ريب نواياه الوطنيـة ، دفعوه بشدة الى الجدار الضخم حتى اضطر ، مرغم أخـاك لابطل ، ان يتوقف ليدع رتلاً طويلاً من العربات يمر في ضجيج زاد العقد في نشره . وكان الى جانبه أمرأة من الشعب وخادم واثنان من التجار وجندي متقاعـد . أراد بيتيا ان يتابع طريقه دون أن ينتظر نهاية الرتل ، فراح من جديـد يعيد حركة مرفقيه النشيطة لكن المرأة التي كانت أول من تعرض لحملاته ، أنبته بقوة :

– هيه يا ! ايها السيد الصغير ، هلا كففت عن الدفع ؟ لا بد وأنك ترى انهم لايتحركون . فالزم الهدوء اذن .

وأضاف الخادم مؤيداً :

– دون ريب . واذا رحت تدفع ، فان الناس كلهم سينهجون نهجك .

وقرن القول بالفعل فدفع بيتيا حتى زاوية لباب كريهة الرائحة .

جفف بيتيا العرق الذي انثال على وجهه وسوى على قدر ما يستطيع ياقته المبللة ، تلك الياقة الجميلة التي ثبتها في البيت على طريقة الاشخاص الكبار .

بات يرى الآن انه لم يعد ذا مظهر لائق وانـه اذا تقدم على هذا الشكل الى الحجاب فانهم لن يدعوه يصل الى الامبراطور . لكن الازدحام الذي منعه

عن اصلاح زينته كان كذلك يمنعه من الخروج من ذلك المأزق . شاهـد بين الجنرالات الذين كانوا يمرون واحداً ممن يعرفهم ذووه فكاد ان يطلب اليه العون . لكنه قدر ان ذلك غير جدير برجل مثله . ولما مرت العربات كلها ، جره الحشد في اندفاعه الى الساحة التي أصبحت سوداء من الخلائق كما كان حــال المرتفعات والسطوح المجاورة . فما كاد بيتيا يصل الى هناك حتى سمع بوضوح قرع الاجراس المتناسق وهمهمة الجمهور المرح .

وفجأة ران فراغ على الساحة وحسرت الرؤوس كلها وعمت اندفاعة جديدة الى الأمام فكان بيتيا محصوراً بشدة حتى لقد تعذر عليـه التنفس . وهتف الناس كلهم : « هورّا ! هورّا ! هورّا ! » ورغم ان بيتيا تطاول على أطراف قدميه ودفع جيرانه وتعلق بهم ، فانه لم ير الا الجمهور المحيط به .

كانت الوجوه كلها تعكس تحناناً واحداً وحمـاساً موحداً . وكانت بائعة الى جوار بيتيا تنتحب وتبكي بـــدموع سخية وتقول في شبه ترتيل وهي تجفف عينيها :

– ابانا ، ملكنا ، ابانا !

وتعالى الهتاف من كل حدب :

– هورا !

واندفعت الجماهير الى الأمام بعد هذا التوقف القصير .

اندفع بيتيا في أوج الانفعال ، شاداً على أنيابه وعيناه خارج محجريهما وهو يعمل مرفقيـه بنشاط ويصيح : « هورّا ! » وكان يبدو أشبه بمن على استعداد لافناء نفسه والآخرين . ومن حوله كل الوجوه على مثل وحشيـة مظهر وجهه تندفع الى الأمام وتزمجر هي الاخرى : « هورّا ! »

حدث بيتيا نفسه : « اذن هـذا هو الامبراطور ! يستحيل في مثل هذه

الظروف ان أرفع اليه ملتمسي . سيكون تجـاوزاً في الاجتراء ! » مع ذلك فقد استمر يدفع بيأس وبات يرى وراء الأكتاف التي أمامه رقعة فارغة رسم عليها طريق من النجد الحمراء . ولكن في اللحظة نفسها ، تقهقر الجمهور لأن رجال الشرطة صـــدوا في ذلك الوقت اولئك الذين تجاوزوا في الاقتراب : كان الامبراطور ينتقل من القصر الى كاتدرائية اسومسيون (انتقال العذراء) وحينذاك تلقى بيتيا في جنبه ضربة بلغت من الشدة حـداً دارت له عيناه وفقد الوعد ولما استفاق ، وجد رجل كنيسة بجبة خلقة وذيل صغير من الشعر الأشيب على القذال ، شماساً ولا ريب ، يرفعه باحدى يديه من تحت ابطه بينما يدفع عنه باليد الاخرى غائلة الضغط .

كان الشماس يقول :

– لقد سحقوا السيد الصغير ! ترفقوا ، هـه ، ترفقوا ! ... لقد سحقوه ، المسكين ! ...

وكان الامبراطور قـد دخل الكاندرائية وكف اللجب فاستطاع الشماس ان يقود بيتيا الممتقع الذي كان يتنفس بصعوبة نحو « ملك المدافع – مدفع أقيم قرب باب القديس نيكولا وقد صنع في القرن السادس عشر وزنته « ١٩٦٠٠٥ » كيلو غرام ، وهذا سبب التسمية – » . ولقد تحنن بعض الاشخاص على مصيره فاندفع الجمهور نحوه . هرع الاقرب اليه يفكون أزراره ويجلسونه على قاعدة المدفع وكلهم يقذفون أقذع السباب بحق « الدهاسين » المجهولين .

– ذلك انه كان يستطيع المرور بكل راحـة . هل يتصور العقل هذا ؟ قتل حقيقي ! أنه أبيض كقطعة قماش ، الظريف الصغير !

لم يلبث بيتيا ان استعاد قواه وعادت الألوان الى وجهه وزال الألم . ولقد حصل على مكان جيد فوق المدفع بفضل هذا الطارىء ومن موضعه ، راح يأمل

ان يرى الامبراطور عند عودته . أما عن الملتمس ، فلم يعد البحث يتعلق به . لقد باتت رؤيه الامبراطور وحدها كافية لأسعاده !

وبينما كان يقاوم في الكاتدرائية قداس شكر لعودة الامبراطور كالاجراء الصلح مع الاتراك ، فان الجماهير أخذت تتفرق . وشوهد مناودن على شراب « كفاس [1] » والحلوى والقنبز (حب الخشخاش) التي يعتبر بيتيا من كبار هواتها ، يظهرون . وتبودلت حوله احاديث مبتذلة . كانت بائعة تُري شالها الممزق وتزعم انه كلفها عيني رأسها واخرى تؤكد ان الاقمشة الحريرية باتت لاتحصر بثمن . والشماس الذي أنقذ بيتيا يقدم لأحد الموظفين معلومات ضافية عن الشخصيات التي تشارك عظمته في القداس ، ويلفظ عدة مرات كلمة « حبرى » الذي استغلق معناها على بيتيا واثنان من أصحاب الحرف الشبان يمجنان مع خادمتين تقضمان بندقاً . ولقد كانت كل هذه الاحاديث ، وبصورة خاصة دعابات الشابين التي كان لابد وان تلفت انتباه من هو في سنه ، أمراً لايؤبه له فكان وهو في جثومه على المدفع ، يذوب غراماً وهو يفكر في الامبراطور وكانت ذكرى اغماءه ومخاوفه أثناء الازدحام ترفع من معنوياته وتجعل هذه اللحظة الرهيبة خالدة الى الأبد في ذهنه .

وفجأة دوت طلقات المدافع على طول رصيف الميناء حيث كانوا يطلقون المدافع احتفالاً بالسلم مع تركيا . اندفعت الجماهير نحو ذلك الاتجاه وهمّ بيتيا أن يحذو حذوها . لكن الشماس الذي وضعه تحت حمايته منعه . وكانت الطلقات لاتزال تدوي حينما شوهد الجنرالات والضباط والحجاب يخرجون من الكاتدرائية على عجل وأعقبهم أشخاص آخرون أقل تعجلاً . وانحسرت الرؤوس

(١) – كفاس ، شراب روسي مخمر شائع بين القرويين يستخرج من صب الماء المغلي على الشعير .

من جديد وارتد الفضوليون الذين اندفعوا نحو الرصيف الى الساحة مرة اخرى

أخيراً ، ظهر أربعة من كبار الشخصيات بالأشرطـة الطويلة والبزة الرسمية في فناء الكنيسة فصاحت الجماهير مرة جديدة « هورّا ! »

سأل بيتيا جيرانه بصوت منتحب :

– أيهم هو ؟ أيهم ؟

فلم يجبه أحد . كان النـاس جميعهم في أوج الانشغال . انتخب واحد من الاربعة اعتباطاً ما كان يستطيع تمييز تقاطيعه بعينيه اللتين تبللهما الدموع وركز كل حماسته فيه رغم انـه لم يكن الامبراطور . أطلق صيحة « هورّا » مجنونة وقرر فيما بينه وبين نفسه ان ينخرط منذ الغد في سلك الجندية مهم كلف الأمر .

وبعد ان جرت الجماهير حتى القصر وراء الامبراطور ، راحت تتفرق . وأصبح الوقت متأخراً وبيتيه لم يذق بعد طعاماً فكان العرق ينثال على جبينه مع ذلك ، فانه لم يفكر في العودة . انضم الى المتسكعين الذين كانوا عدداً وفيراً مجتمعين أما القصر ولبث هناك طيلة الوقت الذي استغرقـه جلالته في تناول الطعام ، منتظراً الله يعلم أي حدث وهو يحسد المـدعوين الى المائدة كما يحسد الخدم الذين كان يراهم من النوافذ .

قال فالوئييف أثناء الطعام وهو يلقي نظرة الى الخارج :

– لا زال الشعب يأمل رؤية جلالته .

وعند النهوض عن المائدة ، مضى الامبراطور الى الشرفة وهو لايزال يمضغ قطعة من البسكويت . فهرع الحشد وبيتيا بينه الى ناحيته .

راح الشعب يصيح وبيتيا معه :

– ياملكنا ! يا ابانا ! هورّا ! يا ابانا ! . .

ومن جديد ، راحت النسوة كما راح الرجال الذين يستبد بهم الحنان سريعاً –

وبيتيا من هؤلاء - يذرفون الدموع الفرح .

سقط جانب غير صغير من قطعة البسكويت التي كان الامبراطور ممسكاً بها من يده على حاجز الشرفة وقفز منه الى الارض فاندفع حوذي ذو معطف عريض كان أقرب الناس الى مكان سقوط القطعة والتقطها بشدة . وارتمى البعض من جواره عليه وحينئذ ، استقدم الامبراطور طبقاً من البسكويت وراح يلقي محتوياته من أعلى الشرفة . احتقنت عينا بيتيا بالدم وقد أثارته جاذبية الخطر ، فاندفع الى الأمام . كان يريد دون ان يعرف السبب ، ان يحصل بأي ثمن على واحدة من قطع البسكويت تلك التي سقطت من يد القيصر . ولقد طرح في اندفاعه امرأة كهلة كانت على وشك التقاط قطعة . وعلى الرغم من سقوط هذه على الارض فانها لم تنهزم . لكن ذراعها كان أقصر من ان يصل . دفعها بيتيا بضربة من ركبته وتناول القطعة ثم اطلق هورا جديدة خشية ان يكون قد اقتصد في اظهار حقيقة مشاعره بدونها . لكنها جاءت بصوت أبح قليلاً .

احتجب الامبراطور فتفرق الناس كلهم تقريباً هذه المرة . وكانت أصوات مبتهجة تقول من كل صوب :

— كنت متأكداً انه يجب الانتظار ولم اخطىء في ظني .

ولقد افسد مزاج بيتيا البهيج فكرة انتهاء متعة النهار . ولما لم يكن مزمعاً ان يعود بعد ، فقد مر على صديقه اوبولنسكي — وهو في مثل سنه — الذي كان يتأهب للالتحاق بالفوج . ولما عاد الى المنزل ، اعلن بعزم على انهم اذا لم يدعوه يتصرف كما يريد ، فسيفر من البيت . ومنذ صبيحة اليوم التالي ، ذهب الكونت العجوز — وان كان ضد مشيئته — يستعلم عن الوسائل التي تمكنه من الحاق بيتيا بالخدمة دون ان يعرضه كثيراً للخطر .

الفَصْلُ الثّاني وَالعُشْرون

مناقشات النبلاء

في اليوم التالي ، الخامس عشر من تموز ، وقف عـدد كبير من العربات أمام قصر سلوبودسكي .

كان جمع غفير يملأ القاعات وقـد اجتمع النبلاء في الاولى في ازيائهم الرسمية وفي الثانية التجار ذوو اللحى الطويلة « ومد الياتهم » تتدلى فوق « قفاطينهم » الطويلة الزرقاء . وكانت قاعـة النبلاء تعج بحيوية جياشه . ولقد كان اكثر الشخصيات أهمية يجلسون بجلال حول مائـــدة كبيرة والآخرون يروحون ويجيئون .

كان هؤلاء النبلاء كلهم الذين كان بيير يختلط بهم كل يوم سواء في النـادي ام في منازلهم ، يرتدون بزات بعضها ترجع الى ايام كاتيرين وبول والكسندر او البزة البسيطة المألوفة عند النبلاء ، فكان هذا الطابع « الرسمي » يضفي شيئاً غريباً خيالياً على تلك الوجوه المسنة او الفتية المختلفـة والمألوفة . ولقد كان الكهول وهم بـين قصير بصر وأصلع وأدرد ، منتفخ بالدهن الأصفر أو نحيل مهزول يثيرون الفضول بصورة خاصة . ما كانوا ينطقون بكلمة ولا يتحركون من امكنتهم واذا نهضوا من أماكنهم ، فليحدثوا من هم أصغر سناً . وهنا ، كما

على الساحة حيث كان بيتيا ، كانت الوجوه تنطق اضافة الى ترقب حدث جلل بمشاغل شديدة الاسفاف كلعبة « الباصرة » ومواهب الطاهي بيتروشكا وصحة زينائيد دميتريفنا الخ . . .

كان بيير الذي ارتدى منذ الصباح الباكر بزة النبلاء التي أصبحت ضيقة عليه ، قائماً في القاعة فريسة تأثر شديد جداً . لقد كان الاجتماع الخارق ، ليس للنبلاء بل للتجار كذلك ، تلك الدعوة لطبقات مختلفة ، وبالاختصار ، تلك « الطبقات العامة » توقظ في نفسه كتلة من الافكار أهملت منذ أمـــد طويل ولكنها ظلت ملقية مرساتها في ذهنه ، أفكار تدور حول « العقد الاجتماعي[1] » والثورة الفرنسية . وكان المقطع الذي جاء في النداء ، والذي قال الامبراطور فيه أنه آت الى عاصمته « للتداول » مع شعبه ، يحدث في نفسه أثراً قوياً . ولما كان تبعاً لهذا التسلسل من الافكار ، يفترض جدلاً ان هناك أمراً مهماً في طور الاعداد ، ينتظر صدوره عنه منذ أمد بعيد ، فقـد راح يتجول بين الجماعات وينظر حوله ويصيخ السمع الى المحادثات دون ان يكتشف فيها على أية حال ما يستجيب لتخيلاته .

قرىء النداء الذي استفز الحماس ثم استؤنفت المحادثات . ولقد سمع بيير اضافة الى المواضيع الاعتيادية ، مناقشات حول الامكنة التي سيحتلها رؤساء الاشراف لدى دخول جلالته وحول تاريخ الحفلة الراقصة التي ستقام على شرفه والطريقة المفضلة للأجتماع : كل مقاطعة او كل أقليم ؟ الخ ... ولكن ما أن

---

(١) العقد الاجتماعي ، كتاب شهير للفيلسوف جان جاك روسو ظهر عام ١٧٦٢ يخلص فيه الى ان الحياة الاجتماعية ترتكز على عقد : وكل متعاقـد يؤجر حريته للصالح العام متعهداً احتمال بادرة الارادة العامة . ولقد كان لهذا الكتاب صدى كبير أوحى بمعظم سياسات الثورة الفرنسية وان اختلفت معايير فهمه وقد ترجمه الى العربيه الاستاذ عادل زعيتر في مجلدين طبع دار المعارف بمصر .

يعود البحث الى الحرب وموضوع الاجتماع نفسه حتى يدخلوا حدود الغموض والاستغلاق ، فكانوا يفضلون الاصغاء على التكلم .

كان سيد في سن متأخر ، عسكري المظهر جميل الصورة في بزة البحار المتقاعد ، يغط وسط جمع . فاقترب بيير ليصغي اليه . وكان الكونت ايليا اندريئيفيتش في « قفطان » حاكم مدينة يرجع زيه الى عصر كاتيرين ، يخطر والابتسامة على شفتيه بين هذه الوجوه من معارفه . فأصاخ هو الآخر السمع وعلى وجهه طابع العطف المألوف عنده في تلك المناسبات وراح يشجع المحاضر بهزات رأسه المؤيدة . وكان يبدو ان البحار يتطرق الى بحوث بالغة الجرأة اذا حكمنا على الاقل على مظاهر التبدل التي كانت تطرأ على وجوه مستمعيه وواقع مناقضة بعضهم له ، ممن يعرف بيير مزاجهم السلمي ، بل وابتعادهم عنه استنكاراً لاقواله . شق بيير لنفسه طريقاً الى وسط الجماعة واستطاع ان يقنع نفسه ان المتحدث الجميل متحزب حقاً للحريه المدنية والدينية ولكن باتجاه يختلف كل الاختلاف عن اتجاهه . كان للبحار صوت خفيض رخيم ، يلثغ بملاحة و« يبتلع » الاحرف الساكنة ، من تلك الاصوات الخاصة بالنبلاء الذين ألفوا الصراخ : « ياغلام ، اليّ بغليوني ! » أو أي شيء آخر من هذا النوع : صوت مترف ألف اصدار الأوامر .

— لقد عرض نبلاء سمولنسك متطوعين على الامبراطور ؟ وماذا بعد ؟ هل هم الذين يسنون لنا القانون ؟ اذا وجدت طبقه النبلاء المبجلة في موسكو ضرورة لاظهار تفانيها لجلالته ، فانها تستطيع اظهارها على لون آخر . هل نسينا المتطوعين عام ٨٠٧ ؟ لم يربح بينهم الا أبناء القساوسة والمحتالون والمداجون . . .

وكان الكونت ايليا اندريئيفيتش يؤيد أقواله برأسه وعلى شفتيه ابتسامته الدمثة .

هل كان متطوعونا ذوي فائدة للبلاد ؟ كلا على ما أعلم . لقد نكبونا بكل

بساطة . بل ان التجنيد أفضل . . . والا ، فانهم لن يعودوا الينا جنوداً ولا فلاحين بل فاسقين ليس الا . ان النبلاء لايساومون على حياتهم . سوف نذهب جميعنا وسنعود بمجندين .

ثم أعقب باندفاع حماسي متمماً :

– ليوجه الامبراطور الينا النداء فقط فنموت كلنا من أجله .

كان ايليا اندرييفيتش يبتلع لعابه من الرضى ويلكز بيير بمرفقه . لكن هذا كان يريد بدوره ان يقول كلمته . تقدم الى الامام مستسلماً لاندفاع غامض دون ان يعرف على الضبط ما يريد ان يقول . ما كاد يفتح فمه حتى قاطعه عضو في مجلس الشيوخ ، أدرد ذو وجه غاضب عليه مخايل الذكاء كان واقفـــاً قرب الخطيب . قال بلهجة واضحة هادئة ، لهجة رجل خبير بالمناقشات : افترض ياسيدي العزيز اننـا لم نستدع الى هنـا لمناقشة الميزات التي يمكن ان تعطيها في الظروف الحاضرة طريقتا التطوع او التجنيد . يجب ان نجيب على النـداء الذي شرفنا به جلالته . اما الاختيار والتقرير بين التطوع والتجنيد فأمر يجب ان نتركه للسلطة العليا . . .

لم يلبث بيير ان وجد مخرجاً لغليان الداخلي . كيف ! ان هـذا الشيخ يزمـع فرض وجهات نظره الضيقة المتطرفة في الانسجام مـع التشريع على مداولات النبلاء ! تقدم خطوة الى الامام وراح يحاضر بحميا وقـد قطع عليه الكلام ، رغم انه استعمل لغة روسية مدرسية محشوة بتعابير فرنسية .

شرع يقول :

– اعذرني ياصاحب السعادة . . . .

ذلك انه رغم العلاقات الطيبة التي تجمعه بهذا الشيخ ، فقـد ارتأى ان من الافضل منحه لقبه الرسمي .

– على الرغم من أنني لاأشارك رأي السيد – وهم ان يضيف قوله : المشرع كاي الاحترام . لكنه أمسك وأضاف – الذي لم يحصل لي شرف معرفته ،

فانني أفترض ان طبقة النبلاء قد استدعيت الى هذا المكان ليس لتعبر عن عواطفها وحماسها فحسب ، بل لتناقش كذلك الوسائل التي يمكن ان تلجأ اليهـــا لنجدة الوطن .

ثم أردف وهو يزداد اندفاعاً :

ـ انني أعتقد ان الامبراطور نفسه سيكون مستاء اذا لم يجـد فينا الا مالكي قرويين . . . للمدفع . . . اذا لم يجد فينا . . . مجلساً استشارياً .

ولقد حفزت هذه اللغة الشديدة التحرر وابتسامة الشيخ المزدرية اناساً كثيرين على الابتعاد . فلم يؤيد خطاب بيير غير ايليا اندريئيفيتش ، كما أيـد من قبل خطاب البحار والشيخ وكما كان على استعداد لتأييد كل شخص يكون اخر من يتكلم .

استرسل بيير :

ـ اقدر انه قبل مناقشة هذه المسائل ، يجب علينا ان نسأل الامبراطور نعم ، ان نسأل بكل احترام جلالته ان يعلمنا بعـدد قواتنا ومركز جيوشنا وعندئذ . . .

لم يستطع بيير ان يتمم لأنهم هاجموه من ثلاث جهات معاً . وكان أكثر خصومه قسوة من أقدم زملائه في لعبة « الباصرة » الذي لم يكن قط الامكنا كل استعداد لخدمته ، ستيبان ستيبانوفيتش ادراكسين كان هـذا السيد الآن يرتدي البزة الرسمية . وسواء كان لهذا السبب او لسبب آخر ، فان بيير وجد امامه رجلاً آخر مختلفاً كل الاختلاف . صرخ ستيبان ستيبانوفيتش وقد تقلصت تقاسيم وجهه بغضب الشيخوخة :

ـ اولاً لاحق لنا بطرح هذا السؤال على الامبراطور . وفي المرحلة الثانية لو ان للاشراف الروسيين هذا الحق ، فان الامبراطور لايستطيع ان يجيبنا . ان سير جيوشنا تابع لسير العدو اما العدد فهو تارة منخفض وتارة مرتفع . . .

وارتفع صوت آخر ، صوت رجل متوسط القامة في حوالي الاربعين من عمره ، كان بيير قد عرفه من قبل عند البوهميين وكان غشاشاً في اللعب . تحول هو الآخر في البزة ، فتقدم من بيير وقاطع ادراكسين وهتف :

– على أية حال،ان الوقت الآن ليس وقت النقاش بل العمل : ان الحرب في بلدنا . ان العـــدو يقترب ليمحو روسيا ، ليدنس أضرحة أبنائنا ، ليحمل نساءنا . وأولادنا . سوف ننهض جميعنا وسنعطي كل شي من أنفسنا الى أبينا القيصر !

كان يصرخ ويضرب صدره ويدير عينيه المعكرتين بالدم . ولقد ارتفعت بضع كلمات مؤيدة بين الصفوف . – اننا روسيون ، ولن ندخر دماءنا لندافع عن الدين وعن العرش والوطن لندع جانبا كل هذه السخافات اذا كنا بالفعل أولاداً حقيقيين هـــذا الوطن . سوف نري اوربا كيف تنهض روسيا من أجل روسيا .

أراد بيير ان يجيب ، ، لكنه اعترف بعجزه . كان يرى بوضوح ان كلماته ، لولا المعنى الذي تحمله ، أقل صدى من أقوال هؤلاء السادة الممجدين .

وكان ايليا اندريئيفيتش يؤيـد وراء الجمع . ولقـد جاء بعض السامعين يشدون أزر الخطيب ببسالة وهم يؤيدون أقواله بـ : « عظيم جداً ! عظيم جداً ! كامل ! هو كذالك ! »

وكان بيير يريد ان يقول انه هو الآخر على استعداد لكل التضحيات بالرجال والمال وان يضحي بنفسه اذا اقتضى الأمر ولكن ، لكي يمكن علاج الموقف يجب قبل كل شيء معرفته ؟ لكنه لم يستطع : كانوا جميعاً يصرخون ويتحدثون معاً لدرجة انُ ايليا اندريئيفيتش كان لايكف عن هز رأسه مؤيداً وكان الجمع المتحمس ينمو عددياً تارة وتارة يتفرق شمله ليعود الى التشكل من جديد ويتجه نحو المائدة الكبيرة عبر القاعة . لم يكن بيير عاجزاً عن ابداء كلمة

واحدة فحسب ، بل كانوا كذلك يقاطعونه بغلظة ويصدونه او يشيحون بوجوههم عنه وكأنه العدو المشترك . غير ان خطابه لم يكن ذا أثر في هذا النبذ إذ سرعان ما نسوه تماماً بعد الخطابات التي تلته . لكن لابد لذلك الجمهور المثار ان يعبر عن موجدته كما يعبر عن غرامه وحبه فكان بيير كبش الفداء .

ولقد تحدث كل النبلاء الذين تعاقبوا بعد النبيل المستفز على تلك الوتيرة فأجاد بعضهم ولم يخرج البعض الآخر عن الطريق المبتذلة . ولقد قال صاحب « الرسول الروسي » الذي استقبلوه بهتافات : « الكاتب ! الكاتب ! » وكان اسمه سيرج جلينكا : « يجب ان يصد الجحيم بالجحيم » وانه « رأى غلاماً يبتسم على ضوء البروق وقصف الرعود » ولكن « لن نكون نحن ذلك الغلام » .

وكرروا في الصفوف الخلفية دون أن يفهموا :

— نعم ، نعم ، على قصف الرعد !

اقترب الحشد من المائدة الكبيرة التي جلس وراءها كبار ذوي المقام متشحين باوسمتهم . وكانوا كلهم سبعينيين بعضهم أصلع وبعضهم عديم الشعر ، كان بيير يعرفهم سواء في بيوتهم بين مهرجيهم أو في النادي حوالي موائد « الباصرة » مع ذلك فان المحادثات لم تتوقف . راح الخطباء واحد أثر الآخر واحياناً اثنان معاً يتكلمون يضغطهم الجمهور فيلصقهم بمساند الكراسي العالية . وكان أولئك الذين في المؤخرة ، يسجلون ما لم يقله الخطباء ليقولوه بدورهم . وبعضهم يعصر دماغه وسط ذلك الازدحام وتلك الحرارة محاولين اكتشاف فكرة ما ، لم يسبقهم أحد الى اعلانها ، علهم يذيعونها على الآخرين . وكان ذوو المقام ، جامدين في مقاعدهم يلقون حولهم نظرات وجلة ووجوههم لا تعبر الا عن شيء واحد ، هو انهم يشعرون بحرارة شديدة . وكان بيير خلال هذه الفترة ، يشعر بالتأثر : تلك الرغبة في البرهنة بأي ثمن على اخلاصه للوطن ، التي كان يقرأها على كل الوجوه والتي كانت الاصوات تعبر عنها خيراً مما تعبر الخطابات نفسها ، بدأت

تغزوا مخيلته . شعر شعوراً غامضاً بأنه مذنب دون ان ينكر جانباً من آرائه التي يؤمن بها فاراد أن يبرر سلوكه .

صرخ محاولاً ان يطغي على الاصوات كلها :

– كل ما قلتههو ان تضحياتناستكون اكثر سهولة لواننا عرفنا على الضبط الحاجات الداعية اليها .

أدار عجوز ، وهو أقرب الجوار اليه ، نظره نحوه . لكنه لم يلبث ان مال به الى الجانب الآخر من المائدة حيث كان بعضهم يقول :

– نعم ، سوف تنقذ موسكو ! سوف تكون منقذتنا !

وصاح صوت آخر :

– انه عـدو الجنس البشري ! ... دعوني أتكلم ... ايها السادة ، انكم تخنقونني ! ...

* * *

الفَصلُ الثّالِثُ والعُشْرُونَ

قرار نبلاء موسكو

في تلك الاثناء ، دخل القاعـة الكونت روستوبتشين مرتدياً بزة جنرال ومتقلداً الوشاح الأكبر ، بارز الذقن متقـد العينين ، يسير بخطوات سريعة فافسحت له جمهرة النبلاء الطريق .

قال :

– سوف يصل جلالته . لقد جئت لتوي من القصر . اظن ان في الموقف الذي نحن فيه ، لامجال للنقاش طويلاً . لقد تفضل الامبراطور فجمعنا كما جمع رجال التجارة .

ثم أضاف وهو يشير الى قاعة التجار :

– سوف تأتي الملايين من هنا . ان دورنا نحن يقتصر على اعطاء المتطوعين وعدم توفير أنفسنا .. وهذا أقل ما نستطيع عمله .

ولقد دارت مشاورة بصوت أكثر خفوتاً بين السادة الجالسين وراء المائدة وحدهم . ولقد أحدث سماع تلك الأصوات المحطمة ، بعد ذلك الصخب الأخير وهي تعطي برأيها الواحـدة تلو الاخرى ، لوناً من الحزن . كان هذا يقول : « انني اوافق » وذلك ليبدل العبارة : « انني من الرأي نفسه . »

تلقى أمين السر الأمر بتسجيل القرار التـالي من النبلاء الروسيين : « ان نبلاء موسكو ، اسوة بأمثالهم في سمولنسك ، يعطون عشرة رجال على كل الف

رجل مع تجهيزاتهم الكاملة . » ثم نهض المرموقون براحـــة ظاهرة فدفعوا كراسيهم بجلبة وانتشروا في القاعة ممسكين بمعارفهم من سواعدهم ومثرثرين معهم في شتى المواضيع وكأنهم بانتشارهم أرادوا ان يحركوا أطرافهم الساكنة .

صاح بعضهم فجأة :

ـ الامبراطور ! الامبراطور !

ثم اندفع الجميع نحو المدخل .

على طول طريق عريض يحفه من الجانبين سياج مزدوج من النبلاء ، تقدم الكسندر الى القاعة . كانت الوجوه كلها معبرة عن فضول خاشع وجل معاً . لم يميز بيير وهو في مكانه البعيد الكلمات التي فاه بها جلالته . لكنه فهم فقط انه يتكلم عن الخطر الذي تتعرض البلاد له وعن الآمـال التي يبنيها على نبلاء موسكو . وأجاب صوت ينهي الى جلالته القرار الذي اتخذ .

شرع الامبراطور يقول بصوت متهدج .

ـ ايها السادة .

وسادت الجموع رعشة ثم ران صمت عميق فسمع بيير بجلاء صوت الكسندر العذب المتأثر يقول :

ـ انني لم ارتب قط في غيرة الاشراف الروسيين . لكن هذه الغيرة اليوم فاقت ما كنت انتظر . اشكركم باسم الوطن . لنعمل ايها السادة فالوقت ثمين .

صمت الامبراطور فتـألبت الجموع حوله وراحت أصوات التعجب المجنونة تنطلق من كل مكان . وكان ايليا أندريئيفيتش يقول في الصفوف الخلفية وهو ينتحب رغم انه لم يسمع شيئاً بل كان يفهم كل شيء على طريقته :

ـ نعم ، ان أثمن ما في الأمر هو كلمة القيصر .

مضى الامبراطور من قاعة الأشراف الى قاعـة التجار حيث لبث قرابة عشر دقائق . ولقد رآه بيير ككثير غيره ، وفي عينيه دموع التحنن . وكما غا

اليم فيما بعد . لم يكد الكسندر يشرع في خطابه الى رجال التجارة حتى انبثقت الدموع من عينيه فلم يفرغ من أقواله الا بصوت لاهث . وكان اثنان من الحاضرين يرافقانه : أحدهما ، وكان بيير يعرفه ، تاجر مشروبات روحية كبير والآخر ، ذو وجه أصفر هزيل ولحية ضعيفة ، كان نقيب التجار . وكان كلاهما يبكيان . وكانت عينا الهزيل مبللة بالدموع أما الآخر ، فكان ينتحب كالطفل ويكرر دون كلل :

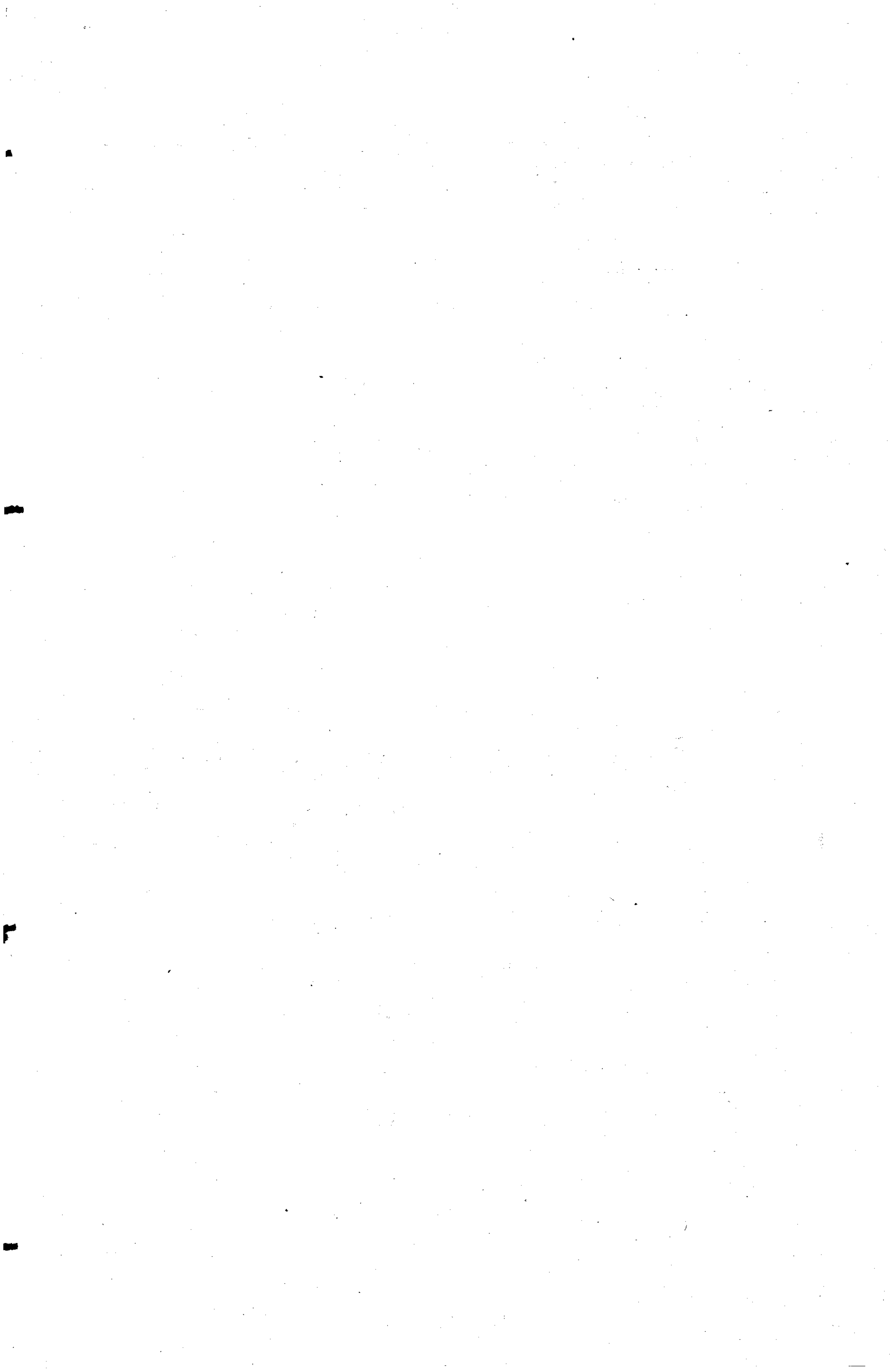
- خذ حياتي وثروتي ياصاحب الجلالة !

باتت لرغبة بيير الوحيدة الآن ان يظهر على الملأ انه لا يأسف على اية تضحية وان يسخر من كل شيء آخر . كان يأسف لميوليه التأسيسية التي أبداها في خطابه وراح ينتهز الفرصة لاصلاح خطأه . ولما علم ان الكونت مامونوف يقدم فوجاً كاملاً ، أعلن من فوره للكونت روستوبتشين انه يقدم الف رجل ويتحمل مسؤولياتهم .

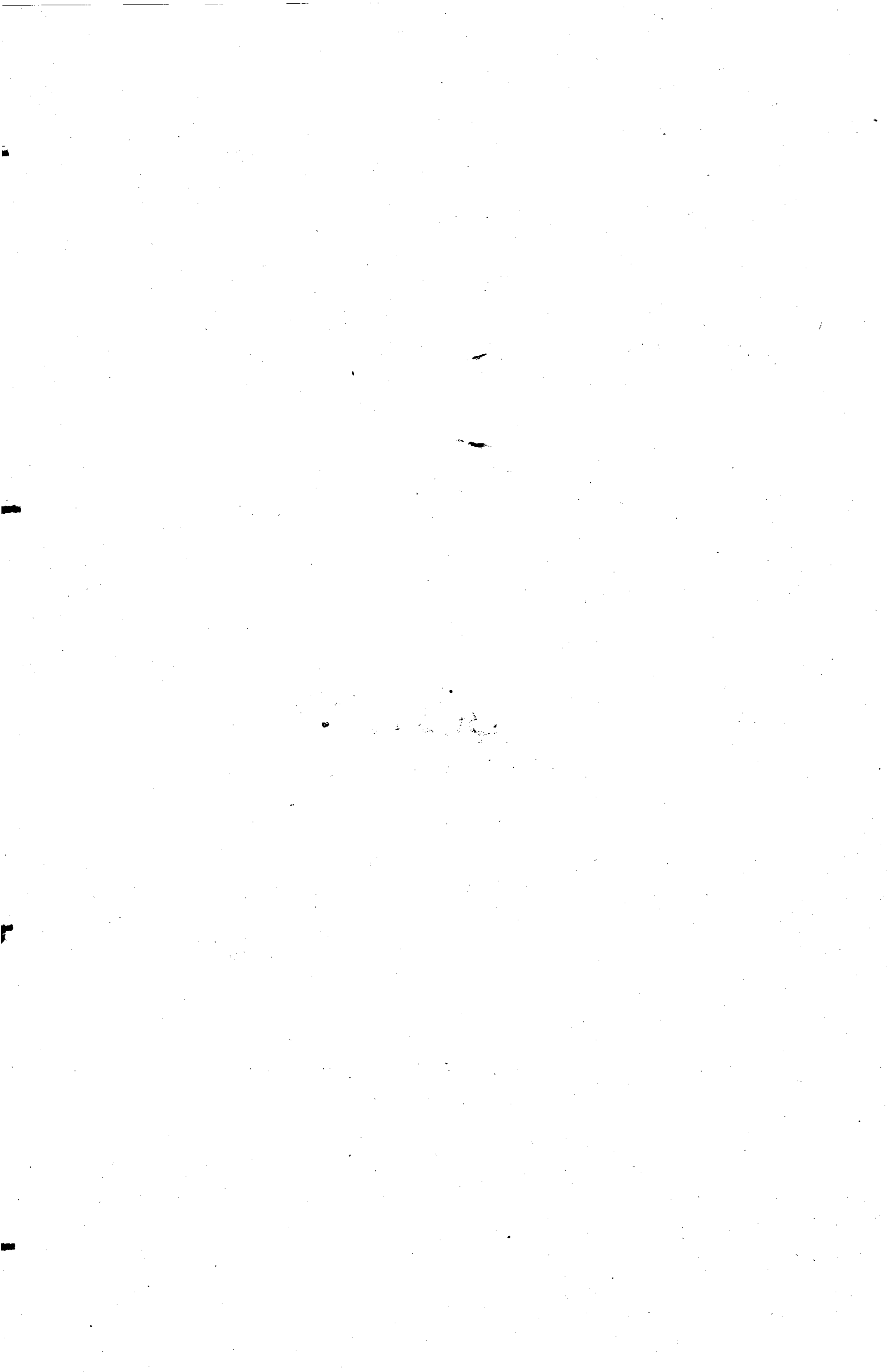
لم يستطع روستوف العجوز ان يمسك دموعه وهو يروي لزوجته كل ما حدث وأذعن من فوره لالحاح بيتيا فذهب بنفسه يسجله في عداد المتطوعين .

وفي اليوم التالي ، ذهب الامبراطور وخلع كل أعضاء الجمعية ازياءهم الرسمية وعادوا الى مألوف عاداتهم في بيوتهم وفي النادي وراحوا يوعزون الى مديري اعمالهم بالأوامر المتعلقة بالتطوع في شيء من المهمة وهم في دهشة من أنفسهم لما بذلوه وعملوه .

* * *



الجزء الثّاني



الفَصلُ الأوّل

تدابير مزعومة

لقد حارب نابوليون روسيا لأنـه لم يستطع الا ان يجيء الى دريسد ولأنه لم يتجنب الاستسلام لشمل المجد والعز وارتداء بزةبولونية والاذعان لمفاتن صباح جميل من حزيران المثير وكذلك لأنه لم يعرف قط كيف يخمد لحظات غضب في حضرة كوراكين ثم بالاشيف .

ولقد رفض الكسندر كل مفاوضـات لأنه كان يظن انه اهين شخصياً . وكان باركلي دوتولي يجتهد ليقود الجيش افضل قيادة حتى يقوم بواجبه ويحصل على شهرة رئيس كبير . واندفع روستوف يهاجم الفرنسيين لأنـه لم يستطع الصمود لرغبة الجري على الحصان في الارض البراح . وهكـذا كان يتصرف الاشخاص الذين لايحصر عددهم ممن ساهموا في الحرب ، تبعـاً لاستعداداتهم الشخصية وعاداتهم وشروطحياتهم أو مقدراتهم. كانوايشعرون بالخوف ويتباهون ويبتهجون ويسخطون ويناقشون ويعتقدون انهم عـارفون ما هم فاعلون وانهم انما يفعلونه لحسابهم الخاص في حين كانوا الادوات الصماء في يد التاريخ ، يقومون بعمل يستغلق معناه عليهم ، عمل نفهمه نحن الآن . كذلك هو مصير كل رجال العمل الذي لا يتبدل : انهم أقل حرية كلما شغلوا منصبـــاً اكبر في التسلسل الاجتماعي .

اختفى صانعو أحداث ١٨١٢ منذ أمـد طويل ولم تعد للمصالح التي جعلتهم

ينشطون أي أثر فلم تبق الا النتائج التاريخية لتلك الحقبة من الزمن .

لكننا لو اعتبرنا ان سكان اوربا كان عليهم أن يوغلوا على عهد نابوليون في قلب روسيا ليهلكوا فيها ، فان سلوك المساهمين في الحرب كلهم ، ذلك السلوك المعاكس الجامد الوحشي ، يصبح غير مفهوم لدينا .

كان القدر يلجىء كل واحد من اولئك الرجال الى المساهمة بنفس الوقت الذي يتتبع فيه أهدافاً شخصية ، في نتيجة واحدة هائلة ، لم يكن لأحدهما ، سواء كان نابوليون او الكسندر ، بل لم يكن لاي كان من الفاعلين ، أية فكرة عنها .

اننا نرى اليوم بوضوح السبب الذي أدى الى هلاك الجيش الفرنسي عام ١٨١٢ . ما من أحد يناقض القول ان ذلك البلاء العظيم كان أولاً بسبب الدخول المتأخر الى قلب روسيا دون استعدادات كافية لحملة شتوية ومن ثم بسبب العقلية المتأثرة بالحرب التي دلت عليها حرائق المدن والموجدة المثارة في نفوس الشعب الروسي ازاء الغازي . ولكن ما من أحد كان يستطيع حينذاك ان يتنبأ بما يبدو لنا اليوم بديهياً خصوصاً اذا علمنا ان هذه الاسباب وحدها كانت السبب في انهيار جيش قوامه ثمانمائة الف رجل وانه كان أفضل جيش في العالم يقوده اعظم القواد ، في وجه جيش أضعف مرتين منه ، محروم من كل خبرة ، يقوده جنرالات غير مجربين كذلك . ليس فقط ان ما من أحد كان يستطيع تخمين ذلك بل كذلك انه بينما كانوا من الجانب الروسي يحبطون التدابير الآيلة الى انقاذ روسيا بجهد و كأنهم يجدون متعة فيه ، كانوا من الجانب الفرنسي كذلك رغم خبرة نابوليون وعبقريته المزعومة ، يبذلون أقصى الجهد للوصول الى موسكو حوالي نهاية الصيف ، أو بعبارة اخرى ، يعملون ذاك الذي كان عليه ان يسبب هلاكهم .

ففي المؤلفات التاريخية عن عام ١٨١٢ ، يلح الفرنسيون بمجاملة حول واقع نابوليون كان يشعر بخطر اطالة خطه الحربي وانه كان يسعى الى المعركة وان

ماريشالاته كانوا يشيرون عليه بالتوقف في سمولنسك وبالايجاز ، حول عدد من الحجج الرامية الى الدلالة على انهم كانوا يشعرون بالخطر . ومن جهة ثانية ، يؤكد المؤرخون الروسيون باكثر مجاملة أيضاً وجود خطة « حرب يأجوجية » منذ البداية غايتها استدراج نابليون الى قلب روسيا ويعزون هذه الخطة الى بفويل تارة والى تول" تارة اخرى ، بعضهم يعزوها الى فرنسي والبعض الآخر الى الكسندر نفسه مستندين في ذلك الى المذكرات والمشاريع والرسائل التي ورد فيها بالفعل تنويهات عن هـذا النوع من التصرف . ولكن كل هذه التلميحات الى استقراء ما كان سيقع سواء من الجانب الروسي أو من الجانب الفرنسي ، لم تستعرض الا في هذا الوقت لأن الحدث نفسه قـد أيدها . فلو ان ما وقع كان ، العكس، لنسيت هو الاخرى اليوم كما نسيت الوف الفرضيات التي درجت حينذاك والتي ثبت بطلانها . ان نتيجة كل حدث تبيح كثيراً من الافتراضات حتى انك لن تعدم أشخاصاً يقولون مؤكـدين : « لقد قلت هذا من قبل ! » متناسين ان بين هذه الافتراضات التي لاتحصى ، وقع عدد آخر مما يناقض هذه كل التناقض .

لذلك فان شعور نابليون بالخطر لتوسيع خطه الحربي والخطة المدروسة الرامية الى استدراج العدو الى قلب روسيا، انما هما من هذا النوع من الفرضيات ولابد وأن المؤرخين قد تجاوزوا الواقع كثيراً ليستطيعوا ان يعزوا وجهة النظر تلك الى نابليون وتلك الخطة الى الرؤساء الروسيين لأن الوقائع كلهـا تعطي تكذيباً واضحاً لهذه الافتراضات المجانية . لقد عمل الروسيون كل مـا في وسعهم بعيداً عن فكرة استدراج الفرنسيين الى جوف بلادهم - لتأخير العدو منذ ان شرع في التقدم . ونابليون ، بعيداً عن التخوف من امتداد خط القتال كان يبتهج ، ابتهاجه بنصر مبين ، بعد كل خطوة الى الأمام ولا يبحث عن المعركة الا بتراخ خلافاً لحملاته السابقة .

لقد شُطرت جيوشنا منذ بدء الحرب فلم يكن همنا الا جمعها في حين ان التقهقر واجتذاب العدو الى داخل البلاد لم يكن حلاً يبشر بأي أهمية . واذا كان الامبراطور موجوداً حينذاك في صفوف الجيش فانما كانت غايته لتشجيع قطعاته على الدفاع عن كل « بوصة » من الأرض وليس ليرأس التقهقر . ولقد نظموا معسكر دريسا الهائل وفقاً لخطة بفويل ليس للتقهقر بل للصمود فيه . ولقد وجه الكسندر اللوم الى القائد الأعلى على كل خطوة الى الوراء . ولم يكن حرق موسكو ولا هجر سمولنسك من الأشياء المقبولة . ولما قامت الجيوش بحركة انضمام الى بعضها ، سخط لرؤية هذه المدينة الأخيرة تسقط في أيدي العدو دون ان تدور تحت جدرانها معركة عامة .

والقواد العسكريون والشعب الروسي كله ، كانوا كالأمبراطور نفسه ، محزونين حزناً أليماً لتقدم العدو .

ونابوليون ، بعد ان شطر جيوشنا ، راح يتوغل الى الأمام وهو يتحاشى مناسبات كثيرة للالتحام في معركة . ففي شهر آب ، كان في سمولنسك . فلم يفكر الا في استمراره في الهجوم الذي ، كما نراه الآن ، أصبح قاضياً عليه قضاءً مبرماً .

ان الوقائع تثبت بشكل جازم ان نابوليون ما كان يتوقع أي خطر في سيره باتجاه موسكو وان الكسندر ، بعيداً عن تسهيل مثل هذه الحركة ، راح مع جنرالاته يفكرون في وضع عائق لها . فالحادثة اذن وقعت ليست تبعاً لخطة ما ، لأن ما من أحد كان حتى يتوقع هذا الاحتمال ، بل بفعل سلسلة شديدة التعقيد من الدسائس والأهواء والرغبات ، كانت الخلاص الأوحد لروسيا ولو أن صانعي الحرب لم يحدسوا ما كان سيقع تبعاً لها ، لقد وقع كل على حين غرة . كانت جيوشنا مشطورة منذ بدء الحملة فحاولنا جهدنا ان نجمعها ونحن نرمي من وراء ذلك بديهياً الى الدخول في معركة وايقاف العدو .

وفي سياق هذه المحاولة ، وبينما نحن نتحاشى لقاء قوات أوفر منا عدداً ، قدنا الفرنسيين الى سمولنسك ونحن نتراجع رغماً عنا على زاوية حادة. ولكن لا يكفي القول اننا نتراجع مشكلين زاوية حادة لأن الفرنسيين شكلوا زاوية بين الجيشين فأصبحت الزاوية اكثر ضيقاً ونشطنا في التقهقر لأن باركلي دوتوللي ، ذلك الغريب معدوم الشعبية ، كان مكروها من باجراسيون قائد الجيش الثاني الذي يجب ان يكون مرؤوساً له والذي يؤخر الالتقاء مع جيشه بقدر ما يستطيع كيلا يكون تحت أمره . واذا كان باجراسيون قد رفض طويلا القيام بتلك الحركة ، وهي الغاية الرئيسيه ككل قواد الجيوش ، فما ذلك الا لأنه كان يخشى تعريض جيشه للخطر ولاريب ، ولأنه يفضل أن يتراجع أكثر فأكثر الى اليسار والى الجنوب ، مشكلا خطراً على جناح جيش العدو ليتمم جيشه في اوكرانيا . ولكن يبدو كذلك أنه عمد الى هذا التدبير كي يتجنب مرؤوسيته لباركلي الغريب الذي يعتبر هو أقدم منه في الرتبة ، ، وهو الأمر الذي ما كان يحتمله .

والامبراطور موجود في الجيش ليزكي الحماس بوجوده . لكن ذلك الوجود نفسه وذلك الترددفي اتخاذ القرارات وعدد المستشارين والخطط الكبيرة عكست قصد القوة الهجومية الكامنة في الجيش الأول وارغمتها على التراجع .

لقد عزموا على التوقف في معسكر دريسا . لكن بولوكشي الذي كان يهدف الى القيادة العليا ، استعمل نفوذه على الكسندر ، فأهملت خطة بفويل كلها وعُهد بكل شيء الى باركلي . ولما كان هذا لايوحي بثقة ، فقد حدوا رغم ذلك من صلاحياته . ان الجيوش قد جُزئت اذن ، فلا وحدة قيادة ولا شعبية لباركلي . ومن هذه الفوضى ، ومن هذا التجزؤ ، ومن عدم شعبية القائد الأعلى الأجنبي هذه ، نجم التردد من جهة والامتناع عن خوض معركة ما كان يمكن الامتناع عنها لوان الجيوش كانت موحدة ولم يكن باجراسيون يقود جيشاً

منها ومن جهة ثانية ، السخط المتزايد ضد الغرباء ويقظة الشعور الوطني .

وأخيراً ، ترك الامبراطور الجيش فلا يُرى لهذا الرحيل الا تفسير واحد مقبول : ضرورة اثارة حماس العاصمتين لاحتمال خوض حرب قومية ، فضاعف هذا الرحيل الى موسكو قوات الجيش الروسي الى ثلاثة أمثالها .

ترك الامبراطور الجيس ليترك كل الحرية للقائد الأعلى ، فيُتوقع حينذاك صدور قرارات اكثر حزماً في حين ان العكس كان ، لقد تعقد موقف القائد وازداد ضعفاً . لقد ظل بينيجسن والجراندوق وثول كبير من المساعدين العسكريين في الجيش بقصد المراقبة والتعريض بالقائد الأعلى . فيضاعف باركلي تعقله ويتحاشى المعركة وهو يشعر بحريته في العمل آخذة بالتناقص تحت مراقبة كل هذا العدد من « عيون الامبراطور » .

وبينما باركلي متخذاً حذره ، يتحدث التسيزاريفيتش عن خيانة ويطالب بمعركة عامة . وينضم لوبوميرسكي وبرونيكي وولوكي وعدد آخر الى صفه ويجسمون هذه الشائعة حتى ان باركلي ، متذرعاً بحجة ارسال وثائق الى الامبراطور اضطر الى ترحيل المساعدين العسكريين البولونيين الى بيترسبورج والدخول في نضال سافر ضد بينيجسن والجراندوق .

وأخيراً وفي سمولنسك ، رغم عدم تعجل باجراسيون ، تقوم الجيوش بحركة الالتقاء .

يصل باجراسيون الى مسكن باركلي في عربة فيندفع هـذا للقائد متدثراً بوشاحة ، ويقدم اليه تقريره كما يفعل مع أقـدم منه رتبة . ويظهر باجراسيون شهامة عالية بتقبله رآسة باركلي ، لكنه بذلك يزداد في الاختلاف معه . انه يوجه تقاريره مباشرة الى الامبراطور كما أمره هـذا أن يفعل ويكتب الى آراكتشييف قائلا : « انني رغم رغبة جلالته ، يستحيل علي الاتفاق مع « الوزير » (باركلي) . ارسلني بحق السماء الى مكان ما حتى ولو لقيادة فوج . لكنني

لاأستطيع البقاء هنا . . ان القيادة العليا كلها مملوءة بالألمان لدرجة ان الروسي لايمكنه ان يعيش فيها وانها فوضى حقيقية. كنت اظن انني أخدم الامبراطور والوطن . لكنني في الوقع انما أخـدم باركلي لذلك ، اعترف لك انني أرفض هذه الخدمة.» وينشط ثول برّونيكي وونتزنجيرود وآخرين في تسميم العلاقات بين الجنرالين أكثر فأكثر ، فتصبح وحـدة القيادة مجرد مظهر . وتقوم الاستعدادات لمهاجمة الفرنسيين أمام سمولنسك . فيُرسل جنرال لدراسة الموقف ولما كان هذا الجنرال من الحاقدين على باركلي ، فانه يمضي لزيارة قائد من جناح أصدقائه فيمضي النهار عنده . وعنـد أوبته ، يندفـع في نقد ساحة معركة لم يرها قط .

وبينما هم يدسون ويناقشون حول ساحة المعركة المقبلة هذه ، وبينما هم يبحثون عن الفرنسيين ويخطئون في تحديد مواقعهم على الضبط ، يصطدم العدو بجيش نيفييروسفكي ويقترب من جدران سمولنسك نفسها .

ولقد اضطررنا الى خوض المعركة في سمولنسك لنمحي خطوط اتصالنا ، فسقط من الجانبين الوف من الرجال .

وُهجرت سمولنسك برغبة الامبراطور والشعب أجمع، لكن المدينة أحرقت من قبل السكان أنفسهم الذين خدعهم حاكم مدينتهم . وذهب هؤلاء المنكوبون الى موسكو فأضحوا مثالاً للروسيين الآخرين وهم لايفكرون الا في الخسائر التي لحقت بهم وفي أذكاء الموجدة على العدو. ويتابع هذا تقدمه فنتابع تقهقرنا ، وهكذا دارت الامور دورتها القاضية على نابوليون .

الفصل الثاني

صفح الامير العجوز

استدعى الأمير نيكولا اندريفيتش الاميرة ماري غداة يوم رحيل ابنه . قال لها :

— حسناً ! انت سعيدة الآن : لقد خاصمتني مع ولدي ! هذا ما كنت تريدينه تماماً . ها أنت سعيدة الآن ! .. بينما ذلك يؤلمني ، ذلك يؤلمني كثيراً اني عجوز وضعيف .. أما أنت ، فقد نلت ما كنت تشتهين ... هيا ، قري عينا ، قري عينا . .

ثم لم ترى ماري أباها طيلة الاسبوع اذ كان مريضاً لايخرج من مكتبه . ولدهشة ماري العظيمة ، لم يكن يستقبل الآنسة بورين ولا يتقبل خدمات تيخون .

وفي غضون ثمانية أيام ، عاد الى مألوف عاداته تستفزه حمى الانشاء والغرس لكنه لم يستعد علاقاته مع الآنسة بورين . وكانت اماراته ولهجته الباردة التي يخاطب ابنته بها اشبه بالقول : « هل ترين ، لقد رويت لأخيك الأكاذيب حول علاقاتي مع هذه الفرنسية وخاصمتني معه مع أنك ترين أنني لست في حاجة اليك ولا الى الفرنسية . »

كانت ماري تقضي نصف يومها قرب نيكولا الصغير تراقب تثقيفه وتعطيه

بنفسها دروساً بالروسيـة والموسيقى وتتباحث مع ديسال . أما بقية وقتها ، فكانت تمضيه بالقراءه أو بمحادثات مع المربية العجوز و « رجـال الله » الذين كانوا أحياناً يغامرون بالمجيء الى مدخل الخدم لرؤيتها .

كانت تفكر في الحرب ما يدور في تفكير النساء وكانت تخشاها من أجل أخيها الذي يساهم فيها وتلعن ، دون ان تتوصل الى فهمهـا ، قسوة الرجال التي تجرهم الى التذابح . لكنها ما كانت تعرف أهمية الحملة التي لم تكن تبدو في نظرها مختلفة عن الحملات الاخرى . مع ذلك ، فـأن ديسال ، محدثها المألوف ، الذي كان يتابع سير العمليـات باهتمام كبير ، كان يحاول ان يفتح عينيها وكذلك « رجال الله » كانوا ، كلٌ وعلى طريقته ، يفسرون في حضرتها الشائعات الرائجة بين الشعب حول مجيء المسيح الدجال ، وأخيراً جولي ، التي استعادت اتصالها الخطي معها منـذ زواجها ، كانت ترسل اليها من موسكو مراسلات مطبوعة بوطنية مضطرمة . كانت تنبئها :

« انني اكتب اليك ياصديقتي الطيبة بالروسية لأنني بدأت أحقـد على كل الفرنسيين حقدي على لغتهم التي ما عدت أطيق سماعها .. أننا جميعاً في موسكو شعلة حماس في سبيل امبراطورنا المعبود .

« ان زوجي المسكين يحتمل الجوع وكل أنواع المزعجات في مختلف الخانات اليهودية القذرة . لكن الانباء التي أملكها لاتعمل إلا على زيادة حماسنا . »

« لابد وانك علمت بصنيع راييفسكي البطولي الذي عانق ولديه وقال لهما: « سأموت معهم ، لكننا لن نتراجع ! » وهكذا كان. فعلى الرغم من ان العدو كان ضعفي قوتنا ، فاننا لن ننثني . اننا نقضي الوقت كما نستطيع ولكن في الحرب نمضيه كما تتطلب الحرب ! ان الأميرة آلـين وصوفي تكرسان من أجلي أياماً بطولها . أننا ونحن أرامل أزواج أحياء ، نتحـادث في موضوعات جميلة ونحن نشتغل بالنسيل ولا ينقصنا الا أنت ياصديقتي ..

واذا كانت أهمية هذه الحرب تغيب عن ماري ، فما ذلك الا لأن الأميرة العجوز ما كان يتحدث عنها ابداً . متظاهراً بأنه يجهلهـا مستهزئاً بديسال كلما أدار هذا الحديث نحو هذا الموضوع على المائدة . وكانت لهجتـه بالغة الهدوء والثقة حتى ان ماري ما كانت تحاول التعمق في الأمور .

بدا الأمير شديدالنشاط خلال شهر تموز كله بل وجم المشاغل . أمر بتخطيط حديقة جديدة وجناح اضافي مخصص للخدم . بيـد ان ماري لاحظت بقلق أنه ينام قليلاً وانه خلافاً لعاداته ، كان يبدل كل ليلة الغرفة التي يأوي اليها . كان حيناً يأمر بنصب سرير الميدان الذي ينام عليـه في الرواق وينام حيناً آخر بثيابه كاملة على أريكة البهو أو على مقعد من طراز فولتير . ولم تعـد الآنسة بورين هي التي تقرأ له ، بل الخـادم الصغير بيتروشكا الذي يقوم بهذه المهمة . وكان أحياناً يقضي الليل في قاعة الطعام .

وصلت في الأول من آب رسالة ثانيـة من الأمير آندريه . كان في الأولى التي وصلت بعد ذهابه بوقت قصير ، يطلب بخشوع صفح أبيه عمـا سمح لنفسه بقوله له ويرجوه ان يرضى عنه . فأجابه الأمير العجوز بتودد ولم يلبث ان تباعد عن الفرنسية . أما الرسالة الثانية التي كتبت في ضواحي فيتيبسك بعد احتلال تلك المدينة ، فقد كانت تحوي على وصف قصير للمعركة مع مخطط بياني وبعض الآراء حول توسيع العمليات المقبلة . كان آندريه يلفت أنظـار أبيه الى ما في مستقره الحالي من موانع بوصفه واقعـاً على مقربة من مسرح الحرب وعلى خط مسير الجيوش ويشير عليه بالذهاب الى موسكو .

وفي ذلك اليوم بالذات ، أخطره ديسال خلال وقت الطعـام ، انه تبعاً للشائعات الرائجة ، أصبحت فيتيبسك يحتلها الفرنسيون . وحينئذ تذكر الأمير رسالة ابنه . قال لماري :

– لقد تلقيت منذ حين رسالة من الأمير آندريه . ألم تقرأيها ؟
أجابت وهي شديدة الجزع :
– كلا يا أبي .
وفي الواقع كيف يتسنى لها قراءة هذه الرسالة وهي التي لم تعلم بوصولها ؟
قال الأمير بتلك الابتسامة المحتقرة التي باتت مألوفة لديه كلما تكلم حول هذا الموضوع :
– أنه يتكلم عن هذه الحرب .
فقال ديسال :
– لا ريب أنها شديدة الأهمية . لابد وان الأمير قادر على معرفة الحقيقة وهو في مركزه ..
وأعقبت الآنسة بورين مؤيدة :
– نعم ، نعم ، شديدة الاهمية ..
قال الأمير لهذه :
– اذهبي وجيئيني بها ، أنك تعرفين ، على النضد تحت المثقلة .
كادت الآنسة بورين ان تندفع لتنفيذ رغبته وقد استخفها الفرح . لكن الأمير اكفهر وجهه فجأة وهتف :
– كلا ، كلا . اذهب أنت ياميخائيل ايفانوفيتش .
نهض ميخائيل ايفانوفيتش وذهب الى المكتب . فلم يكد يدخله ، حتى كان الأمير العجوز يدير حوله نظرات قلقة ثم يلقي بنشفته ويتبعه .
– ان هؤلاء الناس لايعرفون عمل شيء . لسوف يفسد كل شيء .
وبينما هو يخرج ، راح ديسال والأميرة والآنسة بورين ونيكولا الصغير يتبادلون النظر دون ان ينطقوا بكلمة . عاد بخطى متلاحقة يصحبه نيكولا ايفانوفيتش ومعه الرسالة والمخطط فوضعها جانباً ولم يسلمها الى أحد قبل الانتهاء من الطعام .

ولما انتقلوا الى البهو ، قدم الرسالة الى ماري ورجاها ان تقرأها بصوت عال في حين راح ينشر أمامه مخطط بنائه الجديد . وبعد ان قرأت ماري الرسالة سألت أباها بنظرة : كانت عينـا الأمير العجوز شاخصتين الى المخطط أمامه وكأنه مستغرق في تأملاته :

سمح ديسال لنفسه بالسؤال :

ـ ماراًيك في كل هذا ياأمير ؟

أجاب دون ان يرفع عينيه وكأنه يستفيق من حلم :

ـ أنا ؛ أنا ؟

ـ من الجائز ان يقترب ميدان المعركة منا ..

فقال الأمير :

ـ ها ! ها ! مسرح الحرب ! لقد قلت وأكرر ان مسرح الحرب هو بولونيا وان العدو لن يتوغل أبداً الى الأمام أكثر من النييمن .

نظر اليه ديسال بذهول : انـه يتكلم عن النييمن في حين ان العدو بلغ الدنيبر . لكن ماري التي نسيت موقع هـذا النهر الجغرافي الصحيح ، أيدت أقوال أبيها مؤمنة .

أضاف وهو يفكر بلا ريب في حملة عام ١٨٠٧ التي كانت في نظره قريبة جداً :

ـ عند ذوبان الثلوج ، سوف يغرقون كلهم في مستنقعات بولونيا . ان مالا يستطيعون رؤيته هو ان بينيجسن كان عليه ان يدخل الى بروسيا بسرعة وحينئذ كانت الأمور ستأخذ شكلاً آخر .

اعترض ديسال بفزع :

ـ ولكن يا أمير ، ان الرسالة تتحدث عن فيتيبسك ..

زمجر :

ـ الرسالة ؟ .. آه ! نعم .. نعم .. نعم ..

وفجأة أربد وجهه ثم أعلن بعد فترة صمت :

- نعم ، انه يقول ان الفرنسيين قد هزموا ، قرب أي نهر كان ؟

خفض ديسال عينيه وقال بلطف :

- لم يكتب الأمير شيئاً من هذا القبيل .

- كيف لم يكتب شيئاً من هذا القبيل ؟ هل ابتكرته أنا ؟

صمتوا جميعاً فترة طويلة . وفجأة استأنف الأمير مشيراً الى المخطط وقد رفع رأسه :

- نعم .. نعم .. هيا يامبخائيل ايفانوفيتش . قل لي كيف تريد ان تشرع في التجديد ..

اقترب ميخائيل ايفانوفيتش وبعد ان تحادث الأمير معه حول البناء ، القى نظرة غاضبة على ماري وديسال ثم انسحب .

لاحظت الأميرة ماري صمت ديسال المرتبك والطريقة التي نظر بها الى ابيها ولقد ذهلت اذ رأت ان هذا قد نسي على المائدة رسالة الأمير آندريه . لكنها لم تجرأ على سؤال المدرس عن أسباب سكوته وتشوشه لأنها كانت تخشى التفكير في هذه الامور .

وحوالي المساء ، جاء ميخائيل ايفانوفيتش يسأله عن الرسالة موفداً من قبل الأمير فاعطتها له ماري وسألته رغم ارتباكها عما كان يعمله أبوها .

أجاب المهندس بابتسامة شحب وجه ماري للسخرية الكامنـــة فيه وراء مظاهر الاحترام :

- انه كعادته يزعج نفسه كثيراً . ان البناء الجديد يسبب له متاعباً جديدة .

وأضاف ميخائيل ايفانوفيتش وهو يخافت من صوته :

- لقد قرأ فترة وهو الآن وراء مكتبه يعمل في وصيته بلا ريب .

سألت ماري :

- يبدو انه يرسل الباتيتش الى سمولنسك ؟

- نعم . والباتيتش ينتظر أوامر الأمير منذ وقت طويل .

الفَصلُ الثّالِثُ

ذكريات كاتيرين

عندما عاد ميخائيل ايفانوفيتش بالرسالة ، وجد الأمير جالساً أمام مكتبه المفتوح ونظارتاه فوق أنفه وعلى جبينه عاكس نور . كان يقرأ أوراقاً في يده على ضوء الشموع بوضع مسرحي تقريباً وقد جعلها بعيدة عن عينيه بمسافة ما وكانت تلك الأوراق هي « ملاحظاته ، كما كان يدعوها » التي يجب تسليمها الى الامبراطور بعد موته . وكانت عيناه تنديان بالدموع لذكرى الوقت الذي كتب فيه ما يقرأه الآن .

أخذ الأمير الرسالة فوضعها في جيبه ونظم أوراقه ثم استدعى الباتيتش الذي كان ينتظر منذ وقت طويل .

كان قد دون على وريقة الأشياء التي يجب شراؤها من سمولنسك فراح وهو يذرع الغرفة يلقي بأوامره الى الباتيتش المسمر على العتبة .

– اولاً ورقاً للرسائل ، هل تسمع ، مائتي ورقة واليك نوعها : مذهبة عند أطرافها مماثلة للانموذج تماماً . ثم طلاء وشمعاً للختم حسب ملاحظة ميخائيل ايفانوفيتش .

استشار المذكرة وهو في تسياره :

– ثم تقدم بنفسك الى الحاكم الرسالة المتعلقة بمذاكراتي .

كان يجب كذلك ان يحضر مزاليج لأبواب البناء الجديد مطابقة للانموذج الذي ابتكره الأمير تماماً ثم محفظة خاصة ليضع فيها وصيته.

استمرت المقابلة اكثر من ساعتين دون ان يترك الأمير الباتيتش يرحل. وأخيراً جلس واستغرق في أفكاره وأغمض عينيه واستسلم للنعاس. وحينئذ قام الباتيتش بحركة.

- هيا، يمكنك ان تذهب، واذا كنت لاأزال أحتاج الى شيء أبلغك ما أريد.

خرج الباتيتش فعاد الأمير الى مكتبه ليلقي عليه نظرة اخيرة ثم أغلقه وجلس الى طاولته حيث راح يكتب الى الحاكم.

كان الوقت متأخراً عندما نهض بعد ان ختم رسالته. كان يتوق الى النوم لكنه كان يعرف انه لن يستطيع النوم وان الأفكار الأشد سوداً تحاصره وهو في السرير. استدعى تيخون وتجول معه في حجرات كثيرة بحثاً عن مكان ينصب فيه سريره، فكان يأخذ قياس كل زاوية.

لم يعجبه مكان. كان يشعر بتفور شديد من فراشه القديم بسبب نوبات الأرق القاسية التي اصيب بها وهو راقد عليه. قرر أخيراً قبول ركن من مخدع وراء المعزف، وهو مكان لم ينم فيه من قبل.

جاء تيخون بالسرير يساعده خادم المائدة، فأقاماه هناك. صرخ الأمير وهو يبعد سريره بضعة أصابع ليعيده من فوره الى حيث كان.

- ليس هكذا، ليس هكذا!

حدث نفسه وهو يترك أمر نزع ثيابه لتيخون: «هيا، لقدسوي كل شيء الآن. لسوف أستطيع أن أنام.»

اقتضاه المجهود الذي أبداه لخلع «قفطانه» وسراويله ان يعجو وجهه وأخيراً تهالك بتثاقل على السرير والقى على ساقيه المزيلتين الصفراوين نظرة احتقار.

بدا كأنه يفكر لكنه كان في الحقيقة يتردد في رفع ساقيه والاستلقاء على سريره فحسب . كان يحدث نفسه : « اوه ! كم هذا منصب ! اوه ! لو أن كل هـــذه المنغصات تنتهي بسرعة ، لو « انكم » تستطيعون ان تتركوني اذهب ! » وللمرة العشرين الف في حياته تقريباً ، قام بالجهود المطلوب وهو يصرف على أسنانه . لكنه ما كاد يستلقي حتى راح سريره يتماوج ويتأرجح : كذلك كان الحال كل ليلة تقريباً . عاد ففتح عينيه نصف المغمضتين .

زمجر يخاطب مضطهديه الوهميين :

ـ ألن تتركوني انام ايها الملاعين ! ... ولكن ماذا ، لقد احتفظت بشيء ما مهم لأفكر فيه في السرير ، شيء مهم جـداً . المزاليج ؟ كلا ، لقد فكرت فيها ... ان الموضوع يتعلق بشيء وقع في البهو ... هل هو هذيان ماري ؟ ام هو هذر هذا التافه ديسال ؟ شيء ما في جيبي ؟ لم اعـد اتذكر . . . تيخون ، عن اي شيء تكلموا على المائدة ؟

ـ عن الأمير ميخائيل ...

صرخ الأمير وهو يضرب المائدة بكف يده :

ـ اصمت ، اصمت . لقد وجدتها ! رسالة الأمير آندريه . لقد قرأتها ماري علينا . وروى ديسال ما لست ادري عن فيتيبسك . يجب ان اقرأها الآن .

أمر ان تعطى اليه الرسالة وقرب النضد الذي كان كأس الليمون عليه الى جانب شمعة على هـدب حلزوني ثم احكم نظارتيه وشرع يقرأ . وحينئذ فقط ، في هدأة الليل . وتحت النور الضعيف الذي كان يعكسه عاكس اخضر ، ادرك فجأة اهمية الانباء التي تحملها الرسالة .

ـ ان الفرنسيين في فيتيبسك وهم يستطيعون ان يكونوا في سمولنسك في اربع مراحل . بل ولعلهم هناك الآن ! تيخون ! ـ وانتصب تيخون منتفضاً ـ كلا ، لاجدوى ..

دس الأمير الرسالة تحت الشمعدان واغلق عينيه . شاهد أمامـه الدانوب ظهر يوم مشع والقصب والمعسكر الروسي ونفسه،وهو جنرال شاب حينذاك، دون غضن ، متيقظ بهيج النفس نضر ، يدخل في خيمة باتيومكين[1] المرقشة . وفجأة ، استبد به شعور بالغيرة من ذلك المفضل كاوٍ ومحتدم كما كان حينذاك. تذكر الكلمات التي تبادلاها اثناء تلك المقابلة . وفجأة ، انبعثت في ذاكراته ، امرأة قصيرة القامة قوية ممتلئة الوجنتين صفراء اللون ، هي امنا الامبراطورة، ومثلت امام عينيه : انه يراها من جديـــد وهي تبتسم له ويسمعها من جديد توجه اليه كلمات ترحيب لطيفة . ثم راح يتذكر ذلك الوجه نفسه على النعش المزين والجدال الذي وقع بينه وبين زوبوف[2] حول حق تقبيل يد الامبراطورة.

« آه ! ليتني استطيع العودة الى ذلك الوقت . ليت الحاضر يمكن اختفاؤه بأقصى سرعة ، وليتهم فقط يدعونني بسلام ! »

---

(١) جريجوار الكسندروفيتش باتيومكين ، فيلد ماريشال روسي ولد عام ١٧٣٦ قرب سمولنسك وتوفي عام ١٧٩١ وكان واحــــداً من المقربين المفضلين لدى كاتيرين الثانية امبراطورة روسيا .

(٢) الامير زوبوف ، آخر المفضلين لدى كاتيرين الثانية ولد عام ١٧٦٧ وتوفي عـــام ١٨٢٢ وساهم في الانقلاب وفي موت بول الاول امبراطور روسيا حينذاك.

الفصل الرابع

استسلام سمولنسك

كانت ليسيياجوري واقعة على مسافة خمسة عشر ميلاً وراء سمولنسك وثلاثة ارباع الميل عن طريق موسكو .

مساء ذلك اليوم الذي اعطى فيه الأمير تعليماته الى الباتيتش ، سأل ديسال الأميرة ماري ان تمنحه مقابلة عرض عليها خلالها ان صحة الأميرة لاتسمح له بأن يتخذ التدابير لأمنهم كما وان رسالة الأمير آندريه من جهة ثانية تلمح الى ان البقاء في ليسيياجوري يشكل خطراً ما . وطلب اليها باحترام ان يستفسر لدى حاكم المقاطعة عن الموقف الحقيقي وعن الخطر الذي يتعرضون له ببقائهم في الريف . ولقد كتب ديسال الرسالة التي وقعتها ماري واعطيت الى الباتيتش مشفوعة بأمر تسليمها الى الحاكم بالذات والعودة باسرع ما يمكن اذا اقتضت الضرورة الاسراع .

راح الباتيتش وعلى رأسه قبعة من جلد كلب الماء كانت هدية من سيده ، وبيده عصا ، على غرار الأمير كلما اراد الخروج ، يستعد مع نفر من العاملين في البيت لركوب عربة صغيرة ذات غطاء من الجلد يجرها ثلاثة جياد اقوياء .

ولقد ربطوا الجريس ولفوا الجلاجل بالورق لأن الأمير ما كان يسمح لأحد استعمالها في اراضيه ، وكان الباتيتش يحب سماع اصواتها كلما ذهب برحلة طويلة .

وكان مقربوه ، المحاسب والكاتب والطاهية ومساعدها وامرأتان عجوزان والقوقازي الصغير وسائقو العربة وبعض الخدم الآخرين ، يرافقونه .

ووضعت ابنته على مقعدها ومسنده وسائد مختلفة ودست اخت زوجه العجوز بينها رزمة خلسة بينما ساعدها احد السائقين على الصعود وهو يرفعها من تحت ابطها . زمجر الباتيتش وهو يقلد لهجة سيده :

– آه ! آه ! من استعدادات النساء ! آه ! النساء ، النساء !

ثم اتخذ مكانه في العربة وهو ينفخ ويزمجر .

وبعد ان ارشد رئيس المكتب كما يجب الى موضوع الاعمال الدارجة ، نزع الباتيتش قبعته عن رأسه الاصلع ، ودون ان يقلد سيده هذه المرة ، رسم على صدره أشارة الصليب ثلاثاً .

هتفت به زوجته وهي قلقة من الشائعات الرائجة حول اقتراب العدو :

– اذا وقع شيء ما . . . ستعودون فوراً أليس كذلك يا اياكوف الباتيتش ؟ ... بحق السماء ، اشفق علينا .

غمغم الباتيتش بينما راحت العربة تدرج :

– آه ! النساء ! ان المرء لاينتهي ابداً معهن !

اخذ طوال الطريق يمتع الطرف تارة بالشليم الآخذ بالنضوج وطوراً بالخرطال الأخضر الكثيف ، وبالحقول التي لازالت سوداء لم تفلح الا للمرة الثانية تارة اخرى . كان يتأمل موسم حنطة الربيع المقبل ويمعن النظر في خطوط الشيلم الذي حصد بعضه هنا وهناك ويبدي ملاحظاته حول البذار والمواسم المقبلة ويتساءل عما اذا لم ينس مطلباً لسيده .

وبعد ان علف خيوله مرتين في الطريق ، وصل الى المدينة مساء الرابع من آب .

كان قد تجاوز في طريقه بعض القوافل والقطعات . فلما اقترب من

سمولنسك ، سمع طلقات بعيدة لكنه لم يلق اليها بالا . بيد أن ما ادهشه اكثر فأكثر كان رؤيته حقلاً بديعاً من الخرطال كان الجنود يعسكرون فيه ويحصدون زروعه لأطعام خيولهم ولا ريب . على اية حال ، لقد كانت مهمته تشغل جل تفكيره مما لم يجعله يتوقف عند هـذه البادرة متأملاً . كان الباتيتش منذ ثلاثين عاماً لا يعرف الا ارادة الأمير فلم يكن افقه ليمتد الى ابعد من تلك الارادة . فكان كل ما ليس له علاقة بتنفيذ اوامر سيده لايثير اهتمامه بل انه ما كان موجوداً اصلاً بالنسبة اليه .

ذهب الباتيتش تبعاً لعادة اصبحت ثلاثينية ، ينام في ضاحية جانتشا على الجانب الآخر من الدينيبر في خان يديره من يدعى فيرابونتوف . قبل ثلاثين عاماً مضت ، اشترى فيرابونتوف هـذا تبعاً لمشورة الباتيتش ، اخشاباً من الأمير راح يتجر بهـا فاصبح يمتلك الآن بيتاً وخاناً ومخزناً لبيع الدقيق وكان رجلاً ضخم الجسم احمر الوجـه في نحو الخمسين من عمره ذا شعر اسود وشفتين غليظتين وأنف كأنه قطعة من البطاطا وحـدبتين فوق حاجبيه الكثيفين الاشعثين وبطن عظيم .

كان ذلك المساء في دكانه يرتدي صدرة فوق ذراعيه من قماش هندي . فلما شاهد الباتيتش ، تقدم لأستقباله وقال له :

– اهلاً وسهلاً يا ياكوف الباتيتش . ان الناس يغادرون المدينة بينما انت تدخلهـا .

– يغادرونها ؟ لماذا ؟

– لسخفهم ، ماذا ! انهم جميعاً خائفون من الفرنسيين .

– ترهات نساء مسنات !

– وهذا ما أظنه يا ياكوف الباتيتش . طالما ان الأمر ينص على عـدم السماح لهم بالدخول ، فليس هناك ما يخيف أليس كذلك ؟ . . وها ان جماعتنا

يندفعون في طلب ثلاثة روبلات لقاء العربة العادية ، هؤلاء الملحدين ، انهم لايخجلون !

كان اباكوف الباتيتش يصغي اليه باذن ساهمة . طلب سماوراً وعلفاً لخيوله وبعد ان شرب الشاي اوى سريره .

ظلت قطعات تمر امام الخان طيلة الليل . وفي الصباح ، ارتدى الباتيتش ثياب المدينة ومضى الى اعماله. وكان الصباح مشمساً والحرارة مرتفعة في الثامنة صباحاً . حدث الباتيتش نفسه : « طقس جميل جداً للحصاد . »

تناهت الى الاسماع طلقات بنادق كثيرة اتحد معها منذ الساعة الثامنة قصف المدفعية . وكانت الشوارع مليئة بالجنود والناس في حمى العجلة . لكن العربات كانت كعادتها تسير في الشوارع والدكاكين مفتوحة والقداس يقام في الكنائس . دخل الباتيتش الى بعض الدكاكين والمكاتب ومضى الى ادارة البريد فكانوا يتحدثون عن الحرب وعن العدو الذي يهاجم المدينة والناس كلهم يتساءلون عما يجب عمله وكل يحاول بعث الطمأنينة في نفس جاره .

اصطدم الباتيتش امام مقر الحاكم بعدد كبير من الناس وكانت فرقة من القوقازيين تحيط بعربة سفر ذلك الموظف الكبير . وعلى المرقاة ، التقى باثنين من اثرياء الريف كان احدهما – وقد عرف فيه الباتيتش رئيس بوليس منطقتهم سابقاً – يتكلم بحرارة .

– لم يعد الموضوع يحتمل المزاح يارجل ! ان الأمر أكثر يسراً بالنسبة الى من ليس لديه الا نفسه ينقذها : فلوحط البلاء عليه ، لما تألم أحد غيره ! ولكن عندما يكون لدى المرء ثلاثة عشر شخصاً هم أعضاء اسرته ويتوجب عليه كذلك ان ينقذ ما يستطيع انقاذه ! . . . هل سمع الناس برؤساء مماثلين ؟ لقد اتخذوا احتياطاتهم بكل دقة حتى اننا قضي علينا جميعاً . . . كان يجب شنقهم هؤلاء الآثمين !

وكان الآخر يقول :

– هيا ، هيا ، استكن !

– إيه ! ليسمعني من يشاء ، لست أبالي ! اننا لسنا كلاباً على أية حال !

كان رئيس الشرطة السابق يتفوه بهذه الكلمات مستغرباً . وبينما هو يلتفت شاهد الباتيتش فهتف :

– آه باه ؟ ايا كوف الباتيتش ؟ ماذا تفعل هنا ؟

أجاب الباتيتش وهو منتفخ الاوداج واحدى يديه في فتحة ثوبه الخارجي وهي وضعية يلجأ اليها كلما كان الكلام يدور حول سيده :

– لقد جئت بناء على أمر سموه لرؤية سيدي الحاكم . . . لقد تفضل سموه فأرسلني لاستفسر عن الوضع .

صرخ الثري الريفي :

– الوضع ؟ انه جميل ! لقد تصرفوا بشكل لم يبق معه عربات ولا أي شيء .

ثم استرسل وهو يشير الى الاتجاه الذي تنبعث منه طلقات البنادق :

– خذ ، هاهم اولاء ، هل تسمع ؟ وبفضل هؤلاء السادة الرائعين سوف نذهب كلنا الى الجحيم ! . . .

وكرر وهو يهبط المرقاة :

– عصابة سفاكين !

هز الباتيتش رأسه وصعد السلم . كان في الردهة جماعة من التجار والنساء والموظفين يتبادلون النظر صامتين . وفتح باب المكتب فنهض الموجودون كلهم وتقدموا . خرج موظف متعجلا وتبادل كلمات مع تاجر ثم استدعى مستخدماً ضخماً كان يحمل وساماً حول عنقه وزاغ من فوره من دائرة نيران الأبصار المتقاطعة والأسئلة . دفع الباتيتش نفسه الى الصف الأول ولما بدا الموظف مرة اخرى ، مدّ له يداً بالرسالتين وهو يدفع بالثانية في شق ثوبه

الخارجي قال بصوت بلغ من جلاله وتسلطه حداً لم ير الموظف بداً من أن يأخذ منه رسالتيه :

– الى سيدي البارون آسش من قبل الجنرال الأعلى الأمير بولكونسكي .

وفي غضون بضع دقائق ، استقبل الحاكم الباتيتش وأعلن وهو يدندن :

– قل للأمير والأميرة انني لم أكن على علم بشيء وانني تصرفت حسب أوامر عليا . . .

وأضاف وهو يمد اليه ورقة :

– خذ ، هذا . على أية حال ، انني أشير على الأمير أن يمضي الى موسكو طالما انه مريض . انني ذاهب بنفسي في هذه اللحظة . قل له . . .

ولم يستطع الحاكم ان يتم جملته : دخل ضابط غارق في عرقه يغطيه الغبار واندفع الى الحجرة معلناً له بالفرنسية نبـــأ جعله يشحب من الفزع . قال لألباتيتش وهو يصرفه بإشارة من رأسه :

– إذهب :

وراح يستجوب الضابط .

راحت نظرات متعطشة الى الأنباء يقلقها الفزع والعجز تستفسر الباتيتش عند خروجه من المكتب . اندفع الرجل الى الخان مسرعاً وهو يصيخ السمع رغماً عنه الى طلقات الرصاص القريبة الآخذة بازدياد . كانت الورقة التي يحملها من الحاكم تحوي على الأسطر التالية :

« أستطيع ان اؤكد ان مدينة سمولنسك لاتتعرض لأي خطر وان من المشكوك فيه ان تُهـدد أبداً . ان الأمير باجراسيون من جهة وانا من الجهة الاخرى ، نمشي لنربط قواتنا ببعضها أمام سمولنسك . وسيقوم الاتصال في الثاني والعشرين من الشهر الحالي وسيدافع الجيشان بعد ضم مجموع قواهما عن مواطنيهما في الاقليم الموكل اليك حتى تبعد جهودهما العدو عن الوطن أو تبيد

صفوفه وفيرة العدد الى آخر جندي . فأنت اذن كما ترى مطلق الحق في طمأنة سكان سمولنسك لأنهم عندما يكونون محميين من قبل جيشين على هذا الجانب من البسالة فانهم يستطيعون ان يكونوا واثقين من النصر . » (أمر يومي من باركلي دوتوللي الى حامل سمولنسك المدني البارون آسش ١٨١٢ .)

كان الشعب يتزاحم في الشوارع وهو فريسة القلق .

وكانت عربات محملة بالآنية والكراسي والصناديق تخرج في كل لحظة من أروقة المنازل . وأمام البيت الذي بالقرب من مسكن فيرابونتوف ، وقفت عربات تحمل أثاثاً ونساءً يتوجعن وعبارات الوداع ترتفع مزمجرة ، بينما راح كلب ينبح بين قوائم الخيول .

دخل الباتيتش بخطوات اسرع من المألوف الى المرآب الذي أودع فيه عربته وجياده وكان الحوذي نائماً فأيقظه وأمره بان يجهز عربته ثم مضي الى البيت . تناهت الى أسماعه من غرفة المدير أصوات بكاء أطفال ونحيب نساء يفتت الأكباد وصوت فيرابونتوف الغاضب الأبح . وعندما دخل الباتيتش ، كانت الطاهية تجري في الدهليز كالدجاجة المذعورة .

ـ لقد ضربها ، السيدة ، لقد ضربها حتى الموت ! . . . آه ! المسكينة ، كم ضربها وكم جرها !

استفسرها الباتيتش :

ـ ولماذا ؟

لأنها سألته الذهاب . انها امرأة وهذا يفهم تماماً . « خذني ، لا تدعني اموت مع أطفالي لان كل الناس يذهبون فماذا تنتظر ؟ » هذا كل ما قالته له فراح يضربها . آه ! كم ضربها وكم جرها !

هز الباتيتش رأسه بحركة نصف مؤيدة وتوجه نحو الغرفة المقابلة لغرفة المدير وهو قليل الرغبة في الاستزادة من المعلومات وكان قد أودع مشترياته تلك الغرفة .

وفي اللحظة نفسها ، افلتت من الغرفة امرأة شاحبة ممتقعة تحمل طفلاً على يديها وقد تمزق شالها واندفعت نحو السلم المؤدي الى الفناء وهي تصيح :

– سفاك ! قاتل !

وخرج فيرابونتوف بدوره فلما رأى الباتيتش ، اعاد النظام الى صدرته وشعره وتثاءب ثم راح يقفو أثره . سأله :

– هل عزمت على الرحيل ؟

استفسره الباتيتش دون ان يجيبه او حتى ان ينظر اليه عن المبلغ الذي يدين به اليه واستمر يجمع مشترياته .

– لن نختلف . . . ولكن قل لي هل رأيت الحاكم ؟ ماذا قرروا ؟

اجاب الباتيتش ان الحاكم لم يجبه اجابة صريحة .

– هل يمكن نقل أشياء كأشيائي أنا ؟ انهم يسألون سبعة روبلات على كل عربة الى دوروجوبوج فقط . باالكفرة ! لقد كان سيليفانوف مجدوداً : لقد باع منذ يوم الخميس دقيقه الى الجيش لقاء تسعة روبلات للكيس الواحد . . . سوف تتناول الشاي على أية حال ؟

وبينما كانوا يقطرون الخيول راح الصديقان يشربان الشاي وهما يحاضران عن أسعار الحنطة والحاصلات الزراعية والوقت المناسب للحصاد .

قال فيرابونتوف وقد نهض بعد ان احتسى اقداحه الثلاثة :

– يعتقد ان العدو قد خيم . يظن ان الغلبة لرجالنا . لقد صدقونا القول عندما أكدوا انهم لن يدعوهم يدخلون . اننا الأكثر قوة أليس كذلك ؟ . . . يبدو لي ان ماتفي ايفانوفيتش بلاتوف قد القى بهم ذلك اليوم الى مارينا ولقد غرق على مارووا ثمانية عشر الفاً في يوم واحد .

جمع الباتيتش مشترياته وأعطاها الى الحوذي الذي دخل في تلك اللحظة ثم سوى حسابه مع صاحب الخان . وامام الباب الخارجي سمعت أصوات العجلات

ووقع الحوافر ودندنة الجلاجل اذ كانت العربة حينذاك تخرج من الفناء .

كان بعد الظهر قد أوغل في التقدم والظل يغمر نصف الشارع وبينما النصف الآخر تضيئه الشمس بقوة . القى الباتيتش نظرة من النافـذة وخرج وفجأة سمع على البعد صفير غريب لم يلبث بعده ان دوت زمجرة المـدافع متطاولة حتى اهتز لها الزجاج .

وبينما كان الباتيتش يصل الى الشارع ، مر رجلان يركضان باتجاه الجسر . وراح الصفير ينبعث من نواح مختلفة وصوت القذائف المكتوم وانفجار القنابل. بيد ان هذا الضجيج ما كان يجتذب انتباه السكان بمثل ما يجتذبه قصف المدافع الذي بات مستشرياً حول المدينة . لقد شرعت مائة وثلاثون قطعة مدفعية بقصف مـدينة سمولنسك بناء على أمر نابوليون منذ الساعة الخامسة . الا ان سكان المدينة لم يدركوا للوهلة الاولى مدى الخطر .

أيقظ سقوط القنابل والقذائف بادىء الأمر فضول السكان . صمتت زوجة فيرابونتوف فجأة وهي التي ظلت حتى تلك اللحظة تتوجع في المرآب ومضت الى الباب الخارجي وطفلها على ذراعيهـا ووقفت هناك لاتحير ولا تنظر الى الجمهور بعينين شاخصتين وتصيخ السمع الى الضجيج .

وجاء مستخدم الدكان والطاهية يلحقان بها وراحوا جميعاً يحاولون رؤية المقذوفات التي كانت تمر فوق رؤوسهم بفضول مفرط . وعند زاوية الشارع ، ظهر بعض الأشخاص يتداولون . بحميا . كان أحدهم يقول :

– كم هو قوي ! فالسطح والسقف كله أصبح حطاماً .

وكان الثاني يقول وهو يضحك :

– انه يحرث الارض كالخنزير بخطمه . انه عمل جميل يجعل القلب يهبط الى البطن . لو أنك لم تقفز جانباً لسوّى امرك !

راح هؤلاء يروون لأشخاص استوقفوهم كيف ان القنابل سقطت على دورهم

قريبه منهم . وفي تلك الأثناء استمرت المقـــذوفات بوشوشة مقتضبة محزنة والقذائف بصفير مقبول تطير فوق الرؤوس دون ان تسقطاحدها في الامكنة المجاورة . صعد الباتيتش الى عربته يشيعه مضيفه .

صرخ هذا بالطاهية ذات « التنورة » الحمراء التي ذهبت الى زاوية الشارع لتصغي الى ما يقولون وقد شمرت عن ساعديها وأثبتت قبضتيها على وركيها :

– الم تفرغي من « البصبصة » ? الم تري بعد شيئاً ?

وكانت هذه تقول :

– هل مثل هذه الأشياء ممكنة بالله ?

لكنها عندما سمعت صوت سيدها ، عادت وهي تجر « تنورتها » المشمرة .

ومن جديد ، سمع صفير قريب هذه المرة ثم ، كالعصفور الذي يهوى فجأة انبعث بريق وسط الشارع أعقبه زمجرة انفجار وزوبعة دخان حجبت كل ما يجاورها .

وصرخ صاحب الخان وهو يهرع لنجدة الطاهية :

– ألن تنتهي ، يا الأجرام !

وبنفس اللحظة ، ارتفعت صيحات نساء معولة من جهات مختلفة وراح الطفل الصغير يبكي مروعاً واجتمع حشد من الناس الصامتين ممتقعي الوجوه حول الطاهية التي كانت زمجراتها وصيحاتها تطغى على كل ضجيج :

– اوه ! اوه ! ياأصدقائي الطيبين ، ياحماماتي لدى الرب الكريم ! لاتدعوني أموت ! اوه ! اوه ! يا أصدقائي الطيبين ! ..

وفي غضون خمس دقائق ، لم يبق أحـد في الشارع . ونقلت الطاهية التي حطمت شظية القنبلة أحد أضلاعها الى المطبخ . أمـا الباتيتش وسائقه وزوجة فيرابونتوف وأولادها وخادم الاصطبل ، فقدلجأوا الى القبوا وراحوا يصيخون السمع . وكانت صيحات الطاهية تطغى على دوي المـدفع وصفير القنابل اللذين

لم يتوقفا قط . وكانت زوجة صاحب المنزل تهدهد طفلها وتهدئه تارة وطوراً تسأل كل وافد بصوت من اعتاد الأنين أنباء عن زوجها الذي بقي في الخارج فأبلغها مستخدم الدكان ان زوجها اتبع الجمهور الذي ذهب الى الكاتدرائية حيث عمدوا الى رفع عذراء ممولنسك صاحبة المعجزات .

صمتت المدافع عند الغسق فخرج الباتيتش من القبو ووقف على العتبة كانت السماء المضيئة منذ حين قد اظلمت بفعل الدخان الكثيف الذي راح هلال القمر الجديد المرتفع عند الافق ، يلقي خلاله ضياء غريباً . اعقب صمت حزين ورعود فوهات النار لم تعكره الا أصوات خطى مكتومة وزمجرات وصيحات بعيدة والطقطقة التي تنجم عن الحرائق . وكفت الطاهية عن ارسال أناتها وراحت أعمدة من الدخان الاسود تعصف ذات اليمين وذات الشمال والجنود التابعون لمختلف الاسلحة يفرون في مختلف الاتجاهات حتى ليقال انهم مملكة نمل مدمرة . دخل بعضهم فناء بيت فيرابونتوف في حين مضى الباتيتش الى الباب الخارجي فاذا بفوج كامل يتقهقر في فوضى شاملة .

صاح به ضابط لمح شبحه وهو في طريقه :

— اذهب ، اذهب بأكثر سرعة فالمدينة تستسلم .

وأضاف مخاطباً رجاله :

— وأنتم ، سأعلمكم كيف تدخلون الافنية !

عاد الباتيتش الى النزل وصرخ بحوذيه ان يتأهب للرحيل . ولقد غادر عدد من آل فيرابونتوف ومستخدميه فخرجوا في أعقاب الرجلين . ولما رأت النساء الدخان والسنة اللهب التي باتت أكثر ظهوراً في الليل ، رحن يطلقن شكاواهن بعد ان لبثن صامتات حتى ذلك الحين فردت نساء أخريات بالمثل من طرفي الشارع . وكان الباتيتش وحوذيه يحاولان تحت الطنف ان يخلصا بأيديهما المرتعدة الصروع والجاور المتشابكة .

ولما خرجت العربة الى الشارع ، شاهد الباتيتش في دكان فيرابونتوف المفتوحة حوالي عشرة جنود يتنادون بصوت مرتفع ويملأون أكياسهم بالدقيق وحب دوار القمر . وفي تلك اللحظة بالذات ، عاد فيرابونتوف من الخارج . ولما شاهد الجنود ، كاد ان يطلق صرخات لولا انه فجأة امسك بشعره بقبضتيه وراح يطلق ضحكة مشفوعة بالنحيب .

زمجر وهو يمسك بنفسه الأكياس ليلقي بها الى الشارع :

– خذوا كل شيء أيها الفتيان ! لا تتركوا شيئاً لهؤلاء الشياطين !

لاذ بعض الجنود المزعورين بالفرار بينما استمر الآخرون يملأون أكياسهم ولما شاهد الباتيتش ، صاح فيرابونتوف :

– ضاعت ، روسيا ، ضاعت ! .. سأضرم النار في كل مكان ..

وأخذ يردد وهو يندفع في الفناء :

– ضاعت روسيا ! ..

سدت موجات الجنود المستمر الشارع في وجه الباتيتش فلم يستطع التقدم وكانت زوجة فيرابونتوف محمولة فوق عربة مع أطفالها تنتظر ان يتسنى لها المرور .

كان الظلام قد خيم تماماً وهلال القمر يرى في السماء ذات النجوم خلال ستر من الدخان . وفي المنحدر الى الدنيبر ، اضطرت العربتان اللتان كانتا تتبعان رتل العربات والجنود بمشية بطيئة الى التوقف من جديد . كانوا في ضاحية اشتعلت النيران في بيت ودكاكين غير بعيدة وراحت تحترق . وكان اللهب يخبوا تارة ويضيع في سحابة سوداء من الدخان وطوراً يلمع من جديد فيضيء وجوه الاشخاص المتدافعين عند الناصية بوضوح خيالي . وراحت أشباح سوداء تمر أمام المحرق وصيحات وخطى وأصوات ترتفع خلال طقطقة الحريق المتواصلة ترجل الباتيتش ولما رآى ان الطريق لن يخلو في برهة وجيزة ، تسلل الى الشارع

ليتأمل الكارثة عن قرب . وكان الجنود يغـدون ويروحون أمام المحرق ، فشاهد اثنين منهم يساعـدهم رجل ذو معطف من نسيج خشن ، يجرون أعمدة محترقة الى فناء مجاور في حين راح آخرون يأتون « بأغمار » من القش .

اقترب الباتيتش من جمهرة كبيرة وقفت أمام مستودع ضخم كانت النار فيه على أشدها والجدران كلها تحترق في حين أخذ الجدار الخلفي ينهار . وتهاوى السقف ذو الالواح الخشبية الرقيقة وراحت الأخشاب تلتهب بينما بدت الجماهير كأنها تنتظر ان يشمل الانهيار كل شيء فانضم الباتيتش اليها .

صاح به فجأة صوت معروف :

– الباتيتش !

أجاب وقد عرف فجأة صوت سيده الشاب .

– ياصاحت السعادة !

كان الأمير آندريه متشحاً بمعطف ممتطياً صهوة جواد أدهم ، ينظر اليه من فوق رؤوس الجماهير .

سأله :

– ماذا تعمل هنا ؟

– صاحب .. صاحب .. السعادة ..

وانخرط الباتيتش في البكاء :

– ياصاحب .. ياصاحب .. هل ضعنا حقاً ؟ آه ! ابانا ..

كرر الأمير آندريه :

– ماذا تفعل هنا !

كشف التماع مفاجىء من اللهب لعيني الباتيتش وجه الأمير الشاب الشاحب المتقلص . روى له كيف أرسل الى سمولنسك والعقبات التي صادفها في طريق العودة . ثم سأله مرة اخرى :

– قل لي ياصاحب السعادة ، هل ضعنا حقاً ؟

ودون ان يجيبه ، أخرج الأمير آندريه دفيتره فانتزع منه صفحة و كتب مستنداً الى ركبته الكلمات التالية بالقلم الرصاص موجهة الى اخته :

« ان سمولنسك تستسلم . سوف يحتل العدو ليسيياجوري قبل ثمانيـة أيام اذهبوا من فوركم الى موسكو . اعلميني عن تاريخ رحيلكم بارسال رسول سريع الى « اوسفياج » فور استلامك هذه الاسطر . »

وبعد ان سلم الرقعة الى الباتيتش انهى اليه تعليماته شفهياً حول سفر الأمير واخته وابنه والمدرس والطريقة التي ينهون اليه فيها جواباً سريعـاً . ولم يكد يفرغ من حديثه ، حتى اندفع نحوه ضابط من الاركان تصحبه حاشية . هتف القادم الذي عرفه آندريه من لهجته الألمانية :

– أنت زعيم ؟ انهم يشعلون الحرائق بحضورك وتدعهم يفعلون ! ما معنى هذا ؟ سوف تسأل عن هذا ..

كان ذاك هو بيرج . نائب القائد الأعلى للجناح الايسر لمدفعية الجيش الأول وهو « مركز مستحب جداً ومرموق » كما كان يقول .

نظر اليه الأمير ودون ان يتنازل بالرد عليه ، انهى حديثه الى الباتيتش :

– وهكذا اذن ستقول انني انتظر رداً حتى غاية العاشر من هذا الشهر . فاذا لم اتلق حتى ذلك التاريخ جواباً يشعر كل من في ليسيياجوري قد ارتحلوا ، فانني سأترك كل شيء وأحضر بنفسي الى هناك .

قال بيرج الذي عرفه حينذاك :

– اذا كنت أحدثك على هـذا النحو يا أمير فما ذلك إلا لأن علي ان انفذ الأوامر . وأنا انفذها دائماً بكل دقة .. أعذرني أرجوك .

ارتفع صوت أشياء تتحطم بين اللهب الذي بدا و كأنه خبا وراحت عواصف من الدخان الاسود من السقف . وبعد دوي فظيع ، انهار جانب كبير من البناء .

زمجر الجماهير مستقبلة انهيار سقف المخزن :

– بو .. وم ! ..

وانتشرت رائحة خبز محروق ثم انبعث اللهب فأضاء وجوه النظارة المنهكة ولكن القريرة .

هتف الرجل ذو المعطف الخشن وهو يرفع ذراعيه في الهواء :

– مرحى ! انه يزداد اشتعالاً . مرحى أيها الفتيان !

وقالت الاصوات :

– انه المالك نفسه .

سأل الأمير آندريه الباتيتش :

– اذن ، مفهوم ؟ كرر لهم هذا القول كما رويته لك ..

ودون ان يعير بيرج الواقف الى جانبه صامتاً التفاتاً ، دفع حصانه واختفى في الشارع الضيق .

★ ★ ★

الفصل الخامس

رسالة باجراسيون

بعد سمولنسك ، ظلت قواتنا تتراجع تحت ضغط العدو . وفي العاشر من آب ، كان الفوج الذي يقوده الأمير آندريه ، يمر بالطريق الكبير قرب الممشى المؤدي الى ليسيياجوري . وكان الجفاف والحرارة مستمران منذ اكثر من ثلاثة أسابيع والغيوم الكبيرة البيضاء تجري على أديم السماء نهاراً أشبه بقطيع الخراف لتتبدد قبل المساء وتختفي الشمس بين أبخرة سمراء تشوبها الحمرة . فكان ندى الليل السخي وحده يرطب الارض . أما القمح الذي لازال فوق سوقه ، فكان يحترق وتنفرط سنابله والمستنقعات تجف والقطعان تجأر من الجوع ولا تجد في المروج المتفحمة شيئاً تأكله . وكانت الرطوبة تهبط ليلاً في الغابة وتستمر ما استمر الندى . أما على الطريق الذي كان الجيش العرم يسلكه ، فان تلك الرطوبة لم يكن لها وجود حتى أثناء اجتياز الغابات لأن الندى كان يختفي هناك وسط الغبار الذي تنشره الخطى عاصفاً الى ارتفاع أكثر من نصف قدم . كانوا يبدأون السير منذ الصباح الباكر والقوافل والمدفعية المتقدمة دون جلبة تغوص حتى محاور العجلات ، والرجال حتى الكعاب في ذلك الغبار الرخو الخانق الذي ما كان يبرد حتى في الليل ، والذي يرتفع ما لم يحف منه بالاقدام والعجلات على شكل سحابة كثيفة فوق القطعات فيتخلل العيون والشعر والآذان والانوف

وبصورة خاصة رئات الرجال والجياد . وكلما ازداد ارتفاع الشمس عن الافق ازداد هذا الستار كثافة حتى ليسمح للعين المجردة ان تحدق في الشمس التي تبدو خلاله أشبه بكتلة كبير قانية . ولم تكن نأمة ريح لتهب على ذلك الجو الساكن الذي يكاد الرجال ان يختنقوا فيه فكان يتوجب السير والمنديل فوق الانف والفم . وعندما يجتازون قرى ، كانو يتهافتون الى الابار ويتدافعون للحصول على الماء الذي يعضون في نضحه حتى يخلفوا الطين وحده .

وكان الامير اندريه مستغرقاً بكليته في قيادة فوجه ومشاغل راحة رجاله وضرورة تلقي الاوامر واصدارها ، ولقد وسم حريق سمولنسك والانسحاب منها تلك الحقبة من حياته بميسم لايبلى واخذ شعور جديد بالحقد على العدو يعتلج في نفسه وينسيه همه ، كان يستسلم الى مشاغله بكليته ويظهر حيال ضباطه وجنوده مفعم النفس بالأنس والترفق فكانوا يسمونه « اميرنا » ويحبونه ويفخرون به ، وكان عطفه وحسن التفاتته مقتصراً على رجال فوجه ورجال تيمو خين وغيرهم ممن هم جديدون كل الجدة عليه ، تابعون لوسط آخر لايقدرون على معرفته ولا فهم ماضيه ، لكنه ما ان يلتقي بمن هم من وسط القديم او بواحد من السادة التابعين للاركان ، حتى ينفر فجأة ويصبح سريع الغضب مستهزئاً متعالياً ، كان كل مايذكره حياته السابقة ينفره . مع ذلك ، فقد كان في علاقاته مع اشخاص عالمه ، يتحرى حدود الواجب والعدالة الاكثر دقة وتمحيصاً .

والحق يقال ان كل شيء بات يمثل لعينيه تحت اكثر الألوان حلكة وبصورة خاصة منذ السادس من آب ، يوم مغادرة سمولنسك التي - بحسب رأيه - كان يمكن ويجب الدفاع عنها ومنذ ان اضطر ابوه المريض الى الفرار الى موسكو تاركاً ليسيا جوري العزيزة عرضة للسلب والنهب ، بعد ان نظمها وعنى بها واقام فيها الأبنية على أفضل وجه ، لكن فوجه كان هذه المرة ايضاً

بمثابة محول لانشغالاته الكئيبة ، وفي العاشر من آب ، وصل الرتل الذي كان فيه الى حذاء ليسيا جوري وقد تلقى قبل يومين نبأ مفاده ان اباه واخته وابنه غادروها الى موسكو،وعلى الرغم من انه لم يكن لديه مايفعله هناك ، فقد قرر ان يمر بالمكان لانه كان من أولئك الذين لايتركون فرصـــة بعث احزانهم وازكائها تمر دون انتهازها .

أمر ان يسرج جواده ومضى من نقطة الحلول الى الارض القديمة التي ولد فيها وأمضى صباه ، وبينما هو يسير على طول المستنقع الذي درجت العادة على ان يجتمع حوله ثول من النساء بين غاسلات وضاربات بالمخباط البستهن وهن يثرثرن ، لاحظ ان رمث الغسلات المفصول عن الشاطيء ونصف الغائص في الماء ، عائم وسط المستنقع ، وعندما وصل الى بيت الحارس قرب المدخل الكبير ، لم ير أحداً لكنه وجد البوابة مفتوحة ، وكانت الاعشاب نابتة في مماشي الحديقة والعجول والخيول تطوف بالحديقة الانجليزية ، وعدد من زجاج بستان البرتقال محطماً وبعض الشجيرات المغروسة في صناديق خاصـــة منقلباً والبعض الآخر يابساً ، نادى آندريه البستاني تاراس ، لكنه لم يتلق رداً ، دار حول حديقة البرتقال فبلغ الشرفة ورأى ان دائرة الالواح الخشبية الرقيقة التي يعمل فيها كل يوم كانت محطمة وانهم كسروا اغصان أشجار الخوخ للحصول على الفاكهة . وكان كهل تذكر اندريه انه رآه في طفولته قرب الباب الكبير ، يضفر « قلشيناً » وهو جالس فوق المقعد الاخضر الذي كان الامـير يفضله وكبب لحاء القنب معلقة الى اغصان شجرة مانولية محطمة وجافة ، كان العجوز اصماً فلم يشعر قط باقتراب سيده .

اخيراً وصل الأمير اندريه الى البيت ، كانوا قـد قطعوا بعض اشجار الزيزفون من الحديقة القديمة وراحت فرس بلقاء ومهرها يطآن بقوائمهما مجموعة اشجار الورد ، وكانوا قد اغلقوا النوافذ بتثبيت المصاريع الا واحدة في الدور

الاسفل كانت مفتوحة ، ولدى رؤية الأمير ، اندفع غلام الى داخل البيت ليخطر الباتيتش الذي ظل وحده في ليسيبيا جوري بعد انرحل اسرته ،وكان هذا جالساً يقرأ حياة القديسين ، فلما علم بقدوم الأمير اندريه، خرج من البيت وهو يزر سترته واقترب من الامير مسرعاً ونظارتاه على انفه وانخرط باكيا وهو يقبل ركبتيه دون ان ينطق بكلمة .

ثم اشاح وهو شديد الندم على اظهار ضعفه وراح ينهي اليه تقريره عن الوضع ، لقد حملت كل الاشياء الثمينة الى بوجو تشاروفو التي نقلوا اليها كذلك القمح حوالي مائتي كنتال [1] . اما العلف وقمح الربيع وهو محصول رائع كما راح يؤكد الباتيتش ، فقد أخذ وهو لايزال غير ناضج واحتشته القطعات ،اما الفلاحون فقد نُكبوا ، ولقد نزح بعضهم الى بوجو تشاروفو ،اماالعدد الاكبر فقد ظل في مكانه .

سأله اندريه دون ان يدعه يسترسل :

– متى ذهب ابي واختي ؟

وكان يعني بسؤاله : الى موسكو ، الا ان الباتيتش اعتبر انه انما يعني : بوجو تشاروفو ، فاجاب بأنهم ذهبوا يوم ٧ آب ، وراح من جديد يشرح مسائل الارض ويسأله التعليمات .

– هل تأمر بان اسلم القطعات لقاء ايصال العلف الذي بقي لدينا ؟ لايزال عندنا الف ومائتا كنتال .

تساءل اندريه : « ماذا يجب ان اقول له ؟ » وكان يتأمل جمجمة الكهل الاصلع وهي تلتمع تحت الشمس ويقرأ على وجهه انه رغم ادراكه عدم لياقة مثل هذه الاسئلة انما يطرحها ليكبت المه .

---

(١) الكنتال : مائة كيلو غرام

ـ نعم ، سلمهم .

استرسل الباتيتش :

ـ لابد وانك لاحظت الفوضى الشاملة في الحديقة ، لاسبيل الى منعها ، لقد أمضى الليل هنا جنود ثلاثة افواج ، ومعظمهم من الفرسان الفرنسيين ، ولقد سجلت اسم قائدهم ورتبته لأتقدم بالشكوى .

سأله الامير آندريه :

ـ وماذا انت عازم عمله ؟ هل ستبقى اذا جاء العدو ؟

التفت الباتيتش الى سيده ونظر اليه في عينيه وفجأة رفع يده الى السماء بحركة جليلة وقال :

ـ انه هو الذي يحميني فلتكن مشيئته !

أخذ فريق من الفلاحين والخدم حاسري الرؤوس ، يتقدمون فوق الأرض المعشوشبة باتجاه الأمير آندريه . قال هذا وهو ينحني نحو الباتيتش :

ـ هيا ، الوداع ! اذهب أنت الآخر واحمل ما تستطيع حمله وقل للقرويين ان يلجأوا أما في أرضنا في ريازان وأما في البيت الريفي قرب موسكو .

ضم الباتيتش نفسه وهو ينتحب الى ساق سيده فأزاحه آندريه بلطف وهمز حصانه وانحدر جارياً فوق الممشى .

وعلى فسحة حديقة البرتقال ، وبمثل لامبالاة الميت بذبابة سقطت فوق وجهه ، استمر الكهل يربت على « قلشينه » المثبت فوق القالب . والتقت فتاتان صغيرتان شمرتا عن اذيال ثوبيهما الذين ملأتاهمـــا بالخوخ الذي جنتاه من أشجار بستان البرتقال وجهاً الى وجهه مع سيدهما الصغير . فلما وقعت ابصارهما عليه ، أمسكت كبراهما سناً بيد رفيقتها وقد استبد بها الرعب وجرتا تختبئان وراء شجرة سندر وقد تركتا الخوخ الفج يسقط منهما .

اسرع الأمير آندريه فأشاح بوجهه كيلا يشعرهمـا بأنه رآهما . كان يحس

بالاشفاق على تلك البنية الصغيرة الجميلة ذات الامارات المروعة التي ماكان يجرأ على النظر اليها رغم رغبته الملحة . استحوز عليه شعور جديد مرح ومسكّن لدى رؤيته تينك الطفلتين ذلك انه ادرك وجود مصالح في الحياة تختلف عن مصالحه ، مصالح طبيعة جدا . لم يكن لهاتين الطفلتين الا رغبة واحدة : حمل خوخهما الفج دون ان يمسكهما احد والتهامه باطمئنان . فلم يكن الأمير آندرية أقل منهما رغبة في نجاح مشروعهما . لم يستطع اخيراً ان يتمالك نفسه فنظر اليهما مرة اخرى . كانت تعتبران انهما خرجتا عن نطاق الخطر فرفعتا ذيول ثوبيهما من جديـــد بعد ان خرجتا من مخبئيهما وراحتا تثبان فوق أسوقهما الدقيقة وتظهران فوق الارض المخضرة تزقزقان بصوتيهما العذبين .

كان آندرية قد ترطب قليلاً . بخروجه من غبار الطريق العام لكنه عاد الى طريق غير بعيد عن ليسيياجوري ولحق بفوجـه الذي كان قد توقف عند مستنقع صغير . وكانت الساعة الثانية بعد الظهر والشمس ، دائرة حمراء خلال الغبار ، تشوي الظهر بشكل لايحتمل خـــلال قمـاش البزات الأسود والغبار ، وهـــو أبداً على كثافته المعروفـــة ، يحوم فوق القطعات المتوقفة على شكل طبقة ساكنة تضم دوي الاحاديث المتبادلة والريح ساكنة لاتتحرك . وبينما الفوج يمر فوق السد ،اذكت الرطوبة ورائحة الوحل المترسب المتصاعدتان من المستنقع في نفس الأمير آندريه الرغبة في الارتماء في الماء مهما كانت قذرة . وانبعثت من المستنقع ضحكات وصرخات. لقد بدا ذلك المستنقع المخضوضر وكأن مياهه ارتفعت ثلاثين سنتيمتراً وكادت ان تغرق السد لكثرة الاجساد البيضاء العارية التي امتلأ بها والتي كانت الأعناق والأيدي والوجوه الحمراء بلون القرميد تظهر فوقها بوضوح لتنافر اللون . وكانت هذه الأجساد كلها تتخبط بين الضحكات والأصوات ، وسط تلك الحفرة الموحلة أشبه بقبضة

من السميكات احتجزت في مسقاة . وكان ذلك الحمام البهيج في تلك السعة يثير في النفوس أفكاراً تمتاز بكآبتها .

تراجع جندي شاب أشقر كانت ربلته محاطة بإسار عرف فيه آندريه جندياً من الفصيلة الثالثة ، ورسم على صدره اشارة الصليب ثم غطس وراح صف ضابط شديد السمرة أزب غارق في الماء حتى وسطه ، يدير جذعه العاضل ويغتسل مستعيناً بذراعيه الاسودين حتى الرسغ في سفح الماء على رأسه . كان كل هؤلاء يصرخون ويتراشقون بالماء ويتبادلون الاقوال اللاذعة .

وعلى الشطئان وفوق السد وفي المستنقع وفي كل مكان كانت الاجساد البيضاء السليمة العاضلة منتشرة . وكان تيموخين ، الضابط ذو الانف الصغير الأحمر يجفف جسده بنشفة رغم ارتباكه لدى رؤية الأمير ويقول له :

ـ ان هذا ينشط ياصاحب السعادة . كان يجب ان تنتهز الفرصة .

قال الأمير آندريه وهو يصعر خده .

ـ ان الماء بالغ القذراة .

فعرض تيموخين قائلًا :

ـ سوف ينظفون لك ركناً .

وراح وهو في عريه الطبيعي يجري لاعطاء الاوامر للمستحمين :

ـ ان الأمير يريد ..

هتفت أصوات كثيرة :

ـ أي أمير ؟ أميرنا ؟

واندفعوا جميعهم متزاحمين حتى ان آندريه وجد صعوبة كبيرة في تهدئتهم واستحضار ماء نظيف الى المكادس حيث يستطيع الاغتسال بأكثر راحة .

حدث نفسه وهو ينظر الى جسمه العاري ويرتعد من البرد أقل من ارتعاده تحت وطأة شعور غامض بالاشمئزاز والهول اثارته في نفسه رؤية تلك الاجساد

المتخبطة في الماء الضحل : « هذا الجسد . لحم للمدفع ! »

★ ★ ★

في السابع من آب ، كتب الأمير باجراسيون من مخيمه في ميخائيلوفكا الى أراكشييف رسالة كان متأكداً من ان الامبراطور سيقرأها لذلك فقد وزن العبارات بالقدر الذي استطاعه على الأقل .

« سيدي الكونت الكسيس اندرييفيتش العزيز .

« اظن ان الوزير قد رفع اليك تقريره حول اخلاء سمولنسك وتركها للعدو . انه حدث مؤلم شاق يأسف الجيش كله له أيما أسف لأن اكثر مدننا أهمية قد سلمت دون أي مبرر . انني من جانبي توسلت اليه بالحاح شديد سواء عن طريق القلم أو الشفه ولكن ما من شيء استطاع اقناعه . انني أصرف لك كلمتي على ان نابوليون كان محصوراً وكأنه في كيس وانه كان سيضيع نصف جيشه دون ان يستطيع احتلال سمولنسك . ولقد قاتلت قواتنا ولا زالت تقاتل ببسالة نادرة . انني شخصياً أوقفتهم بخمسة عشر الف رجل اكثر من خمس وثلاثين ساعة ثم هزمتهم . أما هو ، فانه لم يشأ الصمود حتى ولا أربع عشر ساعة . أنها وصمة وعار بالنسبة الى جيشنا يخيل الي بعد . واذا أعلمكم بان خسائرنا جسيمة فقوله ليس صحيحاً : انها تبلغ أربعة الاف رجل على الأكثر . بل انها ولو كانت عشرة الاف ، فأية أهمية ؟ انها الحرب . ان خسائر العدو بالمقابل جسيمة .

« ماذا كان يكلف القاء يومين آخرين ؟ كانوا سيتقهقرون على أقل تقدير لأنه لم يكن ليتبقى لديهم ماء لهم ولا لخيولهم لقد وعدني بأنه لن يتراجع به فجأة يرسل الي قراراً يقول فيه انه راحل خلال الليل ان الحرب لا تخاض على هذا النحو . أننا بهذا الشكل ، لن نلبث حتى نستقدم العدو الى موسكو .

« ان الاشاعات تروج حول تفكيركم في الصلح . الا ليجنبكم الله هذا التفكير ! ان نعقد الصلح بعد كل هذه التضحيات والتراجع السخيف ! انكم بذلك تتعرضون

لروسيا كلها وسيخجل كل منا ان يرتدي البزة . اننـا في الوضع الذي نحن فيه يجب ان نقاتل ما استطاعت روسيا القتال وما بقي رجل على قيد الحياة .

« يجب ان يقود رجل واحد وليس اثنان . لعل وزيركم ممتاز في وزارته . أما بوصفه جنرالاً ، فانه غيرناجح أبداً . ولقد أودع مصير وطننا بين يدي رجل من هذا النوع .. انني أثور وأكاد أجن ، فارجوان تغفروا لي جرأة هذه الكلمات ان ذلك الذي يشير بالصلح ويريـــد ان يقود الوزير الجيش ، رجل لايحب امبراطوره ويرغب في خسراننا .. انني أقول لك الحق : سلح المتطوعين بسرعة لأن الوزير سوف يصحب ضيفه الى العاصمـة بشكل يناسب المقام .. ان السيد المساعد العسكري الجنرال فولزوجن يوحي بالشك في كل أوساط الجيش . انه على ما يزعمون رجل نابوليون اكثر من ان يكون رجلنا وهو المستشار الأكبر للوزير . أما أنا ، فانني لاأكتفي بان أكون مهذباً معـه فقط ، بل وأطيعه كذلك كما يطيع أي عريف رئيسه رغم انني أقدم منه . ان هذا مؤلم . لكنني اخضع حباً بمليكي والمحسن الي . الا أنني مشفق اذ سلم الامبراطور جيشنا الممجد الى أشخاص من هذا النوع. تصوروا ان أكثر من خمسة عشر الف رجل قد ماتوا من التعب أو في المستشفيات خلال تقهقرنا. فلو أننا سرنا الى الأمام لما كان يمكن ان نقع في مثل هذه الخسائر . بحق السماء ، ماذا ستقول روسيا ، امنا ، عندما تعلم باننا نخاف واننا نسلم وطننا البـاسل الطيب الى أسافل واننا نثير في قلب كل مواطن الضغينة والسخط ؟ هل هي خطيئتي اذا كان الوزير قلقاً بطيئاً غبياً ضعيف النفس واذا كان يجمع في نفسه كل الخطيئـات الممكنة ؟ ان الجيش كله لاعمل له الا البكاء وارهاقه بالشتائم . »

الفصل السادس

كوتوزوف يتسلم القيادة

بين وسائل الحياة التي لاتحصى ، يمكن ان نميز الوسائل التي ينتصر فيها الكنه على الصيغة وتلك التي على العكس تنتصر فيها الصيغة وتسيطر . وفي هذه الزمرة الاخيرة ، يمكن ان نضع مقابل حياة الريف والمراكز حتى وموسكو ، الحياة في بيترسبورج وبصورة خاصة الحياة في مجتمعاتها . انها حياة ثابتة لاتتغير اننا منـــذ عام ١٨٠٥ ما فتئنا نتصالح ثم نتخاصم مع بونابرت ونقيم الأنظمة ونسقطها . مع ذلك فان « صالوني » آنّا بافلوفنا وهيلين ظلا كما كانا عليه الأول منذ سبع سنين والثاني منذ خمس. كانوا لدى آنّا بافلوفنا يتحدثون دائماً بذهول عن نجاح بونابارت ويجدون في ذلك النجاح المتعاقب وفي مجاراة امراء اوربا له مؤامرة بشعة ضد أنس هذه الدائرة من البلاط التي تنتسب اليها ربة الدار وصفاؤها اما لدى هيلين حيث كان روميانتسيف نفسه يشرفها بزياراته ويعتبرهـا امرأة على جانب نادر من الذكاء ، فقد كانوا مستمرين عام ١٨١٢ كما كانوا عام ١٨٠٨ في التحمس للرجل الكبير والامة العظيمة ويستنكرون قطع العلاقات مع فرنسا التي يجب ان تنتهي حسب مزاعمهم بصلح قريب :

وعندما جاء الامبراطور الى بيترسبورج ، قامت حركة معينة في هـذين

الوسطين المعاكسين ودارت فيهما بعض المشاهد العدائية من جانب نحو الجانب الآخر دون ان يتبدل في الواقع ميل أحد الجانبين بالمقابل . ظلت دائرة انّابافلوفنا لا تستقبل من الفرنسيين الا المدافعين عن حق الملك الشرعي المدعوين رسمياً وتعرب عن وطنيتها بالتعريض بالمسرحي الفرنسي الذي كانوا يزعمون ان تكاليفه تبلغ تكاليف تجهيز جناح من الجيش. وكانوا يتابعون في تلك الدائرة بحميا الأحداث العسكرية وينشرون أفضل الشائعات حول موقف جيوشنا . اما في دائرة هيلين ، التي كانت دائرة روميانتسيف وانصار فرنسا ، فقد كانوا ينكرون وحشية العدو ويحاضرون حول محاولات نابليون العديدة في سبيل الصلح ويغدقون الذم على اولئك الذين نصحوا بسرعة نقل البلاط ومؤسسات التعليم التابعة للامبراطورة الام الى كازان . وكانت العمليات العسكرية تعتبرها مجرد مظاهر بسيطة يجب ان تنتهي بالصلح . ولقد غدا بيليبين من رواد هذا الوسط الاعتياديين الذين كان كل رجل فكر يلجأ الى الانتساب اليه ، وأصبح رأيه فيه قانوناً وهو أن المسألة لن تحسم بالبارود بل عن طريق اولئك الذين خلقوها . وكانوا يسخرون بأقوال طريفة ولكن بشيء من التحفظ حماس اهل موسكو ، ذلك الحماس الذي بلغت اصداؤه بيترسبورج ابان عودة الكسندر .

بيد ان العكس كان لدى انّا بافلوفنا . كانوا يمجدون هذه التظاهرات ويتحدثون عنها حديث بلوتارك[1] عن القدماء . وكان الأمير بازيل الذي لا زال يحتل مراكزه المرموقة السابقة ، يقوم بدور همزة الوصل بين الدائرتين فكان يرود دورياً « صديقتي الطيبة » انّاباڤلوفنا و « صالون ابنتي الدبلوماسي » وهذه

(١) بلوتارك : مؤرخ يوناني ولد في شيرونيه حوالي عام ٤٥ أو ٥٠ للميلاد وتوفي عام ١٢٥ درس في اثنيا سافر الى آسيا ومصر وهو مؤلف حياة ومشاهير رجال اليونان وروما .

الحركة الانتقالية الدائمة كانت غالباً ماتعرضه للأخطاء فيقع له مثلاً ان يتحـدث لدى هيلين ما كان عليه ان يقوله لدى آنّا بافلوفنا والعكس بالعكس .

بعد عودة الكسندر بقليل،راح الأمير بازيل وهو يتحـدث لدى انا بافلوفنا عن الموقف ، يحكم على باركلي دوتولي بقسوة وتساءل عمن يمكن ان يُحل محله وروى واحد من اكثر الناس ارتياداً للوسط . ذلك الذي اطلق عليه اسم « الرجل ذي الميزات الكثيرة » انه رآى ذلك اليوم بالذات رئيس متطوعي بيترسبورج ، كوتوزوف ، يرأس في ديوان الخزينة استقبال المتطوعين ، ثم أعرب بحكمه ان كوتوزوف هذا يمكن ان يكون على الضبط الرجل المطلوب.

فأظهرت انا بافلوفنا بابتسامة سويداوية ان كوتوزوف لم يسبب للامبراطور الا المكاره .

أكد الأمير بازيل قائلاً :

– لقد قلت وكررت ذلك في جمعية النبلاء لكنهم لم يصغوا اليّ . لقد قلت ان تعيينه رئيساً للمتطوعين لا يسر الامبراطور . لكنهم لم يصغوا الى قولي انها دائماً عادة التراشق وتبادل اللوم . وأمام من ؟ كل ذلك لأننا نريد الموافقة على حميات الموسكوفيين الرعناء .

وشعر الأمير بازيل انه خاط بين الامور : ذلك ان حميات الموسكوفيين التي هي موضوع سخرية دائرة هيلين يجب ان تُحمل لدى انا بافلوفنا على محمل الاطراء فأصلح خرقه بسرعة :

– هل من المناسب ان يقيم الكونت كوتوزوف أقـدم جنرالات روسيا هناك وذلك إضافة الى ما فيه من ايلام له ! هل يعقل ان يعين قائد أعلى رجل لا يستطيع امتطاء صهوة جواد ، ينام في المجلس الاستشاري،رجل متهتك فوق كل هذا ! لقد خلق لنفسه سمعة رائعة في بخارست ! انني اترك جانباً ميزاته

كجنرال . ولكن هل يمكن حقاً في هذه اللحظة الحرجة ، ان نضع على رأس جيشنا رجلا عاجزاً واعمى ، نعم ، أعمى بكل معنى الكلمة سيكون ذلك جميلًا ، جنرال أعمي ! انه لايرى شيئاً ، مطلقاً أبداً . . . ليذهب ويلعب « التغماية » !

ولم يعترض على قوله أحد .

كان هـذا الاتهام في الرابع والعشرين من تموز قائماً على أساس . لكن كوتوزوف تلقى في التاسع والعشرين من الشهر ذاته لقب أمير . لعل منح هذه الرتبة لم يكن الا كف يد بشكل مشرف ، مع ذلك فان الأمير بازيل ، رغم اعتباره وجهة نظر مشروعة ، أصبح اكثر تحفظاً . وفي الثامن من آب ، اجتمعت لجنة مؤلفة من الماريشال سالتيكوف ، اراكتشييف ، فيازميتينوف لوبوجين وكوتشوبي ، للتداول في سير الحرب العام . عزت هـذه اللجنة خسراننا الى التناحر على القيادة وعرضت رغم ما تعرفه عن نفور الامبراطور من كوتوزوف ، ان يعين هذا قائداً أعلى بعد نقاش قصير . وفي ذلك اليوم بالذات ، عُين كوتوزوف قائداً أعلى للجيوش والمناطق التي تحتلها كلها .

وفي التاسع من آب ، التقى الامير بازيل من جديد لدى انا بافلوفنا بالرجل ذي المواهب الجمه . وكان هذا يشغل منصب قيم في مؤسسة للفتيات ، ويتملق انا بافلوفنا دون كلال . دخل الأمير بازيل بامارات الرجل المنتصر الذي تحققت رغابته أخيراً .

— حسناً ! هل تعرفين النبأ العظيم . ان الأمير كوتوزوف الآن ماريشال . لقد انتهت الخلافات كلها الآن . انني مسرور بذلك ، شديد السرور ! أخيراً ها هو ذا رجل !

كذلك كان يعلن وهو يدير بالموجودين نظرة ملؤها الصرامة والأهمية .

وعلى الرغم من ان الرجل ذا المواهب الجمة كان يرغب رغبة عنيفة في الهول على مركز ما ، فانه لم يستطيع الا ان يلفت انتباه الأمير بازيل الى انه لم يتحدث دائماً على هذا النحو . وكان ذلك صدمة موجهة الى الأمير بازيل في بهو انا بافلوفنا بقدر ما هي موجهة الى المضيفة نفسها التي تلقت النبأ بسرور . لكنه لم يستطع ان يتمالك نفسه . قال وهو يذكر الأمير بتأكيد الحديث :

– لكنهم يقولون يا أميري انه أعمى .

فأجاب الأمير بازيل بشدة بصوته الخفيض الخاص وهو يسعل سعالاً خفيفاً – وتلك وسيلته في استجماع أعصابه عندما يكون مرتبكاً – :

– هيا ، انه يرى كفاية .

ثم كرر :

– هيا ، انه يرى كفاية . ان ما يسرني اكثر هو ان الامبراطور أعطاه مطلق السلطة ليس على الجيوش فقط بل وكذلك على الأراضي التي تحتلها . وهي سلطة لم يحصل على مثلها قط أي قائد أعلى .

وأعقب مستنتجاً وهو يبتسم ابتسامة المنتصر :

– انه حاكم ثان مطلق الصلاحية .

وقالت آنا بافلوفنا :

– ليساعدنا الله !

فظن الرجل ذو المواهب الجمة وهو الحديث في حياة البلاط ، ان جملة آنا بافلوفنا تلك ليست الا صدى لرأيها السابق فاستأنف رغبة منه في امتداحها :

– يزعمون ان الامبراطور لم يمنحه هـذه السلطة عن طيب خاطر . ولقـد قالوا ان وجهه تضرج كوجه آنسة تليت عليها « جوكوندا » عندما قيل له : ان المليك والوطن يحيطانك بهذا الشرف .

فقالت آنا بافلوفنا :

– لعل القلب لم يكن له دور في المسألة .

هتف الأمير بازيل الذي جعل من كوتوزوف رجله فأصبح لايطيق ان لا يحبه أحد :

– مطلقاً ، أبداً ! هذا مستحيل لأن الامبراطور عرف دائماً كيف يقدر مواهبه .

ألحت آنا بافلوفنا موحيةً برفق :

– عسى ان يتسلم الأمير كرتوزوف السلطة حتماً وان لايسمح « لأحد » ان يضع له العصي في العجلات .

ولقد أدرك الأمير بازيل من فوره ماأرادت آنابافلوفنا ان تقوله فقال بصوت خافت :

– انني أعرف من مصدر موثوق ان كوتوزوف تقدم بشرط أساسي هو استدعاء التسيزايفيتش . هل تعلمين ماذا قال للامبراطور ؟ « لا أستطيع أن اعاقبه اذا أساء التصرف ولا ان اكافئه اذا أحسن العمل » آوه ! انه رجل حاذق جداً هذا الأمير كوتوزوف . انني أعرفه منذ أمد طويل .

فأضاف الرجل ذو المواهب الجمة الذي كان اسلوب البلاط ينقصه ولاريب :

– بل انهم يقولون أيضاً ان شديد الرفعة تطلب من الامبراطور ان لايلحق بالجيش شخصياً .

وماكاد ينطق بهذه الجملة حتى أشاح الأمير بازيل وآنا بافلوفنا بحركة واحدة عنه ليتبادلا نظرة آسفة وليعيبا على تلك السذاجة المنفرة بتنهده حارة .

الفصل السابع

لافروشكا وبونابرت

بينما كانت هذه الأشياء تقع في بيترسبورج ، كان الفرنسيون يتجاوزون سمولنسك ويزدادون قرباً من موسكو . ولقد عمد تيير ككل مؤرخي سيرة نابوليون على أية حال ، الى تبريرسلوك بطله زاعماً انه اجتذب الى جدران تلك المدينة رغماً عنه . انه محق ككل اولئك الذين يبحثون في إرادة رجل واحد تفسيراً للاحداث . انه على حق لمثل الأسباب التي دفعت بعضاً من كتابنا الى الزعم ان نابوليون اجتُذب الى الأمام ببراعة الجنرالات الروسيين . ان قانون الحكم على الماضي يظهر لهم الماضي كله على اعتباره تحضيراً لحادث وقع . أضف الى ذلك ان توافقاً ما بين الاحداث يزيد كذلك في تعقيد الأمور . فاذا خسر لاعب ماهر شوط شطرنج ، اعتقد باخلاص انه أضاعها بنتيجة خطأ من جانبه فيعود الى الشوط يعيد حركاته حتى البداية ليظهر موطن الخطأ متناسياً انه ارتكب أخطاء اخرى وان ما من حركة من حركاته كاملة . فالخطيئة التي يلاحظها ، ما كانت لتلفت انتباهه لولا ان خصمه افاد منها . فكم هي أكثر تعقيداً ، لعبة الحرب التي تدور خلال ظروف زمنية معينة ،والتي لاعلاقة لارادة واحدة في ادارة الآلات الجامدة فيها بل هي نتيجة التقاء عدد لايحصى من الارادات الخاصة .

بحث نابوليون عن الاشتباك في معركة وراء دوروجو بوج قرب فيازما

بعد سمولنسك ثم في تساريفو ـ زائيميختشيه ، ولكن ، لم يتقبل الروسيون خوض المعركة الا في بورودينو على بعد حوالي ثلاثين كيلوا متراً من موسكو بنتيجة ملابسات عديدة .

ولقد كانت موسكو ، العاصمة الاسيوية لهذه المملكة الشاسعة ، المدينة المقدسة لشعوب الكسندر ، موسكو بكنائسها الكثيرة التي تشبه في بنائها هيا كل الصينيين ، تثير خيال نابوليون دون هوادة ، كان خلال المرحلة من فيازما الى تساريفو ـ زائيميختشيه ممتطياً صهوة حصانه الابيض المموه الانجليزي يصحبه كوكبة الحرس وموكب من الغلمان والاتباع والمساعدين العسكريين ولقد تخلف رئيس الاركان بيرتييه لاضطراره الى استجواب روسي أسرته الخيالة ، فلم يلبث ان لحق بالامبراطور هدباً يصحبه المترجم ليلورم ديدفيل ثم اوقف حصانه مشرق الاسارير ، سأله نابوليون :

ـ حسنا ?

ـ انه قوقازي من بلاتوف ، يقول ان افواج بلاتوف سوف تجتمع مع مجموعة الجيش وان كوتوزوف قد عين قائداً اعلى ، انه شديد الذكاء وثرثار .

ابتسم نابوليون وامر ان يعطى حصان الى ذلك القوقازي وان يمثل بين يديه : لقد كان يرغب في استجوابه شخصياً ، هدب عدد من المساعدين العسكريين خيولهم وبعد ساعة ، اقترب المملوك لافروشكا الذي تخلى عنه دينيسوف لروستوف من نابوليون مرتدياً سترة ، معتلياً سرجاً فرنسياً ، بوجهه المرح ، الكيّس الثمل ، سمح له الامبراطور ان يسير على قدميه بجانبه وطرح عليه بعض الاسئلة :

ـ هل انت قوقازي ?

ـ قوقازي ياصاحب النبالة .

قال تيير وهو يروي هذه الحادثة : « لم يكن القوقازي يعرف الشخصية التي كان يسير الى ركابها لان بساطة نابوليون لم يكن فيها مايوقظ في خيال شرقي وجود مليك ، لذلك فقد تحادث معه عن مشاكل الحرب الحاضرة بأقصى ماتبلغ اليه الالفه . »

والحقيقة ان لافروشكا الذي سكر بالأمس فترك سيده دون طعام ، تعرض للضرب بالعصي ثم ارسل بعد ذلك الى احدى القرى للبحث عن بعض الدجاج فاستمر يتلكأ ويحوم حتى سقط بين يدي الفرنسيين ، وكان واحداً من اولئك الخدم السفهاء الغلظاء الذين لايستطيعون رغم مارأوه من كل الالوان خلال حياتهم ، ان يتصرفوا دون دناءة ومكر والذين هم على استعداد دائم للقيام بكل الخدمات الممكنة لاسيادهم الذين يحدسون لأول نظرة اراءهم السيئة وخصوصاً تلك التي يوحي بها اليهم الزهو والحقارة .

ولما استقدم امام نابوليون الذي لم يلبث حتى ادرك حقيقته ، لم يتأثر لافروشكا كما ينبغي لكنه اجتهد ليجعل اسياده الجدد يستقبلونه افضل استقبال .
كان يعرف تماماً ان هذا هو نابوليون ، لكن وجود الامبراطور ما كان يمكن ان يبعث في نفسه باضطراب اكثر من وجود روستوف او الرقيب الاول المكلف بضربه بالعصي ، ولما كان لايملك شيئاً ، فان نابوليون ولا هذا الصف الضابط يمكن ان يأخذوا منه شيئاً .

روى اذن كل القصص التي تدور بين التابعين والتي كان الجانب الاكبر منها صحيحاً ، ولكن ، عندما سأله نابوليون عما اذا كان الروسيون يفكرون في التغلب على بونابارت ام لا ، قطب لافروشكا حاجبيه وراح يفكر ، خيل اليه ان السؤال يخفي شركاً لان الاشخاص من نوعه يشمون رائحة الفخاخ في كل مكان .

قال بلهجة من يفكر :

– اعني اذا وقعت المعركة على الفور كان الفوز بجانبكم ، وهذا مؤكد ، ولكن اذا مضت ايام ثلاثة ، فان هذه المعركة نفسها يمكن ان تستطيل .

اما ماترجمه ليلورم ديدفيل باسماً لنابوليون ، فهو كما يلي : « اذا نشبت المعركة قبل ثلاثة ايام فان الفرنسيين سيكسبونها ، اما اذا نشبت فيما بعد ، فان الله وحده يعرف ماسيحدث . » وعلى الرغم من حسن مزاجه ، فان نابوليون لم يبتسم بل امر ان تعاد الجملة على مسامعه ، فلاحظ لافروشكا ذلك ولكي يبهجه ، تابع وهو يتظاهر بجهله حقيقة الشخص الذي يحدثه :

– نعم ، اننا نعرف ان لديكم من يدعى بونابارت ، لقد هزم كل الناس في هذا العالم ، لكن الامر سيختلف بالنسبة الينا ...

ولقد افلت منه هذا التبجح الوطني دون ان يدرك السبب .

وقام المترجم بالترجمة فعني خلال ذلك باخفاء الكلمات الاخيرة ، وكتب تيير يقول : « لقد اضحك القوقازي الشاب محدثه العظيم . » وبعد ان خطا بضع خطوات في صمت ، قال نابوليون لبرتييه انه يرغب في معرفة الأثر الذي سيحدث في نفس « غلام الدون هذا » اذا اطلعوه على ان الشخص الذي تحدث معه ليس الا الامبراطور ، ذلك الامبراطور الذي كتب على الاهرام اسمه المظفر الخالد .

وازجي النبأ الى لافروشكا .

ادرك هذا انهم يريدون ان يشوشوه وان نابوليون يعتقد انه سيخيفه ، لذلك فقد تصنع الدهشة ارضاء لاسياده الجدد وتظاهر بذهول عميق : ادار حوله عينين متسعتين وانطبع وجهه بالامارات التي تظهر عليه كلما أخذ ليُجلد ، وكتب تيير : « لم يكد مترجم نابوليون يتكلم حتى استبد بالقوقازي لون

من الذهول فلم يعد يحر جواباً وظل يمشي وعيناه شاخصتان الى ذلك الغازي الذي بلغ اسمه مسامعه عبر اقفار الشرق ، لقد توقفت ثرثرته فجأة ليحل محلها شعور بالاعجاب الصامت الساذج ، وبعد ان كافأه نابوليون ، منحه الحرية كما يحرر العصفور الذي يعاد الى الحقول التي شاهدت مولده . »

تابع نابوليون طريقه وهو يحلم بموسكو تلك التي كانت تحتل حيزاً كبيراً من تفكيره . أما العصفور الذي أعيد الى الحقول التي شاهدت مولده ، فقد حث جواده حتى بلغ الخطوط الأمامية وهو يعد في خياله قصة مغامرات وهمية يرويها على زملائه ذلك لأن ما وقع له بالذات لم يكن في نظره يستأهل عناء روايته . ولما لحق بالقوقازيين ، استعلم عن المكان الذي ينزل فيه فوجه الذي كان تابعاً لجيش بلاتوف . وحوالي المساء ، وجد سيده نيكولا روستوف قرب ايانكوفو وهو يمتطي صهوة جواده مع ايلين للقيام بنزهة في القرى المجاورة . وحينئذ ، أمر روستوف ان يعطى لافروشكا جواداً آخر ثم صحبه معه .

* * *

الفصل الثامن

موت الامير بولكونسكي

لم تكن الأميرة ماري في موسكو ولا خارج منطقـــة الخطر كما كان يظن آندريه .

عندما عاد الباتيتش من سمولنسك ، بـدا الأمير العجوز كأنه استفاق من حلم فجأة . أصدر الأمر بتجنيد متطوعين في قراه وبتسليحهم . ثم أنبأ الجنرال القائد الأعلى بأنه قرر البقاء في ليسيبا جوري وان يـدافع عن نفسه فيها حتى النفس الأخير وانه يرجع اليه أمر اتخاذ التدابير الآيلة الى حماية اقطاعية يتعرض فيها واحد من أقدم الجنرالات الروسيين الى الأسر أو القتل أو اغفال مثل هذه التدابير . ثم أعلن للمقربين اليه أخيراً أنه لن يتحرك من مقاطعته .

ولكن ، رغم رفضه ترك منازله ، عجّل في ترحيل ماري والأمير الصغير وديسال الى بوجوتشاروفو ومن هناك الى موسكو . ولقـد روعت الأميرة كثيراً لذلك النشاط المحموم الذي اعقب فترة من الجمود : لم تستطع ان توافق على ترك والدها وحده ، لذلك فقد سمحت لنفسها لأول مرة في حياتها بعصيانه رفضت الذهاب ، فانهالت عليها العاصفة التي كثفها غضب الأمير . القى عليها كل الأسواء التي تجعلها مسؤولة دون وجهة حق : لقد جعلت حياته لا تطاق وخاصمته

مع ولده واتخذت أراء على حسابه بشعة ولا تيكر الا في تسميم حياته . وأخيراً طردها من مكتبه وأعلن انه سيان عنده أذهبت أم لم تذهب : انه يعتبرها ميتة ويمنعها الى الأبد من الظهور أمامه . ولقد هدأ حزن ماري حينما علمت انه لم يأمر بترحيلها بالقوة كما كانت تتوقع : لقد أدركت ان العجوز في أعماق نفسه سعيد لبقائها الى جانبه .

وفي اليوم التالي لذهاب نيكولا الصغير ، ارتدي الأمير العجوز منذ الصباح الباكر بزته الكبرى واعتزم الذهاب لرؤية القائد الأعلى . وكانت العربة قد اعدت فرأته ماري يخرج من مكتبه متحلياً بكل أوسمته ويأخذ طريق الحديقة ليستعرض فلاحيه وخدمه وهم تحت السلاح . جلست الى نافذة وراحت تصيخ السمع الى نبرات صوت ابيها التي كانت تصل اليها منذ ان بلغ البستان . وفجأة هرع بعض الرجال عن طريق الممشى الرئيسي تنطق وجوههم بالارتياع .

اندفعت ماري الى المرقاة وبلغت الممشى الرئيسي جرياً مخترقة بستان الخضار . رأت جماعة من الخدم المتطوعين يهرعون للقائها وفي وسط هذه الجماعة ، بعض الرجال يجرون العجوز القصير في بزته المغطاه بالاوسمة من تحت ابطيه . لم يسمح لها الضوء الخفيف الذي كان يتسلل عبر أغصان الزيزفون الكثيفة ان تتبين للوهلة الاولى انقلاب تقاطيع وجهه . لاحظت فقط ان وجهه الذي كان من قبل صارماً وحازماً قد اتخذ طابعاً من الخضوع والفزع . ولما رأى ابنته ، بعث من شفتيه العاجزتين بضعة أصوات غامضة مبحوحة فلم يستطع أحد معرفة ما كان يريد قوله . نقلوه حملاً الى مكتبه حيث أسجوه على تلك الاريكة التي باتت منذ بعض الوقت توحي اليه بخوف هائل .

وصل الطبيب الذي أرسلوا يستدعونه في الليل فقصد الأمير وأعلن انه اصيب بشلل في جنبه الأيمن . ولما بات البقاء في ليسيبا جوري يزداد خطراً ،

فقد نقلوه الى بوجوتشاروفو منذ صباح اليوم التالي حيث صحبه الطبيب . فلما وصلو الى هناك ، كان ديسال ونيكولا الصغير قد سافرا الى موسكو.

ظل الأمير العجوز ثلاثة أسابيع على حالته تلك . لقد نقلوه الى البيت الجديد الذي ابتناه آندريه لنفسه فظل مسجى هناك فاقداً رشده اشبه بالجثة المشوهة . كان يدمدم باستمرار ويحرك شفتيه وحاجبيه ولكن كان يستحيل معرفته ما اذا كان شاعراً بما يدور حوله . وكل ما أمكن معرفته هو نه يتألم ويشعر بحاجة الى التعبير عن شيء مـــا . ولكن أي شيء ؟ لم يستطع احد معرفته . هل كانت نزعته مجرد هوى او هزيان مريض ام كان لذلك علاقة بالاحـداث ام بشؤون الأسرة ؟

كان الطبيب يعزوا هذا الاضطراب الى اسباب جسدية خالصة بينما كانت ماري على العكس تظن ان اباها يريد ان يكلمها الأمر الذي يؤيده اكتئاب المريض المتزايد دائماً في حضرتها .

كان ولا ريب يتألم جسدياً وفكرياً . لم يكن هناك امل في شفائه كما لم يكن مستطاعاً التفكير في نقله اذ ماذا كان بمقدورهم ان يعملوا لوانه مات اثناء الطريق ؟ وكانت ماري تتساءل احياناً : « الا تكون النهاية افضل ؟ » كانت تراقبه ليل نهار دون ان تنام تقريباً فكان ـ وهذا ما يؤلم قوله ـ يكتشف احياناً على وجهها ليس امارات التحسن بل على العكس بوادر ما يسبق النهاية

اضطرت ماري سواء برضائها او رغما عنها ان تعترف بهذا الشعور الذي هو اسوأ ما في الأمر ، وهو انه منذ مرض ابيها بل وقبل ذلك بقليل ، عنـدما ظلت وحيدة معه تنتظر حدوث شيء ما ، عادت الرغبات والامال المنسية الغافية في اعماق نفسها الى التيقظ بتجبر ، عادت فكرة استطاعتها الحياة مستقلة

متحررة من رهبة ابيها بل والتعرف على الحب والسعادة الزوجية ، تلك الفكرة التي لم تعد تخطر لها منذ سنوات ، عادت اليوم تراود مخيلتها ، ولقد عملت ماتستطيع لطرد هذه الفكرة ، لكنها ظلت تتساءل كيف ستنظم حياتها بعد وقوع حدث معين ، فكانت هذه الآراء ولا ريب اغراءات الشيطان لاتستطيع دفعها الى الصلاة ، لذلك كانت تتخذ وضع الصلاة وتنظر الى الصور المقدسة وتتلفظ بالعبارات المألوفة لكنها ما كانت تصلي الا بشفتيها. كانت ترى نفسها مساقة الى عالم جديد ، عالم من الحركة والعمل والحرية معاكس تماماً للعالم الفكري الذي ظلت سجينته حتى ذلك الحين والذي كانت الصلات وحدها سلوتها فيه . فلم تعد تستطيع الصلاة ولا البكاء : لقد استبدت بها الحياة .

بات التأخر في بوجوتشاروفو خطراً . فالفرنسيون مازالوا يتقدمون ولقد نهبت مقاطعة على بعد اربعة اميال من هناك من قبل رجالهم السلابين .

اخذ الطبيب يلح على ماري بنقل المريض – وارسل نقيب الاشراف الى الأميرة ماري موظفاً يطلب اليها الذهاب في اسرع ما يمكن . وجاء النقيب نفسه ينبئها بان الفرنسيين باتوا على بعد ثمانية اميال من هنا : ان نداءاتهم باتت الآن تتناقل في القرى فاذا لم ترتحل حتى الخامس عشر فانه لن يكون مسؤولاً عن شيء .

قررت ماري ان تذهب ذلك اليوم فانشغلت في الاستعدادات واصدار الاوامر طيلة يومها لأن الجميع باتوا الآن يوجهون الكلام اليها . وامضت ليلة ١٤ – ١٥ ، كعادتها دون ان تخلع ثيابها ، في الحجرة المجاورة لغرفة الأمير . سمعت مرات عـــديدة خلال نومها أنات ابيها بصوته الاجش وطقطقة سريره وخطوات الطبيب وتيخون اللذين كانا يبدلان من وضعيته في الفراش . وجاءت مرات عديدة تصيخ السمع وراء الباب : خيل اليها ان المريض ليلتئذ يتألم

ويتخبط اكثر من المعتاد . فلم تستطع ان تعود الى سريرها واقتربت مرات عديدة الى ذلك الباب الذي ما كانت تجد الجرأة على اجتيازه . وعلى الرغم من عجزه عن الكلام فان ماري كانت تشعر ان كل تظاهر بالعطف يسخط ابيها : ألم يكن يتهرب باستمرار من نظرتها كلما رآى انها شاخصة اليه ؟ لذلك كانت تعرف ان زيارتها له في الليل ، في ساعة غير مألوفة ، ستثير غضبه .

مع ذلك ، فانها لم تشعر قط بأكثر من ذلك الحزن واعظم من ذلك الرعب اللذين اثارهما خوفها من فقده . كانت تستعرض مراحل الحياة التي امضياهـــا واحدهما بجانب الآخر ، فكانت تكتشف في كل كلمة وفي كل حركة من كلمات الشيخ وحركاته محبة لها . ومن حين الى آخر ، كان الشيطان يعود الى مهاجمتها ، فيدخل في ذكرياتها المناظر المغرية لمستقبل اكثر استقلالاً ، لكنها سرعان ما كانت تطرده بشدة .. وحوالي الصباح ، هدأ الأمير فاستطاعت ماري ان تنام .

استيقظت متأخرة . وفجأة اطلعتها الصراحة الوحشية في الاحساس الذي يرافق اليقظة على ما كان يشغل بالها اكثر من اي شيء في مرض ابيها . مضت الى الباب تصغي ولما تناهى اليها تنفس المريض الأجش ، حدثت نفسها وهي تتنهد ان الأمر لازال على ما كان . وفجأة ، هتفت وقـــد استبد بها تقزز من نفسها :

– ولكن ، ماذا يمكن ان يكون غير ذلك ؟ ماذا اريد اذن ؟ موته !

ارتدت ثيابها واعتنت بشعرها ثم تلت بعض الصلوات ومضت الى المرقاة حيث وقفت العربات دون ان تقطر اليها الخيول وهم يملأونها بالأمتعة . كان الصبح بديعاً يتخلله غيم خفيف . لبثت ماري هناك فترة طويلة وهي يذهلها الهول ازاء دناءتها تحاول استعادة هدوئها قبل ان تعود المريض . وهبط الطبيب السلم وجاء اليها يقول :

- انه احسن حالاً قليلاً اليوم . كنت ابحث عنك ، لقد بـــدأنا نفهم ما يقول . تعالي ، انه يطلبك !

خفق قلب ماري لهذا النبأ بشدة حتى ان وجهها امتقع واضطرت ان تعمد الى الباب فتستند اليه خشية ان تسقط . ان ترى ابيها وتخاطبه وتقابل نظرته وهي التي كانت منذ حين فريسة مثل تلك الافكار المجرمه ، كان مدعاة لقلقها العنيف رغم ما يخالط ذلك العذاب من فرح .

عاد الطبيب يقول :

- تعالي .

دخلت حجرت أبيها واقتربت من السرير . كان قـد أقعد في سريره بينما راحت يداه الصغيرتان العظيمتان اللتان ظهرت فيهما العروق الزرقاء تدعك الغطاء وكانت عينه اليسرى شاخصة الى نقطة امامـــه اما اليمنى فتشوص ، بينما ظل حاجباه وشفتاه جامـــدة . وكانت لشخصيته الجافة الصغيرة كلها منظر يثير الاشفاق . وباتت تقاسيمه قد رقت وبدا وجهه كأنه مذاب . قبلت ماري يده . ومن الطريقة التي ضغط بها الكهل بيده اليسرى على يدها ، ادركت انه ينتظرها منذ زمن طويل . بل انه هزها ايضاً بينما تقصلت شفتاه وحاجباه بحركة غاضبة .

نظرت اليه في شيء من الروع وهي تحاول ان تخمن ما كان يريد منها . ولما ابدلت مكانها لتسمح لعين العجوز اليسرى ان ترى وجهها ، هـدأ بضع لحظات ثم تحركت شفتاه ولسانه وخرجت اصوات من فمه وراح يتكلم وهو يتوسل اليها بنظرة واجفة وبه خشية واضحة من ان لا تفقه قوله .

راحت ماري تتأمله وهي تركز كل انتباهها فيه . لكنه كان يحرك لسانه بمجهودات مضحكة حتى انها ما استطاعت الا ان تكف الطرف وان تدفع

بمجهود جبار الحشرات التي راحت تتصاعد الى حنجرتها . غمغم بشيء ما و كرر كلماته مراراً فلم تقدر الأميرة ماري على فهمها . مع ذلك فقد كانت تجهد نفسها لتخمن المعنى وتعيد ما يخيل اليها فهمته من كلمات بلهجة مستفهمة .

اخيراً ، اعتقد الطبيب ان المريض يسأل عما اذا كانت الأميرة خائفة . لكن العجوز سفه هذا الظن باشارة من رأسه وعاد من جديد الى الاصوات نفسها يخرجها .

أكدت ماري فجأة :

— آه ! لقد عرفت ! انه يقول ان روحه تتألم .

فأجاب « بنعم » غير واضحة وأمسك بيد ابنته واثبتها على عدة مواضع من صدره وكأنه يبحث عن افضلها .

نطق بشكل اكثر وضوحاً هذه المرة :

— كل افكاري نحوك ، كلها ...

واصبح صوته وقد تأكد من انه استطاع افهامها قصده اكثر ثباتا .

كبتت ماري دموعها واحنت رأسها على يد ابيها فمر هــــذا بيده على شعرها . دمدم :

— لقد ناديتك مرات عديدة خلال الليل .

فاجابت خلال دموعها :

— نعم ، لقد عرفت . وكنت اخاف الدخول عليك .

ضغط على يدها وقال :

— ألم تنامي ?

— كلا .

وأيدت هــــذا الجواب باشارة نفي من رأسها . ثم راحت مثله تتحدث

بالاشارات وكأنها باتت تحت تأثير أبيها وخيل اليها ان لسانها يدور بجهد .

ياروحي[1] العزيزة .. ياصديقتي العزيزة .. - ولم تفهم التعبير الصحيح ولكنها ادركت من نظرته انه يوجه اليها لأول مرة كلمة حانية - لمـــاذا لم تأتي ؟

فكرت ماري في نفسها : « وانا التي كنت اتمنى له الموت ! » استأنف بعد صمت !

- شكراً . شكراًياصديقتي ، يا ابنتي .. على كل شيء ، على كل شي ... صفحاً . . شكراً . . صفحاً .. شكراً !

وسالت دموع من مآقية ثم سأل وقد اتخذ وجهه سيماء الطفل الذي يخاف مجابهة سؤاله بالرفض :

- استدعي آندريه .

بدا كأنه أدرك شخصياً صبيانية هذا الطلب أو ان هذا على الأقل ما خيل الى ماري . اجابت :

- لقد تلقيت رسالة منه .

نظر اليها بدهشه ووجل :

- وأين هو اذن ؟

- انه في الجيش يا ابي ، في سمولنسك .

أغمض عينيه وظل طويلاً صامتـــاً ثم ، وكأنه أراد ان يبدد شكوكها وان يثبت بنفس الوقت انه استعاد ذاكرته وأحاسيسه ، عاد وفتحهما ثم أشار برأسه اشارة ايجابية .

---

(١) الروح بالفرنسية « آم » والصديقة « آمي » ، ومن هنا نجم الالتباس في ادراك قصده الصحيح .

قال بصوت خافت ولكن واضح :

– نعم ، لقد ضاعت روسيا . لقد أضاعوها .

وانفجر منتحباً من جديد وسالت دموع على خديه . فلم تستطع ماري الصمود أكثر من ذلك ، فاستسلمت لدموعهـــا هي الاخرى وهي تنظر الى وجهه .

اغمض عينيه ولم يلبث ان هدأ واشار الى عينيه فادرك تيخون قصده فجففها .

عاد ففتح عينيه ثم فاه ببضع كلمات لم يتوصل احد الى فهمها باستثناء تيخون وحده . وكانت ماري تحمل معناها على مختلف الافكار التي واتتها حتى ذلك الحين : روسيا ، آندريه ، هي نفسها ، حفيده أم موته . لكن الأمر كان متعلقاً بشيء آخر . لقد قال :

– اذهبي وارتدي ثوبك الأبيض انه يعجبني .

ولما نقل اليها تيخون هذا التمني ، تضاعف اجهاش ماري وحينئذ امسك الطبيب بيدها واخذها الى الشرفة حيث عني بتهدئة ثائرتها ولفت نظرها الى ضرورة الاسراع باستعدادات الرحيل . تكلم الأمير مرة اخرى عن ولده اثناء غياب ماري وعن الحرب والامبراطور وقطب حاجبيه بشكل يدل على الغضب وراح صوته الأجش يزداد ارتفاعاً وفجأة اصيب بصدمة ثانية كانت الأخيرة .

كانت ماري خلال ذلك واقفة على الشرفة وقد أخذ الطقس يجمل والحرارة تثقل . ما كانت ماري قادرة على فهم شيء . كانت مستسلمة بكليتها الى محبتها والتي تكنها لأبيها ، تلك المحبة التي خيل اليها انها ظلت تجهل غورها حتى ذلك اليوم هرعت الى الحديقة وهي تنشج ونزلت حتى بلغت المستنقع على طول الممشى الحديث الذي تحفه من الجانبين أشجار الزيزفون الفتية التي غرسها الأمير آندريه .

أخذت تكرر في نفسها وهي تسير بخطى واسعة وتضغط على صدرها

بيدها ، ذلك الصدر الذي كانت تنبعث منه زفرات تشنجية :

- وأنا . . .وأنا . . . التي تمنيت موته ! نعم ، لقـد تمنيت ان ينتهي كل هذا بسرعة . . كنت تواقة الى ان اتذوق الراحة أخيراً . . . ثم ماذا سيحل بي الآن ؟ أية فائدة تعود بالراحة علي اذا لم يعد هو في الوجود !

قادها طوافها في الحديقة الى التوجه نحو البيت فاذا بها ترى الآنسة بوريين التي كانت ترفض مغادرة بوجوتشاروفو آتية لاستقبالها ومعها مجهول . كان هذا نقيب الأشراف في المقاطعة وقد جاء بنفسه يحث الأميرة على الرحيل . وبعد ان لبثت ترافقه فترة ، اعتذرت له وارادت ان تدخل غرفة أبيها . لكن الطبيب الذي كان خارجاً منها منقلب الاسارير منعها من الدخول .

- يستحيل ياأميرة ، يستحيل !

عادت ماري الى الحديقة ، الى أسفل المنحـدر المؤدي الى المستنقع ، الى مكان لايمكن لأحد ان يراها فيه وجلست على العشب . مـا كانت تستطيع معرفة الوقت الذي أمضته في مكانها ذاك خائرة القوى حتى جعلها خطوات نسائية مندفعة تعود الى تمالك نفسها . نهضت فشاهدت وصيفتها دونياشا التي كانت تفتش عنها . لكنها من أن رأت سيدتها ، حتى توقفت وكأنها صعقت . قالت بصوت متقطع :

- هل تريدين الحضور يا أميرة . ان الأمير . . .

قالت ماري دون ان تترك لها وقت اتمام جملتها :

- انني ماضية ، انني ماضية .

وجرت الى البيت وهي تتحاشى نظرة دونياشا .

قال لها النقيب الذي كان ينتظرها عند المدخل :

- ايتها الأميرة ، ان مشيئة الله على وشك ان تتم ، فكوني مستعدة لكل شيء .

صرخت بصوت شرس :

— دعني ، هذا غير صحيح .

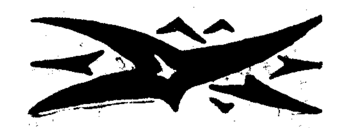
وحاول الطبيب ان يمنعها فدفعته جانباً واندفعت الى الباب . « لمـــاذا يستوقفني هؤلاء الناس ؟ ماذا تعبر عنه وجوههم المروعة ؟ لست في حاجة الى احد . ماذا يفعلون هنا جميعهم ؟ » فتحت الباب وأحست بالخوف وهي ترى تلك الحجرة التي ظلت حتى ذلك الحين غارقة في عتمة الظل ، تسطع فيها أنوار النهار القوية . كانت مربيتها العجوز ونسوة آخرون هناك فابتعدن عن السرير ليتحن لها مجال المرور . . كان الأمير لايزال مستلقياً لكن وجهه كان مطبوعاً بخطورة مشرقة جعلت ماري تتوقف لحظة على عتبة الباب .

حدثت نفسها وهي تقترب : « كلا ، انه ليس بميت . هـذا مستحيل ! » تغلبت على روعها ولمست بشفتيها وجنة أبيها . لكنها لم تلبث ان تراجعت الى الوراء . لقد افسح الحنان كله الذي كانت تحس به حياله المكان فجأة لعاطفه من الهول . « اذن ، انه لم يعد على قيد الحياة ! انه لم يعد في المكان الذي كان فيه . لم يعد الآن الا مالست أدري من مجهول ومخيف ، سر رهيب يجعلني أرتعد من الهول ! » ثم أخفت رأسها بين يديها وانهارت بين ذراعي الطبيب الذي أسندها .

شرعت النساء بحضور تيخون والطبيب يعنين بزينة من كان الأمير بولكونسكي . غسلن الجسد وابقين الفم مطبقاً مستعينات بمنديل ثم أوثقن الساقين اللتين انفرجتا بمنديل آخر . ثم ، بعد ان البسنه بزته الموشاة بالاوسمة ، مددن تلك الجثة الصغيرة المهزولة فوق المائدة . الله وحده يعرف من أعطى الأوامر ومنذ متى أعطيت . لكن كل شيء كان يسير بنظام تلقائي . وحوالي المساء ، اضيئت الشموع حول النعش المغطى بستار رقيق وكانت الارض قد فرشت باغصان

العرعر وأودعت صلاة مطبوعه تحت رأس الميت بينما راح المرتل يترنم في صلواته في احدى الزوايا .

وكما تُرى الخيول عندما تجتمع وتتنافر وتحتد حول حصان ميت ، كذلك شوهدت في البهو حول النعش ، جماعة من الناس تحتشد بين أقرباء وغرباء : نقيب الاشراف والحاكم ونساء القرية وكلهم شاخصة أبصارهم مفعمة بالذعر ، يرسمون اشارة الصليب وينحنون ويقلبون يد الأمير العجوز الباردة المتصلبة .



الفصل التاسع

فطنة الباتيتش

قبل ان يقيم الأمير آندريه في ذلك الملك ، ظل فلاحو بوجوتشارفو بعيدين عن عيني سيدهم . كانوا يختلفون كل الاختلاف عن فلاحي ليسيبيا جوري الذين امتازوا عنهم باللغة والألبسه والعادات . كانوا يسمونهم « جماعة القفار » . وعندما كانوا يذهبون الى ليسيبيا جوري لمساعدتهم في الحصاد او لتنظيف المستنقعات والحفر ، كان الأمير يمتدح كفاءتهم في العمل . لكن وحشيتهم كانت تنفره .

ولقد عملت اقامة الأمير آندريه الاخيرة بينهم وتجديداته التي أدخلها — : مستشفيات ، مدارس ، تخفيف قيود حصة المالك بعيداً عن تلطيف عاداتهم على ابراز هذه البادرة الظاهرة من عقليتهم التي كان الأمير العجوز يسميها وحشية كانت الشائعات المبهجة تروج بينهم دائماً : فحينا كانوا سيسجلونهم في عداد القوقازيين وحيناً آخر سيدخلونهم في دين جديد . وكانوا تارة يتبادلون مايزعمون انه رسائل من القيصر ويزعمون حيناً آخر ان السادة عندما أقسموا يمين الولاء للامبراطور بول ، وعدوا بتحرير رقيق الارض لكنهم لم ينفذوا ما وعدوا به . بل انهم تناقلوا مرة مؤكدين ان « بول الثالث » سيعود ويحكم في غضون سبع سنين وسيصبح كل الرقيق حراً على عهده وسيجري كل شيء ببساطة زائدة

حتى انه لن يكون ثمة حاجة الى أية قوانين بهذا المعنى . وكان ما يروونه عن الحرب ونابوليون والغزو ، يختلط عندهم بمبادىء غامضة عن المسيح الدجال ونهاية العالم والحرية العامة .

وكان الى جوار بوجوتشارفو قرى كبيرة تعود الى التاج او الى أشخاص خصوصيين ولكنها جميعها آهلة بقرويين تابعين لنظام الاتاوة . وكان عدد قليل جداً من السادة يقيم بينهم لذلك فان عدد الملمين بقواعد القراءة بين الرقيق والخدم قليل جداً . وعلى ذلك فان التيارات الخفية في الحياة الشعبية بين سكان تلك القرى التي ظلت أسبابها ومرماها سراً مستغلقاً على المعاصرين ، كانت أكثر قوة منها في الامكنة الاخرى . وكذلك على سبيل المثال ، وقعت بينهم منذ عشرين عاماً خلت ، حركة هجرة الى بعض الانهار ذات المياه الساخنة . وباعت مئات الاسر فجأة ماشيتها ومن بينها عدد من عائلات بوجوتشاروفو ، ونزحت الى مكان ما في الجنوب الشرقي ، فكانوا يتوجهون الى تلك المناطق التي لم تطأها من قبل قدم أحدهم مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم أشبه بالعصافير المهاجرة التي تعبر البحار . وكان بعضهم يشتري حريته والبعض الآخر يفر ويذهبون جميعهم على اقدامهم او في عربات قوافلاً الى المياه الحارة . ولقد لحق ببعضهم فعوقبوا وارسلوا الى سيبيريا ونفق البعض الآخر خلال الطريق من البرد والجوع وعاد الباقون طواعية الى أمكنتهم الاولى ثم انتهت الحركة من تلقاء نفسها كما بدأت دون سبب ظاهر . لكن التيارات العميقة استمرت تجري بين هذا الشعب الذي أخذ يستمد منها قوة جديدة كانت ستظهر يوماً ما على شكل غاية في الغرابة وعدم التوقع وبنفس الوقت غاية في البساطة الطبيعية . وكان كل من عاش خلال تلك الفترة من عام ١٨١٢ مع هذا الشعب ، يشعر بأنه انما يُعدّ من قبل هذه القوى البطيئة التي لا بد وان تظهر الى الوجود ذات يوم .

لاحظ الباتيتش الذي وصل الى بوجوتشاروفو قبل موت الأمير ببعض الوقت ، حركة مابين الفلاحين : ذلك ان « رجال القفر » ، على عكس ما كان يجري في منطقة ليسيبيا جوري او في دائرة قطرها خمسة عشر ميلًا حيث السكان يهجرون قراهم لينهبها القوقازيون ، كانوا يعقدون الصلات مع الفرنسيين ويتلقون منهم بعض الاوراق ولايفكرون قط في الرحيل . وعلم الباتيتش عن طريق بعض الخدم الموالين له ان المدعو « كارب »، وهو شخص قوي النفوذ في المنطقة الذي عاد مؤخراً من تسيير قافلة من العلف لحساب التاج ، كان ينشر إشاعة مفادها ان القوقازيين ينهبون القرى التي يهجرها سكانها في حين ان الفرنسيين يحترمون السكان . وأخبروه كذلك ان قروياً آخر حمل أمس من ضيعة فيسلوؤتخوفو التي يحتلها العدو ، نداء يخطر فيه الجنرال الفرنسي السكان بأنه لن يقع لهم أي مكروه وانهم اذا ظلوا في أماكنهم ، فانهم سيدفعون لهم عداً ونقداً ثمن كل شيء يأخذونه منهم . وتأييداً لهذا المزعم ، كان ذلك الفلاح الخشن يريهم ورقة مالية من ذات المائة روبل ـ ما كان يعرف انها زائفة ـ أعطيت له عربوناً على علف اتفق معهم على تسليمه لهم .

بل هناك ماهو اكثر خطراً . لقد علم الباتيتش انه في ذلك الصباح بالذات الذي اصدر فيه الأمر الى شيخ الضيعة باعداد العربات لنقل الأميرة ، عقد اجتماع في القرية قرروا فيه عدم الذهاب وانتظار ما تأتي به الأحداث . مع ذلك ، فقد كان الوقت مدركاً . وفي ١٥ آب ، يوم وفاة الامير ، الح نقيب الاشراف على الأميرة ماري ان تذهب من فورها لأن الموقف بات يثير القلق وانه اذا نقضى يوم ١٦ آب ، فانه لن يكون مسؤولاً . ولقد ذهب ذلك المساء بالذات واعداً ان يعود في اليوم التالي ليحضر الدفن . لكنه لم يف بوعده لان تقدماً مفاجئاً من جانب العدو اضطره الى ترحيل اسرته وما يملكه من ثمين بأسرع ما يمكن .

كانت بوجوتشاروفو منذ حوالي ثلاثين عاماً تدار من قبل المدعو درون ، وهو واحد من اولئك القرويين المتينين جسدياً وأخلاقياً الذين تزداد كثافة لحاهم كلما تقدموا في السن ولكنهم يبلغون الستين وأكثر دون ان يتبدل فيهم شيء آخر او ان تغزو شعرة بيضاء مفارقهم او ان يسقط واحد من أسنانهم ، بل يظلون منتصبي القامة في مثل قوة ابناء الثلاثين .

ولقد عين درون بعد حركة الهجرة الى المياه الحارة بقليل ، تلك الهجرة التي اشترك فيها ، شيخ بلد في بوجوتشاروفو ، وهو مركز ظل يشغله منذ ثلاثة وعشرين عاماً بشكل لا يتطرق اليه النقد . وكان الفلاحون يخافونه اكثر مما يخافون أسيادهم . أما سيادة الامير العجوز والشاب ، وكذلك الوكيل فقد كانوا يحترمونه ويسمونه على سبيل الدعابة : الوزير . لم يُر طيلة مدة خدمته ثملاً او مريضاً مرة واحدة ولم يظهر قط ، حتى في أعقاب ليال بيضاء أو بعد أعمال شديدة الاعنات ، أية بادرة من التعب . ولم يخطىء قط رغم جهله القراءة والكتابة لا في حساباته النقدية ولا عدد مكاييل الدقيق الذي كان يبيع منه عربات ضخمة ولا في عدد حزم الحشيش الذي تنتجه كل قصبة مربعة من مساحة الحقل .

وكان درون هذا ، هو الذي استقدمه الباتيتش الذي جاء من الارض المخربة المنهوبة : ليسيياجوري يوم الدفن وكلفه باستحضار حوالي اثني عشر جواداً لعربات الاميرة وثماني عشرة عربه صغيرة للأمتعة التي كان يجب نقلها وعلى الرغم من أن القرويين كانوا خاضعين لنظام الحصة ، فان تنفيذ مثل هذا الامر في نظر الباتيتش ، ما كان يجب ان يلقى أية صعوبة لان بوجوتشاروفو كانت تعد مائتين وثلاثين بيتاً وسكانها كلها في يسر . مع ذلك ، فان شيخ القرية درون خفض عينيه لدى تلقيه الامر دون ان ينبس ببنت شفة . ولقد عين له الباتيتش بعض القرويين من معارفه الذين يمكن ان يقوموا بعملية النقل . فقال

دورن ان خيول اولئك القرويين غير موجودة فعين له الباتيتش غيرهم . غير ان دورن زعم ان هؤلاء بالمثل لايملكون جياداً : فالبعض صودر لمصلحة التاج والبعض الآخر انهك بل ان قسماً من خيولهم نفقت من قلة الغذاء . ولقـــد اشتط في مزاعمه الى حد تعذر ايجاد خيول للعربات

تأمله الباتيتش بانتباه وقطب حاجبيه . واذا كان دورن يعتبر شيخ بلد مثالي ، فان الباتيتش الذي ظل عشرين عاماً يدير أملاك الامير ، كان كذلك مسجلاً مثالياً بالمثل . ولقد كان يمتاز بحاسة خارقة تساعده على تفهم حاجات ومشاعر الاشخاص الذين يتعامل معهم تفهماً رائعاً . لذلك فان نظرة واحدة الى دورن ، كشفت له على الفور ان اجوبة دورن لم تكن تعكس امكانياته واستعداداته الشخصية ، بل امكانيات بوجوتشاروفو الذي كان متأثراً بنفوذ أهلها . ولم يكن جاهلاً ان دورن الفلاح الذي اثرى والذي يكرهه القرويون الآخرون لابد وان يتردد بين اختيار واحد من المعسكرين : معسكر السادة ومعسكر القرويين . ولقد قرأ الباتيتش كل هذا على وجه الرجل البسيط لذلك فقد مشى اليه مقطب الحاجبين وقال له :

ـ اسمع يادورن ، لاترولي ترهات . لقـد أعطاني صاحب السعادة الأمير آندريه نيكولائيتش نفسه الأمر باجلاء كل الناس وعدم ترك أحد على اتصال مع العدو . وهناك أمر من القيصر متعلق بهذا الموضوع . وكل من يبقى يعتبر خائناً هل تسمعني ؟

أجاب درون دون ان يرفع اليه عينيه :

ـ اسمع .

لكن هذا الجواب لم يرض الباتيتش فقال وهو يهز رأسه :

ـ آه ! درون ، سوف يفسد الأمر !

فقال درون حزيناً :

– كما تشاء !

استرسل الباتيتش الذي أخرج يده من شق « قفطانه » وأشار الى الأرض يلفت نظر درون بحركة مفخمة الى مواطىء قدميه :

– كفى ، لاتتظاهر بالمكر ! انني لاأرى بوضوح ما في نفسك فحسب ، بل كذلك أرى ما تحت قدميك الى عمق ثلاثة أقدام .

القى درون المضطرب نظرة مختلسة الى الباتيتش لكنه مالبث ان خفض عينيه على الفور .

– دعك من هذه الحماقات واذهب اليهم وقل لهم أن يستعدوا للرحيل غداً الى موسكو وان يأتوا منذ صباح الغد بالعربات لنقل أمتعة الأميرة . وعلى الأخص ، لاتظهر في الاجتماع . هل سمعتني ؟

تهالك درون عند قدمي المسجل :

– يا ايا كوف الباتيتش ، اعزلني من مناصبي ! استعدمني المفاتيح بحق السماء !

فقال الباتيتش بصرامة :

– كفي !

واعاد قوله :

– انني أرى ما تحت قدميك الى عمق ثلاثة أقدام .

وكان يعرف ان براعته في العناية بالنحل وخبرته في مسائل البذار وواقع انه استطاع طيلة عشرين عاماً وأكثر ان يرضى الامير العجوز ، كل ذلك أعطاه لقب ساحر وان السحرة يستطيعون رؤية ما تحت قدمي رجل الى عمق ثلاثة أقدام .

نهض درون وأراد ان يتكلم . لكن الباتيتش قطع حديثه :

– ما الذي يطوف برأسك ، هن ؟ هيا ، ماذا دهاك ؟

– ماذا أستطيع أن أعمل مع هؤلاء الناس ؟ انهم كلهم منقلبون رأساً على عقب . . . لطالما قلت لهم . . .

– قلت لهم ! قلت لهم ! .. انهم سكارى ، أهو هذا ؟

– لم يعودوا مالكي أعصابهم يا أباكوف الباتيتش ، هذا هو البرميل الثاني الذي يأتون عليه .

– حسناً ، اصغ اذن . سأخطر الحاكم وأنت اذهب وقل لهم ان يتركوا كل هذه الاشياء وان يقدموا العربات .

– رهن أوامرك .

لم يلح اباكوف الباتيتش اكثر من ذلك . كان يعرف ان أفضل طريقة لجعل الناس يطيعونك هي ان لا تضع طاعتهم موضع الشك . فلما حصل من درون على جملة « رهن أوامرك » الخاضعة ، فقد اكتفى بها رغم انه تأكد اكثر من أي وقت ان العربات لن تقدم دون تدخل القوات المسلحة .

والواقع ان المساء أقبل دون ان تصل عربة واحدة . ولقد تشكل اجتماع جديد أمام المشرب قرروا فيه طرد الخيول الى الغابة وعدم تقديم شيء . ودون ان يقول شيئاً للأميرة ، أمر ان تحل الخيول المقطورة الى عرباته الشخصية التي جاء بها من ليسيبا جوري وان تقطر تلك الخيول التي تصبح شاغرة بحكم ابقائه عرباته في مكانها ، الى عربات الأميرة . ثم مضى يستنجد بالسلطات .

* * *

الفصل العاشر

الاميرة ودرون

بعد ان شيعت ماري والدها الى مثواه الاخير ، اعتكفت في حجرتها ورفضت استقبال أي كان . وجاءت خادم تقرع بابها قائلة ان الباتيتش ينتظر تعليماتها من أجل الرحيل وكان ذلك قبل حديثه مع درون . فنهضت الأميرة عن الاريكة التي كانت مستلقية عليها وقالت من وراء الباب انها لاتفكر قط في الرحيل وسألت ان يتركوها بسلام .

كانت نوافذ غرفتها تطل على المغرب وكانت - هي - مستلقية على الاريكة ووجهها الى الجدار تعبث بزر وسادة من الجلد بين أصابعها فلا ترى الا تلك الوسادة اذ تركزت أفكارها المبهمة حول موضوع وحيد : كانت تفكر في طبيعة الموت المحتوم وفي أسفافها الخلقي التي ما كانت تلمسه حتى ذلك الحين والذي تجلى لها خلال مرض أبيها . وكانت تريد من أعماق نفسها ان تصلي ولكن في الحالة الفكرية التي وجدت نفسها فيها ، ما كانت تجرأ على الالتفات الى الله . وهكذا ظلت في وضعها ذاك بمدة فترة طويلة جداً .

كانت الشمس تغيب في الجانب الآخر من البيت فراحت اشعاعاتها المنحرفة تغمر غرفتها خلال النافذة المفتوحة وتضيء جانباً من الوسادة الجلدية التي شخصت

ماري اليها بابصارها . وفجأة انقطع مجرى أفكارها فانتصبت بحركة آلية وسوت شعرها ثم اقتربت من النافذة وراحت رغماً عنها تستنشق هواء تلك الامسية الرائعة العليل .

حدثت نفسها وهي تتهاوى على كرسي وتتكىء برأسها على حافة النافذة : « نعم ، تستطيعين الآن ان تتأملي جمال المساء بهدوء . لم يعد هناك من يزعجك بعد الآن كما وانه لن يأتي أحد لهذه الغاية . »

ناداها صوت رقيق معروف من الحديقة واحست ان أحدهم يقبل رأسها فالتفتت واذا بالآنسة بورين في ثوب حداد مزين باكمام عريضة خاصة بمناسبات الحداد على فقيد عظيم قد اقتربت برفق وعانقت ماري وهي تتنهد ثم غرقت في الدموع . تذكرت ماري حينذاك خلافاتها ومدى احساسها بالغيرة من هذه الفرنسية . لكنها تذكرت كذلك ان الأمير في الأيام الاخيرة ابدل سلوكه حيالها وانه لم يعد يرغب في رؤيتها فاستنتجت من ذلك ان الشكوك التي أقامتها في اعماق نفسها لم تكن محقة . وقالت لنفسها : « ثم ، هل لي أنا ، انا التي تمنيت موت أبي ان أحكم على الغير ؟ »

رسمت ماري لنفسها بسرعة موقف الآنسة بورين التي أرغمتها الظروف على العيش عند الآخرين ، رهن مشيئة شخص استبعدها منذ فترة من الوقت فأشفقت على هذه المرأة . نظرت اليها بحنان كئيب ومدت اليها يدها ، فقبلت الآنسة بورين تلك اليد وراحت خلال دموعها تحدثها عن البلاء الذي أصابها والذي تحمل هي نصيباً منه . قالت انها لن تجد عزاء لألمها الشخصي الا في عطف الأميرة وان الخلافات السابقة كلها يجب ان تتبدد أمام هذا الألم العظيم وانه فيما يتعلق بها ، فان ضميرها نقي وان « هو » من الأعلى كان يرى حبها وعرفانها بالجميل . أصغت اليها الأميرة ماري دون ان تدرك معنى كلماتها وراحت من حين الى

آخر ترفع عينيها اليها مستسلمة للهجة حـــديثها . استأنفت الآنسة بوريين بعد فترة صمت :

- ان موقفك رهيب بشكل مضـاعف ياأميرتي العزيزة . انني أفقه ان لاتكوني قد استطعت التفكير في نفسك كما لاتفكرين فيها الآن . لكن محبتي التي اكنها لك ترغمني على ان أقوم مقامك في ذلك .. هل جاء الباتيتش لرؤيتك ؟ هل حدثك عن الرحيل ؟

لم تجب ماري . ماكانت تدرك عن أي رحيل تتحـدث . « هل أستطـيع الآن ان اشرع في أي شيء كان ؟ هـل أستطيع حتى التفكير في أي شيء ؟ اليس العالم كله في نظري عديم القيمة ؟ » لم تجب فألحت الآنسة بوريين :

- هل تعرفين ياماري العزيزة اننا في خطر ؟ أننا محاطون بالفرنسيين حتى بات الرحيل الآن خطيراً . فاذا رحلنا ، تعرضنـــا لخطر الوقوع في الأسر . والله يعلم ..

راحت ماري تنظر الى رفيقتها دون ان تفهم قصدها . أخيراً قالت .

- آه ليتهم يعرفون انـ كل شيء في نظري أصبح تافهاً ! لاريب انني افضل ان لا أبتعد « عنه » .. ولقد الح الباتيتش الى هذا الرحيل .. اتفقي معه اما أنا ، فلست أريد شيئاً ولا اقدر على شيء ..

- لقد تكلمت اليه . أنه يأمل ان نستطيع الرحيل غداً . لكنني أظن ان من الافضل بقاءنا هنا . وافقي على ذلك ياعزيزتي ماري . سيكون مريعاً ان نقع خلال الطريق بين يدي الجنود أو القرويين الثائرين .

واخرجت الآنسة بوريين من حقيبة يدها بياناً يختلف ورقه عن ورق الوثائق الروسية ، صادراً عن الجنرال راموِ يدعو فيه السكان الى عدم مغادرة مساكنهم وان السلطات الفرنسية سوف تمنحهم الحماية اللازمة لهم .

قالت الآنسة بورين وهي تمديدها بالبيان الى الأميرة :

ـ أظن ان من الافضل ان تتصلي بهذا الجنرال . انني قانعة من انهسيظهر حيالنا ما نستحق من رعاية .

قرأت ماري البيان فتقاصت أساريرها وسألت :

ـ من أين لك هذا ؟

أجابت الآنسة بورين ووجهها يتضرج :

ـ لاريب انهم عرفوا من اسمي انني فرنسية .

اغبر وجه ماري فنهضت والورقة في يدها ومضت الى المكتب الذي كان الأمير آندريه يجلس فيه وهناك امرت :

ـ دونياشا ، ادعي الباتيتش أو درون أو من تشائين !

ثم أردفت عندما سمعت صوت الآنسة بورين :

ـ وقولي لأميلي كارلوفنا ان لاتدع أحداً يدخل علي .

قررت وقد روعت لفكرة امكان وقوعها بين أيدي الفرنسيين : « يجب الذهاب . أو الذهاب بأسرع ما يمكن ! »

« لو ان آندريه عرف انها رهن مشيئتهم لو عرف ان ابنة الأمير نيكولا اندريئيفتش بولكونسكي قد التمست حماية السيد الجنرال « رامو » وأفادت من حسن التفاتاته ! » أخذت هذه الفكرة تدفع الدماء الى وجهها وتجعلها ترتعد ثم تغلي من الاعتداد والغضب . وكانت تتصور ما في مثل هذا الموقف من ايلام وخنوع . « سوف يتمركز هؤلاء الفرنسيون هنا . لكن الجنرال رامو سيحتل مكتب أخي وسوف يتلهى بقراءة أوراقه ورسائله . وستقدم لهم الآنسة بورين تحيات بوجوتشاروفو . وسيتركون لي غرفة صغيرة على سبيل الاحسان وسيدنس الجنود ضريح أبي الذي لما يجف بعد لكي ينتزعوا منه صليبه وأوسمته

وسيروون لي انتصاراتهم على الروسيين وسيظهرون حيالي عطفاً منافقاً . . »
والحق يقال ان هذه الافكار لم تكن تعبر عن احساسات الأميرة ماري وحدها، بل كذلك احساسات أبيها وأخيها التي وجدت انها مرغمة على تبنيها بحكم الظروف الحاضرة . ما كان يهمها أين ستكون ولا ماذا سيحصل لها . لكنها كانت تتصور وجود أبيها المرحوم واخيها الغائب فكانت تشعر وتحس مثلهما رغماً عنها . وكانت تقدر ان من واجبها ان تعمل وتقول مـا كانا سيعملانه ويقولانه . ولما كانت معتكفة في مكتب الأمير آندريه ، فقـد راحت تحاول ان تستعرض الموقف وهي تفكر مثل تفكيره .

وفجأة فرضت ضرورات الحياة اليومية التي ظنت انهـا اختفت منذ وفاة والدها ، وجودها فرضاً عليها وبأشد قوة كما لم تثقل كاهلها قط من قبل .

أخذت تروح وتجيء في الحجرة وهي مضطربة متضرجة الوجه تطلب الباتيتش تارة وميخائيل ايفانوفيتش تارة اخرى ، تيخون حينـاً ودرون حيناً آخر . ولم تكن دونياشا ولا المربية ولا اية واحدة من الخادمات لتستطيع ان تحدثها بشيء واضح حول مزاعم الآنسة بورين . لقد كان الباتيتش غائباً ساعياً وراء الاستعانة بالسلطات ولم يستطع المهندس ميخائيل ايفانوفيتش الذي مثل أمامها وعيناه منتفختان من النوم ، ان يحدثها بشيء . لقـد أجاب على أسئلة الأميرة بمثل تلك الابتسامة المؤيدة التي سمحت له خلال خمسة عشر عاماً ان يجيب على أسئلة الأمير العجوز دون ان يعبر عن رأيه في محادثاته معه . فكانت كلماته لا تتيح المرء ان يستنتج منها شيئاً . ولمـا سألت الوصيف العجوز تيخون الذي كان وجهه المنقلب يحمل طابع حزن لا يشفى ، اجاب بعبارته الخالدة : « رهن أوامرك » وكلما رفع عينيه الى ماري وجد صعوبة عظيمة في كبت اجهاشه .

أخيراً جاء شيخ البلد درون وبعد ان حيا سيدته بمزيد الاحترام جمد في مكانه بجانب اطار الباب .

اجتازت ماري الحجرة ووقفت امامه . وقالت له وهي تظن واثقة انها واجدة صديقاً أميناً في درون ذاك الذي كان يأتيها بالحلوى من الانواع التي تحبها كلما ذهب في رحلته السنوية الى معرض فيازما :

- يادروني الطيب ، يادروني الطيب ، انظر بعد مصيبتنا ..

وأمسكت وقد خانها النطق على الاسترسال . فأجاب وهو يتنهد :

- أننا جميعاً في يد الله .

وران صمت . أخيراً استطاعت ماري ان تقول :

- يادروني الطيب . لقد ذهب الباتيتش ولم يبق لدي من أتوجه اليه بالحديث انهم يزعمون انني لااستطيع الذهاب فهل هذا صحيح ؟

- ولماذا لاتستطيعين الذهاب ياصاحبة السعادة ؟

- انهم يؤكدون لي ان الرحيل يمثل خطراً بسبب جوار العدو : ياصديقي الباسل ، انني لااستطيع شيئاً ولا افهم شيئاً وليس لدي من يشير علي بشيء . اريد مهما كاف الأمر ان أرحل هذه الليلة او غداً صباحاً على اعظم حد .

لم ينبس درون بكلمة . اخذ يختلس النظر الى سيدته ثم قال اخيراً :

- لاتوجد خيول . ولقد قلت هذا القول من قبل لايا كوف الباتيتش ؟

- ولماذا لاتوجد خيول ؟

- ان عقاب الله مسلط علينا . ان الخيول التي كانت موجودة صودر بعضها من قبل الجيوش ونفق الباقي . يالها من سنة شقاء ! ان امر الحيوانات بسيط لولا ان الناس انفسهم لايجدون ما يأكلونه .. هناك من منذ ثلاثة ايام لم يضعوا شيئاً تحت اسنانهم .. لقد نكبنا ، كما ترين ، نكبنا تماماً !

اصغت اليه ماري بانتباه ثم سألت :

- الفلاحون منكوبون ؟ ألم يعد لديهم شيء من القمح ؟

- انهم يموتون جوعا ... كيف تريدين ان يقدموا عربات ..

- ولماذا لم تقل شيئاً يادروني الطيب ؟ ألا يمكن تقديم المساعدة اليهم ؟ سوف اعمل كل ما استطيع ...

في تلك اللحظة التي كانت متأثرة بحزن عميق يحرقها ، وجدت الأميرة ماري ان من الغرابة وجود اغنياء وفقراء وان لايفكر الاغنياء في نجدة الفقراء ، ولقد سمعت بشيء من الغموض عن قمح مخصص « للسيد » كانوا احياناً يوزعونه على القرويين وكانت تعرف ان أبيها او اخيها ما كانا يرفضان تقديم المساعدة لهم ، لكنها كانت تخاف ان لاتستطيع التعبير عن رغبتها ، كانت سعيدة ان لاتستطيع بسبب غاية نبيلة ، طرد ألمها لفترة ما ، لذلك فقد سألت درون عن تفاصيل حاجات القرويين واحتياطي بوجو تشاروفو .

- ولكن يجب ان يكون لدينا قمح ... حصة أخي ؟

اجاب درون باعتداد :

- ان حنطة الأمير سليمة لم تمس ، لقد رفض اميرنا ان تباع .

- وزعها على القرويين ، اعطهم كل مايحتاجون اليه ، انني اجيزك باسم أخي .

اقتصر جواب درون على تنهدة عميقة .

- اعطهم ذاك القمح اذا كانت كميته تكفيهم ، اعطه لهم كله ، آمرك باسم اخي ، قل لهم ان مالنا نحن لهم كذلك واننا لاندخر شيئاً في سبيل مساعدتهم قل لهم كل ذلك .

ظلت عينا درون شاخصتين الى الامير خلال حديثها فقال :

- بحق السماء ياأميرة اعزليني من منصبي ، مريني ان اعيد مفاتيحي ، لقد خدمت طيلة ثلاثة وعشرين عاماً دون ان آتي سوءاً فاعزليني بحق السماء .

ولما لم تدرك ماري شيئاً من دوافع هذا الطلب ، اجابته بأنها لم تشك قط في وفائه وانها ستعمل المستحيل من اجله ومن اجل القرويين .

الفصل الحادي عشر

قرار الفلاحين

وبعد ساعة دخلت دونياشا معلنة للأميرة ان درون قد عاد وان القرويين المجتمعين بناء على امرها قرب المكدس يرغبون في التحدث اليها .

قالت ماري :

ـ انني لم استدعهم ، لقد قلت لدرون فقط ان يعطيهم قمحاً .

فقالت دويناشا :

ـ اذن ياأميرتي الطيبة ، مري بهم ان يطردوا وخصوصاً لاتذهبي اليهم بحق السماء ، ان كل هذه ليست الا خدعة ، سوف نذهب عندما يعود أبا كوف الباتيتش ... ولكن لاتحتملي عناء .

سألت ماري بدهشة :

ـ عن اية خدعة تتحدثين ؟

ـ انني اعرف ماأقول .. اتبعي نصائحي بحق السماء ، سلي المربية اذا شئت ، انهم يرفضون الذهاب حسب امرك .

ـ لابد وانك مخطئة ، انني لم آمرهم قط بالرحيل ... أدعي درون .

أيد درون أقوال دونياشا : لقد جاء القرويون للقاء الأميرة بناء على امرها .

قالت ماري :

- لكنني لم استدعهم ابداً ، لعلك اخطأت ، لقد قلت لك ببساطة ان توزع عليهم القمح .

اطلق درون تنهدة وقال :

- سوف يرجعون اذا كنت تأمرين .

- كلا ، كلا ، اريد ان اذهب لرؤيتهم .

وعلى الرغم من توسلات دونياشا والمربية فقد مضت الى المرقاة فتبعهما الامرأتان ودرون وميخائيل ايفا نوفيتش .

حدثت نفسها : « لاريب انهم يعتقدون انني امنحهم القمح شريطة ان يبقوا في اماكنهم فاهجرهم بذلك ليصبحوا رهن اوامر الفرنسيين ، سوف اعدهم بجراية شهرية ومأوى في عقارنا القريب من موسكو ، انني واثقة من ان آندريه كان سيفعل اكثر من ذلك لو كان في مكاني . »

وعندما وصلت الى المرعى قرب المكدس حيث ينتظرها القرويون ، كان الليل قد اقبل . ولقد حصلت حركة بين الجماعة المحتشدة ثم حسرت الرؤوس فجأة ، فاقتربت ماري منهم مطرقة الرأس وهي تتعثر بردائها ، ولكثرة الوجوه الفتية والهرمه والابصار التي كانت متجهة نحوها ، لم تستطع ان تميز احداً ، ولما كانت واثقة من انها تخاطبهم جميعاً فقد ارتج عليها ، ولكن ، ايمانها بأنها انما تمثل ابيها واخيها اعطاها من جديد همة ونشاطاً فراحت تتكلم بجرأة رغم ان قلبها كان يخفق بشدة .

قالت دون أن ترفع عينيها اليهم :

- انني مسرورة لمجيئكم ، لقد قال لي درون ان الحرب قد نكبتكم ، انها بلاءنا المشترك ، لذلك فانني لن ادخر وسعاً في سبيل مساعدتكم . . . يجب علي أن أذهب لأن العدو قريب ولأن ... ولأنني معرضة للخطر ببقائي هنا . . .

لكنني اعطيكم كل شيء بأصدقائي ، اسألكم ان تأخذوا كل قمحنا كيلا تصبحوا معوزين ، واذا قالوا لكم انني اقدم لكم هـــذه المنحة كي تمكثوا هنا ، فهو خطأ ، انه على العكس ، انني ارجوكم ان تذهبوا حاملين كل ما تملكوه وان تقيموا في املاكنا قرب موسكوا واعدكم بتقديم المأوى والطعام .

توقفت ماري ولم يجبها الجمع الا بالتنهدات ، استرسلت :

ـ انني لاانقدم بهذا التعهد باسمي وحدي ، بل انني اتصرف باسم المرحوم ابي الذي كان سيداً طيباً لكم وباسم اخي وابنه .

توقفت مرة اخرى ولم يقطع احـــد الصمت ، اردفت وهي تفحص الوجوه بأنظارها :

ـ ان البلاء يشملنا جميعاً لذلك فاننا سنوزع كل شيء مناصفة ، ان كل مايخصني يخصكم .

كانت العيون كلها شاخصة اليها وفيها تعبير عام متشابه ، ولكن ماذا كان يعني ذلك التعبير : الفضول ، التفاني ،العرفان ، ام على العكس الذعر والتحفظ؟ هذا مالم تستطع تبيانه .

قال صوت من الوراء :

ـ اننا نشكرك على أفضالك لكننا لانستطيع اخذ حنطة السيد .

ـ ولماذا اذن ؟

لم تحظ بجواب ، ولاحظت ماري ان النظرات التي اخـذت تلتقي الآن بنظراتها راحت تروغ منها من فورها ، ألحت في السؤال :

ـ لماذا لاتريدون ؟

ولكن دون أن يجيب أحد .

احست ماري بالانزعاج فحاولت ان تستوقف احـدى تلك النظرات . سألت عجوزاً واقفاً قبالتهـا مباشرة متكئاً على عصاه ، استطاعت ان تضبط نظرته .

- لماذا لاتقولون شيئاً ؟ تكلم ، هيا ، اذا كنتم في حاجة الى شيء آخر فانني سأعمل كل مايجب .

لكن العجوز زاد من اطراق رأسه وكأن الامر زاد في اغضابه واعلن :

- لماذا نوافق ؟ لسنا في حاجة الى القمح .

وقالت اصوات كثيرة انبعثت من الحشد :

- ولماذا يجب ان نتخلى عن كل شيء ؟ اننا لن نوافق ... اننا لن نوافق. لن نعطي موافقتنا ... اذهبي وحدك ...

ومن جديد عادت الوجوه تنطبع بذلك الطابع ولكن بات بالامكان قراءة المعنى بكل وضوح الآن ، انه ليس طابع الفضول او العرفان ، بل انه امارات العزم الوحشي .

قالت ماري بابتسامة حزينة :

- لاريب انكم اسأتم فهمي ، لماذا ترفضون الذهاب؟ انني اعدكم بابوائكم واطعامكم في حين ان العدو سينكبكم هنا ...

بيد ان اصوات الجماعة خنقت صوتها :

- سيان ! لينكبنا ! اننا لانريد قمحك ولن نعطي موافقتنا .

حاولت ماري ان تضبط نظرة في ذلك الجمع ولكن ما كانت احداهـــا متجهة نحوها ، كانت العيون كلها تتحاشاها فازداد انزعاجها .

- كم هو جميل هذا الذي تعرضه علينا ! ان نذهب هكذا معها ونترك بيوتنا تهدم ، ان نضع الحبل حول اعناقنا ! وكيف لا ، انني اعطيكم قمحاً !

هذا ماراحوا يقولونه بينهم ، فعادت ماري الى البيت منكسة الرأس : وبعد ان كررت لدرون انها تريد خيولاً لصباح اليوم التالي ، انسحبت الى غرفتها حيث انفردت مع افكارها .

الفصل الثاني عشر

ذكريات ماري

ظلت ماري ليلتئذ واقفة فترة طويلة أمام نافذتها المفتوحة ، لامبالية بجلبة الأصوات التي كانت تتصاعد من القرية : ماذا يهمها من هؤلاء الناس الذين لاتستطيع ان تفهم قط ؟ لم تعد تفكر الا في ألمها ، ذلك الألم الذي أخذ يدخل في حنايا الماضي بعد هذا الالهاء الذي خلقته هموم الحاضر . انها تستطيع الآن ان تذكر وتبكي وان تملي . هدأت الريح بغروب الشمس وجاء الليل ساكناً رطيباً . وصمتت الأصوات تدريجياً حوالي منتصف الليل وصاح ديك وظهر البدر من وراء الزيزفون ونشر الندى أبخرته البيضاء وران السكون فوق القرية والبيت .

تمثلت أمامها صور ماض قريب الواحدة تلو الاخرى : المرض ولحظات أبيها الأخيرة . ولقد توقفت عندها بتلذذ ضجر لاتدفع عنها منها بهول الا واحدة ، تلك التي تمثل الموت التي كانت تشعر انها لاتملك القوة على استعراضها في تلك الساعة الصافية الغامضة من الليل . ولقد بدت لها تلك المشاهد بوضوح شديد وتفصيل دقيق حتى انه كان يخيل اليها انها ملك الحاضر تارة وتارة الماضى والمستقبل ، مرة اخرى .

عادت ترى تلك الدقيقة التي أصيب فيها أبوها بالنوبة القلبية في حديقة ليسيبيا جوري : كانوا عائدين به وهم يحملونه من تحت ابطيه وكان يغمغم شيئاً بلسانه العاجز ويقطب حاجبيه الأبيضين وينظر اليها بحزن وخجل .

فكرت : « كان يريد منذ ذلك الحين ان يقول لي ما قاله يوم موته . لقد كان ذلك هو مستقر تفكيره دائماً . » وفجأة تذكرت الليلة التي سبقت النوبة في ادق تفاصيلها ، حينما توقعت ان يحل مكروه فرفضت ان تتركه وحيداً . لقد نزلت على اطراف قدميها وقد جفاها النوم فلما وصلت الى باب الحديقة الشتوية حيث كان ابوها يمضي ليلته تلك ، سمعته يتحدث مع تيخون بصوت منهك محطم عن القرم والليالي الحارة و عن الامبراطورة . كان بلاريب يشعر بحاجة الى الكلام . ولقد حدثت ماري نفسها وهي تتصور موقفة الآن : « ولماذا لم يأمرباستدعائي ؟ لماذا لم يسمح لي بأن أحل محل تيخون بالقرب منه ؟ آه ! انه لن يقول لأحد ابداً ما كان يعتلج في قلبه حينذاك . ان تلك اللحظة التي كان يمكن ان يقول خلالها ما يريد ان يقوله والتي لو كنت هناك عوضاً عن تيخون اصغي اليه وافهمه ، لن تعود ابداً بالنسبة اليه ولابالنسبة الي . آه ! لماذا لم ادخل ليلتئذ ! كان سيحدثني ولا ريب كما حدثني وهو على فراش الموت انني اذكر انه بينما راح يتحدث مع تيخون ، استفسر مرتين عني . كان يتوق الى رؤيتي بينما كنت انا وراء الباب . كان يتألم من ان لايسمعه احد غير تيخون الذي ما كان يستطيع فهمه لقد حدثه عن « ليز » وكأنها لاتزال على قيد الحياة لأنه نسي ولاريب انها ماتت . فلما لفت تيخون انتباهه الى انها لم تعد في هذه الدنيا نعته بالأحمق . لقد كان يتألم . لقد سمعت خلال الباب كيف زمجر وهو يستلقي على السرير وكيف صاح : « رباه ! » لماذا لم ادخل حينذاك ماذا كان عمل لي ؟ أي خطر كان يهددني ؟ لعل زيارتي كانت ستحمل له الراحة ولعله كان سيقول لي هذه الكلمة . » وبصوت مرتفع، لفظت ماري تلك الكلمة

المهالقة التي قالها لها يوم موته : « ياروحي العزيزه » وراحت ترددها وهي تذرف الدموع المسكنة . باتت ترى الآن امامها وجه ابيها . ليس ذلك الوجه النافر الذي عرفته دائماً بل ذلك الوجه الجزع الضعيف الذي تأملته لأول مرة في ادق تقاطيعه عندما مالت عليه لتقترب من شفتيه بغية سماع ما سيقول .

كررت : « ياروحي العزيزة .. »

وتساءلت فجأة : « ماذا كان يفكر عندما قال لي هذه الكلمه ؟ بأي شيء يفكر الآن ؟ » وجواباً على هذا السؤال تصورت التعبير الذي انطبع على وجهه وهو في نعشه وحول ذقنه العصابة البيضاء . وعاد ذلك الرعب الذي استحوز عليها عندما لمسته فأحست بأنه لم يعد هو نفسه فحسب بل اصبح شيئاً غامضاً ومنفراً ، استحوز عليها ذلك الرعب نفسه في تلك اللحظة . ارادت ان ان تفكر في شيء آخر ، في الصلاة . لكنها لم تقدر على ذلك . راحت تتأمل ضياء القمر والاطياف بعينين جاحظتين وهي تتوقع في كل لحظة ان يظهر امامها وجه الميت . وشعرت كأن الصمت العميق الذي يخيم على البيت وما حوله يشل حركتها فغمغمت ثم صرخت بصوت غريب :

– دونياشا ! .. دونياشا !

وانتزعت نفسها من الصمت ، فاندفعت الى حجرة الوصيفات حيث هرعت المربية ونساء اخريات الى لقائها استجابة لندائها .

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

تدخل روستوف

في السابع عشر من آب ،ذهب روستوف وايلين وتابعلهم ومعهم لافروشكا الذي عاد من أسره القصير ، في نزهة من معسكرهم في ايانكوفو على بعد أربعة أميال من بوجوتشاروفو ، بغية تجريب حصان جديد اشتراه ايلين والبحث عن امكان وجود علف في القرى المجاورة .

كانت بوجوتشاروفو منذ ثلاثة أيام بين الجيشين العدويين معرضة في كل لحظة لان تحتلها مؤخرة الجيوش الروسية او طلائع الجيوش الفرنسية . لذلك فقد كان روستوف بوصفه رئيس كوكبة نابه يريد ان يحصل قبل العدو على ما قد تبقى من الارزاق .

ولقد كان الشابان ذلك اليوم على خير مزاج فكانا وهما في طريقهما الى ذلك الملك الاميري ، بوجوتشاروفو ، الذي توقعا ان يريا فيه خدماً كثيرين وبينهم فتيات جميلات كثيرات ، يتسليان بالسؤال من لافروشكا عن نابوليون او باختبار الحصان الذي اشتراه ايلين متبارزين في الجري .

ما كان روستوف يشك في ان القطاع الذي يذهب اليه ملك لبولكونسكي ذاك الذي كان خطيب اخته .

وللمرة الاخيرة ، اطلق وايلين مطيتيهما عند المنحدر قبل بوجوتشاروفو فكان روستوف الذي سبق صديقه اول من جرى في شارع القرية .

قال له ايلين وقد تورد وجهه :

— لقد سبقني !

فأجاب روستوف وهو يربت بيده على جواده « الدوني » الذي ابيض من الزبد :

— لي السبق في كل الميادين .

وقال لافروشكا من الوراء :

— أتدري ياصاحب السعادة أنني كنت قادراً على اللحاق بك على ظهر فرسي — وكان يدعو كديشة الجر التي كان يمتطيها بهذا الاسم — لكنني ما أردت ان اخجلك .

اقتربا من رواق وقف تحته عدد كبير من القرويين فنزع بعضهم قلانسهم واكتفى الآخرون بالنظر الى الوافدين الجـدد . وخرج عجوزان عملاقان متغضنا الوجه ذو لحيتين غير ناميتين ، من المشرب وهما يبتسمان ويتمايلان ويدمدمان في غير انسجام واقتربا من الضباط .

قال روستوف وهو يضحك :

— يالهما من فتيين ! قولي ، هل لديكم علف ؟

وقال ايلين ملاحظاً :

— ان كليهما زوج نادر . .

ونطق احد العجوزين بضحكة بلهاء :

— سرورنا با . . للق . . اء . .

واقترب واحد من الجماعة من روستوف وسأل :

من أنتم ؟

فأجاب ايلين بانشراح جزيل :

— فرنسيون .

واضاف وهو يشير الى لافروشكا :
- بل ان هذا هو نابليون بالذات .
استأنف القروي :
- استناداً الى هذا ، فانتم روسيون ؟
واستفسر آخر قصير القامة وقد اقترب بدوره :
- هل معكم خلق كثير ؟
اجاب روستوف :
- كثير كثير .. ماذا تفعلون هنا ؟ هل اتفق ان اليوم يوم عيد ؟
فقال الرجل وهو يبتعد :
- لقد اجتمع شيوخنا للتداول في شؤوننا .
وفي تلك اللحظة نفسها ، ظهر على الطريق المؤدي الى البيت الكبير امرأتان ورجل يضع على رأسه قبعة بيضاء فتوجهوا نحو الضابطين .
قال ايلين وهو يشير الى دونياشا التي راحت تتجه نحوه بخطى مصممة :
- انني احتفظ بذات الثوب الوردي فحذار ان « يلطشها » مني احد !
وقال لافروشكا وهو يغمز بعينيه بقحة :
- سوف ننالها !
سألها ايلين وهو يبتسم :
- ماذا يلزمك ياجميلتي ؟
- ان الأميرة ارسلتني لاسألكم عن الفوج الذي تنتمون اليه وعن اسمكم ؟
- ان السيد هو الكونت روستوف قائد الكوكبة وانا خادمك المتواضع .
ودمدم العجوز الثمل ذو الضحكة البلهاء وهو يتأمل هذا المنظر :
- سررنا با .. للقـ .. اء ..
وصل الباتيتش على اثر دونياشا وقد كشف عن رأسه باحترام قبل ان

يصل وقال بامتثال يظهر فيه بعض المقت لشباب روستوف ، محتفظاً بيده في شق ثوبه :

- هل اجرأ على ازعاجكم ياصاحب النبالة . ان سيدتي ، ابنة الجنرال القائد الاعلى الأمير نيكولا اندريئفيتش بولكونسكي المتوفي في الخامس عشر من هـذا الشهر في موقف صعب بسبب غلظة هؤلاء الناس - واشار بيده الى القرويين - وهي تسألكم ان تذهبوا لرؤيتها .. هل تريدون ان تتنحوا قليلاً ، اننا لانستطيع ان نتفاهم بحضور هؤلاء .. - واشار بابتسامة ضجرة الى الثملين اللذين كانا يدوران حوله متأخرين قليلاً كما يدور الذباب حول الخيل . -

وقال الرفيقان الثملان وهما يكشفان له عن اجمل ابتساماتهما :

- هي ! الباتيتش ! .. اياكوف الباتيتش ! .. انك تتكلم جيداً .. اعذرنا بحق المسيح .

فلم يستطع روستوف حيال هـذا المشهد الا ان يبتسم هو الآخر . فقال اياكوف الباتيتش بأشد لهجاته اتزاناً :

- الا اذا كان ذلك يبعث التسلية في نفس سعادتك .

فقال روستوف :

- كلا ، لايوجد ما يدعو الى التسلية .

ثم سأل بعد ان ابتعد قليلاً :

- هيا ، ما هو الموضوع ؟

- يجب ان اخطر سعادتك بأن هؤلاء التضامين لايريدون ان يسمحوا لسيدتي بمغادرة المكان مهددين بحل الخيول من العربات حتى ان كل شيء معد منذ هذا الصباح دون ان تستطيع الاميرة الذهاب .

هتف روستوف :

- مستحيل !

– لى الشرف بان اروي لك الحقيقة النقية .

ترجل روستوف وسلم حصانه الى التابع ثم اتجـه نحو البيت برفقة الباتيتش الذي شرح له تفاصيل المسألة . ولقدافسد عرض توزيع القمح على القرويين وتفاهم الاميرة مع درون ومندوبي المقاطعة الأمر حتى ان شيخ القرية اعاد مفاتيحه نهائياً ليلحق بمرؤوسيه فلم يستجب لدعوة الباتيتش . وعندما اصدرت الأميرة منذ الصباح الباكر الأمر بقطر الخيول الى العربات استعداداً للرحيل، اجتمع القرويون بعدد كبير امام المكدس وارسلوا من يقول انهم بدلاً من ان يدعوها تذهب ، سيحلون الخيول . ولماحاول الباتيتش ان يعيدهم الى صوابهم اجابه السيد كارب – لأن درون كان يتحاشى الظهور – ان الأميرة بذهابها انما تخالف التعليمات التي اصدرتها السلطات وان واجبها يحتم عليهـا البقاء وانهم سيستمرون على خدمتها كسابق عهدهم ويطيعونها في كل شيء ان هي بقيت . وعندما كان روستوف وايلين يصلان هدبا الى الطريق العام ، كانت الأميرة متصامة عن سماع لوم الباتيتش والمربية والخادمات ، تتأهب للذهاب مهما كلف الأمر . لكنها عندما لمحت الفرسان الذين ظنت انهم من الفرنسيين ، كان الحوذيون قد فروا بينما راحت النساء يملأن البيت توجعاً وانيناً .

تعالت صرخات متوسلة بينما كان روستوف يجتاز الدهليز :

– انقذنا ايها السيد العزيز . ان الله الكريم هو الذي ارسلك !

وكانت الأميرة ماري ساهمة منهوكة القوى في البهو عندمـا ادخل عليها روستوف فلم يسمح لها قلقها البالغ ان تدرك للوهلة الاولى من هو ذلك الرجل وماذاجاء يفعل هناك . ولكنها عندما تبينت من تصرف الضابط الشاب وكلماته الاولى التي فاه بها انه روسي وانه رجل من طبقتها ، حتى شخصت اليه بنظرتها العميقة المشرقة وأجابته بصوت متهدج يقطعه الانفعال . ولا شك ان روستوف اكتشف لاول وهلة الجانب الروائي في المغامرة . فكر وهو يتـأمل ماري

ويصغي الى قصتها وهي ترويها بصوتها الحي : « هـذه الفتاة العزلاء المحطمة من الألم واقعة تحت رحمة القرويين المتمردين ! يالدعابة القدر الذي ساقني الى هنا في الوقت المناسب ! .. ويالرقة ، ياللنبل في تقاسيمها وفي امارات وجهها ! »

وعندما بلغت في قولها ان كل هذا وقع غداة يوم دفن ابيها ، ازداد صوتها اضطراباً فادارت رأسها خشية ان يعتقد روستوف انها تحاول ان تثير شفقته على مصيرها ثم القت نظرة مستفسرة وجلة على وجه الشاب . رأت ان الدموع كانت تتلألأ في مقلتيه . لاحظت الأميرة ماري ذلك فشكرته بتلك النظرة المشرقة التي تذهب دمامة تقاسيمها .

أعلن روستوف وهو ينهض واقفاً :

ـ لاأستطيع يا أميرة ان أعرب عن مدى سعادتي لو جودي هنا صـدفة ولأستطاعتي ان أضع نفسي تحت تصرفك الكلي . اذهبي ، وانني اكفل بشرفي انك اذا سمحت لي بمرافقتك ، لن يستطيع أحد ان يسبب لك أي ازعاج .

واتجه نحو الباب وهو ينحني أمامها باحترام وكأنها أميرة من البيت المالك لقد كانت تلك التصرفات الاحتفالية تقول انه رغم رغبته الشديدة في ان يربط معها أواصر معرفة أوسع ، الا انه لايريد استغلال شقاء ماري ليتابع الحديث معها . ولقد فهمت الفتاة هذا المعنى وقدرت تلك الفطنة .

قالت له بالفرنسية :

ـ انني شاكرة لك صنيعك جداً جداً . آمل ان لايكون هذا كله الا كثر من سوء تفاهم وان لاتجد فيه مذنباً ..

ثم أضافت وهي تشعر بالدموع تطفر من عينيها :

أعذرني ..

قطب روستوف حاجبيه وانحنى مرة اخرى وخرج .

الفصل الرابع عشر

اخماد الفتنة

حسناً ! انها جميلة ! ان فتاتي فاتنة ياعزيزي واسمها دونياشا ..

لكن نظرة واحدة القاها على روستوف اصمتت ايلين على الفور . حدس ان رئيسه ، بطلبه ، لايفكر الآن في الترهات .

والواقع ان روستوف لم يجبه الا بنظرة ثائرة واتجه نحو القرية يحث الخطى . كان يدمدم في سره :

- سوف اريهم ، سوف اعطيهم مايستحقونه ، هؤلاء الانزال !

ووجد الباتيتش صعوبة في اللحاق بـه رغم انه راح يوسع خطاه . ولما لحق به سأله :

- أي قرار اتخذتم ياصاحب السعادة ؟

توقف روستوف وفجأة تقدم نحو الباتيتش مهدداً بقبضتيه وصاح :

- قرار ! أي قرار ؟ أين كانت عيونك أيها الأبله العجوز ؟ يتمرد القرويون فلا تعرف كيف تعيدهم الى الطاعة ! لست الا خائناً أنت الآخر ! آه ! انني أعرفكم جيداً ، سوف أسلخ جلودكم جميعاً ! ..

ولما كان يخشى ان يبدد عبثاً الغضب الذي تجمع في نفسه ، فقد ترك المسجل ليعود الى مشيته السريعة . أما الباتيتش ، فقد راح بالحاح يلحق بروستوف جرياً

ليعرض عليه افكاره وقد فرض الصمت على كرامته المهانـة . فالقرويون ، اذا آمنا بكلامه ، مدعومون كل الدعم وان من غير الحكمة ان يناوئهم دون اللجوء الى القوة المسلحة . فمن الافضل اذن استدعاء الجنود قبل كل .

قال نيكولا وهو يجيب دون ترو بعد ان استبدت به ضرورة فثء غضبه المخالف للصواب ، الحيواني ، الذي كان يخنقه :

– استدعاء الجنود ! .. مناوءتهم ! .. سوف نرى هذا ! ..

مشى بخطوات حازمة الى الجموع المحتشدة دون ان يفكر فيما سيعمل . وكلما ازداد قرباً من المحتشدين ، ازداد اعتقاد الباتيتش بان هذه الحركة غير الحكيمة قد تؤدي بالفلاحين الثائرين الى الندم خصوصاً وان مشيـة روستوف النشيطة ووجهه المتقلص أخذ على ما يبدو يحدثان على وجوههم مثل ذلك الاثر .

لم يكد الفرسان يدخلون القرية ولم يكد روستوف يمضي الى زيارة الأميرة حتى عمّ الخلاف والتباين في آراء الجماعة المحتشدة . صرخ بعضهم بان الوافدين الجدد من الروسيين وانهم يستـاءون من استبقائهم الأميرة . وكان درون من انصار أصحاب هذا الرأي . لكنه ما كاد يفتح فمه حتى هاجم كارب وعدد آخر شيخ البلد السابق هجوماً عنيفاً . صرخ كارب :

– سيان عندك هذا ، هن ؟ منـذ كم عام وأنت تجتز الصوف من على ظهورنا ؟ ثم تستخرج كنزك الدفين ثم الوداع ، لقد رأيتك . سيان عندك ان يخربوا بيوتنا !

وصرخ صوت آخر :

– ان ما قيل قد قيل . لا ليتحرك أحد منكم ولا ليحمل أحد ذره ! لا يمكن التراجع عن هذا القرار .

والقى عجوز صغير فجأة مخاطباً درون :

– كان دور ابنك في الذهاب الى الجيش . لكنك خشيت على ذلك المنتفخ

الضخم فكان ان احللت ولدي محله ! .. سوف نموت كلنا ، هـه ، اذ يجب ان تكفر أنت الآخر عنها ، عن خطاياك !

– نعم ، بالطبع ، يجب ذلك !

فأعلن درون :

– لن أنفصل عن البلد .

– كلام .. وبطنك العظيم هذا ، من أين اكتسبته على هذا النحو ؟ ..

كذلك كانت ثرثرة العملاقين العجوزين .

لم يكد روستوف وبصحبتـه ايلين ولافروشكا والباتيتش يصل قريباً من الجماعة حتى انبرى كارب الى الأمام وأصابعه في حزامه والابتسامة الخفيفة على شفتيه . أما درون فقد راح على العكس يختفي في الصفوف الخلفية . واقتربت الحشد المكتظ .

صاح روستوف وهو يمشي اليهم :

– هولا ! من هو شيخ البلد ؟

فسأل كارب :

– شيخ البلد ؟ وماذا تريد منه ؟

لكنه لم يكد يتم جملته حتى كانت قلنسوته تطوح في الهواء ورأسه يتأرجح تحت وطأة الضربة القوية .

زجر روستوف :

– ارفعوا القلانس ! أيها الخونة !

وكرر بصوت رهيب :

– أين شيخ البلد ؟

هرعت بعض الاصوات تقول وقد خضعت بينما انحسرت الرؤوس :

– شيخ البلد ! شيخ البلد ! .. يادرون زاخاريتش ، انه يدعوك !

أعلن كارب :

ـ اننا لم نتمرد . لكننا نسهر فقط على التدابير المتخذة ..

وبادرت أصوات من الوراء الى نجدته :

ـ لقد تمسكنا بقرار شيوخنا .. أما سلطات مثلكم فكثيرة الوجود ..

هدر روستوف بصوت لم يكن فيه شيء من الانسانية :

ـ هن ؟ .. تناقشون ؟ .. عصيان ! .. عصبة الاشرار ! عصبة الخونة !

وأمسك كارب من ياقته وقال آمراً :

ـ ليشد وثاقه ، ليشد وثاقه !

رغم انه لم يكن هناك لتنفيذ هـذا الأمر غير لافروشكا والباتيتش . مع ذلك فقد هرع لافروشكا وأمسك يدي الرجل من الخلف وقال :

ـ ان الرفاق عند أسفل المنحدر فهل يجب استدعاؤهم ؟

وانتخب الباتيتش اثنين من القرويين خرجا بوداعة من بين الصفوف وشرعا يحلان نطاقيها بينما صرخ روستوف من جديد :

ـ اين شيخ البلد ؟

خرج درون من بين الجمع شاحب الوجـه مكتئباً فهتف روستوف آمراً وكأن تنفيذ امره لايجب ان يصطدم بأي عائق :

ـ هذا أنت شيخ البلد ؟ اشدد وثاقه يالافروشكا !

وبالفعل ، فقد حل اثنان آخران من القرويين حزاميهما وراحا يوثقان يدي درون الذي سهل المهمة من جانبه بتقديمه نطاقه الذي حل من حول وسطه .

استأنف روستوف يقول مخاطباً القرويين :

ـ أما أنتم ، فاصغوا الي جيداً . منذ هذه اللحظة ، الى الأمام سر ! ليمضَ كل منكم الى داره وليتحاشى التفوه بكلمة !

قالت بعض الاصوات وأخ أصحابها يتبادلون الاتهام :

– لم نرتكب اثماً .. لقد تصرفنا هكذا بغباء .. لقد قلت ان هذا لن يؤدي بنا الى أي شيء ..

وقال الباتيتش الذي استعاد سلطته من فوره :

– لقد أخطرتكم من قبل . ان العمل ليس حميداً ايها الفتيان !

فاجابته أصوات :

– ماذا تريد يا أياكوف الباتيش ، لسنا ماكرين .

وتفرقت الجماعة على الفور بينما تأثر الثملان خطوات السجينين اللذين اقتيدا الى البيت .

قال أحدهم لكارب :

– يالشكلك الجميل !

وأيد الآخر :

– ماذا دعاك الى التحدث هكذا الى الاسياد ! انك أبله يافتاي ، أبله شديد البأس !

وبعد ساعتين ،وقفت العربات في الفناء وراح القرويون يرصفون فيها أمتعة سادتهم بحماس بينما راح درون الذي اخرج من الحجرة الصغيرة التي سجن فيها بناء على طلب الأميرة ، يلقي الأوامر الى القرويين .

قال أحد الفلاحين ، وهو فتى مديد القامة ذو وجه مستدير باسم ، وهو يتلقى صندوقة من يدي خادمة :

– ضع هذا في مكان جيد . ان مثل هذا الشيء ثمين فلا يجب حشره كيفما اتفق ولا ربطه بقطعة حبل لأن ذلك سيفسده . ان مثل هذه الاساليب الشريفة .. هكذا ، احزم لي هذا كما يجب في القش وغطه بقطعة حصير . هكذا ، « مشي الحال » .

وقال آخر وهو يفرغ مكتبة الأمير آندريه :

- يالكثرة ما فيها من كتب !.. لاتعتروني ، هن ! آه ، كم هي ثقيلة يافتيان ! ان كتباً كهذه عمل رائع ..

وقال الفلاح العملاق ذو الوجـــه المستدير وهو يلقي نظرة الخبير على المعاجم الضخمة :

- بالطبع . ان الذين كتبوا هذه الكتب لم يدخروا وسعاً ..

★ ★ ★

لم يشأ روستوف ان يفرض نفسه على الأميرة لذلك فانه لم يعد لرؤيتهـا بل لبث في القرية حتى لحظة الرحيل . وعندما تحرك الموكب ، امتطى جواده ورافق الأميرة حتى أبلغها الطريق الذي تحتله قواتنا على مسافة ثلاثة أميال من بوجوتشاروفو . وفي نزل ايانكوفو ،سأل باحترام ان تأذن له بالانصراف وسمح لنفسه للمرة الاولى ان يقبل يدها .

قال لماري التي راحت تشكره على انقاذه حياتها ووجهه متورد :

- انك تخجلينني . كان باستطاعة أي دركي ان يعمل ما عملت . . لو اننا ما كنا نحارب الا القرويين لما تركنا العدو يتقدم الى مثل هذه المسافة .

ثم أضاف في شيء من الارتباك محاولاً ان يقف بالحديث عند ذلك الحد :

- على انني أبارك هذا الحادث الذي سمح لي بالتعرف عليك . وداعاًياأميرة اتمنى لك كل سعادة ممكنه . عسى ان نلتقي في ظروف أقل حزناً من هذه . كلا أتوسل اليك ، لاتخجليني ولاتشكريني .

لكن الأميرة اذا كفت عن شكره بالكلمات ، فانها ظلت تشكره بتعابير وجهها المشرق بالعرفان والحنان . كانت ترفض ان تصدق انها غير مدينة اليه بآيات الشكر ، وتقول لنفسها : « لوانه لم يكن هناك ، لكنت ضحيةالقرويين الثائرين والفرنسيين . ولقد تعرض لأخطار رهيبة بديهية بقصد انقاذي . ليس

في ذلك ادنى شك . ثم انه بلا ريب روح نبيلة : لقد عرف كيف يرثي لألمي ، فقد امتلأت عيناه الشديدتا الطيبة والنبل بالدموع في اللحظة التي كنت أبكي فيها عندما حدثته عن ابي المتوفي . » ولقد رست هـذه الذكرى بعمق في قلب الأميرة ماري .

ولما ودعته وأصبحت وحيدة ، شعرت فجأة باستعدادها للبكاء . تساءلت وان لم تكن تلك الفكرة الغريبة قد غزت رأسها لأول مرة : « ترى هل أحبه ؟ »

ولقـد لاحظت دونياشا التي رافقت سيدتها خلال الرحلة الى موسكو ان الأميرة قد أخرجت رأسها مراراً خلال باب العربة وابتسمت ابتسامة حزينة وسعيدة معاً رغم ان الرحلة لم تكن الا قليلة المرح .

وعلى الرغم من الخجل الذي شعرت به وهي تعترف بانها تحب اول رجل لا يبادلها ولاريب عاطفتها بمثلها ، فقد كان عزاؤها أن ما من أحـد سيعلم عن الموضوع شيئاً وانها لاترتكب أي خطأ اذا احبت بصمت والى آخر عمرها ، ذلك الذي سيكون غرامها الأول والوحيد .

وكانت أحياناً تستعرض بعض التفاتات روستوف ونظراته وكلماته فيخيل اليها حينذاك ان السعادة ليست مستحيلة . وكانت دونياشا تلاحظ في مثل تلك اللحظات الابتسامة على شفتي سيدتها وهي تطل من باب المركبة .

راحت ماري تحدث نفسها وهي ترى في كل ذلك اصبع القدرة : « كان يجب ان يأتي الى بوجوتشاروفو وفي تلك الدقيقة بالذات ! كان يجب ان ترفض اخته خطوبة الأمير آندريه ! »

اما روستوف ، فقد حمل من الأميرة ماري أروع ذكرى . ولما قال له رفاقه الذين اطلعوا على مغامرته في بوجوتشاروفو انه بينما ذهب للبحث عن العلف اكتشف واحدة من اغنى وارثات روسيا ، لم ترق له الدعابة . ذلك لأن فكرة

الزواج من تلك الفتاة الرقيقة المحبوبة المالكة ثروة ضخمة قـد راودت رأسه في الواقع اكثر من مرة . ما كان يستطيع ان يتمنى أفضل منها زوجة . ان هذا الزواج لاريب قادر على اقرار اوضاع أبيه المالية واغداق السعادة على قلب والدته وقلب ماري نفسها ولاشك . انه يحس بذلك . نعم ، ولكن سونيا ولكن الوعد الذي صرفه ؟ وكانت هذه النقطة الأخيرة هي التي تفسد مزاجه وتزعجه في موضوع الأميرة بولكونسكي .

الفصل الخامس عشر

كوتوزوف وآندريه

ما ان تسلم كوتوزوف قيادة الجيوش حتى تذكر الأمير آندريه فأرسل يستدعيه الى القيادة العامة .

ووصل آندريه الى تساريفو - زائيميختيه في اليوم نفسه وفي اللحظة التي كان كوتوزوف يقوم فيها باستعراضه الأول . توقف أمام منزل كاهن القرية حيث وقفت عربة « عظيم الرفعة » - وهو اللقب الذي راح الناس كلهم يطلقونه على كوتوزوف - وجلس ينتظره على المقعد الذي يدعم البوابة. وكانت أصوات موسيقى عسكرية تتناوب في الحقول مع هتافات مدوية : هورا . وعلى قيد عشر خطوات من آندريه ، أخذ تابعان وحاجب وخادم يتنزهان في الهواء الطلق في غياب سيدهم. واوقف نائب زعيم من الفرسان حصانه أمام بولكونسكي وكان قصير القامة أسمر اللون ذا شاربين وسالفين طويلين ، وسأله عما اذا كان هذا هو بيت « عظيم الرفعة » وما اذا كان يمكن رؤيته بعد حين .

ولما أنبأه آندريه بأنه ليس من أعضاء أركان حرب كوتوزوف وانه مثله، وصل منذ حين ، خاطب الفارس واحداً من التابعين . فأجاب المتظرف بتلك اللهجه الطلقة التي يتصنعها حيال الضباط تابعو الجنرالات :

ـ عن ماذا ؟ عظيم الرفعة ؟ نعم ، يعتقد انه سيكون هنا قريباً . مـاذا تريد منه .

ابتسم نائب الزعيم في شاربيه وترجل . وبعد ان اسلم حصانه الى تابع ، اقترب من بولكونسكي يحييه تحية خفيفة فأفسح له هذا مكاناً على المقعد .

سأله وهو يجلس بجانبه :

ـ هل تنتظر القائد الأعلى أيضاً ؟ انهم يقولون انه يستقبل كل الناس وهذا مضجر . لقد كان هذا الأمر مختلفاً مع أكلة النقانق . ان ايرمولوف لم يطلب عبثاً تعيينه « ألمانياً » . لنأمل ان يستطيع الروسيون بعد الآن قول كلمتهم . ماكان الآخرون يعرفون الا التقهقر . كفانا تقهقراً على هـذا النوع يالألف شيطان ! . . هل اشتركت في الحرب ؟

أجاب آندريه :

ـ لقد حصل لي السرور ، ليس بالمساهمة في التراجع فحسب ، بل كذلك بفقد واضاعة أثمن ماكان عندي اضافة الى املاكي . . وهو أبي الذي مات من الحزن . انني من مقاطعة سمولنسك .

ـ آه ! انت الأمير بولكونسكي ؟ يفتنني ان اتعرف عليك . انني نائب الزعيم دينيسوف ، اشتهرت باسم فاسكا .

قال ذلك وهو يشد على يد آندريه وينظر اليه باهتمام ودي . أعقب بعـد فترة صمت :

ـ الحقيقة اني علمت . . ها هي ذي اذن حرب يأجوج . انهـا جميلة جداً اذا اريد لها ذلك ولكن ليس بالنسبة الى الذين يقدمون تكاليفها ! . . اذن ، أنت الأمير آندريه بولكونسكي ؟ انني سعيد يا أمير ، سعيد بمعرفتك .

وراح يهز رأسه بابتسامة حزينة وهو يردد هذا القول ومن جديـد عاد يشد على يده .

كان الأمير آندريه يعرف دينيسوف تبعاً لما روته له ناتاشا عن المتقدم الأول لطلب يدها . فأيقظت هذه الذكرى الرفيقة الشاقة معاً في نفسه المشاعر الأليمة التي كانت هاجعة في أعماق قلبه حتى انه لم يفكر فيها منذ بعض الوقت لقد أصابته في الايام الأخيرة صدمات نفسية اخري : مغادرة سمولنسك ، زيارته لليسيبيا جوري ، الخبر الجديد الذي تلقاه عن وفاة والده ، حتى باتت تلك الذكريات معدومة أو على الأقل ، لم تعد تهاجمه بمثل تلك القسوة . أما بالنسبة الى دينيسوف ، فان اسم بولكونسكي بعث في ذاكرته ذلك الماضي الشاعري البعيد : عاد يرى ذلك المساء الذي تقدم بعد العشاء واغنية ناتاشا ، يعلن حبه لتلك الصبية البالغة من العمر ١٥ عاماً دون ان يدرك ما يفعل . لكنه بعدان أفطع هذه الرواية السالفة ابتسامة ، عاد من فوره الى مشاغله الحاضرة الوحيدة لقد ابتكر وهو يحمي بفرسانه تراجع الجيوش ، خطة حربية عرضها على باركلي دوتولي وأراد الآن ان يعرضها على كوتوزوف . بدا له خط عمليات الفرنسيين شديد الامتداد فكان يجب العمل ضد خطوط مواصلاتهم بدلاً من العمل في الجبهة وقطع الطريق عليهم أو حتى تنفيذ الخطتين معاً . وراح يشرح أفكاره للأمير آندريه :

- انهم لن يستطيعوا الصمود على طول هذا الخط . بل انني . اؤكد امكان قطعه . أعطني خمسمائة رجل وانني أقسم بشرفي على انني سأخترق هذا الخط ! ان حرب الانصار هي الاسلوب الجيد والأوحد !

وبينما راح دينيسوف وهو واقف يشرح خطته العتيدة ويدعمها باشارات كبيرة من ذراعيه ، ارتفعت من ساحة العرض هتافات أكثر تبايناً واتساعاً راحت تختلط بأصوات الموسيقى والغناء ، فبلغت مسامعهم . ولم تلبث ان ملأت الجلبة المصحوبة بوطىء قوائم الخيل القرية كلها .

هتف القوقازي القائم بالحراسة عند باب الفناء :

ـ ها هو ذا يصل ! هذا هو !

وفي تلك الأثناء ، وقفت مفرزة من الجنود بالباب . انها حرس الشرف . واقترب بولكونسكي ودينيسوف فرأيا كوتوزوف يتقدم ممتطياً صهوة جواد كميت صغير،تواكبه حاشية كبيرة من الجنرالات وكان باركلي يسير على جواده بمحاذاته تقريباً . بينما راحت طائفة من الضباط تجري الى جانب الموكب وهم يهتفون : هورّا !

تقدم المساعدون العسكريون ودخلوا الى الفناء . وراح كوتوزوف يستحث بنفاذ صبر جواده الذي كان يهملج منحنياً تحت وزن فارسه ، وهو لايني يحني رأسه ويرفع يده الى عمرته البيضاء الخاصة بالحرس الراكب ، وهي عمرة بيضاء ذات حاشية حمراء لاطرف لها . ولما وصل الى حـذاء حرس الشرف المؤلف من نخبة من الجنود البواسل يحمل معظمهم الاوسمة ، شخص اليهم فترة طويلة وهم يحيونه بالسلاح بنظرته النافذة كرئيس ثم التفت الى الضباط الذين كانوا يحيطون به . وفجأة اتخـذ وجهه طابع الازدراء وهز كتفيه بحركة تدل على الدهشة ، ثم قال :

ـ ومع مثل هؤلاء الفتيان لانكف عن التقهقر !

ثم أضاف وهو يدفع حصانه نحو البوابة ويمر منها ماراً بالأمير آندريه ودينيسوف :

ـ هيا ياجنرال ، الى اللقاء .

وارتفعت الأصوات من الوراء :

ـ هورّا ! هورّا ! هورّا !

رآى آندريه ان كوتوزوف اضخم وأثقل وزناً وأكثر ترهلاً مما كان عليه

وقت ان قابله آخر مرة. بينما بالمقابل لم تتبدل عنه البيضاء وذلك الجرح الملتئم وتلك المظاهر المنهكة التي كان يعرفها حق المعرفة. وكان يتمنطق بسوطه فوق بزته وقد تدلى الى سير جلدي رقيق. وكان متهاوياً على على ظهر جواده الصغير الباسل يتأرجح بتثاقل ويصفر صفيراً خافتاً خلال أسنانه أما وجهه، فكان يعكس الرضى عن امكانية التنعم بقسط من الراحة بعد سخرة تقليدية. سحب ساقه اليسرى من لركاب ومررها فوق السرج بحركة دائرية من كل جسمه وقد قطب حاجبيه استجابة للمجهود وانطوى على ركبته ثم تهاوى وهو يزجر بين أذرع القوقازيين والمساعدين العسكرين الذين أخذوا يسندونه.

انتصب من جديد وسرح حوله الطرف بعينيه نصف المغمضتين وتصفح وجه الأمير آندريه دون ان يعرفه ثم اتجه نحو المرقاة بمشيته النازلة وعاد من جديد الى الصفير وهو ينظر الى الأمير آندريه. وكما يقع عادة للشيوخ، اقتضاه بضع ثوان حتى استطاع ان يضع اسماً لذلك الوجه. قال بنصب:

– آه! مرحباً ياأمير، مرحباً ياعزيزي. هيابنا . .

وبخطواته الثقيلة، اجتاز درجات المرقاة التي تطقطق تحت ثقله.

حل أزراره وجلس على مقعد عند أعلى المرقاه.

– حسناً! وأبوك؟

قال آندريه بايجاز:

– لقد تلقيت امس نبأ وفاته.

تأمله كوتوزوف بعينين مروعتين ثم رفع عمرته ورسم شارة الصليب.

– ليتغمد الله روحه! لتكن مشيئته نافذة فينا جميعاً!

ثم أطلق زفرة عميقة واستأنف بعد فترة صمت:

– كنت احبه واقدره، وانني ارثي من كل نفسي لمصابك.

وفتح ذراعيه للامير آندريه وضمه الى صدره السمين حيث أبقاه طويلاً ، ولما تركه اخيراً ، رأى اندريه ان شفتيه المنتفختين ترتعدان وان عينيه مبللتان بالدموع ، وبعد زفرة جديدة ، اسند كلتا يديه الى المقعد لينهض وقال :

ـ ادخل ، سوف نتحدث ..

الا ان دينيسوف في تلك اللحظة ، وهو قليل الرهبة امام رؤسائه كما هو حاله امام اعدائه ، أبعد عنه المساعدين العسكريين الذين كانوا يحاولون بصوت خافت غاضب استبقاءه عند اسفل المرقاة ، وارتقى الدرجات يرن بمهازيه ، فنظر اليه كوتوزوف باستياء ويداه لازالتا متكئتين الى المقعد ،اعلن كوتوزوف عن اسمه وقال انه يريد ان يحدث سموه حديثاً على جانب عظيم من الاهمية يتعلق بسلامة الوطن ، فعقد كوتوزوف يديه على بطنه بحركة منقادة وهو لايزال يتصفح وجهه بعينيه المنهكتين وقال مكرراً : « لسلامة الوطن ؟ هيا ، ماهو الموضوع ؟ تكلم . » احمر وجه كوتوزوف وكأنه فتاة ـ وكان من الغريب ان يحمر هذا الوجه العجوز ، وجه مدمن ذو شاربين ـ ثم عرض بجرأة خطة قطع خطوط اتصال العدو بين سمولنسك وفيازما ، وهي المنطقة التي يعرفها جيداً لانه سكن فيها ، وكانت تلك الخطة ممتازة اذا حكمنا على الاقل على قوة الايمان التي افعم بها كلماته ، وكان كوتوزوف حينذاك قد اصبح يحدق في قدميه وينقل نظرته من حين الى آخر الى الكوخ الخشبي المجاور وكأنه يتوقع ان يبرز منه شيء ما مزعج ، والواقع ان جنرالاً خرج من الكوخ المجاور يحمل تحت ابطه محفظة ، عندما بلغ دينيسوف افضل نقطة من الموضوع الذي كان يشرحه .

قال كوتوزوف :

ـ كيف ! هل اصبحت مستعداً ؟

فاجاب الجنرال :

– نعم ياصاحب السمو .

هز كوتوزوف رأسه وكأنه يقول : « كيف توصل رجل واحد الى صنع كل هذا ؟ » ثم اصغى من جديد الى شرح الضابط الروسي ، انهى هذا حديثه بقوله :

– سوف ادمر مواصلات نابوليون ، وانني اقسم على ذلك بشرفي كضابط روسي .

سأله كوتوزوف :

– هل سيريل آنديئيفيتش دينيسوف ، الأمين العام ، قريبك ؟

– انه عمي ياصاحب السمو .

اجاب الجنرال القائد الاعلى ببشاشة :

– آه ! لقد كنا اصدقاء ، حسنا ياعزيزي ، البث هنا في الاركان ، وسوف نتحدث غداً عن كل هذا .

وصرفه باشارة من رأسه ثم مد يده الى الاوراق التي حملها له كونوفنيتسين الجنرال المنوب .

قال هذا بلهجة استياء :

– هل تتفضلوا سموكم بالدخول ؟ هناك مخططات قيد الدرس واوراق قيد التوقيع .

ظهر مساعد عسكري من ناحية البيت وقال ان كل شيء معد ، لكن كوتوزوف ولا ريب ماكان يريد الدخول الا بعد ان يتخلص من كل عمل ، قطب حاجبيه :

– كلا ياعزيزي ، مر باحضار طاولة سوف افحص هذه الاوراق هنا ..

ثم اردف مخاطباً الامير آندريه :

ـ لاتذهب .

فظل هذا على المرقاة يصيخ السمع الى تقرير الجنرال المنوب ، لكنه لم يلبث ان اجتذبه همس صوت مؤنث وحفيف ثوب من الحرير ، وبعد ان التفت مرات عديدة الى الناحية التي صدر عنها الصوت، انتهى به الأمر الى رؤية امرأة جميلة متينة البنيان بثوب وردي ودثار خبازي اللون ، تبدو خلال الباب الموارب حاملة طبقاً في يدها وكأنها تنتظر القائد الاعلى ، ولقد فسر المساعد العسكري للأمير اندريه انها ربة البيت ، زوجه القس ، التي كانت تستعد لتقديم الخبز والملح لسعادته ، ولقد استقبل الزوج عظيم الرفعة في الكنيسة والصليب في يده ، اما الآن ، فان المرأة تريداستقبالهفي البيت ، واضاف باسماً : « انها ليست رديئة ابدا . » وعند هذه الكلمات ، ادار كوتوزوف رأسه ، كان يصغي الى الجنرال الذي اخذ يشرح له بصورة خاصة النقاط الضعيفة في مركز تساريفو ـ زائيميختشيه ، كما اصغى الى دينيسوف وكما اصغى منذ سبع سنين خلت الى النقاش في المجلس الاستشاري العسكري في اوسترليتز ، وكان يُرى انه ليس مصغياً الا لأنه كان يملك أذنين لاتستطيعان رغم صماد المشاقة الذي كان يسد احداهما ـ وهو علاج شعبي لآلام الاسنان ـ الا ان تسمعا ، وما كان هناك شيء مما يعرضه عليه ذلك الجنرال قادر على اثارة دهشته او اثارة اهتمامه ، كان يعرف مسبقاً كل مايمكن ان يقولوه له فكان يصغي الى اقوالهم بحكم الواجب كما يصغي المرء الى قداس رباني حتى النهاية ، كانت خطة دينيسوف بارعة ورصينة وكذلك كان تقرير الجنرال اكثر رصانة ، لكن كوتوزوف ولا ريب كان يمقت المعرفة والذكاء ويعرف ان المسألة ستحسم بشيء آخر ، لاعلاقة لها بالعلم ولا بالذكاء،وكان الامير آندريه يتفحص بعناية

وجه القائد الاعلى فكان التعبير الوحيد الذي استطاع ان يقرأه عليه هو الملل ثم الفضول الذى ايقظه الهمس الذوي وراء الباب الذي ضبطته الرغبه بالتقيد بالمجاملات ، واذا كان كوتوزوف يزدري العلم والذكاء حتى الشعور الوطني الذي برهن عليه دينيسوف منذ حين ، فليس مرد ذلك ذكاؤه هو أو علمه أو وطنيته التي ما كان يحاول حتى التظاهر بها ، بل سنه وتجاربه ، وكان التدبير الوحيد الذي اتخذه اثر ذلك التقرير يتعلق بعادة السلب لدى القطعات ، ولما قدم له الجنرال امراً ادارياً ينص على اعتبار قواد القطعات مسؤولين عن الاضرار التي يسببها رجالهم للتوقيع عليه ،وكان ذلك بناء على طلب احد الملاكين الذي احتصدوا زرعه وهو لايزال اخضر ، هز كوتوزوف رأسه وقال وهو يسطع بلسانه :

– الى النار ! الى الموقد ! اقول لك للمرة الاخيرة ياعزيزي : كل هذه الامور الى النار ! ليحصدوا قمحاً وليحرقوا خشباً ماشاءوا ! انني لا آمر به ولا اجيزه لكنني كذلك لا اغرم احدا ، انه امر لايمكن تجنبه ، لايستطيع المرء ان يحضر العجة دون ان يكسر البيض ..

ثم اختتم قوله بعد ان القى نظرة اخيرة الى الورقة وهز رأسه من جديد :

– هاهي ذى دقتهم الألمانية !

* * *

الفصل السادس عشر

طريقة كوتوزوف

قال كوتوزوف عندما وقع آخر ورقة :

ـ هيا ، انتهينا !

ونهض في شيء من الجهد وهو يبسط تجعدات عنقه الابيض المنتفخ وسار نحو الباب بوجه جذل .

تضرج وجه زوجة القس من الانفعال وأمسكت بالطبق بعجلة ، لكنها رغم استعداداتها الطويلة لم تتمكن من تقديمـــه في الوقت المناسب ، انحنت انحناءة عميقة وقدمته الى كوتوزوف فاغمض هذا عينيه نصف اغماضة وابتسم ثم قال وهو يمسك ذقنها :

ـ كم هي جميلة ! شكراً يافاتنتي .

واخرج من جيب سراويله بعض القطع الذهبية وضعها على الطبق ثم سألها وهو يتجه الى الحجرة المعدة له :

ـ آمل ان تكون الصحة جيدة ؟

فتبعته امرأة القس وهي تبسم حتى ظهرت كل غمازاتها . وجاء المساعد العسكري الى المرقاة يدعو الأمير آندريه الى الطعام . وبعد نصف ساعة ، استدعي مرة اخرى للمثول لدى القائد العام . كان كوتوزوف ممدداً على اريكة

في بزته تلك محلولة الازرار وكان يمسك بيده كتاباً فرنسياً اغلقه لدى مجيء الأمير بعدان اشار الى الصفحة بسكين المكتب . كان الكتاب لمدام دوجنليس[1] بعنوان فرسان الأردف les Chevaliers Cygne على حسب ما استطاع ان يلمح على الغلاف .

قال كوتوزوف :

– هيا ، اجلس ، اجلس هنا ولنتحدث . آه ! هذا محزن ، محزن جداً . ولكن لاتنسى ياصديقي انيَ لك أب ، أب ثان

قص عليه آندريه كل ما كان يعرفه عن لحظات أبيه الأخيرة وكل ما رآه عند مروره بليسيبا جوري . وفجأة قال كوتوزوف الذي أبرزت له قصة الأمير آفاقاً شديدة الوضوح عن موقف روسيا ، بصوت متأثر :

– هذا هو الدرك الذي قادون اليه !

ثم أضاف بلهجة ثائرة :

– ولكن صبراً ! صبراً !

وقال وهو راغب عن الاستمرار في محادثة تقلق راحته :

– لقد استدعيتك لأستبقيك بالقرب مني .

فأجاب الأمير آندريه باسماً :

– اشكر سموك . لكنني أخاف ان لااكون قادراً على املاء مركز في الأركان .

استفسره كوتوزوف بنظره حين لم تخف عليه ابتسامته ، فاستأنف آندريه قائلاً :

---

(١) مدام ستيفاني فيليسيتيه دوجنليس ، مربية اولاد الدوق دورليان وفيليب المجاليتيه ولدت عام ١٧٤٦ وتوفيت عام ١٨٣٠ . ولها تآليف حول التربيـــة .

ـ ثم انني ألفت فوجي وأحب ضباطي وأعتقد ان رجالي يحبونني بالمثل حتى انني أجد صعوبة بالافتراق عنهم . واذا كنت أرفض شرف البقاء بقربك فأرجو ان تصدق . .

أضاءت وجه كوتوزوف المنتفخ ومضة من الرفق مشوبة بالسخرية وقال مقاطعاً بولكونسكي :

ـ انني آسف . كنت ستكون ذا نفع لي ، لكنك على حق ، انك على حق . اننا لسنا بحاجة الى الرجال هنا . ان الناصحين كثر في كل وقت لكن الرجال الحقيقين ينقصوننا . ماكانت الأفواج لتكون على ما هي عليه لو ان كل الناصحين خدموا فيها كما تخدم . انني اذكر اوسترليتز ولازلت أراك والعلم في يدك .

ولقـــد تخضب وجه الأمير آندريه بحمرة الفرح لهذه الذكرى. جذبه كوتوزوف من ذراعه وقدم له وجنته ، فرآى الأمير آندريه ان عينيه قـد اخضلتا من جديد . كان يعرف ان دمع العجوز مطواع وانه يتظاهر بهذا التودد الخاص لأنه يريد ان يبرهن له على مشاركته له في حزنه . مع ذلك ، فان تذكيره لسلوكه في اوسترليتز سره وأرضاه . استأنف كوتوزوف القول :

ـ اتبع الطريق التي رسمها لك الله . انني أعرف انها طريق الشرف .

ثم أضاف بعد فترة صمت :

ـ لقد افتقدتك كثيراً في بخارست اذ لم يكن لدي أحد أعهد اليه بمهامي.

ثم أبدل الحديث وراح يتكلم عن حملة تركيا :

ـ كم من اللوم وجهوه الي على سير الحرب وعقد الصلح ! مع ذلك فان المشكلة قـد انتهت نهاية طيبة وفي الوقت المناسب . ان كل شيء يتم على يرام بالنسبة الى من يحسن الانتظار .

واسترسل ملحاً على موضوع بدا يثقل قلبه :

– هل تعلم ان الناصحين هناك ما كانوا أقل عدداً مما هم عليه هنا . آه ! من الناصحين ، الناصحين ! ولو أصغينا اليهم جميعاً لما وضعنا حداً للحرب ولما عقدنا الصلح ! تبعاً لأقوالهم ، كان يجب العمل بسرعة . لكن العمل بسرعة يعني غالباً الاطالة . ولو ان كامنسكي لم يمت لضاع مافي ذلك ريب . كان في حاجة الى ثلاثين الف رجل ليحتل الحصون . ياله من عمل مجيد ، احتلال حصن ! ان الصعب هو ربح المعركة . ومن أجل ذلك ، لاحاجة قط الى الهجوم ولا احتلال ما يحاصر ، بل ان الصبر والوقت هما كل ما يلزم . لقد أطلق كامنسكي جنوده على روستشوك . أما أنا ، فقد احتللت اكثر مما احتل كامنسكي من معاقل باللجوء الى الصبر والوقت وجعلت الأتراك يأكلون لحم الجياد .

وأردف وهو يهز رأسه ويقرع صدره باحتداد :

– وصدقني انني سأطعم الفرنسيين مثل ذلك .

ثم تلألأت عيناه بالدموع من جديد . فقال آندريه :

– مع ذلك ، يجب الالتحام في معركة ؟

– بلا ريب ، اذا كانوا جميعاً يرغبون في ذلك .. ولكن ، صدقني ياعزيزي ان ما من شيء يساوي هذين الجنديين : الصبر والوقت . انهما اثنان يستطيعان ان يعملا كل شيء . لكن الناصحين لايتقبلون هذا الرأي وهذا هو السوء . ان بعضهم يريد وبعضهم لايريد . واذن ، ماذا يجب ان نعمل ؟

وتوقف منتظراً جواباً ثم قال بالحاح وقد التمعت عيناه ببريق من الذكاء عميق :

– قل لي ماذا كنت تعمل انت ؟ هيا .

ولما رأى ان آندريه لا يجيب ، استرسل يقول :

ـ حسناً ، سأقول لك ما يجب ان تفعل . سأقول لك ماذا يجب عمله وما أعمله أنا .

ثم قال وهو يتمهل بين كل كلمة :

ـ غند الشك ياعزيزي ، تريث . هيا ياصديقي ، الوداع . تذكر انني اشاطرك حزنك من كل قلبي وانني لست بالنسبة اليك لاعظيم الرفعة ولاأميراً ولا جنرالاً قائداً أعلى . اعتبرني كأب . واذا كنت في حاجة الى شيء ما ، فاتصل بي مباشرة . الوداع ياعزيزي .

عانقه مرة اخرى . لكن الأمير آندريه لم يكن قد تجاوز الباب بعدعندما اطلق كوتوزوف زفرة راحة واستعاد كتابه فرسان الأردف يقرأ فيه .

ودون ان يدرك السبب تماماً ، عاد آندريه الى فوجه بعدتلك المقابلة وهو شديد الاطمئنان على سير الأمور العام واثق بالذي يديرها كان يمكن القول ان هذا العجوز لايحتفظ الا بعادات عاطفية وان الذكاء الذي يميل الى جمع الحوادث لاستخلاص النتائج منها مستعاض عنه لديه بالقدرة البسيطة على تأمل الأحداث بكل اشراق فكري . وكلما ازداد آندريه في ملاحظة غياب الشخصية عنده ازداد اطمئناناً الى ان كل شيء سيسير على أفضل وجه . كان يحدث نفسه قائلاً : « انه لن يبتكر شيئاً ولن يشرع في شيء لكنه سوف يصغي وسيذكر وسيضع كل شيء في مكانه فلن يمنع شيئاً مفيداً ولن يسمح بشيء ضار . انه يدرك ان هناك شيئاً أكثر قوة وأبعد أثراً من ارادته الشخصية وهو سير الأحداث الذي لايقاوم . انه له موهبة رؤيتها وادراك أهميتها ويعرف بالتالي كيف يتجرد عن ارادته الشخصية ليوجهها نحو هدف آخر كيلا يدعها تتدخل في الامور . لكنه يوحي بالاطمئنان لأن المرء يشعر بأنه روسي حقاً رغم قراءته مؤلفات مدام جنليس واستعماله الأمثلة الفرنسية لأن صوته كان يرتعد وهو

يقول : « هذا هو الدرك الذي قادونا اليه ! » ولأنه كان يجهش وهو يؤكد انه سوف يطعمهم لحم الجياد . »

ولقد كان هذا الشعور ، الذي أحسّ به الجميع بشكل يختلف في الوضوح والابهام ، هو الذي قاد الى الموافقة العامة الاجماعية التي أعقبت الانتقاء القومي لكوتوزوف كقائـــد أعلى ، وهو الانتقاء الذي جعل دسائس البلاط تمنى بالاخفاق .

★ ★ ★

الفصل السابع عشر

رياء موسكو

بعد مغادرة الامبراطور موسكو ، عادت الحياة الى سياقها المألوف بل المألوف جداً حتى انه بات من المتعذر ادراك حماس الأيام الأخيرة والاعتقاد بأن روسيا معرضة حقاً للخطر وان أعضاء النادي الانجليزي يمكن ان يكونوا هم كذلك وطنيين مستعدين لكل التضحيات. وكان الشيء الوحيد الذي يذكر بذلك التحمس القريب هو تغطية الهبات بالرجال والمال تلك الهبات التي لم تلبث بعد اقرارها ان اتخذت صفة مشروعة يتعذر معها تبديلها .

لم يجعل اقتراب العدو الموسكوفيين اكثر جدية بل على العكس. لقد ارتفع صوتان في أعماق النفوس متماثلان بالقوة ، كما يحدث عادة أمام مصيبة فادحة . الصوت الأول يوصي بحكمة ان ينتبه الى الخطر القريب وان يصار الى البحث عن الوسائل التي تنجي منه . والصوت الثاني ، يقول بأكثر حكمة ان من المؤلم جداً التفكير في الخطر وان الانسان لا يمكن ان يعرف الخطر قبل وقوعه ولا ان يفلت من سير الاحداث وان من الأفضل ابعاد كل تفكير منغص أمام الأمر الواقع . والرجل في حالة الوحدة ، يطيع الصوت الأول بوجه عام. لكنه في المجتمع على العكس ، يخضع للثاني . وهـــذا هو السبب الذي جعل أهل موسكو ينعمون تلك السنة بمتعة التسلية اكثر من أي وقت مضى .

كانت اعلانات روستوبتشين تحمل في صدرها صورة متجر للمشروبات وخمار

وسيد من أهالي موسكو هو كاربوشكا تشيجيرين « الذي كان قد تطوع في اعداد المجندين ، فسمع اثر افراطه قليلاً في الشراب ان بونابرت يريد الذهاب الى موسكو فغضب ونعت الفرنسيين بشتى الأسماء ثم خرج من متجره ووجه الى الشعب، تحت الاعلام، خطابا » . فكانوا يقرأون هذه الاعلانات ويشرحونها على طريقة آخر تسجيع لفاسيلي لفوفيتش بوشكين .

بل انهم كانوا يقرأونها في النادي في الحجرة المنزوية فكان بعضهم يجد طريقة كاربوشكا في السخرية بالفرنسيين مسلية . فهم ، على حد قوله ، « سينفقون لأنهم اكلوا كثيراً من البرغل وسيختنقون من سوء هضم ناجم عن حساء الملفوف وان اية قروية روسية تستطيع بضربة منجل واحدة ان تقطع ثلاثة منهم دفعة واحدة نظراً الى صغر حجمهم المضحك . » والبعض الآخر كانوا على العكس ينتقدون هذا الاسلوب الذي يجدونه عامياً وسخيفاً . وكان يروى ان روستوبتشين نفى الفرنسيين من موسكو وكذلك الاجانب كلهم الذين كان بينهم عدد من الجواسيس ومن رجال نابوليون وان الحاكم بهذه المناسبة قد وجه كلمة طيبة الى هؤلاء التعساء الذين كانوا ينقلونهم عن طريق النهر الى ينجني اذ قال: «فكروا وادخلوا القارب ولا تجعلوه كارون[1] » . وكانوا يروون ان الادارات كلها قد غادرت المدينة ويضيفون بالمناسبة كلمة شينشين الذي زعم ان هذه الواقعة نفسها تستحق ان تشكر عليها موسكو كلها نابوليون ويروون ان فوج مامونوف وحده يكلفه اكثر من ثمانمائة الف روبل وان بيزوخوف أنفق اكثر من هذا

(١) كارون ، هو ربان الجحيم كان يجوب على زورقه نهر ستيكس (نهر الجحيم الذي يدور سبع مرات حول جهنم) ليوصل اليه أرواح الموتى لقاء فلس ومن هنا جاءت عادة ايداع فلس في فم الميت قبل دفنه . ومن هنا جاءت عبارة زورق كارون واجتياز الستيكس .

المبلغ على فوجه وان بيزوخوف هذا - وهذا أمر يستلفت الانتباه اكثر من سواه - يقيم على رأس رجاله في البزة الرسمية يعرض نفسه مجاناً على كل الراغبين في رؤيته .

راحت جولي دروبتسكوي تقول حول هذا الموضوع وهي تضغط بين أصابعها النحيفة المغطاة بالخواتم رزمة من النسيل في الحفلة الوداعية التي أقامتها بسبب سفرها الى نيجني في اليوم التالي :

- لا تصفح عن أحد ان بيزوخوف مضحك لكنه شديد الطيبة واللطف . أية متعة في أن تكون هجاء لاذعاً الى هذا الحد ؟

وقال شاب في بزة المتطوعين كانت جولي تدعوه « فارسي » وكان سيصحبها الى نيجني :

- غرامة !

قرروا في بهو جولي كما في كثير من الابهاء الاخرى ان يقتصروا في الحديث على اللغة الروسية وان كل من يخالف هذا التعهد يتعرض لدفع غرامة لصالح لجنة الانقاذ .

وقال رجل أديب كان هناك أيضاً :

- وغرامة ثانية للاصطلاح . « أية متعة في ان تكون . . » ليس تعبيراً روسياً .

عادت جولي تقول مخاطبة المتطوع :

- انك لاتوفر احداً . سوف أدفع من اجل كلمة « هجاء » وانني مستعدة كذلك للدفع رغبة مني في ان أقول لك الحقيقة .

وأضافت وهي تلتفت الى الاديب :

- أما عن الاصطلاحات ، فانني لست مسؤولة . وليس لدي الوقت ولا المال

لاتخاذ مدرس كالأمير بوليتسين لاتقن الروسية . . هه هذا هو . عندما . .

(وتوقفت مستدركة لأنها كادت ان تذكر المثل الفرنسي : عندمايتحدثون عن الذئب يجدون ذيله على الفون ،) وقالت للمتطوع :

– كلا ، كلا . لن تضبطني مرة اخرى . عندما يتحدثون عن الشمس يرون اشعاعاتها .

ووجهت الى بيير الذي كان يدخل في تلك اللحظة ، ابتسامة رقيقة وقالت مؤكدة بالسهولة التي برع النساء فيها عند الكذب :

– كنا نتحدث عنك منذ لحظات وكنا نقول ان فوجك سيتفوق على فوج مامونوف .

قال بيير الذي بعد ان قبل يد ربة البيت ، جلس الى جوارها :

– آه ! لاتحدثيني عن فوجي ! ليتك تعلمين مبلغ نصبي منه !

قالت جولي وهي ترسل الى المتطوع ابتسامة ماكرة :

– لابد وأنك ستقود فوجك بنفسك ؟

الا أن المتطوع الذي كف منذ قدوم بيير عن ان يكون « هجاءً لاذعاً » لم يبادر الى نجدتها . ذلك ان شخصية بيزوخوف رغم براءة مظهره وسهومه ، كانت تقضي بحزم على كل محاولة استهزاء في حضرته .

قال بيير ضاحكاً وهو يحيط شخصه الثقيل بنظرة ساخرة :

– اوه ! كلا ! سوف أكون هدفاً رائعاً للفرنسيين . ثم انني أخشى ان لا استطيع امتطاء صهوة جواد .

وبعد ان تحدث المدعوون عن هؤلاء واولئك من الناس : دارت أحاديثهم حول آل روستوف . قالت جولي :

– يبدو ان اوضاعهم في حالة سيئة جداً . ثم ان الكونت قليل الروية .

لقد أراد آل رازوموفسكي شراء نزلهم وبيتهم الريفي ولازالت الفضية في أخذ ورد . انه يطلب ثمناً باهظاً .

وتدخل أحدهم :

– مع انني سمعت ان البيع سيتم فيهذه الأيام الأخيرة . أليس من الجنون شراء شيء ما في موسكو الآن ؟

قالت جولي :

– ولماذا ؟ هل تفكر ان موسكو في خطر حقاً ؟

– لولا ذلك ، لماذا ترحلين ؟

– انا ؟ يا له من سؤال مضحك ! انني أرحل لأن . . ولكن لأن الناس كلهم يرحلون . وكذلك لأنني لست جان دارك ولا أمازونية[1] . .

– نعم ، بالطبع . . اعطني قطعة خرقة اخرى .

وقال المتطوع الذي لازال يتحدث عن آل روستوف :

– لو انه عرف كيف يتصرف ، فانه سيسدد ديونه كلها .

– نعم ، انه رجل باسل ولكنه سيد فقير جداً . ثم ماالذي يبقيهم هنا كل هذا الوقت ؟ منذزمن طويل وهم يريدون العودة الى الريف . لقد استعادت ناتالي صحتها على ما أظن اليس كذلك ؟

كان هذا السؤال موجهاً الى بيير ومشفوعاً بابتسامة ساخرة . فقال هذا :

– انهم ينتظرون ابنهم الأصغر الذي تطوع في مفرزة قوقازيين اوبولنسكي

---

(١) الأمازون ، شعب خرافي من النساء المحاربات سكن في « بون » في آسيا الصغرى . ولقد جاء في الأساطير ان الأمازونية كانت تحرق ثديها الأيمن ليتسنى لها استعمال القوس بأكثر سهولة . ولقد هاجمت احدى ملكات هذا الشعب واسمها « هيبوليت » هرقل الجبار فهزمها الخ . . .

وأرسل الى بيبلايباتسير كوف حيث يتم تشكيل الفوج ، فنقله ذووه الى فوجي وهم ينتظرون أوبته من يوم الى آخر . ان الكونت راغب في الذهاب منذ أمد طويل . لكن الكونتيس ترفض بأي ثمن مغادرة العاصمة قبل رؤية ابنها .

– لقد قابلتهم اول أمس لدى آل ارخاروف . لقد ازدادت ناتالي جمالاً وصفا مزاجها ولقد غنت قصيدة مؤثرة . كم يُنسى كل شيء بسرعة لدى بعض الناس !

سأل بيير بلهجة خشنة :

ما الذي ينسى بسرعة ؟

فطافت على شفتي جولي ابتسامة :

– هل تعرف ياكونت ان فرساناً مثلك لايرى الانسان مثلهم في هذه الأيام الا في روايات مدام دوسوزا ؟

سأل بيير وقد تضرج وجهه :

– أي فرسان ؟ ماذا تريدين ان تقولي ؟

– هيا ايها الكونت العزيز . لاتتظاهر بالدهشة . « انها اقصوصة موسكو كلها . انني معجبة بك واقسم بشرفي » .

فقال المتطوع :

– غرامه ! غرامه !

– ليكن ! .. ما عدنا نستطيع التكلم ، وهذا ينتهي بنا الى التضجر !

كان بيير قد نهض فقال في غير لطف :

– ما هو الذي اقصوصة موسكو كلها !

– ولكن ياكونت ، لكأنك لاتعرف !

– لست أعرف شيئاً مطلقاً .

– وأنا أعرف أنك مع ناتالي على أتم وفاق ومن ثم .. انني فيما يتعلق بي كنت دائماً على اوثق الفة مع فيرا ، فيرا العزيزة تلك ..

استرسل بيير وهو لايزال محنقاً :

- كلا ياسيدتي ، انني لست قط الفارس التابع للآنسة روستوف وانني منذ اكثر من شهر لم أطأ بقدمي بيتهم . لكنني لاأفهم هذه الفظاظة ..

قاطعته جولي وهي تبتسم وتحرك نسيلها :

- من يعتذر يعترف بخطئه .

ثم بادرت الى تحويل دفة الحديث بغيـــة الاحتفاظ بالكلمة الأخيرة لنفسها فقالت :

هل تعلم ماذا بلغني منذ حين ؟ لقد وصلت ماري بولكونسكي المسكينة أمس . هل تعلم انها فقدت اباها ؟

قال بيير :

- صحيح ؟ واين هي ؟ كم اتوق الى رؤيتها !

- لقد امضيت السهرة معها . لسوف تذهب اليوم أو غدا مع ابن أخيها الى املاكهم في الضاحية .

- آه ! وكيف حالها ؟

- بين بين . بل انها اميل الى الحزن . ولكن هل تعلم لمن تدين بحياتها ؟ انها رواية كاملة . لنيكولا روستوف . كانوا محيطين بها يريدون قتلها بل انهم اصابوا رجالها بجراح .. لكنه هرع هو وأنقذها ..

قال المتطوع :

- رواية جديدة . لاريب انهذا الفرار العاملمن يستطيع الفرار قدابتكر على ما يبدو بغيـــة تزويج العانسات . كاتيش أولاً ثم ها هي ذي الأميرة بولكونسكي .

- أتدري ، اظنها « مغرمة قليلًا بالفتى » .

- غرامة ! غرامة ! غرامة !

- ولكن كيف أقول هذا بالروسية ؟

الفَصلُ الثّامِنَ عَشَرْ

قرار بيير الاخير

عندما رجع بيير الى داره ، قدموا اليه اعلانيين لروستوبتشين وصلوا مؤخراً يؤكد الحاكم في الأول انه خلافاً لما اشيع من انه منع مغادرة المدينة ، سيكون سعيداً اذا شاهد نساء الاشراف وطبقة التجار يغادرن موسكو . وكان يزعم « انهن بذلك سيتعرضن لخوف أقل وسيثرثرن أقل . بيد ان الأثيم لن يأتي الى موسكو وانني اراهن برأسي على ذلك . » فلما قرأ هذه الكلمات ، رأى بيير بوضوح لأول مرة ان الفرنسيين سيدخلون موسكو . أما الاعلان الثاني فكان يقول ان قيادتنا العامة موجودة في فيازمـا وان الكونت ويتجنشتاين قد هزم الفرنسيين . مع ذلك ، ولما كان عـدد كبير من السكان يرغبون في التسلح ، فانهم واجدون بسعر مناسب سيوفاً وبنادقاً ومسدسات في مستودع الذخائر . لم تعد لهجة الاعلانين هزلية كتلك التي عُزيت الى تشجيرين في أقواله مما دعا بيير الى التفكير . أدرك ان كل هذه الجحافل الرهيبة من العاصفة التي كان يدعوها من كل جوارحه والتي كانت تسبب له فزعـاً غير ارادي بنفس الوقت ، ناشطة في سيرها .

راح يتساءل للمرة المائـة : « هل يجب ان التحق بالجيش المحارب ام على العكس ان انتظر الاحداث ؟ » امسك بورق لعب كان متروكاً على الطاولة وراح ينجم. حدث نفسه بعـد ان خلط الورق ورفع عينيه الى السماء : « اذا

« فتح الفال » كان معنى ذلك .. ماذا سيكون معنى ذلك ؟ .. »

وقبل ان يجد الجواب ، ارتفع صوت لدى الباب يسأل عما اذا كان يمكن الدخول .

قرر بيير : « سيكون معنى ذلك انه يجب ان التحق بالجندية » ثم صاح :

- ادخل ، ادخل .

كانت الداخلة هي كبرى الأميرات ، تلك التي كانت مديدة القامة جامدة الوجه ، الوحيدة التي ظلت تقطن نزل بيزوخوف لان الاثنتين الآخريين كانتا قد تزوجتا .

قالت بصوت مضطرب وبلهجة فيها لوم :

- أعذرني يا ابن عمي لمجيئي اليك . ولكن ، لقد أزف الوقت لاتخاذ قرار ان الناس جميعهم غادروا موسكو والشعب اخذ يتمرد .. فما ننتظر اذن ؟

اجاب بيير هازلاً :

- ولكن على العكس يا ابنة عمي . ان كل شيء يبدو لي على أفضل وجه .

ولقد كانت تلك طريقته في اخفاء الارتباك الذي يوقعه فيه دائماً دوره كمحسن .

- جميل جداً ! من اين جئت بهذا الخبر ؟ لقد روت لي فرفارا ايفانوفنا منذ حين بسالات جنودنا : ان ذلك يشرفهم شرفاً عظيماً حقاً ! .. ثم ان الشعب يتصرف على هواه . ما من أحد بات يقبل الاطاعة حتى ان خادمتي نفسها تحدثني بالغلاظات . سوف يضربوننا بعد حين . لم يعد المرء يستطيع وضع قدمه خارج بيته .. لكن أخطر ما في الأمر هو ان الفرنسيين سيكونون هنا اليوم أو غداً .. ماذا ننتظر بالله ؟ أرجوك يا ابن عمي ، اصدر أمراً بنقلي الى بيترسبورج لن أستطيع ، مهما بلغت من تفاهة القيمة ، ان أعيش تحت نير بونابارت .

- ماهذا الذي تقولين ياابنة عمي ؟ من اين تستقين معلوماتك ؟ على العكس . .
- انني لن أخضع لنابوليونك . أما الآخرون ، فهذا شأنهم . . واذا كنت لاتريد الموافقة على ما أسأله منك . .
- ولكن بكل تأكيد . سوف اعطي أوامري على الفور .
تهاوت الأميرة على كرسي وقد أغاظها ان لم تعد تجد من تعاتبه وراحت تهمهم بينما استرسل بيير :
- انهم ينقلون اليك معلومات خاطئة . ان كل شيء هادىء في المدينة ولسنا نتعرض لأي خطر . انظري ماذا كنت اقرأ - وأظهرها على الاعلانين - ان الكونت يقول ان العدو لن يدخل موسكو ويقدم حياته ضمانة لذلك .
ردت الأميرة ساخطة :
- آه ! كونتك هذا ! انه منافق ، انه أثيم دفع الشعب بنفسه الى التمرد ! ألم يوعز في اعلاناته المنافية هذا ان يمسك بالناس من شعورهم دون استثناء وان يؤخذوا الى المخفر ، هذا شديد الغباء ! ثم انه يعد بالمجد والشرف كل من يتصرف على هذا النحو . هل تريد معرفة نتائج هذه المهالقات ؟ لقد قالت فارفارا ايفانوفنا انهم كادوا ان يقتلوها في الشارع لانها كانت تتكلم بالفرنسية . .
قال بيير وهو يفتح « فاله » :
- هيا ، هيا ، انك تحملين كل شيء على محمل الجد .
على الرغم من ان « الفال » قد « فتح » ، فان بيير لم يلتحق بالجيش بل ظل في موسكو التي راحت تخلو من السكان وهو فريسة ذلك الشك المحموم ، ينتظر بقلق ممزوج بالسرور وقوع حدث رهيب ما .
وفي مساء اليوم التالي ، رحلت الأميرة وجاء المسجل العام يعلن لبيير انه يتعذر تغطية نفقات تجهيز الفوج الضرورية اللازمة الا اذا عمد الى بيع أحد الأملاك

والمح الى ان كل هذه الأهواء سوف تؤدي به الى الدمار . فاصغى اليه بيير بابتسامة لم يحسن في اخفائها ثم قال :

- بع رغم ذلك . ما العمل ؟ لا أستطيع الرجوع عن وعد قطعته !

راحت أعماله الشخصية تسوء واخذ الموقف العام يكفهر وبيير يتلقى هذه الانباء ببهجة متزايدة لأنها كانت تؤكد له قرب النكبة التي ينتظرها . ولقد غادر كل معارفه موسكو تقريباً وذهبت جولي والأميرة ماري كذلك ولم يبق الا آل روستوف الذين لم يعد بيير يزورهم .

ذهب ذلك اليوم على سبيل التسلية الى ضاحية فورونتسوفو لرؤية المنطاد الذي ابتكره المهندس ليبيخ لتدمير العدو ومنطاد التجربة الذي سيطلقونه غداً . لم تكن الاستعدادات قد انتهت بعد . لكنهم أطلعوا بيير على ان الامبراطور يؤيد هذا المشروع بقوة بل انه كتب الى روستوبتشين الرسالة التالية :

« حالما يصبح ليبيخ جاهزاً ، شكلوا له فريقاً لسلة المطاد مؤلفاً من رجال أذكياء موثوقين وأرسلوا رسولاً الى الجنرال كوتوزوف لاعلامه . ولقد أطلعته على الأمر .

« نبهوا على ليبيخ أرجوكم ، ان يكون منتبهاً الى المكان الذي سينزل فيه أول مرة كيلا يخطىء ويقع بين يدي العدو . يتحتم عليه ان يوفق حركاته مع الجنرال القائد الأعلى . »

وعند عودته من فورونتسوفو ، وبمروره من ساحة بولوتنايا ، شاهد بيير جماعة من الناس حول وتد العقاب . فأعطى الأمر بالوقوف ونزل من العربة . كانوا قد فرغوا من جلد طاهٍ فرنسي متهم بالجاسوسية وراح الجلاد يفك عن الوتد رجلاً ضخم الجثة ذا شعر أشقر على العارضين كان يزمجر معولاً . وكان متهم آخر ، شاحب وشديد النحول ينتظر دوره . ولقد كان وجهاهما يدلان

على انهما فرنسيان دون ريب . شق بيير الزحام بوجـه منقلب كوجه المتهم الثاني وسأل :

– ما هذا ؟ من هم هؤلاء ؟ ماذا فعلوا ؟

لكن انتباه المتسكعين بين موظفين وصناع ورجال اعمال وقرويين ونساء في معاطف طويلة ذات ثنيات أو مبطنة بالفرو ، كان منصرفاً الى المشهد حتى ان أحداً لم يجبـه . نهض الرجل الضخم وهو يقطب حاجبيه ويهز كتفيه وراح رغبة منه في اظهار تجلده ، يرتدي سترتـه دون ان يخفض عينيه عن المحتشدين . لكن شفتيه ارتعدتا فجأة وانخرط في البكاء وهو يلعن ضعفـه ، كما يبكي الرجال ذوو الدم الوفير . وراح المجتمعون يتحدثون بصوت مرتفع ليكتموا شعورهم بالاشفاق كما خيل الى بيير .

– يبدو انه طاه لدى أحد الأمراء . .

– ايه ! « موسيو [1] » ان المرق الروسي حامض قليلاً بالنسبة الى حنك فرنسي . . انه تضرس أسنانك هن ؟

تلك كانت العبارة التي فاه بها جاربيير ، وهو موظف صغير اعجف ، عندما رأى الفرنسي يبكي . ثم القى الموظف الصغير نظرة حوله باحثاً عن موافقة الجمهور ولقد انفجر بعض الأشخاص ضاحكين بالفعل . لكن الآخرين ما كانوا يستطيعون انتزاع انظارهم عن الجلاد الذي شرع ينزع ثياب المحكوم الثاني .

نخر بيير بقوة من انفه وقطب حاجبيه ثم دار على أعقابـه وعاد الى عربته فاستقلها وهو لايزال يدمدم . وظلت التشنجات تحركه طيلة الطريق وهو يهتف بصوت مرتفع متعجباً حتى ان حوذيه انتهى الى سؤاله :

---

(١) Moussiou ، كلمة سيد Monsieur بالفرنسية ، لفظها الرجل على هذا الشكل تهكماً على نحو « سيدو » بالعربية .

– ماذا تأمرني ؟

صرخ بيير وهو يراه متجهاً الى لوبيانكا :

– الى اين تذهب ؟

– لدى الجنرال الحاكم . ألم تقل لي ان أحملك الى هناك ؟

ولقد بلغ من حنق بيير ان شتم هـذا الرجل ، وهو الأمر الذي قل ان يقع له .

– ياغبي ! ياحيوان ! لقد قلت لك ان تعود الى البيت وبأسرع من هذا .. ايها الغبي المثلث ! .. « يجب الرحيل اليوم بالذات . »

لقد قرر بيير بجزم أكيد لدى رؤية تنفيذ الحكم والجماعة المحتشدة ان يلحق بالجيش فوراً دون زيادة في التأخر في موسكو حتى انـه خيل اليه انه اطلع الحوذي على رغبته أو ان هذا على الأقل كان يجب ان يعلم قراره .

ولم يكد يدخل الى البيت حتى استدعى حوذيه ايفستافييفيتش ، وهورجل يقدر على صنع كل شيء ، يعرف كل الناس وتعرفه موسكو كلها ، اخطره بأنه يرغب في ان يرحل تلك الليلة بالذات الى موجاييسك ويريد ان ترسل جياد الركوب الى هناك ، ولما كان هذا الامر لايمكن ان ينفذ في يوم واحد ، فقد اضطر بيير بناء على نصيحة ايفستافييفيتش ان يرجيء رحيله الى الغد حتى يتسنى اعداد خيول البدل .

وفي الرابع والعشرين وقد اعتدل الطقس ، غادر بيير موسكو بعد الغداء وفي الليل ، بينما كان يبدل خيوله في بيرخوشكوفو ، علم ان معركة هائـلة دارت اول المساء وان قصف المدافع هز الارض حتى في تلك الضيعة الصغيرة فاستفسر عن الظافر لكن مامن احد استطاع ان ينبئـه ، لقد كانت تلك معركة شيفاردينو .

وصل الى موجايسك عند الفجر ، كانت البيوت كلها محتلة من قبل الجنود ولقد انتظره خادمه المرافق وسائق عربتـه في النزل ، لكنهم لم يستطيعوا اعطاءه اية غرفة لانها كانت تعج بالضباط .

كانت المنطقة كلها غاصة بالجنود بين مستريحين وفي طريق السير ، ولم يكن يرى من كل صوب الا قوقازين ومشاة وخيالة وعرباة نقل وصناديق صغيرة وقطع المدفعية ، ولقد كان بيير متعجلاً في التوغل الى الامـام ، وكلما ازداد توغلاً في ذلك الخضم من الجنود ، ازداد قلقه شدة وشابه شعور بالرضى الضمني جديد كل الجدة ، ولقد كان ذلك الاحساس يذكره بذاك الذي احس به في قصر سلوبودسكي إبان اقامة الامبراطور : كان يجب اتخاذ قرار ما والتضحية بالذات ، اخذ بيير يدرك الآن بسرور ان كل مايسبب سعادة الانسان من ثراء ولذة الحياة بل والحياة نفسها ، كل ذلك لم يكن الا ترهات يسهل القذف بهـا ثمناً لشيء ما .. وهذا الشيء ، ما كان بيير يتوصل الى تصوره ، بل انه ما كان يحاول حتى ان يشرح لنفسه لماذا ومن اجل من ، يجد متعة خاصة بالتضحيـة بنفسه بكل ماهذه الكلمة من معنى ، ما كان يهمه سبب تضحيتـه ، لكن التضحية في حد ذاتها ، كانت تحمل اليه شعوراً جديداً بالسعادة .

★ ★ ★

الفصل التاسع عشر

معركة شيفاردينو وبورودينو

دارت معركة شيفاردينو في الرابع والعشرين من آب ، وفي الخامس والعشرين ، لم تنطلق رصاصة واحدة من هذا الجانب أو من ذاك ، وفي السادس والعشرين نشبت معركة بورودينو .

لماذا دارت هذه المعارك وكيف وقعت وبصورة خاصة معركة بورودينو؟ لم يكن الفرنسيون ولا الروسيون مدفوعين بأي سبب لخوضها ، لقد كانت نتيجتها الاكثر مباشرة بالنسبة الى الروسيين - كما وجب ان تكون - خطوة اضافية في طريق ضياع موسكو ، الامر الذي كنا نخشاه اكثر من أي شيء في الوجود ، اما بالنسبة الى الفرنسيين ، فكانت خطوة اضافية نحو ضياع كل جيشهم ، الأمر الذي كانوا هم كذلك يخشونه اكثر من كل شيء في الوجود ، ولم تكن هذه النتيجة خافية قط ، مع ذلك ، فانها لم تمنع نابوليون من ان يعرض القتال وكوتوزوف من ان يقبل المعركة .

فلو ان الرؤساء الكبار تركوا للعقل ان يقودهم لرأى نابوليون بجلاء انه وقد تقدم مسافة خمسمائة ميل بعيداً عن قواعده وقد التحم في معركة كان يتعرض لفقد ربع عدد جيشه ، فانه انما يمضي الى خسران مبين ، وكذلك كان الحال بالنسبة الى كوتوزوف الذي قبل الدخول في المعركة ، فهو بقبوله القتال وتعرضه هو الآخر لفقد ربع جيشه تقريباً ، انما يتوجب عليه ان يخلي

موسكو دون أي ريب ، ولقد كانت النتيجة واجبه الظهور لكوتوزوف بصورة خاصة ببداهة العملية الحسابية ، فلو ان لدي بلعبة « الضاما » بيدقاً أقل مما لدى خصمي ، واذا كان كل حركة تخسر مبادلة ، فانني خاسر للشوط ولا ريب والعقل يحتم علي اذن ان امتنع ، وفي الواقع انه لو كان لدى خصمي ستة عشر بيدقاً ولدي اربعة عشر ، فانني اضعف منه بمعدل واحد الى ثمانية ، ولكن بعد ان يكون كل منا قد فقد ثلاثة عشر بيدقاً ، فانه حينئذ سيصبح اقوى مني بثلاثة اضعاف .

لقد كانت قواتنا قبل معركة بورودينو بالنسبة الى قوات الفرنسيين بنسبة خمسة الى سته : مائة الف رجل ضد مائة وعشرين الفا ، وبعد المعركة ، لم تعد هذه النسبة الا بمعدل واحد الى اثنين : خمسين الفاً ضد مائة الف ، ومع ذلك ، فان كوتوزوف ، ذلك العسكري المجرب ، قدقبل المعركة ، ونابوليون ذلك الرئيس العبقري ، كما يسمونه ، خاض معركة كلفته ربع جيشه وأطال خطه أكثر فأكثر ، ولقد زعم بعضهم انه كان يفكر في انهاء الحرب بعد احتلاله موسكو كما وقع في فيينا . لكن هناك ادلة كثيرة تبرهن على العكس ان مؤرخي نابوليون انفسهم يعترفون بأنه كان يريد التوقف منذ سمولنسك : كان يدرك خطر امتداد خطه ويعرف ان احتلال موسكو لاينهي الحملة لانه كان يرى منذ ذلك الحين بأية حال كانوا يتركون له المدن وانه لم يكن يتلقى اية اجوبة على محاولاته الكثيرة للدخول في مفاوضات .

وهكذا فان كوتوزوف ونابوليون ، الاول بعرضه والثاني بقبوله المعركة لم يخضعا لا لعقلها ولا لحكمها الحر . في حين ان المؤرخين ، بعد ان وقعت الواقعة ، استنتجوا منها أدلة مموهة عن بعد نظر رئيسي الجيشين هذين وعبقريتهما ذينك اللذين كان بين كل الادوات الصماء في احداث هذا العالم ، اكثرها اخضوعاً لاارادياً واكثرها استرقاقا .

لقد ترك لنا الاقدمون نماذجاً من القصائد الخرافية التي ترتكز الاهمية فيها كلها على الابطال ، ولما كانت هذه القصائد تراثاً عزيزاً فاننا نمتنع عن رؤية ما في مثل هذه المدارك التاريخية في عصرنا هذا من بطلان .

وهناك حول النقطة الثانية ، أي كيف دارت معركة بورودينو ومن قبلها معركة شيفاردينو التي سبقتها ، هناك وجهة نظر شديدة الدقـــة ومقبولة بصورة عامة بقوة بقدر ماهي خاطئة كذلك ، وفيما يلي كيف يصف المؤرخون واقع هذه المعركة المزدوجة :

ان الجيش الروسي بإنطوائه بعد سمولنسك كان لابد وان يبحث عن أفضل مركز ليلتحم فيه بمعركة عامة ووجد ذلك المركز في بورودينو .

ولاريب ان الروسيين حصنوا سلفاً هـــذا المركز إلى يسار الطريق من موسكو إلى سمولنسك وبشكل عمودي على هذه الطريق تقريباً من بورودينو إلى أوتيتسا في المكان نفسه الذي نشبت فيه المعركة .

ولا ريب كذلك أن الروسيين أقاموا أمام هذا الموقع طليعة على مرتفع شيفاردينو لمراقبة العدو فهاجمهم نابليون في الرابع والعشرين واحتل ذلك المركز الأمامي ثم هاجم كل الجيش الروسي في موقعه المحصن على سهل بورودينو في السادس والعشرين .

تلك هي رواية المؤرخين ، وهي رواية غير مضبوطة من أولها إلى آخرها كما لابد سيقتنع بذلك بسهولة كل من يضطلع بعناء دراسة المسألة قليلاً .

فالروسيون ، بعيداً عن انتقاء الموقع الأفضل ، أهملوا في سياق تقهقرهم عدداً كبيراً من خيرة المواقع التي ترجح على بورودينو وذلك لأسباب عديـدة لأن كوتوزوف ما كان يريد تقبل نقطة لاينتقيها بنفسه ولأن ضرورة خوض معركة قومية لم يكن ملحة بكل هذه القوه ولأن ميلورادوفيتش لم يكن بعد

قد وصل مع فرق المتطوعين والخ . . ، إلخ . . ، وإنه مما لا يمكن إنكاره أن المواقع الأخرى أكثر مناعة من ذلك الذي دارت علية رحى المعركة لأن بورودينو لم تكن أفضل « كموقع » من أي موقع عابر يشار اليه على خريطة المملكة الروسية بدبوس صغير .

وليس أن الروسيين لم يحصنوا موقع بورودينو إلى اليسار وعمودياً على الطريق فحسب أي في المكان الذي دارت فيه المعركة ، بل أنهم كذلك لم يفكروا قبل الخامس والعشرين من آب ١٨١٢ أن معركة يمكن أن تقع في هذا المكان وسأقدم على سبيل التدليل على صحة هذا الزعم مذكراً في المرحلة الأولى بعدم وجود تحصينات ما قبل الخامس والعشرين من آب وأن التي شرع في بنائها في ذلك التاريخ لم تنته في السادس والعشرين وفي المرحلة الثانية أذكر بموقع حصن شيفاردينو نفسه الذي لم يكن له أي معنى رغم وقوعه أمام النقطة التي نشبت المعركة فيها . فلماذا إذن حصنوه أكثر من أية نقطة أخرى ؟ لماذا بذلوا كل هذه الجهود الكبيرة للدفاع عنه يوم الرابع والعشرين إلى ساعة متأخرة من الليل وخسروا ستة آلاف رجل في حين كان يكفي لمراقبة العدو تسيير دورية من القوقازيين ؟ وأخيراً الدليل الثالث والآخير : لقـــد كان باركلي دوتولي وباجراسيون مقتنعين حتى اليوم الرابع والعشرين بأن حصن شيفاردينو يشكل الجناح الأيسر للموقع . بل ان كوتوزوف نفسه في تقريره الذي دبجه تحت تأثير المعركة الذي كان لايزال حامياً ، وأطلق عليه هذا الاسم . ثم أن كثيراً فيما بعد في تقاريرهم التي كتبوها بتؤده أظهروا قصد تبرير أخطاء الجنرال القائـد الأعلى الذي كان لابد من إظهاره بمظهر المعصوم عن الخطأ ، الزعم الخاطيء الغريب القائل بأن حصن شيفاردنيو كان نقطة أمامية — وهو الذي لم يكن أكثر من نقطة محصنة في الجناح الأيسر — وأننا قبلنا المعركة في موقع محصن

إنتخبناه سلفاً ، في حين أنها دارت في مكان لم يكن منتظراً وقوعها كما لم يكن
حصنا قط تقريباً .

وإليكم كيف دارت الأمور بكل وضوح : إنتخبوا نقطة على نهر كولوتشا
تقطع الطريق العام ليس على شكل زاوية قائمة بل على زاوية حادة بشكل جعل
الجناح الأيسر في شيفاردينو والأيمن قرب ضيعة نوفواي والوسط في بورودنيو
عند التقاء نهري كولوتشا وفوئينا . ولابد لجيش يهدف إلى إيقاف العدو المتقدم
على طول طريق سمولنسك - موسكو أن يحتل هـذا الموقع الذي يحميه نهر
كولوتشا . وكل من يفحص ساحة المعركة متناسياً كيف وقعت الأمور حقيقة
لابد مقتنع من فوره .

ولم ير نابوليون - كما يؤكد المؤرخون - في تقدمه يوم الرابع والعشرين
نحو فالوييفو موقع الروسيين من أوتيتسا إلى بورودنيو . وما كان يمكن أن يراه
لأنه كان غير موجود أصلاً . ولم ير كذلك النقطة الأمامية للجيش فلم يصطدم
بجناح الروسيين الأيسر إلا وهو يطارد المؤخرة أي في حصن شيفاردينو وبعد
أن اجتاز بقواته النهر « كولوتشا » ولقد طوى الروسيون جناحهم الأيسر من
النقطة التي أردوا إحتلالها إلى موقع جديد غير مدروس ولا محصن لأن حركة
نابوليون تلك فوّتت عليهم فرصة الدخول في معركة عامة . وبمرور نابوليون
أو باجتيازه ضفة كولوتشا اليسرى وبالتالي بوصوله إلى يسار الطريق ، نقل المعركة
المقبلة من جناح الروسيين الأيمن الى جناحهم الايسر ، في السهل الواقع بين
أوتيتسا وسيميونوفسكوي وبورودنيو ، وهو السهل الذي لم يكن يمتاز كموقع
عن أي موقع آخر . وهنا دارت معركة السادس والعشرين . وفيما يلي الخطوط
العامة للمعركة المخمنة كما كان يمكن أن تقع وخطوط المعركة الحقيقيه .

مخطط معركة بورودنيو

١ – موقع الفرنسيين المفترض .

٢ – موقع الروسيين المفترض .

٣ – موقع الفرنسيين الحقيقي خلال المعركة .

٤ – موقع الروسيين الحقيقي خلال المعركة .

(وفق مخطط وضعه بنفسه تولستوي) .

فلو ان نابوليون لم يعبر نهر كولوتشا في الرابع والعشرين مساء ، ولوأنه بدلاً من أن يقع فوراً على الحصن ، أجل الهجوم الى اليوم التالي ، لرآى العالم أجمع ان هذا الحصن كان يشكل الجناح الايسر في موقعنا وان المعركة كانت ستدور حسبما توقعناه . وحسب كل احتمال ، كنا سندافع عن شيفاردينو ، جناحنا الأيسر ، بحماس أقوى ،ونهاجم نابوليون في الوسط وفي اليمين ،وكانت المعركة العامة ستقع في الرابع والعشرين على الموقع الذي كان معداً ومحصناً . ولكن ، لمّا وقع الهجوم على جناحنا الأيسر مساءً عقب انثناء مؤخرتنا ، أي بعد معركة جريدنيفو مباشرة ، ولما لم يستطع رؤساؤنا أولم يريدوا خوض المعركة العامة مساء الرابع والعشرين ، فقدضاع الجزء الأول الرئيسي من معركة بورودنيو منذالرابع والعشرين ، الأمر الذي أدى الى هزيمة السادس والعشرين

بعد خسارة شيفاردنيو ، وجدنا أنفسنا صباح الخامس والعشرين محرومين من نقطة ارتكاز في الجناح الأيسر فاضطررنا الى ثني جناحنا الأيسر وتحصينه بأسرع وقت وفي أي موقع كان .

وهكذا اذن ، لم تكن الوحدات الروسية محصنة يوم السادس والعشرين الا في خنادق غير مستكملة . بل وأخطر من ذلك ان جنرالاتنا لم يدركوا تماماً الأمر الواقع : لم يروا ان خسران الجناح الايسر سيجر تبديلاً من

اليمين الى اليسار في اتجاه المعركة . لذلك فقد تركوا خطوطهم تتطاول كالسابق من نوفواي الى أوتيتسا ، الأمر الذي أرغمهم على الشروع في تحريك قطعاتهم في ابان احتدام المعركة من اليمين الى اليسار . وبذلك لم يستطع الروسيين ان يقابلوا الفرنسيين الا بجناحهم الأيسر ، أي بقوات أضعف مرتين . أما هجمات بونياتووسكي ضد اوتيتسا ، واوفاروف ضد الجناح الفرنسي الأيمن ، فانها كانت حوادث عرضية مستقلة عن سير المعركة العام .

وعلى هذا ، فان معركة بورودينو وقعت على شكل مخالف تماماً للأسلوب الذي رويت به بغية اخفاء خطيئات جنرالاتنا ، الامر الذي لم يعمل الا على الاقلال من مجد جيشنا وشعبنا . انها لم تقع في موقع مختار ومحصن سلفاً ولكن بقوات أقل قليلاً من جانبنا من قوات العدو . بل انهـا دارت أثر خسارة شيفاردينو وعلى أرض فضاء أو تافهة التحصين وبقوات أضعف مرتين من قوات الفرنسيين أي في شروط ما كان يمكن التفكير في مثلها ولا أقول لخوض معركة طيلة عشر ساعات كاملة بشكل غير مقرر بل للصمود ثلاث ساعات فقط دون التعرض لهزيمة كاملة .

* * *

الفَصْلُ العُشرون

رحلة بيير

غادر بيير موجايسك صباح الخامس والعشرين . ولكي ينحدر على طول الشارع المائل المتعرج الذي يخرج من المدينة تاركاً على اليمين الكنيسة التي كان يقام فيها قداس وسط قرع أجراس ، ترجل بيير من عربته وقطع المسافة على قـــدميه ومن ورائه ، كانت فرقة من الفرسان يسبقها منشدوها ، بينما راحت قافلة من الجرحى في معركة الأمس تصعد المنحدر في الاتجاه المعاكس والقرويون الذين يسوقونها يهرعون من جانب الى آخر من الشارع وهم يملأون الجو صراخا وقرعاً بالسياط . وكانت العربات التي تقل كل واحدة منها ثلاثة أو أربعة جرحى جالسين او مستقلين ، تقفز فوق الحجارة الملقاة هنا وهناك بمثابة رصف للطريق ، والجرحى ، بوجوههم الشاحبة ، ملتفون في أسمال ، وقد كظموا شفاههم وقطبوا حواجبهم ، يتشبثون بجوانب العربة وينضنضون ويصطدم بعضهم ببعض . وكانوا كلهم تقريباً يتأملون قبعة بيير البيضاء وثوبه الاخضر في فضول صبياني .

ولقـــد صاح حوذي بيير بسائقي العربات ان يتنحوا جانباً . لكن فرقة الفرسان الذين كانوا ينحدرون على الطريق يسبقهم صداحوهم ، قطعت عليه كل تقدم . وتوقف بيير وقد انتبذ سفح التل الذي بلغ من انحداره ان الشمس ما كانت تستطيع التوغل في الطريق العميق الوعر فكان المرء يشعر بالبرد والرطوبة

وفوق رأس بيير ، اضاء صبح جميل من أيام آب ، بينما راح قرع الاجراس يتبـدد بوداعة . توقفت احدى العربات على جانب الطريق بالقرب منه فهرع السائق ذو « القلشين » المصنوع من القنب وهو مبهور الانفاس فوضع حجراً تحت العجلات الخلفية غير المرطومة واصلح عدة حصانه .

وكان احدى الجرحى ، وهو جندي مسن يحمل ذراعه الى عنقه ، يتبع العربة مشياً على قدميه فتشبث بها بيده السليمة والتفت الى بيير يسأله :

- قل لي ، ايها المواطن ، هل تعلم ما اذا كانوا سيتركوننا هنا ام سيحملوننا الى موسكو ؟

وكان بيير مستغرقاً في أفكاره حتى انه لم يفهم السؤال . كان يتأمل فرقة الخيالة التي بلغت الآن مكان القافلة تارة وطوراً العربة القريبة منه حيث جلس فيها جريحان واستلقى ثالث . وكان يخيل اليه ان هؤلاء الحقيرين سيعطونه حل المسألة التي تشغله . كان أحد الاثنين الجالسين معصوب الرأس كله بالخرق وفمه وانفه معوجان وقد أصبح أحد خديه المنتفخ ولا شك من أثر جرح ، في حجم رأس طفل صغير . وكان يرسم على صدره اشارة الصليب وهو شاخص بابصاره الى الكنيسة . أما الثاني ،وهو مستنفرشاب ممتقع الوجه أشقر الشعر يبدو وكأنه فقد آخر قطرة من الدم في وجهه الدقيق ، فقد راح يتأمل بيير وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة مطبوعة . بينما كان الثالث مستلقياً على بطنه لا يمكن تمييز معالم وجهه . وبلغ المغنون الفرسان مكان تلك العربة بالذات وهم يضجون باغنية راقصة يستسيغها الجنود ، كانت بعض عباراتها واضحة :

ـ آه ! آه ! ايتها الكتلة الشائكة [1] .. تدحرجي ، تدحرجي وتدحرجي .

---

(١) - كنية تطلق على الجنود الذين تختلف رؤوسهم الحليقة عن رؤوس القرويين التي يتراوح الشعر عليها في الطول .

عبر الجبال والسهول ».

بينما راح قرع الاجراس ، وكأنه يريد ان يرجع الصدى ولكن على نمط بهيج آخر ، يبعثر في السماء انغامه المعدنية . وجاءت الشمس تضيف عاملاً ثالثاً من البهجة الى المشهد بان راحت تصب اشعاعاتها الدافئة على المرتفع الآخر على جانب الطريق . ولكن الجو في الجانب الذي وقف فيه بيير قرب عربة الجرحى والحصان المنهوك ، كان معتماً رطباً وحزيناً .

القى الجندي ذو الوجنة المنتفخة على المغنين نظرة غاضبة وغمغم :

– يالطغمة خالقي البلبال !

وقال الجندي المسن الواقف وراء العربة وعلى شفتيه ابتسامة نادبة :

– في هذه الساعة لايكفي الجنود بل انهم يأخذون كذلك ابناء الارض . لاتمييز في الوقت الحاضر . يجب ان يشترك كل الناس في الأمر . ماذا ! ان موسكو كلها تمر . يجب الفراغ من هذا الأمر .

وعلى الرغم من قلة الوضوح في هـذه الكلمات ، فان بيير فهمها كلها وأيدها باشارة من رأسه .

ثم أصبح الطريق حراً . فلما وصل بيير الى أسفل المنحدر ، عاد الى عربته يستقلها وتابع الطريق . كان يدير بصره فيما حوله باحثــاً عن وجوه يعرفها ، لكنه ماكان يرى غير عسكريين من مختلف الاسلحـة لايعرفهم وكلهم يبدي دهشته لقبعته البيضاء وثوبه الأخضر .

وبعد ان اجتاز ميلاً ، وجد أخيراً شخصاً يعرفه فهتف يناديه بابتهاج . كان احد رؤساء الاطباء في الجيش يرافقه طبيب شاب . وكانت عربته الصغيرة آتية في الاتجاه المضاد لوجهة عربة بيير . ولما عرف بيير ، أشار الى القوقازى الذي يقوم بدور الحوذي ان يقف .

– كيف ، هذا أنت يا كونت ! ماذا تعمل سعادتك هنا ؟

– لقد استبدت بي رغبة معاينة ..

– آه ! نعم ، سيكون هناك مايرى ..

نزل بيير من عربته وعبر له عن رغبته في حضور المعركة فاشار عليه الطبيب ان يتصل بعظيم الرفعة مباشرة . قال وهو يتبادل نظرة مع زميله الشاب :

– الله يعلم اين يمكنك ان تجد لنفسك مكاناً خلال المعركة اذا كنت غير معروف . ان عظيم الرفعة على الاقل يعرفك وسيستقبلك بحسن التفات . نعم ياعزيزي ، هذا ما يجب ان تفعل .

كان الطبيب بادي التعب مستعجلاً . سأله بيير :

– آه ! أتظن .. ولكن قل لي ، أين موقعنا ؟

– الموقع ؟ هذا ليس من اختصاصي . عندما تجتاز تاتارينوفو ، سترى انهم يحفرون هناك مساحة كبيرة من الارض . اصعد على التل ومن هناك يمكنك ان ترى ..

– آه ! حقاً .. لو انك ..

لكن الطبيب كان قد عاد الى عربته . قال وهو يشير الى حنجرته :

– كنت سارافقك عن طيب خاطر ، لكنني كما ترى ملآن الى هنا . انني ذاهب لدى قائد الوحدة . أتدري كيف تسير الامور يا كونت ؟ غداً سندخل في معركة . ويجب ان نحصي أقلياً عشرين الف جريح على مائة محارب . وليس لدينا نقالات ولا اسرة ميدان ولا ممرضون ولا أطباء حتى لستة الاف شخص . صحيح ان لدينا عشرة الاف عربة . لكننا في حاجة الى أشياء اخرى ويجب ان نتدبر الأمر !

لم تلبث ان طافت بذهن بيير فكرة غريبة : بين هذه الالوف من الرجال

الأحياء الأصحاء الشبان والكهول الذين يمرون أمامه الآن ويتأملون قبعته البيضاء باستغراب فيه تسلية ، عشرون الفاً نذروا لاحتمال الآلام والموت ، لعلهم هؤلاء انفسهم الذين يشاهدهم الآن .

« قد يموتون غداً فكيف يمكنهم التفكير في شيء آخر غير الموت ؟» وفجأة ، تمثل بنتيجة اتحاد غامض بين الافكار ، منحدر موجائيسك والعربات المحملة بالجرحى وصوت الاجراس واشعاعات الشمس المنحرفة وانشودة الفرسان . فراح يحدث نفسه وهو يتابع طريقه نحو تاتارينوفو : « ان هؤلاء الفرسان الذين يمشون الى المعركة ، يقابلون الجرحى ويتبادلون معهم غمزات بعيونهم دون ان يفكروا لحظة واحدة فيما ينتظرهم . وبين كل هؤلاء الناس ، عشرون الفاً قدر ان يتعرضوا للموت مع ذلك ، فان قبعتي تسليهم ! هذا غريب ! » .

وبالقرب من منزل أحد السادة ، على يسار الطريق ، وقفت عربات نقل وعربات ركاب وجماعة من الخفراء والاتباع . انه مقام عظيم الرفعة . لكن هذا كان متغيباً في الساعة التي وصل فيها بيير كما كان معظم أفراد هيئة الاركان متغيبين . لقد كانوا جميعهم في القداس الديني المقام لذلك فقد استمر بيير باتجاه جوركي .

وعندما دخلت عربته شارع القرية الصغير بعد ان صعدت مرتفعات ، شاهد لأول مرة قرويين متطوعين في ستراتهم البيضاء يحملون صليباً على قلانسهم وهم يضحكون ويتكلمون باصوات مرتفعة في حميا تنضح أجسادهم بالعرق ويشتغلون على تل كبير الى يمين الطريق اكتسحته الاعشاب الطفيلية .

ولما رأى بيير هؤلاء القرويين منكبين على اداء عمل غير مألوف لديهم ،

تذكر جرجي موجائيسك فادرك معنى كلمات الجندي المسن العميقة : « يجب ان يتدخل كل الناس في الأمر . » لقد أوحى هؤلاء الرجال الملتحين كلهم الذين يشتغلون في ساحة المعركة ويلفتون الأنظار بأحـذيتهم الغريبة وأقذلتهم السابحة في العرق وستراتهم تلك المفتوحة من الجانب التي تترك للعين فرصة مشاهدة تراق عظيمة ملوحة ، أوحى الى بيير اكثر من اية مرة سبقت ، بأنه استطاع مراقبة وسماع خطورة الساعة الحاضرة وجلالها .

* * *

الفصل الحادي والعشرون

عذراء سمولنسك

نزل بيير من العربة ومر بين المتطوعين الدائبين على العمل وارتقى التل الذي يمكن للمرء من أعلاه مشاهدة ساحة المعركة حسب أقوال الطبيب الرئيس .

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً والشمس التي كانت وراء بيير الى يساره قليلاً ، تضيء في جو نقي نادر المشهد الهائل الذي تبدي أمام عينيه على شكل حلبة .

كان طريق سمولنسك الكبير ، يقطع هذه الحلبة الى اليسار متعرجاً وهو يرتفع عبر ضيعة صغيرة ذات كنيسة بيضاء ، واقعة على بعد خمسمائة خطوة الى الامام في مستوى ادنى من التل هي قرية بورودينو . وكان الطريق يمر هناك عبر جسر وفي سلسلة من المرتفعات والمنخفضات باتجاه مركز فالوييغو الذي يحتله نابوليون والذي يراه الناظر على بعد ميل ونصف من هناك . وبعد ذلك، يختفي الطريق في غابة مصفرة . وفي تلك الغابة من أشجار السندر والصنوبر ، الى يمين الاتجاه الذي يسير الطريق فيه ، كانت الشمس تلتمع فوق قبة جرس دير كولوتشاوصليبه . والى أبعد من ذلك ، على يمين الغابة والطريق ويسارهم ، في البعد الضارب الى الزرقة ، ظهرت هنا وهناك نيران المعسكرات ثم الكتل غير الواضحة لقطعاتنا وقطعات العدو . والى اليمين ، على طول كولوتشا

وموسكوفا ، كانت الوديان تحتل الارض وبينها علائم قريتي بيزوبوفو وزاخارينو اما الى اليسار ، فكانت الأرض أكثر استواء فكانت تظهر للعيان حقول القمح وبقايا قرية سيميونوفسكوي المحترقة .

لقد كان كل مايراه بيير من الابهام حتى ان مامن شيء في اليمين أو اليسار كان يجيب تماماً على ما كان يتوقع . فبدلاً من ساحة المعركة التي كان يتوقع ان يرى ، لم يجد غير البراري والمزارع والقطعات والغابات ونيران المعسكرات والقرى والتلال والانهار . وعلى الرغم من الانتباه الشديد الذي صرفه ، فانه لم يتوصل الى معرفة الموقع ولا حتى ان يميز قطعاتنا من قطعات العدو .

حدث نفسه قائلاً : « يجب السؤال من شخص مختص » ثم اتجه نحو ضابط كان يتأمل بفضول جسمه الضخم قليل الشبه بالاجسام العسكرية وقال له :

— هل أستطيع ان أسألك عن اسم هذه القرية هناك ، قبالتنا ؟

اجاب الضابط وهو يلتفت نحو زميله :

- بوردينو أليس كذلك ؟

فصحح الزميل :

— بل بورودينو .

اقترب الضابط الذي بدا شديد الاغتباط بالثرثرة . فسأله بيير :

— هل هم رجالنا ، هناك ؟

— نعم . وهناك ، الى الوراء ، الفرنسيون . هناك ، هل ترى ؟

- أين ؟

— ولكن يمكن رؤيتهم بسهولة بالعين المجردة . هنا ، انظر .

أشار الضابط الى الادخنة المتصاعدة على اليسار عبر النهر ، وقد اتسم وجهه بذلك الميسم القلق الصارم الذي لاحظه بيير على وجوه الآخرين كلهم .

سأل بيير وهو يشير الى تل الى اليسار كانت ترى حوله قطعات من الجنود :

– آه ! هؤلاء هم الفرنسيون ! وهنا ؟

– أنهم جماعتنا .

– آه ! جماعتنا ! وهنا ؟

وأشار الى هضبة أبعد ، تتوجها شجرة كبيرة ، غير بعيدة عن قرية منزوية في منحدر من الارض كان الناظر يرى الى جانب نيران المعسكر المدخنة شيئاً ما أسود اللون . ذاك هو حصن شيفاردينو .

– هناك؟ انه « هو » ايضاً . لقد كناأمس هناك واليوم أصبحت له « هو » .

– واذن أين موقعنا ؟

فقال الضابط بابتسامة راضية :

– موقعنا ؟ انني أستطيع ان أصفها لك وصف العارف لأنني أنا الذي أشرفت على تحضير كل الخنادق والمتاريس . ان وسطنا كما ترى في بورودينو هنا ـ وأشار الى القرية ذات الكنيسة البيضاء الماثلة أمامهم مباشرة . ـ وهنا يقوم ممر كولوتشا انظر الى هناك ، حيث تقوم صفوف من الحشيش المرزوم ، ان الجسر قريب من هناك . انه وسطنا . وجناحنا الأيمن ها كه ـ وأشار الى اخدود متعرج منحدر عند أقصى اليمين . ـ انه الموسكوفا يسيل هناك ولقد أقمنا ثلاثة حصون منيعة قوية جداً . أما جناحنا الأيسر .. لعمري ، ان من الصعب تفسيره .. لقد كان بالأمس هنا ، في شيفاردينو ، حيث ترى شجرة البلوط ، هناك .. لكننا سحبنا الجناح الايسر الى الوراء . والآن ، انظر هنا ، الى القرية والدخان ، انها سيميونوفسكوي .. ثم هنـــا ، ـ وأشار الى هضبة رايفسكي .. مع ذلك ، ان من المشكوك فيه ان تدور المعركة هنا . لقد مرّر « هو » قواته من هنا . لكنها خدعة . سوف « يقوم » ولا ريب بحركة التفاف الى يمين موسكوفا .. على أية حال ، فان عدداً كبيراً لن يحضر نداء التفقد غداً !

قاطعه صف ضابط عجوز كان قد اقترب أثناء الحديث وراح يصغي بصمت وقد ساءته ولاريب ملاحظة رئيسية حول ذلك الموضوع . قال له بلهجة خشنة :

– ينبغي لنا بعض القفف .

بدا الضابط مضطرباً وكأنه أدرك أن من الممكن للجنود التفكير في ان كثيراً من الزملاء لن يحضروا نداء الغد ولكن ليس من اللائق التحدث عن هذا الأمر فأجاب متعجلاً :

– حسناً ، إرسل السرية الثالثة أيضاً .

ثم التفت الى بيير فقال :

– ولكن أنت ، من أنت ؟ طبيب بلا ريب ؟

– كلا . انني هنا هكذا ..

ولما نزل بيير مرة من جديد وسط المتطوعين وكان الطبيب يتبعه بخطوات واسعة . قال هذا وهو يسد منخريه :

– آه ! ياللأقذار !

وقالت أصوات كثيرة :

– ها هم اؤلاء ! .. إنهم يحملونها ، إنهم آتون .. ها هم اؤلاء ..

ولم يلبث ان اندفع الضباط والجنود والمتطوعون الى الطريق .

كان موكب يصعد الهضبة خارجاً من بورودينو وعلى رأسه يتقدم لواء من المشاة حاسر الرأس مخفوض السلاح فوق الطريق الغبراء . ومن وراء الجنود إرتفعت أناشيد كنائسية .

وهرع الجنود والمتطوعون وقد رفعوا قبعاتهم وتخطوا بيير لاستقبال القادمين .

– لقد جاءوا بها ، بالأم الطيبة ! حاميتنا ! .. عذراء ايبيريا «نوتردام ديبيري .»

فصحح آخر :

- كلا ، بل عذراء سمولنسك .

وألقى المتطوعون -الذين كانوا في القرية والذين كانوا يعملون في اعداد «بطارية» المدفعية -المعاول من أيديهم ومضوا لاستقبال الموكب الديني ، وكانت الهيئة الدينية في حلل القداس تتقدم وراء لواء المشاة : كاهن عجوز وعلى رأسه كمّة وحوله فريق من الشمامسه والمرتلين ، وفي اعقاب هؤلاء كان عدد من الضباط والجنود يحملون أيقونة كبير ذات وجه مسود في زينتها المعدنية الخاصة ، وكانت هذه الايقونة هي التي حملوها من سمولنسك وظلت منذ ذلك الحين تتبع الجيش في تنقله ، ومن الوراء والأمام وعلى الجانبين ، راح عدد كبير من العسكريين يمشي أو يجري والرجال حاسروا الرؤوس يخشعون .

توقفت الأيقونة عند قمة التل وتناوب الاشخاص الذين كانوا يحملونها بقطع من القماش وأعاد حاملوا المباخر اشعال مباخرهم وبـــدأ القداس ، كانت اشعاعات الشمس تسقط عمودية ونسمة خفيفة تتلاعب بشعر الأيقونه والأشرطة التي تزينها والترانيم تتصاعد وتضيع في السماء . وتكأكأ حشد هائل من الضباط والجنود والمتطوعين حول المكان وشغل الضباط الكبار فراغـاً خصص لهم وراء رجال الدين .

كان جنرال أصلع يطوق عنقه بربطة القديس جورج واقفاً وراء الراهب مباشره ينتظر بفارغ صبر دون ان يرسم شارة الصليب على صدره - ولا بـد انه ألماني - انتهاء الصلوات التي كان يعتقد انه مرغم على حضورها لانها تغـذي الحمية الوطنية في نفوس الشعب الروسي ، وجنرال آخر وقف بتجبّر وقفـة عسكرية كان لايفتأ يرسم على صدره إشارات الصليب وهو يجيل عينيه يمنـــة ويسره ولقد عرف بيير الذي اختلط بالقرويين عدداً من معارفه بين اولئك الشخصيات الكبيره لكنه لم ينظر اليها لأن انتباهه كله كان محتكراً في معاينة

وجوه الجنود الصارمه الذين كانت عيونهم تلتهم الايقونة بلهفه وكلف . ولماشرع المرتلون الذين بلغوا فرضهم العشرين في ترديد الضراعة : «أيتها القديسة أم الله إنقذي خدامك من البلاء» بصوت متعب كامد واستأنف الراهب والشماس : «لانه تبعاً للتعاليم السماوية ، نلجأ كلنا الى شفاعتك ونعتمد عليك كما نعتمد على جدار لايتزعزع» لاحظ بيير على كل الوجوه ذلك الاحساس برهبة الساعة الذي لاحظه عند منحدر موجائيسك وفي مناسبات كثيرة خلال رحلته . انحنت الرؤوس بخشوع وتناهت الزفرات الى الأسماع وإيقاع الأصابع وهي ترسم إشارات الصليب على الصدور .

تقهقر الحشد الذي كان متكاثفاً حول الأيقونة فجأة فاندفع بيير الى الوراء مع الحركة . ولقد دلت هذه العجلة في الانتظام في صفوف على قدوم شخصية رفيعة المقام ولاريب .

كان كوتوزوف هو القادم ليتفقد الموقع ويعود الى تاتارينوفو . ولقد عرفه بيير من شكله البارز .

كان جسمه الضخم ملفوفاً في قميص طويل يظهر منه ظهره المحدودب وقد بدا رأسه الأبيض الحاسر وعينه المطفأه الفارقه في وجه رهل . تقدم بمشيته الغاطسه المتأرجحه وتوقف وراء الراهب مباشرة ثم رسم إشارة الصليب بحركة آلية ولمس الارض بيده وبعد ان أطلق زفرة عميقة أحنى رأسه المجرد من الشعر . وكان بينيجسن وحاشيته يتقدمون من ورائه . لم يلبث حضور القائد الأعلى أن احتكر عناية كبار الضباط بيد ان المتطوعين والجنود لبثوا مستغرقين في صلاتهم دون أن يعيروه إلتفاته .

ولما انتهى القداس ، إقترب كوتوزوف من الأيقونة وتهاوى على ركبتيه

ثم سجد حتى بلغ الارض وظل طويلاً دون أن يستطيع النهوض بسبب ثقل وزنه وضعفه حتى تقلص وجهه من الجهد . أخيراً نهض وقرب شفتيه بصورة ساذج طفولي وطبع قبلة على الصورة ثم انحنى من جديد ولمس الأرض بيده فاقتدى به الجنرالات كلهم ثم الضباط ومن بعـدهم الجنود فالمتطوعون وهم يتدافعون ويتناحرون لاهثي الأنفاس يعلو التأثر وجوههم .

★ ★ ★

الفَصْلُ الثّاني وَالعُشْرونَ

وجوه قديمة

وبينما راحت الجماهير تسوقه من جانب الى آخر ، راح بيير يلقي نظرات حوله . قال صوت :

– ياكونت بيير كيرلليتش ! أنت هنا !

التفت بيير فاذا ببوريس دروبتسكوي يتقدم نحوه باسماً وهو ينفض الغبار عن ركبتيه اللتين اتسختا ولا ريب بسبب ركوعه على الارض أمام الايقونة . كان يبدو في أناقة مدققة مرتدياً مثل بيزوخوف سترة طويلة ويتقلد سوطاً .

وفي تلك الاثناء كان الجنرال القائد الاعلى قد بلغ القرية وجلس في ظلال أقرب بيت على مقعد جاء به قوقازي راكضاً وغطاه آخر بنجد . وكانت حاشية مرموقة كثيرة العدد تحيط به .

عاد الموكب الديني الى المسير بينما توقف بيير على بعد ثلاثين خطوة من كوتوزوف يتحدث مع بوريس شارحاً له رغبته في حضور المعركة وفحص الموقع فقال له هذا .

– حسناً ! هذا ما سوف تفعله . سوف أقدم لك حفاوات المعسكر . لاريب أن أفضل مكان لمعاينة المعركة هو حيث يقف الآن بينيجسن . إنني ملحق بشخصه وسوف أخطره . واذا كنت ترغب في تفقد الموقع فما عليك إلا أن تتبعنا لاننا ذاهبون الآن لتفقد الجناح الايسر . وعند عودتنا سوف تسمح لي

بأن أستضيفك هـــذه الليلة وسوف نمضي سهرة طيبة . إنك تعرف ولاريب دميتري سيرجييتش ؟ ها هو ذا مسكنه .

وأشار الى البيت الثالث من جوركي . قال بيير :

لكنني كنت أفضل زيارة الجناح الايمن الذي يزعمون أنه حصين جداً ولكم أودّ الطواف بالموقع إعتباراً من موسكوفا .

– يمكنك أن تقوم بذلك فيما بعد. بيد أن النقطة الرئيسية هي الجناح الايسر.

– نعم ، نعم . ثم ألا تستطيع أن تدلني على الفيلق الذي فيه الأمير بولكونسكي ؟

– فيلق آندريه نيكولاييفيتش ؟ سوف نمر أمامه وسأقودك اليه .

– حسناً . وماذا كنت تريد ان تقول عن الجناح الايسر ؟

استطرد بوريس وهو يخفت صوته بلهجة من يودع سراً :

- في الحقيقة ، وهذا بيننا ، ان هذا الجناح الايسر في حالة وقتية أكثر منها ثابتة ، الامر الذي لم يكن الكونت بينيجسن يرغب فيه مطلقاً . كان يريد ان يحصن هذا التل هناك على شكل آخر مختلف ـ وأضاف وهو يهز كتفيه ـ غير ان عظيم الرفعة لم يرض أم أنهم أثروا عليه . ذلك لان . .

لكن بوريس لم يتمم سرد فكرته لان كائيساروف ، أحد مساعدي كوتوزوف العسكريين اقترب من بيير في تلك اللحظة فاستطرد بوريس بضحكة مرحة وجهها الى القادم الجديد

– آه ! ياباثيسي سيرجييتش ، انني كما ترى أحاول أن أشرح الموقف للكونت . يالبراعة عظيم الرفعة في تخمين نوايا الفرنسيين ! إنه لأمر رائع !

سأل كائيساروف :

– إنك تتحدث عن الجناح الأيسر ؟

- نعم ، بالضبط . ان جناحنا الأيسر الآن قوي جداً جداً .

على الرغم من أن كوتوزوف صرف من الأركان العامة كل الذين لا نفع فيهم ، فإن بوريس استطاع ان يحتفظ بمركزه في المقر الرئيسي بالالتحاق الى حاشية الكونت بينيجسن . وكان هذا كالآخرين يعتقد أن له في دروبتسكوي الشاب مساعداً ثميناً .

كانت القيادة العليا تنقسم إلى قسمين بينين : جانب كوتوزوف وجانب بينيجسن رئيس الأركان . وكان بوريس منتمياً الى هذا الجانب الأخير يوحي إلى سامعيه رغم إبدائه احترام الخادم للمخدوم لكوتوزوف بأن العجوز لا يساوي شيئاً وان بينيجسن هو الذي يسيّر دفـــة كل شيء . وكانت اللحظة الحاسمة تقترب فاذا ضاعت المعركة نُحيّ كوتوزوف ووجب تسليم منصبه الى بينيجسن . أما إذا رُبحت المعركة . فإنهم سوف يتدبرون الأمر على العكس ليجعلوا شرف النصر راجعاً إلى بينيجسن . على أية حال ، فإن نهار غدٍ سيؤدي الى توزيع المكافئآت على نطاق واسع كما سيؤدي في المرحلة الأولى إلى مجيء رجال جدد . ذلك كان السبب الذي جعل بوريس ذلك اليوم في هرج ومرج شديدين .

جاء بعد كائيساروف عدد آخر من معارف بيير فأحاطوا به حتى انه بات يجد صعوبة في الاجابة على كل الاسئلة التي راحوا يوجهونها اليه عن موسكو ، وفي تتبع كل الاقاصيص التي شرعوا يروونها على مسامعه . وكانت الوجوه كلها متأثرة وبالغة ذروة الانفعال ولكن خيل الى بيير ان كل ذلك التهيج انما يرتكز على أسس اقامتها المصلحة الشخصية ، فلم يستطع الا ان يقارنه بذلك الذي قرأه على وجوه اخرى والذي نجم عن مسألة كلية مختلفة ، مسألة الحياة او الموت .

ولاحظ كوتوزوف شخص بيير الضخم والزمرة التي تحيط به فقال آمراً :

- قولوا له ان يأتي الي !

وحمل مساعد عسكري رغبة عظيم الرفعة الى بيير ليتوجه هذا نحو مقعد الجنرال . لكن جندياً من المتطوعين سبقه وكان ذلك الجندي هو دولوخوف.

سأل بيير :

– كيف جاء هذا الى هنا ؟

فأجابه بعضهم :

– اوه ! انه شاطر يعرف كيف يتسلل في كل مكان . لقد كسرت رتبته من جديد وهو يرغب الآن في ان يسترد مركزه. ولقد قدم عدداً من المشاريع المختلفة وقام بغارة ليلية على خطوط العدو .. لامجال للنقض ، انه فتى صنديد !

رفع بيير قبعته وانحنى باحترام امام كوتوزوف . وكان دولوخوف في تلك اللحظة يقول :

– ولقد فكرت انني اذا خاطبت سموكم ، فان اسوأ ما يمكن ان يقع لي هو ان ترفضوا الاصغاء اليّ أو ان تقولوا انكم عارفون كل هذا مثل ما أعرفه ..

– حسنا ، حسنا ..

– واذا كنتم سموكم في حاجة الى رجل لايخشى قط تعريض نفسه للخطر ، فلتتفضلوا بتذكر اسمي .. علني اكون نافعاً لسموكم ..

فكرر كوتوزف وقد وقعت عينه الضحاكة على بيير :

– حسنا ..

خلال ذلك ، كان بوريس ، ببراعته ولباقته ، قد استطاع ان يجعل نفسه ملازماً لبيير ، الى جوار الرئيس الأكبر مباشرة ، فقال بلهجة طبيعية جداً لايتطرق اليها الشك ، يخاطب بيزوخوف وكأنه ينهي حديثاً بدأ بينهما :

– لقد ارتدى المتطوعون قمصاناً جديدة بيضاء ليستعدوا للموت . يالها من بطولة يا كونت !

وكان يشك في أن لاتوقظ هذه الكلمات انتباه كوتوزوف . والواقع ان هذا لم يلبث ان سأله :

– ماذا تقول عن المتطوعين ؟

– لقد ارتدوا ياصاحب السمو قمصاناً بيضاء استعداداً ليوم غد ، للموت .

فقال كوتوزوف :

– آه ! ياله من شعب رائع ، ياله من شعب لايبارى !

واغمض عينيه وهز رأسه واطلق زفرة وردد :

– نعم ، ياله من شعب لايبارى !

ثم خاطب بيير سائلاً :

– واذن ، انك تريد ان تستنشق رائحة البارود ؟ نعم ، انها رائحة جميلة . لي الشرف ان اكون أحد المعجبين بالسيدة زوجتك . كيف حالها ؟ ان معسكري رهن امرك .

وكما يحدث عادة للأشخاص المسنين ، ادار كوتوزوف حوله نظرة ساهمة وكأنه لم يعد يذكر ما كان يريد ان يقول أو أن يعمل . ثم استدعى باشارة سيرجييتش كائيساروف أخا مساعده العسكري وقال له وكأنه استعاد حبل تفكيره :

– ذكرني بأبيات مارين ، انك تعرف ماذا كتب عن جيراكوف :
« سوف تلقن سرايا الجدد دروسا .. » هيا ، هيا ..

وكان إلحاحه يظهر استعداده الواضح لأدخال بعض المرح على نفسه . فراح كائيساروف يتلو الأبيات عليه وهو – كوتوزوف – يضبط الايقاع بهزات رأسه .

وبينما شرع بيير ينسحب ، استوقفه دولوخوف من ذراعه وقال له بصوت مرتفع يحمل طابع تمجيد خاص ، غير مبال قط وجود غرباء :

– يفتنني ان القاك هنا ، عشية يوم لايعلم الا الله الذين سوف يبقون على قيد الحياة بيننا . وانني سعيد اذ أقول لك انني آسف لسوء التفاهم القديم وانني أرغب في أن لايكون في نفسك شيء من الضغينة ضدي . تفضل بالصفح عني .

نظر اليه بيير وراح يبتسم دون ان يعرف كيف يجيب بينما ضمه دولوخوف الي قلبه والدموع تتلألأ في عينيه .

والتفت الكونت بينيجسن نحو بيير بعدان حدثه بوريس ببضع كلمات ودعاه الى مرافقته في جولته التفتيشية قال له :

– سوف يثير ذلك اهتمامك .

فأجاب بيير :

– نعم ولاريب .

وفي غضون نصف ساعة ، عاد كوتوزوف الى تاتارينوفو ، بينما توجه بينيجسن وحاشيته ، ومعهم بيير ، نحو خطوط القتال .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

تصرف بينيجسن

نزل بينيجسن من جوركي على الطريق الرئيسية حتى بلغ الجسر الذي دلّ الضابط بيير عليه من فوق التل مشيراً الى انه « وسط » الموقع ، والذي انتشرت بقربه رزمة من الحشيش العطر . وبعد ان اجتازوا الجسر وضيعة بورودينو ، استداروا الى اليسار ومروا بحشد كبير من الجنود والمدافع فعرضت لأبصارهم ربوة كان المتطوعون يقلبون أرضها . تلك كانت الحصن الذي عرف فيما بعد باسم « حصن رايفسكي » أو « بطارية التل » .

لم يعلق بيير عليها الا اهتماماً عابراً لانه ما كان يعتقد قط ان ذلك الحصن سيصبح بالنسبة اليه المكان الذي يستحق الذكر اكثر من أي موقع آخر من ساحة المعركة . وبعد ان عبروا خوراً ، بلغوا قرية سيميونوفسكوي حيث كان الجنود يحملون آخر أخشاب الأكواخ والمكادس . وأخيراً ، وبعد سلسلة من المرتفعات والمنخفضات ، عبر حقول من الشيلم الذي حطمه البرد ، وصلوا الى طريق فتحته المدفعية بين أخاديد حقل محروث ومنه بلغوا الخنادق التي كانوا يقومون بحفرها .

ولما وصلوا الى هناك ، رفع بينيجسن أبصاره قبالته نحو حصن شيفاردينو الذي كان حتى الأمس في أيدينا والذي كان يري حوله بعض الفرسان . واقد زعم بعض الضباط ان واحداً من اولئك الفرسان كان ولاريب نابوليون

أو مورا . فراح الجميع ينظرون تلك الناحية بتعطش وراح بيير يسعى لمعرفة مَنْ اولئك الفرسان يمكن ان يكون نابوليون. لكن الجماعة مالبثت ان تركت التل وضاعت عن متابعة الأبصار .

شرح بينيجسن لجنرال كان يقترب في تلك اللحظة موقع قطعاتنا بالتفصيل وراح بيير يصغي اليه جاهداً ان يتفهم موضوع المعركة المقبلة . لكن لعظيم نكده ، لمس ان ذكاءه لايبلغ هذا الحد لأنه لم يكن يفهم من الشرح شيئاً . وبينما بينيجسن ينهي درسه ، لاحظ ما اعترى وجه بيير من امارات وهويصغي اليه فسأله فجأة :

– لن يثير هذا اهتمامك ولاريب ؟

فأحتج بيير بقليل من الاخلاص :

بل على العكس ؟

مالوا الى اليسار أيضاً بعد موقع الاستحكامات عبر طريق متعرج يخترق غابة من أشجار السندر الصغيرة . وفي وسط تلك الغابة ، انبعث أمامهم أرنب بري أشهب ذو قوائم بيضاء . ولقد روعه اقتراب كل هذا العدد من الخيول ، ففقد صوابه وراح يعرقص طويلاً على الطريق مثيراً الضحك العام حتى انه لم يعتزم اخيراً الدخول الى الدغل الا بعد ان صرخت عدة حناجر تفزعه . وبعد نصف ساعة ، انتهوا الى فسحة جرداء تشغلها وحدة توتشكوف التي عُهد اليها بالدفاع عن أقصى الجناح الأيسر . .

وهنا تحدث بينيجسن طويلاً وبحماس ثم اتخذ اجراء خيل الى بيير انه ذا أهمية أولية. لقد كان قبالة وحدة توتشكوف تل أهملوا احتلاله ، فانتقد بينيجسن هذه الخطيئة بصوت مرتفع قائلاً ان من الجنون ترك نقطة تتحكم بالمنطقة دون حماية وانه يجب اقامة وحدات عند أسفل التل . ولقد أعرب بعض

الجنرالات عن الرأي نفسه . بل ان أحدهم ، بصراحة عسكرية صميمة أنهم أرسلوهم الى المسلخ . فأمر بينيجسن من تلقاء نفسه باحتلال التل وغير مراكز القطعات .

ولقـد أقنع هذا التصرف بيير بعجزه عن تفهم الفن الحربي . تساءل وهو يشاطر بينيجسن وجنرالاته الرأي ، كيف استطاع الذي أقام وحدة توتشكوف هنا ، ان يرتكب مثل هذه الخطيئة الفاحشة .

كان يجهل ان تلك الوحدة لم تكن مهمتها حماية الموقع كما تصور بينجسن ، بل انهم أخفوها هناك استعداداً لشرك أعد سلفاً بقصد مهاجمة العدو على غرة وهو في سيرة . ولقد خضع بينيجسن وهو يبدل ذلك الموقع لوجهات نظر خاصة حاذر ان يطلع القائد الاعلى عليها .

★ ★ ★

الفصل الرابع والعشرون

احساس آندريه

كان الأمير آندريه ليلة الخامس والعشرين تلك ، يستريح في مكدس خرب بقرية كيناز كوفو ، عند الطرف الأقصى من الجبهة التي يدافع لواؤه عنها . كان متكئاً على مرفقه ينظر خلال الحواجز المفككة الى خط من السندر الثلاثيني ذي الاغصان المنخفضة المشذبة الذي يمتد على طول الحاجز والى حقل تناثرت فيه جرز العلف غيضة يتصاعد منها دخان المطابخ .

وعلى الرغم من انه كان يعتقد بأنه شخص عديم النفع وانه لايليق بالحياة ، فانه كان يشعر بالانفعال وشدة التأثر كشعوره عشية معركة قبل سبعة أعوام .

لقد تلقى الاوامر المتعلقة بمعركة الغد ونقلها فلم يتبق له ما يعمله . لكن أكثر الأفكار بساطة ووضوحاً وبالتالي أكثر إيلاماً ، ما فتئت تهاجمه . كان يعرف ان تلك المعركة ستكون أشد هولاً من كل المعارك التي خاضها لذلك فقد تمثلت له لأول مرة امكانية الموت بكل وضوح وعلى شكلها المريع . بجدة بل وبالتأكيد . لم يعد يتساءل عن التأثير الذي يمكن ان يحدثه هذا العارض على الآخرين بل أصبح يتصوره على زاوية شخصية بحتة ، كما لم يعد يفكر الا في نفسه . ومن السماك الذي بلغته أفكاره ، استضاء كل ما كان يعذبه من قبل عذاباً مبرحاً بنور أبيض بارد دون ظلال ولا توقع ولا خطوط محيطية واضحة .

ادرك انه لم يتأمل حياته حتى ذلك الحين الا على ضوء مصباح سحري وتحت اضاءة اصطناعية . بات يرى فجأة تلك اللوحات الملونة بغلظةدون واسطة عدسة بل على ضوء النهار الباهر . راح يحدث نفسه وهو يستعيد في ذاكرته لوحات ذلك المصباح السحري الرئيسية التي راح ينظر اليها الآن على ضوء ذلك النور الأبيض البارد الذي تلقيه فكرة الموت المشرقة : « نعم ، نعم . ها هو ذا ذلك السراب الخادع الذي طالما هزني واثارني وألمني . ها هي ذي ، هذه الصور الملونة بغلظة التي تبدو لي رائعة جداً وشديدة الغموض . المجد ، الصالح العام ، الحب ، بل الوطن نفسه . كم كانت كل هـذه الأشياء تبدو لي كبيرة ومليئة وذات معنى عميق ! مع انها كلها شديدة الشحوب ، غليظة على الضوء الفاضح الذي يلقيه هذا الضجر الذي أشعر انه يشرق علي ! » ولقد كانت آلامه الثلاثة الكبرى تستنفذ كل اهتمامه : غرامه ، موت أبيه وغزوا الفرنسيين الذين باتوا يحتلون نصف روسيا . وفجأة هتف بمرارة ساخرة : « الحب ! . . تلك البنية التي كانت تبـدو لي زاخرة بكثير من القوى المبهمة ! وماذا ! كنت أحبها ، واقيم أحلام غرام شاعرية وأحلام سعادة . . يا للطفل الصغير ! اي نعم ! كنت تؤمن بلست أدري أي حب مثالي كان عليه ان يبقيها مخلصة لك طيلة عام كامل من الغياب . كان عليها ان تضني نفسها بانتظار كحمامة القصة الحانية . . لكن كل شيء كان وللأسف أكثر بساطه ! . . ان كل هذا بسيط بشكل مريع ومنفر ! »

« كان أبي يبني في ليسيباجوري ويظن ان ذلك الركن يخصه وان فيه أرضاً وهواءً وقرويين له . لكن نابليون جاء فجاءة ودون ان يعرف ان ابي موجود ، كنسه وكأنه حطام قش ، هو وليسيباجوري . وماري تزعم ان اختبار آتٍ من الأعلى ! فلماذا هذا الاختبار اذن طالما انه لم يعد حياً ولن يحيى أبداً ؟ كلا ، انه لن يعود بعد اليوم أبداً . واذن ، لمن هـذا الاختبار ؟ . .

الوطن ، خسارة موسكو ! لكنهم غداً سيقتلونني . ولن يكون الفاعل فرنسياً بل سيكون واحداً من رجالنا ، مثل ذلك الجندي الذي أطلق سلاحه أمس قرب أذني . . سيأتي الفرنسيون وسيحملونني من قدمي ورأسي ويلقونني في حفرة كيلا تؤذيهم رائحتي النتنة . . وستقوم شروط حياتية جديدة وستصبح طبيعية تماماً بالنسبة الى آخرين كالنظم السابقة .. ولن أعرفها . اذن لن اكون على قيد الحياة . »

أخذ يتأمل خط السندر واوراقها الصفراء الجامدة وقلافتها البيضاء التي تلتمع تحت الشمس . « الموت . . نعم ، يمكن ان اقتل غداً . . ان لا أصبح من أهل الحياة . . وان كل هذا موجود ولكنه بالنسبة الي انتهى ، انتهى كل شيء . » تمثل مشهد الحياة في سياقها الطبيعي بوضوح دون ان يساهم فيهـــا . وأشجار السندر تلك بألوانها وظلالها ، وتلك الغيوم الكثيفة ودخان المعسكرات ذاك ، كل ذلك انقلب فجأة واتخذ أمام ناظريه شكلاً مربعاً مهدداً فاقشعر بدنه نهض فجأة وخرج وراح يذرع الارض .

وفجأة دوت أصوات وراء الصفة فسأل الأمير آندريه :

– من هناك ؟

دخل تيموخين ، الضابط ذو الأنف الأحمر ، القائد السابق لسرية دولوخوف الذي عين بسبب نقص الضباط قائد لواء ، الى المكدس خجلاً . وكان ضابط تابع والضابط المحاسب يتبعانه .

نهض آندريه متلهفاً واصغى الى تقرير مرؤوسيه ثم انهى اليهم أوامره الأخيرة . كاد يصرفهم عندما تناهت اليه من الخارج نغمة صوت مألوف لديه . زجر أحدهم وقد اصطدم ولاريب بحاجز ما :

– يا للشيطان !

فألقى آندريه نظرة الى الخارج فعرف بيير. كان هذ يشتم خشبة اشتبكت قدمه بها . وكان آندريه لايتوقع رؤية أشخاص من بيئته وعلى الأخص بيير الذي يذكره بفترات اقامته الأخيرة في موسكو الأليمة . قال :

– آه ! هذا انت ، أية مصادفة جاءت بك ؟ ما كنت أتوقع رؤيتك .

كان في صوته وعينيه وفي كل اماراته برود وعداء شديدي الظهور حتى أن مزاج بيير المرح لم يستطع مقاومة هذا الاستقبال فشعر بشيء من الانزعاج .

غمغم بيير الذي استعمل خلال ذلك النهار كلمة « هام » عديمة المعنى مرات كثيرة :

– لقد جئت . . هكذا . . انه شديد الاهمية . اردت مشاهدة المعركة

سأله بيير ساخراً :

– آه ، حقاً ! والاخوان الماسونيون ، ماذا يقولون عن الحرب ؟ هل استطاعوا منعها ؟

ثم أضاف بلهجة اكثر جدية :

– وماذا يقولون في موسكو ؟ هل وصل ذووي ؟

– نعم . لقد قالت لي جولي دروبتسكوي ذلك . ولقد ذهبت لرؤيتهم ، لكنني لم اجدهم اذ كانوا قد ارتحلوا الى بيتكم الريفي .

★ ★ ★

الفصل الخامس والعشرون

آراء جديدة

أراد الضابط ان ينسحبوا ، لكن آندريه الذي ما كان يرغب في الانفراد مع صديقه استبقاهم . جيء بمقاعد وقدم الشاي . أخـذ الضباط يتأملون جسم بيير الضخم في شيء من الدهشة ويصغون الى ما يرويه عن موسكو والمواقع التي طاف بها . ولقد ظل آندريه متخذاً مظهراً فيه كثير من العناد حتى ان بيير اخذ يفضل مخاطبة تيموخين الفاضل وفجأة قاطعه آندريه :

- واذن ، لقد فهمت تنظيم القطعات جيداً ؟

- نعم . . أو على الاصح ، لما كنت غير مختص ، فانني لاأستطيع القول بأنني فهمته تماماً . لكنني استوعبت الخطوط العامة .

- اذن ، انك اكثر تقدماً من أي كان .

قال بيير وهو ينظر اليه خلال نظارتيه مذهولاً :

- كيف ! اذن ، ماذا تقول عن تعيين كوتوزوف ؟

- لقد سرني تعيينه . هذا كل ما استطيع قوله .

- وماذا تفكر في باركلي دوتوللي ؟ الله يعلم ماذا قالوا عنه في موسكو . هيا ، ما هو رأيك عنه ؟

قال آندريه وهو يشير الى الضباط :

- سل هؤلاء السادة

وبمثل تلك الابتسامة الرحيمة التي تطوف على شفاه كل من ينظر الى تيموخين ، نظر بيير الى هذا فأجاب تيموخين بشيء من التردد وهو شاخص بأبصاره الى زعيم فوجه :

– كما ترى سعادتك ، لقد شاهدنا النور عندما اضطلع عظيم الرفعة باعباء القيادة .

فسأله بيير :

– و كيف ذلك ؟

– حسناً . لنأخذ مثلاً الحطب والعلف . عندما تراجعنا أمام سوينسياني ، كان محظوراً لمس غمر من العلف أو قشة تبن . مع ذلك ، لقد كان« هو »الذي سيستفيد منها طالما كنا سنرحل ، اليس كذلك ياصاحب السعادة .

كانت العبارة الأخيرة موجهة الى أميره . أردف :

– ولقد مثل ضابطان من فيلقنا أمام المحكمة لاسباب من هذا النوع . أما مع عظيم الرفعة ، فقد غدا كل شيء اكثر بساطة . لقد شهدنا النور .

– واذن ، لماذا حظر باركلي دوتوللي هذا العمل ؟

اخذ تيموخين يدير عينيـه مرتبكاً بهذا السؤال دون ان يجيب . فبادر الأمير آندريه الى نجدته فقال بلهجة ساخرة مريرة :

– ولكن ، لكي لاتتلف الارض التي نسلمها للعـدو . وأي شيء اكثر عدالة ؟ لايمكن السماح للجنود بنهب البلاد أو بالقيام بأعمال السلب . ولقد فكر تفكيراً صحيحاً في سمولنسك أيضاً عندما زعم ان العدو يمكن ان يلتف حولنا وان قواته اكثر من قواتنا .

– وفجأة صاح بصوته الثاقب :

– مع ذلك ، فان مالم يستطع فهمه ، نعم ، مـالم يستطع فهمه ، هو اننا

كنا في سمولنسك ندافع لأول مرة عن أرض روسية واننا صددنا يومين متعاقبين هجمات الفرنسيين وان مقاومتنا ضاعفت قوانا الى عشرة امثال. مع ذلك فقد أمر بالانسحاب فباتت مجهوداتنا كلها وخسائرنا كلها عديمة الجـدوى . لاريب انه لم يكن يفكر في الخيانة بل كان يعمل جـاهداً لبلوغ افضل النتائج ويزين كل الأشياء . لكنه من أجل ذلك بالذات لايساوي شيئاً . انـه لايساوي شيئاً ، نعم ، لأنه ككل الماني جيد ، يهتم كثيراً بكل الامور . كيف أفسر لك ؟.. لنفرض ان لأبيك خادماً المانياً . انه تابع ممتـاز ، يخمن رغبات أبيك وينفذها افضل مما تستطيع أنت صنعه ، فتترك له الحرية التامـة في خدمته . ولكن اذا كان أبوك مشرفاً على الموت ، فانك حينئذ ستنحي ذلك الرجل وستعنى بابيك بيديك العديمتي المهارة والحذق وسترفه عنه أفضل مما يفعل غريب ، مهما بلغ شأنه وهكذا تصرفوا مع باركلي دوتوللي . طالما كانت روسيـا على ما يرام ، كان يستطيع الاجنبي ان يخدمها وان يقوم بدور وزير ممتاز. ولكن منذ ان أصبحت في خطر ، بات من الضروري ان يكون فيها رجل من دمهـا .. لقد زعموا في ناديك انه خائن ! ولسوف يخجلون ذات يوم من هـذه المسبة وسيجعلون منه بطلاً أو عبقرياً ، الأمر الذي سيكون اكثر اجحافـاً . انه ليس اكثر من الماني شريف ومدقق ..

اعترض بيير :

– انهم يقولون انه رجل حرب ماهر .

فرد آندريه بابتسامة ساخرة :

- أنني أجهل معنى هذا القول .

– ان رجل حرب ماهر هو الذي يرى سلفاً كل العرضيات .. الذي يخمن نوايا العدو .

فأجاب آندريه وكأن المسألة قد حُسمت منذ زمن بعيد :

ـ لكن هذا مستحيل .
نظر اليه بيير بدهشة وقال :
ـ مع ذلك فانهم يزعمون ان الحرب تشبه شوط شطرنج .
فقال آندريه :
ـ نعم ، مع ذلك الفارق الصغير التافـه ان في الشطرنج يستطيع المرء ان يفكر بعد كل حركة كما يشتهي اذ ان الوقت لايلعب فيه أي دور ، ومع ذلك الفارق ان « الفرس » أقوى دائماً من « البيدق » وان « بيـدقين » أقوى دائماً من بيدق واحد . بينما في الحرب ، يكون اللواء أحياناً أقوى من فيلق كامل واحياناً أضعف من سرية . مامن أحد يستطيع قط معرفة قوى القطعات النسبية ، صدقاً انه لو كانت النتائج تتوقف على الاجراءات المتخذة في قيادات الاركان، لظللت في القيادة العامة لاعطـاء الاوامر . في حين ان لي شرف الخدمة هنا ، في هذا الفوج مع هؤلاء السادة واقدر ان نتيجة يوم غـد تتوقف علينا .. ان النجاح لم يتوقف قط ولن يتوقف أبداً على الموقع ولا التسلح ولا حتى على العدد على أية حال ، ليس على الموقع !
ـ واذن على أي شيء ؟
ـ على الشعور الذي في نفسي وفي نفسه ـ وأشار الى تيموخـين ـ وفي نفس كل جندي .
نظر الأمير آندريه الى تيموخين الذي كان يحدق في رئيسه بعينين مروعتين قلقتين . لقد بدا الأمير آنـدريه الآن مضطرباً وهو الذي كان صموتاً متحفظاً من قبل . وكان واضحاً انه عاجز عن كبت الافكار التي هاجمته فجأة .
ـ ان هذا يربح المعركة التي صمم بعزم ان يربحها. لماذا خسرنا معركة اوسترليتز؟ لم تكن خسائرنا تفوق على خسائر الفرنسيين لكننا حدثنا نفسنا في وقت مبكر

بأننا هزمنا فكنا كذلك . ولقد قلنا لأنفسنا ذلك لأننا ما كنا نرغب في القتال كنا نريد مغادرة ساحة المعركة بأسرع ما يمكن . « لقد ضاعت المعركة فلم يبق الا الفرار ! » ثم فررنا . ولو اننا لم نعمد الى هـذه اللغة لكان الله يعلم بما كان سيقع . أما غداً فسيكون الأمر مختلفاً . انك تتنبأ بأن جناحنا الأيسر ضعيف وان جناحنا الأيمن طويل الامتداد . ترهات كل هذه ! سوف تقع غداً ملايين وملايين من الحوادث العرضية تجعل رجالهم ورجالنا في وقت مـا يفرون ، وتسبب في مقتل فلان أو فلان . ولكن بانتظار ذلك ، كل ما صنع واقيم ليس الا لعبة . ان أولئك الذين زرت معهم الموقع ، أبعد من ان يساعدوا على سير العمليات ، يعملون على عرقلتهـــا . انهم لايفكرون إلاّ في مصالحهم الشخصية التافهة .

قال بيير ساخطاً :

- في مثل هذه اللحظة ؟

فاستأنف الأمير آندريه :

- نعم ، في مثل هذه اللحظة . ان هذه اللحظة في نظرهم ليست الا اللحظة المناسبة لنسف مركز خصم والحصول على صليب أو وشـاح آخر . اليك ، حسبما أرى ، الموقف كما هو : سيتقاتل غـداً جيش مؤلف من مائة الف روسي ضد مائة الف فرنسي . والجيش الذي سيكون أشـد ضراوة وأقل اقتصاداً لمجهوداته ، هو الذي سيربح المعركة . وانني لأقول لك انـه مهما حدث ، وعلى الرغم من مؤامرات الرؤساء ، فاننـا نحن الذين سننتصر . نعم « غداً » سنربح المعركة رغم وضد كل شيء .

تدخل تيموخين قائلاً :

- انها الحقيقة الحقة ياصاحب السعادة . هل هذا وقت التحفظ ؟ هل تصدق:

قد رفض جنود لوائي شرب قطرة واحدة من الشراب . انهم يقولون : ليس الوقت مناسباً .

ران صمت فنهض الضابط وتبعهم الأمير آندريه ليزودهم بآخر تعلياته . وعندما انصرفوا ، أراد بيير ان يستأنف البحث ، لكن وقع حوافر جياد ثلاثة سمع على الطريق على مقربة من الضفة . نظر آندريه الى تلك الجهة فاذا القادمون فولزوجن وكلوزويتز يرافقهما قوقازي . ولقد مروا قريباً جداً حتى ان الصديقين استطاعا التقاط نتف من حديثهما . كان أحدهما يقول بالألمانية :

- يجب ان تمتد رقعة الحرب ، هذا رأي لاأستطيع إلا ان اؤيده .

والآخر يجيبه مؤيداً :

صحيح ، ان الغاية هي اضعاف العدو . بينما لاتدخل خسائر الافراد الخصوصيين في ميزان التقدير .

فيؤكد الأول :

- بديهيا .

وعندما مر الرجلان ، ردد الأمير آندريه في غضب متفجر :

- حقاً ، يجب ان تمدد الرقعة ! ان ابي وابني واختي ظلوا ضمن هذا الامتداد بينما لايهتم هذان السيدان بالموضوع . هذا ماكنت أقوله لك : ليس هؤلاء الألمان الذين سيربحون المعركة غداً . انهم سيفسدون كل شيء ، بقدر طاقتهم لأن رأسهم الضخم لايستوعب الا آراء لا ادفع دبوساً ثمناً لها . وليس في قلبهم شيء مما يجب من أجل الغد ، شيء مما في قلب تيموخين . بعد ان « أعطوه » اوربا كلها ، أخذوا الآن يتدخلون لتلقيننا الدروس .

وأعقب بصوت حاد :

- آه ! ياللأساتذة الفاتنين الذين لدينا هنا !

سأل بيير :

– انك تظن اذن اننا سنربح المعركة ؟

فاجاب آندريه ساهماً :

– نعم ، نعم . على اية حال ، لو ان الأمر لم يكن متوقفاً إلاّ عليّ ، فاننا لن نأخذ اسرى . أسرى ؟ انه عمل من الفروسية لقد نهبت الفرنسيون بيتي وهم مصممون على نهب موسكو . لقد أهانوني ولم يفتأوا يهينونني كل لحظة . انهم أعدائي ، أرى فيهم جميعاً مجرمين يجب قتلهم . وطالما أنهم أعدائي فانهم لا يمكن ان يكونوا أصدقائي رغم كل محاضراتهم الجميلة في تيلسيت .

– قال بيير مؤيداً وقد التمعت عيناه :

– بالتأكيد . انني من رأيك تماماً .

بدت المشكلة التي مافتئت تشغل بال بيير منذ منحدر موجائيسك ، واضحة الآن وقد حُلت نهائياً ، بات يفهم معنى هذه الحرب والمعركة المقبلة كاملاً ، ولقد اتخذ كل مارآه ذلك اليوم وما شاهده من وجوه صارمة متزنة اثناء مروره ، ضوءاً جديداً أمام عينيه ، فهم الحرارة «الكامنة» كما يقولون في الفيزياء ، الوطنية أولئك الناس كلهم وبانت تشرح له الآن لماذا يستعدون جميعهم للموت بهدوء قريب من اللاشعور .

استأنف الأمير آندريه :

– ان عدم أخذ اسرى معناه تحويل الحرب كلها وجعلها اقل قسوة ، وبدلاً من ذلك ، فاننا للأسف ، نلعب لعبة الحرب ! اننا نظهر كرمنا ، وهذا الكرم ، وهذا الاحساس ، يذكرانني بإحساس ربة بيت صغيرة تشعر بالأنزعاج امام منظر عجل يذبح لأن قلبها الرقيق لا يسمح لها برؤية الدماء تسيل . لكنها تشبع معدتها راضية من لحم ذلك العجل بالذات المعد مع المرق الجيد ، انهم يبرزون قوانين الحرب ، الانسانيه ، الفروسية ، احترام المفاوضين ، الخ ..

ترهات كل هذه ! لقد شهدت كل هذه الاشياء الجميلة عام ١٨٠٥ : لقد خدعونا وخدعنا ، انهم يسلمون بيوتنا للسلب ويضعون قيد التداول اوراقاً نقد زائفة ثم ـ وهو الأسوأ ـ يقتلون أبي وأولادي ثم يأتون الي بعد ذلك ليحدثوني عن قوانين الحرب والكرم حيال العدو ! كلا ، لايجب أخذ اسرى بل يجب قتلهم جميعاً والسير كذلك الى الموت ! ان ذلك الذي بلغ مثلي هـذا الاعتقاد ماراً بما مرّ بي من آلام ..

اراد الأمير آندريه ان يقول انه سيان عنده احتلت موسكو ام لم تُحتل كما وقع لسمولنسك ، لكن غصة اعتصرت حنجرته فخطا بضع خطوات صامتاً ثم عاد الى بحثه محموم العينين مرتعد الشفتين :

ـ لولا هذا الكرم المزيف ، لما كنا لنمشي الا عندما يجب الذهاب الى موت محقق كاليوم . ولن تكون هناك حروب بحجة ان بافل ايفانيتش قـــد اهان ميخائيل ايفانيتش ، وعندما تنشب حرب كحرب اليوم ، فستكون حينئذ حرباً حقيقية ، ولا ريب ان عدد القطعات وتأثيرها سيكون اقل كثيراً مما هو عليه اليوم ، لان كل هؤلاء الهسيين[1] والويستفاليين الذين يجرهم نابوليون وراءه ما كانوا ليتبعوه الى روسيا ولما ذهبنا نحن لنقاتل في بروسيا والنمسا دون ان نعرف السبب . اي محل للظرافة في الحرب ؟ اليست الحرب أكثر ما في الوجود خزيا ؟ يجب ان يتذكرها المرء فحسب لاان يجعل منها تسلية . ان هذه الضرورة المريعة يجب ان تُتقبل بالرغبة الجدية ، لنبعد كل كذبة : الحرب ايه ، انها الحرب وليست ألعوبة ، لايجب ان يُجعل منها تسرية بزسم العاطلين وذوي الافكار الطائشة ، أليست المهنة العسكرية معتبرة انبل كل المهن ؟

« مع ذلك ، ماهي هذه المهنة وكيف يحصل المرء فيها على النجاح واية

---

(١) هسيين ، نسبة الى هيس ، اسم لولايات ثلاث في الاتحاد الجرماني

عادات يألفها اولئك الذين يمتهنونها ؟ ان غايتها هي القتل ووسائلهـا التجسس والخيانة والتشجيع على الخيانـــة ودمار السكان والنهب والسرقات التي تقع لتزويد الجيش والخداع والكذب المزينين باسم خداع الحرب ، وعاداتها الاسترقاق المعمد باسم الطاعة والبطالة والغلظة والقسوة والفجور والسكر ، مع ذلك ، فان الطائفة العسكرية تترأس الطوائف الاخرى والناس كلهم يمجدونها ، ان الملوك كلهم ، باستثناء امبراطور الصين ، يرتدون البزة العسكرية ويعطون اسخى المكافئات وارفعها للذي قتل عدداً اكبر من الناس .

ان يلتقي عشرات الالوف من الرجال ـ كما سيكون الحال غدا ـ ليجرح بعضهم بعضاً وليتقاتلوا ويشوهوا بعضهم البعض، فان قداسات ستقام ، قداسات غفران ، لانهم قتلوا كذا وكذا عدداً من الرجال الذي يزيدونه تباعاً على اية حال ، مقدرين انه كلما ازداد عدد القتلى ، كلما كان النصر اكثر روعة .

وصاح آندريه بصوته النباح : « كيف يرى الله من عليائه هـذا الامر ويتقبل تلك الصلوات ! آه ياعزيزي ، لقد برمت بالحياة كثيراً في الآونة الاخيرة ! لاريب انني بدأت افهم اشياء كثيرة ، انه ليس من المناسب للرجل ان يتذوق ثمار شجرة الخير والشر .. ثم انه لن يتذوقها طويلاً على اية حال .. لكنني أراك نائماً ؟ لاريب ان الوقت قد ازف لاغفو قليلاً ، عد الى جوركي . »

اجاب بيير وهو يلقي على اندريه نظرة مطبوعة بميل أليم :

– آه ، كلا !

– بل نعم ، امض ، لكي يقاتل المرء جيداً يجب ان ينام جيداً .

اقترب فجأة من بيير وعانقه بشدة وهتف :

– هيا ، اذهب . الوداع ، ترى هل نرى بعضنا ابداً ؟..

واستدار بسرعة ودخل المكدس ، ولما كان الظلام قد حل ، فان بيير لم يستطع ان يميز وجه صديقه خلال فترة الوداع وهل كان حانياً ام صارماً ، تردد

بعض الوقت في اتخاذ قرار اللحاق به ، لكنه قال لنفسه مصمماً : « كلا ، انه ليس في حاجة الي ، ثم انني اعرف ان هذا آخر لقاء لنا . » واطلق زفرة عميقة وعاد الى جور كي .

بعد ان دخل مكدسه ، تمدد آندريه على « بطانية » لكن النوم لم يجد اليه سبيلا ، لقد كانت الصور فوق الصور تحاصره فتوقف عند احداها هاشا ، كان يرى سهرة في بيتر سبورج وناتاشا تروي له باندفاع كيف ضاعت في الصيف الماضي في غابة كبيرة . بينما كانت تسمى وراء الفطر ، كانت تصف له بحماس الغابة العميقة والاحساسات التي اعتلجت في فؤادها والحديث الذي دار بينها وبين احد مربي النحل ، وتبتر حديثها في كل لحظة لتقول له : « كلا ، لا احسن الرواية ، فلا تستطيع اذن ان تفهمني ». لكنه كان يطمئنها زاعماً انه يفهمها فهماً كاملاً لانه في واقع الحال كان يعرف ماستقوله ، وكانت ناتاشا تتحسر لأنها لاتستطيع الاعراب عن الانفعال الشاعري الذي استحوز عليها ذلك اليوم ، وتقول بحميا ووجهها متضرج : « كان ذلك الهرم فتاناً جداً ، والظلام كثيف جداً في الغابة ، وله عدد طيب جدا .. كلا ، لا احسن الرواية ». وراح اندريه يبتسم تلك الابتسامة السعيدة التي كانت تطوف على شفتيه كلما نظر في عينيها . « آه ! كنت افهمها جيداً . نعم ، كنت افهمها وكنت احب فيها روحها الجياشة الخالصة المتهورة التي كانت اشبه بالسجينة في جسدها .. نعم ، تلك كانت الروح التي كنت احبها حباً عنيفاً جداً كان يبعث في نفسي سعادة غامرة .. » وفجأة ، تذكر الخاتمة الحزينة لذلك الحب . « ما كان ذلك الرجل ليأبه بكل هذا . ما كان يرى فيها الا قذاة فتاة جميلة لايجد انها جديرة بان يشركها في مصيره . اما انا ؟.. ثم القول بان هذا الشخص لايزال على قيد الحياة ! ».

قفز اندريه عند هذه الذكرى وكأن بعضهم احرقه بحديد محمى وعاد يذرع ارض المكدس جيئة وذهابا .

الفصل السادس والعشرون

ملك روما

في الخامس والعشرين من آب ، عشية معركة بورودينو ، جاء السيد دوبوسّيه المشرف على القصر والزعيم فابييه ، الاول من باريز والثاني من مدريد ، الى معسكر نابوليون في فالوييفو .

وبعد ان ارتدي بزة البلاط ، حمّل السيد دوبوسّيه رزمة بحضوره كان عليه ان يسلمها الى الامبراطور ودخل المقصورة الاولى من الخيمة الامبراطورية حيث راح يفك الرزمة وهو يثرثر مع المساعدين العسكريين الذين حاصروه بالاسئلة ، وفي تلك الاثناء ، كان فابييه الذي اوقف امام الخيمة يتحدث مع معارفه من الجنرالات .

وكان الامبراطور ينهي زينته في حجرة النوم ، فكان يمد ظهره العريض تارة وهو ينخر وتارة صدره الثمين الأزب ، للفرشاة التي كان أحد الخدم يدلكه بها ، بينما راح خادم آخر ، واصبعه فوق فتحة زجاجة ، يبلل جسد سيده المرفه بماء الكولونيا ووجهه ينطق بأنه وحده الذي يعرف أين وبأية كمية يجب ان يسفح العطر على الجسد . وكان شعر نابوليون القصير مبللاً ومشعثاً فوق جبينه ووجهه رغم صفرته وانتفاخه ، يعبر عن الراحة والرضى . قال وهو ينكمش تحت عملية التدليك : « هيا ، استمر بحزم .. » وكان مساعد عسكري ينتظر الأمر بالانصراف بعد ان انهى اليه عدد الأسرى الذين وقعوا في معركة الأمس

فالقى نابوليون نظرة نحوه وهو يصر على أسنانه . قال معقباً على تقريره :

– ليس من اسرى ! انهم يهدمون أنفسهم . خسارة على الجيش الروسي ..

استأنف وهو يحدب ظهره تحت الفرشاة :

– استمر ، استمر بحزم .. حسناً ، ادخلوا السيد دبوسيه وكذلك السيد فابييه .

وبعد ان أصدر هذا الأمر الى المساعد العسكري ، صرفه باشارة من رأسه فقال هذا :

– نعم ياصاحب الجلالة .

انسحب المساعد وراح الخادمان يلبسان جلالته بحذاقة وبعد ان ارتدى زي الحرس الازرق ، مضى الى حجرة الاستقبال بخطى متلاحقة ثابتة .

وكان السيد دوبوسيه في ذلك الحين يقيم هدية الامبراطورة التي جاء بها على كرسيين قبالة المكان الدي وجب ان يأتي الامبراطور منه . لكن هذا دخل بشكل مفاجىء ، حتى ان هذا لم يجد الوقت الكافي لانهاء اعداداته .

لقد خمن نابوليون انهم بصدد اعداد مفاجأة له فلم يشأ حرمان السيد دوبوسيه من تلك المتعة ، لذلك تظاهر بأنه لم يره . استدعى اليه السيدفابييه وراح يصغي اليه في صمت عبوس ما كان يروي له عن بسالة جنود جلالته وتفانيهم في قتالهم في سلامانك[1] ، في الجانب الأقصى الآخر من اوروبا وانهم لايرغبون الا في ان يكونوا جديرين بامبراطورهم ويخشون امراً واحداً وهو ان لايوفقوا في ارضائه . ولقد كانت نتائج القتال مؤسية لذلك فقد المح اليه نابوليون ببضع ملاحظات ساخرة ان الامور لا يمكن في غيابه ان تسير على نحو آخر . قال :

---

(١) سالامانك أوسالامانكا ، مدينة اسبانية على نهر تورمسكانها ٤٦،٠٠٠ نسمة فيها جامعة شهيرة .

– يجب ان اصحح هذا في موسكو . الى بعد حين . .

خلال ذلك ، استطاع السيد دوبوسيه ان يفرغ من تهيىء مفاجأته التي كانت ترتكز على بعض الكراسي مغطاة بعناية بستر . ولما التفت نابليون نحوه ، حياه هذا تحية عميقة على الطريقة الفرنسية لا يتقنها التي الا خدام آل بوربون القدماء واقترب منه وقدم له غلافا .

استقبله الامبراطور ببشاشة وقرز له طرف اذنه . سأله بلهجة انقلبت فجأة الى حليمة مؤنسة :

– لقد اسرعت وأنني مسرور . ماذا يقولون في باريز ؟

اجاب السيد دوبوسّيه بحكمة :

– ان باريز كلها تأسف لغيابك ياصاحب الجلالة !

وعلى الرغم من ان نابوليون كان يتوقع جواباً من هـذا النوع ، وانه في لحظات تيقظه كان يعرف كيف يتصرف ازاء هذه الاطراءات ، فانه تقبل هذا الاطراء بسرور وشرف السيد دوبوسيه بقرزة جديدة لاذنه وقال :

– انني مستاء اذ أراك تقطع كل هذه المسافة الطويلة .

– ياصاحب الجلالة ، مـــا كنت أتوقع قط ان أراك الا على أبواب موسكو .

ابتسم نابوليون ، القى على اليمين نظرة ساهمـة ، فاقترب مساعد عسكري بخطوات متسللة ومد له علبة سعوط ذهبية .

استأنف الامبراطور وهو يدني من أنفه المسعطة المفتوحة :

– نعم ، انك مجدود . انت الذي تحب السفر ، سترى موسكو في غضون ثلاثة أيام . ما كنت ولا ريب تتوقع زيارة العاصمة الاسيوية . وبذلك تكون قد قمت بسفر طيب .

وعلى الرغم من ان عاهله افترض فيه ذوقاً لم يكن هو يعرف لوجوده ظلاً فان السيد دوبوسيه شكره وانحنى لهذه الالتفاتة الرقيقة .

سأل الامبراطور وهو يرى ان انظار حاشيته كلها مستـديرة نحو الشيء الذي غطي بالستر :

ـ ولكن ما هذا ؟

تراجع السيد دوبوسيه خطوتين بحذق رجل البطانـة المجرب دون ان يدير ظهره ثم رفع الستر وهو يعلن :

ـ هدية لجلالتكم من قبل جلالة الامبراطورة .

كانت الهدية لوحة رسمها جيرار [1] بألوان صارخـة للطفل الصغير ، المولود من نابوليون وارشيدوقة النمسا ، الذي كان الناس جميعهم يدعونه ـ دون معرفة السبب ـ ملك روما . وكان ذلك الطفل الفتان ذو الشعر العكف والنظرة التي تشبه نظرة يسوع في صورة المادونا لسان سيكست مرسوماً وهو يلعب بكرة خشبية مثقوبة . وكانت الكرة تمثل الكرة الارضية أما المقبض الذي كان ممسكاً به في يده الاخرى فيشبه الصولجان .

وعلى الرغم من ان غاية الرسام لم تكن واضحـة تماماً ، اذ ما الذي يدعو ملك روما في الواقع الى ان يثقب الكرة بعصا ؟ ، فان الاستعارة كانت مفهومة ومقدرة من قبل كل الذين شاهدوا اللوحة في باريز وكذلك بدا حال نابوليون .

قال وهو يشير الى اللوحة بحركة ظريفة :

ـ ملك روما ، رائع !

اتخذ ميزة الايطاليين التي تجعلهم قادرين على تبديل امارات وجوههم وفق

---

(١) ـ جيرار (البارون فرانسوا) رسام التاريخ الفرنسي ، ولد في روما عام ١٧٧٠ وتوفي عام ١٨٣٧ . مؤلف معركة اوسترليتز .

هواهم ، وهو يتقدم من اللوحة مُظهر مُفكر الماني معاً . كان يعرف ان كل ما سيقوله ويفعله سيصبح ملكاً للتاريخ . ولقد بدا له ان الحنان الأبوي الاكثر صفاء هو المظهر الاكثر ملاءمـــة ، بوصفه مباينة لعظمته التي بفضلها يستطيع ابنه الصغير ان يلعب بالعالم بدلاً من الكرة الخشبية المثقوبة . وابتلت عيناه بالدموع فراح يبحث بنظره عن كرسي « طار » للقائه ثم جلس أمام اللوحه وأخيراً ، صدرت عنه اشارة ، فانسحب الجميع على أطراف أصابعهم تاركين الرجل العظيم في خلوة مع أفكاره .

وبعد ان تأمل الصورة بضع لحظات ومر بيده على حرشة الألوان بحركة آلية ، نهض نابوليون واستدعى السيد دوبوسيه من جديد كما استدعى الضابط المنوب وأصدر الأمر بأن توضع الصورة أمام خيمته حتى يتسنى للشعب الخاص ان يرى ملك روما ، ابن امبراطورهم المعبود ووريثه .

ولم يخذل انتظاره اذ بينما كان يتناول طعامه مع السيد دوبوسيه الذي حظي بهذا الشرف العظيم ، هرع الضابط ورجال الحرس جماعات جماعات الى أمـام الخيمة وراحوا يحيون الصورة بهتافات حماسيه :

– يحيا الامبراطور ! يحيا ملك روما ! يحيا الامبراطور !

وبعد الطعام ، وبحضور السيد دوبوسيه ، املى نابوليون أمراً يومياً للجيش ثم قال وهو يقرأ بيانه الذي كتبه دفعة واحدة دون ان يدخل عليه أي تصحيح :

– بيان قصير وقوي !

وهذا نص البيان :

« أيها الجنود ! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها . ان النصر منذ الآن يتوقف عليكم ، وهو ضروري لنا لأنه سيعطينا الوفرة والمراكز الشتوية الجيدة وعودة سريعة الى الوطن . تصرفوا كما تصرفتم في اوسترليتز وفريدلاند ، وفتيبسك

وسمولنسك ولتتحـــدث الاجيال الصاعدة عن سلوككم في هـــذا اليوم . ليقولوا عنكم : لقد كانوا في المعركة الكبرى عند جدران موسكو . »

ردد نابوليون :

– جدران موسكوفا !

وبعد ان دعا السيد دبوسيه المولع بالأسفار الى مرافقته في نزهته ، خرج من خيمته واتجه نحو الخيل المسرجة ، هم السيد دوبوسيه ان يعترض وهو الذي كان في حاجة الى النوم اضف الى ذلك جهله التام بركوب الخيل :

– ان جلالتكم تغمرونني بعطفكم .

لكن اشارة من رأس نابوليون ارغمت الرحالة على اللحاق به . ولما ظهر الامبراطور ، تضاعفت هتافات جنود الحرس فقطب نابوليون حاجبيه . قال وهو يدل باشارة عريضة من يده على صورة ابنه :

– ارفعوها . لايزال صغيراً جداً حتى يرى ساحة المعركة .

فاغمض السيد دوبوسيه عينيه وأحنى رأسه وأطلق زفرة عميقة مدللاً بذلك على انه يدرك تماماً وساوس جلالته .

* * *

الفصل السابع والعشرون

خطة نابوليون

يقول مؤرخو نابوليون ، انه أمضى سحابة يوم الخامس والعشرين من آب على جوادة يفحص الارض ويناقش الخطط التي يعرضها عليه ماريشالاته ويعطي بنفسه الأوامر الى جنرالاته .

كان خط الروسيين الاول على طول نهر كولوتشا قد تصدع وقد سحب جزء من هذا الخط ، وهو الجناح الأيسر ، الى الوراء بسبب سقوط حصن شيفاردينو يوم الرابع والعشرين من آب . فلم يعد هذا الجزء محصناً او محمياً بالنهر ولم يعد أمامه الا قطعة أرض مكشوفة مستوية . وكان الفرنسيون ولا ريب سيهاجمون من هناك لان ذلك كان يقفز لعيني كل ناظر حتى ولو لم يكن عسكرياً .. ولم يكن اعداد ذلك الهجوم على مـا يبدو ، يحتاج الى كثير من الترتيبات ولا الى كل تلك الروحات والغـدوات من جانب الامبراطور وماريشالاته ، حتى ولا الى تلك القدرة الرفيعة الخاصة التي يسمونها بالعبقرية والتي يحبون كثيراً ان ينسبوها لنابوليون . لكن المؤرخين الذين رووا الحادث فيما بعد والرجال المحيطون به والامبراطور نفسه كانوا يفكرون تفكيراً مختلفاً .

اذن ، لقد كان يجوب على جواده دارساً طوبوغرافية الأرض دراسة المتأمل مؤيداً أو رافضاً باشارة من رأسه الافكار التي تطوف برأسه ، مطلعاً معاونيه دون اظهارهم على سير أفكاره السري ، على النتيجة بشكل أوامر يوجهها اليهم .

عرض دافو، الذي باتوا الآن يدعونه الأمير ديكموهل ، ان يُعمد الى الالتفاف حول جناح الروسيين الأيسر . لكن نابوليون اعترض على ذلك دون بيان أسباب الرفض. وبالمقابل ، فان الجنرال كومبان الذي عُهد اليه بمهاجمة المتاريس عرض فكرة اخفاء فوجه في الغابة ، فوافق الامبراطور عليها رغم ان الدون ديلشجن المزعوم ، أي الماريشال ناي ، سمح لنفسه بالاعتراض على هذا الاجراء لأنه خطير يمكن ان يحل الفوضى بين الصفوف .

وبينما هو يتفحص الارض قبالة حصن شيفاردينو ، ظل بضع لحظات صامتاً ثم أشار الى المواضع التي يجب ان تقام فيها « البطاريتان » المنتدبتان للعمل ضد التحصنات الروسية ، في حين تركز مدفعية الميدان حولهما .

وبعد ان أصدر هذا الأمر وأوامر اخرى أيضاً ، عاد الى مقره العام واملى نصوص المعركة . ولقد كانت تلك النصوص التي يتحدث المؤرخون الفرنسيون عنهـــا بحماسة بينما يتحدث الآخرون عنها بكثير من الاعتبار ، كما يلي :

« عند بزوغ النهار، تبدأ « بطاريتان »جديدتان تقامان خلال الليل على هضبة الأمير ديكموهل ، باطلاق نيرانهما على « البطاريتين » المناوئتين .

« في اللحظة نفسها، يبدأ الجنرال بيرنيتي ، قائد مدفعية الفوج الاول باطلاق النار من مدافعه الثلاثين التي ستكون في جيش كومبان وكذلك من كل قاذفات القنابل التابعة للفوجين ديسيكس وفريان التي ستتقدم الى الأمام ، على « بطارية » العـدو التي سيكون أمامها على هـذا الشكل مدافع فرقة الحرس الأربعة والعشرين ، وثلاثون مدفعاً من فوج كومبان وثمانية من فوجي ديسيكس وفريان ، المجموع اثنان وستون مدفعاً .

« على الجنرال فوشيه ، قائد مدفعية الفوج الثالث ان يتمركز مع كل

قاذفات القنابل من الفوجين الثالث والثامن وعددهـــا ست عشرة ، حول « البطارية » التي تشرب الحصن الأيسر وبذلك يصبح عدد المدافع ضد هـذه « البطارية » أربعين مدفعاً .

« على الجنرال سوربيه ان يكون مستعداً عند أول أمر ، على الانفصال مع كل قاذفات القنابل التابعة لسلاح الحرس للمبادرة الى هذا الحصن او ذاك .

« خلال هذا القصف ، يمضي الامير بونياتوفسكي من القرية نحو الغابة ويدور حول موقع العدو . اما الجنرال كومبان ، فانه يسير بحذاء الغابة للاستيلاء على الحصن الاول .

« وبعـد ان تنشب المعركة على هذا النحو ، ستعطي الاوامر تبعاً لأوضاع العدو .

« يبدأ قصف المدفعية على الجناح الايسر منذ ان يسمع القصف من الجناح الايمن . وستنظم سلسلة قوية من هجمات رماة البنادق من قبل قناصة فيلق موران وفيالق نائب الملك حالما يرون ان الهجوم من الأيمن قد بدأ . وعلى نائب الملك ان يحتل القرية (بورودينو) وان يبلغ عن طريق جسورها الثلاثة المرتفع في الوقت الذي يصل فيه الجنرالات موران وجيرار تحت أوامر نائب الملك لأحتلال حصن العدو وتشكيل خط الجيش .

« يجب ان تنفـذ كل هذه التعليمات بنظام وبصورة منهاجية مع مراعاة الاحتفاظ بأحتياطي كبير .

« في المعسكر ، على بعد ميلين من موجائيسك ، ٦ أيلول ١٨١٢ . »

كان أمر المعركة هذا ، الذي صيغ بعبارات غامضة تماماً ـ اذا أمكن التعبير على هذا النحو دون الكفر بعبقرية نابوليون ـ يضم أربع نقاط ، أربعة تدابير . . ولكن ما من واحد منها كان يمكن ان ينفذ او نفذ بالفعل .

كان يأمر أولاً ان تعمــد « البطاريات » المقامة في المكان الذي انتقاه الامبراطور ، وكذلك قطع بيرنيتي وفوشيه التي كان يجب ان تنتظم الى جانبيها والتي يبلغ مجموعها مائة مدفع ومدفعان ، الى اطلاق النار وغمر التحصينات الروسية والحصن بالقذائف ، في حين ان القذائف ما كانت لتصل الى التحصينات الروسية من تلك المواقع . أي أن مائة مدفع ومدفعين كانت تطلق النار دون جدوى حتى عمد الرؤساء الذين تتبع تلك المدافع وحداتهم الى تقديمهـا مخالفين بذلك أوامر نابوليون .

امـا الترتيب الثاني ، فكان يفرض على بونياتوفسكي ان ينتقل نحو الغابة ليدور حول جناح الروسيين الأيسر . وهذا لم يكن يمكن التنفيذ كما انه لم ينفذ قط لان بونياتوفسكي اصطدم خلال سيره هـذا بتوتشكوف الذي قطع عليه الطريق ومنعه من الالتفاف حول الموقع

والترتيب الثالث يأمر كومبان بالسير بمحاذاة الغابة ليحتل الحصن في حين ان جيش كومبان لم يتمكن من احتلال ذلك الحصن بل ُصد لانه اضطر عند خروجه من الغابة ان يصطف تحت نار بنادق حامية لم يتوقعها نابوليون .

بينما كان على نائب الملك عملاً بالترتيب الرابع ان يحتل قرية بورودينو وان يبلغ المرتفع عن طريق جسورها الثلاثة في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وفريان (اللذان لم يشر الى تحركاتهما في الأمر قط) تحت اوامره لاحتلال الحصن وتشكيل خط الجيش .

وكما يفهم من امر المعركة هـذا ، ليس تبعاً لأسلوبه الغامض ، بل وفقاً لمحاولات نائب الملك لتنفيذه ، كان على هذا ان يهاجم الحصن من اليسار مخترقاً بورودينو في حين تهاجمه فيالق موران وفريان من اليمين .

ان هذا الأمر ، كالأوامر التي سبقته ، ما كان يمكن ان ينفذ ولم ينفذ لان

نائب الملك بعد ان اخترق بورودينو اوقف على نهر كولوتشا فلم يستطع التقدم اكثر من ذلك . اما فيالق موران وفريان ، فقد صدت ولم تحتل والحالة هذه الحصن . ولقد احتل هذا الحصن آخر الأمر من قبل سلاح الفرسان ، وهو واقع غريب لاريب ان نابليون لم يتوقعه قط .

وينص امر المعركة كذلك على انه « بعد ان تنشب المعركة على هـذا النحو ، ستعطى الأوامر تبعاً لاوضاع العدو . » فيمكن الاستدلال اذن على ان الامبراطور سيعطي خلال المعركة كل الاوامر اللازمة في حين ان شيئاً من هذا لم يحدث لسبب بسيط ووجيه وهو انه ظل بعيداً عن ساحة المعركة طيلة الوقت ففاته سير العمليات ولم يمكن تنفيذ واحد من الاوامر التي اصدرها .

★ ★ ★

الفصل الثامن والعشرون

آراء المؤرخين

يؤكد كثير من المؤرخين ان معركة بورودينو لم ينتصر فيها الفرنسيون لان نابوليون كان في ذلك اليوم قد اصيب بزكام ، ولولا ذلك ، لكانت ترتيباته قبل المعركة واثناءها اكثر عبقرية ، ولأنهارت روسيا كلها ولتغير وجه العالم ، ان هذا التحليل بالنسبة الى المؤرخين الذين يؤكدون ان روسيا تشكلت بأرادة رجل واحد هو بطرس الاكبر وان فرنسا قد انقلبت من جمهورية الى مملكة وان الجيوش الفرنسية دخلت روسيا تبعاً لرغبة رجل واحد هو نابوليون . ان هذا التحليل الذي يؤكد ان بقاء روسيا قوية يرجع الى اصابة نابوليون يوم السادس والعشرين من آب بزكام عنيف ، منطقي تماما بالنسبة الى هؤلاء .

فلو ان الامر كان يرجع اليه بالدخول في معركة بورودينو أو عدم خوضها ، وباتخاذ هذا التدبير أو ذاك ، فان زكاماً قوياً يؤثر على مظاهر ارادته كان يمكن ان يسبب بالطبع خلاص روسيا ولكان مخلصنا هو ذلك الخادم الذي نسي ان يقدم الى نابوليون يوم الرابع والعشرين من آب حذاءه الواقي ، ان مثل ذلك التحليل يقود حتماً الى مثل هذه النتيجة ، وهي نتيجة لاتقبل الجدل اشبه بدعابة فولتير - واية سخرية كانت ؟ - حول سان بارتيلمي[1] التي وقعت

(١) سان بارتيلمي ، اسم لمذبحة البروتستانت على عهد شارل التاسع وقعت بتحريض كاتيرين دوميديسيس وجماعة الدوق دوجيز ليلة ١٥٧٢/٨/٢٣ . وكانت

بسبب تلبك اصاب معدة شارل التاسع ، ولكن بالنسبة الى الاشخاص الذين لايتقبلون ان روسيا تشكلت تبعاً لارادة رجل هو بطرس الاكبر ولا ان المملكـة الفرنسية اقيمت وان الحرب مع روسيا اعلنت وفق ارادة رجل واحد هو نابوليون ، يعتبر هذا التحليل ليس خاطئاً ومخالفاً للصواب بل ومخالفاً كذلك لجوهر الانسانية نفسه ، ان من يبحث عن اسباب الاحداث التاريخيـة يجد سبباً آخر هو ان سير الامور في هذا العالم مقرر سلفاً وانه متوقف على تدخل كل احكام الاشخاص الحرة الذين يساهمون فيها وان جماعة نابوليون ليس لهم عليها الا الأثر الظاهر الخارجي فحسب .

ان من الغريب ان يؤكد المرء للوهلة الاولى ان مذبحة سان بارتيلمي ، رغم ان شارل التاسع امر بها ، لم تكن - مهما كان تفكيره الشخصي - نتيجة لأرادته ، وكذلك يبدو غريباً الزعم بان مجزرة بورودينو التي كلفت ثمانين الف رجل لم تنجم عن رأي نابوليون الشخصي رغم انه اعطى الاشارة ورتب سير المعركة ، بيد ان الكرامة الانسانية التي تؤكد ان كلًا منا رجل ، يماثل في العظمة نابوليون الكبير ان لم يكن يتفوق عليه ، تبيح هذا الزعم والتحريات التاريخية يؤيده بوفرة .

لم يطلق نابوليون في بورودينو رصاصة واحدة ولم يقتل رجلًا واحـدا . لقد كان ذلك من صنع جنوده وبالتالي ، فانه ليس بالذى قتل .

← اعياد زواج هنري دونافار (هنري الرابع فيما بعد) على مارجريت اخت شارل التاسع ستقام غداة ذلك اليوم ، ولقد قال الملك الذي ارهقته امه - على مايزعمون - « تريدين ذلك ؟ حسنا ، ليذبحوهم ، ولكن ليذبحوهم كلهم ! » فاعطي الامر اذن ليلة الثالث والعشرين ، ولقد زعم فولتير ساخراً متهكماً ان تلك المذبحة ماكانت لتقع لولا اصابة الملك شارل التاسع بتلبك في معدته جعله يقول ماقال .

لقد قاتل جنود الامبراطور لالينفذوا اوامره،ولكن عن طيبة خواطرهم لقد كان الجيش كله ، اولئك الفرنسيون والايطاليون والالمان والبولونيون المتعطشون المتعبون ذوو الثياب الخلقة ، يشعرون تماماً امام ذلك الجيش الآخر الذي يقطع عليهم الطريق الى موسكو ، ان النبيذ قد صُفي فحان ان يشربوه ، ولو ان نابوليون منعهم عن مقاتلة الروسيين حينذاك لقتلوه ومشوا بعد ذلك الى المعركة لانهم ما كانوا يستطيعون الا ان يعملوا كذلك .

عندما قريء عليهم أمر نابوليون اليومي الذي وعدهم فيه مكافأة على الجراح والموت بان تتحدث الاجيال الصاعدة عنهم قائلة انهم كانوا في المعركة الكبرى قرب جدران موسكو ، هتفوا : « يحيا الامبراطور ! : يحيا الامبراطور ! » عندما شاهدوا ذلك الغلام يخرق الكرة الارضية بقبض لعبته الخشبية ، وكما كانوا سيهتفون لأي حماقة يقولونها لهم . لم يعد لديهم شيء آخر يفعلونه الا ان يهتفوا : « يحيا الامبراطور ! » وان يذهبوا للقتال وينتصروا كي يجدوا في موسكو الغذاء والراحة . وبناء عليه ، لم يقتلوا امثالهم استجابة لاوامر سيدهم .

ونابوليون نفسه لم يكن ذا اهمية في سياق المعركة لأن أية نقطة من ترتيباته لم تنفذ ولان نفسه ظل يجهل خلال المعركة ماذا دار فيها ، وبالتالي ، فان واقع قتل هؤلاء الناس امثالهم ، حدث دون تدخل من جانبه ، ليس نتيجة لارادة نابوليون ، بل بارادة مئات الالوف من الرجال الذين ساهموا في الامر ، وكل ما كان لنابوليون ، اقتصر على توهمه بان كل شيء يسير وفق ارادته ، لذلك فان مسألة معرفة ماإذا كان الامبراطور قد اصيب بزكام ام لا ، لاتشكل لمصلحة التاريخ اكثر من مدلول الزكام الذي يصيب أي جندي عادي .

ثم ان اولئك الذين يعتقدون ان نابوليون لم يتخذ ذلك اليوم ترتيبات طيبة

كعادته وان اوامره خلال المعركة كانت اقل حزماً بسبب ذلك الزكام العتيد، يخطئون كل الخطأ .

لقد كان نص المعركة الذي نقلناه مماثلاً ان لم يكن أفضل . لكثير من النصوص الاخرى التي رُبحت كثير من المعارك بموجبها . والاوامر المعطاة خلال المعركة لم تختلف بكثير عن تلك التي تصدر عادة ودائماً . واذن ، فان هذا النص وتلك الاوامر ، لم تصبح خاضعة للنقد الا لأن معركة بورودينو كانت المعركة الاولى التي لم يربحها نابوليون . والعادة ان اجمل الترتيبات وافضلها وأعمقها تبدو ، اذا لم تجر النصر، سيئة يأخذ علماء فن الحركات العسكرية بنقدها بلهجة مسموعة . والعكس صحيح ، فما ان ينجم نصر ما ، فان أسوأ الترتيباب واكثرها خضوعاً للنقد تصبح ممتازة ، ويشرع الكتاب الاعم شهرة في تمجيدها وتعداد محاسنها في مجلدات عديدة .

ولقد كان ترتيب ويروذر في اوسترليتز مثالاً من هذا النوع: لقد انتقدوه وعارضوه بسبب كماله ولا ريب ودقة تفاصيله .

ففي بورودينو ، قام نابوليون بدوره بوصفه ممثل السلطة كما أداه في المعارك الاخرى ان لم يكن افضل من ذلك الاداء ، انه لم يأت امراً سيئاً بالنسبة الى سير المعركة . ولقد انحاز الى جانب اكثر الاراء حكمة ، فلم يفقد اعصابه ولم يناقض اقواله وظل محتفظاً بهدوئه فلم يغادر ساحة المعركة وقد امكنته لباقته الكاملة وخبرته الكبيرة في شؤون الحرب ان يلعب بهدوء دوره الشكلي كرئيس أعلى .

الفصل التاسع والعشرون

الطلقات الاولى

قال نابوليون اثر عودته من تفتيش ثان دقيق للخطوط :

– ان القطع مصفوفة فوق الرقعة واللعب يبدأ غداً .

أمر لنفسه بمزيج من الشاي والكحول والليمون والسكر (بونش) واستدعى السيد دوبوسيه وراح يحدثه عن باريز والتبديلات التي يريد ادخالها على بيت الامبراطورة فكانت الذكرى التي يحملها لأتفه أشياء البلاط مدعاة دهشة القيّم الشديده .

راح يهتم بتفاهات ويمازح السيد دوبوسيه حول حبه للاسفار ، وبالايجاز ، راح يثرثر بلا مبالاة جراح كبير متأكد من نفسه متعمق في مهنته ، وهو يشمر عن اكمامه ويضع مئزره بينما يسجون المريض على طاولة العمليات . « ان المسألة واضحة تماماً والخيوط كلها في رأسي وفي يدي . فاذا وجب الشروع بالعمل سأعمل أفضل من أي كان . أما الآن ، فانني أستطيع ان أسمح لنفسي بالمزاح . انني كلما كنت هادئاً طروب المزاج ، وجب عليكم من جانبكم ان تثقوا بي اكثر وان تعجبوا بعبقريتي . »

وبعد ان ارتشف قدحه الثاني ، ذهب نابوليون لنيل قسط من الراحة قبل المسألة الخطيرة التي يدخرها للغد . لكنه كان جم الانشغال فتعذر عليه النوم . وعلى الرغم من زكامه القوي الذي كانت رطوبة المساء تزيد في خطورته ، ذهب

في الساعة الثالثة صباحاً الى حجرة الدخول في خنيمته وهو يتمخط بصوت مدو استفسر عما اذا لم يكن الروسيون قد انسحبوا عرضاً . فأكدوا له ان نيران العدو لاتزال ظاهرة في المواقع نفسها وحينئذ أظهر رضاه بحركة من رأسه . ولما كان المساعد العسكري المنوب يدخل الخيمة في تلك اللحظة ، فقد سأله :

ــ حسناً ياراب ، هل تظن أننا سنعمل اليوم أعمالاً مجيدة ؟

ــ دون أي ريب ياصاحب الجلالة .

ظل الامبراطور يستفسره بنظره فاسترسل راب قائلاً :

ــ هل تذكر ياصاحب الجلالة ما شرفتني بقوله لي في سمولنسك ؟ لقد صُفيَ فيجب شربه .

عبس نابوليون وجعل رأسه بين يديه وصمت . وفجأة قال :

ــ هذا الجيش المسكين . لقد قل عدده كثيراً منذ سمولنسك . ان السعادة ياراب ممالقة صريحة . لقدقلت ذلك دائماً وبدأت أشعر به الآن . ولكن الحرس ياراب ، هل الحرس سليم ؟

ــ نعم ياصاحب الجلالة .

أخذ نابوليون حبة ورفعها الى فمه ثم نظر الى ساعته . ماكان يريد ان ينام وكان الصباح بعيداً ولم يكن لديه ما يقتل الوقت به : فالاوامر قد اعطيت وهي في طريق التنفيذ . سأل بلهجة صارمة :

ــ هل وزعوا البسكويت والارز على أفواج الحرس ؟

ــ نعم ياصاحب الجلالة .

ــ لكن الارز ؟

أجاب راب بأنه نقل بنفسه الأوامر بهذا الصدد . لكن الامبراطور أظهر ارتيابه بحركة من رأسه . جاء خادم بشراب البونش . وبعد ان أمر باعداد

قدح آخر لراب ، راح نابوليون يمتص قدحـــه بجرعات صغيرة . قال وهو يشم قدحه :

ـ لم أعد مسيطراً على حاستي الشم والذوق . ان هـذا الزكام لايحتمل . انهم يتحدثون الي دائما عن الطب . فما هو هذا العلم المزعوم الذي لايستطيع شفاء الزكام ؟ لقد أعطاني « كورفيزار » هذه الحبوب . لكنها لاتصلح لشيء . ماذا يعرفون شفاءه ؟ انهم على اية حال لايقدرون على شفاء شيء . ان جسمنا عبارة عن آلة الحياة . انه مركب لهذا الغرض وهذه طبيعته . فدعوا الحياة على هواها والتدافع عن نفسها بنفسها . انها ستعمل أفضل من عملها اذا اثقلتموها بالأدوية ان جسمنا مثل ساعة كاملة عليها ان تدوم وقتاً ما ، وليس من صلاحية الساعاتي ان يفتحها بل ان يعالجها باللمس وعيناه معصوبتـان ... ان جسمنا آلة حياة ، هذا كل مافي الأمر .

وكأنما حلا له السير في طريق التعاريف ، وهي طريقة مألوفة لديه ، لم يلبث ان خرج بتعريف جديد . سأل روب :

ـ أتعرف ياراب ماهو فن الحرب ؟ انه فن يقتصر على ان يكون المرء في فترة ما أقوى من عدوه . هذا كل شيء .

فلم يجب راب .

ـ غداً ، سيكون لنا ما نعمله مع كوتوزوف . سوف نرى . تذكر انه هو الذي كان يقود في برونو وانه طيلة ثلاثة أسابيع ، لم يعتل صهوة جواده مرة واحدة ليفتش نقاط دفاعه . سوف نرى !

ومن جديد استشار ساعته فكانت لم تتجاوز الرابعة بعد . لم يكن ميالاً الى ان ينام وشراب البونش كان قـد شرب ولا زال دون عمل يعمله . نهض وراح يذرع المكان ثم ارتدى سترته الرسمية « رودنجوت » ووضع قبعته وخرج

كان الليل حالكاً رطباً والضباب الذي لايكاد يرى بوضوح في طور الانتشار. وكانت نيران أفواج الحرس القريبة تشتعل ضعيفة . وعلى البعد ، خلال الضباب كانت نيران الخطوط الروسية ظاهرة . وكان كل شيء هادئاً فكانت خطوات الوحدات الفرنسية الذاهبة لاحتلال مواقعها المقررة تسمع بجلاء .

عاين الامبراطور النيران وأصاخ السمع الى وقع أقدام الجنود ولما مرّ بأحد جنود الحرس القائم بالحراسة أمام الخيمة وهو في وضعية الاستعداد وكأنه دعامة سوداء ، وقف أمامه . سأله بتلك الخشونـة الودودة التي كان يستعملها دائماً في مخاطبة جنوده :

– كم أمضيت في الخدمة ؟

فاجابه الجندي .

– آه ! واحد من القدماء ! ..

– والأرز ، هل وزع عليكم في الفيلق ؟

– نعم ياصاحب الجلالة .

اشار اليه نابوليون برأسه اشارة ودية وابتعد .

وفي الخامسة والنصف ، امتطى الامبراطور جواده واتجـــه الى قرية شيفاردينو .

اخذ الفجر ينبثق والسماء بدأت تصفو فلم يبق من الغيوم إلا سحابة في الشرق واستمرت النيران المهجورة تتآكل في ضياء الشفق الضعيف .

وفجأة ، دوى طلقة مدفع مكتومة وحيدة على اليمين ، انتشرت ثم غابت في الصمت الشامل . وبعض بضع دقـائق ثار دوي ثان ثم ثالث هزا الفضاء أعقبها رابع وخامس اكثر جلالاً وكلها على اليمين . ولم تلبث الانفجارات ان تضاعفت واختلطت في هدير دائم .

بلغ نابوليون مع حاشيتـــه حصن شيفاردينو وترجل عن جواده . لقد نشبت المعركة .

الفصل الثلاثون

بدء المعركة

بعد ان غادر الامير آندريه وعادالى جوركي ، أصدر بيير أمره الى مرافقه ان يجعل الخيول جاهزة وان يوقظه باكراً ثم نام من فوره وراء الحاجز ، في الركن الصغير الذي تخلى له بوريس عنه .

ولما استيقظ في اليوم التالي ، لم يجد أحداً في الكوخ . كانت الواح النوافذ الزجاجية الصغيرة تهتز وخادمه المرافق يهزه . كان المرافق يكرر باصرار وهو يجذبه من كتفه دون ان ينظر اليه واليأس من بلوغ غايته واضح على معالمه :

— ياصاحب السعادة ! ياصاحب السعادة ! ياصاحب السعادة ! ..

أخيراً سأل بيير :

— ماذا ؟ هل نشبت ؟ هل هي الساعة المقررة ؟

قال الخادم المرافق وهو جندي سابق :

— ألا تسمع سعادتك اذن قصف المدافع ؟ لقد ذهب كل هؤلاء السادة وعظيم الرفعة نفسه منذ أمد طويل .

ارتدى بيير ثيابه على عجل وخرج . كان الصبح مشرقاً وبهيجاً وقد رطبه الندى . وراحت الشمس تمزق السحاب وترسل اشعاعاتها التي مازالت السطوح المقابلة تحجز نصفها ، على غبار الطريق الرطب وجدران المساكن وفتحات الحصون وعلى خيول بيير التي كانت واقفة أمام الكوخ . وبدا دوي المدافع

أكثر وضوحاً . مر مساعــد عسكري يتبعه قوقازي على حصانيهما خببا فهتف الأول :

- لقد أزف الوقت ياكونت ، أزف الوقت !

سار بيير على الدرب الذي يصعد الى التل الذي عاين منه بالأمس ساحة المعركة وأمر ان تتبعه الخيول . وجد هناك عدداً كبيراً من العسكريين مجتمعين . وكان هؤلاء السادة أعضاء هيئة الاركان ، يتحدثون بالفرنسيـة ، وقد ظهر كوتوزوف بينهم برأسه الأشيب المتقلنس بقبعته البيضـاء ذات الشريط الاحمر وقذاله الضائع في كتفيه العريضتين . كان الجنرال القائد الأعلى ينظر خلال منظار أمامه باتجاه الطريق العام .

عندما تخطى بيير الدرجات التي تقود الى التل ، ذهل اعجاباً بالمشهد الذي ظهر لعينيه . كان المشهـد اياه الذي تأمله بالأمس ولكن الجنود الآن كانوا قد غزوه وعم فيه دخان البارود . وكانت الاشعاعات المائلة للشمس المشرقة تنشر في فضاء الصباح ضوءاً وردياً مذهباً تخططه طائفة من الظلال . والغابات البعيدة التي يطبق عليها الافق ، تبدو كأنها منقوشة في حجر كريم بلون أخضر مائل الى الصفرة ، وذراها تقاطع فيه خطوطاً غير واضحة ، يقطعها وراء فالوييفو ، طريق سمولنسك العام المغطى كله بالجنود . والى مسافة أقرب ، كانت الحقول المذهبة وباقات من الشجر تلتمع . والجنود في كل مكان ، الى اليمين والى اليسار وفي المقدمة . ولقد كان مجموع المشهد مفعماً بالجلال والمفـاجأة . لكن انتباه بيير توقف عند ساحة المعركة نفسها ، عند بورودينو ووادي كولوتشا .

فوق كولوتشا على جانبي بورودينو ، وبصورة خاصـة الى اليسار حيث يصب نهر « فوئينا » عند شواطئه المليئـة بالمستنقعات في نهر كولوتشا ، امتد ضباب من ذلك النوع الذي يتبخر ويبدد بتأثير حرارة الشمس المشرقة فيعطي

لوناً وظلالاً سحرية على كل مايبدو خلاله للعيون . وكان دخان الطلقات النارية يختلط بالضباب بينما أضواء نور الصباح المتسللة عبر تلك المجموعة من الغيوم ، تتلاعب على صفحة الماء وفوق الندى وعلى رؤوس الحراب . كان الناظر يميز الكنيسة البيضاء ثم سطوح بورودينو ثم كتل الجنود المتراصة والصناديق المدهونة بالأخضر والمدافع . وكل ذلك يتحرك أو يبدوا كأنه يتحرك في ذلك الفضاء الذي يكتسحه الضباب والدخان . وكما هي الحالة في الأغوار الفارقة في الضباب التي تحيط بورودينو ، كانت دوامات من الدخان ترتفع تارة منعزلة وتارة مجتمعة متباعدة تارة ومتقاربة تارة اخرى ، في المناطق المجاورة وبصورة خاصة الى أقصى اليسار فوق كل الغابات والحقول والمنخفضات وفوق المرتفعات وكأنها تخلق من لاشيء فتنتفخ وتخمد وتتشابك الى غير نهاية في ذلك الفضاء الرهيب .

وكانت تلك الدواخن والانفجارات التي تصحبها تشكل — وهو أمر غريب — العنصر الرئيسي في جمال المشهد .

بوف ! بوف !! وتشابك دخانان واختلطا ثم بم ! بم !! وجاءت الطاقتان تؤيدان ما شاهدته العين .

كان بيير قد استدار ليرى الدخان الأول المستدير الكثيف كأنه كرة حينما تمطت في المكان نفسه ثلاث كرات من الدخان . بوف .. وبعد فترة : بوف ، بوف ! وارتفعت ثلاثة أو أربعة دواخن أخرى لم تلبث ان أجابتها في فترات متساوية بالترتيب أصوات خطيرة قوية جليلة : بم .. بم ، بم ! وكانت تلك الدواخن تبدو تارة منهزمة وتظل معلقة تارة أخرى فيحين دور الغابات والحقول والحراب اللامعة بالفرار . وإلى اليسار على طول الحقول والأدغال كانت كتل اخرى ضخمة الدخان يتبعها صداها الرهيب تنبعث في حين تنفجر

في الأغوار والغابات القريبة طلقات بنادق مختلفة دخاناً صغيراً لايجد الوقت الكافي ليشكل كتلاً لكنه مع ذلك يصطحب هو الآخر صداه على شكل ضربات جافة . وكانت البنادق تقول : « تا ـ را ، تا ، تا ، تا .. » بفترات متقاربة ولكن منتظمة وبأقل إتساع بكثير من دوي المدافع .

ولكم ود بيير ان يكون وسط هذه الدواخن والحراب وهذه الحركة وهذا الضجيج . ألقى نظرة على كوتوزوف وحاشيته ليقارن بين مشاعره ومشاعر الآخرين . فوجد أنهم جميعهم مثله يتأملون ساحة المعركة تعتلج في صدورهم المشاعر ذاتها . ومن كل الوجوه ، كانت الحرارة الكامنة التي لمسها أمس والتي عرّفه حديثه مع الأمير آندريه بكنهها تبدو وكأنها تشع من كل الوجوه .

قال كوتوزوف في تلك اللحظة لواحد من الجنرالات الذين في حاشيته دون ان تبرح عيناه ساحة المعركة :

– إذهب ياعزيزي ، إذهب وليباركك الله !

فتأهب الجنرال الذي تلقى هذا الأمر لنزول التل . وبينما هو يمر بجانب بيير ، سأله أحد ضباط الأركان عن المكان الذي يذهب إليه . فأجاب الجنرال بصوت بارد قاس :

– إلى معبر النهر !

فحدث بيير نفسه وهو يتبع خطاه : « وأنا كذلك أذهب الى هناك . »

إمتطى الجنرال حصاناً جاءه به قوقازي . بينما راح بيير يعتلي صهوة جواده بدوره بعد ان تأكد من تابعه المرافق أنه أهدأ من كل الخيول وتشبث بعرف الجواد بينما ضغط بكعبيه على جانبي بطنه ولقد أضاع نظارتيه لكنه كان يشعر بعجزه عن ترك عرف الجواد والمقودين لذلك فقد ترك نفسه يقاد في أعقاب الجنرال مثيراً بذلك إبتسامات الضباط الذين كانوا ينظرون إليه من أعلى التل .

الفصل الحادي والثلاثون

في جحيم المعركة

استدار الجنرال الذي راح جواد بيير يجري وراءه الى اليسار فجأة بعد ان انحدر على التل فضاع عن انظار بيير وأخذ هذا دون عمد بين صفوف المشاة الذين كانوا يمشون امامه. حاول ان يتخلص سواء من الأمام او من اليسار او من اليمين. لكن وجوه الجنود المطبوعة بقلق مماثل الذين اتجهت افكارهم نحو شيء ما غير منظور وخطير، راحت تطالعه من كل مكان. كانوا جميعهم يستفسرون بعيونهم مستائين من هذا الشخص الضخم ذي القبعة البيضاء الذي جاء يدفعهم بحصانه لسبب لايعلمه الا الله.

صرخ احدهم:

— ماذا جاء هذا يعمل وسط الهواء؟

وضرب آخر الحصان بعقب بندقيته فاطبق هذا فكيه على الشكيمة فلم يهدئه بيير الا بصعوبة وهو متشبث بقربوس السرج واستطاع اخيراً ان يبلغ الطريق الخالية.

كان امامه جسر راح جنود آخرون يطلقون النار بالقرب منه. لقد وصل دون ان يعرف. الى جسر كولوتشا القائم بين جوركي وبورودينو. وهو الجسر الذي كان على الفرنسيين ان يهاجموه في المرحلة الاولى من المعركة بعد ان يحتلوا القرية الاخـــيرة. شاهد بيير على جانبي النهر وبين رزم الهشيم

التي لم يلاحظها أمس بسبب الدخان ، جنوداً في شغل شاغل . مع ذلك وعلى الرغم من طلقات البنادقة المتلاحقة ، فانه لم يشعر انه اصبح في صميم المعركة . ما كان يسمع ازيز الرصاص من كل الجهات ولا القذائف التي تمر فوق رأسه ما كان يرى العدو على الجانب الآخر من النهر ، بل انه ظل طويلاً قبل ان يشعر بالقتلى والجرحى الذين يتساقطون حوله . لقد كان يتأمل المشهد وقد ارتسمت على زاوية شفتيه ابتسامة .

قال صوت من جديد :

— ماذا يعمل هذا بانتصابه هكذا امام الخطوط ؟

وقالت أصوات اخرى :

— خذ اليسار . . كلا ، اليمين . .

اتجه بيير الى اليمين فصادف فجأة مساعداً عسكرياً للجنرال رايفسكي كان يعرفه . ولقد القى هذا الضابط عليه نظرة غاضبة كاد ان يعقبها بالسباب عندما عرفه فجأة فحياه بإيماءة من رأسه . قال له وهو يتابع سيره :

— كيف ! أنت ، هنا ؟

شعر بيير انه في غير مكانه المناسب فخشي ان يكون مبعث ازعاج لذلك فقد مضي يتابع المساعد العسكري هدباً . سأله :

- هل أستطيع مرافقتك ؟ ماذا يدور هنا على الضبط ؟

أجابه المساعد العسكري :

— لحظة ، لحظة !

وجرى الى زعيم ضخم واقف وسط البرية فنقل اليه أمراً ثم عاد الى بيير وقال له باسماً :

— ماذا جئت تفعل هنا يا كونت : انك هنا لمجرد الفضول ؟

ـ نعم ، نعم . .

وكان المساعد العسكرى قد قفل راجعاً . قال :

ـ ان الحالة هنا محمولة والحمد الله . ولكن على الجناح الأيسر ، من جانب باجراسيون ، الحالة حرجة .

قال بيير :

ـ حقاً وأين هذا المكان ؟

ـ اتبعني فوق المرتفع . يمكن ان يرى المرء من هنا بوضوح . ان الحالة عندنا ، في موقع « البطارية » محمولة نوعاً .

أجاب بيير وهو يبحث بعينيه عن مرافقه :

ـ انني أتبعك .

حينئذ شاهد بيير للمرة الاولى ان الجرحى منتشرون حوله على الارض في حين كانوا ينقلون بعضهم على محفات . وفي ذلك المرج الأخضر الذي اجتازه بالأمس ، كان جندي لاحراك به ، ملقى على الهشيم وقد مال رأسه بشكل خرق بينما انزلقت عمرته على الارض . كاد بيير ان يقول :

ـ وهذا ، ألا يرفعونه من هنا ؟

لكنه أزاء وجه المساعد العسكري الصارم الذي كان ينظر في الاتجاه عينيه ، صمت .

لم يستطع اكتشاف خادمه المرافق وبات الآن يسير على طول المنخفض الذي يؤدي الى تل رانيفسكي . وكان حصانه الذي يهزه هزات وتيرية ، يجد صعوبة في اللحاق بالمساعد العسكري . سأله رفيقه :

ـ انك ولاريب لم تألف ركوب الخيل يا كونت ؟

أجاب بيير بارتباك :

- بلا ، لكن جري هذا شديد القسوة .

- ايه ! ولكن . . انه جريح في الناحية الوحشية من قائمته اليمنى فوق الركبة . . رصاصة ولاريب . . تهانئي ياكونت : ها هو ذا عماد النار .

تجاوزا خلال الدخان الفوج السادس وراء المدفعية التي كان قصفها يصم آذانها وبلغا غابة صغيرة هادئة رطبة تفوح منها رائحـــة الخريف وهناك ترجلا ليتسلقا التل .

سأل المساعد العسكري :

- هل الجنرال هنا ؟

فأجابوه وهم يشيرون الى الجهة اليمنى :

- كان هنا منذ حين ، لكنه ذهب من هنا .

استدار المساعد العسكري صوب بيير وبدا كأنه يتساءل عما سيعمله بهذا الرفيق غير المنتظر . فقال بيير :

- لاتقلق . اذا كنت لاترى مانعاً ، فسأبقى هنا على التل .

- وهو كذلك . من هنا يمكن رؤية كل شيء دون كبير خطر وسآتي لآخذك .

توجه بيير نحو « البطارية » في حين تابع الضابط سيره . ولقد قدر ان لايلتقيا بعد ذلك اليوم .

اشتهر المرتفع الذي تسلقه بيير منذ حين ، بين الروسيين فيما بعد باسم « بطارية التل » او « بطارية » رايفسكي وبين الفرنسيين باسم « الحصن الكبير » أو « الحصن المشؤوم » أو « حصن الوسط » . ولقد سقط حول هـذه النقطة التي كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاح الموقع ، عشرات الالوف من الرجال .

كان ذلك الحصن مشكلاً من خنادق محفورة على جوانب المرتفع الثلاثة ،

كانت عشر قطع مدفعية تبصق قذائفها خلال فتحاتها . وعلى جانبي التل ، على صف واحد ، مافتئت قطعات مدفعية اخرى تدعم هـذه بينما تكتلت قطعات المشاة الى الوراء .

عندما وصل بيير الى هناك ، لم يفكر قط في ان هـــذه الخنادق القليلة ، التي تنطلق منها قنابل هذه المدافع القليلة ، تشكل اهم نقطة في ساحة المعركة . بل على العكس ، وبسبب وجوده هناك حتما ، كان يظن انه موقع من اقل المواقع اهمية .

جلس على حافة الخندق المحيط بمجموعـة المدافع ، وراح يتأمل ما يدور حوله بابتسامة المرح الغافل . ومن حين الى آخر ، كان ينهض والابتسامـــة مطبوعة على شفتيه ، فيتجول بين قطعات المدفعية وهو يعمل جاهداً ان لا يزعج الجنود المكلفين بخدمتها الذين كانوا يحملون الأكياس وعتاد المدافع ، ويروحون ويجيؤن امامه بلا انقطاع . وكانت المدافع تنطلق بعضها في اثر بعض مصحوبة بدوي يصم الآذان وهي تغطي ما حولها بالدخان .

وبدلاً من القلق الذي يُشاهـد عادة عند المشاة من فرق التغطية ، كان يشعر هنا ، في « البطارية » ، بين هـذا الفريق الصغير من الرجال المنهمكين الذين يفصلهم عن الآخرين خندق ، بحيوية مماثلة لدى كل فرد منهم وكأنها أليفه .

ولقد ازعجهم بادىء الأمر ان يظهر بينهم بيير بثوبه المدني وقبعته البيضاء فكانوا ينظرون اليه وهم يمرون به نظرات جانبية ملؤها الدهشة والذهول .

ولقد اقترب منه رئيس « البطارية » بحجة فحص حركة القطعة القصية ، وكان رجلًا مديد القامة ذا وجـه منقوش بالجدري وساقين طويلتين ، وراح يتأمله مليا بفضول .

وقال ضابط آخر ، فتى صغير ذو وجنتين موردتين ، تخرج لتوه من قطعات

التدريب ، كان يشرف على مدفعين عهد اليه بقيادتهما ، قال لبيزوخوف بلهجة صارمة :

– هلا ابتعدت ياسيدي ؟ انك تزعجنا هنا .

وراح الجنود يهزون رؤوسهم اشارة الامتعاض . ولكن ، لما تبين لهم ان هذا الشخص ذا القبعة البيضاء لايقوم بأي عمل مؤذ بل يظل هادئاً في مجلسه على التل أو يتنزه في المكان وعلى شفتيه ابتسامة متهيبة ويفسح لهم المجال بأدب وهو رابط الجأش ساكن تحت وابل النار سكونه في شارع عام ، خلف امتعاضهم تدريجياً مكانه للون من الميل المرح يشبه ذاك الذين يشعر به الجنود نحو الحيوانات الأليفة التي تتبعهم في الحملة ، كالكلاب والديكة والماعز الخ .. تبنوه ، كل في سره ، بل واعطوه لقبا . لقد عمدوه باسم « سيدنا » وراحوا يمزحون بلطف بينهم حول موضوعه .

جاءت قذيفة تحرث الارض على بعد خطوتين من بيير فأخذ هـذا يجيل حوله عينيه الباسمتين وهو ينفض التراب الذي اصاب ثوبه .

قال له فتى عملاق عريض المنكبين مورد الوجـــه وهو يظهر اسنانه البيضاء القوية :

– الست خائفاً اذن ياسيدي ؟

– وانت ، هل انت خائف ؟

فاعترف الجندي :

– بالطبع .. ان هذه القذيفة لاترحم . اذا ما سقطت على انسان طارت احشاؤه في الفضاء .. فالمرء مجبر على الاحساس بالخوف ..

ولقد اضاف جملته الأخيرة ضاحكاً .

توقف بعض الجنود قرب بيير وأبدوا حيرة مستطابة وهم يرونه يتحدث ككل الناس .

ـ هذه مهنتنا نحن . اما هو ، السيد ، فانه مدهش . ها هو ذا سيد !

صاح بهم الضابط الشاب :

ـ الى قطعكم !

ولا ريب انها كانت المرة الاولى او الثانية التي يقوم خلالها بأعباء رتبته اذا حكمنا على تمسكه المفرط بالشكليات حيال رجاله وحيال رؤسائه .

راحت نيران المدافع والبنادق المتلاحقة تنتشر على عموم مساحة ساحة المعركة وبصورة خاصة على اليسار ، صوب تحصينات باجراسيون . لكن الدخان كان يمنع رؤية أي شيء من المكان الذي وقف فيه بيير . اضف الى ذلك ان العالم المستقل الذي قوامه رجال « البطارية » ، كان يحتكر كل انتباهه . ولقد قامت في نفسه بعد الهيجان والتفكه اللذين احدثهما المشهد وما يصحبه من ضوضاء المعركة في نفسه ، عواطف جديدة مختلفة كل الاختلاف وخصوصاً بعد ان رآى ذلك الجندي الملقى وحيداً على المرج . راح يراقب الرجال من حوله بشره وهو جالس على المنحدر .

وحوالي الساعة العاشرة ، كانوا قد حملوا من « البطارية » قرابة عشرين رجلاً واتلف قطعتان وراحت القذائف تزداد وفرة في تساقطها وباتت الرصاصات الطائشة اكثر تواتراً على الاسماع . لكن المدفعين ظلوا يتابعون احاديثهم المرحة وكأن شيئاً ما لم يحدث .

هتف احدهم لدى وصول قنبلة مرت وهي تصفر :

ـ هذه « نا ّنا » ـ حلوى بلغة الاطفال ـ .

فرد آخر وهو يرى ان القنبلة سقطت بين قطعات التغطية :

ـ انها ليست لنا ، انها « للبياده » .

وسأل ثالث احد المتطوعين وهو ينحني تحت لفحة ريح قذيفة :

– أراك تحيي أحد معارفك !

واجتمع بعض الجنود عند الحاجز ليروا ما يدور امامهم.

قالوا :

– خذ ، لقد ارجعوا الخطوط الى الوراء ، انهم يتقهقرون .

فصاح بهم صف ضابط عجوز :

– هيه ، انتم هناك ! اهتموا بعملكم . اذا كان الفتيان يتراجعون فمعنى ذلك انهم في حاجه اليهم في مكان آخر .

وجذب أحدهم من كتفه وركز له ضربة من ركبته فارتفعت الضحكات وارتفع صوت آمر :

– القطعة الخامسة ! أعيدوها !

فصرخ اولئك الذين كانوا يعيدون المدفع الى مكانه بمرح :

– هو ،هيس !.. هو ، هيس !.. لنرفع بايقاع كالذين يسحبون المراكب !

وراح المزاح ذو الوجه المتورد الذي يشهد بادمان صاحبه يقول :

– آه باه ! كادت القذيفة ان تنزع قبعة سيدنا .

وصرخ بلهجة محنقة موجهاً حديثه الى قذيفة اخرى اطارت عجلة مدفع وساق رجل دفعة واحدة :

– هيه لا ! ألا تستطيعين الانتباه !

وداعب آخر وهو يرى المتطوعين يحنون ظهورهم ويتسللون عبر «البطارية» لألتقاط الجريح :

– هه ! يا من هناك ! عصابة ثعالب !

صاحوا باؤلئك القرويين الذين كانوا يترددون في نقل الجندي ذي الساق المتبورة :

– ترى هل الحساء مخالف لمزاجكم ؟. ان هؤلاء الكسالى ينفرون دائماً من العمل .

وقالوا وهم يشاكسونهم :

– ربما ، للأسف ! هذا ممكن تماماً . لابد وان المهنة لاتروق لهم ..

لاحظ بيير انه كلما ازدادت المقذوفات كثرة وقوة ، ازداد معها الهيجان العام ونما . لقد كانت نفوس هؤلاء البواسل كلهم تكن ناراً راحت انعكاساتها تظهر على وجوههم بازدياد أشبه بالبروق التي تخطط أديم سماء متهجم بالغيوم الدكناء حتى لكأنه تحد موجه الى مالا بد منه . أية أهمية لساحة المعركة ان ظلت في نفسه ؟ لقد استبدت به هو الآخر تلك الشعلة المضطرمة التي راح يشعر أنها تكاد تلتهمه هو نفسه .

في الساعة العاشرة ، تراجع المشاة الذين كانوا يقاتلون مشكلين سياجاً واقياً أمام « البطارية » وعلى طول كامنكا . ولقد شوهدوا يفرون حاملين جرحاهم على البنادق . وظهر على التل جنرال مع حاشيته فقال بضع كلمات للزعيم ثم القى على بيير نظرة مغضبة وانحــــدر بعد أن أصدر أوامره الى وحدات التغطية بالانبطاح ليكونوا أقل تعرضاً للنيران وبعـد لحظات ، دوى قرع الطبول في صفوف المشاة المقامين الى يمين « البطارية » وتناهت الى الاسماع أوامر صدرت ثم شوهدت الصفوف تتحرك الى الأمام .

القى بيير نظرة من فوق الحاجز فاستلفت انتباهه بصورة خاصة ضابط المؤخرة ، وكان شاباً ذا وجه ممتقع ممسكاً بسيفه منخفضاً ، يجيل حوله نظرات قلقة .

غاب المشاة في الدخان وارتفع ضجيج متواصل وصوت طلقات بنادق سخية ولم يلبث الجرحى ان اعيدوا والقتلى على المحفات . وراحت القذائف تتساقط على « البطارية » بغزارة لم يسبق لها مثيل . وسقط رجلان ظلا مهملين في مكانهما وازداد نشاط الجنود المكلفين بشؤون المدافع . لم يعد أحد يفكر في بيير ،

ولقد رجوه مرتين أو ثلاث مرات في غير لطف ان ينتحي جانباً ، وراح قائد « البطارية » يتنقل بين مدفع وآخر وهو مقطب الحاجبين ، بينما أخذ الضابط الشاب يبدي غيرة متزايدة ووجهه يزداد توردا . وكان الجنود يحملون القذائف ويعبئون المدافع وينجزون مهمتهم بتفاخر صميم ، فبدوا في غدواتهم وروحاتهم وكأنهم يتحركون بقوة نوابض .

وكانت العاصفة تقترب فأصبحت الوجوه كلها الآن تستعر بذلك اللهيب الذي كان بيير يترقب ظهوره . وكان واقفاً الى جانب قائد المدفعية حينما هرع الى هذا الضابط المناوب وقال ويده الى عمرته :

— لي الشرف بان أخطرك يازعيمي انه لم يبق لدينا اكثر من ثمانية مقذوفات هل يجب الاستمرار باطلاق النار ؟

صاح الزعيم — دون ان يجيب مباشرة — وهو منحني فوق الحاجز :

— احشوا المدافع بقطع من الحديد !

لكن الضابط الصغير اطلق فجأة زمجرة ودار حول نفسه ثم انهار وكأنه عصفور أصيب وهو في أقصى طيرانه . فبدا كل شيء غريباً غامضاً ومظلماً أمام ناظري بيير .

راحت القذائف الواحدة تلو الاخرى تمزق الحاجز والرجال والمدافع فلم يعد بيير يعير شيئاً آخر التفاتة غير هذا الدوي الذي لم يشعر به حتى ذلك الحين . وعلى يمين « البطارية » ، بدت له القطعات عند صيحة « هورا » تتراجع الى الوراء بدلاً من ان تندفع الى الأمام .

ضرب مقذوف حافة الحاجز فغطاه بالتراب ومرت كتلة سوداء أمام عينيه أعقبتها صدمة لينة ، فدار بعض المتطوعين الذين كانوا على وشك الدخول الى « البطارية » على أعقابهم فارين .

صاح الزعيم :

- كل القطع ، احشوها بقطع من الحديد !

وهرع اليه صف ضابط مروع وهمس في اذنه ان الذخيرة قد نفذت ، فكان أشبه برئيس خدم يبلغ صاحب الدعوة في أدق اللحظات بنفاذ الخمر .

صرخ الزعيم ووجهه متضرج بالحمرة طافح بالعرق وعيناه اللامعتان تكادان ان تخرجا من محجريها :

- ماذا يفعل اولئك الآثمون ؟ إجر الى الاحتياط واحمل الصناديق !

واختتم قوله بنظرة حانقة وجهها الى بيير فقال هذا :

- سوف اذهب كذلك .

ابتعد الزعيم بخطوات واسعة دون ان يجيبه وهتف آمراً :

- ممنوع القصف . . انتظروا .

اصطدم المدفعي الذي تلقى الأمر بحمل الذخيرة ببيير فهتف به وهو يتدحرج على المنحدر :

- هه ! ياسيدي ، ليس هنا مكانك .

لكن بيير تبعه وهو يدور حول المكان الذي سقط فيه الضابط الشاب .

مرت قذيفة فثانية فثالثة فوق رأسه وسقطت الى الأمام والجانب والى الوراء . وبينما هو قرب الصناديق الصغيرة المطلية بالأخضر ، سئل نفسه : « الى أين أذهب ؟ » توقف حائراً وهو لايدري ما اذا كان عليه ان يتقدم الى الامام او ان ينكص على أعقابه. وفجأة القته صدمة هائلة على الارض وفي اللحظة نفسها أحاطت به شعلة من نار بينما دوى انفجار كالرعد صحبه صفير صم أذنيه .

ولما ثاب الى رشده، وجد نفسه جالساً على الارض ويداه مستندتان الى الارض لم يبق من الصناديق التي كان قريباً منها غير بضعة الواح خشبية خضراء متفحمة وبعض الخرق المبعثرة فوق العشب الأمغر . وكان حصان يجر وراءه حطام نقالات ، يجري مبتعداً وثانٍ ممدد على الارض مثل بيير يطلق زعجرات طويلة.

الفَصْلُ الثّاني وَالثّلاثون

استعدادة التل

استبد الذعر ببيير تماماً ، فقفز على قدميه وفر باتجاه « البطارية » وكأنها الملاذ الوحيد من كل هذه الأهوال المحيطة به .

وبينما هو يدخل الخندق ، وجد انهم كفوا عن اطلاق النار وان أشخاصاً آخرين يحتلون المكان . من كان هؤلاء ؟ وماذا يعملون هنـا ؟ لم ينتبه لأول وهلة . شاهد الزعيم مستلقياً على بطنه فوق الحاجز حيث كان يبدو من هناك وكأنه ينظر الى الأسفل وجندياً ،كان قد لاحظ وجوده من قبل يتخبط وآخر امسكوا به من ذراعه وهو يصيح : « اليّ أيها الأخ ! » كما شاهد أشياء اخرى تماثلها في غرابتها .

لم يكن قد أدرك بعـد أن الزعيم قد مات وأن الجندي المستغيث أسير ، حينما طعن جندي آخر تحت أبصاره بحربة في ظهره . لم يكن قد وضع قدمه في الخندق بعد حينما هرع نحوه شخص في بزة زرقاء ، نحيل أصفر يسبح في العرق وسيفه بيده وهو يصرخ ، وبالغريزة ، بغية تفادي الصدمة الشديدة ، مـد بيير ذراعيه فأمسك باحدى يديه ذلك الرجل (وكان ضابطاً فرنسياً) من كتفه وبالاخرى من عنقه . فأسقط الضابط حسامه وأطبق عليه هو الآخر من ياقته. ظلا طيلة لحظات يتأمل أحدهما وجه الآخر الغريب عنه في ذعر وحيرة وكل منهما يتساءل : « ترى هل أنا الذي أسرته أم هو الذي يأسرني ؟ » وبدا

الضابط الفرنسي ميالاً الى هذا الرأي الأخير لأن يد بيير القوية التي راح الرعب الغريزي يحركها ، أخذت تضغط بشدة متزايدة على حنجرته . كاد ان يقول شيئاً عندما مرت قذيفة فوق رأسيهما تماماً حتى كادت ان تمسهما ، مصحوبة بصفير مريع ، فظن بيير ان رأس الفرنسي قد اجتثت نظراً الى السرعة التي خفض رأسه بها . فخفض هو رأسه الآخر وأفلت الرجل .

ودون ان يأبه الضابط كثيراً لأيهما وقع في أسر الآخر ، فر مسرعاً الى « البطارية » بينما انحدر بيير على التل وهو يتعثر بالقتلى والجرحى الذين خيل اليه أنهم انما يتشبثون بساقيه . ولم يكد يبلغ السفح حتى اصطدم بحشد كبير من الروسيين يزجرون ويسقطون ويتدافعون ويركضون كالأعصار نحو «البطارية» . ذلك كان الهجوم الذي عزاه « ايرمولوف » فيما بعد الى حسن خطته وشجاعته بل والى دهائه لأنه - اذا آمن المرء بأقواله - نثر فوق التل صلبان القديس جورج (اوسمة) التي كان يملأ بها جيوبه نثرا .

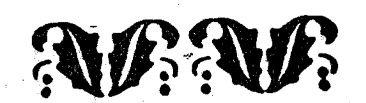
ولقد فر الفرنسيون رغم سيطرتهم على « البطارية » وظل رجالنا يتبعونهم وهم يصيحون « هورا » مسافة بعيدة حتى كاد ان يتعذر ايقافهم .

جاؤوا بأسرى من « البطارية » ومن بينهم جنرال فرنسي جريح أحاط به ضباطنا . وكانت طائفة من الجرحى من روسيين وفرنسيين ، عرف بينهم بيير وجوها رآها من قبل أصبحت الآن مقلوبة من الألم ، تجر نفسها جراً أو تنقل على المحفات . عاد يصعد التل حيث ظل اكثر من ساعة دون ان يجد واحداً من أعضاء ذلك العالم المغلق الذي تبناه . مع ذلك ، فقد تعرف بين العديد من القتلى المجهولين منه ، على بعض من اولئك. فالضابط الصغير مازال هناك قرب الحاجز غارقاً في بركة من الدم ، والمدفعي ذو الوجه المتورد مازال عرضة لحركات تشنجية ، لكنهم أعرضوا عن نقله .

نزل بيير المنحدر جرياً .

حدث نفسه وهو يمشي على غير هدى تابعا مجموعة المحفات العائدة من ساحة المعركة : « سوف يتوقف كل هذا . لاريب انهم روعوا من هول مافعلوا ! »

لكن الشمس المحجوبة بالدخان ، كانت لاتزال بعيدة فوق الافق فكان يُرى بغموض الى الأمام وبصورة خاصة الى اليسار ، من جانب سيميونوفسكوي حركة عنيفة أبعد ما تكون عن الخمود ، بينما راح رعد الانفجارات يزداد عنفاً كما يفعل الرجل الذي يجمع كل قواه وهو مبهور الانفاس ليودعها صرخة أخيرة .



الفصل الثالث والثلاثون

المعركة الرئيسية

دارت حركة المعركة الرئيسية على مساحة قدرها نصف ميل بين بورودينو وتحصينات باجراسيون . خلا ذلك ، فقد قامت أفواج فرسان« أو فاروف» بحركة أثبتت بها وجودها حوالي منتصف النهار وقامت معركه من جهة اخرى وراء اوتيتسا بين بونياتوفسكي وتوتشكوف . لكن هذه كلهالم تكن الاعمليات تافهة بالنسبة الى مادار في الوسط . لقدنشبت المعركة الحقيقية على الساحة القائمة بين بورودنيو والتحصينات ، قرب الغابة ، على أرض خواء مكشوفة من الجانبين ، وذلك بطريقة غاية في البساطة والبعد عن التعقيد .

اشتركت في القتال من الجانبين بضع مئات من القاذفات . ولما لف الدخان ساحة المعركة كلها ، شرعت أفواج ديسيكس وكومبان تتقدم نحو التحصينات بينما راح جيش نائب الملك الى يسارها يتقدم نحو بورودينو .

وكانت المسافة بين حصن شيفاردينو حيث كان نابوليون ، وبين التحصينات ربع ميل على الخط المستقيم واكثر من نصف ميل منه الى بورودينو ، فكان الامبراطور لايستطيع ان يرى مايحدث بوضوح خصوصاً وان الدخان المختلط بالضباب قد غطى المساحة كلها ، ولم تشاهد قطعات ديسيكس الا عندماأخذت تنحدر الى الوادي الذي يفصلها عن التحصينات . وما ان نزلت ، حتى بات الدخان من الكثافة فوق التحصينات لدرجة ملأت معها الجانب المقابل للوادي

فكان هذا الستار لايترك المجال الا لرؤية شيء ما اسود يشبه الجمهرة البشرية ومن حين الى آخر التماع الحراب . ولكن ما كان يمكن من شيفاردينو رؤية ما اذا كان الرجال ساكنين ام متحركين وهل هم فرنسيون أم روسيون .

وكانت الشمس تصعد مشرقة في السماء فتغمر اشعاعاتها المنحنية وجه نابوليون الذي كان يفحص المواقع واقياً عينيه بيديه . وكان الدخان يمتد أحياناً الى الامام حتى ليخيل الى الناظر انه جيوش تتحرك . وفي الفترات بين طلقات المدفعية ، كانت تسمع أصوات دون ان يدرك مدلولها .

وكان نابليون على الرابية ينظر خلال منظاره الى ساحة المعركة الضيقة فكانت العدسة تريه دخاناً وجنوداً ، جنوده أحياناً وأحياناً جنوداً روسيين . لكنه فيما بعد ، ما كان يستطيع بالعين المجردة ان يخمن مواقع ماراه .

نزل من فوق التل وراح يذرع السفح ويتوقف من حين الى آخر ليصيخ السمع الى دوي الانفجارات وليلقي نظرة الى ساحة المعركة . ولكن لا من هناك ولا من أعلى المرتفع ، حيث ظل عدد من جنرالاته ، ولا من التحصينات كذلك التي كان الفرنسيون يحتلونها تارة ليسلموها الى الروسيين تارة اخرى تاركين قتلى وجرحى وأحياء مروعين او مذهولين ، ما كان يمكن أخذ فكرة صحيحه عما يجري في ذلك المكان . ولقد تعاقب طيلة ساعات بين قصف المدافع وازيز الرصاص المتواصلين ، فرنسيون وروسيون ، مشاة وفرسان ، دون هوادة ولا ملل . كانوا يظهرون ويطلقون النار ويسقطون ويتدافعون دون ان يدري هؤلاء ماذا يفعلونه باولئك ويصرخون ويتقهقرون .

وكان المساعدون العسكريون الذين يوفدهم الامبراطور بمهات يعودون ويقدمون تقاريرهم والضباط، التابعون لماريشالاته يتصرفون مثلهم ، لكن كل تلك التقارير لم تكن دقيقة ، اذ لايمكن في غمار المعركة ان يقول المرء على وجه

الدقة مايحدث في فترة ما ، كما ان كثيراً من أولئك الضباط لم يستطيعوا بلوغ الامكنة المعينة لهم فكانوا يكتفون بترديد ماسمعوه من اقوال ، اضف الى ذلك ان الموقف كان يتبدل بينما هم يجتازون نصف الميل او ثلاثة ارباع الميل التي تفصلهم عن سيدهم فتصبح الانباء التي يحملونها خاطئة ، وعلى هذا النحو ، جاء مساعد عسكري تابع لنائب الملك يعلن ان بورودينو قد احتلت وان الجسر القائم على نهر كولوتشا اصبح في ايدي الفرنسيين ،وسأل عما اذا كان يجب امرار القطعات عبر النهر ، فأوعز اليه نابوليون ان ينظموهم على الشاطيء الآخر وان ينتظروا ، ولكن ، في اللحظة التي اعطي فيها ذلك الامر ، بل واكثر من ذلك ما كاد المساعد العسكري يغادر بورودينو ، حتى استعاد الروسيون الجسر وأحرقوه ، وكان ذلك اثناء الواقعة التي وجد بيير نفسه مشتركاً فيها عند بدء المعركة ، وجاء مساعد عسكري آخر يجري من التحصينات بأقصى ما في طاقة الجواد وقد امتقع وجهه من الذعر فأعلن للامبراطور ان الهجوم قد صُد وان كومبان قد جرح ودافو قتل ، في حين انه بينما كان ينقل تلك الانباء ، احتلت قطعات اخرى التحصينات اما دافو ، فان «قتله» لم يتجاوز الرض الخفيف . وكان نابوليون ، تبعاً لهذه البيانات الخاطئة كرها ، يتخذ تدابيراً اتخذت من قبل آخرين قبله أو يستحيل تنفيذها سلفاً .

وكان الماريشالات والجنرالات الذين اصبحوا اقرب الى خطوط النار والذين لم يدخلوها الا نادرا ، يصدرون من انفسهم الاوامر بصدد اشتباكات الرماة وتدخل الفرسان او المشاة ، ولكن تلك الاوامر ، مثل اوامر الامبراطور نفسها ، ما كانت تنفذ الا على نطاق ضيق ضعيف ، ولقد كانت الواقعة غالباً تخالف التدابير المتخذة فكان الجنود الذين صدرت اليهم الأوامر بالتوجه الى الامام ، يرون أنفسهم واقعين تحت نيران البنادق المتعاقبة ،

فيضطرون الى الفرار والجنود الذين يجب عليهم البقاء في اماكنهم يهجمون على العدو حينما يرونه انبعث امامهم فجأة ، ويندفع الفرسان دون ان يصدر اليهم الأمر ، للحاق بالروسيين المشتتين . وعلى هذا النحو، اجتاز فوجان من الفرسان وادي سيميونوفسكوي فلم يكادوا يصلوا الى الجانب الآخر حتى لووا اعنة خيولهم وانحدروا باقصى سرعة ، وعلى هذا النحو كذلك ، اندفع اكثر من فوج من المشاة الى اماكن لم يرسلهم اليها احد . وعندما كان يجب استعمال المدافع او تحريك المشاة او الفرسان ، كان ضباط الصف هم الذين يقومون بذلك بتصرفهم الذاتي دون الرجوع الى ني أو دافو أو مورا أو بالتالي الى نابوليون. ولم يكونوا خائفين من ان يوجه اليهم اللوم على مثل ذلك التصرف ، لان المرء في المعركة لايفكر الا في انقاذ أثمن ماعنده ، أي حياته ، ويمكن تبعاً لذلك ان يكون الخلاص تارة بالفرار وتارة بالسير الى الأمام ، لذلك فقد كان هؤلاء الرجال في حميا المعركة ، يتصرفون تبعاً لشعورهم الآني .وفي الواقع ان تلك التحركات الى الامام او الى الوراء ما كانت لتخفف او تعدل موقف القطعات لأن تلك الهجمات والملاحم ما كانت لتحدث الا اضراراً قليلة اذا قورنت باضرار القذائف والرصاص الذي كان يطير في منطقة القتال . كانت هذه هي التي تسبب الجراح والبتر والموت. ولا يكاد الجنود يجدون انفسهم خارج مرمى المقذوفات، حتى يبادر الرؤساء في المؤخرة بفضل الطاعــة ، الى اعادة تشكيلهم واعادة ارسالهم الى منطقة النار تلك حيث يودي الخوف من الموت بتلك الطاعة من جديد ويترك الجنود تحت رحمة غريزة الجماعات العمياء .

الفصل الرابع والثلاثون

مخاوف نابولنون

كان مراكز قيادات جنرالات نابوليون : دافو، ني، مورا ، قرب منطقة النار . بل انهم دخلوا تلك المنطقة اكثر من مرة وقادوا قطعات كثيرة العدد وطيعة . ولكن ، على عكس ماحدث دائماً في المعارك السابقة ، لم يتقدم احد ليعلن فرار العدو، فكانت تلك القطعات المنظمة افضل تنظيم، تعود من «هناك» مشتتة مروعة فيعيدون تنظيمها . لكن اعدادها كانت تنقص نقصاً يظهر للعين . وحوالي الظهر ارسل مورا الى الامبراطور مساعداً عسكرياً في طلب المدد .

وكان نابوليون جالساً عند سفح التل يشرب « البونش » عندما وصل مساعد مورا العسكري يؤكد ان الروسيين سيسحقون اذا تفضل جلالته بارسال فوج آخر الى المعركة .

قال نابوليون بلهجة صارمة وكأنه لم يفهم ماذا يريد ذلك الشاب الفتي الجميل الذي يشبه شعره الأسود الطويل العكف شعر سيده أن يقول :

- امدادات ؟

وكرر يخاطب نفسه : « امدادات ! كيف يحدث ان يطلبوا امدادات وهم الذين بين ايديهم نصف الجيش ويقتصر هجومهم على جناح بالغ الضعف لايكاد يكون محصنا ! »

ثم نطق بصوت مرتفع وبجفاء :

– قل لملك نابولي ان الظهر لم يحن بعد وانني لا أرى بوضوح بعد الوضع على رقعة الشطرنج . امض .

فأطلق المساعد العسكري الفتان ذو الشعر الطويل العكف زفرة عميقة ويده الى حافة عمرته ومضى خبباً من جديد الى المكان الذي كانوا يقتلون بعضهم البعض فيه .

ونهض نابوليون واستدعى كولنكور وبيرتيه وراح يتبادل معهم مواضيع غريبة تماماً عن سياق المعركة .

وبدأ الحديث يلذ للامبراطور حينما انتقلت عينـا بيرتييه فجأة الى جنرال تتبعه حاشيته ، جاء بأقصى سرعـة الجواد قاصدا التل . كان ذلك هو بيليار قفز من على جواده المغطى بالزبد وتقدم بخطى سريعة الى الامبراطور وراح يعرض عليه بصوت مرتفع جريء ضرورة ارسال الامدادات . كان يقسم بشرفه ان الروسيين ضائعون لامحالة اذا دخل فوج آخر المعركة .

هز نابوليون كتفيه واستمر في تمشيه دون ان يجيب فراح بيليار يتكلم بحمية الى جنرالات الحاشية الذين احاطوا به .

قال الامبراطور وهو يعود الى الجنرال :

– انك تحتد كثيراً يابليار ! ان من السهل ان يخطيء المرء في حميا الحركة اذهب وافحص الموقف وعد الي . .

لم يكد بيليار يختفي عن الابصار ، حتى وصل رسول آخر من نقطة اخرى من ساحة المعركة . قال نابوليون ساخطاً بلهجة الرجل الذي يرى العوائق تنبعث في طريقه باستمرار :

– حسنا ! ماذا هناك ؟

شرع المساعد العسكري يقول :

– ياصاحب الجلالة ، ان الأمير ..

فاعقب الامبراطور بحركة غاضبة :

– يطلب المدد ؟

فأشار الضابط برأسه ان نعم وراح يقدم تقريره . استدار الامبراطور ، لكنه لم يلبث ان عاد على اعقابه والتفت الى بيرتييه وقال « لذلك الفرخ الذي جعلته نسراً » كما أخذ يدعوه فيما بعد :

– لاريب انه يجب اعطاؤهم امدادات .. هيا ، من سنرسل ؟

فأجاب بيرتييه الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل الافواج والفيالق والألويه :

– لنرسل فوج كلاباريد ياصاحب الجلالة .

فأيده نابوليون بحركة من رأسه .

جرى المساعد العسكري نحو فوج كلاباريد وبعد دقائق ، شرع فوج الحرس الفتي ، الذي كان مقاماً احتياطاً وراء التل ، يتحرك ونابوليون ينظر بسكون في ذلك الاتجاه .

وفجأة قال لبيرتييه :

– كلا ، لااستطيع ارسال كلاباريد . ارسل فوج فريان .

وعلى الرغم من ان ارسال فوج فريان بدلاً من فوج كلاباريد لم يكن له أية ميزة أو فائدة ، وان ابدال فوج بآخر سبب ضياعاً حقيقياً للوقت ، فان هذا الأمر نفذ بكل دقة . لم ير نابوليون انه حينذاك كان يلعب حيال قطعاته دور الطبيب الذي تزيد أدويته من خطورة المرض ، وهو الدور الذي كان بارعاً في تمييزه ونقده عند الآخرين .

اختفى فوج فريان في الدخان كالافواج الاخرى . ومن نقاط مختلفة ، ظل المساعدون العسكريون يهرعون ليقولوا – وكأنهم وحدوا كلمتهم – الشيء

بعينه . كانوا جميعاً يطلبون الامدادات ويؤكدون ان الروسيين أبعد من ان يفكروا في التراجع ، يفتحون نيران جحيم تذوب فيه القطعات الفرنسية .

وظل نابوليون متفكراً على مقعده .

اقترب السيد دوبوسيه ، هاوي الاسفار الذي لم يأكل شيئاً منذ الصباح من جلالته وعرض عليه بكل احترام تناول الافطار . قال :

ـ آمل انني استطيع منذ الآن ان اقدم لجلالتكم تهاني بالنصر ...

فهز نابوليون رأسه نفياً . واعتبر السيد دوبوسيه ان تلك الاشارة تعني النصر وليس الطعام ، لذلك فقد سمح لنفسه ان يلاحظ بلهجة دعبة ومحترماً معاً أن ما من شيء في الدنيا يمكن ان يمنعنا عن تناول الطعام طالما نستطيع ان نتناوله .

قال الامبراطور فجأة بلهجة غاضبة :

ـ امضي عن ..

وادار له ظهره . فتهلل وجه السيد دوبوسيه بابتسامة ورعة تجمع بين العطف وخيبة الأمل والاعجاب ومضى بخطواته المنزلقة يلحق بالجنرالات الآخرين .

كان نابوليون يشعر باحساس اللاعب المجدود دائماً ، الذي يلقي بجنون معتمداً على حظه ، بكل ماله على المائدة وفجأة ، يرى بمزيد الألم انه على وشك ان يخسر لأنه افرط في حساب الشوط .

كانت قطعاته هي الاولى نفسها وجنرالاته انفسهم والتدابير المتخذة ذاتها وأمر المعركة ذاته والنداء القصير الحازم اياه . ثم انه نفسه لم يتبدل ، وهو يعرف ذلك تمام المعرفة . وهو يزعم لنفسه انه بات اكثر روية واختباراً من ذي قبل وان العدو لازال نفسه الذي كان في اوسترليتز وفريدلاند . فلماذا اذن تصبح ضربته الرهيبة المفاجئة عاجزة وكأنها بسحر ساحر ؟

لقد كانت وسائله الفنية التي طالما نجحت معه بمألوف العادة : تركيز المدفعية في نقطة واحدة ، اختراق الخطوط بواسطة الاحتياطي ، هجوم هؤلاء الرجال الحديديين العتيد الذين يشكلون فرق فرسانه ، كل هذه الوسائل استعملها دون ان يحصل على النصر . بينما الانباء نفسها تتعـاقب : جنرالات قتلى أو جرحى ، سرعة ارسال الامدادات ، تشتت القطعات ، استحالة هزم الروسيين .

من قبل ، كان يكفي الاستيلاء على مركزين أو ثلاثـة مراكز والنطق بجملتين أو ثلاث جمل حتى يرى المـاريشالات والمساعدون العسكريون يفدون مهللي الوجوه يعلنون النصر مع جيوش كاملة من الأسرى وباقات من الاعلام والشعارات العدوة والمدافع والصناديق على شكل اسلاب . وما كان على مورا الا ان يطلب اطلاق فرسانه حتى يغنم عربات النقل . هكذا جرت الامور في « لودي » ومـا رانجو وآركول وإيينا واوسترليتز وواجرام الخ .. الخ ... فما الذي وقع لجنوده اذن ؟

على الرغم من نبأ احتلال التحصينات ، فان نابوليون كان ان يرى الامور تسير على نهج مخالف تماماً لسير معاركه السابقة . وكان يرى ان من حوله من الرجال وكلهم خبروا الحروب ، يشعرون مثل شعوره . كانت الوجوه كلهـا حزينة والعيون تتحاشى لقاء نظراته باستثناء السيد دوبوسيه الذي بدا وحده غير مقدر لخطورة الموقف . وكان نابوليون لايجهل بحكم خبرته ، معنى قتال يستنفذ طيلة ثماني ساعات من الجهـد دون ان ينتزع المهاجم النصر . لقد كان أشبه بالهزيمة بالنسبه اليه ، فالميزان يميل بشكل يصبح معه اتفه حادث قميناً بضياعه هو وجيشه .

وعندما كان يستعرض هذه الحملة الغريبـة التي لم يحصل خلالها طيلة شهرين كاملين على نصر واحد ولم يغنم علماً واحداً أو مدفعاً واحداً ولا فصيلة من الجند ويتأمل هذه الوجوه المكتئبة في السر ويسمع تلك التقارير عن مقاومة العدو

العنيدة . كان يخيل اليه انـه فريسة لحلم مريع . طافت برأسه كل الحوادث العرضية التي يمكن ان تسبب ضياعـه : يهجم الروسيون على جناحه الأيسر ويخرقون خط الوسط فتأتي قذيفة تائهة تذهب به شخصياً . ان كل الاشياء ممكنة الوقوع . كان في معاركه السابقة لا يحسب الا امكانيات النجاح . أما الآن ، فقد بات ينتظر عدداً من الاحداث العارضة السيئة . نعم ، لقد كان ذلك يشبه الحلم المفزع : يحلم المرء بان آغاً يهاجمه ، فيشهر سلاحه ليضربه بـه بكل قواه لكنه يشعر بان يده تتدلى عاجزة كالخرقة ، فيعتصر قلبـه خوف من موت لا مفر منه .

ولقد أحدث نبأ مهاجمة الروسيين لجناحه الأيسر ، مثل ذلـك اللون من الروع في نفس نابوليون . فلبث متهالكاً فوق كرسي الميدان ورأسه بين يديه اقترب بيرتييه منه وعرض عليـه الطواف بالخطوط لتكوين رأي صحيح عن الموقف . فأجابه :

ـ ماذا؟ ماذا تقول ؟ .. نعم ، مر لي بحصان .

اعتلوا صهوة جواده ومضى نحو سيميونوفسكوي .

على طول الطريق التي مر بها ، وسط الدخـان الذي كان ينقشع ببطء ، كانت جثث الرجال والخيول ملقاة سابحة في برك الدم ، منفردة أو مجتمعة حتى ان نابوليون وملازميه لم يروا قط من قبل مثل ذلك الهول ولا ذلك العدد من الجثث المجتمعة على رقعة بمثل تلك المساحة الضيقة . وكان دوي المدافع الذي لم يتوقف منذ عشر ساعات كاملة ولم يفتأ يصفع صحناء الاذن ، يزيل جلال المشهد كما تبرز الموسيقى قيمة الصور الحية .

ولما بلغ مستوى سيميونوفسكوي ، شاهـد نابوليون خلال الدخان ، صفوفاً كاملة من الجنود مرتـــدين ازياء لم تكن الوانها اليفة لديه . انهم الجنود الروس .

كان هؤلاء متركزين وراء القرية والمرتفع وقاذفاتهم تطلق النار دون تمهل وتملأ خطهم كله بالدخان . لم يعد هناك قتـال بالمعنى المفهوم ، والجزرة الدائرة لايمكن ان تعود بفائدة على الروسيين ولا على الفرنسيين . فاوقف الامبراطور حصانه وعاد يستسلم الى التفكير حتى أخرجه بيرتييه منـه . وهو يبدو وكأنه من صنعه لأنه مسؤول عنه . فبدا له للمرة الاولى مريعاً عديم النفع بسبب عدم نجاحه ولا ريب .

عرض عليه احد الجنرالات الذين برفقتـه ان يأمر باطلاق الحرس القديم . فتبادل « ني » وبيرتييه النظر وطـــافت على شفاههما ابتسامة ازدراء لهذا العرض الأهوج .

واطرق نابوليون برأسه وظل طويلًا لايتكلم وأخيراً قال :

— لن أهدم « حرسي » على بعد ثمانمائة ميل من فرنسا .

ولوى عنان جواده وعاد الى شيفاردينو .

★ ★ ★

الفصل الخامس والثلاثون

السيد العجوز

لم يبرح كوتوزوف المقعد المغطى بالنجد الذي شاهده بيير جالساً عليه صباحاً متهاوياً على نفسه بكل ثقل جسمه محنياً رأسه الأشيب . لم يكن يتخذ تدبيراً معيناً بل يكتفي باعطاء موافقته على ما يعرض عليه أو حجبها عنه .

كان يجيب : « نعم ، نعم ، افعل هذا » ويقول لهذا أو ذاك من خلصائه : « نعم ، نعم ، اذهب ياعزيزي ، اذهب لنرى » أو يعلن : « كلا ، لا فائدة ، الانتظار أفضل . » ويصغي الى التقارير التي تنقل اليه ويعطي الأوامر متى طلبت منه . لكنه كان يبدو أشد اهتماماً بالانطباعات البادية على الوجوه واللهجات التي ينقل بها العسكريون تقاريرهم من اهتمامه بمدلول الكلمات نفسها . وكانت خبرته الطويلة في الحروب وحكمته ككهل تعلمانه ان رجلاً واحداً لا يمكنه ادارة مئات الالوف من الآخرين الذين يناضلون ضد الموت . وكان عارفاً ان ما يقرر مصير المعارك ليست التدابير المتخذة من قبل الجنرال القائد الاعلى ولا الموقع الذي تحتله القطعات ولا عدد المدافع والقتلى بل تلك القوة الخفية التي تسمى معنوية الجنود . لذلك فقد راح يراقب تلك المعنوية ويحاول قدر طاقته ان يوجهها . كانت قسمات وجهه تنطق بانتباه دائم هادىء وجهد يتغلب على تعب جسم هدّه الكبر .

في الساعة الحادية عشرة ، جاؤوا يعلمونه ان التحصينات التي احتلها الفرنسيون

قد استعيدت الآن ولكن الأمير باجراسيون جرح . فندت عن كوتوزوف صيحة تعجب وهز رأسه ثم أمر واحداً من مساعديه العسكريين :

– امض لزيارة الأمير بيوتر ايفانوفيتش واستعلم تفصيلاً عن حاله .

ثم استدار الى الأمير دو وورتمبيرج الذي كان واقفاً وراءه وقال له :

– تفضل سموك بالاضطلاع بقيادة الجيش الثاني ؟

ولم يمض وقت طويل على ذهاب الأمير ، بل وقبل ان يبلغ سيميونوفسكوي عاد المساعد العسكري يعلن لعظيم الرفعة انه يطلب امدادات .

فقطب كوتوزوف حاجبيه وأرسل من فوره الأمر الى دوختوروف ان يتولج قيادة الجيش الثاني زاعماً انه بعد ان أمعن التفكير ، وجد أنه لايستطيع الاستغناء عن الأمير في مثل هـذه المناسبات الخطيرة وأمر ان ينقل اليه رجاء العودة الى جانبه .

ولما انهوا اليه ان مورا وقع في الأسر ، طـافت على شفتيه ابتسامة عندما راح أعضاء اركان حربه يقدمون اليه تهانيهم وقال :

– ليس بهذه السرعة ايها السادة . لاشيء خـارق في ان نربح المعركة وان يسقط مورا في الأسر . ولكن من الافضل ان ننتظر قبل ان نبتهج .

مع ذلك ، فقد أرسل مساعداً عسكرياً لينشر هذا النبأ بين الصفوف .

وعندما هرع شتشربينين من الجناح الأيسر يعلمـه ان الفرنسيين احتلوا التحصينات وسيميونوفسكوي كذلك ، خمن من امارات وجهه ومن الضجيج الذي كان يتناهى من ساحة المعركة الى اسماعه ان الامور لاتسير على مايرام . فنهض وكأنه أراد ان يحرك ساقيه قليلاً وأمسك بـذراع الضابط ثم انتحى به جانباً ليصغى الى تقريره .

قال لأيرمولوف :

- اذهب ياعزيزي . انظر ما اذا كان يمكن عمل شيء .

كان كوتوزوف في جوركي ، في وسط الموقع الروسي تماماً . ولقد صد الهجوم الذي قام به نابوليون مراراً على جناحنا الايسر . اما في الوسط ، فان الفرنسيين لم يتجاوزوا بوروديتو بينما هزم فرسان اوفاروف العدو في الجناح الايسر .

توقفت الهجمات الفرنسيه حوالي الساعة الثالثة . واستطاع كوتوزوف ان يقرأ على وجوه الجنود العائدين من الميدان ووجوه الذين من حوله ، هيجاناً يبلغ اقصى المراحل . وكان راضياً عن نهارٍ جاء بنتائج فاقت ما كان يتوقع . لكن القوة الجسدية كانت تخون ذلك الكهل . ولقد سقط رأسه على صدره بل ووقع له مرة ان نام . قدموا له العشاء .

وبينما هو يأ كل ، شوهد فولزوجن ، المساعد العسكري لجلالته ، ذلك الذي أعلن بينما كان يمر بالقرب من آندريه ان الحرب يجب ان تمتد وان باجراسيون لا يمكنه الاحتمال ، يصل من لدن باركلي ، ليرفع تقريره عن الموقف في الجناح الأيسر . لقد قدر باركلي دوتوللي الحصيف ، ازاء تزايد عدد الجرحى وفوضى المؤخرة ، بعد ان امعن النظر في كل الاحتمالات ، ان المعركة قد خسرت ، فارسل تبعاً لذلك صفيه بسرعة يحمل النبأ الى القائد العام .

حدق كوتوزوف بعينيه الصغيرتين الناريتين في وجه فولزوجن وهو يمضغ قطعة الدجاج المشوي بصعوبة بينما اقترب بخطى متكاسلة وانحنى محيياً وابتسامة مطاوعة تعلو شفتيه .

كان فولزوجن يعامل القائد الأعلى بتكلف مشوب بقلة الحياء وكأنه يقول : للروسيين ملء الحرية في ان يجعلوا من الهرم الفاني معبوداً لهم ، لكن عسكرياً من طرازه هو ، يعرف كيف يتصرف . حدث نفسه وهو يلقي نظرة ساخرة

على الاطباق الموضوعة أمام كوتوزوف : « ان السيد العجوز ـ وهكذا كان الألمان يسمونه فيما بينهم ـ يرفه نفسه » . وشرع يعرض على « السيد العجوز » الموقف في الجناح الأيسر كما قدره باركلي وكما لمسه هو بنفسه .

ـ ان كل نقاط مراكزنا باتت بين ايدي العدو دون ان نستطيع له صداً نظراً لحاجتنا الى الجنود وجنودنا يفرون ويستحيل علينا ايقافهم .

توقف كوتوزوف عن المضغ وراح يحملق في فولزوجن وكأنه لا يفقه ما يقوله . ولدى رؤيته انفعال « السيد العجوز » قال له المساعد العسكري :

ـ لقد اعتبرت انه ليس من حقي ان أخفي على سموك ما رأيت . ان القطعات في فوضى عامة ..

صاح كوتوزوف الذي نهض فجأة ومشى نحو فولزوجن :

ـ هل رأيت ذلك ؟ هل رأيت ذلك ؟ ..

كان الغضب يكاد ان يخنقه وهو يهدده بيديه المرتعدتين :

ـ ألي أنا ، تبلغ بك الجراءة لتقول ما تقول ؟.. انك لا تعرف شيئاً من شيء ياسيدي . قل للجنرال باركلي عن لساني ان معلوماته خاطئة واني بصفتي قائداً أعلى ، اعرف أفضل مما يعرف ، سير المعركة .

همّ فولزوجن ان يجيب لكن كوتوزوف قاطعه :

ـ لقد صُد العدو على الجناح الأيسر وهزم على جناح الأيمن . فاذا كنت اسأت النظر ياسيدي فان هذا لا يجيزلك ان تروي ماأنت جاهله . تفضل بالذهاب الى الجنرال باركلي وانقل له رغبتي في مهاجمة العدو غداً دون تغيير .

لزم الجميع الصمت فلم يسمع الا صوت تنفس الجنرال العجوز اللاهث .

استرسل كوتوزوف يقول وهو يرسم شارة الصليب على صدره بينما طفرت الدموع من مقلتيه :

– لقد صدوا في كل النقاط شكر الله وجنودنا البواسل. لقد هزم العدو وغداً سنطرده من أرض روسيا المقدسة .

هز فولزوجن كتفيه وابتعـــد وهو يدل بسخريته على مايراه في كفاءة الرجل العجوز .

قال كوتوزوف وهو يشير الى فتى جميل الطلعة متين البنيان ذي شعر فاحم وصل في تلك اللحظة فوق التل :

– وانظر ها هو بطلي .

كان القادم هو الجنرال رايفسكي الذي لم يغادر طيلة النهار النقطة الحساسة في المعركة . أعلن ان القطعات لاتزال صامدة وان الفرنسيين لم تعد لديهم الجرءة على مهاجمتهم .

ولما سمعه كوتوزوف يتحدث على هذا النحو ، قال له بالفرنسية :

– ألا تظن كالآخرين اذن انه يجب علينا ان ننسحب ؟

– على العكس ياصاحب السمو . ان الأكثر عنـاداً هو الذي ينتصر في المواقف المتأرجحة . ومن رأيي ..

نادى كوتوزوف :

– كائيسا روف ! اجلس هنـا واكتب الأمر اليومي لنهار الغد . وانت – واشار الى مساعـــد عسكري آخر – امض للطواف بالصفوف واعلن اننا سننتقل الى الهجوم غداً .

وفي تلك الاثنـاء ، أعلن فولزوجن الذي أرسله باركلي للمرة الثانية ، ان جنراله يرغب في الحصول على تأييد خطي للأمر الذي أعطاه الماريشال .

ودون ان يشرفه كوتوزوف بنظره ، أمر بكتابـة ذلك الأمر ليرفع المسؤولية عن القائد الاعلى السابق الحصيف بناء على اصراره .

وبفضل ذلك الرباط الغامض الذي لا يوصف الذي يبقي الجيش كله على حالة فكرية واحدة ، تلك الحالة الفكرية التي يدعونها معنويات الجيش والتي تشكل عصب الحرب ، فان أقوال كوتوزوف وأمره اليومي الذي يعلن فيه الهجوم في اليوم التالي ، انتشرت لفورها من طرف الى آخر بين قطعاتنا .

ولا ريب ان عبارات امره اليومي نفسها ليست هي التي بلغت الحلقات الأخيرة من تلك السلسلة . بل انه لم يكن هناك شيء مما قال في الاقاصيص التي تنوقلت من واحد الى آخر . لكن معاني كلماته كانت تنتقل من قريب الى قريب لأنها ما كانت تعكس ترتيبات خداعة مموهة بل المشاعر العميقة التي تعتلج في نفس الجنرال القائد الأعلى كما تعتلج في نفس كل روسي .

ولما علموا اننا سنهاجمهم غداً وشعروا بتأييد ما كانوا يرغبونه من جانب القيادة العليا ، استعاد أولئك الرجال المنهوكون المترددون ثقتهم .

★ ★ ★

الفَصْلُ ٱلسَّادِسُ وَٱلثَّلاثُونَ

جرح الامير آندرية

ظل فيلق الأمير آندريه تابعاً للاحتياطي الذي ظل بعيداً عن دائرة الحركة حتى الساعة الثانيه وراء سيميونوفسكوي تحت نار حامية من المدفعية. وفي ذلك الحين ، سيرُ الفيلق الذي فقد حوالي مائتي رجل ، الى الامام عبر حقل من الخرطال وطأته الأقدام حتى الفراغ الذي يفصل بين قرية بورودينو و« بطارية» التل. وكان ذلك الفراغ من الارض هو المكان الذي سقط فيه اثناء النهار ألوف من الرجال والذي اصبح حوالي الساعة الثانية على الضبط نقطة التقاء لنار حامية اخذت بضع مئات من مدافع العدو تصبها عليه .

فقد الفيلق هنا ، دون ان يغادر مكانه او يطلق رصاصة واحدة ، ثلث عدده. لقد كانت المدافع الى الامام وبصور خاصة على اليمين تقصف وسط دخان كثيف ومن منطقة الدخان الغامضة تلك ، راحت القذائف والقنابل تصل دون انقطاع بواكبها صفير قصير أو طويل. وكانت المقذوفات احياناً تتجاوز الهدف طيلة ربع ساعة وكأنها تتيح فترة استراحة ولكن احياناً كان عدد كبير من الرجال يصاب في غضون دقيقة واحدة ولا يكف العاملون عن نقل الجرحى والجثث .

ولدى كل صدمة جديدة كانت امكانيات البقاء على قيد الحياة تتضاءل بالنسبة الى الذين لم يقتلوا بعد ولقد انتشر الفيلق على شكل ألوية تفصل بين كل واحد

منهاثلاثمائةخطوة . لكن الصمت نفسه والفتور نفسه كانا يخيمان عليها كلها . واذا تبودلت بعض الاحاديث النادرة ، فانها سرعان ما كانت تتوقف كلما سقط مقذوف وعلت بعده صيحة : «محفات!» ولقد لبث الجنود معظم الوقت تبعاً لاوامر الرؤساء جالسين على الارض. فكان هذا يرفع عمرته ويحرك السير الجلدي المحيط بها بوفق ، وذاك ينظف حربته بالصلصال الجاف الذي يحيله دقيقاً بين يديه وثالث يسوي تجهيزاته ويعيد شدها ورابع يحل الأشرطة الكتانية التي يستعملها بدلاً من الجوارب ثم يعيد لفها من جديد حول ساقيه ويضع حذاءه في قدميه بهدوء . وكان البعض يبنون بيوتاً صغيرة من الحصى التي يلتقطونها من الأخاديد أو يضفرون الحصر مستعملين قش اللقاط ويبدون جميعهم منهمكين في انشغالاتهم. وعندما يقع القتلى او الجرحى في صفوفهم ويقوم رجال النقالات بعملهم ، وعندما يتراجع رجالنا أو تُرى خلال سحب الدخان تشكيلات العدو المتراصة، ما كان احد يعير ذلك التفاتا . وبالمقابل ، ما ان تشرع مدفعيتنا او يبدأ فرساننا في التقدم او مشاتنا في السير ، حتى ترتفع صيحات التشجيع من كل مكان . لكن الانتباه العام كان عالقاً بصورة خاصة ببعض الحوادث العارضة التي لاعلاقة لها قط بسياق المعركة حتى ليقال ان انتباه هؤلاء الرجال الضعفاء معنوياً يرتكز في احداث الحياة اليومية المألوفة . جاءت « بطارية » فمرت امام جبهة القطعات ، ولما مرت الصناديق ، شوهد احد خيول النقل وقد اشتبكت قائمته بالجرة . « ايه ! هناك ، ايها الحمال ! . . سوّ هذا والافسيتعثر . . ايه ! ماذا بهم ، انهم ولاشك عميان ! . » واجتاحت صيحات التعجب تلك كل الفيلق . ومرة ثانية اجتُذبت الانظار كلها الى كلب صغير يميل لونه الى الاصفرار ، خرج- والله يعلم من أين - مشرع الذيل . الا انه لم يلبث اثر سقوط قذيفة بالقرب منه ان اطلق نباحاً متوجعاً ولاذ بالفرار وهو يضم ذيله ، فانفجر الفيلق كله ضاحكا . لكن تلك

الألهيات ما كانت تدوم الا لحظة في حين انه مضى اكثر من ثماني ساعات على هؤلاء الرجال الجياع وهم في اماكنهم تحت الرعب الدائم من الموت ووجوههم الممتقعة العابسة تزداد شحوباً وانقباضاً.

وكان الأمير آندريه ، ممتقع الوجه هو الآخر مقطب الحاجبين ، يروح ويجيء في مرج مجاور لحقل الخرطال مطرق الرأس ويداه وراء ظهره ، عاطلاً ليس لديه ما يعمله أو يصدره من أوامر . لقد كان كل شيء يعمل من تلقاء نفسه كانوا يحملون القتلى الى المؤخرة وينقلون الجرحى والصفوف تعود الى التشكل ، واولئك الذين هموا بالفرار ، لا يلبثون حتى يعودوا . ولقد قدر في البداية ان من واجبه بعث الشجاعة في نفوس رجاله باعطائهم مثلاً حياً بمروره بين صفوفهم لكنه ما لبث ان أدرك انه عناء باطل . فلقد كانت كل قواه الروحية ، كما كان حال كل واحد من جنوده ، لا تميل لاشعورياً الا الى تجاهل هول الموقف الذي هم فيه جميعاً فكان اذن يروح ويجيء في المرج ، يجر قدميه ، فيطأ العشب ويتأمل الحشائش التي تغطيها حذاءيه . وكان تارة يوسع خطاه محاولاً وضع قدميه فوق الآثار التي خلفها الحصادون وطوراً يحصي خطواته ويحسب عدد المرات التي سينتقل فيها من اخدود الى آخر حتى يقطع ربع ميل أو ينتزع نبات الارطماسية الذي ينبت على التخوم فيسحقه بين يديه ويستنشق رائحته القوية المرة . اما فكره الذي كان شديد الفاعلية بالأمس ، فقد بدا أشبه بالمتخدر . كان يصيخ الى تلك الضوضاء المتشابهة ابداً باذن مكدودة : زمجرة المقذوفات عند اندفاعها ، صفيرها عند وصولها ، ويلقي بين الحين والآخر نظرة الى وجوه الرجال التي ألفها منذ بعيد ، رجال اللواء الأول وينتظر . حدث نفسه وهو يسمع صفيراً مشؤوماً في منطقة الدخان : «هاهي ذي واحدة .. موجهة الينا أيضاً ! واحد .. اثنان .. لاريب ان هذه لنا .. » ثم يقاطع نفسه ليلقي نظرة على الصفوف . « كلا لقد

تجاوزتنا .. ولكن حذار من التالية ..» ثم يعود الى تسياره يطاول خطاه ليبلغ التخوم في ست عشرة خطوة . وفجأة ، ارتفع صفير وصدمة ! وعلى قيد خمس خطوات منه ، انغرزت قذيفة في الارض الجافة فنثرت التراب في كل الاتجاهات. عاد نحو جنوده من جديد . لاريب ان اصابات كثيرة حدثت بينهم اذ شاهد غوغاء في اللواء الثاني .

هتف يأمر ضابطه التابع :

ـ امنعهم من تشكيل جماعات .

فنفذ هذا الأمر واقترب من الأمير آندريه بيناجاء من الجانب الآخر قائد اللواء على صهوة جواده . صرخ صوت مروع :

ـ حاذر !

وكالعصفور الصغير الذي يرفرف وهو يردد صفيره ، جاءت قنبلة فحطت على الارض بهدوء على بعد خطوتين من آندريه قرب قائد اللواء تماماً . ولقد صهل الجواد دون ان يأبه بما اذا كان من المستحسن خوفه أو الاحتفاظ به ، وانتصب على خلفيتيه وقفز جانباً فكاد ان يسقط الماجور . ولقد انتقل الرعب من الحيوان الى الرجال .

قال صوت الضابط التابع الذي استلقى على الارض :

ـ الق بنفسك على الارض !

لكن الأمير آندريه ظل واقفاً متردداً . وكانت القنبلة التي لازال الدخان يتصاعد منها ، تدور كاليرمع بينه وبين الضابط عند الحد بين المرج والحقل ، قرب دغل من نبات الارطماسية .

فكر وهو يعانق العشب وسوق الارطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكرة السوداء المتحركة بنظرة جديدة ، نظرة مفعمة بالرغبة : « أهو الموت ؟

لا أستطيع الموت ولا اريد ان أموت . انني أحب الحياة ، أحب هذا العشب وهذه الارض والهواء الذي أستنشقه .. » وبينما هو يحدث نفسه بذلك ، تذكر انهم ينظرون اليه فقال للضابط التابع :

ـ الا تخجل ياسيدي ؟ أي ..

لكنه لم يستطع ان يعقب قوله . دوّى الانفجار مصحوباً بصوت قريب من انصفاق الزجاج المحطم ورائحة بارود كريهة . القي الأمير جانباً فرفع ذراعاً في الهواء وهوى ووجهه الى الارض .

هرع بعض الضباط وانسابت على العشب من جنبه الأيمن بركة عريضة من الدم .

توقف المتطوعون الذين استدعوا بنقالتهم وراء الضباط . وكان الأمير الممدود على بطنه ووجهه مدفون في الاعشاب يفوق فواقاً قوياً .

ـ حسناً ! ماذا تنتظرون ؟ اقتربوا .

حمل القرويون الأمير آندريه من كتفيه وساقيه . ولكنهم عادوا فأسجوه على الارض بعد ان تبادلوا نظرة اثر اطلاقه أنات اليمة . صاح صوت :

ـ احملوه ، ضعوه على المحفة !

فحملوه من كتفيه وأسجوه على النقالة . وهتف عدد كبير من الضباط مروعين :

ـ آه ! يارب ، يارب ! هل هذا ممكن ؟ . في البطن ! انها الموت ... آه ! ياربي !

وشرح الضابط التابع قائلاً :

ـ لقد مست اذني .

حمل القرويون المحفة على اكتافهم وهرعوا متعجلين الى عربة الاسعاف عن

طريق يمشي فتحوه بكثرة غدواتهم ورواحهم . ولما كانت مشيتهم غير المنظمة تهز المحفة ، فقد استوقفهم ضابط من كتفهم وقال :

- سيروا بخطى عادية اذا أردتم ! عصبة الغلاظ !

وقال الذي في المقدمة :

- اقتد بخطوتي يافيدور ، سمعت !

فاجاب الذي في المؤخرة بدعة وهو يبدل خطوته :

- هه ، ها أنذا قد اقتديت .

وقال تيموخين بصوت متهدج وهو يجري صوب المحفة :

- ياصاحب السعادة ! هي ! ياأمير !

ففتح الأمير آندريه عينيه ومن فوق المحفة حيث كان رأسه يتأرجح ، القى نظرة على المتكلم ثم أغمض عينيه .

نقل المتطوعون الأمير آندريه الى الغابـة التي انتشرت فيها عربات النقل والمستشفى . وكان هذا مؤلفاً من ثلاث خيام منصوبة مفتوحة قليلاً على تخوم غابة من السندر . أما العربات والجياد فكانت في الغابة . وكانت الحيوانات تأكل علفها في اكياسها والعصافير ترفرف حولها لتلتقط الحبوب الضائعة . والغربان التي شمت رائحة الدم ، تنعب بنفاذ صبر . وحول الخيام ، على مساحة هيكتارين ونصف من الارض ، جلس أو استلقى أو وقف رجال يغطيهم الدم في ازياء متباينة مختلفة ، وبالقرب منهم ، وقفت جماعـة من حاملي المحفات بوجوههم الكئيبة المتطلعة ، كان ضباط النظام يبذلون مـا في وسعهم لأبعادهم . فكان اولئك الجنود يصممون على البقاء هنـاك متكئين على محفاتهم شاخصين بأبصارهم الى المشهد الذي يدور تحت انظارهم وكأنهم يحـاولون جاهدين ادراك مدلوله الأليم . ومن الخيام كانت صيحات وحشيـة تتناوب مع أنات اليمة شاكية ،

تتصاعد من هناك ومن حين الى آخر، يرى عدد من المرضين يخرجون راكضين ليحملوا الماء وليشيروا أثناء ذلـك الى الذين ازف دورهم في الدخول . وعند المدخل ، كان الجرحى يحشرجون ويصرخون ويبكون ويشتمون ويطلبون جرعات من العرق . وكان بعضهم في النزع . ولقـد حمل الأمير آندريه بوصفه قائد فيلق ، بين صفوف من الجرحى الذين لم تضمد جراحهم بعد ان كانوا قرب احدى الخيام وهناك ، توقف حاملوه بانتظار الاوامر . فتح عينيـه وظل فترة طويلة لايدري ماذا وقع له . المرج ، الارطماسية ، حقل الخرطـال ، الكتلة السوداء الدائرة ، حبه العنيف المفاجىء للحياة ، كل هذه الاشياء عادت فجأة الى ذاكرته . وعلى قيد خطوتين منه ، وقف صف ضابط جميل عملاق أسود الشعر مرتفع الصوت ، مستنداً الى لوح من الخشب . كان مصاباً برصاصات في رأسه وساقيه وقد لف بالضمادات وكان الجرحى وحملة المحفـــات يصغون اليه وهو يحاضر فيهم .

كان الضابط يصيح وعيناه الملتهبتان تلقيان حوله نظرات متباهية :

– عندما أجليناهم من هناك ، انسحبوا دون أية مقاومة بالطبع حتى ولو اننا أمسكنا بملكهم نفسه لما فعلوا . ولو ان فرق الاحتياطي أطبقت في اللحظة المناسبة ، اذن يافتياني ، لما ظل أحد منهم حياً . صدقوا ما أقول لكم .

وككل أفراد الدائرة ، راح الأمير آندريه يتأمل المتحدث وفي عينيه بريق وهو يشعر بالعزاء . قال لنفسه : « بعد كل شيء ، ماذا يهمني ما سيحدث هناك وما حدث هنا ؟ ومن أين لي كل هذا العناء في مغادرة هذه الحياة ؟ هل في هذه الحياة شيء ما لم افهمه ، شيء لازلت غير فاهم له ؟ »

الفصل السابع والثلاثون

لقاء الغريمين

خرج واحد من الاطباء من الخيمة وهو يمسك بتصرف - بين الابهام والخنصر - بسيجار كان يخشى ان يوسخه لأن يديه الصغيرتين كانتا كمئزرة ، متسختين بالدم رفع رأسه وترك نظرته تتيه بين الجرحى . لاريب انه كان يريد استنشاق الهواء قليلاً . وبعد ان استدار يميناً ويساراً ، أطلق زفرة وعاد ببصره الى الارض .

اجاب ممرض دله على الأمير آندريه :

– نعم ، فوراً .

وأصدر امره بادخاله فارتفعت غمغمة بين الجرحى الذين كانوا ينتظرون .

قال أحدهم :

- يبدو انه في العالم الآخر كذلك لاتوجد امكنة الا « للسادة » كذلك .

مددوا الأمير آندريه على مائدة كانت شاغرة وقد فرغ ممرض لتوه من تنظيفها ، فلم يستطع آندريه ان يميز بوضوح ما كان موجوداً داخل الخيمة لأن الصيحات المعولة التي كانت ترتفع من كل مكان والألم المحرق الذي كان يشعر به في جنبه وبطنه وظهره تشغله تماماً . ولقد اختلط المشهد الذي عرض لعينيه في شعور أوحد باللحم البشري العاري الدامي الذي يبدو كأنه يملأ تلك الخيمة المنخفضة ، كما كان ذلك اللحم نفسه منذ أسابيع خلت ، يملأ البركة الموحلة في ذلك النهار القائظ من شهر آب على طريق سمولنسك . نعم ، كان ذلك اللحم نفسه

لحم المدفع ، الذي اثارت رؤيته في نفسه الاشمئزار و كأنه يرى سلفا هذا اليوم .

تركوه وحيداً بضع لحظات فاستطاع برغمه ، ان يرى مـاذا يدور على الطاولتين الاخريين . جلس على الطاولة الاقرب اليه تتري ، لاريب انه قوقازي اذا حكمنا على البزتة الملقاة بجانبه . وكان أربعة من الجنود يحاولون تثبيته في مكانه ، بينما راح طبيب يعمل مبضعه في ظهره الأسمر العاضل .

غمغم التتري فجأة :

ـ اوه ! اوه ! اوه !

ورفع وجهه القلزي ذا الانف الافطس والخـدين البارزين وصرف باسنانه البيضاء وراح يتخبط ويطلق صرخات طويلة .

وعلى الطاولة الثانية التي كان يحيط بها جمع من الاشخاص ، أسجي رجل على ظهره ، قوي طويل القامة مائل الرأس الى الوراء . لكن مظهره العام حتى لون شعره العكف لم يكن مجهولاً من الأمير آندريه . وكان عـدد من الممرضين يميلون بكل ثقلهم على صدر ذلك الرجل ويمسكون به . وكانت احدى ساقيه بيضاء وسمينة تضطرب دون توقف بانتفاضات محمومة ، والرجل يطلق شهقات تشنجية ويكاد يختنق ، بينما انحنى على الساق الاخرى ، المصبوغـة كلها بالدم ، طبيبان صامتان احدهما ممتقع الوجه مرتعد .

في تلك الاثناء كانوا يغطون التتري بمعطفه فراح الطبيب ذو النظارتين يقترب من الأمير آندريه وهو يمسح يديه بعد ان فرغ من عمله . تفحصه بنظرة ثم التفت فجأة وصاح بصوت ساخط يخاطب الممرضين :

ـ اخلعوا ثيابه ! ماذا تنتظرون ؟

وعندما شرع أحد هؤلاء يحل أزرار آندريه وينزع عنه ثيابه بعجلة وقد شمر عن ساعديه ، تذكر هذا ايام طفولته الاولى البعيدة . انحنى الماجور على الجرح

فلمسه وبعث زفرة عميقة ثم أشار الى أحدهم . ولقد أفقد الألم الفظيع الذي شعر به آندريه في بطنه ، أفقده الرشد . فلما عاد الى وعيه ، كانت شظايا عظم الفخذ المحطمة قد انتزعت وقطع من اللحم قد قُطعت والجراح قد ضمدت . وضمخوا له وجهه فلما فتح عينيه ، انحنى الطبيب فوقه وقبله في شفتيه دون ان ينطق بكلمة وابتعد مسرعاً .

شعر آندريه ، بعد كل تلك الآلام ، براحة لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل . ولقد خطرت بباله افضل لحظات حياته وبصورة خاصة ، طفولته الاولى ، عندما كانوا يخلعون ثيابه ويسجونه في سريره الصغير ، وتشرع مربيته في هدهدته بالاغنيات ، فيغيب رأسه في الوسادة ويشعر بسعادة الاحساس بالحياة ، هذه اللحظات ، خطرت بباله ليس بوضعها من حنايا الماضي بل كحقيقية واقعة .

كان الاطباء لا زالوا يحيطون بذلك الجريح الذي لم يكن مظهره غريباً عن بولكونسكي . كانوا يرفعونه ويحاولون تهدئته .

كان يزمجر بصوت يقطعه الشهيق وكأن الآلام قد هدته :

— أرونيها ! . . اوه ! اوه ! اوه !

ولقد خيل الى آندريه وهو يصغي الى ذلك الانين انه على استعداد للبكاء ايضاً . فهل ترى السبب انه يموت هكذا دون مجد ؟ ام لأنه يأسف على الحياة أم لأن ذكريات الطفولة تلك ترقق قلبه ؟ هل السبب انه يتألم وان الآخرين يتألمون وان ذلك التعس يئن بهذا الشكل الأليم ؟ على اية حال ، كان يشعر بحنين الى ان يذرف دموعاً سخية ، دموع الطفولة بل دموع الفرح تقريباً .

عرضوا على انظار الجريح ساقه المبتورة التي تجمد الدم عليها في الحذاء الذي ما زال يكسوها . فأجهش كإمرأه :

— اوه ! اوه ! اوه !

ابتعد الطبيب فكشف بذلك عن وجه الجريح . فحدث الأمير آندريه نفسه .

- اوه ! رباه ! ماذا حدث ؟ ماذا يعمل هنا ؟

ذلك انه تعرف في شخص ذلك التاعس المنشج المنهوك الذي فرغوا للتو من بتر ساقـــه ، على اناتول كوراجين . أسندوا اناتول وقدموا له قدح ماء ما كان يستطيع الاطباق على حافته بشفتيه المتورمتين المرتعشتين . وكان ينتحب بشكل يمزق نياط القلوب . حدث الأمير آندريه نفسه دون ان يستوعب تماماً مايدور امام عينيه : « نعم ، هذا هو . نعم ، ان هذا الرجل المتصل بي بشكل حميم أليم . ولكن ماهي الروابط التي تربط هذا الرجل بطفولتي؟» راح يتساءل ويسعى عبثاً لايجاد الجواب . وفجأة ، برز من ذلك العالم الطفولي المليء بالطهر والحب ، وجه جديد انبعث في ذاكرته . عاد يرى ناتاشا كما بدت له للمرة الاولى في حفلة عام ١٨١٠ الراقصه ، بعنقها وذراعيها النحيلين ووجهها الفزع السعيد المتقبل للحماس ، فانبعث حبه لها وحنانه بأعنف مما عرف واقوى مما أحس من قبل واستيقظا في اعماقه . وحينئذ تذكر الرباط الذي يجمعه بهذا الرجل الذي يوجه اليه نظرته المحجوبة بالدموع . تذكر كل شيء ، فملأ قلبه السعيد عطف عميق وحب كلف .

لم يستطع ان يتجلد أكثر مما فعل ، فذرف دموع تحنان على الرجال وعلى نفسه ، على غواياتهم وغواياته .

« نعم ، الشفقة ، الحب نحو اخواننا ، نحو اولئك الذين يحبوننا ، والحب نحو اولئك الذين يكرهوننا ، حب اعدائنا ، نعم ، هذا الحب الذي جاء الله يبشر به على الارض والذي سعت الأميرة ماري ان تلقنني اياه والذي لم اكن افهمه . هذا الحب هو الذي يجعلني آسف للحياة . هذا هو الشيء الوحيد الذي كان سيبقى لي لو قدر لي ان اعيش . اما الآن ، فقد فات الوقت وللأسف ! »

الفصل الثامن والثلاثون

آراء نابوليون

احدث مظهر ساحة المعركة الرهيب المغطى بالجثث والمائتين والتثاقل الذي أحسه في رأسه ونبأ قتل حوالي عشرين من جنرالاته أو جعلهم خارج المعركة والاعتراف الذي توجب عليه الاسرار به لنفسه بعجز ذراعه التي كانت حتى اليوم لاتقهر ، كل هذه الامور احدثت في نابوليون تأثيراً غير منتظر . كان من عادته حب رؤية القتلى والجرحى وهو المشهد الذي يزيد في قوة روحه كما كان يعتقد . لكن ذلك المشهد هزم ذلك اليوم قوة الروح العتيدة هذه التي كان يبني عليها عظمته وأهليته . عاد مسرعاً الى حصن شيفاردينو ولونه اصفر ووجهه منتفخ وعيناه كدرتان وانفه احمر وصوته صدىء وظل جالساً على مقعده مطرقاً بنظره ، مصغياً رغم ارادته الى ضجيج المعركة . كان ينتظر بصبر محموم نهاية تلك المسألة التي يظن انه ساهم فيها والتي ليس له سلطان على ايقافها . استولى عليه لبضع لحظات شعور انساني شخصي تغلب على ذلك السراب الذي ضحى من اجله بتضحيات جمة . وعزا الى نفسه الآلام ورؤية الأموات التي ظهرت له على ساحة المعركة فذكره رأسه المثقل ورئتاه المتعبتان انه كالآخرين يمكن ان يتألم وان يموت . وفي تلك الدقيقة ، ماعاد يرغب في موسكو ولا في المجد والنصر : اية حاجة به الى المجد ! ان كل ما يتمناه الآن ان هو الا الراحة والهدوء والحرية . مع ذلك ، فانه عندما وقف على مرتفع سيميونو فسكوي ، عرض عليه قائد المدفعية اقامة بضع

« بطاريات » هناك لدعم النار المسلطة على القوات الروسيه المركزة امام كنياز كوفو، فوافق نابوليون وأمر ان يحاط علماً بالنتائج الحاصلة. وعلى ذلك، فقد جاء مساعد عسكري يعلن انه تنفيذاً لأوامره فقد سدد مئتان من المدافع على الروسيين ولكن هؤلاء لازالوا صامدين .

قال المساعد العسكري :

– لقد حصدت نارنا صفوف كاملة مع ذلك فهم مازالوا صامدين .

فقال نابوليون بصوته الأجش :

– انهم يريدون زيادة ! .

سأله الضابط الذي لم يسمع الجملة تماماً :

– ياصاحب الجلالة ؟

فكرر نابوليون بصوته الابح نفسه :

– انهم يريدون زيادة .

وأمر وهو يقطب حاجبيه :

– أعطوهم مايطلبون .

لقد كان مالم يرده يتحقق دون أمره لذلك فانه لم يكن يتخذ من تدابير إلا لأنهم – على ما كان يظهر – ينتظرون منه ان يتخذها . ومن جديد ، استغرق في سراب العظمة. وكمثل الحصان الذي يحرك عجلة دافعة وهو يظن انه انما يقوم بعمل مفيد له شخصياً ، كذلك هو ، عاد يقوم بوداعة بالدور القاسي الأليم الشاق ، الدور غير الانساني الذي نُذر له .

لم تكن تلك الساعة وحدها من ذلك اليوم مجال اكفهرار ذهن ذلك الرجل المسؤول اكثر من أي سواه عن الاحداث التي وقعت في ذلك العصر وضميره انه لم يتوصل حتى نهاية عزه الى تفهم الخير والجمال والحق فكانت أعماله معارضة

تماماً للخير والحق بعيدة جداً عن كل احساس انساني لدرجة لم يكن ممكناً معها ان يدرك مداها . وما كان يستطيع ان يتنكر لمآثر تحمس لها نصف العالم فكان عليه بالتالي ان يتنكر للحق والخير ولكل شعور انساني .

لم يكن ذلك اليوم وحده الذي بعد ان طاف فيه بساحة المعركة المفروشة بالجنود الميتين أو المشوهين - وفقاً لارادته كما كان يظن - راح يحسب فيه تخميناً عدد الروسيين بالنسبة الى الفرنسيين ليخدع نفسه وليجد أسباباً لابتهاجه بزعم ان النسبة خمسة الى واحد . ولم يكن ذلك اليوم الذي قال فيه كما كتب الى باريز : « ان ساحة المعركة رائعة » لأنه كان ممدداً عليها خمسين الف جثة . بل انه في سانت هيلين أيضاً ، في سكون الوحدة ، حيث أراد أن يكرس أوقات فراغه لعرض الامور الكبيرة التي جاء بها ، كتب مايلي :

« كانت الحرب الروسية اكثر الحروب قرباً الى الاذهان الشعبية في العصر الحاضر : لقد كانت الحرب التي أملتها المصالح الحقيقية والفكر ، حرب راحة الجميع وأمنهم لأنها سلمية ومحافظة الى أقصى حد .

« كانت حرب الروسية في سبيل الغاية الكبرى وانهاء الحوادث العرضية وبدء الأمان . كان افق جديد وامور جليلة جديدة ستظهر مليئة كلها بالهناء وراحة الجميع اذ كان النظام الاوربي قد اقيم فلم يبق الا تنظيمه .

« وكنت ، بعد ان اطمئن الى هذه النقاط الجليلة واستقر في كل مكان ، سأشكل كذلك مجلساً استشارياً حلفاً مقدساً [1] Sainte-Alliance لي .

---

(١) الحلف المقدس Sainte-Alliance ، حلف نظم عام ١٨١٥ بمساعي المستشار النمساوي ميترنيخ بين روسيا والنمسا وبروسيا ، بغية ضمان معاهدات عام ١٨١٥ ضد المحاولات التحررية والقومية من جانب دول ايطاليا والمانيا الصغيرة التي قمعتها الدول الكبرى . ولقد قصد نابوليون في ذكر هذا الحلف انه سيشكل حلفاً مماثلاً يضم كل الممالك الاوربية للابقاء على الوضع الراهن في أوربا .

ان هذه الافكار سرقوها مني . ففي اجتماع الملوك الكبار ذاك ، كنا سنتحدث عن مصالحنـــا كأسرة وسنعالج شؤون الشعوب كما تعالج بين المستخدم ورب العمل .

« بذلك كانت اوربا لن تلبث حتى تصبح شعباً وحداً حقاً فيجد كل واحد نفسه وهو في سفره في كل مكان انه لازال في وطنه المشترك . كنت سأجعل الانهار القابلة للملاحة في خدمة الجميع وسأقيم وحـدة البحار وسأقضي بأن تقتصر الجيوش الدائمة على حرس الملوك فحسب .

« وكنت ، فور عودتي الى فرنسا ، قلب الوطن العظيم القوى الرائع الهادىء المجيد ، سأذيع حدوده الثابتـة ، وسأعلن ان كل حرب مقبلة ستكون دفاعية وكل توسع جديد مضاداً لمصالح الامـة . وكنت سأشرك ولدي في الملك ، فتنتهي ديكتاتوريتي ويبدأ حكمه الدستوري ..

« وكانت باريز ستكون عاصمة العالم والفرنسيون قبلة انظار الامم ! ..

« وحينئذ ، كنت سأكرس أوقات فراغي وأيام شيخوختي للطواف مع الامبراطورة خلال فترة تمرين ابني على شؤون الملك ، بنواحي المملكة كزوجين ريفيين حقيقيين ، على جيادي الخاصة ، لتلقي الشكاوي واصلاح الاخطاء واقامة النصب والاعمال الصالحة في كل مكان . »

لقد كان يحاول اقناع نفسه ، وهو الذي نذرته القدرة الالهيـة لدور جلاد الأمم الأليم العبودي ، ان هدفه كان خير الشعوب وانه يستطيع ترأس مصير الملايين من المخلوقات وبناء سعادتهم باستبداد !

كتب في مكان آخر حول حملة روسيا يقول :

« من الاربعمائة الف رجل الذين اجتازوا الفيستول ، كان نصفهم بين نمساوي وبروسي وسكسوني وبولوني وبافـــاري ووريتمبرجي وميكلمبرجي واسباني

وايطالي ونابولي . وكان ثلث الجيش الامبراطوري نفسه مؤلفاً من هولنديين وبلجيكيين وجنويين وتسكانيين ورومانيين ومن سكان المنطقة الثانية والثلاثين العسكرية : بريم وهامبورج والخ .. فلم يكن فيه الا حوالي مائة وأربعين الفاً من المتكلمين بالفرنسية . ولقد كلفت حملة روسيا فرنسا الحالية اقل من خمسين الف رجل . ولقد أضاع الجيش الروسي في تقهقره من فيلنا الى موسكو وفي مختلف المعارك أربعة أضعاف ماخسره الجيش الفرنسي وخسروا في حريق موسكو حياة مائة الف رجل ماتوا من البرد والجوع في الغابات كما اصيب الجيش الروسي اثناء سيره من موسكو الى الأودر بآفة الفلك فلم يصل الى فيلنا الا بخمسين الف رجل لم يبق منهم عند كاليسش الا أقل من ثمانية عشر الفاً . »

كان يتصور اذن ، ان تلك الحرب لم تنشب الا بارادته مع ذلك ، فان الهول الذي حصل بنتيجة الأمر الواقع لم ينل منه . وكان يتحمل المسؤولية الكاملة للاحداث في حين يرى عقله المغشّى تبريراً في واقع ان الفرنسيين كانوا في عداد مئات الألوف من الضحايا ، أقل عدداً بكثير من الهيسيين أو البافاريين .

* * *

الفصل التاسع والثلاثون

نتائج المعركة

كذلك فان بضع عشرات الآلاف من الرجال في أزياء مختلفة كانوا مبعثرين قتلى في تلك الحقول والمروج التابعة للسادة دافيدوف أو لفلاحي التاج والتي ظل سكان بورودينو وجوركي وشيفاردينو وسيميونوفسكوي قروناً كاملة يحرثونها ويرعون مواشيهم فيها . وفي المستشفيات ، على مساحة اكثر من هكتار ، كانت اعشاب الارض مبللة بالدماء . وكانت جماعات من الجنود الجرحى أو الاصحاء يكرون راجعين مروعين بعضهم الى موجائيسك والبعض الآخر الى فالوييغو ، في حين استسلمت جماعات اخرى رغم النهك الذي نالها والجوع ، الى أوامر الرؤساء فاندفعت الى الأمام . وأخيراً ، لبثت جموع منهم صامدة في مكانها مستمرة في اطلاق النار .

وعلى امتداد ساحة المعركة الذي كان رائع الجمال والبهجة حتى ساعات خلت قبل بريق الحراب والدواخن في شمس الصباح ، انتشر الآن ضباب رطب وحلقت رائحة حادة غريبة من ملح البارود والدم . واجتمعت سحب وراح مطر دقيق يقطر على القتلى والجرحى والجنود المنهوكين وعلى اولئك الذين يفقدون الايمان في عزيمتهم وكأنه يهتف بهم قائلاً : « كفى ، كفى ، ايها التعساء ، كفوا . عودوا الى صوابكم .. ماذا تعملون ؟ »

وشرع جنود هذا الجيش وذاك وقد ناؤوا بالتعب والخور ، يتساءلون عما

اذا كان عليهم الاستمرار في تقتيل بعضهم البعض ، فكان التردد يقرأ واضحاً على وجوههم بل ان كثيراً منهم راحوا يطرحون على أنفسهم السؤال : « لماذا، لمن يجب ان اقتل أو ان أقتل ؟ اقتلوا من شئتم واعملوا ما شئتم ، أما أنا ، فقد كفاني ! » وحوالي المساء ، نبتت هذه الفكرة نفسها في كل النفوس فكان يمكن في كل لحظة ان يستولي الهول على هؤلاء الناس ، الهول مما يفعلون ، فيتركون كل شيء ويلوذون بالفرار تائهين .

مع ذلك ، وعلى الرغم من ان كل المقاتلين شعروا عند انتهاء المعركة بخزي سلوكهم وأحسوا بالسرور لتوقفهم ، فان قوة غير مفهومة وغامضة ظلت تحركهم ظل المدفعيون الساجحون بالعرق الملطخ بالدم المسودون بالغبار يحملون وهم يتعثرون خائرو القوى ، ذخائر المدافع ، فيحشونها ويسددونها ويشلون القتيل بمثل تلك السرعة وتلك القسوة رغم هبوط عددهم بنسبة واحد الى ثلاثة ، فيستمر ذلك العمل المريع على الوقوع ، ذلك العمل الذي لايقوم تبعاً لرغبة الانسان بل لارادة ذلك الذي يدير الانسان والعوالم .

ولو شاهد أي كان مؤخرة الجيش الروسي وماهي عليه من فوضى ، لقال ان مجهوداً صغيراً من الفرنسيين قادر على افناء هذا الجيش . ولو شاهد أي كان مؤخرة الجيش الفرنسي لاعتقد ان مجهوداً ضعيفاً من جانب الروسيين يكفي للقضاء عليه . ولكن الفرنسيين لا الروسيين ما كانوا يبذلون ذلك المجهود ، فراح اوار المعركة يخبو تدريجياً .

كان الروسيون ممتنعين لأنهم لم يكونوا هم المهاجمين . لقد اقتصروا في البداية على قطع الطريق الى موسكو فظلوا يحتلون موقعهم حتى النهاية . مع ذلك ، فانهم كانوا عاجزين عن ابداء ذلك المجهود الأخير حتى ولو كانت غايتهم هزم الفرنسيين وذلك لأن الفيالق كلها كانت في حالة من الفوضى ولأنهم اكتووا

جميعهم بنار المعركة وأضاعوا - دون ان يبارحوا مراكزهم - نصف عددهم .

أما الفرنسيون الذين تدعمهم ذكرى خمس عشرة سنة من النصر ، وايمانهم بعدم امكان قهر نابوليون وثقتهم بأنهم سادة جانب من ساحة المعركة وبأنهم لم يخسروا الا ربع رجالهم وان العشرين الف رجل الذين يشكلون فرق الحرس لازالوا سالمين ، فانهم كانوا يستطيعون بذل ذلك المجهود . بل ان واجبهم كان يحتم عليهم بذله لأنهم هاجموا الجيش الروسي بقصد اقصائه عن مواقعه لأنه طالما ظل في امكنته يقطع عليهم الطريق الى موسكو ، فان هدفهم لما يبلغ بعد وكل خسائرهم تصبح دون جدوى . مع ذلك ، فانهم لم يبذلوا ذلك المجهود . يؤكد بعض المؤرخين ان نابوليون لو أمر بانزال الحرس القديم لربحت المعركة . ان مثل هذا الافتراض يشبه البحث فيما كان سيحصل لو ان الخريف أصبح ربيعاً فجأة . واذا لم ينزل نابوليون حرسه الى الميدان فليس مرد ذلك عزوفه عن انزاله بل استحالة اشراكه في المعركة لان الجنرالات والضباط والجنود كانوا يعرفون ان معنويات الجيش لاتسمح بمثل هذا العمل .

لم يكن نابوليون وحده الذي لمس برؤية ان ذراعه الرهيبة تسقط الآن عاجزة ، بل ان الجنرالات الفرنسيين كلهم ، المقاتلين وغير المقاتلين ، بعد خبرة المعارك السابقة التي كان العدو خلالها يتراجع أمام هجمات اقل عنفاً من هذه بعشرات مرات ، أحسوا بذعر اجماعي ازاء عدو ظل يهددهم بقوة لم تتبدل في نهاية المعركة عن بدايتها ، رغم انه خسر نصف قواته . لقد هبطت معنويات الجيش المهاجم ازاء ذلك . ان الروسيين لم يربحوا في بورودينو احدى تلك الانتصارات التي تقاس بالارض المكتسحة أو بتلك الخرق من الاقمشة التي تعلق على عصى والتي يسمونها الأعلام . بل حصلوا على نجاح من ذلك النوع الذي يقنع الخصم بالتفوق المعنوي الذي يقاتل به وبعدم جدوى مجهوداته نفسها . ولقد

بات الغازي يشعر انه ماض الى حتفه أشبه بالوحش الغاضب الذي اصيب اثناء فراره بالاصابة القاتلة ولكن دون ان يستطيع التوقف ، تماماً كما بات الجيش الروسي ، رغم ضعفه ونسبته واحد الى اثنين مع جيش العدو ، لايستطيع ان يستسلم . لقد كان الفرنسيون قادرين بفعل السرعة المكتسبة على بلوغ موسكو لكنهم هناك ، دون ان يقوم الروسيون بتضحيات جديدة ، كانوا سينفقون بتأثير الاصابة القاتلة التي اصيبوا بها في بورودينو . ولقد كان لهذه المعركة من نتائج مباشرة ان هجر نابوليون موسكو فجأة وتقهقر عن طريق سمولنسك القديم واضاع جيشاً قوامه خمسمائة الف رجل وهدم فرنسا النابوليونية التي هبطت عليها لأول مرة في بورودينو ذراع خصم موهوب بقوة معنوية متفوقة .

* * *



الجزء الثّالث

الفَصلُ الأوّل

في قوانين التاريخ

ان الدوام المطلق للحركة أمر غامض على العقل البشري . والانسان لا يدرك قوانين أية حركة ما الا اذا عاين وحدات مقطعة بتحكم . ولكن من ذلك التقسيم التحكمي للحركة الدائمة ، يخلق مع ذلك الجزء الأكبر من الاخطاء الانسانية .

ان كل انسان يعرف مذهب السفسطة (انعدام الحركة) عند الاقدمين الذي بموجبه لا يمكن « لآشيل » ان يلحق بالسلحفاة التي تسير أمامه رغم ان اندفاعه يزيد عشر اضعاف عن اندفاعها ، لأن آشيل ، عندما يفرغ من اجتياز المسافة التي تفصله عن السلحفاة ، تكون هذه قد اجتازت عشر هذه المسافة في سبقها له . وبينما آشيل يتجاوز هذا العشر ، تكون هي قد تجاوزته بواحد على مائة وهكذا حتى اللا نهاية . لقد كانت هذه المسألة تبدو في القديم متعذرة الحل ان استحالة النتيجة (آشيل لن يلحق قط بالسلحفاة) ناجمة فقط عن واقع انهم يأخذون تحكماً وحدات متقطعة للحركة في ان حركة آشيل دائمة كحركة السلحفاة تماماً .

فلو أخذنا وحدات للحركة صغيرة اكثر فأكثر ، فاننا نصل فقط الى الاقتراب من الحل . لكننا لا نبلغه قط . أننا لا نبلغ حل المسألة الا اذا تقبلنا عدداً لا نهائي الصغر ونموه التصاعدي حتى العشرة ثم ان نحصي مجموع هذا التصاعد الهندسي . ان فرع الرياضيات الجديد الذي اكتشف فن الحساب في الكمية الصغرى يعطينا

اليوم اجوبة على مسائل اعتبرت ممتنعة الحل حتى في المسائل الأكثر تعقيداً في علم الحركة .

ان هذا الفرع الجديـــد في الرياضيات ، المجهول من الأقدمين ، بادخاله المتناهيات في الصفر في دراسة علم الحركة ، اعـاد الشرط الاساسي للحركة ، واعني دوامها المطلق ، وقوّم بذلك الخطأ الذي لابد منه الذي يقول ان الذكاء لا يمكنه ان لا يخطىء عندما يستبدل حركة دائمة ، بوحدات متقطعة من الحركة .

ففي البحث عن قوانين التاريخ ، لايختلف الحال في شيء .

ان سير الانسانية المحدود بسلسلة لاتحصى من الارادات الشخصيه عبارة عن حركة دائمة ، ومعرفة قوانينه هي غاية التاريخ . ولكن ، لأقامة قوانين هذه الحركة الدائمة ، مجموعة كل الارادات البشرية ، يتقبل العقل تحكما وحدات متقطعة . واسلوب التاريخ الاول هو الانتخاب تحكما ، سلسلة من الأحداث الدائمة وفحصها مستقلة عن السلاسل الاخرى في حين انه لم يكن ولا يمكن ان يكون لأي حدث بداية بل ان واقعة معينة تنشأ عن واقعة اخرى دون انقطاع والاسلوب الثاني قائم على فحص افعال رجل واحد ، قيصر أو رئيس جيش ، بوصفه مجموع ارادات الجميع في حين ان ذلك المجموع لايعبر عن نفسه قط بنشاط وشخصية تاريخيه لوحدها .

ان علم التاريخ في تطوره ، يُخضع لدراسته وحدات صغيرة اكثر فأكثر ، و بهذه الوسيلة ، يحاول ان يقترب من الحقيقة . ولكن ، مهما بلغت هذه الوحدات من الصغر ، فاننا نشعر بأن تقبل وحدات مستقلة بعضها عن بعض ، ان هو الا تقبل « بداية » لظاهرة ما ، تقبل ان ارادت الجميع تجد لها معبراً في افعال شخصية تاريخية واحدة ، الأمر الذي نؤكد نحن انه باطل في نفسه .

ان كل استنتاج تاريخي دون اي مجهود من الناقد ، يتحلل من تلقاء نفسه

دون ان يخلف شيئاً وراءه لمجرد ان ذلك الناقد ينتقي كموضوع لدراسته ، وحدة مستقلة كبيرة او صغيرة وله الحق دائماً في ان ينهار نظراً الى ان هذه الوحدة التاريخية المنتقاة تحكمية ابداً .

اننا لانستطيع ان نطمع في بلوغ قوانين التاريخ الا اذا عرضنا لفحصنا وحدة بالغة الصغر ، تفاضلية التاريخ ، أي التيارات الانسانية المتجانسة وتحكمنا في فن دمجها ، أي في احصاء مجموع الوحدات الصغرى .

ان السنوات الخمس عشرة الاولى من القرن التاسع عشر تعطي مشهداً خارقاً لحركة ملايين من الرجال تركوا مشاغلهم المألوفة واندفعوا من جانب اوربا الى جانبها االآخر ينهبون ويقتتلون ، منتصرين أو يائسين . ان سير الحياة كله يتبدل في بضع سنوات تحمله حركة متجبرة تبدأ في النشاط ثم تبطىء . فما هو سبب هذه الحركة ، او على الأقل ما هي قوانينها ؟ هـــذا ما يتساءله العقل البشري .

يجيب المؤرخون على هذا السؤال عارضين علينا وقائع وحركات بضع عشرات من الرجال في واحد من ابنية باريز ، مطلقين على هذه الوقائع والحركات اسم « الثورة » ، ثم يعطون ترجمة مفصلة عن حياة نابوليون وبعض اشخاص من اتباعه وخصومه ويروون اثر بعض من هؤلاء الاشخاص ويضيفون قائلين : هذا هو منشأ الحركة وهذه هي قوانينها .

لكن العقل البشري لا يرفض فقط الاقتناع بهذا التفسير بل يعلن كذلك بكل صراحة ان الاسلوب في التفسير خاطىء لأن الظاهرة الأضعف معتبرة فيه السبب الأقوى . ان مجموع الارادات البشرية هو الذي خلق الثورة ونابوليون ، وهو الدي أفناهما بعد ان احتملهما وقتاً طويلاً .

ويقول التاريخ : « مع ذلك ، فانه كلما كانت هناك فتوحات كان هناك

فاتحون، وكلما وقعت انقلابات في دولة جاء معها رجال عظام.» فيجيب العقل البشري : صحيح انه كلما ظهر فاتحون وقعت حروب. لكن هذا لا يبرهن على ان الفاتحين هم اسباب الحروب ولا على انه يمكن اكتشاف قوانين حرب ما في النشاط الشخصي لشخص واحد. انني كلما انظر الى ساعتي، ارى العقرب على الرقم «١٠» فاسمع الاجراس تقرع من الكنيسة المجاورة . ولكن ، من هذه الواقعة ، واقعة انه كلما بلغت الساعة العاشرة بدأت الاجراس تقرع ، ليس من حقي ان استنتج ان وضعية العقرب هي سبب قرع الاجراس .

انني كلما ارى قاطرة تتحرك واسمع صفيرها وأرى الصمام يفتح والعجلات تدور ، لا يحق لي ان اقرر ان الصفارة وحركة العجلات هما سبب سير القاطرة .

يقول القرويون ان ريحاً باردة تبدأ في الهبوب حوالي نهاية الربيع لأن براعم شجر البلوط تتفتح . وفي الواقع ان ريحاً باردة تهب كل ربيع عندما تتفتح براعم البلوط. ولكن مهما كان سبب هبوب هذه الريح في تلك الفنية مجهولاً مني، فانني لا استطيع ان اقول مع القرويين ان هذا السبب هو تفتح البراعم لأن قوة هذه الريح لا تتأثر بتلك البراعم . انني لا ارى الا توافق الشروط التي تلتقي في كل ظاهرة من ظواهر الحياة وارى انني مهما استغرقت في مراقبة عقارب ساعتي بكل دقة ، وصمام القاطرة وعجلاتها وكذلك براعم شجرة البلوط ، فانني لن اكتشف قط سبب قرع الاجراس وحركة القاطرة والريح الربيعية . ولكي اصل الى معرفة السبب ، يجب ان ابدل كلياً نقطة ملاحظتي فادرس قوانين الحركة والبخار والجرس والريح . وهذه هي عينها المهمة التي تتوجب على التاريخ ولقد حاول التاريخ الاضطلاع بها .

لكي نجد قوانين التاريخ ، يجب علينا ان نبدل تماماً عرض فحصنا وان نترك جانباً الملوك والوزراء والجنرالات لندقق في الحركات المتجانسة ، المتناهية

في الصغر التي تحرك الجماعات . مامن أحـد يمكنه ان يقول في أي ظرف يتاح للانسان ان يبلغ عن هذا الطريق مبلغ ادراك قوانين التاريخ . لكن من البديهي ان هذا هو الطريق الوحيد الذي يعطي امكانية ادراكها ، وان العقل البشري لم يصرف بعد جزءاً من مليون جزء مما صرفـــه المؤرخون انفسهم سواء في وصف حركات الملوك المختلفين والجنرالات والوزراء ، أو في عرض أرائهم حول تلك الافعال .

* * *

الفَصْلُ الثّاني

المغيب

انكفأت قوات اثني عشر شعباً اوربياً ضد روسيا وراح الجيش والشعب الروسيان يتقهقران متحاشين الاصطدام في بدء الأمر حتى سمولنسك ثم حتى بورودينو . ومضى الجيش الفرنسي نحو موسكو ، غاية تقدمه ، بقوة اندفاع آخذة في الازدياد . ولقد عظمت هذه القوة عند اقترابها من غايتها كما تتعاظم سرعة جسم ساقط كلما اقترب من الارض . باتت الوف الفراسخ من بلد جائع معاد وراءها وبضع عشر من الفراسخ امامها قبل الهدف هذا ماكان يفكر فيه كل جندي من الجيش النابوليوني ، وبذلك اندفع الاجتياح الى الامام بقوة دافعة موحدة .

وفي الجيش الروسي ، كلما أمعنوا في التقهقر ، زادت نار الحقد على العدو أواراً . انها تتركز وتكبر بسبب التقهقر . ولقد وقع الاصطدام الاخير في بورودينو فلم يفن واحد من الجيشين . لكن الجيش الروسي بعد الاصطدام مباشرة ، تراجع الى الوراء بالقدر الذي يستلزمه انكفاء كرة الى الوراء بعدان تصطدم بكرة اخرى ، تحركه قوة أعظم بأساً في حين ان الكرة الغازية ، رغم فقدانها كل قوتها في الاصطدام ، لابد لزوماً وان تدرج الى مسافة ما بعد ان تستعيد قوة اندفاعها .

انسحب الروسيون الى مائة وعشرين فرسخا وراء موسكو وبلغ الفرنسيون

موسكو وتوقفو فيها . ولم يقع أي قتال خلال الاسابيع الخمسة التي تلت ذلك . فالفرنسيون لا يتحركون اشبه بالوحش الذي جرح جرحاً قاتلاً فراح يلعق جراحه رغم انه فقد كل دمائه ، ظلوا خمسة أسابيع في موسكو دون أي عمل ثم ، ودون أي سبب جديد ، فروا فجأة . لقد اندفعوا في طريق كالوجا وظلوا في فرارهم رغم انتصارهم – لأنهم مازالوا سادة ساحة المعركة في مالور اياروسلافيتز في قطاع كالوجا على بعد مائة وعشرين فرسخاً من موسكو – دون ان يدخلوا في معركة جديدة استمروا في فرارهم بسرعة متزايدة باتجاه سمولنسك ثم الى ماوراء سمولنسك والى ما وراء فيلنا والى ما وراء بيريزينا وهم لا ينوا يبتعدون .

في مساء السادس والعشرين من آب ، اقتنع كوتوزوف ومعه الجيش الروسي كله ، بأنهم ربحوا معركة بورودينو . ولقد كتب كوتوزوف الخبر بكل وضوح الى الامبراطور . وعمم الأمر بالاستعداد لصراع جديد لتوجيه الضربة القاضية الى العدو وليس بقصد خداع أي كان ، بل لأنه بات يعرف ككل واحد من المحاربين ان العدو قد هزم .

لكن ذلك المساء وفي اليوم التالي ، بدأت التقارير المعلنة عن خسائر هائلة تترى – ضياع نصف الجيش – لدرجة بدت معها استحالة الالتحام في معركة جديدة من الناحية المادية .

كان يستحيل الاشتباك في معركة قبل ان يُعاد وضع ميزانية الموقف وان يرفع الجرحى وتستكمل الذخائر ويحصى عدد القتلى ويعين الرؤساء الجدد مكان الذين قتلوا منهم وقبل ان يأكل الجنود وان يناموا بقدر حاجتهم . وفي تلك الاثناء ، والمعركة لما تكد تنتهي ، شرع الجيش الفرنسي منذ الصباح يهتز من تلقاء نفسه ضد الجيش الروسي ، (بفعل قوة الاندفاع هذه التي تزداد عكسياً بمعدل مربع المسافة) . وكان كوتوزوف يريد ان يهاجم غداة اليوم التالي كما كان

جيشه كله يريد . ولكن الرغبة في الهجوم وحـدها لاتكفي اذ يجب ان تتوفر استطاعة العمل وهذه الاستطاعـة لم تكن موجودة فكان من المستحيل ان لايتراجع الروسيون مرحلة واحدة في أول الأمر ثم مرحلة ثانيـة اجبارية ثم ثالثة . وأخيراً ، في الاول من ايلول ، عندمـا بلغ الجيش موسكو ، أرغمته قوة الامور على التراجع بعيداً رغم الحماس العنيف الذي كان يعتلج في النفوس فتراجع الجيش مرحلة جديدة هي الأخيرة مخلفاً موسكو للعدو .

هناك أسئلة لابد من ان يطرحهـا اولئك الذين من عادتهم الاعتقاد بأن رؤساء الجيش يضعون خطط الحروب والمعارك بنفس الطريقة التي يعمد عليها كل واحد منا وهو جالس في مكتبه أمام خريطة، ليرسم التدابير التي كان سيتخذها هو ، في هذه أو تلك من المعارك . لماذا لم يفعل كوتوزوف في تقهقره كذا وكذا لماذا لم يتحصن أمام فيلي ؟ . لماذا لم يتراجع دفعة واحدة على طريق كالوجا بعد ان سلم موسكو ، الخ .. الخ .. ؟ ان الأشخـاص الذين يألفون مثل هذه الأفكار ، ينسون الشروط التي لايمكن دفعها والتي يدور فيها نشاط جنرال قائد أعلى أو يتجاهلون تلك الشروط . ان ذلك النشاط لا ارتباط بينه وبين ذاك الذي نتخيله ونحن جالسين بهدوء في مكتب عندما نـدرس حملة على خريطة ، بعدد معلوم من الجنود في الجانبين ، على أرض معروفة جاعلين مدار كنا الستراتيجية تبدأ في لحظة محدودة. ان قائداً أعلى لايجد نفسه قط في ظروف « البداية » التي نرى نحن أو يرى أصحاب النظريات انفسهم فيها عند فحص حادث ما . انه يجد نفسه دائماً وسط سلسلة متحركة من الظروف لدرجة انه لايجد نفسه لحظة واحدة في حالة تمكنه من الاحاطة بكل الاحداث الدائرة دفعـة واحدة . ان الحدث يقع ثم يتبلور معناه تدريجياً . وفي كل لحظة من لحظات التطور هذه التي تجعل الحدث يبرز للعيان ، يكون القائد الأعلى وسط سلسلة معقـدة من الدسائس

والمشاغل وحق الاستخدام والاوامر المتسلطة والمشاريع والمجالس والتهديدات والخدع ، ويكون كذلك مرغماً بصورة دائمة على الاجابة على عدد لايحصى من الاسئلة المعاكسة دائماً .

ان خبراء عسكريين يقولون لنا بجد لايتزعزع انه كان على كوتوزوف ان يتراجع قبل « فيلي » على طريق كالوجا كما اشير عليه ان يفعل . لكن قائداً أعلى ، في اللحظات الحرجة بصورة خاصة ، لايكون نصب عينيه مشروع واحد فحسب ، بل عشرات المشاريع . وكل مشروع من هذه المشاريع ، رغم حسن ارتكازه على الناحيتين الستراتيجية والحركية ، يكون منافياً للمشاريع الاخرى ويبدو ان القائد الأعلى ليس عليه الا ان ينتقي واحداً منها في حين ان هذا نفسه يستحيل عليه لأن الاحـــداث والوقت لاتنتظر . لنفرض انهم اقترحوا على كوتوزوف في الثامن والعشرين ان يسير على طريق كالوجـا العام وان مساعداً عسكرياً لميلودوروفيتش جاء في تلك اللحظـة بالذات يسأل عما اذا كان يجب الالتحام فوراً في اشتباك مع الفرنسيين أم التراجع . فان على كوتوزوف ان يعطي أوامره في اللحظة نفسها . فاذا أمر بالتراجع ، فانـه يتحتم عليه اجراء توريب لبلوغ طريق كالوجا . ولا يكاد المساعد يخرج حتى يأتي ضابط التموين ليسأل عن الجهة التي يجب ان تسير الارزاق فيها ، قائد المستشفيات يسأل عن المكان الذي سيحمل الجرحى اليـه ، ثم يأتي ساع من بيتر سبورج يحمل رسالة من الامبراطور الذي لايرضى بالجلاء عن موسكو . ثم يأتي خصم القائد الأعلى ، ذلك الذي يعمل جاهداً لكي ينال من تصرفاته ، - ويوجد دائماً من أمثال هؤلاء عدد كثير وليس مجرد واحد فحسب - فيعرض مشروعاً جديداً متعارضاً كل التعارض مع خطة التراجع عن طريق كالوجا . وفي تلك الاثناء ، بينما يشعر القائد العام بان قواه تتطلب الراحة والنوم ، يأتي جنرال محترم فيشكو من نتائج

استثناء غير قانوني منح لبعضهم ، وبعده يـدخل مدنيون ملتمسين الحماية ، ثم ضابط أرسل مستطلعاً فجاء بمعلومات تناقض كل التناقض ما جاء به زميل قبله وأخيراً جاء دور جاسوس وسجين حرب ثم الجنرال الذي ذهب يتفقد المواقع وكلهم يصفون مواقع العدو على طريقتهم . والأشخاص الذين لا يتمثلون الشروط التي يتوجب على القائد العام ان يعمل فيها ، يصورون لنا مثلاً وضع الجيش أمام فيلي ويفترضون ان كوتوزوف كان يستطيع في ذلـك الوضع في اليوم الاول ان يحـم بكل حرية مسألة الدفاع عن موسكو أو التخلي عنها في حين ان تلك المسألة على العكس ، لا يمكن ان تطرح والجيش على بعد خمس مراحل عن المدينة فمتى اذن حلت هذه المسألة ؟ لقـد حلت في دريسا وسمولنسك وأخيراً ونهائياً في الرابع والعشرين من الشهر في شيفاردينو ثم في السادس والعشرين في بورودينو ومنذ ذلك الحين ، ومن يوم الى آخر ومن ساعة الى أخرى ودقيقة الى دقيقة ، طيلة التقهقر من بورودينو الى فيلي .

* * *

الفَصلُ الثّالِثُ

حالة كوتوزوف

عندما جاء ايرمولوف الذي أرسله كوتوزوف مستطلعـاً ، يقول للقائد الأعلى انه لايمكن الالتحام في معركة على مشارف موسكو وانه يجب الاستمرار في التراجع ، نظر اليه كوتوزوف في صمت . قال له :

ـ أعطني يدك .

وبعد ان أدار تلك اليد بطريقة مكنته من حبس النبض أضاف قائلاً .

ـ أنك مريض ياصديقي . فكر في ما تقول .

ما كان كوتوزوف حتى تلك اللحظة يستوعب بعـد امكانية التراجع الى ما وراء موسكو دون قتال .

على مرتفع باكلونـّايا على بعد ست مراحل من حدوددروجوميلوف ، نزل من عربته وجلس على مقعـــد على جانب الطريق ، فدار به رهط كبير من الجنرالات ، انضم اليهم الكونت روستوبتشين الذي وصل قبل قليل من موسكو وراح هذا الجمع من الاشخاص اللامعين المنقسمين الى جماعات صغيرة ، يناقشون محاسن الموقف ومساوئه وحالة الجيش والمخططات المقترحـة والحالة المعنوية في موسكو وعدداً آخر من المواضيع ذات الطـابع العسكري . وكان كل منهم يشعر دون ان يستدعيه أحد ودون ان يطلق على هذا الجمع اسم لجنة استشارية انه انما يساهم في مجلس عسكري ، كما كانت الأحاديث في كل جماعة تدور حول الاعتبارات العامة .

كانوا يتناقلون بصوت خافت انباء شخصية ثم يعودون لفورهم الى الموضوعات ذات الطابع العام . لم يكن احد من الموجودين ليسمح بدعابة ا بضحكة أو حتى بابتسامة . لقد كانوا جميعهم ولا ريب يحاولون الظهور بمظهر يتساوى مع خطورة الاحداث . وكانت كل جماعة تسعى وهي تتبادل الاحاديث ان لاتبتعد عن العام الذي كان مقعده مركز الجاذبية بالنسبة اليهم وان تصل احاديثها الى اسماع كوتوزوف . وكان كوتوزوف يصغي واحيانا يستعلم عما يدور من حـديث ، ولكن دون ان يساهم في الحديث او ان يتقدم برأي . وكان في معظم الوقت ، يشيح بوجهه متبرماً بعد ان يصيخ السمع الى حديث جماعة ما ، وكأنه سمع شيئاً يختلف كل الاختلاف عما كان يرغب في معرفته . وكان البعض – خلال النقاش حول الموقع المختار – ينتقدون الموقع نفسه اقل من انتقادهم أهلية الاشخاص الذين قبلوا به ، ويزعم البعض الآخر ان الخطيئة آتية من وقت مضى وانه كان يجب خوض المعركة قبل اول امس في حين تتحدث جماعة ثالثة عن معركة سالامانك التي جاء يصفها قادم جديد ، فرنسي اسم كروسّار يرتدي زياً اسبانيا – وكان كروسار هذا يدرس حصار ساراجوس مع امير الماني عامل في الجيش الروسي ، بغية اللجوء الى دفاع مماثل عن موسكو – . وفي جماعة رابعة ، كان الكونت روستوبتشين يعلن عن استعداده للموت مع المتطوعين الموسكوفيين تحت جدران المدينة . لكنه مع ذلك لا يستطيع الا ان يشكو من التجاهل الذي اظهروه حياله لأنه لو علم الى اين بلغت الامور ، اسار كل شيء سيراً مختلفاً ... وكان فريق خامس يظهر عمق مداركه الستراتيجية ويعين الاتجاه الذي كان على القطعات ان تسير فيه ، وسادس يتكلم دون ان يقول شيئاً ، في حين كان كوتوزوف يتخذ طابعاً آخذاً في الكآبة والتشاغل . ما كان يرى في هذه الاحاديث غير شيء واحد : ان الدفاع عن موسكو مستحيل

عمليا ، وذلك بكل ما لهذه العبارة من معنى وان الاستحالة كانت تبلغ درجة لو وجدوا امعها قائداً اعلى مجنوناً يأمر بالقتال ، لنجم عن ذلك هزيمة دون معركة . لذلك فان اية معركة ما كان يمكن ان تدور طالما ان القيادة العليا لم تكن تقدر ان الموقف متعـــذر الدعم فحسب بل لاتفكر كذلك الا في ما يعقب التخلي الالزامي عنه . فكيف كان يمكن لهؤلاء القادة ان يقودوا جنودهم على ساحة معركة اعترف بأنها غير قابلة للدعم؟ ان الاتباع بل والجنود الذين هم حكام كذلك يعترفون بذلك وبالتالي فانهم لايستطيعون الذهاب الى معركة وهم على يقين بوقوع كارثة . ولو ان بينيجسن كان ينصب من نفسه مدافعاً عن هذا الموقع او ان آخرين استمروا على مناقشته ، فان ذلك لم يعد له اية اهمية . ان لم يعد الا حجة للنقاش والدس وكان كوتوزوف مدركاً ذلك تمام الادراك .

كان بينيجسن الذي انتخب الموقع ، يجأر في اظهـار وطنيته الروسية فلم يكن كوتوزوف قادراً على الاصغاء اليه دون ان يقطب حـاجبيه . واذن ، كان بينيجسن يصر على ان يصار الى الدفاع عن موسكو فكان كوتوزوف يرى خدعته كما يرى النور : سوف يتحمل كوتوزوف تبعة الاخفاق في حال الاخفاق لأنه تقهقر بالجيش دون ان يدخل في معركة جدية حتى بلغ به «مون دي موانو» - جبل العصافير - . وفي حال انتصار الروسيين ، فان بينيجسن سيعزو لنفسه شرف النصر . بل انهم حتى اذا رفضوا الاصغاء اليه ، فانـه على الاقل قد غسل يديه من جريمة تسليم موسكو . لكن هـذه الدسائس كلها ماكانت في تلك اللحظات لتشغل بال الكهل اكثر من غيرها . لقـد كانت مسألة واحدة رهيبة تشغله وما كان هناك من يقدم اليه حلها . أمـا المسألة فهي : « هل يمكن ان اكون أنا الذي جعلت نابوليون يبلغ موسكو ومتى فعلت هـذا ؟ متى تقرر هذا ؟ هل كان البارحة عندما ارسلت الأمر الى بلاتوف بالتراجع أم أول أمس

عندما كنت نصف نائم فتركت بينيجسن يضطلع باعباء القيادة ؟ ام ترى وقع ذلك قبل هذه الاوقات ؟ .. ولكن متى ، متى تقرر أمر على مثل هذا الهول يجب ترك موسكو . يجب ان يتقهقر الجيش ويجب ان أصدر الامر . » وكان اصدار هذا الأمر البشع يعادل في نظره تقديم استقالته من القيادة العامة . وهو لم يكن يحب السلطـــة التي الفها فحسب – اذ ان الالتفاتات التي لقيها الأمير بروزوروفسكي الذي كان ملحقاً به في تركيا جرحت كرامتـه -- بل انه كان مقتنعاً بأنه هو المنذور لتخليص روسيا واجداً الدليل على ذلـك في واقع انه يدين بلقبه كقائد عام الى رغبة الشعب ضد رغبة الامبراطور . كان قانعاً بأنه وحده في تلك الظروف العصيبة قادر على البقاء على رأس الجيش ، وانه الوحيد في العالم الذي يستطيع مجابهة خصم لايقهر مثل نابوليون دون ان يروع . لذلك فقد كان يرتعد هولاً من مجرد التفكير في الأمر الذي سيصدره . ولكن ، كان يجب ان يتخذ قراراً حاسماً وان يضع حداً لهذه المناقشات التي بدأت تتخذحوله طابعاً متمادياً في التحرر .

أمر باقتراب أرفع الجنرالات رتبة وقال وهو ينهض عن مقعده :

– سواء أكان رأسي جيداً أم رديئاً ، فان عليه ان يعين نفسه بنفسه .

واتجه نحو فيلي حيث كانت عربته في انتظاره .

* * *

الفَصْلُ الرّابِعُ

المجلس العسكري

اجتمع المجلس العسكري في الساعـــة الثانية في كوخ القروي اندريه سافوستيانوف – ولقد ظل « كوخ كوتوزوف » قائماً حتى عـام ١٩١٧ – الرحيب المريح . وراح الرجال والنساء والاطفـال وكل أعضاء هذه الاسرة الهامة مجتمعين في « السقيفة » في الجـانب الآخر من الدهليز فلم يبق في الغرفة الا مالاشا حفيدة الفلاح آندريه البالغـة من العمر ستة أعوام ، اذ آنسها عظيم الرفعة باعطائها قطعة سكر بينما كان يشرب شايه ،فجثمت فوق موقد الحجرة الكبيرة وكانت الصغيرة تتأمل جزعة سعيدة ، الوجوه من أعلى والألبسة والأوسمة التي على صدور الجنرالات الذين راحوا يـدخلون الواحد أثر الآخر ويجلسون على مقاعد عريضة في الركن الجميل – ركن الايقونات ، الى يمين المدخل – تحت الصورة المقدسة . وجلس الجد ، كما راحت مالاشا تسمي كوتوزوف في سرها منفرداً في الزاوية المعتمة قرب الموقد . لقد تهاوى بتثاقل على مقعده القابل للثني ولم يكف عن الزفير وهو يسوي ياقة بزته التي ظلت تضايق عنقـه رغم انه حل أزرارها . وكان الداخلون يتقدمون لتحيته فكان يشد على أيدي بعضهم ويومىء برأسه الى البعض الآخر . وكانت قبالة كوتوزوف نافذة أراد مساعده العسكري كائيساروف ان يجذب سترها فندت عن كوتوزوف حركة تدل على التبرم أدرك كائيساروف منها ان عظيم الرفعة لايريد ان يضيء النور وجهه .

وحول الطاولة الخشنة المصنوعة من خشب الصنوبر التي انتشرت فوقها الخرائط والمخططات والاقلام والورق ، دار عدد كبير من الاشخاص حتى ان التابعين جاؤوا بمقعد آخر جلس عليه آخر الداخلين: ايرمولوف، كائيساروف وتول . وتحت الصور المقدسة، في مكان الشرف ، جلس باركلي دوتوللي وصليب القديس جورج يتدلى من عنقه . كان ممتقع الوجه يزيد جبين عريض في اطالة صلعته ، تعذبة الحمى منذ يومين اثنين ، يشعر في تلك الاثناء أيضاً بالارتعاش والانكماش . وكان اوفاروف الجالس الى جانبه ، يروي له بحركات عنيفة شيئاً ما بصوت خافت ، أسوة بكل المتحدثين الذين كانوا يتكلمون بخفوت . أما دوختوروف ، وهو رجل قصير القامة سمين ، فقد كان يصغي بانتباه وهو يرفع حاجبيه مستبقياً يديه متقاطعتين فوق بطنه . ومن الجانب الآخر جلس الكونت اوسترمان - تولستوي ، وقد اتكأ الى الطاولة وأسند رأسه الضخم ذا التقاطيع النشيطة والعينين البراقتين الى يده كأنه مستغرق في أفكاره . وكان رايفسكي يصرف نفاذ صبره بفتل خصلة من شعره الاسود العكف على صدغه بحركة مألوفة وبالنظر الى كوتوزوف تارة والى باب الدخول تارة اخرى . وكان وجه كونوفيتشين الجميل الحازم يضيء بابتسامة حانية ماكرة . لقد التقت نظرته بنظرة مالاشا فغمز لها بعينه ، الأمر الذي جعل الصغيرة تضحك .

كانوا جميعاً ينتظرون بينيجسن الذي كان متأخراً في طعامه الشهي بحجة اعادة فحص الموقع من جديد . وظلوا ينتظرون من الساعة الرابعة حتى السادسة دون ان يفتحوا باب النقاش ، فراح كل من جانبه ، يدور في أحاديث خاصة بصوت خافت خلال ذلك الوقت .

لم يتحرك كوتوزوف من ركنه ليقترب من المائدة الا عندما دخل بينيجسن لكنه اقترب بشكل لم يسمح للشموع الموقدة ان تضيء وجهه .

فتح بينيجسن الجلسة بالسؤال التالي : « هل ستترك عاصمة روسيا العريقة المقدسة دون قتال أم هل سيدافع عنها ؟ » وأعقب السؤال صمت عميق . أصبحت الوجوه كلها مكتئبة وسمع كوتوزوف يسعل وهو يغمغم بين أسنانه. فشخصت العيون كلها اليه ونظرت مالاشا بدورها الى «الجد». لقد كانت أقرب اليه من كل الآخرين فرأت وجهه يتقلص وكأنــه على وشك البكاء . لكن ذلك لم يدم اكثر من لحظة . وفجأة هتف بغضب كلمات بينيجسن وهو يبرز النغمة الزائفة :

– عاصمة روسيا العريقة المقدسة ! اسمح لي ان أقول لك ياصاحب السعادة ان هذا السؤال ليس له أي معنى بالنسبــة الى روسي . (واحنى جسمه الضخم الى الأمام) لاجدوى من طرح هذا السؤال لأنه محروم من كل المعاني . ان المسألة التي رجوت هؤلاء السادة ان يجتمعوا من أجلها مسألة عسكرية هي التالية : « ان خلاص روسيا في جيشها . فهل من الافضل المغامرة باضاعة الجيش بما في ذلك خسارة موسكو بالتحـام في معركة أم ان تسلم موسكو دون قتال ؟ » هذا هو ما اريد ان أحصل على رأيكم بصدده .

وعاد يلقي بظهرة الى مسند مقعده .

ودار النقاش . لم يعتقد بينيجسن انه خسر معركته لذلك فقد راح يؤيد رأي باركلي وآخرين حول استحالة الالتحام في معركة دفاعية في فيلي ويعرض ، وهو الذي يملأ حب موسكو الوطني قلبــه كما كان يزعم ، ان تمرر خلال الليل قطعات الجناح الأيمن الى الجناح الأيسر وان يهاجم بها غداة اليوم التالي الجناح الأيمن الفرنسي . وانقسمت الاراء وراحوا يناقشون مـا لها وما عليها . انحاز ايرمولوف ودوختوروف ورايفسكي الى جانب رأي بينيجسن . فهل ترى كانوا مدفوعين بعاطفة وجوب تقديم تضحية لامرد لها قبل ترك المدينة أم كانوا يخضعون لاعتبارات شخصية ؟ مهما كان الأمر ، فـان هؤلاء السادة بدوا وكأنهم غير

مدركين ان مجلساً عسكرياً لايمكنه ان يغير سير الامور الذي لابد منه وان موسكو قد سلمت بالفعل . أما الجنرالات الآخرون ، فقد كانوا مدركين ذلك فتركوا جانباً قضية تسليم موسكو وراحوا يتناقشون حول الاتجاه الذي يجب ان تسير فيه الجيوش . أما مالاشا التي تنظر بعينين جاحظتين الى كل ما يحدث أمامها ، فقد فهمت معنى المجلس العسكري على لون آخر . خيل اليها انها عبارة فقط عن صراع شخصي بين « الجد » و « ذي ذيول الطويلة » كما سمت بينيجسن كانت تراهما يغضبان عندما يتحدثان ، فكانت في أعماق قلبها الصغير تنحاز الى صف الجد . وفي وسط النقاش ، لاحظت النظرة السريعة الماكرة التي القاها كوتوزوف على بينيجسن فلم تلبث ان أدركت — لعظيم بهجتها — ان الجد قد قال شيئاً لذي الذيول الطويلة فأسقطه . وراح بينيجسن الذي تضرج وجهه فجأة يذرع الحجرة جيئة وذهاباً . كانت الكلمات التي أحدثت فيه هذا الأثر القوي ، هي التى استعملها كوتوزوف بصوت هادىء ساكن ليعبر عن رأيه في الميزات والاخطار التي يقدمها مشروع بينيجسن حول تحريك الجناح الأيسر الى الجناح الأيمن خلال الليل بغية مهاجمة الجناح الأيمن الفرنسي . قال كوتوزوف :

— ايها السادة ، أنني لا أستطيع اقرار خطة الكونت لأن حركات الجنود على مقربة من العدو خطيره دائماً والتاريخ العسكري يؤيد هذا الرأي . فعلى سبيل المثال ..(واتخذ كوتوزوف امارت التفكير ليبحث عن جملته وهويلقي نظرة ساذجة وواضحة على بينيجسن .) فمثلاً معركة فردلانـد التي آمل ان يكون سيدي الكونت قوي التذكر لها .. انها لم تنجح كل النجاح لأن قواتنا تجمعت على مقربة من العدو ..

ولقد بدا الصمت الذي اعقب هذا الكلام خلال دقيقة واحدة ، طويلاً جداً في نظر الجميع .

وعادت المناقشة تقاطع بكثرة بفترات صمت اذ كان كل من الموجودين يشعر بأنه لايجد ما يضيفه الى أقواله .

تنهد كوتوزوف تنهدة عميقة خلال احدى تلك الفترات و كأنه يستعدللكلام فاستدارت العيون كلها اليه ، قال :

– حسناً أيها السادة ! انني أرى انني وحدي من سيدفع الغرم .

ثم نهض بجهد واقترب من المائدة :

– ايها السادة ، لقد أصغيت الى أرائكم . ان بعضكم على غير وفاق معي .

– وتريث برهة – ولكن أنا ، استناداً الى السلطةالتي منحت الي من قبل مليكي ووطني ، أنا ، آمر بالانسحاب .

لم يلبث الجنرالات بعـــد ذلك أن تفرقوا في صمت وعلى وجوههم تلك الامارات الجليلة التي تنطبع على الوجوه عند الفراغ من حفلة مأتم .

تبادل بعضهمبصوت خافت وبلهجة تختلف كل الاختلاف عن لهجتهم خلال المؤتمر ، بضع كلمات مع القائد العام .

أما مالاشا التي كان ذووها ينتظرونهامنذ وقت طويل للعشاء ، فقدانزلقت برفق على ظهرها فوق المنحنى وقد تشبثت بقـدميها العاريتين بنتوءات الموقد ، وتسللت عبر سيقان العسكريين ثم اختفت وراء الباب .

وبعد ان استأذن كوتوزوف من الجنرالات ، ظل طويلًا جالساً ومرفقاه الى الطاولة ، يفكر في السؤال الملح نفسه :

« ولكن متى ، متى تقرر الجلاء عن موسكو ؟ كيف حـدث ان بلغوا هذا الحد وان أصبح هو المسؤول عنه ؟ »

قال لمساعده العسكري شنيدر الذي جاء يلحق به بعد ان أوغل الليل :

– كلا ، كلا ، ما كنت أتوقع هذا . ما كنت أتوقعـــه ! بل أنني ما كنت لأصدقه .

فقال شنيدر :

— يجب ان تستريح ياصاحب السمو .

لكن كوتوزوف ، بدلاً من ان يجيب مساعده العسكري ، صاح :

— كلا ، ان ذلك لن يسير على هواه بالنسبة اليهم . لسوف يأكلون لحم الحصان كالأتراك .

وضرب المائدة بقبضته العريضة وكرر :

— نعم ، لسوف يأكلون هم كذلك ، شريطة ان . .



الفصل الخامس

اعداد حريق موسكو

في تلك الاثناء ، كان حدث ما في طور التكوين ذو اهميه تختلف عن اهمية انسحاب الجيش : الا وهو هجر موسكو واحراقها . وروستوبتشين الذي يبدو في هذا المضمار المسؤول الأكبر ، كان يعمل عكس اتجاه كوتوزوف .

كان هذا الحدث ، هجر موسكو واحراقها ، يماثل تراجع الجيوش الى ماوراء المدينة بعد معركة بورودينو من حيث استحالة تحاشي وقوعه .

وكل روسي كان مستطيعاً ليس بالتحليل المنطقي بل بذلك الاحساس الذي يكمن في صدورنا كما كان يكمن في صدور آبائنا ، ان يتوقع ما سيحدث .

فاعتباراً من سمولنسك ، في كل المدن وكل قرى الارض الروسية . في كل مكان كانت الظاهرة نفسها التي وقعت في موسكو تظهر هناك دون ان يكون للكونت روستوبتشين وبياناته أي دخل فيها . كان الشعب ينتظر العدو بهدوء دون ان يثور او ينفعل أو يقتتل ، ينتظر بصبر مصيره وهو يحس بقوة ايجاد ما يجب ان يعمله في اللحظة الحاسمة من تلقاء نفسه عندما يأزف الوقت . وكلما اقترب العدو ، ابتعدت عناصر الشعب الغنية تاركة ثرواتها . اما الفقراء الباقون في اماكنهم ، فكانوا يحرقون ويدمرون كل ما كان يتعذر على الاغنياء نقله معهم .

وكان الايمان بأن هذا هو مايجب عمله وانه يجب الزاماً ان يكون كذلك ،

مستقر كما لازال مسبقراً في النفس الروسيه .

وهذا الايمان الذي ضاعفه الشعور المسبق بان موسكو سوف تسقط ، انغرس في المجتمع الروسي المسكوفي عام ١٨١٢ . ان اولئك الذين ارتحلوا منذ تموز وفي أوائل آب ، أكدوا برحيلهم انهم يتوقعون هذا الحدث . والذين رحلوا حاملين معهم كل ما يستطيعون حمله ، هاجرين بيوتهم ونصف ما كانوا يملكون ، كانت تحركهم تلك الوطنية العميقة « الكامنة » التي لاتعبر عنها الكلمات ولا التضحية بالابناء أو الأعمال الاخرى المناقضة للطبيعة ولكن تترجم طبيعياً وببساطة دون تيه وتحدث دائماً أعظم النتائج .

كانوا يقولون لهم : « ان من العار ان تهربوا من الخطر . يجب ان يكون المرء نذلاً ليغادر موسكو » . وكان رستوبتشين في منشوراته يلمح الى ان فرارهم يحط من الشرف ، فكانوا يحسون بالتجريح اذ ينعتون بالجبناء وتأخذ عليهم ضمائرهم ارتحالهم ، لكنهم مع ذلك كانوا يرحلون وهم يشعرون بضرورة الرحيل . لماذا يغادرون المدينة ؟ لايمكن الافتراض ان روستوبتشين قد روعهم في وصفه للفظائع التي ارتكبها نابوليون في البلاد المحتلة . كانوا يرحلون وفي المقدمة ، الاغنياء والمثقفون الذين يعلمون علم اليقين ان برلين وفيينا بقيتا سليمتين رغم احتلال نابوليون ، وان السكان وجدوا متعة كبيرة أثناء الاحتلال مع أولئك الفرنسيين الفاتنين الذين كان الروسيون ، والنساء بصورة خاصة ، يحبونهم حباً جماً في ذلك الحين .

كانوا يرحلون لأن السؤال عما اذا كانوا سيعيشون عيشاً رضياً أو سيئاً في موسكو ابان الاحتلال لم يكن قائماً بالنسبة الى الروسيين . لقد كانت الحياة نفسها تحت ذلك النظام هي المستحيلة في نظرهم التي تعتبر بمثابة أقصى درجات البلاء . ولقد شرعوا بالرحيل قبل بورودينو . وبعد بورودينو ، أخذوا يخرجون

من موسكو بأكثر سرعة دون ان يعبأوا بالنداءات التي تدعوهم الى الدفاع عن المدينة . وعلى الرغم من مشيئة حاكم موسكو الذي كان يريـد ان يشكل موكباً دينياً يحمل فيه ايقونة ايبريا ، أشهر الايقونات في موسكو ، ويخرج الى المعركة ، فقد ذهبوا ، رغم المناطيد التي ستجر الدمار على الفرنسيين ، رغم كل السخافات التي حشا فيها روستوبتشين بياناته . كانوا يعرفون ان واجب الجيش هو ان يقاتل وانه اذا كان الجيش عاجزاً ، فانـه ليس عليهم هم ان يذهبوا الى الجبال الثلاثة ، هو التل القائم شرقي موسكو ، ليشتبكوا في معركة مع نابوليون ببناتهم وخـدمهم بل ان عليهم ان يرحلوا مهما بلغ حزنهم على تخليفهم ممتلكاتهم التي لم يستطيعوا نقلها للدمار . كانوا يذهبون دون التفكير في المعنى العظيم الذي يتجسد في مغادرة هذه المدينة العظيمة الغنية التي ستُحرق حتماً بعـد مغادرة السكان لها ، لأن الشعب الروسي يستوعب فكرة العزوف عن احراق الدور الخالية وتدميرها . كانوا يذهبون منفردين وبذلك تم العمل الجليل الذي ظل اكبر مجد للشعب الروسي . فالسيدة العظيمة فلانة التي غـادرت موسكو منذ شهر حزيران مع زنوجها ومهرجيها لتحتمي في ملك لها باقليم ساراتوف ، شعرت بابهام انها ليست خادمة بونابارت فراحت ترتعـــد فرقاً من ان يثنيها أمر روستوبتشين ، ان مثل هذه السيدة ساهمت ببساطة وبشكل طبيعي في العمل العظيم العام الذي أنقذ روسيا . والكونت روستوبتشين الذي كان يعيب على الفارين وتارة يهتم باجلاء الدوائر ، يوزع أسلحة رديئة على خليط من السكارى تارة وينظم موكباً دينياً رافعاً ايقونة تارة اخرى ، يمنع رئيس الأساقفة اوجوستين ، من اخراج الايقونات وصناديق ذخائر القديسين طوراً وطوراً يصادر العربات الخاصة في المدينة ، يأمل بنقل منطاد ليبيخ على مائة وست وثلاثين عربة حيناً ويلمح حيناً آخر الى انه سيحرق موسكو ، روستوبتشين الذي كان يعيب على الفرنسيين

تارة في بيان وجهه اليهم بجلال انهم خربوا مأوى الاطفال ، ويروي تارة اخرى كيف أحرق بيته بالذات ، تارة يعترف بحريق موسكو ويأخذه على عاتقه وطوراً ينكره ، يأمر الشعب ان يقبض على كل الجواسيس وان يأتي بهم اليه حيناً وحيناً يستنكر عملهم هذا ، ينفي كل الفرنسيين من موسكو طوراً وطوراً يترك فيها السيدة اوبير - شالمية التي كان متجرها ملتقى كل الجالية الفرنسية ، ثم يأمر بالقبض على كليوتشاريف العجوز المحترم ، وهو مدير البرد ، دون أي مبرر وينفيه ، يستدعي السكان للذهاب الى الجبال الثلاثة لمقاتلة الفرنسيين ثم ، لكي يتخلص من الحشود ، يقدم لهم رجلاً يقتلونه بينما يفر هو من باب خلفي ، كان روستوبتشين هذا الذي يزعم تارة انه لن يعيش ليرى محنة موسكو ويكتب في مذكراته أبياتاً بالفرنسية حول الاتجاه الذي سيسلكه تارة اخرى ، لا يدرك شيئاً من الأحداث الدائرة لكنه كان يريد ان يعمل شيئاً ما وان يدهش ويقوم بعمل فيه وطنية بطولية ، فكان يلعب كالطفل بذلك الحدث المشؤوم المهول الذي يتمثل في هجر موسكو واحراقها ويجتهد مستعملاً يده الضعيفة سواء في اذكائه أم في ايقاف السيل الشعبي اللجب الذي كان يحمله مع تياره .

* * *

الفصل السادس

خطة هيلين

أصبحت هيلين اثر عودتها مع بلاط فيلنا الى بيترسبورج في موقف مربك.

كانت بيترسبورج مشمولة بعناية سيد كبير يحتل واحداً من أرفع مراكز المملكة . وفي فيلنا ، ارتبطت مع أمير أجنبي شاب ، فلما عادت الى بيترسبورج راح الأمير والسيد العظيم اللذين كانا هناك كلاهما ، يطالبان بحقوقهما ، فعرضت لها مشكلة جديدة كل الجدة في حياتها الخاصة . الا وهي المحافظة على صداقة كل منهما المقربة دون ان تجرح أحداً منهما .

ان ما كان ليبدو صعباً بل ومستحيلاً بالنسبة الى امرأة اخرى ، لم يبرز للكونتيس بيزوخوف أية مادة للتفكير ، وهي التي كانت بحق تظهر امرأة متفوقة . فلو أنها حاولت ان تخفي سلوكها وان تعمد الى الحيل لتنقذ نفسها من الارتباك ، لافسدت بذلك كل شيء ولكان عملها بمثابة الاعتراف بخطأها . لكن هيلين على العكس ، كرجل عظيم حقيقي يقدر على كل مايريد ، وضعت بجانبها الحق المكتسب الذي كانت نظن انها تمشي بوحيه ، والقت التبعة على الآخرين .

وأول مرة سمح الامير الاجنبي لنفسه ان يوجه اليها اللوم ، نصبت رأسها الجميل بكبرياء والتفتت نصف التفاتة اليه وقالت له بلهجة مطمئنة :

— ها هي أنانية الرجال وقسوتهم ! ما كنت أتوقع شيئاً آخر . ان المرأة

تضحي بنفسها من أجلكم فتتألم وهاهو ذا جزاؤها . أي حق لك ياصاحب السيادة في ان تسألني علماً عن صداقاتي واحبائي ؟ انه أب كان أكثر من أب بالنسبة الي .

وأراد الأمير ان يقول كلمة في هذا المضمار لكن هيلين قاطعته قائلة :

– حسناً ، نعم ، يجوز انه يشعر نحوي بعواطف غير عواطف الأب ، لكن هذا ليس سبباً يوجب ان أغلق بابي دونه . انني لست رجلا لأكون جحودة . اعلم ياصاحب السيادة انني لاأسأل في كل ماله علاقة بعواطفي الشخصية الا أمام ربي وضميري .

ولقد انهت حديثها بهذا القول وهي ترفع يداً الى صدرها الجميل الذي علا من الانفعال وتشخص بابصارها الى السماء .

– ولكن ، اصغي الي بحق السماء .

– تزوجني فأكون عبدتك .

– لكن هذا مستحيل .

– أنك لاتتنازل بالانحدار الى مستواي ، أنت . . .

وانفجرت باكية .

حاول الشخص رفيع المقام ان يهدئها . لكن هيلين قالت له خلال عباراتها دون ان تتظاهر بانها تستعطفه ، ان مامن أحد يستطيع ان يمنعه من الزواج وان هناك امثلة مماثلة للطلاق – ولم يكن الطلاق شائعاً حينذاك ، لكنها اوردت على سبيل المثال نابوليون وبعض الشخصيات الاخرى ، وانها لم تكن قط زوجة بعلها بل كانت ضحية .

اعترض الأمير الشاب وقد كاد ان يستسلم :

– لكن القوانين ، الدين . .

فقالت هيلين :

ـ القوانين ، الدين .. أية فائدة من وصفهـا اذا لم تكن مفيدة في مثل هذه الحالات !

مضى الأمير الكبير الذي أذهله ان تكون مثل هـذه الفكرة البسيطة لم تخطر على باله من قبل ، يستشير الاباء المقدسين من صحبة يسوع الذي كانت تربطه بهم صلات وثيقة .

وبعد بضعة ايام ، قدموا اليها في احـدى الحفلات اللامعة التي كانت هيلين تحييها في دارة كاميني ـ أوستروف ، رجلاً في سن ما ، أبيض الشعر كالثلج ، أسود العينين براقهما ، السيـد دوجوبير البطر ، يسوعي في ثوب قصير . ولقد تحدث في الحديقة على أنغام الموسيقى على ضوء المشاعل ، فترة طويلة مع هيلين حول حب الله والمسيح وقلب مريم المقدس والسلوان الوحيد الذي يعد به في هذه الدنيا والدنيا الآخرة الايمان الوحيد الحقيقي الذي هو الدين الكاثوليكي فتأثرت هيلين تأثراً عميقاً حتى ان الدموع انبجست مراراً في عينيها وعيني السيد دوجوبير وارتعد صوتها من الانفعال اكثر من مرة . ولقد جاء راقص يدعوها فقطع حديثها مع مدير ضميرها المقبل . وفي اليوم التالي ، جاء السيد دوجوبير وحده مساء الى دار هيلين ومنذ ذلك الحين ، أصبح من المواظبين على زيارتها .

وذات يوم ، قاد الكونتيس الى كنيسة كاثوليكية فركعت أمام المذبح حيث قادها ذلك الفرنسي الفتـان الذي تخطى سن الشباب اللامع ووضع يديه على رأسها وحينئذ ـ وهذا ما روته فيما بعد ـ احست بشيء اشبه بالنفحة المنعشة يتغلغل في اعماقها ففسروا لها ان ذلك الشيء هو « الغفران » .

ثم جاؤوها بقسيس ذي جبة طويلة سمع اعترافها ومنحها الغفران . وفي اليوم التالي ، جاؤوها بعلبة تحوي على القربان المقدس تركوها عندها رهن اشارتها . ولم تمض ايام حتى علمت هيلين بارتياح شديد أنها الآن باتت تنتسب الى الكنيسة

الحقيقية الكاثوليكية وان البابا سوف يحاط علماً بذلك وانه سيرسل اليها وثيقة بهذا المعنى .

ولقد عاد عليها كل ماحدث حينذاك في نفسها وحولها وما حظيت بـه من عناية شخصيات مرموقة جداً كانت تظهر لها بوسائل رقيقة جداً ومقبولة ، ونقاء الحمام الذي باتت عليه وهي التي اقتصرت في ارديتها على الاثواب البيضاء المزينة بأشرطة بيضاء ، كل ذلك عاد عليها بكثير من الرضي . لكن ذلك الرضى ما كان يجعلها تضيع دقيقة واحدة الهدف الذي وضعته نصب عينها . لكنها لم تلبث ان ادركت ، كما يحدث عادة في عالم الخداع عندما يمكر احمق دائماً بالأكثر ذكاء ان كل هذه الكلمات والتصرفات كانت تهدف الى غاية واحدة وهي استخلاص المال منها لصالح اليسوعيين الذين اهدوها الى الكثلكة اذ الحوا الى ذلك امامها وقبل ان تعتذر هيلين ، قدمت شروطها . ارادت ان ينهوا لمصلحتها الرسميات بطلاقها ، فالأديان في نظرهـا ، كل الأديان ، ليست صالحة الا لأنقاذ الاداب عندما تكون الاهواء البشرية موضع البحث . وعلى ذلك ، فانها خلال احدى محادثاتها مع هاديها ، سألته بحزم ان يقول لهـا الى أي حد باتت روابط الزواج تربطها .

كانا جالسين في البهو قرب النافذة المفتوحة التي كان عبير الزهور ينفذ اليهما عن طريقها . وكانت هيلين مرتدية ثوباً ابيض شفافاً عند الصدر والكتفين والقسيس ، وهو رجل سمين ممتلىء الخدين حليق بأناقة ، ذو فم شهواني بديع الخطوط ، جالساً بالقرب منها ويداه البيضاوان معقودتان بتواضع على ركبتيه والابتسامة الرقيقة تتيه على شفتيه . كان يتأملها من حين الى آخر بنظرة متأثرة بهدوء بجمالها وهو يفسر لها وجهة نظره حول الموضوع الذي يشغلها . وكانت هيلين تبتسم في شيء من القلق وهي تنظر الى هـذا الرجل ذي الشعر العكف

والخدين الممتلئتين النظيفتين وتتوقع بين آونة واخرى ان يحيد بها الحديث عن الموضوع . لكن القسيس ، رغم وقوعه تحت سلطان فتنتها ، كان مستسلماً لسيطرته على أعصابه التي هي من صميم عمله .

كان مدير الضمير يحلل الأمر كالآتي : « لقد اقسمت يمين الاخلاص وانت جاهلة الواجبات التي تتعهدين بها لرجل عقد من جانبه زواجاً دون أن يؤمن بأهميته الدينية ومن هنا ، قد ارتكب هذا الرجل دنساً حقيقياً . ان هـذا الزواج لم يحمل طابع التبادل الذي وجب ان يحمله مع ذلك ، فان يمينك قـد ربطتك برغم ذلك وانت تحنثين الآن بها . فماذا اتيت تبعاً لذلك ؟ هل هي خطيئة عرضية ام خطيئة مميتة ؟ خطيئة عرضية لانك بارتكابها لم تكوني مدفوعة بنوايا سيئة . فاذا تزوجت الآن من جديد وانت تهدفين الى انجاب الأطفال فان خطيئتك يمكن ان تغتفر . لكن للمسألة رغم ذلك وجهين : الاول .. »

قالت هيلين فجأة وقد أزعجتها هذه المحاضرات ، متسلحة بابتسامتها الساخرة :

ـ لكنني أظن أنني ما عدت مرتبطة بتعهدات فرضتها علي الديانة الخاطئة وانا التي اعتنقت الدين الحقيقي .

أخذ مدير الضمير اذ رأى مسألة بيضة كولومبوس تعرض أمامه بكل هذه البساطة . ولقد فتنة التقدم السريع غير المنتظر من جانب تلميذته . لكنه مع ذلك لم يستطع ان يتنكر لاسلوبه الحججي الذي بُني بمجهود كبير فقال وهو يبتسم :

ـ لنتفق يا كونتيس .

وراح ينقض حجج ابنته بالروح .

الفصل السابع

رسالة هيلين

كانت هيلين عارفة ان المسألة غاية في البساطة والسهولة من الوجهة الدينية وان أدلاءها لايثيرون مثل هذه العقبات الا خشية من الاستقبال الذي ستقيمه السلطة العلمانية لهذا النبأ .

وعلى ذلك فقد قررت ان تعد الرأي العام لتقبل طلاقها . أيقظت بادىء الأمر غيرة حاميها العجوز ثم خاطبته بمثل ما خاطبت به المدنف الآخر بالضبط ملمحة الى ان الوسيلة الوحيدة التي تعطيه حق الاشراف عليها انما هي زواجه بها . ولقد شده الكبير العجوز لاول وهلة كما شده من قبل الأمير الشاب ازاء عرض الزواج هذا تقدمه امرأة زوجها على قيــد الحياة . لكن هيلين كانت تكرر بثقة ثابتة ان هذا الأمر على غاية السهولة طبيعي مثل زواج فتاة عزباء فانتهي به الأمر هو الآخر الى الاقتناع . فلو أنها أظهرت أقل خجل أو تردد أو رثاء لضاعت الصفقة بالنسبة اليها . لكن الأمر جرى على عكس ذلك اذ راحت ببساطة وبراءة ومزاج صاف تروي لأصدقائها الخلص (وهم كل بيترسبورج) ان الأمير والسيد الكبير عرضا عليها الزواج وانها تحب كل واحد منهما فلاتريد ان تسبب ازعاجاً لاحدهما .

ولقد راجت الشائعة في بيترسبورج كلها ليس ان هيلين تريد الطلاق ، لأن مثل هذه الاشاعة كانت قمينة باستفزاز اشخاص كثيرين ضد هـذه المحاولة غير

القانونية ، بل ان هيلين التعيسة المغرية تتساءل في حيرة عن أي الاثنين تتزوج. فالمسألة اذن لم تعد قائمة على مدى امكانية تحقيقها بل فقط على أي الصفقتين أفضل ورأي البلاط في الموضوع . صحيح انه كان هنالك بعض الأشخاص المتأخرين العاجزين عن التسامي الى مرتبة هذه المشكلة ، ظلوا يرون في هـذا المشروع تدنيساً لقدسية الزواج ، لكن هؤلاء كانوا قلة وكانوا يلزمون الصمت . امـــا السواد الاعظم ، فانه ما كان ليهتم الا بسعادة هيلين وبالانتقاء الذي سيقر رأيها عليه . اما معرفة ما اذا كان الزواج على حياة الزوج خيراً ام شراً ، فان ما من احد بحث فيه اذ لابد وان يكون الامر قد وُجد له مخرج سلفاً من قبل اشخاص « اكثر علماً واطلاعاً منك ومني » ، فلم يكن الأمر اذن يستدعي الشك في شرعية هذا القرار اذ مامن احد كان يرغب في ان يظهر في المجتمع اللامع بمظهر الاحمق او سيء الاطلاع .

باستثناء ماري دميتريفنا آخر وسيموف القادمة حديثاً الى بيتر سبورج لزيارة أحد أبنائها ، فانها وحدها التي سمحت لنفسهـا بالتعبير عن رأيها بصراحة مضادة للرأي العام . اذ بينما قابلت هيلين في حفلة راقصة ، استوقفتها وسط البهو أمام الناس كلهم وقالت لها بصوتها القـاسي وسط السكون الذي ران : « ها انهم هنا عندك يتزوجن وأزواجهن على قيد الحياة . فهل تعتقدين انك ابتكرت شيئاً جديداً ؟ انك متأخرة ياعزيزتي . لقد وجدوا هذا منذ وقت طويل . انه هو ما يعملونه في كل الـ . . » وكانت ماري دميتريفنا تشمر عن أكمامها بحركة تهديدية مألوفة وهي تتابع حديثها . وبعـد ان صعقت هيلين بنظرة محرقة ، تابعت طريقها .

وكانت ماري دميتريفنا رغم المهابة التي توحيهـــا الى الناس ، تعتبر في بيترسبورج على جانب من الجنون . لذلك فـان السامعين لم يحفظوا من كلماتها

الا فظاظة الكلمة الأخيرة فكانوا يرددونه بينهم بصوت خافت واجدين انه يلخص جوهر ما كانت تريد ان تقوله كله .

وكان الأمير فاسيلي الذي أصبح ينسى ما قاله منذ حين ويكرر الشيء نفسه مائة مرة وخصوصاً في الآونة الأخيرة ، يقول لابنته كلما جاء لزيارتها :

— هيلين ، عندي كلمة أقولها لك .

وينتحي بها جانبا ثم يقول :

— لقد تناهت الي لمحات عن مشاريع معينة تتعلق بـ .. تعرفين . حسناً يابنتي العزيزة ، أنك تعرفين ان قلبي كأب يسر اذ يعلم انك .. لقد تألمت كثيراً .. ولكن ياطفلتي العزيزة .. لاتستشيري الا قلبك . هذا كل ما أقوله لك .

ثم يدلك وجنته بوجنة ابنته وهو يخفي حركة آمرة ويبتعد .

قال بيليبين الذي لم يفقد قط شهرته كنقاد لبق والذي كان صديقاً مجرداً لهيلين ، صديقاً كالأصدقاء الذين يتخذهم سيدات المجتمع الراقيات ، صديق لايقع أبداً في دور العاشق ، قال بيليبين هذا ذات يوم لصديقته هيلين رأيه حول الموضوع كله في مؤتمر صغير .

— اصغ يابيليبين . (وكانت هيلين دائماً تدعو الاصدقاء من طراز بيليبين باسماء عائلاتهم) ـ ووضعت يدها البيضاء المثقلة بالخواتم على كم ثوبه وهي تتكلم ـ قل لي كما تقول لاخت ماذا يجب علي ان أعمل ؟ أي الاثنين ؟

فجعد بيليبين بشرة جبهته فوق حاجبيه وارح يفكر والابتسامة على شفتيه . قال :

— انك لو علمت لن تأخذيني على حين غرة . لقد فكرت كصديق حقيقي وأعدت التفكير في مسألتك . فانت كما ترين لو تزوجت الأمير (وكان يعني

الأمير الشاب) فقدت - وراح يعدد على أصابعه - الى الأبـد فرصة الزواج من الآخر ثم أثرت سخط البلاط لأنه كما تعلمين هناك رابطـة نسب . لكنك اذا تزوجت الكونت العجوز ، أسعدت أيامه الأخيرة ثم عندما تصبحين أرملة العظيم .. ، فان الأمير لن يرتكب غلطة الارتباط مع ادنى اذا تزوجك .

وهنا اسبل بيليبين بشرة جبهته . فقالت هيلين مشرقـة الوجه وهي تضع من جديد يدها على كم بيليبين :

- هاهو ذا صديق حقيقي . لكن المسألة انني أحب هـذا وذاك ولا اريد احزانهما . انني اضحي بحياتي لسعادتهما كليهما .

هز بيليبين كتفيه معلناً بذلك عجزه عن مواساة هذا الألم .

فكر بيليبين : « امرأة خليلة ! هذا مايسمى طرح السؤال بشكل سافر . انها تود ان تتزوج الثلاثة معاً . » سألها وهو يأمل انتكون شهرة من الاستقرار بحيث تسمح له بطرح سؤال على مثل هذا السذاجة :

- ولكن قولي لي كيف سينظر زوجك الى الموضوع ؟ هل سيوافق ؟

هتفت هيلين وهي تظن كـــذلك - والله أعلم بالسبب - ان بيير يحبها أيضاً :

- آه ! انه يحبني كثيراً ! انه سيعمل كل شيء من أجلي .

عاد بيليبين يجعد جبهته الأمر الذي يعني انه يعد كلمة مناسبة . قال :

- حتى الطلاق .

فانفجرت هيلين ضاحكة .

كانت الأميرة كوراجين والدة هيلين في عدادالذين سمحوا لأنفسهم بالارتياب في شرعية الزواج . لقد كانت تحسد ابنتها دائماً . والآن وقدباتت أسباب الغيرة منها تحس قلبها على مدى أقرب ، فانها ما كانت تستطيع احتمال هذه الفكرة .

ذهبت تستشير قسيساً روسياً حول الحالات التي يمكن الطلاق فيها وما اذا كان يحق للمرأة ان تتزوج وزوجها على قيد الحياة . فقال لها القسيس ان المسألة لايمكن ان تجري وأشار – لشديد بهجتها - الى نص الانجيل الذي ينفي بجزم كل امكانية للزواج في مثل هذه الشروط .

وذات صباح ، بكرت بالذهاب عند ابنتها بغية الانفراد بها ، وهي مسلحة بهذه الحجج التي اعتبرت انها لاتقبل النقض .

طافت ابتسامة رقيقةساخرة على شفتي هيلين ازاء اعتراضات امها . وكررت الأميرة العجوز :

– نعم ، لقد جاء فيه بصراحه : من يتزوج امرأة مطلقة . .

فقالت هيلن وهي تنتقل من الروسية الى الفرنسية لأنه كان يخيل اليها دائماً ان في قضيتها بعض الغموض بالروسية :

– آه ! اماه ، لاتتفوهي بحماقات . انك لاتفقهين شيئاً . ان علي واجبات وأنا في مركزي .

– ولكن ياعزيزتي . .

– آه ! اماه ، كيف لاتعرفين ان الاب المقـــدس له الحق في منح استثناءات . .

وفي تلك اللحظة ، جاءت السيدة مرافقة هيلين تعلن ان سعادتة في اليهووانه يرغب في رؤيتها .

– كلا ، قولي له انني لااريدرؤيته وانني غاضبة عليه لأنه حنث بكلمته معي .

فقال شاب أشقر طويل الوجه طويل الأنف وهو يدخل :

– ايتها الكونتيس ، لكل خطيئة عفو .

نهضت الأميرة العجوز باحترام وانحنت انحناءة عميقـة فلم يتنازل القادم

الجديد باقطاعها نظرة . أشارت الأميرة برأسها الى ابنتها وتسللت نحو الباب .

حدثت الأميرة العجوز نفسها : « نعم ، انهـا على حق . » وتبخرت كل الموانع أمام ظهور سموه . « انها على حق . كيف جرى اننا خلال شبابنا الذي ولّى ولن يعود ، لم نعرف كل هذه الأشيـاء ؟ مع انها كانت سهلة جداً . » تلك كانت افكارها وهي تستقل عربتها .

وفي بداية آب ، تركزت مشاكل هيلين فكتبت الى زوجهـا الذي يحبها كثيراً على ما كانت تظن ، رسالة أخطرته فيها بأنها اعتنقت الدين الحقيقي الوحيد وانها تفكر في الزواج بـ : ن . ن . وترجوه بالتـالي ان يقوم بالاجراءات اللازمة للطلاق ، وهي الاجراءات التي سيعينها له حامل الرسالة .

« وعلى هذا ، فانني أرجو الله ياصديقي ان يأخذك بحمايته المقدسة القوية . صديقتك : هيلين . »

ولقد حملت هذه الرسالة الى مسكن بيير في حين كان هـذا في معسكر بورودينو .

★ ★ ★

الفصل الثامن

محنة بيير

للمرة الثانية ، قرب نهاية المعركة ، غادر بيير « بطارية » رايفسكي وفر مع جماعة الجنود نحو كنياز كوفو عن طريق واد فوصل الى مستشفى . لكنه امام مشهد الدم والصرخات والانين ، أبتعد عن المكان مسرعاً مختلطاً بالزحام .

وكان ما يرغب فيه الآن هو ان يخرج باسرع ما يمكن من هـذه المشاهد المريعة التي ملأت نهاره وان يعود الى الحياة العادية فينام هادئاً في غرفته ، في سريره . شعر بانه لكي يرى بوضوح ما في اعماقه ، لكي يفهم كل ما رآى ومر به منذ حين ، يجب قبل كل شيء ان يستعيد ظروفه الحياتية المألوفة . لكن تلك الظروف لم يعد لها وجود .

لم تعد القذائف والرصاص تصفر على الطريق الذي راح يسير فيه مع ذلك ، فانه كان من كل الجهات اشبه بساحة المعركة . في كل مكان ، تلك الوجوه المتألمة القلقة المطبوعة أحياناً بلا مبالاة غريبـة ، وفي كل المكان الدم والجنود في معاطفهم وفرقعة تبادل الرصاص التي رغم الابتعاد عن مكانها قليلاً ، ما كانت فاقدة شيئاً من هولها . وفوق كل ذلك ، الحرارة والغبار الخانقين .

وبعد ان اجتاز حوالي ثلاثة فراسخ على طريق موجائيسك العام ، توقف بيير عند جانب الطريق .

بدأ الغسق ينسدل على الارض وصمت دوي المدافع . تمدد بيير وظل ممدداً

هكذا فترة طويلة متكئاً الى مرفقيه يراقب بعينيه الاطياف التي تمر بجانبه في الظلام . كان يخيل اليه باستمرار ان قذيفة آتية نحوه ولها صفير ، فينتفض وينتصب لم يستطع قط ان يتذكر الوقت الذي امضاه في ذلك المكان . وعند منتصف الليل ، جاء ثلاثة من الجنود يجرون اغصاناً وراءهم فأوقدوا النار بالقرب منه .

اخذوا ينظرون الى بيير بجانب أعينهم وهم منهمكون في اعداد موقدهم ثم كسروا قطع « البقسماط » في قصعاتهم واضافوا اليها قليلاً من الدهن . ولم تلبث رائحة الطعام الطيبة ان امتزجت برائحة الدخان فنهض بيير واطلق زفرة وكان الجنود الثلاثة يأكلون وهم يتحدثون فيما بينهم غير آبهين له .

وفجأة سأل احد الجنود بيير :

- وانت ، من أي فيلق انت ؟

وبالطبع لم يكن معنى السؤال الا : « اذا شئت اطعمناك ولكن يجب أولاً ان تقول لنا ما اذا كنت شريفاً . »

هتف بيير وهو يشعر بضرورة الحط من قيمته الاجتماعية كي يصبح اقرب الى نفوسهم فيفهمونه اكثر :

- انا ؟ انا ؟ .. انا ، ضابط في فرق المتطوعين ، لكن فرقتي لم تعد هنا . لقد جئت الى المعركة فاضعت رجالي .

قال احد الجنود :

- تأمل هذا !

وهز جندي آخر رأسه . فقال الأول :

- حسناً كل اذا كان الطعام يعجبك !

ومد الى بيير الملعقة الخشبية بعد لعقها .

جلس بيير أمام النار وراح يأكل الطعام في القصعة نفسها فلم يبدله طعام

قط اشهى من هذا . وبينما هو منحن فوق القصعة يجمع الطعام ويلتهمه بملاعق مملوءة الملعقة تلو الاخرى ، راح الجنود يتأملون وجهه الذي تضيئه النارصامتين سأل احدهم من جديد :

ـ حسناً ، والآن من أي طريق يجب ان تذهب ؟

ـ انني ذاهب الى موجائيسك .

ـ ألست سيداً ؟

ـ بلى .

ـ وما هو اسمك ؟

ـ بيوتر كيريلوفيتش .

ـ حسناً يابيوتر كيريلوفيتش . الى الامام وسندلك على الطريق .

وتوجه الجنود وبيير نحو موجائيسك في ظلام دامس .

ولما بلغوا هضبة موجائيسك ، كان الديك يصيح . فشرعوا يرتقون السفح المنحدر الذي يؤدي الى المدينة . كان بيير يتبع الجنود وقد نسي تماماً ان نزله قائم عند سفح التل . ولقد تجاوزه وما كاد ليذكر لشدة انشغاله لولا ان اصطدم عند منتصف السفح بخادمه المرافق الذي كان عائداً الى النزل بعد ان ظل يبحث عنه في موجائيسك . تعرف الخادم في الظلام على بيير من قبعته البيضاء فقال :

ـ ياصاحب السعاد . لقد كنا في اقصى حالات اليأس . كيف ، انت تمشي على قدميك ؟ تعالى ارجوك !

فقال بيير :

ـ آه ! نعم .

وتوقف الجنود . سأل احدهم :

ـ اذن ، هاقد وجـــدت ذويك ؟ الوداع اذن يابيوتر كيريلوفيتش

على ما اظن ؟

وقال الآخرون :

– الوداع يابيوتر كيريلوفيتش .

فكر بيير وهو يستعد لاتباع خادمه حتى النزل :

– الوداع .

فكر وهو يمد يده الى جيبه : « ان أعطيهم شيئاً ! » لكن صوتاً داخلياً أجابه : « كلا ، لايجب . »

لم يعد هناك مكان في غرف النزل اذ شُغلت كلها . فمضى بيير الى الفناء ونام في عربته وقد غطى رأسه بمعطفه .

★ ★ ★

الفصل التاسع

العودة الى موسكو

لم يكد بيير يضع رأسه على الوسادة حتى شعر بأنه ينام . مع ذلك فقد سمع فجأة وبوضوح الحقيقة نفسها دوي المدافع : بم ، بم ، بم والأنين والصيحات وانفجارات القنابل وشم رائحة الدم والبارود فاستبد به الذعر والهول من الموت وفي وسط ذلك الرعب ، فتح عينيه ورفع رأسه من تحت المعطف فاذا بكل شيء هادئ في الفناء . وأمام البيت الخارجي كان تابع في طريقه يثرثر مع البواب ويمشي في الطين . وفوق رأسه ، في ظل الواح الرواق ، راح الحمام يصفق بجناحيه وقد أخافته الحركة التي أتى بها وهو ينهض . كان الفناء كله يتضوع بتلك الرائحة القوية الهادئة التي تفوح من الخانات والتي كانت في تلك الأثناء تنعش بيير : رائحة العلف والدم والقار . ومن خلال الفجوة التي بين الرواقين ، كانت السماء الصافية تطل بنجومها .

فكر بيير وهو يغطي رأسه من جديد : « شكراً لله ، لقد انقضى كل هذا . آوه ! ياله من خوف رهيب وياللعار اذ استسلمت له ! في حين انهم .. هم ، ظلوا طيلة الوقت وحتى النهاية صامدين هادئين .. »

و « هم » في نظر بيير ، هم الجنود ، جنود « البطارية » الجنود الذين اطعموه اولئك الذين كانوا يصلون امام الايقونة . « هم » ، هم اولئك الاشخاص غريبو

الاطوار الذين ظلوا مجهولين منه حتى ذلك الحين ، اولئك راحوا يبرزون في مخيلته بوضوح فيطغون على كل ماعداهم من الرجال .

اخذ بيير يفكر وهو يعاود النوم: « ان اكون جندياً، لا اكثر من جندي ، ان ادخل بكل روحي في هذه الحياة الشائعة المشتركة وان تعتلج في نفسي تلك العواطف التي تجعلهم كما هم . ولكن كيف الخلاص من كل عبء الحياة الخارجية التافهة الشيطاني ؟ لقد مضى وقت كنت أستطيع خلاله ان اكون كذلك . كنت اقدر على الفرار من لدن أبي كما كنت مقرراً . كذلك كنت قادراً بعد مبارزتي مع دولوخوف ان أرسل الى الفيلق كجندي . » وراحت الصور في مخيلة بيير تتلاحق : ذلك العشاء في النادي اولاً حيث استفز دولوخوف ، ثم المحسن اليه في تورجوك . تصور بعدئذ اجتماعاً جليلاً في المحفل . لقد عقد ذلك الاجتماع في النادي الانجليزي . وكان بعضهم ، اليف قريب عزيز يجلس الى رأس المائدة . آه ! انه هو ! انه المحسن ! وفكر بيير : « لكنه مات ! نعم ، لقد مات وما أعرف انه سيحيا من جديد . كم أسفت لموته ، كم أنا مسرور ان يعود الى الحياة ! » كان أناتول ودولوخوف ونيسفيتسكي ودينيسوف وآخرون جالسين على جانب من المائدة ، وكانت الزمرة التي ينتمي اليها هؤلاء الناس من الوضوح والدقة في نفس بيير بما يماثل الزمرة التي راح يدعوها « هم » . وكان هؤلاء الناس واناتول ودولوخوف يصرخون ملء حناجرهم ويغنون ، لكن صوت المحسن كان يطغى على أصواتهم . كان يتكلم دون ملل فكانت لهجة ذلك الصوت رغم ما فيها من مستحب ومسل ، آمرة ومسترسلة أشبه بدوي ساحة المعركة ، ما كان بيير يفهم مايقوله المحسن لكنه كان يعرف مع ذلك -- لشدة ما تكون الافكار من هذا النوع جلية في الأحلام -- انه يتكلم عما هو خير وعن امكانية الإنقلاب الى ما « هم » عليه . وكانوا « هم » يحيطون بالمحسن من كل الجهات

بوجوهم الباسلة البسيطة الطيبة . ولكن ، رغم طيبتهم ، فانهم ما كانوا ينظرون الى بيير وما كانوا يعرفونه فأراد بيير ان يقول شيئاً وان يجتذب انتباههم ، فنهض . وفي تلك اللحظة ، شعر بالبرد في ساقيه اللتين خرجتا من تحت الغطاء.

احس بالخجل فأعاد باحدى يديه معطفه الذي انزلق على ساقيه ، وبينما كان بيير يسوي معطفه ، فتح عينيه فطالعته الاروقة نفسها والأعمدة نفسها والفناء نفسه ولكن تحت ضوء مائل الى الزرقة ، مزين بالندى اللامع والجمد الأبيض.

فكر بيير: « ها هو ذا الفجر. ولكن الأمر لا يتعلق بهذا . يجب أن أصغي حتى النهاية وأن أفهم أقوال المحسن.» عاد بيير يغيب نفسه تحت معطفه ، لكن لم يعد هناك محفل ولا محسن ، لم يبق له الا الاصغاء الى اراء أخذت توضحها كلمات ينطق بها بعضهم ويصيغها أولاً بأول .

ولما تذكر تلك الآراء فيما بعد ، التي لم تنجم الا عما رآه خلال ذلك النهار ظل مقتنعاً ان شخصاً ما ، خارجياً عنه ، قالها له . خيل اليه انه ما كان يستطيع قط في حالة اليقظة ان ينعم بأفكار مماثلة وان يعبر عنها بنفسه .

كان الصوت يقول : « ان أصعب ما في الوجود هو اخضاع الحرية الانسانية للقانون السماوي . ان يكون المرء بسيطاً يعني ان يخضع لله ولا يمكن الافلات منه . و « هم » بسطاء . « هم » لا يتكلمون ولكن يفعلون . ان الكلام من فضة ولكن الصمت من ذهب. والرجل لا قيمة له طالما ظل يخاف الموت . وكل شيء ملك للذي لا يخافه . ان الانسان لولا الألم ، لا يستطيع معرفة حدوده ولا معرفة نفسه. ان أصعب ما في الوجود هو - كما ظل بيير يسمع او بالأحرى يفكر - هو ان يوحد المرء في نفسه معاني الأشياء . - وتساءل - : ان كلها ؟ كلا ، انه غير صحيح . انه يتعذر توحيد الافكار واذن ، يجب ربطها ، هذا ما يجب ! نعم ، « يجب ربطها ، ربطها ! » وراح يردد بيير هذه العبارة

بحماس داخلي وهو يشعر بأن هذه الكلمات ، وهذه الكلمات وحدها ، تعبر عما يريد ان يقول وتحل كل المسألة التي تعذبه .

– نعم ، يجب ربطها . لقد آن الوقت أن تربط .

فردد الصوت .

– يجب قطر الخيول ، لقد آن وقت قطرها يا صاحب السعادة ! يا صاحب السعادة ، يجب قطر الخيول ، لقد ازف الوقت[1] .

وكانت ذلك هو صوت خادمه المرافق الذي جاء يوقظه وكانت الشمس تغمر وجه بيير بضيائها . نظر الى فناء الخان القذر الذي كان في وسطه بئر راح بعض الجنوديوردون منها خيولاً نحيلة بينما راحت عربات تجتاز الباب الخارجي . أشاح بيير بوجهه متقززاً واغمض عينيه ثم حشر نفسه بشدة على مقعد عربته . « كلا ، لااريد رؤية هذا ، لااريد رؤيته ولافهمه ، اريد فقط ان اعرف ما كشف عنه الغطاء لي خلال نومي . لوتأخرت ثانية اخرى لاستوعبت كل شيء وماذا يجب لي؟ ان أربط ، نعم ، ولكن كيف أربط كل شيء ؟ » وشعر بيير برعب ان المعنى العميق لما رآه وفكر فيه بالحلم قد انهار .

روى الخادم والحوذي والبواب لبيير ان ضابطاً حمل نبأ تقدم الفرنسيين على موجائيسك وتراجع رجالنا .

نهض بيير وأمر بأن تقطر الخيول وأن يلحقوا به ثم مضى مشياً على قدميه عبر المدينة .

---

(١) ذكر المترجم الى الفرنسية ان كلمتي « ربط وقطرة » باللغة الروسية لهما جرس واحد وأن الأفعال الروسية بهذا المعنى لاتختلف الا بالمقطع الذي تبدأ به الكلمة فحسب .

كانت القطعات قد ذهبت مخلفة وراءها قرابة عشرة آلاف جريح ، وكان هؤلاء يُرون في الأفنية ووراء نوافذ المنازل وجماعات متراصة في الشوارع ، وحول العربات التي كان عليهم ان تحملهم ، كانت الصرخات والشتائم ترتفع بل وكانوا يتبادلون اللكم . ولقد قدم بيير عربته التي لحقت به الى جنرال جريح كان يعرفه فحمله الى موسكو . وخلال الطريق ، اطلع بيير على نبأ موت أخي زوجه والأمير آندريه.

★ ★ ★

الفصل العاشر

قصة النداء

وصل بيير الى موسكو في الثلاثين من الشهر وعندما بلغ المدخل ، جاء مساعد عسكري للكونت روستوبتشين يلقاه . قال المساعد العسكري :

– اننا نبحث عنك في كل مكان . ان الكونت يرغب رغبة ملحة في رؤيتك . انه يستدعيك لأمر غاية في العجلة .

وبدلاً من أن يذهب الى منزله، استقل بيير عربة عامة ومضي لمقابلة الحاكم.

كان روستوبتشين قد عاد ذلك الصباح بالذات من دارته في سوكولنيكي القائمة في الضاحية. وكانت ردهته وغرفة استقباله غاصة بالموظفين الذين استدعاهم او الذين جاؤوا لوحدهم للتزود بالأوامر. ولقد استطاع فاسيلتشيكوف وبلاتوف ان يقابلاه من قبل وأن يشرحا له استحالة الدفاع عن موسكو التي يجب تسليمها. وكان هذا النبأ الذي ظلوا حتى ذلك الحين يخفونه عن السكان ،معروفاً من الموظفين ومن رؤساء مختلف الادارات . لقد كانوا يعرفون كما يعرف روستوبتشين نفسه ان موسكو ستقع بين أيدي العدو ، فجاؤوا كلهم ، رغبة منهم في التخلص من المسؤولية، يسألون الحاكم عما يعملونه بالخدمات الموكولة اليهم.

وفي الوقت الذي دخل فيه بيير غرفة الاستقبال ، كان ساع موفد من قبل الجيش يخرج من مكتب الكونت .

ولقد أجاب بحركة يائسة على الأسئلة التي راحوا يلقونها عليه عبر القاعة .

أخذ بيير يسرح عينيه المتعبتين في مختلف الموظفين بين كهول وشبان ، عسكريين ومدنيين ، الموجودين هناك وهو ينتظر دوره . لقـــد كانوا جميعاً تنطق تقاطيعهم بالاستياء والقلق فانضم بيير الى زمرة شاهد في عدادها بعض معارفه . وبعد أن حيوه ، عاد الحديث الى سياقه :

– ان تسريحه ثم استدعاءه فيما بعد لن يكون ذا شأن سيء طالما انه لايمكن التكهن بشيء حول الوضع الذي نحن فيه ..

فقال آخر وهو يعرض ورقة مطبوعة امسك بها في يده :

– نعم ، لكن ها هو ذا ، انه يكتب ..

فاستأنف الأول :

– ان هذا مختلف . انه واجب من أجل الشعب .

سأل بيير :

– ما الخبر ؟

– هذا . انه آخر منشور له .

أخذ بيير المنشور فقرأ فيه ما يلي :

« ان الأمير عظيم الرفعة ، بغية الالتحاق بالقطعات التي تمشي للقائه باسرع ما يمكن ، قد اجتاز موجايسك وتمركز في موقع حصين لايستطيع العدو ان يداهمه فيه . ولقد ارسل اليه من هنا ثمانية وأربعين مدفعاً مع ذخائرها ، ان عظيم الرفعة يؤكد ان موسكو سيُدافع عنها حتى آخر قطرة من الدم وانه على استعداد للقتال حتى في الشوارع ايها الاخوان ، لاتقلقوا اذا كانت الخدمات العامة قد توقفت : كان لابد من وضعها في مكان أمين . أما نحن ، فاننا سوف نسوي حسابه ، ذلك اللص ! عندما يحين الوقت ، اكون بحاجة الى فتيان اشداء مدنيين وقرويين . سوف أطلق صرخة النداء في غضون يوم او اثنين . أما الآن ،

فانني اصمت لأنه لالزوم لذلك . سيكون مناسباً ان يمتلك المرء فأساً ولابأس من أن يكون لديه حربة بل وأفضل ان يكون مسلحاً بمنجل فالفرنسي ليس أثقل وزناً من حزمة من الخرطال . غداً بعد الغداء ، سأنظم موكباً دينياً يحمل أيقونة ايبيريا للجرحى في مستشفى كاتيرين . وهناك سنبارك الماء فيشفون بسرعة أكثر . انني أنا الآخر قد شفيت الآن : لقد أصبت بألم في عيني والآن بت أرى بعيني الاثنتين .»

هتف بيير :

– لكن العسكريين قالوا لي انه لايجب التفكير في القتـــال في المدينة وان الموقع ..

فقال الموظف الأول :

– نعم ، وهذا ما كنا بصدد التحدث عنه .

سأل بيير :

– وما معنى : « اصبت بألم في عيني والآن بت أرى بعيني الاثنتين » ؟

شرح المساعد العسكري والابتسامة على شفتيه :

– لقد اصيب الكونت بشحاذ العين . لقد تعذب كثيراً عندما قلت له ان الشعب جاء يسأل عن أخباره .

وأضاف دون ان يكف عن الابتسام وهو يخاطب بيير :

– وعلى فكرة ، كونت ؟ لقد سمعنا انك متعرض لمتاعب زوجية وان الكونتيس زوجتك ..

قال بيير بلا مبالاة :

– ليست لدي أنباء عن ذلك . ماذا يقولون ؟

– آه ! انك تعلم ان هذه الأمور تكون غالباً من نبات الافكار . انني ما سمعت .

– وماذا يقولون ؟

استأنف المساعد العسكري يقول بالابتسامة نفسها :

– يقولون ان الكونتيس زوجتك ستسافر الى الخارج . لاريب انه امر مستحيل .

فقال بيير وهو يجيل حوله نظرة ساهمة :

– انه ممكن الوقوع .

ثم سأل وهو يشير الى كهل قصير أبيض شعر اللحية والحاجبين كالثلج ، قرمزي الوجه يرتدي « قفطانا » أزرق شديد النظافة :

– وهذا ، من هو ؟

– هذا ؟ انه تاجر أو على الأصح خمار اسمه فيريشتشاجين . لابد وأنك سمعت بقصة النداء ؟

هتف بيير وهو يتأمل وجه الكهل التاجر الهادىء الحازم دون ان يجد فيه تعبيراً عن الخيانة :

– آه ! انه فيريشتشاجين !

قال المساعد العسكري شارحاً :

– انه ليس هو . انه والد الرجل الذي كتب النداء . أما الشاب ذاك ، فقد أودعوه اسفل زنزانة عميقة وأظن انه يستحق ذلك .

اقترب كهل صغير على صدره وسام وموظف الماني آخر يتدلى وسامه حول عنقه ، من المتكلمين . بينما استرسل المساعد :

– كما ترى ، ان قصة ذلك النداء حافلة بالغموض ، انها ترجع الى شهرين او ثلاثة أشهر ، ولقد انهوها الى الكونت فأمر بفتح تحقيق ، وشرح كافريل ايفانيتش في ابحاثه فوجد ان ذلك النداء قد مر بثلاثة وستين يدا ، جيء بأحد

المذنبين وسئل : ممن اتيت به ؟ من فـلان وفلان ، فيذهبون الى الآخر : وانت ، ممن ؟ وهكذا .. بذلك وصلوا الى فيريشتشاجين .. تاجر صغير غير ماكر ، كما تعلم ـ واضاف المساعد العسكري ضاحكاً ـ شخص صغير عادي ، سألوه : « من أين جئت بهذا ؟ » هذا مع اننا كنا نعرف الذي اعطى النداء اليه اذ ما كان يمكن ان يحصل عليه الا من مدير البريد ، وكان واضحاً انهما متواطئين فاجاب : « ليس من احد ، انني انا الذي كتبته . » هددوه وضغطوا عليه ، لكنه ظل يؤيد كلامه ، ولقد قدم التقرير الى الكونت فاستقـــدم الشخص ـ « من اين جئت بهذا النداء ؟ ـ انني انا الذي كتبته . »

واردف المساعد العسكري بابتسامـــة الفخور العابث : وانت تعرف الكونت ! لقد ارغى وازبد ، تصور : سفاهة لهذه الدرجة وعناد الى هـذا الحد في الكذب !.

قال بيير :

- نعم ، انني افهم، لقد كان الكونت يريده على ان يشي بكيليوتشاريف.

رد المساعد العسكري مذعوراً :

- ابداً ، ليس بالضرورة ، لقد كان كيليوتشاريف يحمل وزر بعض الخطيئات الصغيرة ، فنفي من أجلها ، لكن ما كان مؤكداً هو ان الكونت كان خارجاً عن طوره . سأله : « كيف استطعت ان تدبج هذا ؟ » واخذ من على المائدة جريدة هامبورج : « هاهو ذا ! انك لم تدبجه بل ترجمته ، وترجمـة رديئة لانك لاتعرف الفرنسية ايها الغبي ! » ثم ماذا تظن ؟ لقد اجاب ذاك : « كلا ، انني لم أقرأ أية صحيفة . لقد انشيته بنفسي ـ اذن ، طالما الامر كذلك فانت خائن ، وسأقدمك للمحاكمة ، سوف تشنق ، اعترف ممن اخذته ، ـ انني لم اقرأ اية صحيفة بل انشيته بنفسي ، وأصر على هذا الكلام ، استدعى الكونت

اباه كذلك ولكن دون جـــدوى ! انه يأبى الاعتراف . ولقد حاكموه وحكموا عليه بالاشغال الشاقة على ماالظن ، والآن ، جاء الأب يلتمس الرحمة لابنه ، لكنه مواطن رديء ، انت تعلم ، انه واحد من ابناء التجار هؤلاء ، حقير المنزلة ، مغازل القرويات . لقد درس في مكان ما . وعلى ذلك فان الملك ليس ابن عمه ، نعم انه فتى غريب ، ان اباه يدير دكان شواء عند جسر بطرس وتصور ، ان لديه أيقونة كبيرة للاله الأب ممسكاً باحدي يديه الصولجان وبالاخرى الكرة الارضية . لقد حملها الى منزله لبضعة أيام ثم ماذا عمل ! لقد وجد رساماً سافلاً ..

* * *

الفصل الحادي عشر

اختفاء بيزوخوف

وفي غمار هذا الحديث الجديد ، استدعي بيير للدخول على الحاكم .

في اللحظة التي دخل بيير الى المكتب ، كان الكونت روستوبتشين مقطب الحاجبين يمر بيده على عينيه وجبهته ، وكان رجلاً مربوع القامة مسترسلاً في التحدث اليه فصمت وخرج ، قال روستوبتشين حينما ذهب رجله :

– آه ! مرحباً ايها المحارب الشهير ، لقد سمعناهم يتحدثون عن اقدامك وشجاعتك ! لكن الأمر لاعلاقة له بهذا .

استرسل يقول بلهجة صارمة وكأن الانتساب الى الماسونية جريمة لكنه يريد ان يكون رحيما :

– ياعزيزي ، الكلام بيننا انك ماسوني .

فصمت بيير بينما استرسل الكونت :

– انني ياعزيزي على يقين من صحة معلوماتي ، مع ذلك فاني آمل ان يكون هناك ماسوني وماسوني وانك لست من اولئك الذين يريدون ضياع روسيا بحجة انقاذ الجنس البشري .

اجاب بيير :

– نعم ، انني ماسوني .

– حسنا ، تأمل ياعزيزي ، انك لاتجهل ان السيدين سبيرانسكي

ومانييتسكي ارسلو الى مكان أمين وان السيد كليو تشاريف وآخرين من الذين يزعمون اعادة بناء هيكل سليمان وهم يجهدون في تهديم هيكل الوطن قد لقوا مثل هذا المصير . ولا بد وانك تعلم اننا كنا مدفوعين ببعض الاسباب المبررة لأنتهاج هذا السبيل واني ما كنت لأنفي مدير بريد موسكو لو لم يكن رجلاً خطيراً . ولقد علمت انك ارسلت له عربتك الجاهزة ليغادر المدينة فيها بل وانه عهد اليك ببعض الاوراق ، انك عزيز علي ولا ارغب في ان يصيبك أي اذى ولما كنت ابلغ ضعف مالك من سن ، فانني اوصيك كأب ان تكف عن علاقاتك مع اشخاص من هذا النوع وان تذهب انت نفسك من هنـــا باسرع مايمكن .

سأل بيير :

– ولكن يا كونت ، ماهو ذنب كليو تشاريف ؟

صرخ روستوبتشين :

– علي انا ان اعرف وليس عليك ان تسألني .

قال بيير دون ان ينظر الى روستوبتشين :

– انهم يتهمونه بتوزيع منشورات نابوليون ، لكن هذا لم يثبت بالدليل اما فيريشتشاجين . .

فقاطعه روستوبتشين مقطباً حاجبيه وهو يتجاوز في الصراخ ويقول :

– هانحن اولاء . . ان فيريشتشاجين رجل باع ضميره ، خائن سيلقى جزاءه .

كان الحاكم يصرخ بلهجة يستعملها الاشخاص الذين يتذكرون اهانة شخصية :

– لكنني لم استدعيك لتناقش تصرفاتي . لقد استدعيتك لاعطيك نصيحة أو أمراً اذا شئت تحري الصراحة ، انني ارجوك ان تتوقف عن اي اتصال مع اشخاص من طراز كليو تشاريف وان ترحل من هنا . سوف اجعلهم جميعاً يعزفون عن جنونهم مهما بلغ عددهم .

ولا ريب انه شعر بتجاوزه الحد وهو يهدد بيزوخوف بهذا الشكل رغم ان هذا لم يرتكب اية مخالفة ، فهتف وهو يمسك بذراعه بحركة ودية :

– اننا على وشك الوقوع في دمار عام وليس لدي من الوقت مايمكنني من التحدث بجمل لطيفة مع كل من لهم شأن معي ، ان المرء احيانا يصاب بدوار ! حسنا ياعزيزي ، ماذا تعمل انت شخصياً ؟

اجاب بيير دون ان يرفع عينيه او ان يبدل امارات وجهه الساهمة :

– لاشيء البتة .

ومن ثم قطب الكونت حاجبيه :

– نصيحة صديق ياعزيزي ، ارحل باسرع مايمكن ، هذا كل ما استطيع ان اقوله لك ، والخلاص للمصغي الى النصح ! وداعاً ياعزيزي .

وبينما هو يجتاز عتبة الباب هتف يستوقفه :

– آه ! على فكرة ، هل حقيقة ان الكونتيس وقعت بين براثن الآباء المقدسين لصحبة يسوع ؟

لم يجب بيير وخرج من لدن روستوبتشين مقطب الحاجبين في حالة من الهياج لم ير من قبل على مثلها قط .

وكان الليل قـــد ارخى سدوله عندما وصل الى مسكنه . ولقد جاء اليه سبعة او ثمانية اشخاص مختلفين خلال تلك الامسية : امين سر اللجنة ، زعيم لوائه ، مسجله ، رئيس خدمه وبعض ذوي المصالح . ولكل منهم اعمال يريد تصفيتها . ما كان بيير يفقه شيئاً من هذه الامور ولم يكن ليهتم بها فكان يجيب على الاسئلة بغية التخلص من هؤلاء الاشخاص فحسب . واخيراً ، عندما خلا لنفسه ، فض غلاف رسالة زوجته وقرأها .

– « هم » ، يعني جنود البطارية ، الأمير آندريه الذي قتل .. الكهل ..

البساطة هي الخضوع لله . ضرورة الألم .. معنى الاشياء .. الارتباط .. زوجتي تتزوج من جديد .. يجب النسيان والفهم ..

والقى بنفسه على سريره دون ان يخلع ثيابه فلم يلبث ان نام .

وعندما استيقظ صباح اليوم التالي ، اخبره رئيس الخدم ان الكونت روستوبتشين ارسل شرطياً يستعلم عما اذا كان الكونت بيزوخوف قد ذهب ام هو يتأهب للرحيل .

وكان في البهو حوالي عشرة اشخاص ينتظرونه لحاجات لهم فاصلح بيير زينته بسرعة ولكن بدلاً من ان يدخل على المنتظرين ، لجأ الى سلم الخدم وخرج من باب الفناء .

ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية تدمير موسكو ، لم ير أحد من اشخاص بيته الكونت بيزوخوف وعلى الرغم من كل الابحاث ، لم يعرف احد ماذا حل به.

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

آل روستوف

ظل آل روستوف في موسكو حتى اول ايلول ، أي الى امسية اليوم الذي دخل العدو فيه المدينة .

بعد التحاق بيتيا في فيلق قوقازي اوبولنسكي وذهابه الى بييلايياتسير كوف حيث كان ذلك الفيلق يتشكل ، استولى الخوف على الكونتيس .

اخذت فكرة وجود ولديها في الحرب بعيدين عن جناحها وان اليوم او غداً سيقتل احدهما أو كلاهما كما قتل الابناء الثلاثة لصديقتها، اخذت هذه الفكرة تغزو رأسها لأول مرة طيلة الصيف بوضوح ممقوت فاجتهدت في ان تعيد نيكولا الى قربها وارادت ان تلحق ببيتيا وان تعينه في مكان ما في بيترسبورج. لكن كل هذا بدا لها مستحيلاً . فبيتيا لا يمكن ان يعود الا مع فيلقه او يفضل نقله الى فيلق آخر . ونيكولا كان في مكان غير معلوم تماماً وقد انقطعت اخباره بعد رسالته الاخيرة التي روى فيها قصة لقائه مع الأميرة ماري . ولم تعد الكونتيس تذوق طعم النوم فاذا ما اغفت ليلاً ، رأت ولديها في منامها قتيلين . وبعد استشارات ومشاورات جمة تخيل الكونت اخيراً انه وجد الوسيلة لتهدئتها . نقل بيتيا من فيلق اوبولنسكي الى فيلق بيزوخوف الذي كان يشكل قرب موسكو وبذلك ، كان يمكن للكونتيس ، رغم بقاء بيتيا في الخدمة العسكرية ، ان تجد العزاء بوجود واحد من ولديها قريباً منها تحت جناحها ، آملاً ان لا يبتعد

عنها بعد ذلك وان يستطيع اقراره في بعض المهام التي لايتعرض فيها للاشتراك في الحرب . كان يبدو للكونتيس — كما كانت تعترف بنفسها — ان ابنها البكر مفضل على اولادها الآخرين طالما هو غائب ومعرض للخطر . ولكن عندما ذهب ابنها الاصغر ، ذلك الطفل الذي كان يرفض ان يتعلم شيئاً ويحطم كل شيء في البيت ويزعج كل انسان فيه ، عندما ذهب بيتيا هـــذا ذو الانف الافطس والعينين السوداوتين الماكرتين والوجه المتورد النضير الذي لم ينبت على وجنتيه الا ما يشبه الزغب ، عندما ذهب الى هناك بين الفتيان الكبار الضارين الرهيبين الذين يقتتلون ويجدون متعة في ذلك ، حينئذ خيل الى الأم انها كانت تحب هذا الفتى اكثر بكثير ، ولحـــد لا يقاس ، من اولادها الآخرين . وكلما اقتربت اللحظة التي كان بتيياهذا المنتظر بفارغ صبر سيعود فيها الى موسكو ، ازداد قلق الكونتيس . كانت تفكر حينذاك انها لن تعرف السعادة بعد ذاك . ولم يكن حضور سونيا وحده هو الذي يسخطها ، بل كذلك معبودتها ناتاشا وزوجها نفسه . كانت تفكر : « ما حاجتي اليهم ؟ لست في حاجة اليهم . ان بيتيبا هو الذي اريده » .

في الأيام الاخيرة من شهر آب ، تلقى آل روستوف رسالة ثانية من نيكولا كان يكتب من حكومة فورونيج حيث ارسلوه لتدارك خيل للفرسان ، فلم تهدىء رسالته الكونتيس . ذلك انها حينما علمت ان واحداً من ولديها خارج منطقة الخطر ، راح عذابها يتضاعف من اجل بيتيا .

وعلى الرغم من ان كل معارف آل روستوف تقريباً غادروا موسكو منذ العشرين من آب ، بعضهم اثر بعض ، وان كل الناس نصحوا للكونتيس بان ترتحل باسرع وقت ، فانها لم تشأ ان يرد ذكر الرحيل في حضرتها قبل ان يعود كنزها ، بيتياها الحبيب . واخيراً ، عاد في الثامن والعشرين فلم يرق لهذا الضابط

ذي الاعوام الست عشرة ذلك الحنان المدنف المرضي الذي استقبلته به امه . ولقد عملت جاهدة على ان تخفي عنه خطتها الرامية الى عــدم السماح له بعد ذلك بالافلات من العش ، لكن بيتيا ادرك نيتها السرية فراح يعاملها ببرود خشية ان يلين أو ان يتخنث بين طيات ثوب امه - كما كان يفكر بينه وبين نفسه - وظل كذلك طيلة بقائه في موسكو ساعياً جهده تحاشي اللقاء بها والبقاء مع ناتاشا التي كان يشعر نحوها دائماً بحب اخوي خاص يكاد ان يكون غراما .

وبسبب لا مبالاة الكونت ، فان ما من شيء كان معداً للرحيل يوم الثامن والعشرين ولم تصل العربات التي كان ينتظرها من اقطاعية ريازان ومن ضاحية موسكو الا في الثلاثين .

ولقد عرفت موسكو بين الثامن والعشرين والواحد والثلاثين من آب اضطراباً محموما . ومن يوم الى آخر ، عن طريق مدخل دوروجوميلوف الكائن غربي المدينة ، كانوا يأتون بالالوف من جرحى بورودينو ويجلونهم بينما كانت الوف العربات المحملة بالناس والامتعة تخرج من المدينــــة عن طريق الابواب الاخرى . وعلى الرغم من منشورات روستوبتشين بل ولعلها هي السبب ، كانت الشائعات الأكثر غرابة وتناقضاً تروج . فالبعض كان يزعم ان الرحيل اصبح ممنوعاً والبعض الآخر على العكس ، يؤكد انهم رفعوا الايقونات من الكنائس وانهم يطردون الناس كلهم بالقوة . وفلان يزعم انهم اشتبكوا مع الفرنسيين في معركة اخرى في بورودينو فهزم هؤلاء ، وآخر يزعم ان الجيش الروسي كله قد ابيد . هذا يؤكد ان المتطوعين الموسكوفيين سيذهبون الى « الجبال الثلاثة » وعلى رأسهم رجال الدين ، وذاك يهمس في اذنك ان الحبر « متروبوليت » اوجوستين لم تعد له حرية الحركة وانهم اوقفوا بعض الجواسيس وان القرويين الثائرين يسلبون القوافل على الطرق ، الخ . . الخ . .

لكن هذه كلها لم تكن الاثرثرات . اما الحقيقة ، فكانت ان الذين يذهبون كالذين يبقون ، - رغم ان المجلس العسكري الذي عُقد وتقرر فيه اخلاء موسكو لم يكن قد عقد بعد - كانوا يشعرون بان موسكو لاريب مسلحة للعدو وانه يجب الارتحال باسرع ما يمكن وانقاذ ما يمكن انقاذه من الممتلكات . وكانوا كلهم يشعرون شعوراً مسبقاً بان كل شيء سينهار فجأة ويتبدل . مع ذلك ، فان ما من شيء تبدل في اليوم الاول من ايلول . وظلت موسكو التي لاتجهل شيئاً عن مصيرها الوشيك وعن الانقلاب في الشروط الحياتية الذي سيعقب ذلك ، مستمرة رغم كل شيء في حياتها الطبيعية ، اشبه بالمحكوم الذي يساق الى الاعدام والذي يعرف ان كل شيء سينتهي بالنسبة اليه بعد لحظات ، لكنه مع ذلك يظل يتلفت حوله بل ويسوي قلنسوته التي مالت قليلاً .

تخبطت اسرة آل روستوف خلال الايام الثلاثة التي سبقت سقوط المدينة ، في بلبال مبعثه مشا كل الخدم . فرب الاسرة ، الكونت ايليا اندريئيفيتش ، ما كان يكف عن التنقل هنا وهناك سعيا وراء الاخبار بينما كان يتخذ في البيت استعدادات غامضة غير كاملة وارتجالية تتعلق بالرحيل .

كانت الكونتيس تراقب حزم الامتعة وهي دائمة التذمر ، لانني تبحث عن بيتيا الذي كان يعمل ما يستطيع لتحاشيها وتغار من ناتاشا التي كان يمضي جل وقته بقربها . اما الناحية العلمية ، فكانت سونيا وحدها تهتم بها وتعد الرزم . لكن سونيا اصبحت منذ بعض الوقت حزينة صامتة . ولقد استفزت رسالة نيكولا التي تحدث فيها عن الأميرة ماري ، ملاحظات بهيجة نطقت بها الكونتيس في حضورها ، اذا كانت ترى اصبع الله وراء لقاء الأميرة ونيكولا ابنها . كانت تقول :

- لم ابتهج قط عندما تقدم بولكونسكي لخطبة ناتاشا . لكنني رغبت دائماً في ان يتزوج نيكولاي الصغير بالأميرة وعندي شعور مسبق بان هذا الزواج سيتم . آه كم سيكون جيداً !

وكانت سونيا تشعر ان هذه هي الحقيقة وان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع آل روستوف ان يطفون بها من اعماق اللجة التي سقطوا فيها هي زواج ابنهم بتلك الوارثه . لكن ذلك كان اليماً على نفسها . وعلى الرغم من حزنها بل ولعله بسبب حزنها ، تعهدت بكل مشاكل الرحيل وحزم الامتعة حتى انه لم يعد لديها دقيقة تفكر فيها . وكان الكونت والكونتيس يعتمدان عليها لاصدار الاوامر اللازمة . اما بيتيا وناتاشا فعلى العكس . انهما لم يغفلا مساعدة ذويهما فحسب ، بل كانا كذلك يزعجان ويربكان كل الموجودين في اغلب الاحيان . فالبيت كله كان طيلة النهار يردد صدى جريهما وصراخهما وقهقهاتهما التي ليس لها ما يبررها . كانا يضحكان ويتسليان لا لسبب خاص ، بل لأن روحهما مبتهجة ولأن كل ما كان يحدث ، كان بالنسبة اليهما سبباً للضحك والانشراح . لقد كان بيتيا مرحاً لأنه أصبح رجلاً بل وعملاقاً قوياً (على حد قول كل الناس) وهو الذي غادر البيت فتى . وكان سعيداً بالعودة الى بيته ، سعيداً بالتفكير في انه بدلاً من بقائه في بيلايا تسيركوف حيث لم يكن له امل في خوض غمار القتال ، سيكون في موسكو حيث المعركة وشيكة النشوب . وكان سعيداً اكثر من كل شيء ، لأن ناتاشا – التي كان يتبنى كل حالاتها النفسية – على مزاج مرح . اما ناتاشا ، فكانت مبتهجة الآن لأنها ظلت حزينة زمناً طويلاً وان ما من أحد أصبح يذكرها بموجبات حزنها ولأنها استعادت صحتها . وكانت منشرحة الصدر كذلك لأنه كان لديها رجل يعجب بها واعجاب الآخرين بها كان بمثابة الزيت الذي لاغنى عنه لحركة آلتها ؛ وهذا المعجب هو بيتيا . كانا مبتهجين بصورة خاصة لأن الحرب باتت على أبواب موسكو ولأنهم سوف يقتتلون عند أبوابها وسيوزعون الاسلحة ولأن الناس كلهم يهرعون ويهربون الى جهة ما وأخيراً لأن شيئاً ما خارقاً قد وقع ، وهو الأمر الذي يفتن دائماً وخصوصاً من هم في سن الشباب .

الفصل الثالث عشر

الضباط الجرحى

بدا كل شيء مقلوباً رأساً على عقب في بيت آل روستوف يوم السبت الواحد والثلاثين من آب . كانت الابواب كلها مفتوحة على مصاريعها والأثاث منقول من أمكنته والمرايا واللوحات مرفوعة . وفي الغرف تكدست الصناديق وتناثر القش وورق الحزم وقطع الحبال في كل مكان . وراح القرويون وعبيد الاسرة يروحون ويغدون بخطوات ثقيلة حاملين الامتعة ، وفي الفناء ، تزاحمت العربات بعضها محمل ومربوط بالحبال والبعض الآخر ينتظر حمولته .

وفي كل مكان ، كانت الخطوات والاصوات ترتفع . فالخدم الكثيرون لدى آل روستوف والقرويون الذين جاؤوا مع العربات كانوا يتبادلون النداءات التي أخذت تدوي في الفناء وفي البيت . وكانت الكونتيس التي اصيبت بالصداع بسبب الضجة والحركة الدائبة ، ممددة في مخدعها الجديد وعلى جبينها كمادات الخل اما بيتيا فكان غائباً اذ ذهب يزور رفيقاً بغية السعي معه الى الانتقال من فرق المتطوعين الى الجيش النظامي . وكانت سونيا في البهو الكبير تشرف على حزم التحف والخزف ، وناتاشا جالسة على الارض في غرفتها المقلوبة بين الاثواب والشالات المبعثرة تمسك بين يديها ثوباً قديماً من ثياب الرقص بطل زيه ، ذلك الذي ارتدته في أول حفلة لها في بيتر سبورج ، وتتأمل الارض ساهمة مفكرة .

كانت تشعر بالخجل اذ تبقى عاطلة دون عمل في البيت في حين ان كل من فيه مشغول ، فراحت تحاول مرات عديدة منذ الصباح ان تجد لنفسها مايشغلها لكنها لم تكن راغبة في العمل ، لاتعرف ولا تقدر على الشروع في شيء دون ان تستغرق فيه بكل روحها وكل قواها . أرادت ان تحل محل سونيا في حزم الخزف لكنها لم تلبث ان هجرت هذا العمل لتعود الى حجرتها وتسوي متاعها الشخصي . لقد تسلت بادىء الأمر بتوزيع أثوابها وأشرطتها على وصيفاتها . ولما بات عليها ان تعود الى حزم ما تبقى لديها ، بدا لها الأمر مزعجاً .

– دونياشا ياعزيزتي . سوف تقومين بالرزم ? نعم ? نعم ، أليس كذلك ?

ولما وعدتها دونياشا بان تعمل كل شيء ، جلست ناتاشا على الارض وأمسكت بثوبها القديم الخاص بالرقص واستغرقت في ذكرياتها التي لم يكن لها أي دخل مع ما كان يجب ان يكون شاغلها في تلك اللحظة . ولقد انتشلت من تأملاتها على أصوات حديث الخادمات في غرفتهن المجاورة وصوت خطوات سريعة ذاهبة من تلك الغرفة نحو سلم الخدم . نهضت ناتاشا ومضت تطل من النافذة فرأت قافلة كبيرة من الجرحى متوقفة في الشارع .

وكان الخدم والوصيفات والقيم ومربية الاطفال العجوز والطهاة والسائقون والسياس والمرافقون على الباب يتأملون الجرحى .

القت ناتاشا منديلًا أبيض على شعرها ونزلت الى الشارع وهي تمسك المنديل من طرفيه بيدها .

خرجت المديرة السابقة ، مافرا كوزمينيتشنا من بين الجمع المحتشد أمام الباب واقتربت من احدى العربات المغطاة بطوق فوقه سماط من الجلد دخلت في حديث مع ضابط شاب شاحب الوجه كان ممدداً بداخلها . وتقدمت ناتاشا بضع خطوات دون ان تترك طرفي المنديل وتوقفت مروعـــة تصغي الى ما تقوله المديرة .

سألت مافرا كوزمينيتشنا :

– كيف هذا بالله ، أليس لك أحد في موسكو ؟ انك ستكون اكثر هدوءاً في مسكن . هنا مثلاً .. عندنا . ان السادة راحلون .

فقال الضابط بصوت ضعيف :

– لست أدري اذا كان مسموحاً به . ها هو ذا الرئيس .. سليه .

وأشار الى طبيب ضخم كان ينزل الشارع على طول خط العربات .

القت ناتاشا نظرة مذعورة على الجريح وجرت للقاء الطبيب . سألته :

– هل نستطيع ايواء جرحى عندنا ؟

ابتسم الطبيب ورفع يده الى حافة عمرته وقال وهو يغمز بعينيه ويثابر على الابتسامة :

– ماذا يمكن تقديمه لك من خدمات يا آنسة ؟

كررت ناتاشا سؤالها بهدوء ووجهها وكل مظهرها ينطقان بالجد رغم انها ظلت ممسكة بطرفي منديلها وان الماجور كف عن الابتسامة . وبعد ان فكر هذا وكأنه يتساءل عن مدى ما يمكنه اعطاء مثل هذا الاذن ، أجابها قائلاً :

– ولكن بلى . ولم لا ؟ يمكن .

اومأت ناتاشا برأسها اشارة خفيفة وعادت مسرعة الى مافرا كوزمينيتشنا التي كانت منحنية فوق المريض تتحدث معه بحنان . همست ناتاشا في اذنها :

– يمكن . لقد قال انه ممكن !

انعطفت العربة التي تحمل الجريح لتدخل في باحة آل روستوف في حين راحت عشرات من العربات الاخرى المتجمعة على طول شارع بوفارسكايا تدخل افنية المنازل المجاورة بناء على تدخل سكانها . ولقد ظهر الافتتان على وجه ناتاشا لهذا التماس مع عالم جديد بعيداً عن كل اعتبارات الحياة العادية .

سعت تؤازرها مافرا كوزمينيتشنا الى ان تدخل الى الفناء اكبر عدد ممكن من الجرحى . قالت مافرا كوزمينيتشنا :

– يجب على اية حال اعلام أبيك .

– ولماذا ؟ اليس ذلك سيان ؟ ما الفائـدة ! اننا نستطيع ان نقضي ليلتنا الوحيدة في البهو . أننا قادرون على منح أجنحتنا كلها للجرحى .

– لكنك لاتفكرين في الأمر يا آنسه . يجب الحصول على اذن حتى في سبيل التصرف باللواحق والاشياء المتداولة وغرف الخدم .

– حسناً ، سأمضي للحصول على الاذن .

دخلت ناتاشا تجري الى البيت ودخلت على أطراف قدميها الى المخدع الذي كانت تسبح فيه رائحة الخل ونقط « هوفمن » .

– اماه ، هل أنت نائمة ؟

فقالت الكونتيس التي انتفضت لأنها اغفت منذ حين :

– آه ! كيف أستطيع ان أنام .

ركعت ناتاشا وضغطت وجهها على وجه امها وقالت :

- يا امي الصغيرة العزيزة . صفحاً ، لن أعود الى مثلها . لقد أيقظتك . انها مافرا كوزمينيتشنا التي أرسلتني . لقد جاؤوا بضباط جرحى منذ حين . هل تسمحين ؟ انهم لايعرفون الى أين يمضون . انني واثقة من أنك ستسمحين ..

وكانت تتحدث مندفعة دون ان تلتقط أنفاسها . فقالت الكونتيس :

– أي ضباط ؟ من الذي أتى بهم ؟ لست أفقه شيئاً .

انفجرت ناتاشا ضاحكة فابتسمت امها بدورها .

– كنت أعرف أنك ستقولين نعم .. وها أنا ذاهبة لاقوله لهم .

قبلت ناتاشا امها ونهضت ثم خرجت .

وفي البهو ، قابلت أبيها الذي كان داخلاً يحمل أنباء سيئـة . قال ووجهه مكتئب دون عمد :

– لقد تأخرنا كثيراً جداً ! لقد اغلق النادي ورحل رجال الشرطه .

سألته ناتاشا :

– بابا ، هل من مانع اذا أنا أدخلت جرحى الى بيتنا ؟

أجابها بلهجة ساهمة :

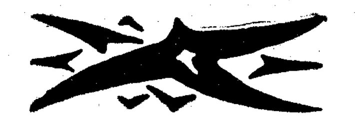
– بالطبع لامانع . لكن الأمر لايتعلق بهذا . أنني أطلب ان نكف عن الاهتمام بالترهات وان يعمد كل منا الى العمل لنكون جاهزين كلنا حتى نذهب غداً ، غداً منذ الصباح ..

كرر الكونت هذا الأمر على رئيس الخدم والخدم . وعاد بيتيا عند الظهر يحمل هو الآخر أنباء .

روى ان الشعب خلال النهار مضى الى الكرملن ليتسلح وانه رغم نشرات روستوبتشين التي زعمت انه سوف يطلق صرخـة النداء قبل يومين أوثلاثة أيام فقد اقيمت الاستعدادات للذهاب منذ الغـد بالسلاح الكامل الى الجبال الثلاثة حيث ستقع معركة كبرى .

أخذت الكونتيس تتأمل وجه ابنها الملتهب بالانفعال بـذعر خجول خلال استغراقه في الكلام . كانت تعلم بأنـه يكفي ان تقول لبيتيا ان لايذهب الى تلك المعركة ـ وهي التي رأت ان تلك الفكرة هي التي تبهجه ـ حتى تجعله يتحدث مالئاً الدنيـا عن البسالة والشرف والوطن . سوف ينطق بكل أنواع الحماقات بعناد صبياني ودون ان يتقبل النقض فيضيع كل شيء . لذلك فقد كانت تأمل ان تصبح جـاهزة للرحيل قبل نشوب المعركة وان تصحب ابنها معها بوصفها حاميها والمدافع عنها . وعلى هذا ،فانها لم تعقب على حديث بيتيا بكلمة . ولكن

ما ان انتهوا من تناول الطعام ، حتى انتحت بالكونت جانبـاً وتوسلت اليه خلال دموعها السخية ان يذهب بها بأسرع مـا يمكن ، في تلك الليلة بالذات اذا كان الرحيل ممكناً . أكدت بالمكر البريء الخاص بالنساء الذي يصنعه الحب ، انها ، وهي التي ظلت حتى ذلك الحين غير آبهة بالخطر ، ستموت من الخوف اذا لم يرحلوا تلك الليلة بالذات . ولم يكن قولها مجرد خدعـة . ما كانت تتظاهر بالخوف بل كانت فريسة خوف حقيقي .



الفصل الرابع عشر

الامير آندريه

زادت السيدة شوسى التي كانت في زيارة ابنتها ، مخاوف الكونتيس عندما روت لها ماشاهدته لتوها قرب مستودع الكحول في شارع مياسنيتسكايا .

لم تستطع ان تجتاز هذا الشارع على قدميها بسبب جماعة السكارى التي كانت تملأه فاستقلت عربة وجاءت عن طريق شارع صغير الى بيت الكونتيس . ولقد روى لها الحوذي ان الجمهور يحطم براميل المستودع لأن الأمر ينص على ذلك .

بعد تناول الطعام،شرع كل من في بيت آل روستوف يعمل بسرعة مبعثها التحمس لانهاء الرزم قصد اعدادالرحيل . وفجأة اهتم الكونت العجوز بالموضوع بنفسه فلم يكف عن التنقل بين الفناء والبيت وعلى العكس وهو يزجر رجاله الذين ماكانوا يسرعون بالقدر الذي يريد وهو الذي يريد ان تضاعف سرعتهم ، واهتم بيتيا بالفناء فوضعه تحت أوامره ، ولم تعد سونيا تعرف أين تعمل وسط أوامر الكونت المتناقضة ؛ وراح الخدم يصرخون ويتماحكون بصخب ويجرون عبر الغرف والباحة بينما اندفعت تعمل بذلك الانكباب الذي تبديه عندما تعمل . ولقد تقبلوا مساعدتها في شؤون الحزم بشيء من التحفظ بادىء الأمر اذ ماكانوا يتوقعون منها اكثر من فراهات وبالتالي لم يظهروا رغبة في الاصغاء اليها . لكنها أبدت عناداً وطالبت بحرارة ان يصغي اليها وكادت ان تبكي لاغضائهم عن الاستماع اليها حتى انتهى بهم الأمر الى تصديقها . ولقد اقتضاها عملها الأول مجهودات عظيمة وأعطاها سلطاناً : كان ذلك العمل هو حزم النجد

لأن الكونت كان يمتلك هوايات طائشة الى جانب نجده العجمية . ولما شرعت ناتاشا في العمل ، كان في البهو صنـدوقان مفتوحان ، الأول مملوء حتى حافته بالاواني الخزفية والثاني بالنجود . وكان على المناضد المختلفـة كثير من هذه الاواني التي راح الخدم يأتون بها من المدخرات ، فكان يجب اعـداد صندوق ثالث ذهب الخدم للاتيان به .

قالت ناتاشا :

– انتظري ياسونيا . أعتقد أننا نستطيع ايــداع كل شيء في هذين الصندوقين .

فقال الخازن :

– مستحيل يا آنسة . لقد حاولنا من قبل .

– ولكن لا ، انتظر قليلاً .

وشرعت ناتاشا تخرج من الصندوق الاطباق والصحـاف الملفوفة بالورق ، بسرعة وهي تقول :

– يجب وضع هذه الاطباق هنا ، بين النجود .

فاضاف الخازن :

– ولكن النجد وحدها تتطلب ثلاث صناديق .

انتظر قليلاً وسترى .

وراحت ناتاشا تخرج الاشياء بسرعة وتقول وهي تشير الى خزف كييف :

– لايجب وضع هذا هنا . ثم تلتفت الى أطبـاق الخزف من صنع الساكس وتؤكد : – هذا ، نعم ، هذا يمكن وضعه بين النجود .

غمغمت سونيا :

– دعي عنك ياناتاشا ، هيا ، يمكنهم تدبير الأمر بدونك .

وقال رئيس الخدم :

– ذلك أنه ياآنسة ..

لكن ناتاشا ماكانت لتلين . افرغت محتويات الصنـدوق كله وقد قررت انه لايجب حمل النجود المستعملة ولا كثيراً من الاواني . ولما أخرجت كل شيء ، عادت الى الترتيب . وفي الواقع ، بعد ان استبعـدت كل ماليس بذي ثمن واقتصرت على الاشياء النفيسة ، استطاعت ان تضع كل شيء في الصندوقين غير ان غطاء أحد الصناديق امتنع عن الاغلاق فكان يجب ابعاد شيء ما مما بداخل الصندوق . لكن ناتاشا كانت تريد الاحتفاظ بكل ما وقع عليه اختيارها فراحت تفك وتربط وتحزم وتضغط ثم تطلب الى الخازن وبيتيا الذي سرت اليه عدوى نشاطها ، ان يضغطا على جانبي الصندوق في حين راحت من جانبها تبذل مجهوداً يائساً . قالت لها سونيا :

– كفى ، كفى ياناتاشا . أنك على حق ، وأنا واثقـة من ذلك . لكن انزعي على اية حال الرزمة الأخيرة .

فهتفت ناتاشا وهي تزيح باحدى يديها شعرهـا المشعث عن وجهها السابح بالعرق وتضغط بالاخرى على النجود :

– لااريد . اضغط ، بيتيا ، اضغط ! هيا يافاسيليتش !

ورصفت النجود وانزل الغطاء فصفقت ناتاشا بيديها وأطلقت وهي في نشوة انتصارها صرخة انتصـار ملأت عينيها بالدموع . لكن ذلك لم يلبث الا فترة اذ لم تلبث حتى استدارت الى مهمة اخرى وحينئذ ، اكتسبت ثقة كبرى . ولم يغضب الكونت عندما انهوا اليه ان ابنته خالفت تعليماتـه ، وراح الخدم يرجعون اليها لمعرفة ما اذا كانت حمولة العربـة كافية وكان يجب ربطها ام لا . وبفضلها أخذ العمل يتقدم فهجروا كل قديم وتافـه عديم النفع وجمعوا كل ماهو ثمين الى أقصى ما يمكن ذلك .

مع ذلك ، على الرغم من مجهودات الجميع، لم يستطيعوا حزم كل شيء ذلك المساء فنامت الكونتيس ومضى الكونت بعد ان أجل الرحيل الى صباح اليوم التالي ، الى مخدعه فنام .

ونامت سونيا وناتاشا في المخدع دون ان تنزعا ثيابهما .

وفي تلك الليلة ، جيء بجريح آخر الى شارع بوفارسكايا فادخلته مافرا كوزمينيتشنا التي كانت موجودة قرب الباب الخارجي ، الى مسكن آل روستوف . وكان ذلك الجريح - على حد زعم المدبرة العجوز - شخصاً رفيع المقام اذ جالدوا به في عربة خفيفة مغطاه بقماش واق خاص . وعلى المقعد ، قرب الحوذي ، جلس خادم عجوز محترم وتبعت العربة الانيقة عربة عادية فيها طبيب وجنديان .

قالت العجوز تخاطب الوصيف العجوز :

- ادخلوا عندنا ، ادخلوا أرجوكم . ان السادة راحلون والبيت خال .

فأجاب هذا وهو يزفر :

- آه ! نعم . ما كنا نصدق ان نجيء به حياً . ان لنا بيتنا في موسكو. لكنه بعيداً من هنا ومغلق .

قالت مافرا كوزمينيتشنا :

- ولكن ادخلوا عندنا ، فلدينا كل ماينبغي . ادخلوا .

ثم سألت :

- يبدو انه في حالة سيئة ؟

ندت عن الوصيف حركة تدل على الأسى وكرر :

- ما كنا نصدق اننا سنعيده الى الصواب ! يجب أن نسأل الطبيب .

نزل من مقعده واقترب من العربة . قال الطبيب :

– ولمَ لا !

عاد الوصيف الى العربة الأنيقة فألقى نظرة الى داخلها وهز رأسه ثم قال للحوذي أن ينعطف ليدخل الفناء ووقف وهو بالقرب من مافرا كوزمنيتشنا .

هتفت هذه :

– آه ! يامولانا يسوع المسيح !

عرضت مافراكوزمنيتشنا ان ينقل الجريح الى البيت الرئيس وقالت :

– لن يعترض السادة بشيء .

ولما كان يجب تحاشي نقل الجريح عن طريق السلم ، فقد حُمل الى الجناح واسجي في الغرفة التي كانت السيدة شوس تحتلها حتى ذلك الحين . كان ذلك الجريح هو الأمير آندريه بولكونسكي .

* * *

الفصل الخامس عشر

عواطف الكونت

اشرق آخر يوم من أيام موسكو وكان الطقس خريفاً بهيجاً واليوم أحداً فقرعت الأجراس كلها على جري العادة داعية الى القداس وكان يبدو ان ما من أحد أدرك حتى تلك اللحظة ما ينتظر المدينة .

الا أن بادرتين اثنتين دلتا فقط على الموقف الذي كانت فيه موسكو : موقف الجماهير وارتفاع الاسعار . ولقد ذهب العمال وخدم البيوت والقرويون منـــذ الصباح الباكر الى الجبال الثلاثة على شكل حشد هائل جاء الموظفون يضخمونه بالانضمام اليه وتلامذة اللافوت والنبلاء . وظلت الجمهرة هناك زمناً ما دون ان يحضر روستوبتشين وحينئذ أدرك المتجمهرون ان موسكو ستسلم فتفرقوا في الحانات والحانات . وراحت أسعار الأسلحة والذهب والعربات ترتفع أكثر فأكثر في حين تدنت أسعار الأوراق النقدية ولوازم الترف حتى انه لم يؤذن الظهر حتى كانت السلع الثمينة ، كالأجواخ مثلاً ، تباع بنصف الثمن في حين أصبح أضعف حصان قروي يباع بخمسمائة روبل . أما قطع الأثاث والمرايا والبرونز ، فكانت تباع بأتفه الأثمان .

لم يشعر آل روستوف في بيتهم القديم المحترم بهذا الانقلاب في الشروط الاولية للحياة الا قليلاً . فلم يختف خلال الليل اكثر من ثلاثة أشخاص ولم يسرق شيء من البيت . أما فيما يتعلق بقيم الاشياء ، فان العربات الثلاثين التي جاءت

من الريف ، كانت تمثل ثروة هائلة يحسد الكثيرون آل روستوف عليها ،ثروة تقدر بمبالغ ضخمة . لم يقدموا لهم عروض بيع تلك العربات فحسب ، بل انه في السهرة والصباح الأول من ايلول ، توارد تابعون وخدم ضباط جرحى وجرحى كذلك أووا في البيوت المجاورة ، توارد هؤلاء الى فناء آل روستوف يتوسلون الى الخدم ان يمنحوهم عربة كي يستطيعوا مغادرة المدينة فيها . وكان رئيس خدم آل روستوف الذين كانوا يتوصلون به ،يرثي للجرحى لكنه كان يرفض باصرار ويؤكد انه لايجرأ حتى على انهاء الخبر الى سيده . لقد كان كل هؤلاء التعساء جديرين بالاهتمام،ولكن لوأعطيت العربة الاولى فانه لايمكن ان يكون هناك سبب للامتناع عن اعطاء ثانية ثم الاخرى حتى عربات السادة نفسها . ثم ان ثلاثين عربة لا يمكن أن تنقذ الجرحى . وفي هذا البلاء العام ، لابد وان يفكر المرء في نفسه وذوية . وهكذا كان يفكر رئيس الخدم باسم سيده .

ما ان استيقظ الكونت ايليا اندريئيفيتش صباح الأول من ايلول ، حتى خرج بخطوات خفيفة من حجرته متحاشياً ايقاظ الكونتيس التي عادت الى النوم منذ حين ،والتف بثوب منزلي من الحرير البنفسجي وخرج الى المرقاة. وكانت العربات المربوطة تنتظر في الفناء وعربات الركوب منتظمة أمام المرقاة . وكان رئيس الخدم واقفاً أمام الباب الخارجي يتكلم مع تابع وضابط شاب شاحب الوجه يحمل ذراعه الى عنقه . ولما وقعت عين رئيس الخدم على سيده ، أشار الى التابع والضابط أن يبتعد !

قال الكونت وهو يمر بيده على جبهته الصلعاء وينظر الى الضابط والتابع بعطف وهو يومىء لهما برأسه — والكونت يحب الوجوه الجديدة — :

— اذن ، هل كل شيء جاهز يافاسيليتش ؟

— يمكن ان تقطر الخيول فوراً ياصاحب السعادة .

- حسناً ، حسناً جداً ! فور ما تستيقظ الكونتيس ، الى الأمام وعلى بركة الله !

وسأل الضابط :

- من أنت ياسيدي ؟ هل أنت في بيتي ؟

اقترب الضابط وغدا وجهه الشاحب متورداً فجأة :

- كونت ، أرجوك ، بحق السماء ، اسمح لي ان أجد ركناً لنفسي في احدى عرباتك . انني لاأملك شيئاً ولافرق عندي اذا حُملت على عربة نقل .

ولم يكد يفرغ من كلامه حتى كان التابع يتقدم بمثل ذلك الالتماس على لسان سيده . فبادر الكونت يقول :

- ولكن ، بلى ، بلى ، بالتأكيد ! وسأكون سعيداً بذلك ، سعيداً جداً ! يافاسيليتش ، مر ان يجهز لهما مكانين على عربة او اثنتين ، هـذه .. انها تماماً ما يلزم ..

ولم يلبث الضابط ان عبر عن عرفانه بعبارات مرتبكة حتى ان الكونت اضطر الى ان يتممها بنفسه . نظر حوله ، فاذا الجرحى والتابعون في الفناء وعلى الأبواب ونوافذ الجناح وكلهم ينظرون الى الكونت وهو يقترب من المرقاة قال رئيس الخدم :

- هل تأمرو سعادتكم بالانتقال الى الرواق؟ما هي أوامركم حول اللوحات

دخل الكونت مع رئيس الخدم الى البيت بعد ان كرر أمره بعدم صرف الجرحى الذين يتقدمون ملتمسين نقلهم وأضاف بصوت خافت ولهجة غامضة وكأنه يخشى ان يسمعه أحد :

- على أية حال ، يمكن ان نستغني عن بعض الأمتعة .

استيقظت الكونتيس في الساعة التاسعة فجاءت ماتريونا تيموفيئيفنا ، وصيفتها

العجوز التي أصبحت تشغل عندها وظيفة رئيسة « الضابطة » ، تعلمها أن ماري كارلوفنا ساخطة جـداً وانه لايمكن بحال من الأحوال ترك الألبسه الصيفية العائدة لهذه السيدة . ولقد حاولت الكونتيس ان تعرف سبب استياء السيدة شوهى . فعلمت ان صندوقها قد انزل من أحـد العربات وانهم فكوا الحمولة ليفسحوا المجال للجرحى ، الذين سمح الكونت - على طيبة نفسه المعهودة - بنقلهم . فاستقدمت الكونتيس زوجها :

- ماذا يحدث ياصديقي ، لقد ابلغت انهم فكوا الاحمال ؟

- كنت على وشك اخطارك بالأمر ياعزيزتي .. ياعزيزتي الكونتيس الصغيرة .. لقد جاءني ضابط يسألني بضع عربات لنقل الجرحى . ان كل هـذه الأشياء يمكن استبدالها اما هم ، كيف نهجرهم ، فكري في الأمر !.. صحيح ، اننا نحن الذين أدخلنا هؤلاء الضباط الى بيتنا .. انك ترين حقاً ياعزيزتي ، يخيل الي ياعزيزتي ان .. لماذا لانأخذهم .. ما الذي يضايقنا ؟

كان الكونت يتكلم بلهجة وجلة كالعادة عندمـا تطرح القضية المالية على بساط البحث . وكانت الكونتيس قد الفت هذه اللهجة التي تمثل دائماً مشروعاً يضر بثروة أبنائها ، كأقـامة ممشى للوحات وحديقة شتوية او مسرح او جوقة موسيقية في البيت . لذلك كانت تعتقد انها مرغمة على مخالفة زوجها كلما دقت سمعها تلك اللهجة الوجلة .

اتخذت مظهر الضحية الخاضعة واعلنت :

- اصغ ياكونت . لقد سقتنا لدرك أصبح فيه لايمكن ان نطمع بقرش واحد يدفعه لنا شخص ما ثمناً لهذا البيت . والآن ، تريد ان تضيع كل مقتنياتنا وثروة الأولاد . أنت أعلنت بنفسك ان لدينا ماقيمته الف روبل من الأمتعة المنقولة . انني ياصديقي ، لست موافقة على رأيك مطلقاً . أنت حر في

تصرفاتك ! ان الدولة هي المكافة بالعناية بالجرحى وهم يعرفون ذلك . انظر قبالتنا ، عند آل لوبوخين . لقد حملوا كل شيء منذ أول أمس . هذا ما يعمله الآخرون . اننا وحدنا الأغبياء . فأشفق على أبنائك على الأقل اذا كنت لاتشفق علي .

قام الكونت بحركة غامضة وغادر الحجرة . سألت ناتاشا التي دخلت بعدهما

– ابي ، ماذا حدث ؟

فأجاب الكونت غاضباً :

– لاشيء مطلقاً ! هذا ليس شأنك .

قالت ناتاشا :

– لكنني سمعت كل شيء . لاتريد امي ؟

– هذا ليس من شأنك !

فاقتربت ناتاشا من النافذة وهي ساهمة ثم أعلنت :

– ابي ، ان بيرج آت ..

* * *

الفصل السادس عشر

نقل الجرحى

كان بيرج ، صهر آل روستوف ، قد بلغ رتبة زعيم وحاز على وسامي فلاديمير وسانت آن . وكان يشغل دائماً مهامه الهادئة الممتعة كمساعد لرئيس المكتب الأول في أركان حرب الفوج الثاني .

وكان يأتي في ذلك الصباح ، الأول من ايلول ، من جيش موسكو مباشرة ما كان لديه ما يعمله في موسكو . لكنه لما رآى ان الضباط الآخرين يطلبون مأذونياتهم للذهاب الى هذه المدينة لاعمال لهم فيها ، خيل اليه انه مرغم على طلب مأذونيته لأعمال عائلية .

وصل بيير الى بيت حميه مستقلاً احدى تلك العربات الأنيقة التي يجرها جوادان قويان ، مقلداً بذلك تقليداً متقناً شكل عربة أمير من معارفه . تأمل المركبات التي في الفناء بانتباه ثم اخرج منديله الموشى وهو يصعد المرقاة وعقده .

اقترب بيرج من الردهة الى البهو بخطى مرنة سريعة فعانق الكونت وقبل يد ناتاشا وسونيا وبادر يستعلم عن صحة الكونتيس . قال الكونت :

— ان المجال مجال الاستفسار عن الصحة حقاً ! ان عليك انت ان تخبرنا بما يعمل الجيش . هل سيتراجع ام سيقاتل ؟

فأجاب بيير :

— الله وحده قادر على الاجابة على ذلك يا أبتاه . انه وحده الذي سيقرر

مصير الوطن . ان الجيش يحترق بالبطولة ولقد اجتمع الرؤساء الآن في مجلس عسكري على مايقولون . اما ماسينجم عنه ، فان ما من احد يعرفه ، لكنني اقول لك بصورة خاصة ياأبتاه انه ليست هناك كلمات قادرة على وصف بطولة القطعات الروسية والبسالة التي .. التي اظهرتها وبرهنت عليها في معركة السادس والعشرين .. اؤكد لك ياأبي (وقرع صدره على طريقة جنرال رآه يروي تفاصيل المعركة ، لكن حركته جاءت متأخرة اذ كان عليه ان يجريها فور نطقه بكلمتي الجيش الروسي) اؤكد لك بصراحة اننا معشر الرؤساء ، لم نكن في غير حاجة الى دفع الجنود الى المعركة باية وسيلة كانت فحسب ، بل كان علينا ان نوقف بالقوة اولئك ، ا. لئك ..

ثم هتف بطلاقة : انها مآثر وبسالة جديرة بالاقدمين . لم يوفر الجنرال باركلي دوتوللي حياته على رأس قطعاته ، والشهادة لله . اما فيلقنا ، فكان متمركزاً على سفح الجبل . ولك ان تتصور الموقف !

وهنا ، روى بيرج كل ما تناهى الى سمعه من مصادر مختلفة وكانت ناتاشا تصغي اليه دون ان تبارحه بانظارها الشاخصة الى وجهه وكأنها تحاول اكتشاف جواب على سؤال طرحته على نفسها ..

هتف بيرج وهو يستدير نحو ناتاشا مجيباً على نظرتها الملحة بابتسامة وكأنه يحاول استرضاءها :

– لايمكن تصور البطولة التي برهن عليها الجيش الروسي ، ولا يمكن امتداحه بالقدر الكافي ! « ان روسيا ليست في موسكو بل في قلوب ابنائها ! » أليس كذلك ؟

وفي تلك اللحظة ، خرجت الكونتيس من المخدع بادية التعب مكتئبة الوجه فاندفع بيرج نحوها يقبل يدها ويستعلم عن صحتها وهو يهز برأسه ليظهر العناية التي يعلقها عليها ثم جلس الى جانبها :

– نعم ياماه . انني اعترف بكل صراحه ان الظروف كئيبة عصيبة بالنسبة الى كل واحد منا ، ولكن لماذا كل هذا الاكتئاب ؟ لازال لديك الوقت الكافي للرحيل ..

قالت الكونتيس مخاطبة زوجها :

– لست ادري ماذا يفعل رجالنا . لقد اخبروني منذ حين ان ما من شيء جاهز بعد ، يجب ايجاد من يعطي الاوامر ، وهنا نأسف على ميتانكا . اننا لن نخرج قط من هذه المحنة !

اراد الكونت ان يرد لكنه فضل ان يمسك ، فنهض وتوجه نحو الباب .

وانتقى بيرج هذه اللحظة بالذات ليخرج منديلة ويتمخط فيه ، لكنه لما رآى العقدة التي عقدها بنفسه ، شرد مفكراً ورفع رأسه بشكل معبر وقال :

– بابا ، لدي رجاء هام اتوجه به اليك .

قال الكونت وهو يتوقف :

– آه !

استأنف بيرج بلهجة منطلقة :

– لقد مررت منذ حين امام بيت يوسوبوف فهرع القيم الذي اعرفه للقائي وقال : « هل تريد شراء شيء ؟ » فتبعته بفضول ووجدت خزانة للثياب مع مائدة للزينة . وانت تعرف كم كانت فيرا ترغب في مثلها وكم تحاصمنا لهذا السبب (استعاد بيرج رغماً عنه لهجته المرحة لان تلك الخزانة ذات مائدة الزينة كانت تجعله فخوراً ببيته .) انها تحفة ! انها تفتح وفيها عدد من الجرارات وقفل انجليزي خفي ،هل تعرف ؟ انها تماماً ما كانت صغيرتي فيرا ترغب فيه منذ زمن طويل . وانني احب ان افاجئها بها ،وفي الاسفل ، في الفناء ، عدد من القرويين فاعطني واحداً ارجوك ، وساجزل له العطاء ... و ..

قطب الكونت حاجبيه وسعل بعصبية :

ـ اطلب الى الكونتيس ، لست انا الذي آمر .

اعترض بيرج :

ـ اذا كان ذلك صعباً ، لن اقول شيئاً . ان مرادي هو مفاجأة فيرا فحسب .

هتف الكونت العجوز :

ـ آه ! ليحملكم الشيطان جميعاً ! نعم ، اذهب الى الشيطان ، الى الشيطان ! ان المرء ليفقد صوابه !

وبعدها خرج فانهمرت الدموع من عيني الكونتيس ، فقال بيرج :

ـ نعم ياأماه ، ان الاوقات عصيبة !

وخرجت ناتاشا مع ابيها ولكن ذهبت باديء الامر تلحق به وكأنها تتابع فكرة ما بصعوبة ثم لم تلبث ان اندفعت الى السلم .

وعلى المرقاة ، كان بيتيا يوزع الأسلحة على الرجال الذين كانوا سيخرجون من موسكو مع القافلة ، في حين وقفت العربات الجاهزة في الفناء ، وكانت اثنتان منها قد انزلت احمالها وارتقى على احدهما ضابط شاحب يسنده تابع .

سأل بيتيا أخته :

ـ هل تعرفين السبب ؟

ادركت ناتاشا ان بيتيا يريد بذلك ان يسأل عن النقاش بين ابيها وامها فلم تجب .

ـ لأن ابي كان يريد اعطاء العربات كلها للجرحى ، لقد روى لي فاسيليتش الخبر ، انني من جانبي ..

فهتفت ناتاشا وهي تدير نحو اخيها وجهها المغضب :

ـ من جانبي ، من جانبي ارى ان هذا بشع مرذول ، انه منفر لدرجة حتى

لست استطيع ان اقوله ، من نحن ؟ لا اكثر من المان ، اذن ؟

وجرضت ناتاشا بالحسرات التشنجية ، ولكي لاتضيع غضبتها هبـــاء ، استدارت وصعدت السلم اربعاً فأربع .

كان بيرج جالساً بجانب الكونتيس يقدم لها تعزيات بنوية محترمة والكونت وغليونه في يده ، يزرع الغرفة عندما دخل ناتاشا الى الغرفة بجلبة ووجهها متقلص من الغضب واندفعت بخطوات سريعة نحو امها وصرخت :

ـ باللبشاعة ! باللهول ! أيعقل ان تكوني قد اعطيت اوامراً مماثلة .

فراح بيرج والكونتيس ، مروعين اكثر مما هما مذهولين ، يتأملانها بينما جمد الكونت قرب النافذة يصيخ السمع .

هتفت ناتاشا :

ـ اماه ، هذا مستحيل : انظري الى الفناء ! انهم يتركونهم ..

ـ ماذا بك ؟ من يتركون ؟ ماذا تريدين ؟

ـ لكن الجرحى ! كلا ، ياماه ، لايمكن . ان هذا لا اسم له . . ياامي العزيزة ، لست اريد ان اتكلم على هذا النحو ، فعذراً ياامي الصغيرة ، ولكن ماحاجتنا الى مانحمله ، انظري الى الفناء ياماه ، انظري !.. ان هذا لايمكن ان يكون !..

وكان الكونت الواقف قرب النافذة يصغي الى ناتاشا دون ان يدير رأسه وفجأة نخر وهو يدني وجهه من الزجاج ..

تأملت الكونتيس ابنتها وشاهدت انفعالها والعار الذي تحس به ثم السبب الذي من اجله اشاح زوجها بعينيه ، فنظرت حولها مشتتة الخاطر ثم اعترضت دون ان تستسلم تماما :

ـ آه ! اعملوا ماتشاؤون ! هل تراني اضايق كائناً من كان ؟

– ماما ، ياامي الصغيرة ، عذراً !.

لكن الكونتيس دفعت ابنتها واقتربت من زوجها . قالت وهي تخفض عينها كالمذنبة :

– ياعزيزي ، اعط الأوامر اللازمة .. ما كنت أعرف شيئاً .

فغمغم الكونت مبتهجاً خلال دموعه وهو يطوق زوجته بذراعيه ، الأمر الذي أسعد هذه اذ استطاعت بذلك ان تخفي وجهها الخجل في صدر زوجها :

– البيض .. البيض والدرس الذي يعطيه للدجاجة .

سألت ناتاشا :

– بابا ، ماما ! يمكن اعطاء الأوامر اليس كذلك ؟ يمكن ؟ ..

وأضافت :

– مع ذلك ، سوف نحمل اكثر من حاجتنا .

فندت على الكونت اشارة موافقة فاندفعت ناتاشا ، بمثل الطريقة التي كانت تجري فيها عندما كانت تلعب ، من القاعة الكبيرة الى الردهة ومنها الى السلم الذي يؤدي الى الفناء .

لم يلبث الخدم ان أحاطوا بها وهم يرفضون تصديق الأوامر الغريبة التي أصدرتها لهم الا بعد ان يؤيدها الكونت باسم زوجته . كانت تلك الأوامر تنص على وجوب رصف الصناديق كلها في مخازن الأمتعة ووضع العربات كلها رهن اشارة الجرحى . وما ان فهموا ، حتى راح الرجال يعملون بحماس بهيج . لم يعد الخدم الآن يجدون غرابة فيما يعملون بل انه خيل اليهم استحالة التصرف على نهج آخر رغم انه قبل ربع ساعه ما كان أحد يدهش لفكرة هجر الجرحى وانقاذ المتاع بل يعتقد بأنه لاسبيل الى غير ذلك .

شرع كل السكان وكأنهم يحاولون تلافي الوقت الذي خسروه ، في تهيىء

الا مكنة للجرحى الذين كانو يجرون انفسهم خارج حجراتهم ساحبي الوجوه سعداء ويحيطون بالعربات . ولقد انتشر الخبر في البيوت المجاورة يفيد وجود عربات للنقل فتوارد الجرحي من تلك البيوت الى فناء بيت آل روستوف . ولقد راح عدد كبير منهم يتوسل اليهم ان يتركوا الاحمال في العربات وان يسمحوا لهم بالركوب فوق الاحمال فحسب . ولكن ما ان بدء تفريغ حمولة العربات حتى بات ايقافه متعذرا ، اذ كان ترك كل شيء او نصف الشيء امراً واحداً . ولقد تناثرت الصناديق المملوءة بالآنية والبرونز واللوحات والمرايا المخرومة بعناية طيلة الليلة الماضية في الفناء وكانو دائماً يجدون مبررات جديدة لانزال هذه اوتلك من الاحمال للحصول على عربة فارغة جديدة .

عرض المسجل :

ـ نستطيع ان نحمل اربعة آخرين وانني امنح عربتي لهذا الغرض والا ، أين نضعهم ؟

فقالت الكونتيس :

ـ اعطهم العربة التى تحمل حوائجي . وستركب دونياشا معي في عربتي.

وافرغوا العربة التي تحمل صناديق الكونتيس وارسلوا يحملون الجرحى من البيوت البعيدة . وكان السادة والخدم يتنافسون في هذا المضمار . ولقد كانت ناتاشا في حميا انتصارها سعيدة كما لم تسعد من قبل ابداً .

اخذ الرجال يقولون وهم يحملون صندوقاً على المرقاة الضيقة لاحدى العربات .

ـ كيف نثبته هنا ؟ يجب على الأقل ان نترك عربة .

فسألت ناتاشا ؟

ـ ماذا في هذا الصندوق ؟

– كتب سيدي الكونت .

– دعوها . سوف يهتم فاسيليتش بها . لسنا في حاجة اليها .

امتلأت العربة بالركاب وراحوا يتساءلون اين يمكن ان يجلس بيتيا . فهتفت ناتاشا .

– سوف يصعد على المقعد اليس كذلك يا بيتيا ؟

وكانت سونيا مشغولة مثل انشغال ناتاشا ولكن على عكسها ، اذ كانت تنظم الاشياء التي ينزلونها من العربات وتسجلها على لوائح بناء على رغبة الكونتيس وهي تجتهد في ان تنقل مع ذلك اكبر قدر ممكن من الامتعة .

★ ★ ★

الفَصلُ السَّابعُ عشَرَ

رحيل آل روستوف

وفي الثانية والنصف بعد الظهر ، وقفت مركبات ركوب آل روستوف الاربع جاهزة تماماً امام المرقاة وخرجت العربات التي تحمل الجرحى من الفناء واحدة اثر الاخرى .

اجتذبت عربه الأمير آندريه الانيقةانتباهسونيا فياللحظة التي خرجت فيها الى المرقاة وكانت في تلك اللحظـة منهمكة مع خادمـــة باعداد مكان مريح للكونتيس في العربة الكبيرة العريضة المريحة الواقفة امام المرقاة .

سألت سونيا وهي تخرج رأسها من باب المركبة :

– لمن هذه العربة الانيقة ؟

أجابت الوصيفة :

– ألا تعلمين ياآنسة ؟ انها لأمير جريح امضى الليل هنا وسيرتحل معنا .

– ولكن من هو ؟ مااسمه ؟

تنهدت الوصيفة وقالت :

– خطيبناالقديم نفسه ، الأمير بولكونسكي ! يقولون أنه لاأمل في شفائه .

قفزت سونيا من العربة وهرعت الى الكونتيس وكانت هذه قد استعدت للسفر فيشال وقبعة مناسبين ، تروح وتجيء متعبة في البهو ، منتظرة كل الأسرة لكي يجلسوا لفترة قصيرة ويغلقوا الباب ثم يضرعون بالصلاة المألوفة في مثـل

هذه المناسبات قبل الرحيل . ولم تكن ناتاشا في الغرفة . قالت سونيا :

ـ أماه ، ان الأمير آندريه هنا وهو مصاب بجرح قاتل . انه سيرحل معنا .

فتحت الكونتيس عينين مذعورتين جاحظتين وامسكت بسونيا من ذراعها ثم التفتت حولها وهتفت :

ـ هل ناتاشا ؟ ..

لم يكن هـذا النبأ بالنسبة الى سونيا كما بالنسبة الى الكونتيس الا معنى واحد للوهلة الاولى . انهما تعرفان ناتاشا وتفكران برعب في حالتها عندماتطلع على النبأ . اما اشفاقهم على الرجل الذي كانتا رغم ذلك تحبانه كثيراً ، فانه لم يكن يحتل الا المرتبة الثانية .

كررت سونيا :

ـ لازالت ناتاشا لاتعرف شيئاً . لكنه راحل معنا .

ـ تقولين ان جرحه قاتل ؟

فاجابت سونيا بإيماءة من رأسها .

احاطتها الكونتيس بذراعيها وراحت تبكي . فكرت وهي تشعر ان كل ما يحدث حينذاك توجهه يد الله التي ظلت غير منظورة حتي تلك اللحظة والتي راحت الآن تتجلى : « ان دروب الرب لاتسبر ! »

سألت ناتاشا التي هرعت في تلك اللحظة موردة الوجه :

ـ اذن ماما ، كل شيء جاهز . ماذا تنتظرون ؟

فقالت الكونتيس :

ـ لاشيء . اذا كنت جاهزة ، امكن لنا ان نرحل .

وانحنت الكونتيس على حقيبة يدها لتخفي وجهها المنقلب بينما ضمت سونيا ناتاشا الى صدرها وقبلتها .

نظرت اليها ناتاشا بقلق :

- ماذا بك ؟ هل جرى شيء ما ؟

- كلا .. لاشيء ..

سألت ناتاشا بأدراك مألوف لديها :

هناك شيء سيء بالنسبة الي ؟ ما هو هذا الشيء !

زفرت سونيا دون ان تجيب . ودخل الكونت وبيتيا والسيدة شوسي ومافرا كوزمينيتشنا وفاسيليتشي الى البهو واغلقوا الباب ثم جلسوا بصمت دون ان ينظر احدهم الى احد لمدة بضع ثوان .

نهض الكونت اول من نهض وبعد ان اطلق زفرة مسموعة ، رسم اشارة الصليب على صدره امام الايقونة . فحذا الباقون حذوه ثم ربت الكونت على كتف مافرا كوزمينيتشنا و كتف فاسيليتش اللذين كانا سيمكثان في موسكو ، في حين شرع هذان يمسكان بيده ويقبلان كتفه . ربت على ظهرهما برفق وهو يغمغم بكلمات غامضة ولكن مالقة ومغرية . ومضت الكونتيس الى مصلاها حيث وجدتها سونيا راكعة امام بعض الايقونات التي تركت هنا وهناك على الجدار بعد ان رزمت الايقونات الثمينة وحملت معهم كذكريات للاسرة .

وفي الفناء وعلى المرقاة ، كان الخدم الذين سيرحلون ، المسلحون بالخناجر والسيوف التي وزعها عليهم بيتيا ، وقد ادخلوا اكمام سراويلهم في احذيتهم العالية ولفوا حول خصورهم نطقاً من الجلد او الصوف ، يتبادلون عبارات الوداع مع الذين سيمكثون .

وكالعادة عند الرحيل ، تبين ان هذا الأمر أو ذاك قـــد نسي أو اسيء عمله ، لذلك فقد ظل الحارسان المسلحان فترة طويلة واقفين على طرفي العربة امام البابين المفتوحين وفوق مرقاة المركبة بانتظار جلوس الكونتيس ، في

حين ان الوصيفات كن يهرعن حاملات الوسائد واللفائف من البيت الى المركبة او العربة الصغرى او العربة الثالثة .

قالت الكونتيس :

– يجب دائماً ان ننسى شيئاً ما . رباه ، انك تعرفين تماماً انني لا استطيع الجلوس على هذا الشكل .

فجرت دونياشا مستاءة تصرف على اسنانها ، الى « البرلين » الفخمة لتبدل الوسائد من مكانها دون ان تنطق بكلمة . وقال الكونت وهو يهز رأسه :

وكان السائق الكهل « ايفيم » ، وهو الوحيد الذي تثق به الكونتيس في ارتحالها ، جالساً على مقعده العالي لايلقي بالاً الى ماىحدث وراءه . كان يعرف بفضل خبرة ثلاثين عاماً ، انهم لن يقولوا له بمثل هذه السرعة : « الى الأمام ! » وانه عندما تشرع « البرلين » في الحركة ، يجب ان تقف من جديد مرتين أو ثلاث مرات للأتيان بشيء ما منسي وان الكونتيس ستخرج رأسها من النافذة لتقول له ان يمشي بهدوء في المنحدرات حباً بالمسيح . كان يعرف كل هـذا وينتظر بصبر اكثر من جياده وخصوصاً الأصهب الأيسر « سوكول » الذي ما كان يفتأ يقرع الارض بقدمه ويعض على لجامه . اخيراً ، جلس كل في مكانه ورفعوا المرقاة وانصفق الباب ثم ارسلوا يأتون بصندوق صغير آخر ، واخرجت الكونتيس رأسها وفاهت بكلمات مقدسة . وحينئذ رفع ايفيم قبعته ببطء ورسم اشارة الصليب على صدره فاقتدى به السائس والخدم كلهم . وقال ايفيم وهو يعيد قبعته على رأسه : « بحراسة الله » ثم صاح : « هو ! » فقاد السائس العربة . جذب الجواد الأيمن عنانه وصرت النوابض العالية وتأرجح صندوق المركبة الكبير . وتحفز الخادم المرافق وقفز على المقعد والعربة في سيرهـا وانتقلت « البرلين » وهي تقرقع من الفناء الى الشارع المبعد تتبعها العربات الاخرى

المترنحة ، ولم يلبث ذلك الرتل ان راح يصعد الشارع . وراح ركاب «البرلين» والعربتين الاخريين يرسمون اشارة الصليب على صدورهم عندما مرت المراكب بالكنيسة المقابلة بينما راح الخدم الذين سيبقون في موسكو يواكبون العربات على الجانبين لفترة ما من الطريق .

لم تشعر ناتاشا بمثل المرح الذي شعرت به في ذلك الحين فجلست في « البرلين » قبالة امها ، تنظر الى جـــدران المنازل وهي تمر امامها ، منازل موسكو القديمة هذه التي انقلبت الاوضاع فيها وبات الناس يهجرونها . ومن حين الى آخر ، كانت تميل على الباب لتتأمل ما وراء العربة أو المشهد الذي امامها ، مشهد الرتل الطويل من عربات الجرحى التي تسبقهم . وفي المقدمة تقريباً ، كان غطاء عربة الأمير آندريه الانيقة واضحاً للعيان . وكانت تجهل من يحتل تلك العربة ، لكنها كلما راحت تحصي طول الرتل ، كانت تبحث بأنظارها عن تلك العربة التي ظلت محافظة على مكانها في المقدمة .

وفي شارع « كودرين » وصلت قوافل اخرى مماثلة لرتل آل روستوف آتية من نيكيتسكايا وبريسنايا وجادة بودتوفينسكي ، وعندما بلغت القوافل كلها شارع سادوفايا ، اضطرت الى أن تنتظم في صفين .

وبينما هم ينعطفون حول برج سوفاريف ، هتفت ناتاشا فجأة باستغراب تشوبه البهجة وهي التي كانت تتأمل المارة بين راكبي عربات ومشاة :

– آه ! رباه ! ماما ، سونيا ، انظرا ، ها هو ذا !

– من ؟

قالت وهي تزداد انحناء ليتسنى رؤية العملاق الضخم الذي يرتدي معطف السائقين الذي تدل هيئته ومشيته على انه نبيل متنكر ، والذي كان يجتاز في تلك الاثناء برفقة كهل قصير القامة صفراوي أجرد قوسى البرج :

– انظرا ، هذا بيزوخوف ، اقسم لكما على انه هو !

وكررت ناتاشا :

– نعم ، نعم واقسم لكما . انه بيزوخوف في معطف حوذي ومعه كهل قصير مضحك . انني واثقة .

– ولكن لا ، انه ليس هو . كيف تقال مثل هذه الحماقات !

هتفت ناتاشا :

– اماه ، اقدم رأسي للنطع ان لم يكن هو . – للحوذي – قف ! قف !

لكن الحوذي ما كان يستطيع الوقوف لأن قوافلا اخرى كانت تخرج من ميشتشانسكايا ، فكان السائقون يهتفون طالبين اليهم التقدم كيلا يعرقلوا حركة السير .

وفي الواقع ان آل روستوف كلهم شاهدوا بيير رغم انه كان ابعد من ذي قبل ، أو على الأقل ، رجلاً يشبهه بشكل خارق في معطف حوذي ، يمشي على طول الشارع مطرق الرأس صارم الاسارير والى جانبه عجوز قصير أجرد يشبه الوصيف . ولاحظ الكهل القصير رأس ناتاشا بارزاً من باب العربة فمس باحترام مرفق بيير وقال له شيئاً وهو يشير الى « البرلين » . ولقـد لبث بيير فترة قبل ان يستوعب مايقال له لشد ما كان مستغرقاً في خواطره . واخيراً ، عندمـا أدرك الفرض ، نظر في الوجهة التي أشار اليها العجوز فعرف ناتاشا على الفور . اندفع مستسلماً لحركته الاولى ، متوجهاً نحو العربة . لكنه بعد بضع خطوات ، توقف بسبب بعض الذكريات التي كان قد نسيها من قبل ولاريب .

وكان وجه ناتاشا المنحني على الباب يشع بالحبور والبشاشة . هتفت وهي تمد له يدها :

– يابيو تركيريليتش ! تعال هيا ! انك ترى تماما اننا كشفناك ! هذا رائع كيف جرى ؟ لماذا هذا الزي ؟

فأمسك بيير باليـد الممدودة وقبلها بمهارة وهو يسير بحذاء العربة (التي تتوقف بالطبع). وسألته الكونتيس بصوت تظهر فيه الدهشة مشبعة بالاشفاق

– ماذا حصل لك يا كونت ؟

قال بيير :

– ماذا ؟ لاشيء البتة ! لا تسأليني .

والتفت الى ناتاشا التي كانت نظرتها المشعة المرحة – وكان يشعر بها دون ان يرفع عينيه اليها – تحيطه بالفتنة .– ماذاتفعل اذن ؟ هل تبقى في موسكو؟

فلم يجبها بيير على الفور .

وأخيراً قال بلهجة استفهام :

– في موسكو ؟ نعم ، في موسكو . الى اللقاء .

فقالت ناتاشا :

– آه ! كم آسف لأنني لست رجلا واذن لبقيت حتماً معك . سيكون رائعاً ! ماما ، اذا كنت تسمحين لي بالبقاء سأبقى .

تأمل بيير ناتاشا بنظرة ساهمة وأراد ان يقول شيئاً . لكن الكونتيس قاطعته :

– يبدو أنك كنت في المعركة ؟

فأجاب بيير :

– نعم ، لقد كنت . وغداً ستنشب اخرى ..

فقاطعته ناتاشا هذه المرة :

– ولكن ماذا بك يا كونت ؟ ان مظهرك غريب جداً ..

– آه لاتسأليني ولاتستجوبيني عن شيء لأنني لست أفقه شيئاً .. غداً .. كلا ، ليس غداً ! الوداع ، الوداع !

ثم أعقب :

ـ يا للحظات المروعة !

ثم ابتعد عن العربة ومضى الى الرصيف .

وظلت ناتاشا فترة طويلة على الباب تتبعه بنظراتها وعلى شفتيها ابتسامة مرحة ودودة يشوبها شيء من السخرية .

* * *

الفصل الثامن عشر

قصة بيير

منذ اليومين اللذين مرا على اختفائه من مسكنه ، كان بيير قاطناً في الشقة الفارغة التي كان يقطنها المتوفي بازدييف . وهذا ما جرى :

عندما استيقظ غداة يوم وصوله الى موسكو ومقابلته مع روستوبتشين ظل بيير فترة طويلة يفكر في المرحلة التي بلغ اليها والغاية التي يريدونها منه . ولما أعلنوا له بين الذين ينتظرون مقابلته ،ذلك الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته شعر فجأة بالاضراب الغامض واليأس اللذين كان ميالاً بطبعه اليها . حدث نفسها بأنها النهاية الآن وان كل شيء ليس الا لبس ودماروانه لم يعد هناك حق وباطل وان المستقبل لن يحمل له شيئاً في طياته وان موقفه لامخرج منه . فكان يجلس تارة على أريكته في وضع المثقل وهو يضحك ضحكة مغتصبة ويدمدم بين أسنانه شيئاً وتارة ينهض فيقترب من الباب وينظر خلال ثقب المفتاح الى الردهة ثم يعود بحركة يائسة فيجلس على الاريكة ويمسك بكتاب . دخل رئيس خدمه مرة ثانية يعلمه بان الفرنسي الذي حمل رسالة زوجته يرغب رغبة قوية في مقابلته ولو لدقيقة واحدة وأضاف ان أرملة بازدئيف ترغب قبل ان ترحل الى الريف في معرفة ما اذا كانت تستطيع ائتمانه على بعض الكتب .

أجاب بيير رئيس خدمه :

آه ! نعم ، فوراً ، انتظر . . أو بالاحرى لا ! قـــل انني سأحضر بعد حين .

لكن ، لم يكد رئيس الخدم يخرج ، حتى أخذ بيير قبعته التي كانت ملقاة على الطاولة وفر من مكتبه من الباب الداخلي . وكان الممشى خالياً فسار فيه بيير حتى السلم فهبط عليـه وهو مستغرق في التفكير يضغط جبهته بكلتا يديه حتى بلغ بسطة الدور الاول . وكان البواب واقفاً أمام الباب الرئيسي . ولكن كان هناك سلم آخر قرب البسطة التي وقف عليها بيير يقود الى المخرج الخلفي . اتخذ سبيله من هناك ونزل الى الفناء دون ان يراه أحد . وفي الفناء نفـه ، في اللحظة التي كاد فيها ان يجتاز الباب المؤدي الى الشارع ، رآه السائقون الذي وقفوا هناك بعرباتهم وكذلك رآه البواب فخلعوا قبعـاتهم . أحس بيير بتلك الانظار تحدق فيه فاطرق برأسه كالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال كيلا يراهـا أحد وحث خطاه ثم خرج الى الشارع .

بدا لبيير ان اكثر الاشياء التي عرضت له ذلك الصباح عجلة هو أخذ كتب جوزيف الكسيئيفيتش وأوراق .

استقل اول عربة صادفها وأمر ان يحمل الى مستنقعات البطريريك « ايتان دوباتريارش » حيث كان بيت بازدييئيف .

كان ينظر في كل الجهات الى ارتال العربات التي تغـادر موسكو وهو لايدري كيف يحيد بجسمه الضخم كي يتحـاشي الانزلاق تحت احدى العربات الشديدة القـدم التي كانت تصر ، ويحس بمثل ذلك الاحساس الذي يخامر الغلام الهارب من مدرسته ، فراح يثرثر مع الحوذي وهو مبتهج .

روى له هذا أنهم يوزعون الاسلحة في الكريملن وانهم سينتقلون غداةاليوم التالي الى الجبال الثلاثة حيث ستنشب معركة كبرى .

ولما وصل الى مستنقعات البطريرك ، استدل بيير على مسكن بازدييئيف الذي لم يزره منذ فترة طويلة ، واقترب من الباب فلما قرعه ، هرع جيراسيم ، ذلك الكهل القصير ذو اللون الاصفر ،الأجرد ،الذي رآه بيير قبل خمس سنوات مع سيده في تورجوك . سأل بيير .

– هل من أحد ؟

– بالنظر الى الظروف ، فقد ارتحلت صوفي دانيلوفنا مع الاولاد الى ملكها في تورجوك ياصاحب السعادة .

فقال بيير :

- سوف أدخل رغم ذلك اذ علي ان أختار الكتب .

– على الرحب والسعة . ان أخ فقيدنا – ليتغمده الله برحمته – ماكار الكسيئيفيتش قد ظل هنا . لكنه كما تعلم ، ضعيف العقل .

وكان بيير يعرف ان ماكار الكسيئيفيتش ، أخ الفقيد ، نصف مجنون مدمن على الشراب . فقال وهو يدخل البيت :

– نعم ، نعم ، أعرف . هيا ولنسرع .

وكان كهل طويل القامة أحمر الأنف مرتدياً معطفاً منزلياً ، عاري القدمين في خفين من المطاط ، واقفاً في الردهة فلما شاهد بيير ، غمغم ببضع كلمات ومضى الى الممشى .

قال جيراسيم :

– لقد كان عبقرياً . لكنه كما ترى أصبح ضعيف الذكاء . هل ترغب في دخول المكتب ؟ (فأومأ بيير موافقاً) لقد وضعوا الاختام ولا زالت سليمه ولقد أمرت صوفي دانيلوفنا ان نسلم الكتب الى من يأتي من قبلك .

دخل بيير ذلك المكتب المعتم بالذات الذي ما كان يدخله الا وهو يرتعد

طيلة ما لبث المحسن على قيد الحياة . ولم يمس أحد شيئاً منـذ وفاة جوزيف الكسيثيفيتش فكان الغبـار يعلو كل شيء وكل شيء يحزن اكثر من أي وقت مضى .

فتح جيراسيم خلفه نافذة وخرج من الحجرة على أطراف قدميه، فدار بيير بالمكتب وجاء الى الخزانة التي وضعت فيها المخطوطات ، فأخذ واحدة منها ، كانت فيما مضى من اكثر تراث المحفل قدسية . كانت تلك المخطوطة هي الوقائع الايكوسية الصحيحة شرحها المحسن وفسرها بخط يـده . جلس بيير الى طاوله العمل المغطاة بالغبار ووضع المخطوطة أمامه وفتحهـا ثم تصفحها وأخيراً تركها ليستغرق في أفكاره ورأسه بين يديه .

وجاء جيراسيم أكثر من مرة يلقي نظرة مختلسة الى المكتب فكان في كل مرة يرى بيير على وضعه ذاك . وانقضت ساعتان ونيف فسمح جيراسيم لنفسه ان يحدث ضوضاء أمام الباب ليجذب انتباه بيير . لكن بيير لم يسمعه .

– هل أصرف العربة ؟

فقال بيير الذي استعاد حواسه ونهض بعزم :

– آه نعم .

ثم أضاف وهو يمسك زر ثوب جيراسيم وينحـدر على العجوز القصير بنظرة جليلة مشرقة مبللة بالدموع :

– اصغ ، اصغ . هل تعلم انهم سوف يقتتلون غداً ؟

فأجاب جراسيم :

– يقولون ذلك .

– أطلب اليك ان لاتقول لأحد من اكون وأعمل ما سأطلبه منك ..

قال جيراسيم :

ـ تحت أمرك . هل اقدم لك طعاماً ؟

قال بيير وقد تضرج وجهه فجأة :

ـ كلا ، ليس هذا ما اريده . تدبر لي ثياب قروي ومسدساً .

فردد جراسيم بعد ان فكر قليلاً :

ـ تحت أمرك .

ظل بيير طيلة ذلك النهار معتكفاً في مكتب ذلك المحسن ولقد سمعه جيراسيم يذرع المكتب جيئة وذهاباً بعصبية وهو يتكلم نفسه . وفي الليل ، نام على سرير نصب خصيصاً له .

لم يدهش جيراسيم الذي شاهد خلال حياته كخادم آخرين أشد غرابة يقيمون في البيت . بل أنه بدا سعيداً بوجود من يقدم له خدماته . وفي المساء ، ودون ان يسأل عما يمكن ان يعمل به ، حمل لبيير معطفاً من ذلك النوع الذي يلبسه السائقون وقلنسوة ووعده بتقديم المسدس صباح اليوم التالي . ولقد جاء ماكار الكسيئيفيتش مرتين خلال الليل الى باب المكتب يجر خفيه وينظر الى بيير باستمالة . لكن ما ان يلتفت بيير اليه ، حتى يحتجب بذعر ويسخط في ثوبه المنزلي ويبادر الى الابتعاد . ومضى بيير متشحاً بمعطف الحوذي الذي اشتراه له جيراسيم ونظفه له الى برج سوخاريف ليشتري مسدساً حينما التقى بآل روستوف .

* * *

الفصل التاسع عشر

نابوليون على مشارف موسكو

في ليلة الاول والثاني من ايلول، أصدر كوتوزوف الأمر الى الجيش الروسي بالانثناء عبر موسكو على طريق ريازان .

تحركت القطعات الاولى تلك الليلة بالذات دون ان تتعجل في تلك الظلمات فكانت تتقدم ببطء واتزان . ولكن عند الفجر ، عندما اقتربت من جسر دوروجوميلوف على نهر موسلفا غربي المدينة ، وجدت أمامها كتلًا من الناس يتدافعون لعبور الجسر ويجتمعون على الضفة المقابلة ، يسدون الشوارع والازقة ووراءهم قطع لاتحصى من الجنود التي تدفعهم فاستولى على الجيش اضطراب وقلق لامبرر لهما . اندفعوا جميعاً الى الأمام نحو الجازات والقوارب . أما كوتوزوف ، فقد أمر بنقله عن طريق دائري من الجانب الآخر من موسكو .

وفي الثاني من ايلول ، الساعة العاشرة صباحاً ، لم يبق في ضاحية دوروجوميلوف الى المؤخرة . أما السواد الاعظم من الجيش ، فكان قد اجتاز موسكفا وابتعد عن موسكو .

وفي تلك الاثناء ، كان نابوليون الذي وصل مع جنوده الى جبل بوكلانايا يتأمل المشهد الذي عرض لناظريه . ولقد كان الطقس ، منذ السادس والعشرين من آب وحتى الثاني من ايلول ، منذ معركة بورودينو وحتى يوم دخول الاعداء موسكو ، طيلة ذلك الاسبوع التاريخي ، آية في جمال الجو الخريفي الخارق

المدهش أبداً . فالشمس المنحنية على الافق ، كانت محرقة اكثر منها في الربيع واشعاعاتها الباهرة المنتشرة في الفضاء تؤلم العيون ، والصدور تتمدد ويستنشق الناس ملء رئاتهم عبير الخريف . والليالي نفسها لطيفة ، وفي تلك الليالي الحالكة الحارة ، كانت النجوم الذهبية تسقط من السماء فتوقظ الرعب والفرح .

وكان اليوم الثاني من ايلول ، الساعة العاشرة صباحاً ، على مثل البهاء الذي وصفنا .

كان ضياء الصباح سحرياً وموسكو من أعلى جبل بوكلو "نايـا ، تنبسط فى الابعاد بنهرها وحدائقها وكنائسها وتبدو وكأنها تعيش حياة خاصة بها ، بقبابها المتمعة تحت اشعاعات الشمس كالنجوم .

ولما رأى نابوليون هذه المدينة غريبة البناء الاخاذة ، شعر بذلك الفضول المشوب بقليل من الحسد والقلق ، الذي يشعر به الناس لمرآى خطوط حياة غريبة تجهلهم . كان واضحاً ان تلك المدينة تحيا حياتها الخاصة بكل ما في هذه الكلمة من قوى . وكانت الدلائل التي لاتوصف ، الدلائل التي تجعل المرء يفرق بها ولو على البعد ، جسداً ميتاً من جسد حي ، هذه الدلائل جعلت نابوليون من أعلى جبل بوكلو "نايا يشعر بسكان هذه المدينة أشبه بانفاس هذا الجسد الرحيب الرائع .

ان كل روسي يتأمل موسكو يشعر انها أم . وكل أجنبي ينظر اليها ، دون ان يدرك معنى الامومة فيها ، تدهشه رغم تلك الصفة النسوية التي لهذه المدينة ، ولقد شعر نابوليون نفسه بذلك .

قال نابوليون وهو يترجل عن جواده :

- هذه المدينة الاسيوية ذات الكنائس الكثيرة ، موسكو المقدسة . هاهي ذي اخيرا ، هذه المدينة العتيدة ! لقد كان الوقت مناسبا .

وامر ان ينشر امامه مخطط موسكو ثم استدعى مترجمة ليلورم ديدفيل وهو يفكر : « ان مدينة يحتلها العدو تشبه فتاة فقدت شرفها » – وكان يردد ما قاله في سمولنسك وفي توتشوكوف – . ولقد كان يتأمل هذا الجمال الشرقي الذي تفتح له فجأة ممتداً تحت قدميه وهو يشعر بهذا الشعور . و لقد بدا تحقق ذلك الحلم الذي هدهده منذ زمن طويل ، ذلك الحلم الذي بدا له بعيد المنال ، لوناً من الغرابة . فكان في ضياء الصباح الوضاء ، ينقل بصره تارة الى المخطط وطوراً الى المدينة مدققاً في كل تفصيل ، وقد ملأه التأكـــد من امتلاكها الانفعال والذعر .

كان يحدث نفسه : « ولكن ، هل يمكن ان يكون الأمر خلاف ذلك ؟ ها هي ذي عند قدمي ، تلك العاصمة ، تنتظر مصيرها . اين الكسندر الآن وماذا تراه يفكر ؟ يالها من مدينة غريبة ضخمة رائعة ! يالها من دقيقة غريبة وجليلة ! وهم ، تحت اي ضوء يجب ان ابدو لعيونهم ؟ » هذا ما كان يفكر فيه وهو يذكر جنوده في نفسه . والقى نظره على من حوله وعلى جيشه الذي كان يتقدم بنظام جميل : « ها هي ذي ، المكافأة لكل هؤلاء القليلي الايمان . كلمة واحدة مني ، اشارة واحدة ، فاذا بها تضيع ، مدينة القياصرة القديمة هذه لكن رحمتي على استعداد دائماً لتسبغ على المقهورين . يجب ان ابرهن على شهامة ونفس كبيرة حقيقية . .

وفجأه فكر : كلا ، يستحيل ان اكون قد بلغت موسكو . مع ذلك ، ها هي ذي امامي ، بذهب قبابها وصلبانها الذهبية ، حيث تتلاعب اشعاعات الشمس وترتعد . لكنني سأحميها . سوف اطبع كلمات العدالة والرحمة الكبيرة على هذه الابنية ، أبنية البربرية والاستبداد . وانا اعرف ان الكسندر سوف يقدر هذا رغم كل شيء . « كان يخيل الى نابوليون ان المعنى الرئيسي للاحداث

الجارية يترجم الى مبارزة شخصية بينه وبين الكسندر . »ومن اعلى الكريملن – لأن هذا هو الكريملن ولاريب ! – سوف اعطيهم القوانين العادلة وسأريهم معنى المدينة الحقيقيه . سوف ارغم اجيال اشراف روسيا على ان يذكروا المنتصر عليهم بحب . سأقول لوفود ممثليهم انني مـا اردت الحرب ولا اريدها وانني ماحضتها الا بسبب سياسة بلاطهم الكاذبة وانني احب وأحترم الكسندر وانني مستعد لأن اتقبل في موسكو نفسها صلحاً جديراً بي وبشعوبي . انني لا اريـد ان انتهز فرصة حرب ظافرة لأحط من قيمة ملك محترم سأقول لهم : « ايها الاشراف ! انني لا اريد الحرب بل اريـد السلم وراحة كل اتباعي ورفاههم . « ثم انني اعرف ان حضورهم سوف يلهمني ما يجب ان اقوله لهم وسوف أكلمهم كما اتكلم دائماً : بوضوح وجلال وعظمة . ولكن هل حقيقة انا في موسكو ؟ نعم ، انها هي نفسها ! »

قال وهو يلتفت الى حاشيته :

– ليأتون بالأشراف .

فمضى جنرال تتبعه حاشية لامعة بحثاً عن الأشراف .

ومضت ساعتان ، فأكل نابوليون ثم اتخذ المكان نفسه على جبل بوكلو"نايا بانتظار الوفود . ولقد اتخذ الخطاب الذي سيلقيه على الأشراف خطوطه الواضحة وأصبح مفعماً بالكرامة والعظمة .

ولقد راحت لهجة الشهامة التي سيتخذها والتي ستخضع موسكو ، تخضعه هو نفسه . اخذ يحدد في ذهنه يوم « الاجتماع في قصر القياصرة »حيث سيلتقي كبار السادة الروسيون مع شخصيات بلاطه الرفيعة وسمى سلفاً الحاكم الذي سيعود انتقاؤه بعطف السكان . ولما علم ان موسكو تضم عدداً من مؤسسات الاحسان فقد قرر ان يغرق هذه المؤسسات بما يغدقه عليها ، وكان يفكر في انه اذا كان في

افريقيا يجب الذهاب الى الجامع « بالبرنس » ، فانه في موسكو لابد وان يظهر محسناً كالقياصرة . ولكي يكسب عطف الروسيين نهائياً ، قرر ككل فرنسي عاجز عن القيام باعمال الرفق والحنان دون ان يتذكر « عزيزتي ، امي المسكينة الحنون » ، ان يأمر بأن ينقش على مداخل تلك المؤسسات كلها ،« مؤسسة مهداة الى امي العزيزة » نعم ، هذه العبارة وليس « بيت امي » فحسب . وعاد يفكر من جديد : « ولكن ، هل من الممكن ان اكون بلغت موسكو ؟ نعم ، ها هي ذي أمامي . ولكن لماذا تأخرت وفود المدينة عن المجيء كل هذا الوقت»

في تلك الاثناء ، في الصفوف الاخيرة من حاشية الامبراطور ، كان الجنرالات والماريشالات المنشغلين يتناقشون بصوت خافت . لقد عاد اولئك الذين ذهبوا للاتيان بالوفود بنبأ خلو موسكو من السكان الذين فروا جميعاً . وكانت الوجوه ممتقعة ومذعورة . لم يكونوا خائفين لأن موسكو هجرها أهلها – رغم اهمية مثل هذا الحدث – بل كانوا خائفين من ابلاغ النبأ للامبراطور فكانوا يتساءلون عن الوسيلة التي سيبلغون الأمر لجلالته دون ان يصفوه في ذلك الموقف المريع الذي يسميه الفرنسيون «مستحق الهزء» قائلين له انه انتظر الاشراف عبثاً وان موسكو لم يعد فيها الا الرعاع من السكارى . كان بعضهم يشير بأن تجمع وفود كيفما اتفق والبعض الآخر يبعدون هذه الفكرة مؤكدين وجوب اعداد الامبراطور بحذر وحذق لمعرفة الحقيقة .

قال اولئك السادة من حاشيته :

– يجب انهاء الخبر رغم كل شيء . ولكن ايها السادة . .

ولقد كان الموقف يزداد صعوبة لأن نابوليون المستغرق في خططه المتعلقة بعظمة النفس ، كان يروح ويجيء متذرعاً بالصبر أمام مخططه المنشور يبتسم ابتسامة محمومة مبتهجة ويرفع بين الحين والحين يده الى طرف قلنسوه أمـــام عينيه ناظراً الى طريق موسكو .

وكان الاتباع من رجال البلاط يرددون وهم يهزون اكتافهم دون ان يقرروا النطق بتلك الكلمة الرهيبة التي تحوم على شفاههم : يستحق الهزء :

– ولكن هذا مستحيل ..

وفي تلك الاثناء ، شعر الامبراطور الذي أتعبه الانتظار ،باحساس الممثل الهزلي الذي تفرد به ان اللحظه الحاسمة قد طالت اكثر مما ينبغي فبدأ يفقد جلاله وأومأ بيده . وعندئذ دوى قصف مدفع ليعطي الاشارة الى القطعات التي كانت تحيط بموسكو من كل الجهات ، فلم تلبث هذه ان تحركت نحو مداخل المدينة : تغير ، كالوجا ، دوروجوميلوف مستحثة خطاها ، يسبق بعضها بعضاً أثناء السير ، بين مشاة وفرسان وراحت تتقدم سحابة من الغبار وهي تطلق هتافات مدوية .

جرف حماس الجنود نابوليون فبلغ معهم مدخل دوروجوميلوف . لكنه هناك ، أمر بالوقوف ونزل عن حصانه وراح يتنزه على طول حاجز « كوليج دولاشامبر » وهو لايزال بانتظار الوفود .

* * *

الفصل العشرون

الخلية الميتة

في تلك الاثناء ، كانت موسكو خالية . كان لايزال بعض السكان طبعاً ، بنسبة واحد الى خمسين من مجموع السكان العاديين ، لكن المدينة كانت رغم ذلك خالية كخلية نذرت للموت برحيل ملكتها .

والواقع ان مثل هذه الخلية تعتبر محرومة من الحياة رغم ما تبدو للنظرة السطحية ، حافلة بالنشاط للوهلة الأخرى كأية خلية .

فالنحل يحوم حولها تحت اشعاعات الشمس الدافئة حوماً مرحاً يشبه حومه حول خلية حية ، ورائحة العسل تفوح من مسافة بعيدة ويرى الناظر النحل يخرج منها . ولكن يفي مجرد المراقبة لمعرفة ان الحياة مفقودة في تلك الخلية . ان النحل لايحوم على هذا النحو حول الخلايا الحية . بل ان هذه الرائحة نفسها والطنين ليس اياه . فاذا قرع بعضهم خلية مريضة ، فانه بدلاً من الجواب الفوري الاجماعي الذي يتمثل بانطلاق بضع عشرات الالوف من الحشرات في حالة غليان مشرعة حماتها ، تضرب بأجنحتها . بجنون محدثة صخب الحياة الشديد ، لاترد الخليه الا بدندنات منعزلة يتردد صداها في بعض الخلايا الفارغة . لايشعر المرء عند دخوله بالرائحة المألوفة ، الرائحة الكحولية العطرية ، رائحة العسل والسم ، ولا يحس بالنفحات الفاترة التي تملأ المكان المأهول ، بل ان رائحة العسل تمتزج برائحة الفراغ والعفن . ولايصبح الدخول ممنوعـــاً من قبل حارسات على استعداد

للتضحية بانفسهن وقد شرعن مؤخراً تهن استعداداً للنزال ولا تُسمع الضجة اللينة للعمل الناشط الذي يشبه الماء في غليانهـا ولكن حركات غير منظمة ، مبعثرة ، حركات الفوضى ، والذباب الأسود يدخل ويخرج ، وهـذا الذباب الوجل الماكر ، ذو الشكل الطويل ، المنغمس كله بالعسل ، هو سلاب الخلية لاحمة له ، يفر حالما يُدفع . اما من قبل ، فالعاملات وحدها كانت ترى داخلة بحملها لتخرج خاوية ، بينما تذهب الآن مع أسلابها . ويفتح مربي النحل الكوة السفلى وينظر الى القسم الأسفل من الخلية . وبدلاً من العنقود المألوف من النحل الادكن الذي يتدلى حتى السطح الأسفل وقد تشبثت النحلة باختها وراحت تفرز بنشاط شمعها في طنين لا ينقطع . يرى عـاملات منهكات خائرات تائهات من جانب الى آخر ، مبعثرات في الاسفل وعلى الجوانب . وبـدلاً من الارض المطلية بالعبكر المكنوسة بعنايه بضربات الاجنحة العنيدة ، تناثرت بقع من الشمع في الاسفل وعسل النحل نصف الميت الذي لازال يحرك اطرافه و« جثث » نحل نافق لم يرفع بعد .

ويفتح مربي النحل بعدئذ الكوة العليا وينظر الى « رأس » الخلية . وبدلاً من الشهاد الممتنعة التي تحتضن البيض والصفوف المتراصة من النحل ، يرى هندسة الأقراص الفنية الحاذقة ، لكنها تكون محرومة من ذلك المظهر البتولي الذي كان لها من قبل . فكل شيء مهجور ومدنس، والذباب الأسود ، سلاب الخلية قد تسلل بمهارة ورشاقة بين العاملات في حين أن هذه باتت متراخية جافة نحيلة فاشلة ، تتيه من هنا الى هناك أشبه بعجائز ضعيفات ، دون ان تتعرض للنهب أو تأبه لشيء وقد فقدت طعم الحياة. والذكور وذباب البقر وضروب الفراش تتصادم وهي تحوم على الجنبات . وفي وجهة ما ، بين الأقراص المليئة بالبيض الفاسد والعسل ، يلاحظ في حركات فجائية طنين غاضب ، وفي مكان آخر ،

نحلتان عادت بهما غريزة العمل الى تنظيف عشهما، فراحتا تسعيان جهد طاقتهما لطرح جثث عاملة او ذكر خارج الخلية دون ان تدركا ما هما فاعلتان . وفي جهة اخرى نحلتان هرمتان تقتتلان بتراخ او تنظفان جسديهما أو تطعم احداهما الاخرى دون ان يعرف ما اذا كان نشاطهم ودياً أوعدائياً . وفي زاوية اخرى كتلة من النحل يسحق بعضها بعضاً ، تهاجم ضحية ما وتضربها وتخنقها فتسقط الضحية القتيل ببطء خفيفة كالفقاعة على كوم الجثث . ويقلب المربي قرصي الوسط ليرى العش . وبدلاً من الوف النحل المتساند ظهراً الى ظهر ، في دائرة سوداء ، المقيم هناك لمراقبة سر التقف ، يرى حشرات كئيبة محذرة لاتكاد تبلغ بضع مئات وهي في حالة اقرب الى الموت . فالنحل كله ميت تقريباً ، يجهل ان الكنز الذي يحرسه لم يعد له وجود ، تفوح منه رائحة عفنة ، باستثناء البعض الذي يتحرك ويطير بضعف ليقع على يد المربي وقد بلغ من ضعفه انه لا يفقد الحياة اذا لسعه . أما البقية الباقية ، فكلها ميت ، تسقط الى الأسفل أشبه بأسقاط السمك . وحينئذ ، يعيد المربي الكوة كما كانت ويشير الى الخلية بالحكك ثم يتخير اللحظة المناسبة لاخراج الثول واحراقه .

وهكذا كانت موسكو خالية بينما كان نابوليون المتعب القلق المقطب حاجبيه ، يروح ويجيء عند حاجز « كوليج دولاشامبر » منتظراً الوفود ، وهو امر لا يتعدى مجرد مظهر تقليدي ، لكنه لابد منه في رأي نابوليون .

وفي مختلف احياء المدينة ، كان بعض الناس يروحو ويجيئون عاجزين عن قصد معين ، تحركهم عادات قديمة ، لا يفقهون ما يفعلون .

وعندما جاؤوا يعلمون نابوليون بالاحتياطات اللازمة، ان موسكو خالية ، تأمل حامل هـذا النبأ بعين غاضبة ثم استدار وعاد الى نزهته الصامتة . وأخيراً قال :

— ليأتوني بعربتي .

ثم صعد اليها مع المساعد العسكري المنوب ودخل الضاحية وهو يردد في نفسه : « موسكو خالية ! ياللحدث الذي لايصدق ! »

لم يدخل المدينة بل توقف في خان في ضاحية دوروجوميلوف .

لقد اخفقت المفاجأة المسرحية !

* * *

الفَصل الحادي والعشرون

اعمال السلب

اجتازت قطعاتنا موسكو ابتداء من الساعه الثانية صباحاً وحتى بعد الظهر جارة وراءها المبطئين والجرحى .

ولقد حدث اكبر زحام على جسور بيير وموسكفا واياووزا خلال الفترة التي استغرقها مسير الجيش .

وبينما كانت القطعات تنقسم الى شطرين حول الكريملين وتتجمع عندجسري موسكفا وبيير ، كان عدد لا يستهان به من الجنود ينتهزون فرصة التوقف والفوضى ليعودوا على اعقابهم وليتسللوا خلسة وبسكون على طول كنيسة « بازيل السعيد » الضخمة وليصعـدوا عن طريق باب بوروفيتسكي الى الساحة الحمراء مدفوعين بحاسة خفية ، محدثين انفسهم ان النهب هنا أسهل منه في اي مكان آخر . اجتاحت هذه الجماعة جوستينيِّي دفور من كل المنافذ المؤدية اليه كما هي العادة أيام البيع باثمان بخسة . لكن أصوات الباعة المتجولين والمنادين الودودة المغرية لم تعد تردد فيه . ولقد حل محل الجمهور المرقش من المشتريات جنود في ازيائهم او معاطفهم ، غير مسلحين ، يدخلون الاروقة بأيـد فارغة ليخرجوا منها ضامتين محملين بالاسلاب. ولقد كان عدد من التجار والمستخدمين المذعورين — وكانوا قلة — يجولون بين هؤلاء الجنود ، يفتحون دكاكينهم او يغلقونها ، محاولين بمساعدة الحمالين ، ان يضعوا بضاعتهم في مأمن. وعلى ساحة

جوستينيبّي دفور ، راح قارعوا الطبول يطلقون النـداء الى الصفوف . لكن دوي الطبل كان بدلاً من ان يجمع الجنود الهاربين ،يحثهم على الابتعاد اكثر فأكثر . ولم يلبث ان بدا بين العسكريين الذين اجتاحوا الدكاكين والممرات أشخاص في معاطف رمادية ذوو رؤوس حليقة . وراح ضابطان ، احدهما يتقلد وشاحاً فوق بزته ويمتطي صهوة حصان قصير القوائم هزيل كهبي اللون والآخر يرتدي معطفاً طويلاً يبلغ قدميه ، يتحدثان فيما بينهما عندزاوية ايليئينكا حيث توقفا . وجاء ثالث يلحق بهما على جواده ،

– لقد اعطى الجنرال الأمر بطردهم جميعاً بأي ثمن وعلى الفور . هـذا أمر لايوصف ! لقد تفرق نصف الجيش .

وصرخ منادياً ثلاثة من الجنود المشاة تسللوا تحت عينيه الى الاورقة دون اسلحة وقد حسروا أطراف معاطفهم :

– الى اين انت ذاهب ؟ وأنتم ياهؤلاء ؟ قفوا ، أسافل !

رد الضابط الاول :

– حاول ان توقفهم ! لم تعد هناك وسيلة لايقافهم ! يجب ان نحث الخطى حتى يبقى الباقون منتظمين في صفوفهم ، هذا كل شيء !

– كيف نتقدم ؟ لقد توقفوا هناك وهم متجمهرون على الجسر لايستطيعون التقـــدم اكثر من ذلك . هل ترى يجب وضع سلسلة لمنع الصفوف الخلفية من التشتت ؟

هتف الضابط الكبير :

– نعم ، اذهب الى هناك . طاردوهم جميعاً !

ترجل متقلد الوشاح واستدعى قارع طبل ثم دخل معه تحت الاورقة فاختفى بعض الجنود على الفور . وتقدم تاجر ذو وجنتين حمراوين تغطي البثور

ماحول الانف وعلى وجهه تعبير حسابي لايتزعزع ، من الضابط مسرعاً وهو يلوح بيديه بتكلف وقال :

– ياصاحب النبالة ، تفضل بمنحي حمايتك . لن ندقق كثيراً ، اننا في خدمتك . اذا كنت ترغب في جوخ أخرجت لك منه ما تريد ، قطعتين على الأقل لرجل نبيل . انه في خدمتك لأننا ندرك الأشياء تماماً . ولكن هـذا ، ما هذا ؟ انه سلب ! ارحمنا ! تفضل بوضع حرس حتى نستطيع اغلاق متاجرنا.

وجاء عدد آخر من الباعة يحيطون بالضابط . قال احـدهم ، وهو نحيل ذو وجه صارم يخاطب زميله :

– ايه ! انك تصرخ ولاتقول شيئاً . عندما يقطع رأس انسان لايجب ان يبكي شعره .

ثم التفت نصف التفاته نحو الضابط وقام باشارة نشيطة من يده واردف :

– انتق ما تشاء ، خذ ماتشتهي .

فقال البائع الأول :

– انت ياايفان فيدوريتش ، انك تتكلم على هواك . تعال أرجوك ياصاحب النبالة .

وصرخ البائع الهزيل :

– كيف اتحدث على هواي ! ان لدي في دكاكيني الثلاث ماقيمته ثلاثمائة الف روبل من البضائع فكيف احتفظ بها اذا كان الجيش راحلاً ؟ اننا نعرفه ، الشعب . « ان اليد لانستطيع شيئاً ضد قوة الله . »

استأنف البائع الأول وهو ينحني بالتحيات :

– ارجوك ، ياصاحب النبالة .

وكان الضابط متردداً ووجهه بكل تقاطيعه ينطق بتردده . وفجأة ، هتف

وهو يدخل تحت الأروقة بخطى حثيثة :

ــ ايه ! سيان عندي ، بعد كل شيء !

كانوا يتخاصمون ويتبادلون السباب في حانوت مفتوح عندما اقترب الضابط منـــه . وكان رجل ذو معطف رمادي ورأس حليق يخرج من الحانوت بعنف مطروداً .

انحنى ذلك الرجل حتى انطوى وتسلل بين البائع والضابط . وانهال الضابط على الجنود الذين كانوا في الحانوت . ولكن ، في تلك اللحظة ، ارتفعت صرخات مروعة من حناجر جمهور غفير على جسر موسكفا فعاد الضابط مسرعاً الى الساحة . سأل زميله :

ــ ماذا هناك ؟ ماذا جرى ؟

لكن هذا كان يجري صوب الصيحات على طول كنيسة «بازيل السعيد» الكبيرة .

امتطى الضابط جواده وتبعه ، فلما بلغ الجسر ، شاهد مدفعين انتزعا من عجلاتهما وجنوداً مشاة سائرين وعربات نقل مقلوبة ووجوها مذعورة وجنوداً يتقهقرون . وبالقرب من المدفعين وقفت عربة يقطرها جوادان ووراء العربة ، ربطوا اربعة كلاب صيد احدهما لصق الآخر وعلى العربة جبل من الامتعـة قبعت فوقه ــ على الذروة ــ امرأة جلست الى جانب كرسي اطفال وقدماها في الهواء تطلق صرخات ثاقبة . وروى رفاق الضابط له ان كل تلك الصيحات سببها أمر اصدره الجنرال ايرمولوف ، ذلك انه عندما علم ان الجنود يغزون الحوانيت وان السكان متجمهرين قرب الجسر ، امر بان تنزع المدافع من عجلات القطر وان تتخذ الاستعدادات لأطلاق القذائف على الجسر ، وحينئذ راحت الجماهير تقلب العربات وتتدافع يسحق بعضها بعضاً وتزمجر لكنها اخلت الجسر فاستطاع الجيش ان يواصل تقدمه .

الفَصْلُ الثّاني وَالعُشْرون

مافرا والضابط المجهول

وفي تلك الاثناء ، كان كل شيء مقفر في وسط موسكو والشوارع تكاد ان تكون خالية وابواب المساكن والحوانيت مقفلة ، وهنا وهناك ، حول المشارب ، كانت بعض الاصوات ترتفع وبعض اغنيات السكارى ، فلا عربة واحدة ويندر ان تردد خطى عابر سبيل . وفي بوفارسكايا الخاوية تماما الصامتة كان فناء مسكن آل روستوف الرحب يشهد تناثر القش والارواث دون ان يضم نفساً حية . وفي ذلك البيت الذي ابقيت فيه كل ثروة اصحابه ، لم يقم غير شخصين في البهو الكبير هما البواب اونياس والخادم الصغير ميشكا حفيد فاسيليتش الذي بقي في موسكو مع جده ، ولقد رفع ميشكا غطاء الارغن وراح يعزف باصبع واحدة بينما انتصب البواب امام مرآة كبيرة واضعاً يديه على وركيه وهو يبتسم ابتسامة بهيجة .

هتف ميشكا الذي راح فجأة يضرب اصابع المعزف بكلتا يديه :

ــ انظر ياعم اينياس ! انني اعرف كيف اعزف ، اليس كذلك ؟

فاجاب اينياس وقدفتنه ان يرى على وجهه في المرآة ، ابتسامة تزداد اشراقا :

ــ اصدقك !

وقالت مافرا كوز فينيتشنا من ورائها وقد دخلت خلسة :

ــ انكما لاتخجلان ! حقاً يجب ان تخجلا ! وهذا المنفوخ الضخم الذي

يقهقه ! هذا مالانتا صالحان له ! في حين ان كل شيء يجب ان ينظم وفاسيليتش لايستطيع الوقوف على قدميه ! انتظروا قليلا !

كف اينياس عن الابتسام وراح يسوي نطاقة وهو يخفض عينيه مذعوراً وخرج من الغرفة . وقال الغلام الصغير :

– ايتها العمة الصغيرة ، سأعزف برفق أكثر .

فصرخت مافرا كوزمينيتشنا وهي ترفع على الغلام يداً مهددة :

– وسأذيقك « برفق » ماتستحق ، يافاجر ! اذهب وأعد السماور .

مسحت مافرا كوزمينيتشنا الغبار واغلقت غطاء المعزف ثم خرجت من البهو وهي تزفر زفرة عميقة ثم اغلقت الباب بالمفتاح .

ولما اصبحت في الفناء ، راحت مافرا كوزمينيتشنا تفكر : أين يجب عليها ان تذهب الآن ؟ اتذهب لاحتساء الشاي مع فاسيليتش في الجناح ام ترتب الاشياء التي لم تنظم بعد في مخزن الأمتعة ؟

ارتفعت خطوات سريعة في سكون الشارع ثم توقفت امام باب الفناء الصغير وراح الرتاج يصل تحت يد تعالجه لتفتحه .

اقتربت مافرا كوزمينيتشنا من الباب :

– من تريد ؟

– الكونت ، الكونت ايليا اندريئيفيتش روستوف .

– وانت ، من انت ؟

فاجاب الصوت الروسي المستحب :

– انني ضابط في حاجة الى رؤيته .

فتحت مافرا كوزمينيتشنا الباب فدخل الفناء ضابط شاب في حوالي الثامنة عشرة من عمره مستدير الوجه تذكر تقاطيعه بتقاطيع الى روستوف .

قالت مافرا كوزمينيتشنا بلهجة مترددة :

ـ لقد ذهبوا جميعاً ايها السيد العزيز ، لقد رحل السادة أمس مساء ..

لعق الضابط الشاب بلسانه وهو واقف قرب الباب وتردد لايدري أيدخل أم يرحل . هتف :

ـ آه ! ياله من أمر مؤسف ! كان علي ان احضر بالأمس . . . آه ! كم هو مؤسف !..

خلال ذلك ، كانت مافرا كوزمينيتشنا تتأمل بانتباه مفعم بالعطف ، ذلك الشاب الذي تذكرها تقاطيع وجه بأسرة روستوف ، كان معطفه خلقاً وحذاءاه مثنيان . سألته :

ـ ولأي سبب كنت تريد رؤية الكونت ؟

فقال الضابط الشاب غاضباً وهو يقترب من الباب استعداداً للخروج :

ـ فات الوقت .. ولا حيلة بالأمر !

ثم توقف وهو في حيرة ثم قال فجأة :

ـ ذلك انني قريب للكونت وكان دائماً جم العطف علي . وكما ترين .

ـ وتأمل معطفه وحذاءه بابتسامة مرحة طيبة ـ لقد بليت كل هذه حتى فنيت ولست املك نقيراً . لذلك اردت ان اسأل الكونت ..

لم تدعه مافرا كوزمينيتشنا ينهي جملته وقالت :

ـ انتظر دقيقة صغيرة ياسيدي الطيب ، دقيقة صغيرة .

وما ان تخلى الضابط الشاب عن رتاج الباب حتى استدارت مافرا كوزمينيتشنا ومضت بخطوات العجوز السريعة الى الفناء الخلفي حيث يقع مسكنها .

وبينما كانت مافرا كوزمينيتشا تهرع الى غرفتها ، راح الضابط ، مطرق الرأس ، متأملاً حذائيه الممزقين ، يروح ويجيء في الفناء وعلى شفتيه ابتسامة

خفيفة : « كم هو مؤسف ان لاأجد عمي ، ولكن يالها من امرأة باسلة ! ترى الى اين ذهبت ؟ وددت الآن لو أعلم في أي شارع أسير لألحق بفيلقي الذي يجب ان تكون الآن قريباً من روجوجسكايا - حاجز يقع شرقي موسكو - »

ظهرت مافراكوزمينيتشنا عند ركن الفناء وعلى اساريرها مسحة من الذعر المشوب بالعزم الثابت ، تمسك بيدها منديلاً معقوداً ذا مربعات . ولما باتت على قيد خطوات من الضابط ، حلت المنديل واخرجت منه ورقة نقدية بيضاء من ذات الخمسة والعشرين روبلاً مدتها للضابط الشاب برشاقة :

- لو ان سعادته كان هنـــا ، بالطبع ، كما لقريبه .. واذن ، علني استطيع .. الآن ..

لم تكن مافراكوزمينيتشنا ، في خجلها الشديد ، تدري ماتقول . لكن الشاب ، دون ان يعترض ودون ان يتعجل ، اخـذ الورقة النقدية وشكر العجوز ، فكررت هذه معتذرة :

- لو ان الكونت كان هنا .. ليحفظك الله ياسيدي الطيب .

واعقبت وهي تنحني وترافقه الى الباب :

- ليحفظك الله .

راح الشاب يبتسم وكأنه يهزأ من نفسه ، ويهز رأسه وانطلق بما يشبه الجري ، خلال الشوارع المقفرة ليلحق بفيلقه .

وظلت مافراكوزمينيتشنا فترة طويلة امام الباب المغلق والدموع ملء مآقيها ، وهي تهز رأسها مفكرة وقد استبدت بها موجة من العطف والحنان حيال الضابط المجهول الشاب .

* * *

الفَصلُ الثّالِثُ وَالعُشرُونَ

الغوغاء

في منزل لم يتم بناؤه بعد بشارع فارفاركا ، كان الدور الاسفل منه يحوي مشرباً ، ارتفعت الصيحات واغنيـات السكارى . وكان حوالي اثنا عشر عاملاً يحتلون المقاعد حول طاولة في حجرة قذرة وقد نضحت وجوههم بالعرق واعتكرت عيونهم ، فراحوا وهم في حالة سكرهم الشديد ، يفتحون أفواهاً عريضة ويرفعون عقائرهم بالغناء . كانوا يغنون دون مطابقـة في الاصوات ، بجهود ليس بدافع الرغبة في الغناء ، بل ليبرهنوا على انهم سكارى تلذذوا بالطعام والشراب . وكان الواقف الوحيد بينهم ، فتى عملاقاً أشقر يرتدي رداء عريضاً أزرق . وكان وجهه ذو الانف المستقيم الدقيق ، قابلاً للتحلي بصفات الجمال لولا شفتـاه المنقبضتان المصعرتان وحاجباه المقطبان وعيناه الشاخصتان العكرتان . كان متسلطاً على المغنين ، يعتقد بوضوح انه شخص مـا ، فيؤرجح فوق الرؤوس بحركة خرقاء جليلة ، ذراعه الذي شمر عنه كمه حتى المرفق ، واصابعـه القذرة التي كان يباعد بينها على أفضل ما يستطيع . وكان كم ردائه يسقط دائماً فيشمره الفتى دون كلل بيده اليسرى وكأن بقاء ذراعه البيضاء المعرقة عارية أمر ذو أهميـة حيوية . وفي وسط الاغنية ، ترددت عند المدخل جلبة مماحكة فاشار الفتى العملاق بيده وصاح بصوت آمر :

— كفى . معركة ايها الرفاق !

ودون ان يرخي كم ردائه ، اندفع نحو المرقاة .

اندفع العمال وراءه . لقد جاء العمال ذلك الصباح الى المشرب تحت قيادة العملاق حاملين جلوداً من المعمل الى الخمار ثمن شرابهم . ولما علا صخبهم وضجيجهم ظن حدادون في معمل قريب للحدادة ان الحانة معرضة للنهب فأرادوا الدخول اليها بالقوة .

وكانوا عند المرقاة يتبادلون الكلمات ، والخمار الذي يدافع عن بابه ، مشتبك مع حداد ، في اللحظة التي ظهر فيها العمال . فراح الحداد ، بعد ان افلت من يد الخمار ، يسقط على الارض ورأسه تسبق جسمه .

وهجم أحد رفاقه على الباب واطبق بساعديه على جسد الخمار .

وضرب الفتى ذو الكم المشمر حداداً على ملء وجهه ، وراح يسعى للدخول وزمجر :

– أيها الرفاق ! انهم يضربوننا !

وفي تلك اللحظة ، نهض الحداد الاول وراح يمر باصابعه على وجه المدمى وصرخ بصوت محزن :

– الغوث ! الى القاتل ! انهم يقتلوننا ! النجدة ايها الرفاق !

ونبحت امرأة كانت خارجة من بيت مجاور :

– اوه ! رباه ، لقد ضربوا رجلاً حتى الموت !

وأحاط جمع من الناس بالحداد ذي الوجه المغطى بالدم . قال صوت يخاطب الخمار :

– لا يكفيك ان تسلب الفقراء وأن تنزع عنهم حتى قميصهم ، فأصبحت الآن تطمع في جلودهم ? ايها اللص !

وقف الفتى العملاق على المرقاة وراح ينقل أبصاره بين الخمار والحداد

فترة وكأنه يفكر في أي من الجانبين ينحاز اليه وفجأة صرخ بالخمار :

– ياقاتل ! أوثقوه أيها الرفاق !

صرخ الخمار وهو يدفع الذين القوا بانفسهم عليه وينزع قلنسوته بحركة عنيفة فيضرب بها الارض ؟

– هن ، يوثقوني انا !

و كأن تلك الحركة كانت ذات معنى غامض متوعـد اذ ترك العمال الخمار وتوقفوا مترددين ؛ هتف الخمار وهو يرفع قلنسوته :

– انا أعرفه ، القانون ، أعرفه معرفة عميقة . سأذهب الى مديرية الشرطة . آه ! هل تظن بأنني لن أذهب ؟ ليس من حق أحد الآن ان يقوم باعمال السلب !

وردد الخمار والفتى العملاق على التعاقب وذهبا معاً على طول الشارع :

– هيا بنا اذا أردت ! هيا بنا .. اذا أردت !

وتبعهما الحداد ذو الوجه المدمى ثم سار العمال والفضوليون على أثارهم وهم يتناقشون ويصرخون .

عند زاوية شارع ماروسّيئيكا ، قبالة بنـاء كبير مغلق المصاريع ، يحمل لافتة معمل لصنع الأحذية ، وقف حوالي عِشرون عـاملاً حذاء وكلهم نحيلون أضناء يلبسون الاردية الفضفاضة والمعاطف الخلقة .

قال عامل شديد النحول ذو لحية نادرة وحاجبين كثيفين :

– ليعطنا حسابنا حسب الاصول ! لقد امتص دماءنا وهو الآن يعتقد انه بريء الذمة . لقد سوفنا وماطلنا طيلة الاسبوع . والآن وقد بلغنا أقصى حالات العوز ، انسل هارباً !

ولما رآى العامل الحذاء الجماعة والرجل الجريح ، صمت واستولى عليه وعلى رفاقه فضول لايقاوم ، فانضم معهم الى الجمهور المندفع .

– الى أين يمضي كل هؤلاء ؟

– لكن هذا واضح ، الى الشرطة .

– قل ياهذا ، هل حقيقة ان جيشنا هو المنتصر ؟

وراحت الأسئلة والاجوبة تتقاطع فانتهز الخمار فرصة الهياج العام وتسلل من بين الجماعة عائداً الى حانته .

وكان العملاق الذي لم يلاحظ اختفاء عدوه ، يحرك ذراعة العارية حركات عريضة دون ان يكف عن التحدث باسهاب جاذباً بذلك الى نفسه الانتباه العام ولقد كان الفضوليون يحيطون به اكثر من سواه طمعاً في الحصول على جواب للاسئلة التي كانت تشغل بال الجميع .

قال الفتى العملاق بابتسامة دقيقة :

– أما ان يعطونا الأوامر وان يحق الحق ، فهذا عمل السلطة ! أليس كذلك ايها الناس البواسل ؟ هل يظنون ان ليس هناك سلطة ؟ هل يمكن الاستغناء عن السلطة ؟ لولا ذلك لسلب كل شيء .

وسمع من بين الجمع قائل يقول :

– ياللأكذوبة ! اذن، يتركون موسكو هكذا ؟ لقد قالوا لك هذا ليسخروا منك فصدقته . ان عدد الجنود ليس بالقليل . ثم يتركونه يدخل ! هناك قيادة مهمتها منع ذلك .

وراحوا يشيرون الى الفتى العملاق ويقولون :

– اصغوا الى ما يقول !

وأمام جدار كيتائي – جورود ، أحاط فريق من الناس برجل ذي معطف ثقيل من الصوف يمسك بيده ورقة . وكانوا يرددون بين الجمع الذي ما لبث ان انضم الى الدلال العمومي :

– بلاغ . انهم يقرأون بلاغاً ! بلاغ !

كان الرجل ذو المعطف يقرأ منشور الواحد والثلاثين من آب . فلما رأى انهم أحاطوا به ، بدا كأنه يستعيد قواه . لكنه عاد نزولاً عند رغبة العملاق الذي اندفع الى الصف الاول وطلب اليـه ان يقرأ من البداية ، فقرأ بصوت فيه رعدة خفيفة :

« غداً ، من الصبـاح البـاكر ، سأمضي لزيارة الأمير عظيم الرفعة (فكرر الفتى العملاق بأبهة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقطب حاجبيه : عظيم الرفعة !) لكي أتشاور معه حول العمل أو مساعدة جيشنا على ابادة العدو . يجب ان نجعل نفسه تمج طعم الخبز » وتوقف المنـادي بعد استرسال فهتف العملاق بانتصار : هن ! أترى هذا ! يالها من « علقـة » ! « وسوف نفني هؤلاء الزوار وسنرسلهم الى الشيطان . وسأعود غداً الى هنا لأتناول طعام الغـداء وعندئذ سنشرع في العمل معاً . ولا نكاد نبدأ حتى ننتهي ولن نتحدث بعد ذلك عن هؤلاء اللصوص مطلقاً . » وسقطت الكلمات الأخيرة في الصمت العـام . وكان العملاق مطرقاً برأسه أشبه بالمثقل . لاريب ان ما من شخص فهم شيئاً من هذه النهاية . وكانت هذه الكلمات : « وسأعود غداً الى هنا لتناول طعام الغداء » هي التي تزعج بشكل واضح ، المنادي والمستمعين اليه معاً . لقد كان الادراك العام بحاجة الى عبارات كبيرة فكانت هنا تبدو بسيطة جداً بل ومبتذلة . لقد كانت هذه الكلمات هي نفسها التي يمكن ان يرددها كل منهم وبهذه العبارات نفسها ، وبالتـالي فانها لم تكن هي التي يجب ان تصدر عن سلطة عليا .

لزموا جميعهم صمتاً كئيباً وراح الفتى العملاق يحرك شفتيـه ويتأرجح من قدم على اخرى . هتفت أصوات من الصفوف الخلفية من الجماعة :

ماذا لو ذهبنا نسأله الخبر ؟ .. آه ! ها هوذا ! .. ولكن كيف ؟ .. ولم لا ؟ .. سوف يقول لنا ..

وتوكز الانتباه العام على عربة رئيس الشرطـة الذي وصل حينذاك الى الساحة يواكبه اثنان من الفرسان .

لقد ذهب مدير الشرطه ذلك الصباح ، بناء على أمر روستوبتشين ، ليشعل النار في بعض المباني وتقاضي لقاء ذلك مبلغاً ضخماً من المـال كان يحمله معه . فلما رأى الجمع آتياً للقائد ، أصدر الأمر للحوذي بالتوقف .

هتف بالناس الذين راحوا يتوافدون الواحـد تلو الآخر ويقتربون من عربته بوجل :

– ماذا تريدون ؟

كرر لما رآى انه لم يتلق رداً :

– ماذا يريدون هؤلاء المتجمهرون ؟ قولوا .

قال المنادي العمومي .

– انهم يريدون ، وفقاً للمنشور ، ان يقدموا حياتهم . انهم يريدون تقديم خدماتهم لا التمرد كما نما عن طريق مولاي الكونت . .

صرخ رئيس الشرطة :

– ان الكونت لم يذهب . انه هنا ، وسوف يعطيكم تعليماته .

ثم أهاب بسائق عربته :

– الى الأمام !

تكأكأ الناس حول اولئك الذين سمعوا الكلمات التي فاهت بها السلطة رهم يتابعون بابصارهم العربة المبتعدة .

استدار مدير الشرطة نحو الحشد المتكاثر فذعر وقـال شيئاً لسائق عربته فضاعف سرعة الجياد .

زجر العملاق :

ـ انهم يخدعوننا أيها الرفاق ! قدنا الى الحاكم نفسه ! لاتدعوه يفلت أيها الاولاد ! ليقرر لنا حقائق الامور !

وصرخت أصوات كثيرة :

ـ احتجزوه !

واندفع الجمهور وراء العربة .

راح الجمهور وهو يتبع عربة مدير الشرطة ، يتوجه بصخب وجلبة نحو لوبيانكا . والناس يتحدثون فيما بينهم :

ـ لقد انسل السادة والتجار بعضهم اثر بعض ولذلك ، فقد قضي علينا بسببهم في حين اننا لسنا كلاباً .

★ ★ ★

الفَصلُ الرابعُ وَالعُشرُون

حالة روستوبتشين

عاد الكونت روستوبتشين الى موسكو مساء الاول من ايلول بعد مقابلته مع كوتوزوف وقد اصيب بجرح مرير لعدم دعوة كوتوزوف اياه الى الاشتراك في المجلس العسكري ولأنه لم يعر أي انتباه عرضه المتعلق بالاشتراك في الدفاع عن موسكو ، وأذهله كذلك الرأي الجديد الذي اكتشفه المعسكر ، والذي ـــ تبعاً له ـــ يكون أمن المدينة وعواطفه الشخصية الوطنية ليست أمراً ثانوياً فحسب بل وعديمة الاهمية والجدوى كذلك . عاد وهو مجروح الكرامة جرحاً مريراً ومذهولاً بآن واحد ، وتمدد على أريكة بعد العشاء بكامل ثيابه فاروقظ في الساعة الواحدة صباحاً من قبل ساعٍ قادم من لدن كوتوزوف يرجوه ان يرسل رجال الشرطة لمواكبة القطعات العسكرية المتقهقرة عبر المدينة على طريق ريازان . فلم يكن هـذا نبأ حسن الوقع على روستوبتشين . كان يعرف ان موسكو سوف تهجر ، ليس منذ مقابلتـه مع كوتوزوف على جبل بوكلونايا فحسب بل منذ معركة بورودينو ، عندما أعلن الجنرالات العائدون الى موسكو بصوت واحد ان اية معركة جديدة مستحيل وقوعها . ومنذ ذلك الحين ، راح يضع في أمكنة مأمونة ، ممتلكات التـاج ليلة إثر ليلة ، كما ارتحلت نصف اسر موسكو بعضها في أثر بعض . مع ذلك ، فان ذلك النبأ الذي تلقاه على شكل

كتاب بسيط يحوي أمر كوتوزوف وصله خلال الليل بعد اغفاءته الاولى ، مما أدهشه وأسخطه .

ولقد كرر الكونت روستوبتشين فيما بعد في مذكراته مبرراً تصرفاته خلال هذه الحقبة ، بأنه كان يهدف حينذاك الى شيئين مهمين : توطيد الأمن في موسكو وترحيل السكان عنها. فاذا قُبل هذا الهدف المزدوج ، فان كل سلوك روستوبتشين يصبح بعيداً عن اللوم . ولكن ، لماذا اذن لم ترحل كنوز الكنائس الموسكوفية والاسلحة والذخائر والبارود واحتياطي الحبوب ؟ لماذا خدعوا وبالتالي نكبوا ألوفاً من الأشخاص مؤكدين لهم ان موسكو لن تهجر ؟ ان الكونت روستوبتشين يجيب :

— « لتوطيد أمن المدينة » . ولكن لماذا رحلوا أطناناً من الاوراق الرسمية ومنطاد ليبيخ وكثيراً من الاشياء عديمة الجدوى ؟

يجيب الكونت روستوبتشين :

— لكي تترك المدينة فارغة . يكفي ان يكون هناك ما يهدد أمن المدينة العام حتى يصبح أي تصرف مقبولاً .

ان كل بشاعات الارهاب لم تكن تهدف هي الاخرى الا لتوطيد الأمن العام .

اذن ، على أي أساس كانت ترتكز مخاوف الكونت روستوبتشين المتعلقة بأمن موسكو عام ١٨١٢ ؟ ماهي الاسباب التي جعلته يفترض وجود ميول الى الفتنة في المدينة ؟ لقد كان سكانها يجلون عنها والجيش في تراجعه يملأها . فلماذا كان الشعب لابد ثائراً حينذاك ؟

لا في موسكو ، ولا في أي مكان من روسيا ، لم تقع حوادث من هذا النوع . لقد ظل في موسكو حتى الأول والثاني من ايلول قرابة عشرة الاف

شخص ولم يقع ، اذا استثنينا الجمهرة التي تشكلت في فناء سراي الحاكم ، والتي سبب قيامها بنفسه ، أي حادث شغب . وانه من الواضح ان روستوبتشين بعد بورودينو ،عندما بات لا مندوحة من اخلاء موسكو او على الأقل ،بات اخلاؤها متوقعاً ، كان يستطيع بدلاً من الهاء السكان بتوزيع الاسلحة والمناشير ان يتخذ الاحتياطات التي لابد منها لنقل كنوز الكنائس والبارود والعتاد والمال ، وان يعلن بصراحة اخلاء موسكو فيقضي على كل خوف من التمرد الشعبي .

لقد عاش روستوبتشين دائماً – وهو الشخص ذو العقلية الغضوب الدموية – في اجواء الادارة العليا فلم تكن لديه ، رغم وطنيته الملتهبة ، اية فكرة عن الشعب الذي يزعم انه يحكمه . لقد اتخذ روستوبتشين لنفسه ، منذ دخول العدو الى سمولنسك ، دور مدير وجدان الشعب الروسي في « قلب روسيا » . وكان يظن (ككل اداري) انه ليس على رأس تظاهرات سكان موسكو الخارجية فحسب بل انه كذلك يوجه عواطفهم بنداءاته ومنشوراته التي استعمل فيها لغة لصوص المجتمع الراقي ، وهي لغة يمقتها الشعب ولا يفهمها عندما تفوح بالسلطة . وكان هذا الدور ، دور قائد الشعور الشعبي ، يفتن روستوبتشين ويرتاح اليه لدرجة ان الخروج منه بالجلاء الالزامي عن موسكو دون أي عمل بطولي كان أوقع مفاجأة عليه . خيل اليه ان الارض تميد تحت قدميه فلم يعد يعرف مايعمل . وعلى الرغم من معرفته الأكيدة بالأحداث ،فانه رفض بكل روحه ان يصدق فكرة مغادرة موسكو حتى اللحظة الأخيرة . لقد ذهب السكان ضد موافقته . واذا كانوا قد اخلوا المكاتب والوزارات فان ذلك كان بناء على طلب الموظفين أنفسهم ، فلم يسمح لهم به الا مكرها . لم يكن يهتم الا بالدور الذي عزاه في خياله الى نفسه . وكان يعرف منذ أمد بعيد ان موسكو ضائعة لامحالة ، كما يحدث غالباً لذوي الخيال الخصب ، لكنه ما كان يعرف ذلك

الا من الناحية المنطقية : فلقد كان يرفض بكل قواه الروحية ان يصدق أو ان ينقل نفسه على أجنحة الخيال الموقف الجديد .

ولقد اندفع نشاطه اللاهب وحيويته كلها .

– ماذا كان جدوى ذلك النشاط وأي أثر له في نفوس الشعب ، ذلك بحث آخر – ، لقد اندفع كل نشاطه نحو ضرورة ايقاظ الاحاسيس التي تعتلج في نفسه في نفوس السكان ، ايقاظ الحقد الوطني على الفرنسي والثقة بالنفس .

ولكن عندما اتخذت الاحداث نسبها التاريخية الحقيقية ، عندما خيل ان اظهار الحقد على الفرنسيين بلغة الكلام وحدها لم يعد كافياً ، عندما بات يستحيل اظهار ذلك الحقد حتى عن طريق القتال ، عندما بدا الايمان بالذات عديم الأثر في كل ما يتعلق بمسألة موسكو ، عندما تدفق السكان من موسكو هاجرين ممتلكاتهم ، تدفق السيل ، مظهرين بهذه البادرة العمياء كل قوة شعورهم القومي عندئذ ، ظهر الدور الذي اضطلع به روستوبتشين عديم المغنى فارغاً . شعر روستوبتشين ان الأرض تميد تحت قدميه ورأى نفسه فجأة وحيداً ضعيفاً يثير الهزء .

وعندما قرأ رسالة كوتوزوف الجافة الآمرة ، كان مبلغ سخط روستوبتشين الذي استيقظ منتفضاً كافياً ليجعله يشعر بذنبه بأكثر وضوحاً . لقد ظل كل ما أنيط به بصراحة ، كل الممتلكات التابعة للدولة التي كان عليه اخراجها من منطقة الخطر ، ظلت كلها في موسكو وبات اجلاؤها ضرباً من المستحيل .

راح يفكر دون ان يحدد لنفسه من هم « السفلة » و « الخونة » الذي ورد ذكرهم في كلامه : من هو المذنب اذن ؟ حالة الامور هذه ، من الذي سببها ؟ لست انا بكل تأكيد . لقد اعددت انا كل شيء وكنت أمسك بموسكو في يدي ! وكيف ! وها هو المدى الذي بلغنا اليه ! سفلة ! خونة ! » لكنه كان

مدفوعاً بضرورة مقت السفلة الخونة ، هؤلاء المخلوقات الذين وضعوه في الموقف الخاطيء الداعي الى السخرية الذي بلغ اليه .

استمر روستوبتشين طيلة الليل يصدر الأوامر التي جاؤوا من كل جهات موسكو يطلبونها اليه . ولم يره المحيطون به قط على مثل تلك الحالة من الكآبة والانفعال . راحوا طيلة الليل يسألونه دون توقف :

– ياصاحب السعادة ، لقد جاؤوا يسألونك الاوامر من جانب مدير الاقطاعيات .. من جانب مجمع الكرادلة ، مجلس الشيوخ ، الجامعة ، الميتم ، النائب الروسولي الأكبر .. ما هي أوامركم لرجال المطافىء ؟ لمدير السجن ، لمدير المأوى ؟

وكان يجيب على كل هذه الأسئلة اجابات مختصرة ثائرة تدل على ان اوامره لم يعد لها اية أهمية ، الآن بعد ان دمر آخرون ، عمله الذي أعده بعناية فائقة ، وان هؤلاء « الآخرون » انهم سيحتملون كامل مسؤولية الاحداث الدائرة .

اجاب روستوبتشين على سؤال رسول دائرة الاقطاعيات :

– اذهب وقل لذلك الاخرق ان يقف حارساً أمام أوراقه . ثم ما هذا السؤال السخيف بصدد فريق الاطفاء ؟ ان لديهم جيادهم فليذهبوا الى فلاديمير – على حوالي ٣٠٠ كم عن موسكو – اذا لايجب ان نتركهم للفرنسيين .

– يا صاحب السعادة ، لقد جاء مراقب دار المجانين فماذا يجب ان نقول له ؟

– ماذا تجيبونه ؟ ليذهبوا جميعاً ، هذا كل شيء .. اما المجانين ، فليطلقوا سراحهم في المدينة ! طالما ان المجانين باتوا الآن يقودون الجيش عندنا ، فان الله يريد ذلك .

وعندما تحدثوا اليه عن السجناء المكبلين بالحديد في أعماق زنزاناتهم ، صرخ الكونت في وجه مراقب السجن وهو محنق :

– ماذا تريد ؟ هل يجب أن نقدم لك لواءين لحراستهم ؟ لست أملك اللواءين فأطلق سراحهم ، هذا كل شيء !

– يا صاحب السعادة ، والمساجين السياسيون ميشكوف وفيريشتشاجين ؟

– فيريشتشاجين ؟ ألم يشنق بعد؟ ليأتوني به !

* * *

الفصل الخامس والعشرون

انسحاب روستوبتشين

حوالي التاسعة صباحاً ، كانت القطعات قد شرعت تجتاز موسكو فلم يعد يتقدم احد لتلقي الاوامر . ولقد ذهب كل من استطاع ان يذهب مستعملاً وسائله الخاصة . اما الذين بقوا في المدينة فكانوا يقررون بأنفسهم مـــا عليهم ان يعملوه .

وكان الكونت قد أعطى أمراً بأعداد عربة له تقله الى سوكولنيكي وراح ينتظر في مكتبه مربد الوجه صفراوية ، متجهم الأسارير معقود الذراعين .

أثناء السلم ، يعتقد كل اداري ان الفضل في سير كل المواطنين الذين عهـــد امرهم اليه يرجع الى قيادته زمام حركتهم ويجد في ايمانه بأنه لاغنى لهم عنه ، المكافأة الرئيسية على عمله ومجهوده . وطوال الهدوء الذي يخيم على محيط التاريخ ، يعتمد ذلك الربان الاداري وهو على ظهر سابحته الهزيلة ، بمجنه على سفينة الدولة ، ليتقدم هو نفسه . ويستطيع هذا الربان ، وهذا أمر ملموس ، ان يظن انه يدفع السفينة التي يرتكز عليها بقواه الشخصية . ولكن اذا ما ثارت العاصفة وأصبح البحر متلاطم الامواج وجُرحت السفينة ، فان ذلك الوهم يصبح مستحيلاً فالسفينة تتابع سيرها المهيب وحدها مستقلة ، وربان السابحة يكتشف انه ليس الرئيس ، مبعث كل قوة ، بل رجلاً ضعيفاً غير ذي فائدة ، تافهاً ومسكيناً .

وهذا ما كان يحس به روستوبتشين وهو ما كان يثير حفيظته .

ولقد دخل رئيس الشرطة ، ذلك الذي اوقفه الجمهور ، على الكونت في اللحظة التي جاء مساعده يعلن ان الجياد جاهزة . كانا كلاهما شاحب الوجه فأعلن مدير الشرطة بعد ان كشف عن انجازه مهمته ، ان الفناء يعج بجمهور ضخم يرغب في رؤية سعادته .

اجتاز روستوبتشين دون ان ينطق بكلمة البهو المشرق الفخم واقترب من باب الشرفة فأمسك بقبضه ثم افلته وجاء الى نافذة يمكن مشاهدة الجمهور كله منها . كان الفتى العملاق في الصف الاول ، صارم الوجه يتابع أحاديثه وهو يلوح بيديه. وكان الحداد ذو الوجه الدامي واقفاً الى جانبه مربد الاسارير وزمجرة الاصوات تبلغ الاسماع من وراء النوافذ المغلقة .

سأل روستوبتشين وهو يغادر النافذة :

– هل العربة جاهزة ؟

فقال المساعد :

– هي جاهزة ياصاحب السعادة .

اقترب روستوبتشين من الشرفة مرة اخرى ثم استدار نحو مدير الشرطة واستعلم :

- ولكن ، ماذا يريدون ؟

– ياصاحب السعادة ، انهم يصرخون بأنهم اجتمعوا ليمشوا على الفرنسيين تبعاً لأوامركم وانهم خينوا . انهم طائفة من اللغاطين ياصاحب السعادة ولقد افلت منهم بصعوبة كبرى . ياصاحب السعادة ، لو حق لي ان أعرض ...

زمجر روستوبتشين غاضباً :

– تفضل بالانسحاب . انني أعرف ما يجب عليّ ان أعمله بدونك .

وراح ينظر الى الجمهور من باب الشرفة . فكر والغضبة الهوجاء تغلي في

اعماقه ضد ذلك الذي يمكن ان يُعزى اليه كل ما حصل فجأة : « هاهو ذاما عملوه بروسيا ! هذا هو الاسلوب الذي يعاملونني به ! » وكما يحدث عادة للاشخاص الغضوبين ، كان الغضب يجتاحه لكنه مازال يبحث عن الغرض . راح يحدث نفسه دون ان يبارح الجمهور بعينيه : « ها هم اولاء خمان الناس ، حثالة الشعب السوقة الذين ألبوهم بحماقتهم . » وأعقب وهو يتابع بعينيه الفتى العملاق وهو يلوح بيديه : « لابد لهم من ضحية . » ولقد راودته هذه الفكرة فجأة لأنه كان في حاجة الى تلك الضحية لتجد غضبته سبباً . كرر :

ـ هل العربة جاهزة ؟

فقال المساعد العسكري :

ـ نعم ياصاحب السعادة . أية أوامر تعطيها بصدد فيريشتشاجين ؟ انه ينتظر قرب المرقاة .

فزمجر روستوبتشين وكأن ذكرى فجائية طافت بخياله :

ـ آه !

وفتح باب الشرفة فجأة وتقدم بخطى ثابته فصمتت الأصوات ورفعت القلانس والقبعات وشخصت الأبصار كلها الى روستوبتشين .

هتف دائرياً وبصوت مرتفع :

ـ مرحى يا أبناء ! وشكراً اذا جئتم . سوف انزل من فوري الى صفوفكم ولكن يجب قبل كل شيء تسوية حساب المجرم . يجب ان نعاقب المجرم الذي سبب ضياع موسكو . انتظروني !

واختفى الكونت داخل حجراته بمثل السرعة التي ظهر فيها ، وانصفق باب الشرفة بعنف .

وطافت بالجمهور همسة ارتياح وراح الناس يتحادثون وكأنهم يتبادلون

الاعتذار لضعف ايمانهم: « هن ! سوف يخلصنامن المجرمين ! وانت الذي كنت تقول انه فرنسي .. سوف يريك ما هو النظام ! »

وبعد دقائق ، خرج ضابط من مدخل الشرف مسرعاًفأصدر أمراً لم يلبث بعض الفرسان بعده ان وقفوا في وضعية « تنكب سلاحك » . فكف الجمهور عن النظر الى الشرفة وتقدم بنهم نحو المرقاة .

وكان روستوبتشين في تلك اللحظة قد وصل بخطوات سريعة حازمة فجال بعينيه فيما حوله و كأنه يبحث عن شخص ما .

سأل الكونت :

– اين هو ؟

وفي اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات ، شاهد شاباً ذا عنق طويل رقيق ورأس حليق حتى وسطه وقد بدأ شعره ينبت من جديد ، آتياً من ركن البيت يخفره اثنان من الجنود ، كان مرتدياً « فروة » كانت فيما مضى انيقة جداً ولا ريب ، يغطيها جوخ ازرق على فراء ثعلب مهترىء من الاحتكاك . وكانت سراويله الخاصةبالسجناء المصنوعةمن الكتان ممزقة وقذرة وقد ادخلت في ساقي الحذاءين الدقيقين القذرين المثنيين ، وكانت السلاسل الثقيلة التي تعيق ساقيه الهزيلتين تجعل مشيته اشبه بالمتردده .

صاح روستوبتشين الذي اشاح بسرعـــة عن الشاب واشار الى آخر درجة من المرقاة :

– آه : ليأتوا به الى هنا !

فصعد الشاب على الدرجة المعينةوهويتقدم بتثاقل مصحوباً بصليل السلاسل وازاح بأصبعه ياقة معطف الفراء التي كانت تزعجه وادار مرتين عنقـه الطويل ثم عقد وهو يزفر ، يديه الناحلتين اللتين لم تمارسا عملا على بطنه .

ران الصمت بضع ثوان بينما كان الشاب يقف على الدرجة ، باستثناء بعض النحنحات والانات وبعض فورات الغضب العـــابرة وقليل من الردي في الصفوف الخلفية .

راح روستوبتشين يمر يده على وجهه ويقطب حاجبيه منتظراً ان يتخـذ الشاب مكانه على درجة المرقاة ، وفجأة ، قال بصوت معدني رنان :

— ايهـا الاولاد ! هذا الرجل هو فيريشتشاجين ، السافل الذي سبب ضياع موسكو .

اتخذ الشاب ذو معطف فراء الثعلب وضعية متواضعة ، عاقداً يديه امامـه محنياً جذعه قليلاً ، وكان وجهـه الفتي الناحل ذو الامارات اليائسة ، الذي شوهه رأسه الحليق ، منحنياً بعناد ، ولقد رفع جبهته ببطء عندما فاه الكونت بكلماته الاولى ونظر اليه من اسفل وكأنه يهم ان يقول له شيئاً او ان يقابل نظرته على الاقل ، لكن روستوبتشين ما كان ينظر اليه ، وقرب الاذن ،على طول عنق الفتى النحيل ، ازرق عرق اشبه بالحبل الممدود وغدا وجهـه فجأة بلون الارجوان .

شخصت العيون كلها اليه فراح يتأمل الجمهور . ولعل تعابير الوجوه التي طالعته ، شجعته ، فطافت على شفتيه ابتسامةحزينة مذعورة ومن جديد اطرق برأسه لكنه نصب قامته على الدرجة .

قـال روستوبتشين بقسوة دون ان يرفع صوتـــه وهو يحط بنظرة على فيريشتشاجين :

— لقد خان امبراطوره ووطنه وباع نفسه لبونابارت ، انـه وحده بين الروسيين الذي لوث شرف الاسم الروسي وبسببه ضاعت موسكو .

وكأن صغار موقف الشاب سبب في نفسه انفجاراً ، اذ رفع يده وقال في شبه زمجرة وهو يخاطب الجمهور :

– احكموا عليه بانفسكم ! انني اهبه لكم !

ظل الجمهور صامتاً تتكاثف صفوفه ، وكانوا جميعاً متراصين بعضهم الى جانب البعض الآخر ، وقد امتنع عليهم التنفس والحركة ، ينتظرون حدوث شيء مجهول ، شيء غامض رهيب .

وكان الذين في الصفوف الاولى ، الذين يرون ويسمعون مايحدث مذهولين وقد جحظت عيونهم ، وفغروا افواههم ، يقاومون بكل قواهم موجة الذين من ورائهم .

هتف روستوبتشين :

– اضربوه ! لينفق الخائن الذي لوث شرف الاسم الروسي ! مزقوه ! آمركم بذلك !

ولدى سماع الجمهور لهجة روستوبتشين الغاضبة وليس كلماته ،ندا عنه مايشبه الزمجرة وارتعش لكنه عاد الى جموده .

نطق فيريشتشاجين بصوت وجلٍ ومسرحي معاً في اللحظة التي ران فيها الصمت :

– كونت ! ايها الكونت ، ان الله وحده قاضينا !.

ورفع رأسه فعاد الدم من جديد ينفخ العرق الضخم في العنق الهزيل بينما راح الدم يتصاعد الى وجهه ويبارحه بسرعة ، لكنه لم يستطع ان يتابع الكلام اذ زمجر روستوبتشين فجأة وقد حاكى امتقاع وجهه امتقاع فيريشتشاجين :

– مزقوه ! آمر بذلك !

ونضا ضابط الحرس حسامه من غمده وصاح :

-- اشهروا السيوف !

واستفزت الجمهور موجة اقوى من السابقة بلغت الصفوف الاولى فجعلتها

تندفع مترنحة حتى درجات المرقاة ، وبات العملاق قرب فيريشتشاجين وقد بان الروع على وجهه وان ظلت يده مشرعـــة . وقال الضابط بصوت لايكاد يسمع :

– اثخنوه جراحا !

فضرب احد الجنود وقد صعر وجهه فجأة بالغضب ، فيريشتشاجين بعرض سيفه على رأسه ، فصرخ التاعس وقد فوجيء بالضربة :

– آه !

وبان الذعر في عينيه دون انيبدو عليه انه فهم ما يريدونه منه ، وطافت بالجمهور زمجرة ذعر وذهول وهتف بعضهم بحزن : « أوه ! ياربي ! »

ولكن ، بعد صيحة الذهول تلك ، اطلق فيريشتشاجين صيحة اخرى ، من الألم هذه المرة ، فكانت تلك الصرخة سبب ضياعه . لقـــد تحطم شعور الاشفاق الذي توتر الى اقصى الدرجات فاستوقف الجمهور ، تحطم فجأة فكانت الجريمة التي شُرع بها واجبة الانهاء . وضاعت أنّة الرجل المتألمة وسط زمجرة الجمهور الحاقدة المتوعدة ، وكما تبتلع موجة سابعة واخيرة باخرة غارقة ، فان الموجة الاخيرة التي لاتقاوم من الغضبه الشعبية انتقلت من الصفوف الخلفية الى الامامية فأغرقتها وابتلعت كل شيء ، اراد الجندي الذي ضرب اول مرة ان يضرب مرة اخرى فاندفع فيريشتشاجين نحو الجمهور ماداً يديه الى الامام وهو يطلق صرخات مذعورة . فغرس الفتى العملاق الذي اصطـدم به اظافره في عنقه النحيل وتدحرج معه تحت اقدام الذين راحوا يندفعون الى الامام .

ولقد راح البعض يضربون فيريشتشاجين ويمزقون ثيابـه في حين راح الآخرون ينهالون على العملاق ضربا . ولقد ابلغت صيحات الذين كانوا على وشك الاختناق من الزحام والذين هرعوا لنجدة العملاق ، الغضبـة الجماهيرية

الى ذروتها فلم يخلص الجنود العامل المدمى وهو على حال اقرب الى الموت الا بشق الانفس . ولقـد ظل الاشخاص الذين راحو يضربون فيريشتشاجين ويخنقونه ويمزقونه ، فترة طويلة رغم الغضب اللاهب الذي حفز الجمهور على انهاء الجريمة التي شرع فيها ، وقتـــاً طويلاً عاجزين عن الاجهاز عليه . كانوا متدافعين من كل الجهات يترنحون ويتقاذفون يميناً ويساراً لايتوصلون الى توجيه الضربة القاضية اليه ولا الى الابقاء عليه .

– ضربة بلطة موفقـة ، هن ؟ . . هل نفق ؟.. الخائن ، يهوذا ! كلا ، لازال يتنفس !.. ان روحه مرنة !.. لم يلق الا مايستحق !.. ضربة بلطة !. هل انتهى ؟

ولما كفت الضحية عن التخبط ، وحلت الحشرجة الطويلة محل صرخاتها ، كف الجمور اخيراً عن التدافع حول الجثة الدامية . راح كل شخص الآن يقترب ليلقي نظرة فيأخذه الروع والخزي والتكبيت وينسحب وقد غـدا شديد الصغار .

كانوا يرددون : « اوه ! ياربي ، الشعب ، ياللوحش الضاري ! كيف كان يستطيع ان يعيش بعد كل هـــذا ؟ ثم ياله من شاب يافع ! . لاريب انه كان مدللاً !. آه ! الشعب ! يقولون ان الفاعل ليس هذا .. كيف ليس هو ؟.. آوه ! ياربي ! والآخر الذي ضربوه ، يقولون انـه هو الآخر نصف ميت !.. اوه ! الشعب .. الذي لايخاف الخطيئة .. » هذا ماكان يقوله الاشخاص أنفسهم الذين راحوا الآن يتأملون بحنان رؤوف جثـة فيريشتشاجين الذي راح وجهه يزرق ، وقد غطاه الدم والغبار والذي كان عنقه النحيل نصف مفصول .

وأراد شرطي ان يبدي غيرة بعد ان وجد ان بقاء تلك الجثة في فناء سعادته أمر غير لائق ، فأمر الجنود بجرهـــا الى الشارع . فامسك جنديان بساقي

فيريشتشاجين المحطمة وجراه خارجاً فكان الرأس الحليق الملوث بالدم والغبار في نهاية العنق الدقيق الطويل ، يقفز على الارض ويصطـدم بها ، وابتعد عن الجثه .

عندما سقط فيريشتشاجين ، وبينما راح الجمهور الثائر يتدافع ويصطخب حوله وفوقه ، شحب وجه روستوبتشين فجأة وبدلاً من الذهاب الى المرقاة الخلفية حيث كانت عربته تنتظره ، راح بخطوات آلية ، يمشي مطرق الرأس مسرعاً ، في الممشى المؤدي الى حجرات الدور الأرضي . كان ممتقع الوجـه لايستطيع ضبط فكه الاسفل عن الارتعاد كالمصاب بالحمى ، وكان صوت مذعور مرتعد يردد خلفه :

– من هنا ياصاحب السعاده . الى أين ترغب في الذهاب ؟. من هنا اذا أمرت .

لم يكن الكونت روستوبتشين بحالة تمكنه من الاجابة ، لكنه عاد بخضوع على أعقابه فسار في الاتجاه الذي اشير به عليه . وكانت عربته تنتظر عند المرقاة الخلفية وزمجرة الجمهور الصاخب تصل الى هناك . صعد الكونت روستوبتشين الى عربته وأصدر أمره بالذهاب الى بيته الريفي في سوكولنيكي .

عندما بلغ مياسنيتسكايا ، ولم يعد يتناهى الى مسامعـه صراخ الجمهور ، اجتاح الاسف الكونت روستوبتشين . تذكر فجأة الاضطراب والخوف اللذين ترك مرؤوسيه يرونهما عليه فحدث نفسه بالفرنسية وهو ساخط على نفسه : « ان الرعاع مخيفون ، انهم كريهون . انهم كالذئاب الذين لايمكن تهدئتهن الا باللحم !» وعادت الى ذاكرته كلمات فيريشتشاجين : « كونت ! ان الله وحده قاضينا ! » فاجتازت ظهره قشعريرة باردة بغيضة . لكن هذا الشعور كان مؤقتاً اذ لم يلبث الكونت روستوبتشين ان ابتسم لنفسه ابتسامة محتقرة . فكر : « كانت لدي واجبات اخرى . كان يجب ان اهدىء الجمهور . ان ضحايا كثيرة اخرى قضت

وتقضي للصالح العام . » وحينئـذ راح يفكر في الالتزامات المتطلبة منه حيال اسرته وحيال المدينة (المعهود أمرها اليه) وحيال نفسه ، ليس حيال شخص فيدور فاسيلييفيتش روستوبتشين (وكان يرى ان هذا يضحي بنفسه من أجل الصالح العام) ولكن حيال الحاكم ، متسلم السلطة وممثل الامبراطور . « لو انني لم اكن الا فيدورفاسيلييفيتش ، لأرتسم خط سلوكي على نحو آخر . لكنني كنت مضطراً على ان أصون حياة الحاكم وكرامته . »

راح يتأرجح بليونه فوق نوابض عربته المرنة بعيداً عن الزمجرات الجماهيرية الكريهة ، ويتذوق طعم الراحة الجسدية . ولقـد أتت الراحة الجسدية كالعادة بالهدوء الفكري . لم تكن الفكرة التي هدأته جديدة . فمنذ ان وجد العالم وراح الرجال يقتتلون ، لم تقع جريمة ما دون ان يجد فاعلها لنفسه مبرراً في قوله لنفسه انها ارتكبت للصالح العام أو لسعادة الآخرين المزعومة .

ان سعادة الغير هذه ، تظل أبـداً مجهولة من الرجل الذي لايعميه هواه . لكن الرجل الذي يندفع حتى يبلغ الجريمة ، يعرف دائماً وبكل تأكيد ، ممّ تتألف . وكان روستوبتشين الآن يعرف هذه السعادة .

لم يكن ضميره ولا يأخذ عليه ذلك الفعل الذى اتى به فحسب ، بل انه كان كذلك يجد المبررات ليكون راضياً عما فعل لأنه استخدم هذه المناسبة لمعاقبة مجرم وتهدئة الجمهور بآن واحد .

فكر روستوبتشين : « لقـد حوكم فيريشتشاجين وحكم عليه بالموت — في حين ان مجلس الشيوخ لم يحكم عليه الابالاشغال الشاقة — لقد كان ماكراً وخائناً فما كنت استطيع ان أتركه دون عقاب ، وبـذلك اصطدت عصفورين بحجر واحد . لقد اعطيت ضحية للشعب لأهدئه وعاقبت سافلاً .

ولما بلغ منزله الريفي ، أصدرالكونت الذى هدأت اعصابه نهائياً ، أوامره بالاقامة هناك .

وبعد نصف ساعة ، كان يجتاز سهل سوكولينكي جرياً بقوة الجياد البطرة دون ان يعود الى التفكير فيما جرى منذ حين ، مقتصراً بتفكيره على المستقبل قاصداً جسر إياووزا الآن ، حيث قيل له انه سيجد كوتوزوف .

كان الكونت روستوبتشين يعدخ في باله التعنيف القاسي الغاضب الذي سيوجهه الى كوتوزوف جزاء مكره . سوف يجعل هـذا الثعلب العجوز الملاق يشعر بأن مسؤولية كل المصائب الناجمة عن ترك موسكو ، المصائب التي سينجم عنها ضياع روسيـا (حسب تنبؤات الكونت) ، تقع على رأسه العجوز ضعيف الذكاء بكليتها . وراح روستوبتشين وهو يفكر فيما سيقوله ، لايستقر في عربته من الغضب ويلقي حوله نظرات حانقة .

كان سهل سوكولنيكي قاحلاً وعند أقصاه قام المستشفى ومأوى العجزة . فكانت ترى جماعات بثياب بيضاء وبعض الأشخـاص المنعزلين الذين يبدون كأنهم يهيمون على وجوههم وهم يلوحون بأذرعهم ويزمجرون .

كان أحد أولئك الأشخاص قادماً لأستقبال العربـــة فراح الكونت روستوبتشين نفسه وسائق عربته وحراسه من الفرسان ، راحوا جميعهم ينظرون بتطلع ممزوج بالذعر الى أولئك المجانين الذين حرروا منذ حين وبصورة خاصة الى ذلك الذي يقترب منهم .

راح المجنون يترنح على ساقيـه الطويلتين الهزيلتين في ثوب منزلي فضفاض وعيناه شاخصتان الى روستوبتشين وأخـذ يصرخ له بقول بصوت صدىء وهو يشير اليه بالوقوف . وكانت لحيته غير الكاملة تشكل خصلات غير منتظمة حول وجهه النحيل الأصفر ووجهه الكالح المكتئب خطير وصـارم وحدقتاه بلون الزجاج الأسود تتراقصان في أعمـاق عينيه الكئيبتين زعفرانيتي اللون . أخذ يصرخ بصوت مدوٍ :

– قف ! قف آمرك ان تقف !

ثم عاد يهدد لاهث الأنفاس ويشيح بيديه بحركات واسعة .

وعندما أضحى بحذاء العربـــة راح يجري بجانبها . صاح وصوته يعلو أكثر فأكثر :

– ثلاث مرات ، لقـد قتلوني ثلاث مرات ونشرت من بين الموتى ! .. لقد مزقوني وصلبوني .. وسوف أبعث .. سأنشر . لقد مزقوني إرباً . سوف ينهار ملكوت الله . سوف أهدمه ثلاث مرات ثم سأقيمه ثلاث مرات !

وفجأة امتقع وجه الكونت روستوبتشين كما حـدث في اللحظة التي القت الجماهير بنفسها على فيريشتشاجين فأشاح بوجهه وصرخ بالحوذي بصوت مرتعد :

– بسرعة .. بسرعة أكثر !

فانطلقت العربة بأقصى سرعـة ، لكن الكونت روستوبتشين ظل فترة طويلة يسمع صيحة المجنون اليائسة الآخذة بالخفوت تدريجيـاً في البعد في حين راحت تظهر أمام عينيه تقاطيع وجه الخائن في معطفه الفراء ، ذلك الوجه المذهول المأخوذ الدامي .

كانت هذه الذكرى لاتزال قريبـة . لكن روستوبتشين شعر بها الآن مغروسة في أعماق نفسه . كان يشعر ان أثرها الدامي لن يمحي وانه على العكس كلما تقدمت به السنوات كلما عاشت هذه الذكرى في قلبـه قاسية معذبة . كان يسمع ويظن انه يسمع صدى كلماته الشخصية : « فرقوه بسيوفكم ، انتم مسؤولون عنه بحيواتكم . » وفكر : « لماذا قلت هذه الكلمات ؟ لقـد نطقت بكل هذا دون ان افكر فيه تقريباً . كنت أستطيع ان لا أقوله وما كان شيء ليحدث . » عاد يرى الوجه المروع الذي غدا فجأة غاضباً ، وجـه الجندي الذي كان أول من ضرب والنظرة الصامتة المفعمة باللوم التي ألقاها عليـه ذلك الغلام في ردائه

المصنوع من فراء الثعلب . فراح يكرر لنفسه : « لكني لم أفعل هذا من أجل نفسي . لقد كنت مرغماً عليه . الرعاع ، الخائن .. الصالح العام . »

وكان الجيش يتزاحم على جسر إياووزا والحرارة شديدة . وكان كوتوزوف جالساً حزيناً على مقعد قرب الجسر مقطب الحاجبين ينكد الرمال بطرف سوطه عندما اقتربت منه عربة في جلبة صاخبة وتقدم اليه رجل في بزة جنرال يضع على رأسه قبعة ذات ريش ، له نظرة تائهة تجمع بين الانفعال والخوف وراح يحدثه باللغة الفرنسية . ذلك كان الكونت روستو بتشين . قال لكوتوزوف إنه جاء يلحق به لأن موسكو والعاصمة لم يعد لهما وجود ولأنه لم يبق إلا الجيش . وأكد :

- وكان يمكن ان يكون الأمر خلاف ذلك لو ان سموكم لم تؤكدوا لي ان موسكو لن تسلم على الأقل دون قتال . ان كل هذا ما كان ليحدث !

تأمل كوتوزوف روستو بتشين وكأنه لم يفقه معنى كلماته وبدا كمن يحاول بكل قواه ليقرأ شيئاً ما خاصاً كان ينم عنه وجه الرجل الذي يحدثه في تلك اللحظة . وانتهى الأمر بروستوبتشين المضطرب الى الصمت . هز كوتوزوف رأسه ببطء وقال بلهجة هادئة دون ان يحول عنه نظرته الفاحصة :

-- لكنني لاأزمع تسليم موسكو دون قتال .

فهل كان كوتوزوف يفكر في شيء آخر وهو ينطق بتلك الكلمات أم تراه نطق بها لغاية في نفسه وهو عارف انها خالية من المعنى ؟ مهما كان الأمر فان روستوبتشين ابتعد دون ان يجيب ثم - وهو امر عجيب - راح حاكم موسكو العام ، روستوبتشين المتجبر وفي يده سوط يقترب من الجسر ليفرق العربات التي ازدحم بها بصيحات عالية .

الفصل السادس والعشرون

احتلال موسكو

حوالي الساعة الرابعة ، بدأت قوات مورا تـدخل موسكو وعلى رأسها كتيبة من الفرسان الورتمبرجيين ، جاء بعدهم مباشرة ، ملك نابولي شخصياً تحيط به حاشية عديدة .

ولما وصلوا عند وسط « الأربات » قرب سان نيكولا ريفيليه ، أمر مورا بالتوقف بانتظار تقرير الطليعة عن حالة قلعة الكريملن .

اجتمع حول مورا نير قليل من السكان الذين لم يغادروا موسكو،راحوا يتأملون بذهول مشوب بالفزع ، هذا الرئيس الغريب بشعره الطويل وريش قلنسوته وزينته ، ويقولون فيما بينهم :

ـ قل ياهذا ، هل هذا هو قيصرهم ، هم ؟ حسنا ..

اقترب مترجم من الجماعه فغمغم الناس فيما بينهم :

ـ ارفع قلنسوتك .. قلنسوتك .. القلانس ..

خاطب المترجم بواباً كهلًا فسأله عما اذا كان الطريق الى الكريملن مازال طويلًا . فأصغى البواب . لكنه تاه في اللكنة البولونية فلم يتعرف على اللغة الروسية لذلك لم يفهم شيئاً مما كان المترجم يسأله،فذهب يختبىء وراء الآخرين .

اقترب مورا من المترجم وامره ان يسأل أين هو الجيش الروسي . ولقد فهم أحد الحاضرين ماذا يسألون فأجابت أصوات عديدة فجاة معاً . وعاد ضابط

فرنسي من الطليعة فأعلن لمورا ان باب الحصن محدود بسور وانه لابد من وجود كمين وراءه . فقال مورا « حسنا : » والتفت الى أحد ضباط حاشيته وامره بأن تستعمل أربعة مدافع خفيفة في ضرب الأبواب .

خرجت « بطارية » من القطعات التي كانت تتبع مورا ومضت على طول « الآربات » . فلما بلغت أسفل فوزدفيجنكا ، وقفت وتمركزت هناك وراح بعض الضباط الفرنسيين يعدون المدافع في المواقع المناسبة ويفحصون الكرملن بمناظيرهم المقربة .

كانت الأجراس في الكرملن تقرع مؤذنة بصلاة الغروب فاضطرب الفرنسيون لقرعها وظنوا انها نداء لحمل السلاح . وجرى بعض جنود المشاة نحو باب كوتافييف الذي كانت تحصنه من الداخل اعمدة من الخشب والواح من البلوط السميك . ودوى طلقان ناريان حينما كان الضابط يقترب جرياً مع كتيبته . فأصدر الجنرال الواقف قرب المدافع أمراً الى ذلك الضابط ، فوقف وتراجع مع جنوده الى الوراء مندفعاً .

وانطلقت ثلاث طلقات اخرى من الباب .

اصيب جندي فرنسي في ساقه وارتفعت صيحات غريبة من وراء المتراس . وفجأة ، وكأن المسألة جاءت نتيجة لأمر صادر ، فقد وجه الجنرال والضباط والجنود تعبير البهجة المتوترة واكتست بطابع العناد والتركز الذي يلوح على وجوه اولئك الذين يستعدون للنضال والألم . ومن الماريشال وحتى آخر جندي فهموا جميعاً ان هذه الساحة ليست ساحة فوزدفيجنكا ولا موخوفايا ولا أبواب كوتافييف او الترينيتيه ، بل انها ساحة حرب جديدة ، ساحة تنذر بوقوع معركة دامية كما تدل الظواهر ، فاستعدوا جميعهم لها . توقفت الصيحات وراء المتراس وسددت المدافع وراح المدفعيون ينفخون على الفتيل . وأمر الضابط : «نار !»

وصفرت قذيفتان انطلقتا الواحدة تلو الاخرى وتساقطت قطع الحديد كالبرد على الباب المسدود والاعمدة والالواح في حين راحت سحابتاهما من الدخان تتصاعدان فوق الساحة .

وبعد دقائق من هدوء الهدير الذي خلفته الطلقتان على طول جدران الكريملن ، ارتفعت ضجة غريبة فوق رؤوس الفرنسيين . ذلك ان سرباً هائلاً من غربان الزرع نفر من الساحة المسورة وهي تنعب فارتفع صوت الوف الأجنحة وهي تصطفق وتدور حتى غطت السماء تماماً وبنفس الوقت، ارتفع صوت بشري منفرد من وراء الباب وبدا خلال الدخان شبح رجل عاري الرأس يرتدي رداء فضفاضاً وبيده بندقية كان يسددها الى الفرنسيين . ردد ضابط المدفعية : «نار !» فانطلقت قذيفتان من المدفعين مع طلقة البندقية معاً وعاد الدخان يحجب الباب من جديد .

لم يعد شيء يتحرك وراء المتراس ، فاقترب الضباط الفرنسيون يتبعهم مشاتهم . كان هناك ثلاثة جرحى وأربعة قتلى . وفر رجلان يرتديان ردائين فضفاضين وهما يستتران بالجدران نحو زنامنكا .

قال الضابط وهو يشير الى الألواح والجثث :

ـ ارفعوا هذا .

فدفع الفرنسيون الجثث بعد ان اجهزوا على الجرحى ، من فوق الحاجز . من كان اولئك الاشخاص ؟ هذا ما لم يعرف أبداً . ان كل ما قيل عنهم هو : « ارفعوا هذا » ولقد القوا بهم ثم جمعوا رفاتهم بسبب العفن . لكن «تيير» وحده كرس لهم هذه الأسطر الفخمة : «كان اولئك الحقيرون قد داهموا القلعة المقدسة واستولوا على بنادق من مخزن السلاح وراحوا يطلقون النار (اولئك الحقيرون !) على الفرنسيين . فضربوا بعضهم بالسيوف وطهروا الكريملن من وجودهم . »

أخبروا مورا ان الممر أصبح حراً ، فاجتاز الفرنسيون الباب وأقاموا معسكرهم في ساحة مجلس الشيوخ . والقى الجنود مقاعداً من نوافذ ذلك البناء ليقدموها طعمة للنيران .

اجتازت ألوية اخرى الكريملن ومضت تعسكر في موروسيئيكا ولوبيانكا وبوكروفكا . واقــام بعضها أيضاً في فوزدفيجنكا وزنامنكا ونيكولسكايا وتفيرسكايا . وفي كل مكان ، اذا لم يجدوا أحداً في المساكن ، أقام الفرنسيون فيها ليس على حسب ما يجري في بلد يقدم لهم السكن بل كما يقيمون في معسكر عام في صميم المدينة .

وعلى الرغم من ان عددهم تضاءل الى النصف وانهم باتوا في ثياب خلقة يتضورون من الجوع ويضنيهم التعب ، فان الفرنسيين ـ رغم ذلك ـ دخلوا موسكو بنظام . كانوا لا يزالون يكونون جيشاً مقاتلاً يحسب له حساب رغم حالة الانهاك الشديد والضعف التي كانوا عليها . مع ذلك ، فان هذا الجيش لم يبق على هذا النحو الا حتى الدقيقة التي تفرق فيها جنوده على المنازل . اذ ما ان دخل الرجال ونعموا في المنازل الغنية الخالية ، حتى اختفى الجيش الى الأبد ولم يبق الا اولئك السكان بين المدنيين والعسكريين الذين يطلق عليهم اسم : سلابون . وعندما خرج هؤلاء الرجال أنفسهم من موسكو بعد خمسة أسابيع ، ماعادوا يشكلون جيشاً كانوا جماعة من النهابين حمل كل منهم في عربة او على ظهره طائفة من الأشياء اعتبر انها ثمينة لاغنى له عنها . لم يعد هدف هؤلاء الرجال ، كما كان من قبل ، ان يقاتلوا ، بل ان يحتفظوا بغنائمهم . وقد كان حال الفرنسيين عنـد خروجهم من موسكو ، كحال القرد الذي مد يده في قدر ذات عنق وفوهة ضيقين فأطبقت أصابعه على عدد ثمار الجوز لكنه لم يشأ ان يفتح اصابعه كيلا يفلت شيئاً مما أمسك به . كانوا يمشون الى نهايتهم المحتومة لأنهم جروا معهم حصالة سلبهم

وما كانوا يقدرون على التخلي عنها كما فعل القرد بثمار الجوز . لم يعد ، بعد عشر دقائق من دخول فيلق من الجند الى حي من أحياء المدينة ، ضباط ولاجنود. كان يُرى من نوافذ المنازل ، في معاطف ورانات ، يروحون ويجيئون عبر الغرف ، وآخرون ، في مثل حال اولئك ، يستولون على المؤن المودعة في الأقبية والعنابر وغيرهم في الأفنية يغتصبون أبواب الأورقة والاسطبلات أو في المطابخ يوقدون النار ويعجنون الدقيق وأكمامهم مشمرة او يطهون طعامهم وهم يلتصقون بالنساء أو يداعبون الاطفال . مع ذلك ، فان عددهم لم ينقص في الحوانيت والمنازل ، لكنهم ما عادوا يشكلون جيشاً .

خلال ذلك اليوم ، توالت الاوامر من أركان حرب الجيش الفرنسي : أمراً اثر أمر ، ترمي جميعها الى منع الجنود من السلب والانتشار في المدينة واستعمال العنف ضد السكان ، وفرضت الأوامر نفسها مساء عند النداء العام ، لكن رغم كل ذلك ، انتشر الرجال الذين كانوا حتى الأمس يشكلون الجيش ، في كل مكان في تلك المدينة القاحلة ، يضفون على أنفسهم وسائل الترف ويغرقون على أنفسهم المؤن والثروات . وكما هو حال القطيع الجائع الذي يبقى مجتمعاً في مرعى اسلخ وينتشر فور وقوعه على مرج نضير ، انتشر الجيش في المدينة الضخمة دون ان يقدروا على ايقافه .

كانت موسكو خالية ، والجنود يتخللون في كل مكان أشبه بالماء فوق الرمل ويحومون جماعات حول الكرملن حيث استطاعوا الدخول باديء الأمر . وكان الفرسان اذا ما دخلوا بيوتاً بورجوازية غنية هجرها أهلها وفيها كل مفروشاتها وأثاثها ، يجدون فيها اسطبلات لجيادهم اكثر اتساعاً مما يتطلبون لكنهم مع ذلك ما كانوا يتورعون عن احتلال منزل مجاور بدا لهم اكثر امتلاء وكان كثيرون يحتلون عدة مساكن معاً ويؤشرون عليها بكتابة اسمائهم بالحك

بل ويشتبكون بالأيدي مع آخرين من وحدات اخرى . وآخرون ، لا يكاد يستقر بهم المقام ، حتى يندفعون خلال المدينة لزيارتها فما ان يجدوا ان كل شيء مهجور حتى يندفعوا الى الأماكن التي يستطيعون الفوز منها بأغنى الاسلاب . وكان الضباط يحاولون ايقاف الجنود عند حدهم ،لكنهم لا يلبثون حتى ينجرفوا هم أنفسهم في غمار حركة السلب العامة . ولم ينج سوق العربات نفسه ، اذ راح الجنرالات يجتمعون في الأورقة المملوءة بالعربات الجاهزة لينتقوا لأنفسهم عربة خفيفة أو مغلقة . وكان المتخلفون من السكان يدعون الضباط للسكنى عندهم آملين ان ينجو من السلب العام ، والثروات من الغزارة لدرجة لا يدرك مداها حتى ان أمكنة كثيرة حوال المواقع التي كان الفرنسيون يحتلونها ، ظلت سالمة لم تمسها الايدي ، فكان هؤلاء يطمعون في العثور فيها على ثروات خرافية تفوق ما عثر عليه حتى الآن ، وموسكو تستوعبهم أكثر فأكثر . وكما تختفي الماء التي تصب على أرض جافة وتخفي معها جفاف الأرض ، كان ذلك الجيش الجائع ، ما ان يوغل في أعماق تلك المدينة الموسرة ولكن الخالية ، حتى يختفي ويخفي معه يسارة المدينة فلم يبق الا الوحل والحريق والنهب .

يعزو الفرنسيون حريق موسكو الى وطنيـــة روستوبتشين الضارية والروسيون يعزونها الى وحشية الفرنسيين . والواقع انه لا يمكن ولا يجب تسجيل هذا الحريق على حساب شخص واحد أو بعض الاشخاص ، لقد احترقت موسكو لانها وجدت في مثل الشروط التي يجب على كل مدينة مبنيـــة من الخشب ان تحترق معها ، بصرف النظر عن وجود مائة وثلاثين مضخة رديئة او عدم وجودها ، كان على موسكو ان تحترق لان سكانها رحلوا ، بمثل البديهة التي تحترق بها رزمة من النشارة راحت تتساقط عليها طيلة ايام كاملة شرارات متوالية ، فمدينه من الخشب يقع فيها كل يوم حريق رغم احتياطات السكان

ورجال الشرطة ، لايمكن ان تنجو من الحريق بعد ان يهجرها سكانها ويقطن فيها جيش ويدخن جنوده الغليون ويوقدون النيران على ساحة مجلس الشيوخ ويغذونها بكراسي المجلس ويعدون طعامهم مرتين كل يوم . ففي وقت السلم، يكفي ان يتخذ الجنود معسكراً لهم في قرى معينة حتى يزداد عدد الحرائق فيها . فكم يجب والحالةهذه ان تتضاعف امكانيات الحرائق في مدينة من الخشب خالية من السكان ، يعسكر فيها جيش غريب ؟ فوطنية روستوبتشين الضارية ووحشية الفرنسيين لاعلاقة لهما بالأمر مطلقاً . لقد احترقت موسكو بسبب الغلايين والمطابخ ونيران المعسكرات وبسبب لامبالاة الجنود ، سادة منازل لاتخصهم . واذا كان هناك حقاً من اشعل النار (وهو امر مشكوك به لأنه لم يكن لأحد دافع يلجئه الى اضرام النار لان الخطر كان متماثلاً في جسامته بالنسبة الى الجميع على الأقل) فانه لايجب اعتبار هؤلاء الاشخاص المسببين لأن النتيجة بدونهم ما كانت لتختلف عما وقع في شيء .

ومهما كان اتهام ضراوة روستوبتشين ملاقاً حينذاك بالنسبة الى الفرنسيين وكذلك عداء بونابارت بالنسبة الى الروسيين ، ووضع مشعل بطولي في يد الغوغاء فيما بعد ، فانه يستحيل ان لايرى ان مثل هذه الاسباب لايمكن ان تغفل لان موسكو كان يجب ان تحترق كمايجب انتحترق أية قرية أو أي مصنع أو بيت يكون صاحبه غائباً ، فيقطنه غرباء ويطهون طعامهم فيه ، لقد احرقت موسكو من قبل سكانها ، وهذا صحيح ، ولكن من قبل الذين خرجوا منها لاالذين لبثوا فيها . فاذا لم تبق موسكو سليمة بعد احتلالها من قبل العدو مثل برلين وفيينا ومدن اخرى ، فما ذلك الا لأن سكانها هجروهـــا بدلاً من ان يقدموا المفاتيح للفرنسيين على اطباق الى جانب الخبز والملح .

الفَصلُ السَّابعُ وَالعشرُونَ

نفسية بيير

امتدت موجة الفرنسيين على شكل نجمة من الوسط نحو أحياء موسكو الخارجية التي استمرت تستوعبهم طيلة اليوم الثاني من ايلول حتى بلغت حوالي المساء الحي الذي يقطن فيه بيير .

وكان بيير بعد يومين من الانزواء في شروط خارقة ، في حالة اقرب الى الجنون تشغل كيانه فكرة وحيدة ملحاحة ما كان يعرف من أين ولا كيف غزت رأسه ، وكانت تلك الفكرة قد استحوذت عليه لدرجة لم يعد معها يذكر شيئاً من الماضي ولا يدرك شيئاً من الحاضر ، فكان كل مايراه وما يسمعه يدور أمامه وكأنه في حلم .

لقد غادر مسكنه لسبب وحيد وهو الافلات من التعقيدات التي وجد نفسه فيها والتي بات الآن وهو على تلك الحالة الفكرية يشعر أنه عاجز عن حلها. لقد ذهب الى مسكن جوزيف الكسيبيفيتش بحجة تصفح أوراق المتوفى وكتبه بينما كانت الحقيقة فراراً من حياة حافلة بالهزّات لان ذكرى هذا الرجل كانت مرتبطة في نفسه بعالم حافل بالافكار الخالدة الجليلة المسالمة المناقضة كل التناقض لذلك الاندفاع الجنوني الذي شعر بانه يجرف فيه . كان يبحث عن مأوى بعيداً عن كل صخب فوجد ذلك المأوى بالفعل في مكتب جوزيف ألكسيبيفيتش وعندما جلس واتكأ على مكتب المتوفى المغبر في صمت الموت الذي يخيم على

تلك الحجرة ، أفاقت في ذاكرته ذكريات أيامه الاخيرة الواحدة تلو الاخرى بسكون مشبعة بالمعاني ، وبصورة خاصة ذكريات معركة بوروديتو ، حيث شعر بتفاهته وبطلان حياته ازاء حياة اولئك الاشخاص الغائصين في الحقيقة والبساطة ، الذين يسمون « هم » في مخيلته ، وعندما جاء جيراسيم ينتشله من احلامه ، راودته فكرة الاشتراك في الدفاع عن موسكو ، وهي فكرة كان يعرف ان السكان يصبون اليها ، ولقد طلب الى جيراسيم والمعطف المسدس لهذه الغاية ، وأنهى اليه رغبته في التكتم حول اسمه وفي البقاء في منزل جوزيف الكسييفيتش . عاد من جديد خلال يوم عطالته الاول ـ ولقد حاول بيير عبثاً مرات عديدة أن يركز إنتباهه على المخطوطات الماسونية ـ يتذكر بغموض المعنى السحري لاسمه بالارتباط مع اسم بونابارت لكن تلك الفكرة ، فكرة أنه هو « أروسي بيزوخوف » منذور سلفاً ليضع حداً لحكم الوحش ، لم تكن حتى تلك اللحظة بالنسبة اليه اكثر من حلم من أحلامه الغامضة يخترق تفكيره عرضاً دون أن يخلف فيه أثراً .

وعندما اشترى معطفه بغية المساهمة مع السكان في الدفاع عن موسكو فحسب ، قابل بيير آل روستوف وناتاشا التي قالت له : « هل تبقى ؟ آه ! كم هو حسن هذا ! » وعندئذ واتته فكرة البقاء كوميض البرق لينجز مهمته المعدة له منذ الازل .

وفي اليوم التالي مضى الى مدخل الجبال الثلاثة تسيطر عليه فكرة وحيدة أن لايوفر نفسه وأن يكون جديراً بـ : « هم » . لكنه عندما عاد الى البيت مقتنعاً بأن موسكو لن يدافع عنها ،شعر فجأة بأن كل مابدا له حتى تلك اللحظة ممكناً أصبح بما لايقبل الشك ضرورياً ومحتوماً وأن واجبه يقضي باخفاء اسمه وبالبقاء في موسكو والبحث عن نابوليون وقتله ثم أن يموت هو نفسه أو أن

يضع حداً لآلام اوربا ، تلك الآلام التي لم يكن لها في مخيلة بيير غـير فاعل واحد وهو نابوليون الأوحد .

وكان بيير يعرف كل تفاصيل المحاولة التي وقعت في فيينا عام ١٨٠٩ ضد حياة بونابارت من قبل طالب ألماني ويعرف أن ذلك الطالب أعدم رمياً بالرصاص فكان الخطر الذي يواجهه للقيام بمهمته يزيد في تحمسه زيادة كبيرة .

وكانت عاطفتان متساويتان في القوة تدفعان بيير الى ذلك العزم . الأولى حاجته الى التضحية بنفسه والتألم ، تلك الحاجة التي أيقظتها المصيبة العامه المشتركة وهي العاطفة التي دفعته يوم الخامس والعشرين الى موجائيسك وألقت بـه في صميم المعركة وجعلته الآن ينفر من بيته الخاص ومن ترفه ورفاهيته لينام بكامل ثيابه على أريكة دون نوابض وليأكل الاصناف نفسهـــا التي يأكلها جيراسيم والعاطفة الثانية هي ذلك الاحساس غير المنطقي الخاص بالروسيين ، الاحساس بالاشمئزاز من كل ماهو اصطلاحي اصطناعي بشري من كل مايعتبره السواد الأعظم من الناس الخير الاعم . لقد شعر بيـير في قصر سلوبودسكي بالنشوة الغريبة عندما أحس فجأة للمرة الاولى بأن الثراء والسلطان والحياة وكل ما يجهد الناس بشدة لكسبه والمحافظة عليه ، لاتصبح ذات شأن الا بالبهجة التي تغمر قلب الانسان عند استطاعته هجرها .

هذا هو الشعور الذي يحس به المتطوع الفدائي عندما يشمل بآخر « كوبيك[١] » في جيبه ، والرجل الثمل الذي يحطم المرايا والزجاج دون أي سبب وهو عارف أن تصرفه ذاك سيكلفه كل مافي جيبه . انه هذا الشعور الذي يدفع الانسان نحو تصرفاته مخالفة للصواب (بصورة عامه) وكأنه يريد اختبار قوته وسلطته وأن يبرهن بهذه الوسيلة على وجود محكمة عليا تتحكم بالحياة فوق سنن البشر .

---

(١) كوبيك عملة روسية كل مائة منها تساوي روبلًا ..

منذ ذلك اليوم الذي شعر فيه بيير بهذا للمرة الأولى في سلوبودسكي لم يكف مرة عن احتمال أثره حتى بات في تلك اللحظة راضياً عنـه كل الرضى. ومن جهة اخرى كان بيير في تلك اللحظة معتمداً في قراره على استحالال التراجع بعد ماجتازه حتى الآن في هذا السبيل. فكان فراره من بيته ومعطفه ومسدسه وتصريحه لآل روستوف بأنه باقٍ في موسكو، كل هذا، سيصبح عديم المعنى بل ومبعث سخرية واحتقار - وكان بيير يشعر بذلك شعوراً قوياً - إذا تصرف بعدئذ تصرف كل الناس وغادر موسكو.

وكانت حالة بيير الجسدية تتلاءم مع حالته الفكرية كالعادة دائماً. فالطعام المغلظ الذي تناوله خلال أيامه الاخيرة والذي لم يألفه من قبل والعرق الذي شربه وحرمانه من الخمر والسيجار واستحالة ابدال ثيابه الداخلية وليلتان دون نوم تقريباً أمضاهما على أريكة قصيرة بالنسبة الى جسمه دون متطلبات السرير المريح كل هذه الأمور جعلت بيير في حالة إنفعال عصبي قريبة من الجنون.

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر وكان الفرنسيون قـد فرغوا من دخولهم الى موسكو وبيير يعرف ذلك لكنه بدلاً من أن ينشط الى العمل، لم يكن يفكر الا في مشروعه الذي اخذ يستعيد في ذاكرته أدق تفاصيله. ما كان مكوناً لنفسه أية فكرة واضحة عن الطريقة التي سيتصرف بها لينفذ فكرته ولا أية فكرة عن موت نابوليون ولكن كان موته هو وجرأته البطولية هما مـــا يتمثله بجلاء خارق والتذاذ سويداوي.

راح يفكر: «نعم، واحد في سبيل الكل، يجب أن أنجح أو أموت! نعم سوف أقترب.. ثم فجأة.. ترى المسدس أم الخنجر؟.. سيان على كل حال. لست أنا الذي أعاقبك بل هي يد القدرة.. - كان بيير يفكر في الكلمات التي سيقولها وهو يضرب نابوليون - حسناً، ماذا، خذوني، أحكموا علي.»

بذلك أخذ يفكر معقباً على آرائه وعلى وجهه مزيج من الحزم والحزن وهو مطرق الرأس .

وفي اللحظة التي كان بيير فيها واقفاً في مكتب عمل جوزيف ألكسييفيتش يناقش نفسه بتلك الصورة ، فتح الباب وبدا على العتبة ماكار الكسييفيتش وقد تخلص تماماً من مظهره المذعور الذي بدا عليه من قبل .

كان ثوبه المنزلي مفتوحاً ووجهه مصفراً متضرجاً وهو بادي الثمل . فلما رأي بيير ارتبك لحظة ولكن لم يلبث أن تشجع من فوره لما رأى بيير نفسه مرتبكاً فتقدم الى وسط الحجرة وهو يترنح على ساقيه النحيلتين .

قال بصوت أبح ولكن ثابت :

– لقد استبد بهم الخوف . إنني أقول : لن أستسلم ، أقول ذلك أنا . . أليس كذلك ياسيدي ؟

واتخذ سمة المفكر لكنه فجأة ، عندما رأى المسدس على المكتب ، أطبق عليه بحركة سريعة وفرّ الى الممشى .

أوقفه جيراسيم والبواب اللذين لحقا به عند المدخل واجتهدا في نزع المسدس منه وهرع بيير الى الممشى وراح ينظر الى الكهل نصف المجنون في عطف مشوب بالأشمئزاز . وكان ماكار الكسيئيييفيتش يعجو وجهه بتأثير المجهود ويشدد قبضته على المسدس ويصرخ بصوته الأبح وقد خيل اليه حقاً أنه في لحظة جليلة . زمجر :

– الى السلاح ! الى الهجوم ! كلا لن تناله !

بينما راح جيراسيم يردد وهو يحاول أن يدفعه برفقه ليجعله يجتاز الباب .

– كفى ، أرجوك كفى . أرجو أن تترك هذا ! هيا ياسيدي ...

وعاد ماكار الكسيئييفتش يزمجر :

ـ من تكون ؟ بونابارت !...

ـ هذا ليس بمستحسن ياسيدي . أدخل الى غرفتك أرجوك . اذهب واسترح تفضل باعطائي هذا المسدس .

قال ماكار وهو يشهر المسدس ويزمجر بصوت أشد ارتفاعاً :

ـ إلى الوراء أيها العبد الحقير ! لاتلمسني ! هه ، أرأيت ؟ الى الهجوم !

فهمس جيراسيم في اذن البواب :

ـ إحمله .

ولقد جُرّ ماكار الكسيئيبيفيتش محمولاً نحو الباب .

لم يلبث الممشى ان امتلأ بصرخات السكير المنهوك الأجشه .

وارتفعت صيحة مدوية على المرقاة خرجت من حنجرة إمرأة وهرعت الطاهية بدورها الى الممشى وهي تهتف :

ـ هاهم اؤلاء ! أوه ! ياربي ، أقسم لكم أنهم هم ! إنهم أربعة على جياد !

وأفلت جيراسيم والبواب ماكار الكسيبيفيتش وفي الممشى الذي ران الصمت عليه من جديد ارتفعت طرقات جلية أحدثتها قبضات الأيدي على باب المدخل .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

حياة الضابط

كان بيير قد قرر اخفاء هويته ومعرفته باللغة الفرنسية حتى بعد فراغه من انجاز مهمته . وكان واقفاً قرب باب الممشى الموارب متحفزاً للاختفاء فور دخول الفرنسيين الى البيت . لكن الفرنسيين دخلوا دون ان يتحرك من مكانه لأن فضولاً لايقاوم استبد به فأقامه في مكانه .

كانا اثنين أحدهما ضابط طويل القامة جميل جليل الطلعة والآخر جندي بسيط تابع الاول ولا شك ، مربوع القامة نحيل العود ملفوح الوجه بوجنتين غائرتين ووجه بليد . دخل الضابط أولاً وكان يعرج ويتكىء على عصا . وبعد ان سار بضع خطوات ، توقف وقد وجد ان البيت يوافق مزاجه ولا ريب ، والتفت الى الجنود الواقفين أمام الباب وهتف بهم بصوت آمر ان يأتوا بالجياد وبعد ذلك ، رفع الضابط مرفقه الى الأعلى بحركة متغطرسة وبرم شاربه ثم رفع يده الى مقدمة عمرته وهو يوجه الحديث الى الجميع :

— مرحباً أيها الموجودون ؟

وراح يعاين المكان وهو يبتسم . فلم يجبه أحد .

— هل أنت البوجوازي ؟

فراح جيراسيم ينظر اليه بجزع وفي عينيه استفهام .

قال الضابط وهو يقيس بنظره من علٍ قامة الرجل القصير الواقف أمامه وعلى شفتيه ابتسامة عطوف :

– « كارتير ، كارتير » سكن !

ثم أعقب وهو يربت على كتف جيراسيم الصامت المروع :

– اواه ! ان الفرنسيين أطفال عاقلون ياللشيطان ! هيا لننبذ السخط ياعجوزي !

وأضاف وهو يجيل بصره فيما حوله ويلاقي بـه نظرة بيير الذي انفصل عن الباب :

– آه ! هذا ! قولوا ، الا يتحدث الفرنسية أحد في هذا المكان ؟

وخاطب الضابط جيراسيم وهو يعتقد انه يستطيع ان يجعل أجوبته اكثر وضوحاً اذا شوهها :

– سادة ليسوا هنا .. لا أفهم .. أنا .. لك ..

فلوح الضابط وهو لايزال يبتسم باشارة أسفل انف جيراسيم مشيراً بذلك الى انه هو الآخر لايفهم ، وتوجه وهويعرج ، نحو الباب الذي وقف عنده بيير الذي كان يود لو يبتعد قبل ان يُرى لو لم ير في تلك اللحظة ماكار الكسيييفيتش يظهر على باب المطبخ والمسدس في يده . وبمكر المجانين ، نظر ماكار الكسيييفيتش الى الضابط ورفع المسدس وصوبه وصاح وهو يضغط على الزناد :

– الى الهجوم !

استدار الضابط وبنفس اللحظة ارتمى بيير على السكران . ولكن بينما كان بيير يمسك بالمسدس وينتزعه ، استطاع ماكار الكسيييفيتش ان يضغط على الزناد أخيراً فدوت طلقة تصم الاذان وامتلأت الغرفة بالدخـان . فشحب وجـه الفرنسي واندفع نحو الباب .

نسي بيير عزمه على اخفاء معرفته باللغة الفرنسية ، فانتزع المسدس من يدي ما كار الكسيبيفيتش والقاه جانباً ثم هرع الى الضابط وسأله بالفرنسية :

– ألم تجرح ؟

فأجاب هذا وهو يلمس نفسه :

– أظن أن لا .

وأشار الى خدش في طلاء الجدار وقال :

– لكنني نجوت هذه المرة بمعجزة .

ثم سأل بصرامة وهو يتأمل بيير :

– من هذا الرجل ؟

فهتف بيير بقوة وقد نسي دوره تماماً :

– في الحقيقة انني آسف أشد الأسف لما حصل . انه مجنون ، تاعس ما كان يعرف ماهو فاعل .

اقترب الضابط من ماكارالكسيبيفيتش وأمسك به من ياقته .

فتهاوى السكران على الجدار وقد سقطت شفته ونطقت أساريره بالتبلد وراح يترنح . فقال الفرنسي وهو يفلته :

– أيها المجرم ، ستدفع لي ثمن ذلك ! اننا نحن معشر الفرنسيين رحماء بعد النصر – وأضاف بلهجة خطيرة وجليلة وهو يرفق قوله باشارة نشيطة عريضة – لكننا لانغفر للخونة .

استمر بيير يتوسل اليه بالفرنسية ان لايعاقب سكراناً أقرب الى الجنون ولقد أصغى اليه الفرنسي في صمت بادىء الأمر وهو مكفهر الوجه ثم ابتسم فجأة وتأمله بضع ثوان ، فاتخذ وجهه الجميل مسحة مؤسية وحانية معاً ومد له يده وقال :

– لقد أنقذت حياتي ! أنك فرنسي .

لقد كان الشك لايمكن ان يتطرق الى نفس هـذا الفرنسي الذي يعتقد ان الفرنسي وحده هو الذي يستطيع ان يقوم بمثل هذا العمل النبيل الذي هو انقاذ حياة السيد رامبال رئيس الكوكبة الخفيفة الثالثة عشر ، والذي هو عمل يعتبر اكثر نبلاً من كل الاعمال الاخرى .

لكن بيير ظن ان من واجبه ان يصحح خطأ الضابط مهما بلغ ذلك الرأي الذي صرح به من يقين فهتف بشدة :

– أنني روسي .

فرد الضابط وهو يبتسم ويشير له اشارة ساخرة :

– تا ، تا ، تا ! قلها لغيري ! سوف تروي علي الأمر بعد حين . انني سعيد بلقاء مواطن .

وأضاف وهو يخاطب بيير وكأنه يتحدث الى أخيه :

– حسناً ، ماذا سنعمل بهذا الرجل ؟

ولم يكن بيير مستطيعاً حتى ولو لم يكن فرنسياً ان يرفض هذا اللقب الذي هو أرفع لقب في العالم ، وهو مـاراح الضابط يعبر عنه بكل وضوح بلهجته وبتعبير وجهه . ففسر بيير مرة اخرى حالة ماكارالكسيييفيتش وكيف استولى السكران ، ذلك المجنون ، في اللحظة التي دخل فيها الضابط ، على مسدس محشو لم يستطيعوا انتزاعه من يديه ثم رجا الضابط مرة اخرى ان لايعاقبه .

فانتصب الضابط وأشار بيده بحركة ملكية حقاً وقال بلهجة سريعة حازمة :

– لقد أنقذت حياتي ! أنت فرنسي . تسألني العفو عنه ؟ أمنحك ماتطلب . ليأخذوا هذا الرجل !

ثم أمسك بذراع ذلك الذي رفعه الى مرتبة الفرنسي لأنـه أنقذ حياته ، ودخل معه الى داخل المسكن .

ولقد اندفع الجنود الذين كانوا في الفنـاء الى الدهليز على دوي الانفجار وراحوا يستفسرون عما وقع ويعربون عن استعـدادهم لمعاقبة المذنب . لكن الضابط استوقفهم بصرامة وقال له :

– سوف تستدعون عندما تدعو الحاجة اليكم .

فخرج الجنود . وجاء التابع الذي تسنى له خلال ذلـك ان يعاين المطبخ يقول للضابط :

– أيها الرئيس ، ان لديهم حساء وضلع خروف في المطبخ . فهل آتيك به ؟

فاجاب الضابط :

– نعم ، والخمر .



الفَصلُ التّاسِعُ والعشرونَ

الرئيس رامبال

عندما دخل الضابط مع بيير الى داخل البيت ، ظن بيير ان من واجبه ان يؤكد له مرة اخرى بأنه ليس فرنسياً . وكان يريد ان ينسحب . لكن الضابط لم يصغ اليه . أظهر تهذيباً جماً وتودداً فائقاً وبشاشة ورغبة عميقة في ابداء عرفانه حيال منقذه حتى ان بيير لم يجد الشجاعة ليرفض له طلب مجالسته في البهو الذي كان أول غرفة دخلا اليها . ولقدادهش استمرار بيير على القول بأنه ليس فرنسياً الضابط أيما دهشة وهو الذي لم يفهم كيف يرفض مثل هذا الشرف ، فهز كتفيه وقال لبيير انه اذا كان يصر على اعتبار نفسه روسياً فانه لن يعارض رغبته وسيحتفظ برغم ذلك بعرفان أبدي للرجل الذي أنقذ حياته .

ولو ان ذلك الفرنسي أبدى أقل استعداد لفهم شعور الغير ، وأدرك مايعتلج في نفس رفيقه ، لتركه بييردون ريب . لكن عدم قابليته الظاهرة لكل ماهو غير نفسه هو الذي حدا بيير ان يبقى .

قال الفرنسي وهو يلقي نظرة على ثياب بيير القـذرة ولكن الثمينة وعلى الخاتم الذي في اصبعه :

- فرنسي أو أمير روسي متنكر ، أنني مدين الك بحياتي وأعرض عليك صداقتي . ان فرنسياً لاينسى قط اهانة ولا خدمة . اعرض عليك صداقتي ولا اقول اكثر من ذلك .

كان في لهجة ذلك الضابط وفي تعابير وجه وحركاته كثير من النبل وجودة النفس (بالمعنى الفرنسي للعبارة) حتى ان بيير اجاب على ابتسامته بابتسامة مثلها برغمه وشد على اليد الممدودة اليه . قدم الفرنسي نفسه فقال وعلى شفتيه ابتسامة راضية لاتقاوم غضنتها تحت شاربه :

ـ الرئيس رامبال من الكوكبة الخفيفة الثالثة عشرة ، المنعم عليه بوسام لمعركة اليوم السابع . هل تتفضل الآن وتخبرني مع من لي الشرف بالتحدث بكل ود بدلاً من اكون في عربة اسعاف حاملاً رصاصـــة ذلك المجنون في جسدي ؟

فأجاب بيير بأنه لايستطيع ان يذكر اسمـه وراح وقد تضرج وجهه ، يبحث عن اسم يقدم نفسه به وعن الاسباب التي يزعم انها دعته الى التنكر . لكن الفرنسي بادر يقاطعه قائلاً :

ـ عفوك . انني اقدر ظروفك . انك ضابط .. ضابط كبير على ما اظن ولقد حملت السلاح ضدنا . ان هذا ليس من شأني . انني مدين لك بحياتي وهذا يكفيني . انني لك بكليتي .

وفجأة سأل :

ـ انت نبيل ؟

فاطرق بيير برأسه .

ـ اسمك في العماد اذا أمرت ؟ لا أطلب اكثر من ذلك . تقول السيد بيير ؟ .. عال . هذا كل ما أرغب في معرفته .

فقدموا فخذ الخروف والشطير ووضعوا السماور على المائـدة ، ثم جاؤوا بالعرق والنبيذ المأخوذين من صندوق روسي للسفر حمله الفرنسيون معهم ثم دعا رمبال بيير ان يشاطره الطعام ولم يلبث هو نفسه ان راح يأكل بنهم كما يأكل

لرجل القوي الجائع ويضغ باسنانه القوية ويصفق بلسانه في كل حين وهو يهتف : ممتاز ، رائع ! ولم يلبث وجهه ان تضرج وغطاه العرق . ونهج بيير الجائع نهجه في الأكل . وجاء موريل ، تابع الضابط ، بقدر معدنية فيها ماء ساخن غمس فيه زجاجة من النبيذ الاحمر ، كما جاء بزجاجة من خمرة « كواس » حملها من المطبخ ليذوقها . ولقد أصبح هذا النوع من الشراب معروفاً من الفرنسيين مقبولاً لديهم وكانوا يسمونه « ليمونادة الخنزير » ، فأخذ موريل يطري الزجاجة التي اكتشف وجودها في المطبخ . ولكن ، لما كان الرئيس متزوداً بخمر ممتاز حصل عليه خلال اجتيازه موسكو ، فقد تنازل عن زجاجة الكواس لموريل وهاجم هو نبيذ بوردو . أخذ منشفة أحاط بها عنق الزجاجة وصب لنفسه قدحاً ثم لضيفه ولقد كان من تأثير الشبع ومساعدة النبيذ ، ان ازداد الرئيس حيوية ، فلم يكف خلال فترة الطعام عن الثرثرة .

– نعم ياعزيزي السيد بيير . انني مدين لك بفضل عميم لأنك أنقذتني . . من هذا المسعور . . ان بي كفاية كما ترى من الرصاص في جسدي . وهاهي ذي واحدة (وكشف عن جنبه) اصابتني في « واجرام » كما أصبت باثنتين في سمولنسك – واشار الى أثار خياطة جرح في وجنته – وها هي ذي ساقي كما ترى ترفض ان تسير . لقد اصبت بهذه الاصابة في معركة اليوم السابع الكبرى ، في موسكوفا . يالله ، كم كانت جميلة ! ليت رأيتها ، انها طوفان من نار . لقد اظهرتم لنا مقاومة عنيفة يمكنكم ان تفخروا بها واقسم بشرف نبيل صغير . ولعمري فانني رغم كل ما اصبت به خلال هذه الملاحم ، اراني على استعداد لاعادة الكرة من جديد وارثي لحال الذين لم يروا تلك المعارك .

قال بيير :

– لقد كنت هناك .

فهتف الفرنسي :

ـ حقاً ! حسناً ، هذا أفضل . انكم رغم كل شيء أعداء فخورون . لقد كان التل الصغير شديد الصمود « وملأ الغليون » . ولقد جعلتونا ندفع ثمناً عالياً لقد ذهبت اليه ثلاث مرات كما تراني . كنا ثلاث مرات على المدافع وثلاث مرات دُفعنا مثلما تدفع الأرانب . اوه ! كان ذلك رائعاً ياسيد بيير . لقد كان قناصتكم رائعين وحق الله . لقد رأيتهم ست مرات يعبئون صفوفهم ويمشون وكأنهم في عرض عسكري . ياللرجال الرائعين ! ولقد هتف ملكنا - ملك نابولي - الذي يقدر هذه الأشياء : مرحى ! آه ! آه ! جنود مثلنا !

وبعد دقيقة صمت أضاف :

ـ هذا أفضل ياسيد بيير ، هذا أفضل . رهيبون في المعركة .. ظرفاء (وغمز بعينيه وهو يبتسم) مع الجميلات ، اولئك الفرنسيون ياسيد بيير أليس كذلك ؟

كان الفرنسي في حالة مرح صريحة جداً ومعدية جداً وكان شديد الرضى عن نفسه حتى ان بيير كاد ان يجيبه على غمزة عينه بمثلها وهو ينظر اليه بمرح . ولقد أعادت كلمة « ظرفاء » أفكار الفرنسي ولاشك الى الموقف في موسكو فقال :

ـ وبهذه المناسبة ، قل لي ، هل حقيقة ان النساء غادرن موسكو ؟ يا لها من فكرة مضحكة ؟ ماذا كان يخيفهن ؟

فسأل بيير :

ـ اما كانت السيدات الفرنسيات ليغادرن باريز لو احتلها الروسيون ؟

هتف الفرنسي وهو يقهقه ويربت على كتف بيير :

ـ آه ! آه ! آه !.. آه ! ان هذه قوية جداً . باريز ؟ . . . لكن باريز ، باريز . . .

فأعقب بيير :

- باريز ، عاصمة العالم ..

نظر اليه الضابط دون ان يرمش . لقد كان من عادته ان يصمت فجأة وهو في غمار حديثه ليتأمل مخاطبة بعينين ضاحكتين ودودتين .

- حسناً ، لو أنك لم تقل لي انك روسياً لراهنت على انك باريزي. ان فيك هذا الذي لاأعرف ما هو ، هذا ..

وقطع على نفسه الحديث بعد هذا الاطراء ليتأمل من جديد بيير في صمت قال بيير :

- لقد كنت في باريز . لقد امضيت فيها سنوات .

- اوه ! هذا يرى بوضوح .باريز !.. ان الرجل الذي لايعرف باريز انسان متوحش . ان الباريزي يعرف من رائحته على بعد ميلين.باريز هي تالما،دوشين بوتييه ، السوربون ، الشوارع العريضة .

ولما رأى ان خاتمة حديثه لاتساوي بدايته ، بادر يقول :

- لايوجد في العالم الا « باريز » واحدة . لقد كنت في باريز ثم لبثت روسيا . لعمري ان تقديري لك لن ينقص .

وجد بيير تحت تأثير الخمر ، وبعد كل هذه الايام التي قضاها في خلوة مع أفكار قاتمة ، متعة غير ارادية في التحدث مع هذا الفتى الباسل المرح .

- عودة الى سيداتكم ، يقولون انهن جميلات جداً . يالها من فكرة سيئة ان يذهبن الى الاقفار فيدفن أنفسهن فيها ، عندما يكون الجيش الفرنسي في موسكو . باللحظ الذي فات على هؤلاء السيدات . ان فلاحيكم « موجيك » يختلفون . اما انتم ، معشر المتمدنين ، فانكم ولاريب تعرفوننا افضل من ذلك لقد احتللنا فيينا وبرلين ومدريد ونابولي وروما وفارسوفيا وكل عواصم العالم .. انهم يخافوننا لكنهم يحبوننا . اننا نصلح لأن يتعرف الناس علينا . ثم ان الامبراطور ..

وهم ان يستمر لولا ان قاطعه بيير فكرر بلهجة اعتراها الارتباك ووجه انطبع فجأة بالوجوم :

– الامبراطور ، هل الامبراطور ..

– الامبراطور ! هو الكرم والرحمة والعدالة والنظام والعبقرية . هذا هو الامبراطور ! انني انا ، رامبال ، الذي أقول لك هذا .. انني كما تراني ، كنت عدوه منذ ثماني سنوات خلت . لقد كان ابي كونتاً مهاجراً .. هزمني ، هذا الرجل . لقد أسرني . لم أستطع مقاومة مشهد العظمة والمجد اللذين أضفاهما على فرنسا . ولما فهمت ما يريد ورأيت انه انما يصنع لنا محملاً من الغار ، قلت لنفسي ، لاحظ ، : ها هو ذا سلطان ، واستسلمت اليه . وهـذا كل شيء ! اوه ! نعم ياعزيزي ، انه أعظم رجل في القرون التي خلت والتي سوف تحين .

سأل بيير وهو يتردد تردد الرجل الذي ضبط في الخطأ :

– هل هو في موسكو ؟

فتأمل الفرنسي ذلك الوجه الذي يشبه وجه المذنب وراح يضحك ثم قال وهو يستأنف حديثه :

– كلا ، سوف يدخل المدينة غدا .

قطع الحديث ارتفاع أصوات آتية من وراء الباب ودخول موريل الذي جاء يعلن لرئيسه ان فرساناً ورتمبرجيين وصلوا منذ حين يريدون ايداع خيولهم في الفناء نفسه الذي احتلته جياده هو . وكانت الصعوبة في الموضوع ناجمة عن ان الفرسان لايفهمون شيئاً مما يقال لهم .

أعطى الرئيس الأمر باستقدام الرقيب الأول وسأله بلهجة صارمة عن الفيلق الذي ينتمي اليه وعن اسم رئيسه والحق الذي سمح لنفسه بموجبه ان يحتل مسكناً احتل من قبل . ولما كان الألماني ضعيف الفهم للغة الفرنسية ، فقد أجاب على

السؤالين الأولين باعطاء اسم فيلقه ورئيسه . لكنه لم يستوعب معنى السؤال الأخير فراح يعبر بنتف من الجمل الفرنسية ممزوجة بلغته الألمانية مجيباً بأن رئيسه أصدر اليه الأوامر باحتلال ضف المنازل كله . ولما كان بيير يعرف الألمانية ، فقد ترجم للرئيس ما يقوله الفارس وللفارس ما قاله الرئيس . فلما فهم الألماني حقيقة الأمر اخيراً ، تراجع وأخذ معه رجاله . وبعد ذلك ، خرج الرئيس الى المرقاة واصدر بعض الأوامر بصوت مرتفع .

ولما عاد الى الحجرة ،وجد بيير جالساً في مكانه نفسه ورأسه بين يديه ووجهه ينطق بالألم . والحقيقة انه كان في تلك اللحظه يتألم . اذ انه عندما لبث وحيداً بعد خروج الرئيس ، عاد بيير فجأة الى نفسه واستوعب الموقف الذي أصبح فيه . لم يكن ما يعذبه في تلك اللحظة ان موسكو قد احتلت وان المنتصرين السعداء باتوا أسياداً فيها بل وأصبح هو نفسه تحت حمايتهم . صحيح ان كل هذا ثقيل على قلبه ولكن لم يقل على مثل ثقل احساسه بضعفه . ذلك ان بضعة أقداح من الخمر والحادثة التي دارت بينه وبين هـذا الفرنسي اللطيف ، انتصرت على حالته النفسية الكئيبة المركزة التي أمضى بهـا أيامة الاخيره تلك ، وهي الحالة النفسية اللازمة للقيام بما أعتزم ان يقوم به . فالمسدس والخنجر والمعطف كلها جاهزة ونابوليون سيدخل موسكو غدا . ولقد ظل بيير يرى ان قتل هـذا الاثيم عمل نافع وفروسي . لكنه بات يشعر الآن بأن لن يقوم به . لماذا ؟ لم يدري . لكنه كان يشعر شعوراً مسبقاً بأنه لن يسير في مشروعة الى النهاية . راح يناضل ضد شعوره بالضعف ، لكنه كان يحس احساساً غامضاً بأنه لن يسيطر على ذلك الضعف وان أحلامه بالانتقام والاغتيال والتضحية قد ذراها الريح كالرماد لدى اللقاء مع اول وافد .

عاد الرئيس الى الغرفة وهو يجر ساقه ويصفر .

خيل الى بيير ان ثرثرته التي سلته بادىء الأمر قد أصبحت بشعة فجأة ومنفرة وذلك الصفير ، وذلك التصرف ، وتلك الطريقة في عكف شاربة ، كل ذلك بدا له الآن مهيناً . فكر : « انني سأذهب من فوري دون ان اضيف كلمة اخرى الى ما قلته له . » مع ذلك ، فانه لم يتحرك رغم هذه الفكرة . لقد كان ذلك الشعور الغريب بالضعف يسمره في مكانه ، فكان يريد النهوض والرحيل ولكن لا يستطيع .

اما الرئيس ، فقد بدا على العكس شديد المرح الى اقصى حد . طاف بالحجرة مرتين وعيناه تلتمعان وشاربه يرتعد قليلاً وكأن شيئاً مضحكاً جداً يجعله يبتسم ابتساماً خفيفاً . وفجأة هتف :

ـ رائع ، زعيم هؤلاء الورتمبرجيين ! انه الماني ، لكنه فتى باسل اذا وجب ولكنه ألماني . ـ ووقف قبالة بيير واعقب ـ وبالمناسبه ، انك اذن تعرف الألمانية أنت ؟

فنظر اليه بيير في صمت .

ـ كيف تقول : ملجأ ، بالألمانية ؟

فكر بيير :

ـ ملجأ ؟ ملجأ بالألمانيه : اونتركونفت .

سأل الرئيس بلهجه قوية غير مصدقة :

ـ كيف تقول ؟

فردد بيير :

ـ اونتركونفت .

فقال الرئيس وهو يتأمل بيير خلال لحظات بعينيه الضاحكتين :

ـ اونتركوف . ان الألمان وحوش فخورون .

ثم اعقب :

ـ أليس كذلك ياسيد بيير ؟

واردف :

ـ حسناً ، زجاجة اخرى من هذه الأنبذة الموسكوفية ، أليس كذلك ؟

ثم هتف بمرح :

ـ موريل ، اذهب وسخن لنا زجاجة صغيره ، موريل !

جاء موريل بالزجاجة وبالشموع . فتأمل الرئيس بيير على ضوئها ودهش لما بدا على قسماته من عطف عنيف . اقترب منه بيير وانحنى عليه بانجذاب ينطق بالحدب المخلص وقال وهو يضغط على يد بيير وسأل :

ـ حسناً ، انك حزين . فهل تراني اسأت اليك ؟ كلا ، قل الحق ، هل في نفسك شيء علي ؟ هل الأمر يتعلق بالموقف ؟

فنظر بيير الى الفرنسي بود دون ان يجيب . لقـــد كان شديد التحسس بالعطف الذي أظهر له .

هتف الفرنسي وهو يقرع صدره :

ـ اعاهدك بالشرف على انني اشعر بصداقة نحوك بصرف النظر عما انا مدين به اليك ، هل استطيع ان أسدي اليك يداً ؟ تصرف بي . وهو عهد يشمل الحياة او الموت . اقول هذا لك ويدي على قلبي .

فقال بيير :

ـ شكراً .

تأمله الرئيس بامعان بمثل النظرة التي تجلت في عينيه وهو يتعلم كلمة ملجأ بالألمانية واشرق وجهه فجأة .

هتف بكل مرح وهو يملأ كأسين :

– آه ! في هذه الحالة سأشرب نخب صداقتنا !

اخذ بيير كأسه المترعة وأفرغها دفعة واحدة وشرب رمبال كأسه وضغط على يد بيير مرة اخرى ثم اتكأ على المائدة في وضع سويداوي ومفكر. شرع يقول :

– نعم ياصديقي العزيز ، هذه هي صروف الدهر .. من كان يقول انني سأكون جندياً ورئيساً لكوكبة من الفرسان في خدمة بونابرت كما كنا ندعوه من قبل ؟ مع ذلك ، ها أنذا في موسكو معه .

وأعقب بصوت محزون ومتزن ، صوت رجل يتأهب لرواية قصة طويلة :

– يجب أن أقول لك ياعزيزي ان أسمنا من أعرق الأسماء الفرنسية .

وبصراحته الساذجة البسيطة كفرنسي ، روى الرئيس لبيير تاريخ أسلافه وطفولته وصباه وشبابه وكل مساكله المادية والعائلية . وغني عن الذكر ان « امي المسكينة » كانت تلعب في هذا الحديث دوراً مهماً . قال وهو ينتعش :

– لكن هذا كله ليس الا اخراج الحياة ، اما الاساس فانه الحب ! الحب ! أليس كذلك ياسيد بيير ؟ هل لك بقدح آخر ؟

فشرب بيير وصب لنفسه كأساً ثالثة .

– اوه ! النساء ! النساء !

وراح الرئيس ينظر الى بيير بعينين متراخيتين ويحدثه عن الحب وعن مغامراته الغرامية .

كانت عديدة جداً والمرء يسهل عليه تصديقه اذا نظر الى الحماس الذي يتحدث به عن النساء والى امارات الرضى المرتسمة على وجهه والى ذلك الوجه الجميل نفسه . وعلى الرغم من ان مغامرات رامبال كانت تحوي الجانب الخلاعي الذي يكون لدى الفرنسيين فتنة الحب وشاعريته ، فان الرئيس راح يروي

وقائعه بايمان مخلص بأنه وحده الذي ذاق كل بن الحب وتعرف عليه ، ويصف بطلات اقاصيصه باغراء عنيف حتى ان بيير كان يصغي اليه بفضول .

كان واضحاً ان الحب الذي يحبه الفرنسي بمثل هذه الشدة ليس ذلك الكاف البدائي والشهواني الذي احسّ به بيير فيما مضى نحو زوجته ولا ذلك الحب الرومانتيكي الذي يشعر بـه نحو ناتاشا (وكان رامبال يحتقر كليهما معاً لأن لأول في نظره « غرام السواقين » والثاني غرام الحمقى) ، بل ان الحب الذي يجرفه كان يتألف بصورة خاصة من العلاقات الخارقة مع النساء وكانت سلسلة من تآلف الاشياء الغريبة تكوّن المظهر الرئيسي للعاطفة .

وهكذا فقد روى الرئيس قصة غرامه المثيرة مع مركيزة فاتنة في الخامسة والثلاثين ، التي يبطنها غرامه لابنة هذه الاخيرة ، وهي فتاة انيسة ساذجة في السابعة عشرة من عمرها . ولم يعد الصراع في الكرامة بين الام والبنت الذي انتهى بتضحية الام التي قدمت ابنتها زوجة لعشيقها ، الا مجرد ذكرى بعيدة ، ذكرى لازالت رغم ذلك تثير عواطف الرئيس . ثم روى سلسلة من القصص كان الزوج فيها يلعب دور العاشق وهو ، العاشق ، دور الزوج ثم بعض قصص اخرى مضحكة عن « ذكرياته في المانيا » حيث تلفظ كلمة ملجأ اونتر كونفت وحيث الازواج يأكلون الكرنب المهرم المخمر وحيث الفتيات شقراوات جداً .

اخيراً ، وصل الى سرد مغامرته الاخيرة في بولونيا ، تلك المغامرة التي لازالت حديثة العهد في ذاكرته ، فرواها بحركات ملؤها الحياة ووجهه ينطق بالنشوة . لقد انقذ حياة بولوني (وفي روايات الرئيس ، كان لابد من حادث ينقذ فيه حياة احدهم) بشكل راح هذا البولوني معه يسلمه قيادة زوجته الفاتنة بارزية القلب ، بينما انخرط هو في خدمة فرنسا . وكان الرئيس في غاية مايشتهي فارادت البولونية الفاتنة ان تفر معه . مع ذلك ، فقد اعاد الزوجة الى زوجها

في غمرة احساس نبيل وقال له : « لقد انقذت حياتك، وها انني انقذ شرفك!»
واخذ رامبال وهو يردد هذه الكلمات يمسح عينيه ويهز رأسه وكأنه يريد ان يطرد التحنان الذي غمره امام ذكرى على هذا الجانب من التأثير .

وكما يحدث غالباً في ساعة متأخرة من الليل وتحت تأثير الخمر ، راح بيير وهو يصغي الى اقاصيص الرئيس ، يتبع ذكرياته الخاصة التي داهمت ذاكرته فجأة . ولقد ايقظت اعترافات الحب تلك هواه بناتاشا فراح يستعيد صورته في خياله ويقارنه بأقاصيص رامبال . ولقد ذكرته قصة الصراع بين الواجب والحب بلقائه الاخير مع ناتاشا قرب برج سوخاريف مرت ذكريات ذلك اللقاء نصب عينيه في أدق تفاصيله . لقد اثر فيه ذلك اللقاء تأثيراً خفيفاً في حينه ، بل انه نأى تماماً عن ذاكرته . اما الآن ، فعلى العكس ، لقد بـــدا له ان معنى وشاعرية خاصة مختلفة تماما .

« يابيوتر كيريلليتش ، تعال ، لقد عرفتك . » كان يسمع هـذه الكلمات ويرى امامه عيني ناتاشا وابتسامتها وقلنسوة السفر التي على رأسها وخصلات شعرها المجنونة .. لقد كان لكل هذه الاشياء لون من الحنو والتأثير .

وبعد ان فرغ من حكاية البولونية التي اعادها الى زوجها ، سأل الرئيس بيير عما اذا كان احسّ بمثل عاطفة التضحية بالذات هذه في سبيل الحب والحقد نحو الزوج الشرعي .

رفع بيير رأسه عقب هذا السؤال واستبد به شعور بالحاجة الى ان يفثأ عما في نفسه ، فراح يشرح لجليسه كيف انه يفهم الحب على لون آخر . قال انه خلال حياته كلها لم يحب الا امرأة واحده وان هذه الامرأة لن تكون له ابداً .

فهتف الرئيس :

— هه !

ثم قال بيير انه يحب هذه الامرأة منذ نعومة اظفارها لكنه لم يجرا قطعلى التفكير فيها لانها لم تكن اكثر من « بنية » صغيرة ، وانه هو ، الابن غير الشرعي ، لايملك حتى اسما ، ولما تلقى فيما بعد الاسم والثروة ارثيا ، ماعاد يجرأ على مفاتحتها كذلك لانه كان يحبها حباً عنيفاً ويضعها في مكان سام جداً وبالتالي ارفع من مقامه بكثير .

ولما وصل الى هذه النقطة من روايته ، سأل بيير الرئيس عما اذا كان يفهمه فبدرت عن الرئيس اشارة تعني انه ولولم يكن يفهم شيئاً ، فان هذا لايجب ان يحول دون بيير ومتابعة الحديث ، وغمغم :

– الحب الافلاطوني ، .. !

هل كان النبيذ الذي احتساه ام ضرورة فتح مكنونات قلبه ام كذلك التأكيد من أن هذا الرجل لايعرف ولن يعرف قط شخصاً واحداً من الذين يتحدث عنهم ، ام ترى كل هذه الاعتبارات مجتمعة هي التي حلت لسان بيير من عقاله ؟ مهما كان الأمر ، فقد راح يروي قصة حياته وقد جف لعابه وشخص بعينيه العكرتين الى نقطة ما في البعد . روى قصة حياته وزفافه وحب ناتاشا لصديقه الحميم ثم خيانة الفتاة والعلاقات القلبية التي يكنها لها بل لقد أفشى مدفوعا بأسئلة رامبال ، ما أخفاه في باديء الأمر : مركزه الاجتماعي واسمه الحقيقي .

وكان الذي زاد من دهشة الرئيس لاعترافات بيير ، هو انه أزاء رجل غني جداً يملك قصرين في موسكو ، هجر كل شيء دون ان يفر من المدينة وبقي آخر الأمر ، وهو يخفي اسمه ومركزه .

خرجا معاً في ساعة متأخرة من الليل الى الشارع ، كان الليل صاحياً بديعاً والى يسار البيت ، التمعت نيران اول حريق شب في موسكو على بيتروفكا والى اليمين ، قرص القمر الجديد عالياً جداً في السماء وقبالة القمر ، المذنب

المغني الذي كان يشترك في نفس بيير مع غرامه . وأمام البيت ، وقف جيرامبم والطاهية وفرنسيان . وكانوا يضحكون ويتحدثون محاولين ان يتفاهموا وقد علت اصواتهم . كانوا يتأملون الضوء الذي اخذ يتصاعد فوق المدينة .

لم يكن لهذا الحريق البعيد في مدينة كبرى أي اثر مخيف .

احس بيير بحنو مرح وهو يتأمل السماء الكبرى ذات النجوم والقمر والنجم المذنب والضوء الأحمر . فكر : « كم هو جميل كل هذا . » لكنه فجأة ، عندما تذكر مشروعه ، احس بدوار في رأسه وألم ينتابه فاستند الى الحاجز مرغماً كي يتفادى السقوط .

ودون ان يستأذن من صديقه الجديد ، ابتعد بيير عن الباب وهو يترنح ودخل الى غرفته حيث استلقى على الاريكة ونام لفوره .

* * *

الفصل الثلاثون

المظاهر الاولى

في الثاني من ايلول ، شوهد وميض الحريق الاول من نقاط عديدة واحدث تأثيرات مختلفة على السكان الفارين وعلى الجيش المنسحب .

توقفت قافلة آل روستوف تلك الليلة على بعد عشرين فرسخاً[1] من موسكو ، في ميتيشتشي لأنهم في اليوم الاول ، رحلوا متأخرين جداً وكان الطريق مملوءاً بالعربات والقطعات الكثيرة ، واضطروا الى انتظار عديد من الاشياء المنسية ارسلوا يستحضرونها حتى قرروا اخيراً ان يناموا على بعد خمسة فراسخ عن موسكو . وفي اليوم التالي ، استفاقوا متأخرين ووجدوا كذلك كثيراً من العوائق في الطريق حتى انهم لم يجتازوا جراندميتيشتشي . ولقد تفرق آل روستوف والجرحى المسافرون معهم في الساعة العاشرة في الأكواخ الخشبية وافنية تلك الضيعة الكبيرة . وبعد ان قام الخدم والتابعون بخدمة اسيادهم ، تناولوا الطعام بدورهم وعنوا بشأن الخيول ثم خرجوا على المرقاة .

كان في المنزل المجاور مساعد رايفسكي العسكري وقد تحطم معصمه وهو يتألم ألماً شديداً رهيباً وزمجراته المستمرة تدوي بشكل مؤثر جداً في تلك الليلة الخريفية المعتدلة . ولقد امضى هذا المساعد العسكري الليلة الاولى في الفناء

---

(١) الصحيح في النص هو فيرست ، وهو مقياس روسي طوله ١٠٦٧ متراً

الذي حل فيه آل روستوف فشكت الكونتيس انها لم تغمض جفنها بسبب تلك الأنات . لذلك فقد انتقلت في ميتيشتشي الى كوخ خشبي اكثر تواضعاً بغية الابتعاد عن ذلك الجريح .

شاهد احد الخدم في الظلمات ، من وراء صندوق احـدى العربات العالي المتوقفة عند مدخل الفناء وميض حريق آخر اقل انتشاراً . وكان الحريق الأول واضحاً تماماً منذ امد طويل والكل يعرف ان مكانه هو بوتيت ميتيشتشي (الصغرى) حيث اضرم قوقازيو ما مونوف النار .

قال احد التابعين :

- وهذا ايها الرفاق ، انه حريق آخر .

فالتفتوا جميعهم نحو اللهيب .

ولكن ماذا، وقد قيل ان قوقازيي مامونوف يحرقون ميتيشتشي الصغرى !

- هم ؟ كلا ، ليس في ميتيشاشتي الصغرى بل أبعد من ذلك بكثير .

- انظر جيداً ، لابد وان الحريق في موسكو .

نزل خادمان عن المرقاة ومضيا وراء العربة ثم اعتليا المرقاة .

انه اكثر الى اليسار انظر : ان ميتيشتشي من هذه الناحية ، وهذه في الجهة المضادة .

واقترب بعض الرجال من هذين وقال احدهم :

- هه ، كيف يرتفع اللهب ! هـذه ايها السادة هي موسكو التي تشتعل . سواء في سوشتنشيفسكايا أو في روجوسكايا .

فلم يجب احد على هذه الملاحظة واستمر هؤلاء الاشخاص ينظرون خلال فترة طويلة الى لهب هذا الحريق الجديد المتصاعد وهم صامتون .

اقترب وصيف عجوز للكونت ، دانيل تيرانتيتش ، من الجماعة ونادى ميشكا .

– ماذا تنظر هنا ايها الغبي الصغير ! . ان الكونت يناديك فلا يجيبه احد.
امض واهتم بالألبسة .

فرد ميشكا :

– كنت ذاهباً لأملأ ماء .

قال خادم :

– وانت يادانيل تيرانتيتش . ماذا تقول ؟ ان هذا يبدو من موسكو دون ريب .

لم يجب دانيل تيرانتيتش وراح ينظر بصمت فترة طويلة . وكان اللهب المتراقص يزداد اتساعاً . .

قال صوت :

– ليحفظنا الله ! .. بهذه الريح وهذا الجفاف ..

– انظر كم تقترب النار بسرعة . اوه ، مولانا ! ان المرء ليرى طيور « الشوكا » ! مولانا ، ارفق بنا !

فرد دانيل تيرانتيتش الذي ظل صامتاً حتى ذلك الحين :

– ومن الذين سيطفئها ؟

واردف ، وصوت هادىء بطيء :

– نعم انها في موسكو ايها الاخوان ، الام ذات الاسوار البيضاء ...

وتهدج صوته فجأة وراح ينتحب كما ينتحب الكهول .

وكأنهم جميعاً لم يسمعوا الا هذا القول ليدركوا معنى ذلك الحريق بالنسبة اليهم ، فارتفعت الحسرات والصلوات الممتزجة باجهاش الوصيف العجوز .

الفصل الحادي والثلاثون

خطة ناتاشا

ولما عاد الى سيده ، روى الوصيف ان موسكو تحترق. فارتدى الكونت معطفه المنزلي وخرج مستطلعاً . خرجت معه السيدة شوص وسونيـا التي لم تكن قد خلعت ثيابها بعد فلم يبق في الداخل الا ناتاشا والكونتيس وحدهما ، اذ كان بيتيا قد افترق عن اسرته لأنه تبع فيلقه الذي كان متجهاً الى ترونيتسا الواقعة على بعد ثمانية وستين فرسخاً من موسكو .

راحت الكونتيس تبكي عندما علمت بحريق موسكو . اما ناتاشا الشاحبة ، شاخصة البصر ، الجالسة تحت الايقونات على مقعد لا مسند له (وقد ظلت جالسة فيه دون أن تتحرك منذ وصولها) فانها لم تلق بالا الى ما كان يقوله ابوها . كانت تصغي الى انين المساعد العسكري المستمر الذين كان يُسمع رغم المنازل الثلاثة الفاصلة .

هتفت سونيا وهي عائدة من الخارج مرتعدة مروعة :

– آه ! هذا مريع ! اعتقد ان موسكو كلها تحترق بالشعلة المخيفة ! ناتاشا ، اذهبي الى النافذة وانظري ، يمكن الآن رؤية كل شيء بوضوح .

وكانت بهذا القول الموجه الى ابنة عمها تحاول التسرية عنها . لكن ناتاشا نظرت اليها وكأنها لا تفقه ما يطلب اليها وعادت تحدق من جديد الى ركن المدفئة . لقد كانت في هذا النوع من السبات المستغرق من الصباح ، منذ ان

ظنت سونيا لسبب لايعلمه الى الله ، ولعظيم دهشة الكونتيس وانزعاجها الكبير ان من الضروري اخطار ناتاشا بجرح الأمير آندريه وبوجوده معهم في القافله .
ولقد ثارت الكونتيس على سونيا ثورة لم تتعرض هذه لمثلها الا نادراً فسألتها الصفح وهي تبكي . والآن ، وكأنها تحاول التكفير عن ذنبها ، راحت تظهر مزيداً من الاستمالة .

قالت سونيا :

– انظري ناتاشا كيف يشب الحريق بقوة . هذا رهيب .

سألت ناتاشا :

– ما الذي يحترق ؟ آه ! نعم ، موسكو !

وكأنها ارادت ان لاتجرح سونيا برفضها وان تتخلص منها ، فادارت رأسها نحو النافذة ونظرت بشكل كان بديهياً معه ان لاترى شيئاً وعادت الى وضعيتها السابقة .

– لكنك لم تري !

فقالت بصوت يتوسل ان تُترك وشأنها :

– بلى ، بلى ، لقد رأيت جيداً .

فهمت الكونتيس وسونيا ان موسكو وحريق موسكو وكل ما يمكن ان يقع ، لايمكن ان يكون على أي لون من الأهمية بالنسبة الى ناتاشا في تلك اللحظة .

عاد الكونت الى وراء حاجز الكوخ الخشبي واستلقى . فاقتربت الكونتيس من ناتاشا ومست رأسها بظاهر يدها كما كانت تعمل كلما كانت ابنتها مريضة ثم لمست جبينها بشفتيها وكأنها تريد ان تعلم مـا اذا كانت مصابة بالحمى ثم عانقتها وقالت :

– أبِك برد ؟ انك ترتعدين . عليك ان تنامي .

فأجابت ناتاشا :

– ان انام ؟ نعم ، حسناً ، انني ذاهبة لأنام على الفور .

ذلك الصباح ، عندما علمت ان الأمير آندريه المصاب بجرح خطير يسافر معهم ، بدأت أول الأمر تطرح الاسئلة تلو الاسئلة . كانت تريد ان تعلم اين و كيف جرح وهل جرحه خطير وهل يمكن مشاهدته . وعندما اكدوا لها بأنه لايمكن رؤيته وان جرحة رغم خطورته،لايعرض حياته للخطر ، لم تصدق بالطبع ما قالوه لها ، لكنها لاحظت انهم يقدمون الأجوبة نفسها على أسئلتها . لذلك فقد كفت عن السؤال بل وعن الكلام ايضاً . وخلال المرحلة كلها ، لم تحرك ناتاشا ساكناً في ركنها واحتفظت بذلك المظهر الدي شوهدت عليه في تلك الآونة وهي جالسة على المقعد الذي لامسند له : عينان واسعتان كانت الكونتيس اخبر الناس بمعناهما وأكثرهم خوفاً مما تدلان عليه . كانت تفكر وتقرر شيئاً ما في اعماق نفسها ان لم يكن قد اتخذت قرارها بعد . وكانت الكونتيس تشعر بذلك لكنها لم تكن تعرف مايمكن ان يكون ذلك ، وهذا ما كان يخيفها ويعذبها .

– ناتاشا،اخلعي ثيابك ياعزيزتي ونامي في سريري.(لقد كانت الكونتيس وحدها تنام على سرير . أما السيدة شوحى والفتاتان ، فكن ينمن على قش فوق الأرض .)

فأجابت ناتاشا نافذة الصبر :

– يأماه ، سأنام هنا ، على الأرض .

ثم اقتربت من النافذة وفتحتها وتناهت انات المساعد العسكري الى الاذان اكثر وضوحاً خلال النافذه المفتوحة . اخرجت رأسها الى هواء الليل الرطيب

فشاهدت الكونتيس عنقها الدقيق ينتفض من النشيج ويصطدم بالاطار الخشبي.
كانت ناتاشا تعرف ان هذه الانات ليست انات الأمير آندريه وتعرف ان الأمير يرقد في الكوخ الخشبي الملاصق ، يفصله عن كوخها مدخل عادي. لكن ذلك الانين المتواصل المريع كان ينتزع العبرات من عينيها . تبادلت الكونتيس نظرة مع سونيا وقالت وهي تلمس كتفها برفق :

– نامي ياعزيزتي ، نامي ياصغيرتي . هيا ونامي .

فقالت ناتاشا وهي تبادر الى خلع ثيابها منتزعة اشرطة أثوابها انتزاعاً :

– آه ! نعم .. على الفور ، على الفور .

وبعد ان خلعت ثوبها ، ارتدت صدرتها وجلست على ساقيها المثنيتين فوق السرير المعد لها على الارض وكفأت شعرها الناعم القصير الى الامام وراحت تضفره . ولقد حلت أصابعها الطويلة الرقيقة ضفائرها وعادت تنسقها بسرعة محمومة فكان رأس ناتاشا ينحني تارة الى هذه الجهة وتارة الى تلك بحركة اليفة بينما ظلت عيناها المتسعتان وكأنها متأثرتان بالحمى ، شاخصتين . ولما فرغت من زينة الليل ، استلقت ناتاشا دون ضوضاء على الشرشف الممدد فوق القش قرب الباب .

قالت لها سونيا:

– ناتاشا ، نامي في الوسط :

فردت ناتاشا :

– انني مرتاحة هنا .

وأضافت بسأم :

– ولكن ، هيا جميعكن الى النوم .

واغرقت وجهها في وسادتها .

خلعت الكونتيس والسيدة شوحي وسونيا ثيابهن بسرعة وأوين الى فراشهن ولبث السراج المتراقص أمام الايقونات وحده يضيء الحجرة . لكن الفناء كان مضاء تماماً بلهب حريق ميتيشتشي الصغرى البعيدة مسافة فرسخين . وكانت صيحات السكارى تدوي في المشرب الكائن عند منعطف الشارع الذي نهبه قوقازيو مامونوف وصيحات المساعد العسكري المستمرة تسمع دون انقطاع .

اصاخت ناتاشا السمع دون ان تتحرك الى الضوضاء الآتية من الخارج والداخل فسمعت باديء الأمر امها تتلو صلاتها وتتنهد ثم فرقعة السرير تحت ثقل جسمها وشخير السيدة شوحي الخفيف المألوف الذي يرافقه صفير قصير وتنفس سونيا الهاديء . ثم نادت الكونتيس ناتاشا التي لم تجب على النداء .

همست سونيا :

— اظنها نائمة يا أماه .

وبعد فترة صمت ، نادت الكونتيس مرة اخرى . ولكن لم يجبها احـد هذه المرة .

وبعد قليل سمعت ناتاشا تنفس امها المنتظم . لم تندعنها حركة رغم ان قدمها الصغيرة كانت خارج الغطاء متجمدة على الأرض الباردة .

وراح جدجد يصر في أحد الشقوق وكأنه يحتفل بانتصاره على كل هؤلاء النيام . وصاح ديك على البعد ورد آخر في مكان أقرب على صياحه ، وهدأت الصيحات في الحانة فلم تعد تسمع الا انات المساعـــد العسكري . انتصبت ناتاشا وهمست :

— سونيا ، هل أنت نائمة ؟ ماما !

فلم يجبها أحد . نهضت ناتاشا ببطء وحذر وبعد ان رسمت اشارة الصليب وضعت باطن قدميـا العاريتين النحيلتين على الأرض القذرة الباردة فصرت

الالواح الخشبية . اقتربت من الباب بخطوات سريعة صغيرة كالقطة وادارت الرتاج المتجمد .

خيل اليها انهم يقرعون كل جدران الكوخ الخشبي بضربات مكتومة متزنة كان ذلك قلبها الذي يتخاذل وينبض بشدة تكادتنتزعه من الهلع والخوف والحب

فتحت الباب واجتازت العتبة ووضعت قدميها على أرض المدخل الرطيب المتجمد . ولقد أنعشها ذلك البرد الذي يسري الى اوصالها . صدمت بقدمها العارية جسم رجل نائم فتخطته ثم فتحت باب الكوخ الخشبي الملاصق حيث كان الأمير آندريه مسجى . كان كل شيء معتماً هناك . ففي احدى الزوايا قرب السرير حيث كان جسد انسان مسجى ، وضعت شمعة من شحم الغنم تحترق ذبالتها احتراقاً سيئاً مشكلة اخيلة فوق مقعد خشبي .

منذ الصباح ، منذ ان علمت بجرح الأمير آندريه ووجوده بينهم ، قررت ناتاشا انه يجب عليها ان تراه . ما كانت تعرف لماذا يجب ذلك ، بل تعرف فقط ان هذه المقابلة ستكون عقاباً ولهذا السبب وجدت انها ضرورية جداً .

امضت النهار في أمل واحد هو لقاؤه ذلك المساء . والآن وقد ازفت الدقيقة المنتظرة ، كان الذعر يملأ صدرها لما ستراه . كيف تراه مشوهاً ؟ ماذا بقي منه ؟ هل كان مثل ذلك المساعد العسكري الذي لايكف عن الانين ؟ نعم ، لقد كان كذلك . كان في خيالها ذلك الأنين المريع مجسداً . ولما رأت في الركن كتلة غير واضحة المعالم ، اعتبرت ركبتي الأمير آندريه اللتين كانتا ترفعان الغطاء كتفيه فتصورت جسداً مخيفاً وتوقفت مروعة . لكن قوة لاتقاوم دفعتها الى الامام . خطت خطوة بتحرز ثم اخرى فوجدت نفسها وسط غرفة مملوءة بالاشياء . وعلى المقعد الخشبي تحت الصور ، وجدت رجلاً آخر ممدداً (هو تيموخين) . بينما هجع رجلان اخران على الارض (الطبيب والوصيف) .

نهض الوصيف وتمتم بضع كلمات . اما تيموخين الذي كان يتألم من جرح ساقه ، فانه لم يكن نائماً بل كان يختلس النظر بعينيه المتسعتين الى ظهور الفتاة الغريب في قميص أبيض وصدرة وقلنسوة ليل . بيد ان الكلمات القليلة التي نطق بها الوصيف المذعور وهو لايزال تحت تأثير النوم : « من هناك ؟ ماذا تريدين ؟ » دفعت ناتاشا الى الاسراع بالتقدم نحو الذي يهجع في الركن . كان يجب ان ترى ذلك الجسد مهما كان مشوهاً ومريعاً . مرت بالقرب من الوصيف وعندئذ انتهي احتراق القسم الرديء من الشمعة ، فشاهدت ناتاشا على الضوء الذي أصبح اكثر توهجاً ، الأمير آندريه ممدداً ويداه فوق الغطاء ، كما عرفته من قبل دائماً .

كان يشبه نفسه لكن لونه الذي وردته الحمى وعينيه الشاخصتين اليها بانشاط وخصوصاً عنقه الرخص الطفولي الذي يخرج من ياقة قميصه المفتوحة ، كانت تعطيه هيئة خاصة ، مظهراً فتياً بريئاً لم تره عليه من قبل أبداً . اقتربت ، وبحركة فتية سريعة ومرنة ركعت على ركبتيها .

فابتسم ومد لها يده .

★ ★ ★

الفَصلُ الثاني والثلاثون

لقاء الحبيبين

مضى اسبوع على الحين الذي عـاد فيه الأمير آندرية الى وعيه في عربة الاسعاف في ساحة معركة بورودينو، لم يستعد خلاله وعيه تقريباً أبداً. لقد انتصرت الحمى الدائمة والتهاب الامعاء اللذين اصاباه، على حد قول الطبيب الذي كان يرافقه مع ذلك، فانه في اليوم السابع أكل بشهية شريحة خبز وشرب قدحاً من الشاي ولمس الطبيب انخفاضاً في الحمى. لقد استعاد الأمير آندريه رشده صباحاً. ولقد تركوه ينام اول ليلة خلال الرحلة في عربته لأن الجو كان دافئاً. لكنه في ميتيشتشي، اصر هو نفسه على ان يخرجوه من العربة وان يقدموا له قدحاً من الشاي. ولقد انتزع منه الألم الذي أحس به وهم ينقلونه من العربة زجرات قوية فقد الرشد من جديد. وظل طويلاً على سرير الميدان الذي اسجوه عليه مغمض العينين لا حراك به. ثم فتح عينيه وتمتم: « والشاي ؟ » ولقـد دهش الطبيب لتلك الذاكرة المدققة لأتفه تفاصيل الحياة فجس نبضه. ولدهشته الكبيرة، وبشيء من القلق، وجد أنه أفضل. واذا كان الطبيب قلقاً، فذلك لأنه كان يعرف بالتجربة، ان الأمير آندريه مقضي عليه وانه اذا لم يمت من حينه، فسيموت فيما بعد وسط اقوى نوبات الألم. وكانوا ينقلون مع الأمير آندريه، عسكرياً برتبة ماجور، تابعاً لفوجه، الحقوه بالقافلة في موسكو،

اسمه تيموخين ، وهو ذو انف أحمر صغير ، اصيب بجرح في ساقه في معركة بورودينو نفسها . وكانا ـ الأمير آندريه والماجور ـ مصحوبين بطبيب ووصيف الأمير وحوذيه وتابعين .

قدموا الشاي للأمير آندريه فشرب بنهم وعيناه المحموتان شاخصتان أمامه على الباب وكأنه يحاول ان يدرك وان يتذكر . قال ثم سأل :

ـ كفاني . هل تيموخين هنا ؟

فجر تيموخين نفسه ناحيته وتعلق بالمقعد :

ـ هاانذا ياصاحب السعادة .

ـ كيف حان جرحك ؟

ـ جرحي ؟ تافة . ولكن أنت ؟

استغرق الأمير آندريه في التفكير وكأنه يبحث عن شيء في ذاكرته . سأل :

ـ هل من سبيل للحصول على كتاب ؟

ـ أي كتاب ؟

ـ الانجيل . لست أملكه .

وعد الطبيب بايجاد انجيل وسأل الأمير عما يشعر به فأجابه مكرهاً ولكن بكل وعي ، على كل أسئلة الطبيب ثم أعلن انهم لو وضعوا تحته وسادة لشعر براحة اكثر وبآلام أقل . فرفع الطبيب والوصيف المعطف الذي يغطيه وراحا وهما يصعران وجهيهما من رائحه النتن المتصاعدة من لحمه النتن ، يفحصان الجرح المريع . ولقد ندا عن الطبيب مايشعر بالاستياء ثم أعاد ترتيب جانب من الضمادة وقلب المريض بشكل جعله يعاود الزمجرة ويفقد الوعي من جديد بتأثير الألم ويعود الى الهذيان . استمر يكرر دون انقطاع طلبه للكتاب ورغبته في ان يوضع بجانبه بأسرع ما يمكن . ردد :

– ماذا يكلفكم ! لست أملكه . أوجدوه لي أرجوكم وضعوه بالقرب مني دقيقة صغيرة .

واستمر يردد هذه الشكوى الآليمه بصوت ضعيف . وخرج الطبيب الى الدهليز ليغسل يديه فقال للوصيف الذي كان يصب الماء على يديه :

– آه ! انك لاتدرك الموضوع حقاً . يكفي للقضاء عليه دقيقة واحدة من عدم الانتباه من جانبي . انه ألم هائل حتى انني جد مندهش اذ أراه يحتمله .

فأجاب الوصيف :

– يبدو أننا نبذل أفضل مافي وسعنا ! ايها المولى يسوع !

ادرك الأمير آندريه للمرة الاولى كنه ما وقع له . تذكر انه جريح وانه في اللحظة التي وقفت عربته الخفيفة في ميتيشتشي ، طلب ان ينقل الى أحد الأكواخ . وبعد ان فقد رشده من جديد بتأثير الألم ، استعاد وعيه مرة اخرى في الكوخ وشرب الشاي وأخذ يعيد تخطيط ما أصابه في ذاكرته ، فعاش من جديد وبأكثر احساس من ذي قبل تلك اللحظة التي قضاها في مستشفى الميدان ، عندمارآى آلام الرجل الذي يمقته ، فامتلكت عليه مشاعره احساسات وأراء جديدة كانت تبشره بالسعادة . فراحت تلك الافكار ، رغم غموضها وحيرتها ، تستحوذ على روحه من جديد . تذكر انه الآن يملك سعادة جديدة وان لتلك السعادة علاقة ما بالانجيل . ولهذا السبب ، طلب هذا الكتاب . لكن الوضعية الرديئة التي جعلوا جرحه عليها وهم يقلبونه ، جعلته يضيع مرة اخرى حبل أفكاره وكانت تلك ، هي المرة الثالثة التي يستعيد تماسه مع الحياة في سكون الليل المطبق . كان كل شيء نائماً حوله وعند المدخل جدجد يصر ، وفي الخارج يغني أحدهم ويكثر من اللفظ وديوبات الليل « تخربش » على المائدة وفوق الايقونات والجدران ، وذبابة كبيرة تصطدم بوسادته الكبيرة وتدندن

حول الشمعة الموضوعة بالقرب منه التي كانت تبرعم وهي تسيل .

لم تكن روحه في حالتها الطبيعية . فالرجل الصحيح الجسم عـادة تنتابه معا الف فكرة واحاس وذكرى ، فاذا ما اوقف اختيـاره على سلسلة واحدة من الافكار أو الوقائع ، يجـد الارادة والقوة لتثبيت كل انتباهه على تلك السلسلة والرجل الصحيح الجسم قادرعلى ان ينتزع نفسه من فكرة عميقة ليقول كلمة رقيقة لشخص دخل منذ حين ثم ان يعاود سيـاق أفكاره . وروح الأمير آندريه ، تبعاً لهذا الرأي ، لم تكن في حالتها الطبيعيـة لأن قواه الفكرية كانت اكثر نشاطاً واشراقاً من أي وقت مضى لكنها كانت تعمل خـارج نطاق ارادته . لقد كانت الافكار والصور الاكثر تبايناً تستحوز عليـه وكان تفكيره أحياناً يشرع فجأة في العمل بشدة ووضوح وعمق لم يكن له مثلها وهو في أفضل حالة صحية . لكنها فجأة ، في غمار النشاط ، تتحطم الفكرة وينبعث خاطر غير منتظر فيصبح مستحيلاً عليه اعادة ربط السلسلة .

كان يفكر وهو مسجى في الكوخ المظلم الساكن وعيناه الكبيرتان المحمومتان تحدقان أمامه : « نعم ، لقد بشرت بسعادة جديده لا يمكن ان تنتزع من الانسان سعادة لا تخضع للقوي المادية والتأثيرات الخارجية ، سعادة الروح وحدها ، سعادة الحب ! ان كل انسان يستطيع ان يفهمها . لكن الله وحده يستطيع ان يضفيها أو ان يبشر بها . وكيف بشرنا الله بهذا القانون ؟ لماذا الابن ؟ .. »

وفجأة انقطع حبل أفكاره وسمع الأمير آندريه ـ دون ان يعرف ما اذا كان ذلك في اليقظة أم في الهزيان ـ صوتاً رقيقاً هامساً يكرر باستمرار وبايقاع : «بيتي - بيتي - بيتي» من ثم جديد : بي - تي - تي - ثم اي - تي - تي . وبنفس الوقت ، على صوت هذه الموسيقى الهامسة ، أحس بان بنـاء غريباً يرتفع فوق وجهه عند منتصفه تماماً ، بناء في الهواء قوامه إبر دقيقة أو قطع خشبية صغيرة

وشعر ـ رغم شدة ايلام هذا الشعور ـ انه مرغم على الاحتفاظ بتوازنه بعناية كيلا ينهار ذلك البناء الهوائي . لكنه مع ذلك انهار ، ثم عاد ببطء من جديد يرتفع ويتكون على صوت تلك الموسيقى الهامسة . أخذ الأمير آندريه يحدث نفسه : « انه يكبر ، انه يستطيل ويكبر ! » وفي الوقت الذي أخذ يصيخ فيه السمع الى ذلك الهمس ويشعر بذلك البناء من الابر يرتفع وتتسع رقعته ، كان الامير آندريه يرى خلال فترات ، تلك الدائرة الحمراء التي ينشرها لهب الشمعة ويسمع « خربشة » الدويبات وطنين الذبابة التي كانت تصطدم بوسادته أو بوجهه . وكلما مست الذبابة وجهه ، أحدثت احساساً بالاحتراق لكنه بنفس الوقت يدهش كلما رآى انها تصطدم في المكان نفسه الذي ارتفع فيه ذلك البناء فوق وجهه دون ان ينهار . علاوة على ذلك ، كانت ظاهرة اخرى مهمة تقع في ذلك الحين . انها بقعة بيضاء عند الباب ، تمثال لأبي الهول ، راح هو الآخر يسحقه .

فكر الأمير آندريه : « لعله قميصي الموضوع على الطاولة. هنا ساقاي، وهنا الباب . اذن لماذا يطول ويرتفع هذا الـ : بيتي ـ بيتي ، بيتي ـ بيتي ، اي ـ تي ـ تي ـ اي ـ بيتي ، بيتي ، بيتي .. » وصرخ الأمير آندرية بصوت ناحب وكأنه يتوسل الى أحدهم : « كفى ، كف ، أرجوك ، توقف ». ثم عادت فجأة أفكار ومشاعر ذات قوة وجلاء خارقين .

حدث نفسه وهو في اشراق فكري عميق : « نعم ، الحب . ليس هذا الحب الذي يعرف غايته ودوافعه أو سببه ، ولكن ذاك الذي أحسست به لأول مرة حينما رأيت عدوي وأنا على شفا الموت ، فاحببته رغم العداء . لقد شعرت حينذاك بذلك الاحساس الذي هو جوهر روحنا بالذات والذي لايحتاج الى غرض . والآن أيضاً أحس بهذا الشعور الهنيء . حب الآخرين ! حب أعداء

المرء ! حب كل شيء ، هو حب الله في كل مظاهره . حب مخلوق عزيز انما هو حب اختص به الانسان . ولكن حب العدو انما هو حب سماوي مجرد . ولهذا السبب أحسست بتلك البهجة الكبرى عندما شعرت بأنني أحب ذلك الرجل . ماذا حدث له ؟ هل مات ؟

« ان يحب المرء حباً انسانياً ، معناه ان ينتقل من الحب الى الكراهية في حين الحب السماوي لايتبدل . مامن شيء حتى ولا الموت يستطيع ان يحطمه . انه جوهر الروح . كم من الناس كرهتهم طيلة عمري مع ذلك فانني لم احبب أحداً ولم اكره أحداً بقدر ما أحببتها وكرهتها . » وتصور ناتاشا بقوة ليس كما يتصورها من قبل بتلك الفتنة وحدها التي سحرته بل تصور لأول مرة روح ناتاشا . فأدرك عواطف الفتاة وألمها وخجلها وندمها . شعر الآن بكل قسوة رفضه ورأى للمرة الاولى قسوة فصمه علاقاته معها . « ليتني أستطيع رؤيتها من جديد مرة واحدة مرة واحدة أرى فيها عينيها وأقول لها .. »

« بيتي - بيتي ، بيتي - بيتي ، بوم ! » واصطدمت الذبابة من جديد . وفجأة انتقل انتباهه الى عالم آخر من الحقائق والتخيلات كان شيء ما خاص يقع فيه . لقد كان بناء آخر يرتفع في هذا العالم ايضاً دون ان ينهار ، بناء يكبر باستمرار وان كانت الشمعة نفسها تحترق فيه أيضاً وسط دائرتها الحمراء والقميص أبو الهول نفسه ينتصب عند الباب . الا انه الى جانب كل ذلك ، ارتفعت خشفة ونفحة هواء عليل ثم ابو هول جديد ابيض منتصب ظهر أمام الباب . وكان ابو الهول هذا شاحب الوجه ملتمع العينين اشبه بناتاشا هذه التي كان يفكر فيها منذ حين .

فكر الأمير آندريه وهو يحاول طرد هذا الوجه من مخيلته : « اوه ! كم هو اليم هذا الهذيان المستمر ! » لكن ذلك الوجه ظل هناك بكل ما للحقيقة من

قوة وراح ذلك الوجه يقترب . أراد الأمير آندريه ان يعود الى عالم الفكر النقي الذي بارحه منذ حين لكنه لم يقدر لشدة ما كان الهذيان يجره الى قطاعه . تابع الصوت الهادىء الهامس دمدمته الايقاعية وضيق عليه شيء ما وجسمه وظل الوجه الغريب ماثلاً أمامه . استجمع الأمير آندريه كل قواه ليتمالك نفسه وانتفض لكن اذنيه دوتا فجأة واضطربت عيناه وفقد الرشد أشبه برجل على وشك الغرق وعندما عاد الى وعيه ، كانت ناتاشا ، ناتاشا نفسها ، تلك التي كان يود ان يحبها من دون خلق الله طرا بذلك الحب الجديد النقي السماوي الذي تنزل عليه ، راكعة على ركبتيها أمام سريره . ادرك انها ناتاشا الحقيقية بلحمها ودمها ، فابتهج ابتهاجاً رقيقاً بدلاً من ان يندهش . وكانت ناتاشا راكعة على ركبتيها مرتعدة من الخوف ولكن ساكنة ـ اذ كانت عاجزة عن الحركة ـ تنظر اليه وهي تحبس نحيبها ووجهها شاحب وكأنه جامد باستثناء الرعدة التي تمر بالفك الاسفل .

اطلق الأمير آندريه زفرة ارتياح ومد لها يده وابتسم وقال :

ـ هذا انت ؟ يا للسعادة !

اقتربت منه ناتاشا على ركبتيهـا بقوة واحتراس وامسكت يده برفق واحنت رأسها فوقه ثم قبلتها وهي لا تكاد تلمسها بشفتيها . قالت لاهثة وهي ترفع رأسها وتنظر اليه :

ـ صفحاً ! اصفح عني !

قال الأمير آندريه .

أحبك !

صفحاً ..

سأل الأمير آندريه :

ـ اصفح عن أي شيء ؟

فقالت ناتاشا بصوت متقطع لا يكاد يسمع :

– اصفح عني عما .. عملت .

وغمرت يده بقبلات مترفقة . فقال الأمير آندريه :

– أحبك اكثر بكثير وافضل بكثير مما كنت احبك من قبل .

ثم رفع وجهها بيده ليتسنى له ان يتأمل عينيها .

كانتا مغمورتين بدموع السعادة ، تانك العينان اللتـان راحتا تنظران اليه بخجل مفعمتين بالحنو والفرح والحب . كان وجه ناتاشا النحيل ذو الشفتين المنتفختين ابعد من ان يكون جميلاً بل مخيفاً . لكن الأمير آندريه ما كان يراه بل كان ينظر الى تينك العينين اللامعتين اللتين كانتا آية بالجمال . ومن ورائهما ، ارتفعت جلبة أصوات .

لقد ايقظ بيير الوصيف ، الذي تخلص تمامـاً من سلطان النوم ، الطبيب بدوره . اما تيموخين الذي كان جرح ساقه يمنعه من النوم ، فقد كان يرى كل ما يحدث منذ امد طويل . ولقد اعاد الغطاء بعناية على جسده المعرى وتكور على قدر طاقته فوق مقعده .

قال الطبيب وهو يغادر مرقده :

– ما هذا ؟ تفضلي بالخروج يا آنسة .

وفي تلك اللحظة ، طرقت الباب خادم ارسلتها الكونتيس لتبحث عن ابنتها .

خرجت ناتاشا من الغرفة كالمصاب بمرض السير أثناء النوم الذي أوقظ من نومه العميق . فلما دخلت الكوخ الآخر ، سقطت على مرقدها منتحبة .

ومنذ ذلك اليوم ، وطيلة الفترات التوقف والمراحل التي مرت بها رحلة آل روستوف الطويلة ، لم يترك ناتاشا الجريح حتى اضطر الطبيب الى الاعتراف بأنه ما كان يعتقد قط انه واجد فتاة على مثل تلك الحيوية وتلك البراعة في معالجة الجرحى .

ومهما بلغت فكرة امكان موت الأمير آندريه بين يدي ابنتها خلال السفر بالنسبة الى الكونتيس ، وهو أمر ممكن الوقوع تبعاً لرأي الطبيب ، فانها لم تقدر على منع ناتاشا من التصرف وفق رغبتها . وكان تقارب الأمير آندريه الجريح من ابنتها ، يحمل في اعطافه امكانية عودة علاقات الخطوبة الى سابق عهدها عند الشفاء . لكن مامن أحد كان يشير الى ذلك ، بل ان ناتاشا والأمير كانا اقل الناس تفكيراً في مثله . لقد كان شاغل واحد يحتكر الانتباه العام : مسأله موت أو حياة معلقة ليس فوق رأس بولكونسكي فحسب ، بل فوق روسيا كلها .

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

الحريق

استيقظ بيير في الثالث من ايلول متأخراً جداً وهو يحس بصداع في رأسه وبدت له ملابسه التي لم يخلعها قبل النوم ، ثقيلة جداً بينما أبهظته موجة غامضة تشعره بان ارتكب بالأمس شيئاً مخجلاً . وكان ذلك الشيء هو حديثه مع الرئيس رامبال .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة . لكن الجو في الخارج بدا معتماً بشكل خاص . نهض بيير وفرك عينيه . فلما رآى المسدس ذا المقبض الملبس الذي أعاده جيراسيم الى مكانه على المكتب ، تذكر بيير المكان الذي هو فيه وما قرر ان يقوم به ذلك اليوم بالذات .

فكر : « الست متأخراً ؟ كلا . « انه » لن يدخل موسكو على مايبدو قبل الظهر . »

لم يسمح بيير لنفسه بعدئذ ان يفكر في مهمته بل راح يتعجل الانتقال الى العمل بسرعه المحوم .

وبعد ان ادخل بعض النظام على البسته ، اخذ المسدس واستعد للذهاب . لكنه في تلك اللظحة تساءل للمرة الاولى كيف عليه ان يحمل سلاحه الذي ما كان يستطيع الاحتفاظ به في يده في الشارع . كان يستحيل عليه اخفاء مسدس من هذا العيار حتى تحت معطفه الواسع . ما كان يستطيع وضعه في منطقتة ولا

تحت ابطه دون ان يكون ملحوظاً . ثم ان المسدس كان فارغاً ولم يجد بيير وقتاً كافياً لاعادة حشوه . حدث نفسه رغم انه قال لنفسه اكثر من مرة وهو يفكر في مشروعه انخطيئةالطالب الرئيسية عام ١٨٠٩ كانت لجوءه الى الخنجر في محاولته قتل نابوليون : « سوف يفي الخنجر كذلك بالغرض » . لكن غاية بيير الحقيقية كانت في واقع الحال البرهان لنفسهبانه لن يتراجع عنغرضه بل انه بسبيل عمل كل شيء لانجازه على افضل وجه اكثر مما كانت انجاز خطته نفسها. اخذ بيير بسرعة خنجراً رديئاًمثلماً في غمد اخضر اشتراه معالمسدس في وقت واحد من برج سوخاريف واخفاه تحت صدرته .

اجتهد بيير ان يسير دون جلبة وان يتحاشى الرئيس بعد ان جذب نطاق معطفه جيداً وأرخى قلنسوته على عينيه ، فاجتاز الممشى ونفذ الى الشارع .

ولقد اتخذ الحريق الذي لم يأبه له مطلقاً مساء أمس ، شكلاً جدياً اذ كانت موسكو تحترق فعلاً من نقاط عديدة . كان الحريق مستقراً بآن واحد في أروقة صانعي العربات وفي الحي المقابل وفي جوستيني دفور ، فيبوفارسكايا بين الاكواخ الخشبية القائمة على نهر موسكفا وفي « ورشات » الخشب قرب جسر دوروجوميلوف .

وكان الطريق الذي يريد بيير السير فيه ، يقوده عبر شوارع ضيقة ابتداء من بوفارسكايا ثم عبر الآربات نحو كنيسة القديس نيكولا . اذ كان ذلك هو المكان الذي عينه في خياله منذ زمن طويل ليقوم فيه بعمله . كان الجانب الاكبر من البيوت مغلق النوافذ، والابواب والشوارع والازقة كانت خالية ، والهواء مفعم برائحة الحريق والدخان . وهنا وهناك ، كان المرء يقابل روسيين على وجوههم امارات الذعر والقلق وجنوداً فرنسيين تظهر القحة على وجوههم يحتلون وسط الشارع ، فكان اولئك وهؤلاء يصوبون الى بيير نظرات حافلة

بالدهشة . كان مايدهش الروسيين ، اضافة الى قامته المديدة وبنيانه المتين وامارات وجهه المعذبة المركزة بشكل غريب مثل مجموع شخصيته ، استحالة قدرتهم على تحديد البيئة التي ينتمي اليها هذا الرجل . في حين ان الفرنسيين كانوا يتابعونه باعينهم لانه بدلاً من ان ينظر اليهم بفضول ممتزج بالرعب ككل مواطنيه ، ما كان يعيرهم التفاتا . وامام احد البيوت ، استوقف ثلاثة من الفرنسيين كانوا يتحدثون مع روسيين دون ان يفهم هؤلاء عليهم ، بيير ليسألوه عما اذا كان يعرف الفرنسية .

اشار بيير برأسه ان لا وتابع طريقه ، وفي زقاق آخر ، صاح بـه حارس واقف الى جانب صندوق خشبي مطلي بالأخضر وقال شيئاً . فلم يفهم بيير ان عليه ان يعمد الى الجانب الآخر من الشارع الا عندما كرر الحارس امره المتوعد ورآه يصلي بندقيته . لم يكن منتبهاً الى ماحوله بل كان يحمل فكرته في نفسه وكأنها شيء غريب خطير ، يحملها بعجلة وهول وهو يخشى - بعد تجربته في الليلة السالفة - ان يفقدها نهائيا ، ولكن لم يكن مقدراً على بيير ان يحتفظ بتلك الحالة النفسية سليمة حتى يبلغ المكان الذي اتجه اليه . بل انه حتى ولو لم يستوقفه احد ، فان فكرتـه ما كانت لتتحقق لان نابوليون كان منذ اكثر من اربع ساعات قد اجتاز ضاحية دوروجوميلوف عن طريق الآربات متجهاً الى الكريملن مباشرة ، وكان في تلك اللحظة يحتل مكتب القيصر في قصر الكريملن وهو في اسوأ حالاته الفكرية ويعطي الاوامر المفصلة لاطفاء الحريق فوراً ومنع النهب وتهدئة روع السكان . لكن بيير ما كان يعرف شيئاً من ذلك ، كان مستغرقاً في الحادث المستعجل ، يعذب نفسه على شاكلة العنيدين الذين يحاولون المستحيل ليس بسبب صعوبة العمل نفسه بل لان طبيعة العمل منافية لطبعـه ولانه يخاف ان يضعف في اللحظة الحاسمة فتنحط قيمته بالتالي بنظر نفسه .

وعلى الرغم من انه لم يسمع شيئاً من كل مايدور حوله ، فانه كان يتبع بالغريزة الطريق التي اختطها لنفسه دون ان يخطيء في متاهة الازقة المؤدية الى بوفارسكايا .

وكلما اقترب من بوفارسكايا ، كلما ازداد الدخان وشعر الانسان بحرارة الحريق ، ومن حين الى آخر كانت ألسنة من اللهيب تنبعث من سقوف المنازل واصبح اللقاء بالناس كثيراً واتسمت الوجوه بطابع ظهر فيه الذعر باكثر جلاء لكن بيير رغم شعوره المكين بان شيئاً ما خارقاً يحدث حوله ، لم يكن منتبهاً الى انه يسير مباشرة نحو الحريق ، وبينما هو يجتاز ممراً يخترق أرض خواء واسعة متصلة من جانب ببوفارسكايا ومن الآخر بحدائق نزل الأمير جروزينسكي ، سمع بيير بجانبه فجأة صيحة يائسة تطلقها امرأة فتوقف وكأنه افاق من حلم ورفع رأسه .

تناثرت خارج الممر ، على الحشائش المغبرة الجافة قطع من الاثاث : فرس وسماور وايقونات وصناديق . وعلى الارض بجانب الصناديق ، جلست امرأة ناحلة في مفترق سنين ، ذات اسنان امامية طويلة ، مرتدية معطفاً طويلاً اسود تضع على رأسها قلنسوة ، راحت هذه المرأة تتمايل وهي تدمدم بشيء ما وتبكي بكاء سخياً ، بينما راحت فتاتان احداهما في العاشرة والثانية في الثانية عشرة مرتديتان اثواباً قصيرة متسخة ومعطفين صغيرين مبطنين بالفراء ، تنظران الى امهما وعلى وجهيهما الشاحبين المروعين امارات الذهول . وكان غلام اصغر سنا في حوالي السابعة من عمره ، ملفوف بمعطف طويل وقبعة ذات حافة واحدة ، عريضة جداً ، يبكي بين ذراعي مربيته العجوز . وجلست خادم قذرة على صندوق حافية القدمين وقد فردت شعرها الاشقر وراحت تنتزع منه شعرات مغبراء اللون كانت ترفعها الى انفها . اما الزوج ، وكان رجلاً قصيراً محدودب الظهر

في بزة موظف صغير ، ذا سالفين طويلين وشعر مصقول جيداً على الصدغين بارز من قبعة وحيدة الطرف موضوعة على رأسه باتزان ، فقد راح يحرك الصناديق الموضوعة الواحدة فوق الاخرى ، غير بادىء التأثر ، بحثاً عن بعض الاسمال . ألقت المرأة بنفسها على قدمي بيير تقريباً عندما شاهدته وصرخت خلال عبراتها :

– ايها الناس البواسل ، أيها المسيحيون ، انقذونا ، ساعدونا !.. سيدي العزيز ؟.. كن من كنت ، ساعدنا ! ابنتي الصغرى !.. ابنتي !.. اصغر بناتي لقد تركت !.. لقد احترقت ! اوه ، اوه ، اوه ! اوه ! ألأجل هذا هدهدتك كل هذا الوقت .. اوه ، اوه ، اوه !

فقال الزوج بصوت هادىء اتخذه لاريب ليبرر تصرفه أما غريب :

– هدئي روعك ياماري نيكولاييفنا . لاريب ان اختك حملتها معها .

ثم أضاف :

– والا ، فاين يمكن ان تكون ؟

فصرخت المرأة بحقد وقد كفت فجأة عن البكاء :

– ايها المغفل ، ايها الوحش ! انك عديم القلب . انك لاتأسف على ابنتك بجرد أسف . لو كان غيرك مكانك لانقذها من النار . ان هـــذا الغبي ليس رجلاً ولا أباً .

ثم قالت لبيير وكلماتها تتلاحق وهي تنشج :

– انت ، انت قلب نبيل انت . لقد شبت النار بجانبنا ثم بلغت مسكننا . ولقد صاحت الوصيفة : شب الحريق ! فاندفعنا نجمع حاجاتنا . ولقد فررنا بما نحمله على أنفسنا .. هذا مااستطعنا حمله ،.. الايقونة ، وسرير زواجي وكل ما عدا ذلك ضاع . أخذت الأطفال ، واذا بكاتيا غير موجودة . اوه ، اوه ، اوه ! ياربي !..

وعادت تنتحب :

ـ لقد احترقت صغيرتي الوديعة ، احترقت !

سألها بيير :

ـ ولكن اين ظلت ؟

ادركت تلك المرأة من امارات وجهه المحتدة ان هـذا الرجل قادر على مساعدتها فراحت تتوسل اليه وهي تحيط ساقيه بذراعيها :

ـ ياسيدي الطبيب ! ياأبي ! يامحسني ، أرح قلبي على الأقل !.. ـ وصرخت بالوصيفة : ـ انيسكا ، أيتها الفتاة القذرة ، اذهبي ودليه .

وفتحت وهي تصرخ فماً مكشراً كشف عن أسنانها الطويلة فبادر بيير يقول لها بصوت لاهث :

ـ قوديني ، سوف .. سوف أعمل جاهداً .

خرجت الوصيفة القذرة من وراء صندوقها وسوت ضفيرتهـا وزفرت ثم سارت في المقدمة فوق الممر عارية القدمين ؟ وكان بيير أشبه بالرجل الذي عاد الى الحياة بعد اغماء طويل . نصب رأسه والتمعت عيناه من جديد ببريق الحياة وراح يتبع الفتاة بخطى حثيثة حتى أدركها وبلغ بوفارسكايا . كان الشارع ممتلئاً بسحابة كثيفة سوداء وألسنة من النار تنبعث من بعض جنباتها وجماعة من الناس تجمهرت عند مشارف الحريق . وفي وسط الطريق ، كان جنرال فرنسي يقول شيئاً ما للمحيطين به . كاد بيير الذي تقوده الخادم ان يقترب من المكان الذي وقف فيه الجنرال . لكن الجنود الفرنسيين أوقفوه وصرخوا به :

ـ ممنوع المرور !

قال الخادم :

ـ من هنا ياعماه ، سنسير في هذا الزقاق لنجتاز فناء آل نيكولين .

عاد بيير على أعقابه وراح يوسع الخطى أحياناً ليلحق بالخـادم . اجتازت الشارع ركضاً ثم سارت الى اليسار عبر الزقاق واجتازت ثلاثة بيوت ثم انعطفت يميناً واجتازت باباً . قالت مفسرة :

– سنصل بعد قليل .

وبعد ان اجتازا الفناء جرياً ، فتحت باب سياج وأومأت الى بيير تدله على جناح من الخشب كان يلتهب بنار عنيفة وينشر حرارة قوية . وكان جانب كامل من الجناح منهاراً بينما كان الجزء الآخر ملتهباً كله واللهب المضيء الملتمع يخرج من فتحات النوافذ والسقف .

توقف بيير رغماً عنه عندما اقترب من باب الفناء وقـــد كادت الحرارة ان تخنقه وسأل :

– أي بيت ، أي بيت بيتكم ؟

زمجرت الخادم وهي تشير الى الجناح :

– اوه ، اوه ، اوه ! ها هو ذا ، هـذا هو بيتنا الصغير . وأنت في النار يا كاتنكا ، يا كنزنا ، يا آنستي الصغيرة العزيزة ! اوه ! اوه ، اوه ؟

وراحت آنيسكا تزمجر وهي تشعر بوجوب اظهار مشاعرها هي الاخرى أمام الحريق .

انطلق بيير نحو الجناح . لكن الحرارة كانت من الشدة بحيث اضطر الى ان يلتفت حوله فوجد نفسه قرب مسكن كبير كان جانب واحد من السقف يحترق وحوله جمهور غفير من الفرنسيين . لم يفهم بيير بادىء الأمر ماذا كان اولئك الفرنسيون يعملون هناك . لقد كانوا يجرون شيئاً ما لكنه لما رأى احدهم يضرب بعرض سيفه احد القرويين ويسلبه معطفه المبطن بفراء الثعلب ، ادرك انه ازاء جماعة من السلابين . مع ذلك ، فانه لم يجد الوقت الكافي للتعمق في تفكيره حول النقطة .

اثارت الطقطقة وقرقعة الجدران والسقوف المنهارة وصفير النار وشخيرها وهتافات الجمهور ومشهد زوابع الدخان التي تنتشر كثيفة سوداء تارة وترتفع مضيئة مشعة تارة اخرى ، ورؤية اللهب ينتقل من جدار الى آخر ، احمر كثيفاً اشبه بالعرم ، والاحاسيس التي سببتها الحرارة والدخان والجري كل ذلك اثار في نفس بيير الانفعال الذي تحدثه الحرائق عادة في نفوس الاطفال بل انه كان اشد قوة في نفسه حتى انه أحس فجأة بخلاصه من الافكار التي كانت متسلطة عليه . وجد نفسه من جديد فتياً مرحاً حاذقاً . دار راكضاً حول الجناح من جانب المسكن الكبير وأراد ان يندفع الى الجزء الذي مازال قائماً عندما سمع فوق رأسه تماماً عدداً من الاصوات تصيح ثم ، على الأثر ، قرقعة شيء وجلبة سقوط جسم ثقيل بالقرب منه .

رفع بيير عينيه فشاهد فرنسيين القوا منذ فترة بقمطر ممتلىء بالأدوات المعدنية بينما اقترب جنود فرنسيون آخرون كانوا في الاسفل نحو القمطر الملقى من عل .

صاح أحدهم وهو يرى بيير :

ـ حسناً ، ماذا يريد هذا ؟

سأل بيير :

ـ طفل في هذا البيت . ألم تشاهدوا طفلاً ؟

هتفت اصوات كثيرة :

ـ هه ، ماذا ينفق هذا ، ؟ امض في سبيلك .

وتقدم أحد الجنود نحو بيير متوعداً وقد خشي بلا ريب ان تكون غايته استعادة الفضيات وموجودات القمطر من البرونز منهم .

صرخ احد الفرنسيين من الأعلى :

ـ طفل ؟ لقد سمعت شيئاً يصرخ في الحديقة . لعله صبي الرجل . يجب ان يكون المرء انسانياً ، ويحكم . .

سأل بيير :

- أين هو ؟ أين هو ؟

هتف به الفرنسي الواقف عند النافذة وهو يشير الى الحديقة وراء البيت :

- من هنا ! من هنا ! انتظر ، سوف انزل اليك .

وفي الواقع لم تمض ثوان ، حتى قفز الفرنسي من نافذة الدور الارضي وكان فتى في مقتبل العمر أسود العينين ، يحمل شامة على وجنته ، يرتدي قميصاً دون سترته ، ووكز بيير في كتفه وقاده الى الحديقة . صاح يخاطب رفاقه :

- أسرعوا انتم كذلك ، بدأت الحرارة تزيد .

اندفع مع بيير وراء البيت عبر ممشى مفروش بالرمال وفجأة جذب الفرنسي بيير من ذراعه وأراه شيئاً مستديراً . كان ذلك الشيء طفلة في الثالثة من عمرها في ثوب وردي مسجاة فوق مقعد .

قال الفرنسي :

- هذا طفلك . آه ! طفلة ! هذا أفضل . الى اللقاء ايها الرجل الضخم . يجب ان نكون انسانيين وكلنا مائت كما ترى .

وجرى الفرنسي ذو الشامة للحاق برفاقه .

اندفع بيير وهو يلهث من الفرح نحو الصبية وأراد ان يحملها بين ذراعيه . ولكن عندما شاهدت الطفلة المصابة بداء الخنازير ذات الوجه المريض الشبيهة بأمها رجلاً غريباً ، راحت تصرخ وأرادت ان تفر . وفي تلك الاثناء ، كان بيير قد لحق بها وحملها بين ذراعيه فصرخت بصوت شرس يائس وراحت تتخبط محاولة بيديها الصغيرتين ان ترغم بيير على التخلي عنها بل حاولت كذلك ان تعض يديه . ولقد استولى على بيير شعور بالروع والاشمئزاز شبيه بذلك الذي يعتلج في صدره اذا لمس حيواناً ماتتقزز منه النفس . لكنه بذل مجهوداً ليسيطر

على نفسه كيلا يطرح الطفل وعاد يجري وهو يحمل حمله نحو البيت الكبير . لم يعد حينذاك ممكناً ان يمر من الطريق نفسه كما ان انيسكا كانت قـد اختفت . فضم الفتاة المبللة الباكية الى صدره بأقصى مايستطيعه من حنان وهو مفعم النفس بالأشفاق بقدر ما فيها من اشمئزاز ، واندفع عبر الحـــديقة يحاول ايجاد مخرج جديد .

★ ★ ★

الفصل الرابع والثلاثون

اعتقال بيير

بعد ان اجتاز بيير جارياً عدداً من الافنية والازقة ، عاد بحمله نحو حديقة جروزينسكي عند زاوية بوفارسكايا ، لم يتعرف للوهله الاولى على النقطة الذي ذهب منها بادىء الأمر باحثاً عن الفتاة لكثرة ما تراكمت هناك من أمتعة جُرت خارج البيوت وما اجتمع من أشخاص هناك . كان هناك فضلاً عن الاسر الروسية المجتمعة بالقرب مما أمكن انقاذه من البيوت المحترقة ، عدد من الجنود الفرنسيين في أزياء مختلفة فلم يعبأ بيير بهم مطلقاً . كان متلهفاً للعثور على اسرة الموظف واعادة الصغيرة الى امها ثم العودة من جديد للمساهمة في أعمال الانقاذ . وكان يخيل اليه ان أمامه كثيراً مما يجب ان يعمل وان الوقت يدركه . ولقد بعثت النيران والجري الدفء في أوصال بيير فشعر بذلك الاحساس الفتي بأكثر قوة في تلك اللحظة مشفوعاً بالعزم والحماس ، ذلك الاحساس الذي استولى عليه بادىء الأمر عندما انطلق للبحث عن الطفلة . أصبحت الفتاة هادئة الآن وقد تشبثت بمعطف بيير بيديها الصغيرتين وقبعت فوق ذراعه وراحت تنظر حولها بعيني حيوان صغير متوحش . ومن حين الى آخر ، كان بيير يتأملها وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . كان يخيل اليه ان يرى لوناً من البراءة يثير الشفقة في تقاسيم هذه الطفلة المريضة المروعة .

لم يبق الموظف وزوجته في مكانهما الاول،لذلك فقد راح بيير يسير بخطوات واسعة وهو يتفحص وجوه الجماعات التي يمر بها . لم يستطع الامتناع عن النظر الى اسرة أرمنية مؤلفة من كهل في سن متقدمة جداً ذي مظهر شرقي جميل يرتدي « فروة » مبطنه وأحذية جديدة وعجوز في مثل ذلك السن وامرأة شابة . كانت هذه لاتزال في مقتبل العمر بدت لبيير نموذجاً للجمال الشرقي الكامل بحاجبيها الاسودين المقوسين الواضحين ووجهها الطويل الجميل ذي اللون الوردي النضير الخالي من أي تعبير ، فكانت بين هذه الاشياء المبعثرة وذلك الجمهور من الناس على تلك الساحة ، في « فروتها » الثمينة « الساتان » والوشاح البنفسجي الصارخ الذي يغطي رأسها ، أشبه بنبتة دقيقة ملقاة على الثلج . كانت جالسة على بعض الرزم الى وراء المرأة العجوز قليلاً تحدق الى الارض بعينين سوداوين كبيرتين لوزيتين تظللهما اهداب طويلة . وكان يرى انها شاعرة بجمالها خائفة عليه . ولقد استلفت وجهها نظر بيير الذي رغم تعجله في السير على طول أحد الحواجز ، لم يتمالك الا ان يلتفت اكثر من مرة . ولما بلغ نهاية الحاجز ولم يجد من يبحث عنهم في أي مكان ، توقف بيير وهو في حيرة .

ولقد بات هذا الرجل طويل القامة الذي يحمل طفلة بين ذراعيه يلفت النظر اكثر من ذي قبل ، فلم يلبث بعض الروسيين بين رجال ونساء ان التفوا حوله . سألوه :

– هل أضعت أحداً ايها الرجل الباسل ؟ انت نبيل اليس كذلك ؟ لمن هذه الطفلة ؟

اجاب بيير بان الطفلة لأمرأة ترتدي « فروة » سوداء كانت جالسة مع أولادها في هذا المكان وسأل عما اذا كان احد يعرفها او يستطيع ان يقول الى أين ذهبت .

قال شماس عجوز يخاطب امرأة مجدورة :

– لابد وان يكونوا آل انفيروف . ايها المولى ، اشفق علينا .

ثم كرر بصوته الخافت الاعتيادي :

– ايها المولى ، اشفق علينا !

اجابت المرأة :

– اين هم آل انفيروف ؟ لقد رحلوا هـذا الصباح . لابد وانها لماري نيكولايفنا أو لآل ايفانوف .

قال خادم مفسراً :

– لقد قال امرأة . وماري نيكولايفنا سيدة .

قال بيير :

– لابد وانكم تعرفونها . امرأة نحيلة ذات أسنان طويلة .

قالت المرأة وهي تشير الى جنود فرنسيين :

لكنها ماري نيكولايفنا نفسها . لقـد هربوا الى الحديقة عندما انقض هؤلاء الذئاب عليهم .

ردد الشماس :

– ايها المولى ، اشفق علينا !

وقالت امرة اخرى :

– مر من هنا ، خذ ، انهم هناك . ها هي ذى بالذات ! انها لم تكف عن التأوه والبكاء . انها هي نفسها ، من هنا .

لكن بيير ما كان يصغي الى المرأة . لقد كان منذ بضع توان لايرفع عينيه عما يدور على قيد بضع خطوات منـه . كان ينظر الى الاسرة الارمنية وقد اقترب منها جنديان فرنسيان . كان احدهما قصير القامة ، حافي القدمين يرتدي معطفاً أزرق ويتمنطق بقطعة حبل وعلى رأسه قلنسوة من الفراء . اما

الآخر ، وهو الذي اجتذب انتباه بيير بصورة خاصـــة ، فطويلاً اشقر نحيلاً محدودب الظهر بطيء الحركات بادي الغباء ، يلبس معطفاً من نسيج صوفي خشن وسراويل زرقاء واحذية عالية ممزقة . اقترب الفرنسي القصير حافي القدمين ذو المعطف الازرق من الأرمن وقال شيئاً وهو يشير الى ساقي الكهل الذي سارع الى حذائيه يخلعها . اما ذو المعطف الخشن ، فقد وقف امام الفتاة الارمنية الجميلة جامداً لا ينبس ببنت شفة ويداه في جيبه وراح يتأملها .

قال بيير للمرأة وهو يقدم اليها الفتاة بعجلة بحركة لا رد فيها :

- خذي ، خذي هذه الطفلة .

وصرخ وهو يضع الفتـــاة على الارض دون ان يحول عينيه عن الاسرة الارمنية والفرنسيين :

- ستعيدينها اليهم ، هه ؟

كان الكهل قد خلع حذائيه وقد نزع الفرنسي الصغير الفردة الثانية من ساقه وراح يضرب بها الاولى . وراح الكهل يغمغم بكلام والدمعة تترقرق في عينيه لكن بيير لم يلق على هذا المشهد الا نظرة سريعة . كان يراقب الفرنسي الآخر ذا المعطف الخشن الذي اخذ في تلك اللحظـة يقترب من الفتاة متأرجحاً ببطء ثم يخرج يديه من جيبه ويمسك بعنقها .

وكانت الارمنية الحسناء لا تزال جامدة وأهـدابها الطويلة مسبلة وكأنها لا ترى ولا تشعر بما يفعل الجندي .

وبينما كان بيير يجتاز الخطوات القليلة التي تفصله عن الفرنسيين ، كان السلاب الطويل ذو المعطف الخشن قد نزع من عنق الارمنية عقداً كان يحلي جيدها فرفعت الشابة يديها الى عنقها وراحت تطلق صيحات ثاقبة .

زمجر بيير غاضباً وهو يطبق على الجندي الطويل المحدودب من كتفيه ويدفعه بعنف :

– دع هذه المرآة .

سقط الجندي ثم نهض وفر بأقصى سرعة . لكن زميله القى بالحذائين على الأرض وامتشق حسامه وتقدم الى بيير متودعاً وصاح :

– هه ، كف عن الحماقات .

كان بيير حينذاك يتلظى باحدى سوراته التي يفقد معها اتزانه وتتضاعف قواه عشرة أمثالها . القى بنفسه على الفرنسي حافي القدمين قبل ان يتيح له الوقت ليرفع سيفه فالقاه أرضاً وانهال عليه لكماً . وانطلقت من حناجر الجمهور صرخات مشجعة . ولكن في تلك اللحظة ، ظهرت دورية من الفرسان عند منعطف الشارع ، انطلقوا خبباً على جيادهم وأحاطوا بيير والفرنسي . ولقد أضاع بيير ذكرى ماحدث فيما بعد . تذكر بغموض انه ضرب أحدهم وانهم ضربوه ثم أوثقوا يديه فيما بعد . وراء ظهره ثم شرع الجنود الملتفون حوله في تفتيشه .

كانت الكلمات الاولى التي وعيها بيير :

– انه يحمل خنجراً ايها الملازم .

قال الضابط الذي راح يخاطب الجندي عاري القدمين :

– آه ! سلاح . هذا أحسن . ستقص هذا على المحكمة العسكرية .

ثم استدار الى بيير وأضاف :

– هل تتكلم الفرنسية انت ؟

سرح بيير حوله عينيه المحقونتين بالدم . ولم يجب . ولا بد ان وجهه لم يكن يوحي بالطمأنينة اذ همس الضابط كلاماً في اذن احد الفرسان ، فانفصل أربعة من الكوكبة ليحيطوا بيير .

كرر الضابط وهو يقف على مسافة من بيير :

– هل تتكلم الفرنسية ؟ احضروا المترجم .

خرج من الصفوف رجل في ثوب مدني عرف فيه بيير على الفور من ثوبه وحديثه فرنسياً في احد مخازن موسكو . قال المترجم بعد ان حدج بيير :

ـ لايبدو عليه انه من أبناء الشعب .

فهتف الضابط :

ـ اوه ، اوه ! يبدو عليه انه واحـــد من اولئك الذين دأبوا على اشعال الحرائق .

ثم أردف :

ـ سله من يكون .

سأل المترجم بصيغة المفرد :

ـ من أنت ؟ يجب ان تجيب على اسئلة السلطة .

قال بيير فجأة بالفرنسية :

ـ لن أقول لكم من أنا . انني سجينكم ، فخذوني .

هتف الضابط وهو يزوي حاجبيه :

ـ آه ! آه ! لنمش !

تجمهر الناس حول الفرسان وباتت المرأة المجدرة مع الطفلة الصغيرة قريبة جداً من بيير . فلما تحرك الموكب ، تبعته . قالت :

ـ الى أين يأخذونك ايها الرجل الباسل ؟ والصغيرة ، ماذا أصنع بها اذا لم تكن لهم ؟

سأل الضابط :

ـ ماذا تريد هذه الأمرأة ؟

شعر بيير انه أشبه بالسكران وتعاظم حماسه لمرآى الصغيرة التي أنقذها . قال :

ـ ماذا تقول ؟ انها تحمل ابنتي التي انقذتها من الحريق . وداعاً !

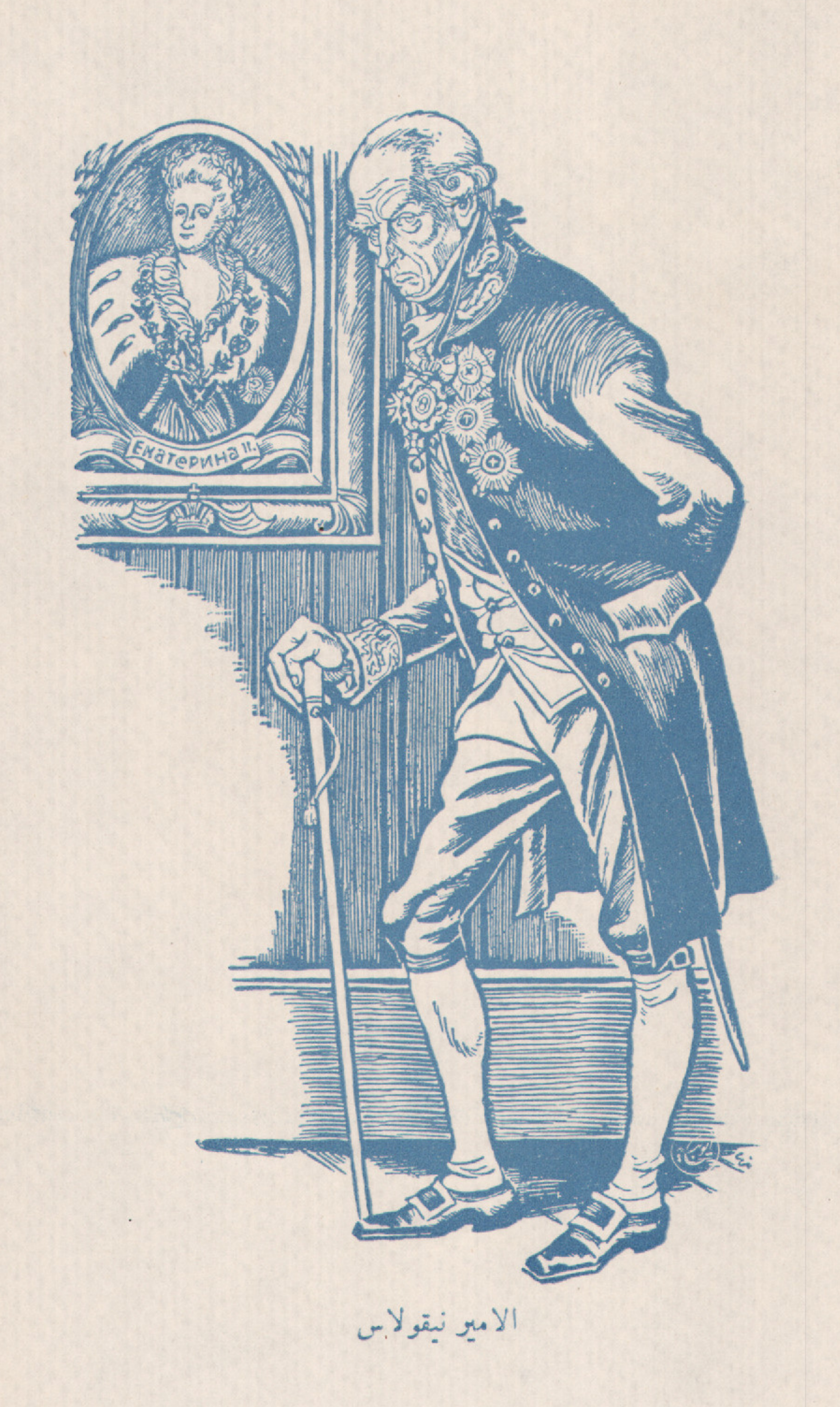
ودون أن يدري سبباً لهذه الكذبة غير المجدية التي افلتت منه ، ابتعد مع حراسه بخطى مهيبة حازمة .

كانت تلك الدورية واحدة من كثير نظمها دوروسنل وارسلها الى مختلف أحياء موسكو لتقمع السلب ولتضع يدها على الأخص على مشعلي الحرائق الذين كانوا -- بحسب الرأي العام المقبول من القيادة الفرنسية العليا ، يتعمدون أحراق المدينة . وقد أوقفت الدورية وهي تجتاز عدداً من الشوارع خمسة مشبوهين آخرين : صاحب حانوت ، طالبان في معهـد ديني ، قروي وخادم فضلاً عن بعض السلابين . لكن الرجل الذي بدا اكثر قابلية للشبهة كان بيير . قادوهم لقضاء تلك الليلة في بيت كبير عند حاجز زوبوفو حيث اقيمت هناك وحـدة من الحرس . لكن بيير عزل عن الآخرين وبات موضع رقابة صارمة .

« انتهى المجلد الثالث »



ليوتولستوي ، عـام ١٩١٠



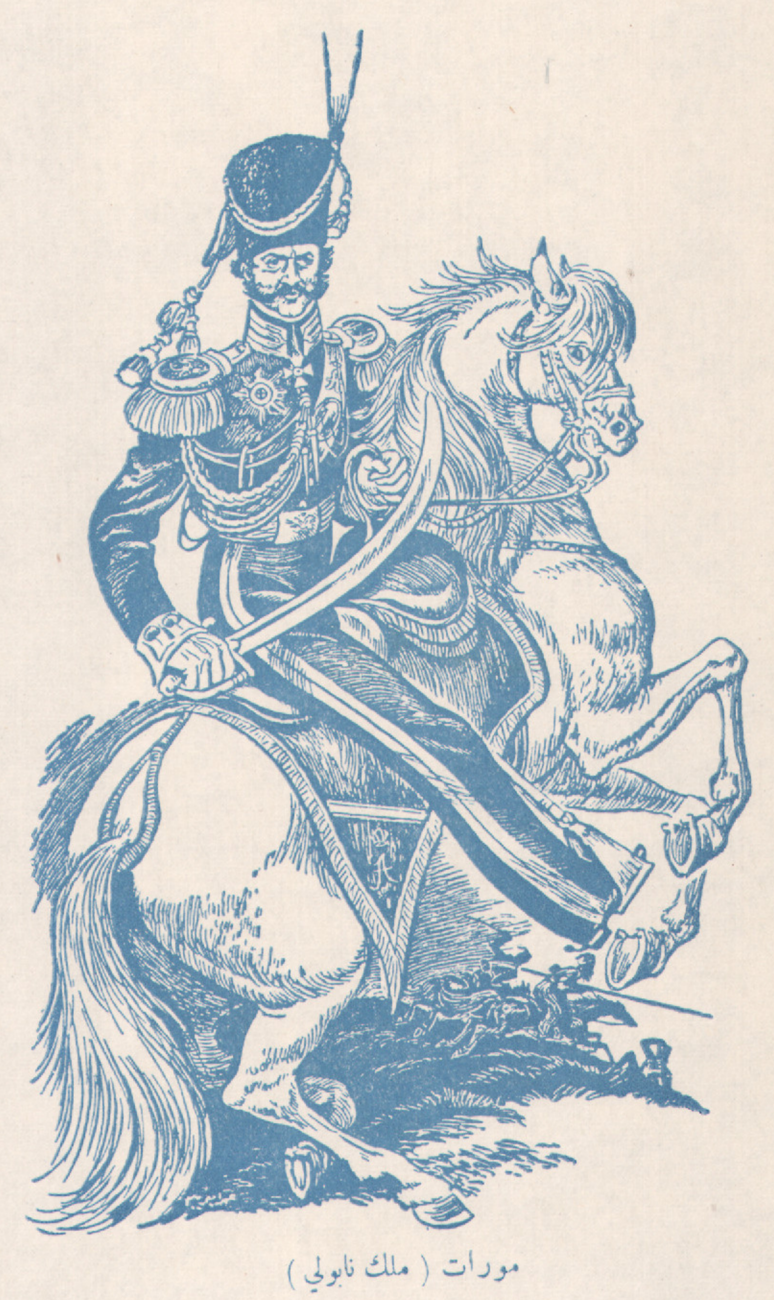
الامير نيقولاس



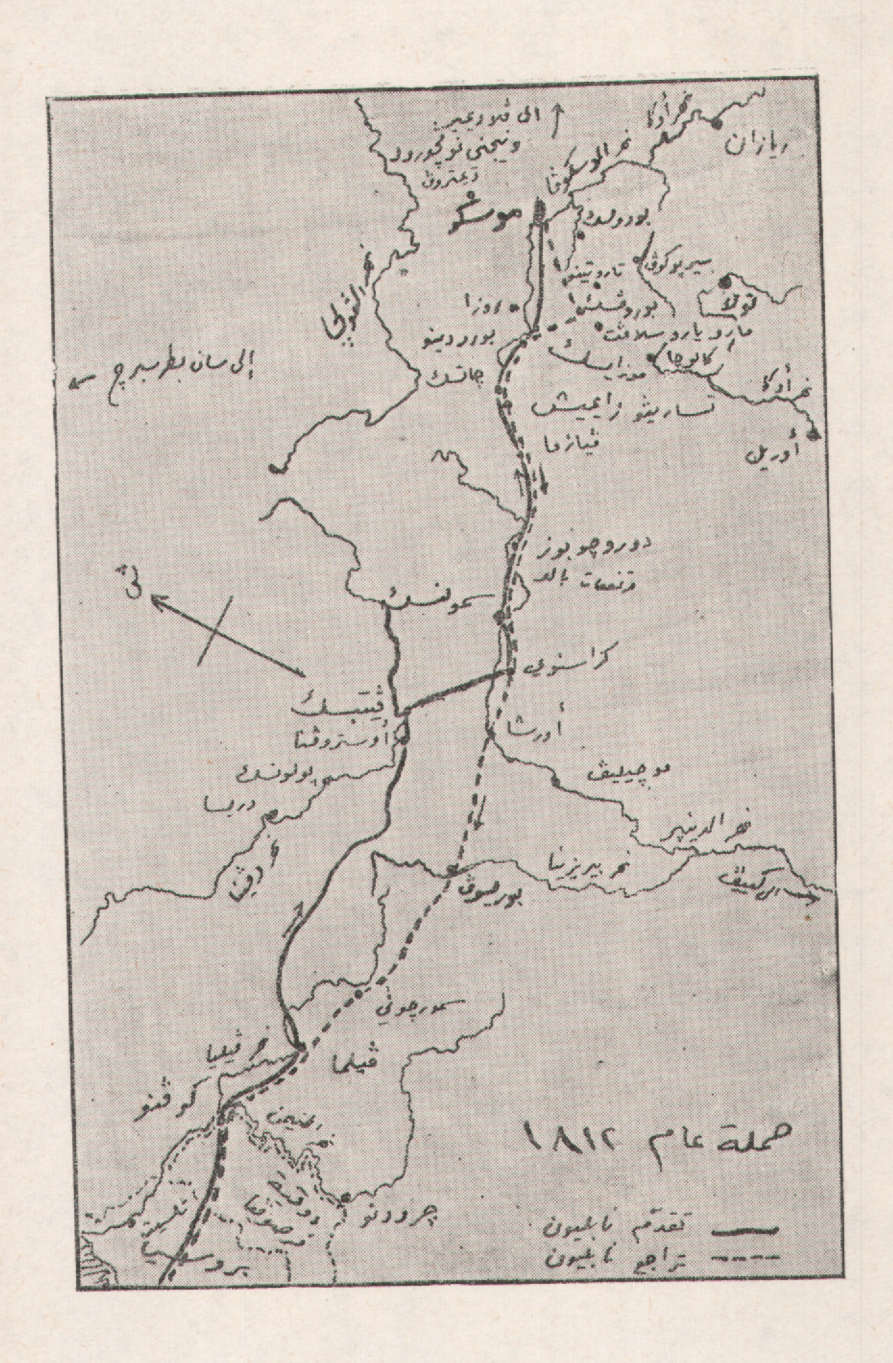
المذنب العظيم عام ١٨١٢



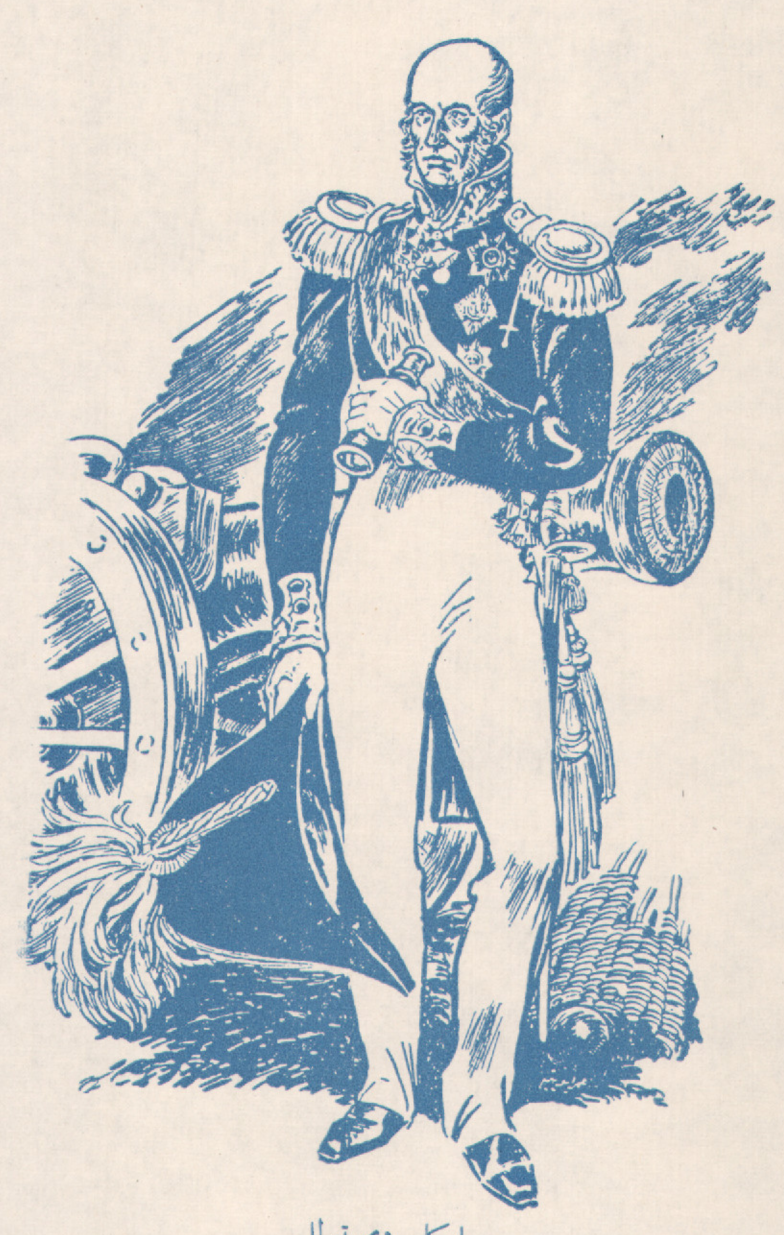
عائلة روستوف في دار الأوبرا



موران (ملك نابولي)



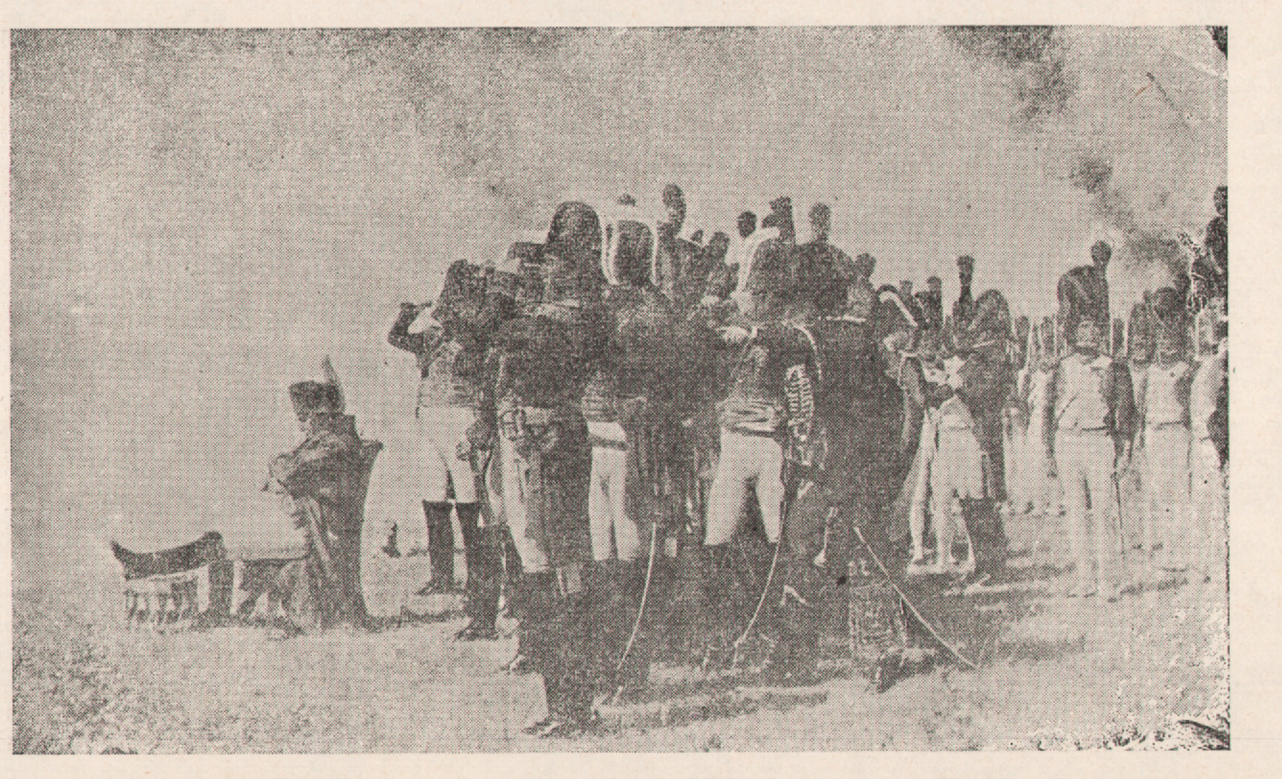
موسكو
ريازان
تولا
كالوغا
اوريل
بورودينو
تاروتينو
ويازما
دوروغوبوز
كراسنويه
اورشا
ويتبسك
موغيليف
بوريسوف
ويلنا
كوفنو
غرودنو
الى سان بطرسبرج
نهر بيريزينا
نهر الدنيپر
حملة عام ۱۸۱۲
تقدم ناپليون
تراجع ناپليون



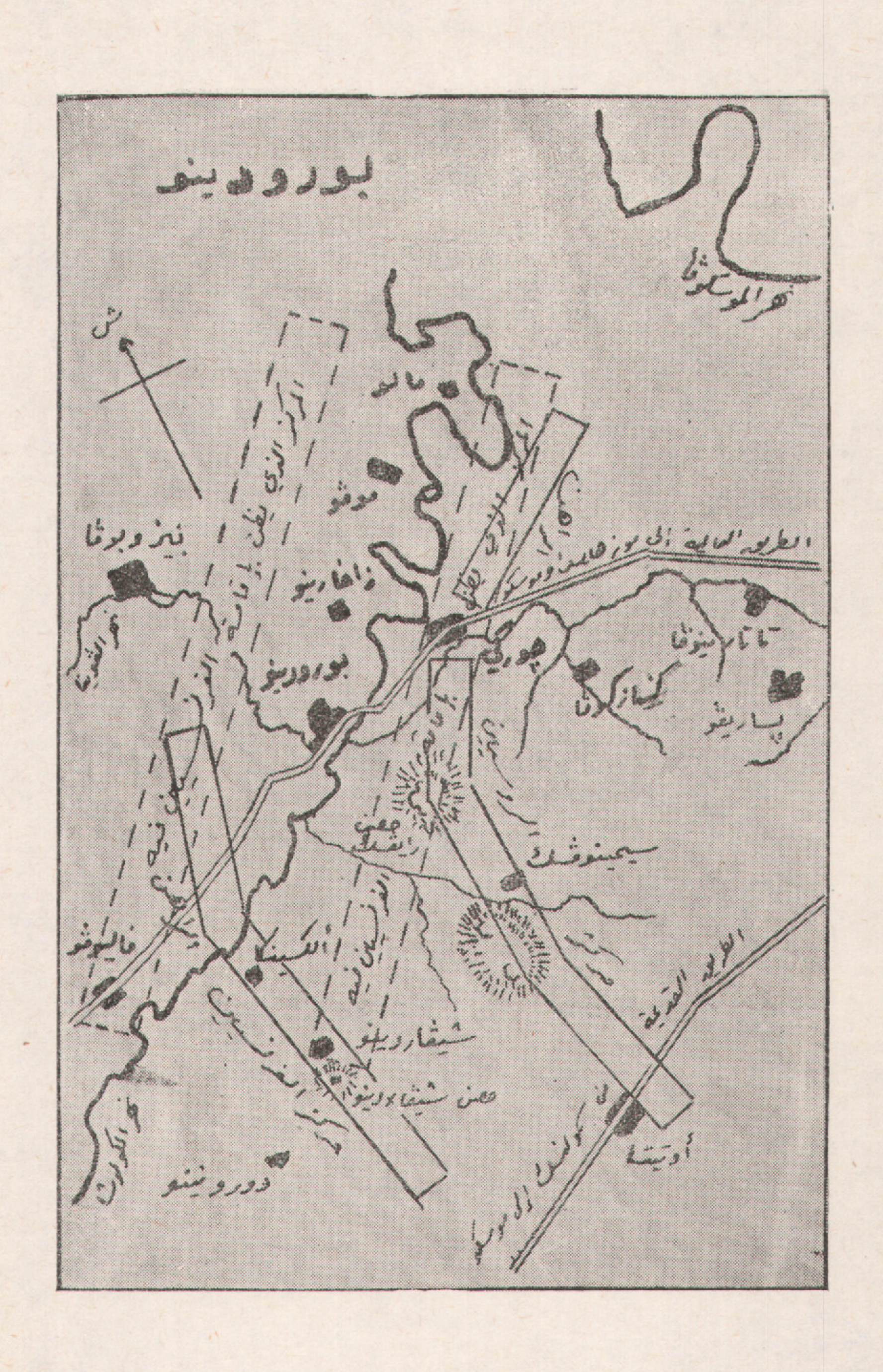
باركلي دي تولي



اطلاق النار على سمولنسك



على مرتفعات بورودينو


بورودينو
نهر الموسكوفا
ش
بورودينو
الطريق العامة الى موزايسك وموسكو
تاتارينوفا
سيمينوفسك
شيفاردينو
حصن شيفاردينو
الطريق القديمة
أوتيتسا



معركة بورودينو .